

اهداءات ٢٠٠١

الدكتور/ القطب محمد طبلية

القاهرة

كتاب الشعب



للحافظ ابن كثير

٧٠٠-٧٧٤هـ

تحقيق

د. محمد ابراهيم البنا — محمد أحمد عاشور — عبد العزيز غنيم

المجلد السابع

دار الشعب

٩٥ شارع قصر العيني بالقاهرة
تليفون ٣١٢٥٥٠

وقوله: (إن إلهكم لواحد) ، هذا هو المقسم عليه : أنه تعالى لا إله إلا هو (رب السموات والأرض وما بينهما) ، أى : من المخلوقات، (ورب المشارق) ، أى : هو المالك المتصرف فى الخلق بتسخيره بما فيه [من] كواكب ثوابت ، وسيارات تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب . واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه . وقد صرح بذلك فى قوله : (فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون) (١) . وقال فى الآية الأخرى : (رب المشرقين ورب المغربين)(٢) ، يعنى : فى الشتاء والصيف ، للشمس والقمر :

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾

يخبر تعالى أنه زيّن السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض (بزينة الكواكب) قرئ بالإضافة وبالبدل ، وكلاهما بمعنى واحد ، فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوءها جرم السماء الشفاف ، فتضىء لأهل الأرض ، كما قال تعالى: (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ، وأعتدنا لهم عذاب السعير)(٣) . وقال : (ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم * إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) (٤) .

وقوله هاهنا : (وحفظاً) ، تقديره : وحفظناها حفظاً ، (من كل شيطان مارد) ، يعنى : المتمرد العاتى إذا أراد أن يسترق السمع ، أتاه شهاب ثاقب فأحرقه ، ولهذا قال : (لا يسمعون إلى الملأ الأعلى) ، أى : لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى ، وهى السموات ومن فيها من الملائكة ، إذا تكلموا بما يوحيه الله مما يقوله من شرعه وقدره، كما تقدم بيان ذلك فى الأحاديث التى أوردناها عند قوله تعالى: (حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحقّ وهو العلى الكبير) (٥)

ولهذا قال: (ويقذفون) ، أى : يرمون (من كل جانب) ، أى: من كل جهة يقصدون السماء منها ، (دحورا) ، أى : رجما يدحرون به ويزجرون ، ويمنعون من الوصول إلى ذلك (ولهم عذاب واصب) ، أى: فى الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجع مستمر ، كما قال : (وأعتدنا لهم عذاب السعير)(٦) .

وقوله : (إلا من خطف الخطفة) ، أى: إلا من اختطف من الشياطين الخطفة ، وهى الكلمة يسمعها من السماء فيلقيها إلى الذى تحته ، ويلقيها الآخر إلى الذى تحته ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها . وربما ألقاها بقدر الله قبل أن

(١) سورة المعارج ، آية : ٤٠ .
(٢) سورة الرحمن ، آية : ١٧ .
(٣) سورة الملك ، آية : ٥ .
(٤) سورة الحجر ، الآيات : ١٦ – ١٨ .
(٥) سورة سبأ ، آية : ٢٣ . وانظر : ٦/٥٠٢ – ٥٠٤ .
(٦) سورة الملك ، آية : ٥ .

يأتيه الشهاب فيحرقه ، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن ، كما تقدم في الحديث ؛ ولهذا قال : (إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) ، أي : مستنير .

قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا وكيع ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كانت للشياطين مقاعد في السماء ، فكانوا يستمعون الوحي . قال : وكانت النجوم لا تجري ، وكانت الشياطين لا ترمى . قال : فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض ، فزادوا في الكلمة تسعاً . قال : فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاء شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه . قال : فشكوا ذلك إلى إبليس ، فقال : ما هو إلا من أمر حدث . قال : فبث جنوده فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي بين جبلي نخلة — قال : وكيع : يعني بطن[1] نخلة — قال : فرجعوا إلى إبليس فأخبروه ، فقال : هذا الذي حدث[2] .

وستأتي الأحاديث الواردة مع الآثار في هذا المعنى عند قوله تعالى إخبارا عن الجن أنهم قالوا : (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ، وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا[3]) ؟

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى : فسل هؤلاء المنكرين للبعث : أيما أشد خلقاً هم أم السموات والأرض ، وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة ؟ — وقرأ ابن مسعود : (أم من عددنا[4]) — فإنهم يقرون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم ، وإذا كان الأمر كذلك فلم ينكرون البعث ؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا ، كما قال تعالى : (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون[5]) .

ثم بين أنهم خلقوا من شيء ضعيف ، فقال : (إنا خلقناهم من طين لازب) ؛

قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والضحاك : هو الجيد الذي يلتزق بعضه ببعض ؛

وقال ابن عباس ، وعكرمة : هو اللزج ؛

وقال قتادة : هو الذي يلزق باليد[6] ؛

(١) بطن نخلة : قرية قريبة من المدينة على طريق البصرة .

(٢) تفسير الطبري : ٢٣/٢٥ .

(٣) سورة الجن ، الآيات : ٨-١٠ .

(٤) البحر المحيط لأبي حيان : ٧/٣٥٤ . وتفسير الطبري : ٢٣/٢٨ .

(٥) سورة غافر ، آية : ٥٧ .

(٦) تفسير الطبري : ٢٣/٢٨ - ٢٩ .

وقوله : (بل عجبت ويسخرون)، أى : بل عجبت ــ يامحمد ــ من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث ، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله به من الأمر العجيب ، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها . وهم بخلاف أمرك ، من شدة تكذيبهم يسخرون [مما تقول لهم من ذلك ؛

قال قتادة : عَجِب محمد صلى الله عليه وسلم (١) ، وسَخِر ضُلاَّل بنى آدم ؛

(وإذا رأوا آية) ، أى : دلالة واضحة على ذلك ، (يستسخرون) ــ قال مجاهد ، وقتادة : يستهزئون ؛

(وقالوا : إن هذا إلا سحر مبين) ، أى : إن هذا الذى جئت به إلا سحر مبين،(أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون) ، يستبعدون ذلك ويكذبون به ، (قل : نعم ، وأنتم داخرون) ، أى : قل لهم يا محمد: نعم تبعثون يوم القيامة بعدماتصيرون ترابا وعظاما ، (وأنتم داخرون) ، أى : حقيرون تحت القدرة العظيمة . كما قال تعالى : (وكلٌّ أتوه داخرين (٢)) . وقال : (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) (٣) .

ثم قال : (فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون) ، أى : إنما هو أمر واحد من الله عز وجل ، يدعوهم دعوة [واحدة] أن يخرجوا من الأرض ، فإذا هم بين يديه ، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة ؛

وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴿٢٦﴾

يخبر تعالى عن قِيلِ الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة،ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم فى الدار الدنيا . فإذا عاينوا أهوال القيامة نَدِموا كلَّ الندم حيث لا ينفعهم الندم ، (وقالوا : يا ويلنا ! هذا يوم الدين)،فتقول لهم الملائكة والمؤمنون: (هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) . وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ ، ويأمر الله الملائكة أن تُمَيِّز الكفار من المؤمنين فى الموقف فى محشرهم ومنشرهم . ولهذا قال تعالى: (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) ــ قال النعمان بن بشير ، رضى الله عنه ــ : يعنى بأزواجهم أشباههم وأمثالهم . وكذا قال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ومجاهد ، والسدى ، وأبو صالح ، وأبو العالية ، وزيد بن أسلم .

وقال سفيان الثورى ، عن سماك ، عن النعمان بن بشير ، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) ، قال : إخوانهم (٤) ؛

---

(١) أثر قتادة كما تفسير الطبرى ٢٩/٢٣ : « عجب محمد عليه السلام من هذا القرآن حين أعطيه ، وسخر منه أهل الضلالة » .
(٢) سورة النمل ، آية : ٨٧ .
(٣) سورة غافر ، آية : ٦٠ .
(٤) تفسير الطبرى ٣١/٢٣ . ولفظه : « قال : ضرباؤهم » .

وقال شريك ، عن [سماك (١)] عن النعمان قال : سمعت عمر يقول : (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) ، قال : أشباههم . قال : يجئ صاحب الربا مع أصحاب الربا ، وصاحب الزنا مع أصحاب الزنا . وصاحب الخمر مع أصحاب الخمر.

وقال خُصَيف ، عن مِقْسَم ، عن ابن عباس : أزواجهم : نساءهم .

وهذا غريب ، والمعروف عنه الأول ، كما رواه مجاهد وسعيد بن جبير ، عنه : أزواجهم : قُرَناءهم .

(وما كانوا يعبدون من دون الله) ، أي : من الأصنام والأنداد ، تحشر معهم في أماكنهم .

وقوله : (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) ، أي : أرشدوهم إلى طريق جهنم . وهذا كقوله تعالى : (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عُميا وبُكما وصُماً ، مأواهم جهنم ، كلما خبت زدناهم سعيرا (٢)) .

وقوله : (وقفوهم إنهم مسؤولون) ، أي : قفوهم حتى يُسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا ، كما قال الضحاك ، عن ابن عباس : يعني احبسوهم إنهم محاسبون .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا النُّفيلي ، حدثنا المعتمر بن سليمان قال : سمعت ليثا يُحدّث عن بشر ، عن أنس ابن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيما داع دعا إلى شئ كان موقوفاً معه إلى يوم القيامة ، لا يغادره ولا يفارقه ، وإن دعا رجل رجلا » . ثم قرأ : (وقفوهم إنهم مسؤولون) .

ورواه الترمذي ، من حديث ليث بن أبي سليم (٣) . ورواه ابن جرير ، عن يعقوب بن إبراهيم ، عن معتمر ، عن ليث ، عن رجل ، عن أنس مرفوعا (٤) .

وقال عبد الله بن المبارك : سمعت عثمان بن زائدة يقول : إن أول ما يُسأل عنه الرجل جلساؤه، ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ : (ما لكم لا تناصرون) ، أي : كما زعمتم أنكم جميع منتصر ، (بل هم اليوم مستسلمون) ، أي: منقادون لأمر الله ، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه .

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة ، كما يتخاصمون في دركات النار ، (فيقول الضعفاء للذين استكبروا :

---

(١) في المخطوطة : « شريك ، عن شريك » . والمثبت عن الطبعات السابقة . وانظر ترجمة « سماك » بن حرب » في التهذيب ، فهو يروي عنه « شريك بن عبد الله » : ٤/٢٣٣ .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٩٧ .

(٣) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة الصافات ، الحديث ٣٢٨١ : ٩/٩٦ ، وقال الترمذي : « هذا حديث غريب » .

(٤) تفسير الطبري : ٢٣/٣٢ .

إنا كنا لكم تبعا ، فهم أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ، قال الذين استكبروا: إنا كل فيها، إن الله قد حكم بين العباد (١) ؛
وقال : (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا: لولا أنتم لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين ، وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب، وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون(٢)) . وهكذا قالوا لهم هاهنا : (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) ــ قال الضحاك، عن ابن عباس: يقولون: كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا، لأنا كنا أذلاء وكنتم أعزاء .

وقال مجاهد : يعني عن الحق ، الكفار تقوله للشياطين (٣) .

وقال قتادة : قالت الإنس للجن : إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين . قال: من قبل الخير ، فتنهونا عنه وتبطئونا عنه (٣) .

وقال السدي : تأتوننا من قبل الحق ، تزينون لنا الباطل، وتصدونا عن الحق (٣) .

وقال الحسن في قوله: (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) ، إي والله يأتيه عند كل خير يريده فيصده عنه .

وقال ابن زيد : معناه تحولون بيننا وبين الخير ، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذي أمرنا به (٤) .

وقال يزيد الرشك : من قبل « لا إله إلا الله » .

وقال خصيف : يعنون من قبل ميامنهم .

وقال عكرمة : (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين)، قال : من حيث نأمنكم .

وقوله : (قالوا : بل لم تكونوا مؤمنين) ، تقول القادة من الجن والإنس للأتباع : ما الأمر كما تزعمون ؟ بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان ، قابلة للكفر [والعصيان] ، (وما كان لنا عليكم من سلطان) ، أي: من حجة على صحة ما دعوناكم إليه ، (بل كنتم قوما طاغين) ، أي : بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق ، فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذي جاءتكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاءوكم به ، فخالفتموهم .

(فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون ، فأغويناكم إنا كنا غاوين)، يقول الكبراء للمستضعفين : حقت علينا كلمة الله : إنا من الأشقياء الذائقين العذاب يوم القيامة ، (فأغويناكم)، أي : دعوناكم إلى الضلالة ، (إنا كنا غاوين)، أي: دعوناكم إلى ما نحن فيه ، فاستجبتم لنا . قال الله تعالى : (فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون) ، أي : الجميع في النار ، كل بحسبه، (إنا كذلك نفعل بالمجرمين ، إنهم كانوا) ، أي : في الدار الدنيا (إذا قيل لهم : لا إله إلا الله ، يستكبرون) ، أي : يستكبرون أن يقولوها ، كما يقولها المؤمنون .

---

(١) سورة غافر ، آية : ٤٧ ، ٤٨ .
(٢) سورة سبأ ، الآيات : ٣١ – ٣٣ .
(٣) تفسير الطبري : ٣٢/٢٣ .
(٤) تفسير الطبري : ٢٣/٣٢ – ٣٣ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب ، حدثنا عمي ،حدثنا الليث ، عن ابن مُسافر – يعني عبد الرحمن بن خالد – عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هُرَيرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله . فمن قال : لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه ، وحسابه على الله . وأنزل الله في كتابه – وذكر قوما استكبروا – فقال: (إنهم كانوا إذا قيل لهم : لا إله إلا الله، يستكبرون) .

وقال ابن أبي حاتم أيضا : حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة موسى بن إسماعيل ، حدثنا حمّاد ، عن سعيد الجُرَيري ، عن أبي العلاء قال : يؤتى باليهود يوم القيامة فيقال لهم : ماكنتم تعبدون ؟ فيقولون : الله وعُزَيراً . فيقال لهم : خذوا ذات الشمال، ثم يؤتى بالنصارى فيقال لهم : ماكنتم تعبدون ؟ فيقولون: نعبد الله والمسيح . فيقال لهم: خذوا ذات الشمال ، ثم يؤتى بالمشركين فيقال لهم : « لا إله إلا الله »، فيستكبرون . ثم يقال لهم: « لا إله إلا الله » ، فيستكبرون . ثم يقال لهم « لا إله إلا الله » فيستكبرون . فيقال لهم: خذوا ذات الشمال – قال أبو نضرة: فينطلقون أسرع من الطير – قال أبو العلاء : ثم يؤتى بالمسلمين فيقال لهم : ماكنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد الله . فيقال لهم : هل تعرفونه إذا رأيتموه ؟ فيقولون : نعم . فيقال لهم: فكيف تعرفونه ولم تروه ؟ قالوا : نعلم أنه لا عِدْلَ له (١) . قال : فيتعرف لهم تبارك وتعالى ، وينجي الله المؤمنين .

(ويقولون : أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون) ، أي : أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول الشاعر المجنون، يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ! قال الله تعالى تكذيبا لهم ، وردّاً عليهم : (بل جاء بالحق)، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بالحق في جميع شرعة الله له من الإخبار والطلب ، (وصدق المرسلين) ، أي: صدّقهم فيما أخبروه عنه من الصفات الحميدة ، والمناهج السديدة . وأخبر عن الله في شرعه وأمره كما أخبروا ، (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك) (٢) ... الآية .

إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى مخاطباً للناس : (إنكم لذائقو العذاب الأليم . وما تجزون إلا ماكنتم تعملون) : ثم استثنى من ذلك عبادَه المخلصين ، كما قال تعالى : (والعصر . إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) (٣) ،

---

(١) أي : لا مثل له ولا نظير .

(٢) سورة فصلت ، آية : ٤٣ .

(٣) سورة العصر ، الآيات : ١ - ٣ .

وقال : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات (١)) ؛ وقال :(وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا * ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا(٢)) . وقال : (كل نفس بما كسبت رهينة ؛ إلا أصحاب اليمين)(٣)، ولهذا قال هاهنا : (إلا عباد الله المخلصين) ، أى : ليسوا يذوقون العذاب الأليم ، ولا يناقشون فى الحساب ، بل يتجاوز عن سيئاتهم ، إن كان لهم سيئات ، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، إلى ما يشاء الله من التضعيف .

وقوله : (أولئك لهم رزق معلوم) — قال قتادة ، والسدى: يعنى الجنة . ثم فسره بقوله تعالى : (فواكه) ، أى : متنوعة (وهم مكرمون) ، أى : يخدمون ويرفهون وينعمون ، (فى جنات النعيم * على سرر متقابلين) — قال مجاهد : لا ينظر بعضهم فى قفا بعض .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يحيى بن عبدك القزوينى ، حدثنا حسان بن حسان، حدثنا إبراهيم بن بشر ، حدثنا يحيى بن معين حدثنا إبراهيم القرشى ، عن سعيد بن شرحبيل ، عن زيد بن أبى أوفى قال : خرج علينا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فتلا هذه الآية : (على سرر متقابلين) ، ينظر بعضهم إلى بعض . حديث غريب .

وقوله : (يطاف عليهم بكأس من معين * بيضاء لذة للشاربين * لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) ، كما قال فى الآية الأخرى : (يطوف عليهم ولدان مخلدون ؛ بأكواب وأباريق وكأس فى معين. لا يصدعون عنها ولا ينزفون(٤)) فنزّه الله خمر الآخرة عن الآفات التى فى خمر الدنيا ، من صداع الرأس ووجع البطن — وهو الغول — وذهابها بالعقل جملة ، فقال هاهنا : (يطاف عليهم بكأس من معين) ، أى : بخمر من أنهار جارية ، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها .

قال مالك ، عن زيد بن أسلم : خمر جارية بيضاء . أى: لونها مشرق حسن بهيّ لا كخمر الدنيا فى منظرها البشع الردىء ، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة (٥) ، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم .

وقوله : (لذة للشاربين) ، أى: طعمها طيب كلونها ، وطيب الطعم دليل على طيب الريح ، بخلاف خمر الدنيا فى جميع ذلك .

وقوله : (لا فيها غول) ، يعنى : لا تؤثر فيهم غولا — وهو وجع البطن . قاله مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد — كما تفعله خمر الدنيا من القُولَنْج(٦) ونحوه ، لكثرة مائيتها .

وقيل : المراد بالغول هاهنا صُداع الرأس . ورُوى هكذا عن ابن عباس .

---

(١) سورة التين ، الآيات : ٤ — ٦ .
(٢) سورة مريم ، آية : ٧١ — ٧٢ .
(٣) سورة المدثر ، آية : ٣٨ ، ٣٩ .
(٤) سورة الواقعة ، الآيات : ١٧ — ١٩
(٥) الكدورة : نقيض الصفاء .
(٦) القولنج — بضم القاف وفتحها ، وكسر اللام وفتحها — : مرض مشهور معوى ، مؤلم جداً ، يعسر معه خروج الثفل والريح . وهى كلمة عجمية .

وقال قتادة : هو صداع الرأس ، ووجع البطن .

وعنه ، وعن السدى : لا تغتال عقولهم (١) : كما قال الشاعر :

فما زالت الكأسُ تغتالُنا وتذهبُ بالأول الأولِ

وقال سعيد بن جبير : لا مكروه فيها ولا أذى . والصحيح قول مجاهد : أنه وَجعُ البطن .

وقوله : (ولا هم عنها ينزفون) ، قال مجاهد : لا تذهب عقولهم . وكذا قال ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، والحسن ، وعطاء بن أبي مسلم الخراسانى ، والسدى ، وغيرهم .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : فى الخمر أربع خصال : السكر ، والصداع ، والقئ ، والبول . فذكر الله خمر الجنة فنزّهها عن هذه الخصال ، كما ذكر فى سورة الصافات .

وقوله : (وعندهم قاصرات الطرف) ، أى : عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن . كذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، وزيد بن أسلم ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم .

وقوله : (عين) ، أى : حسان الأعين : وقيل : ضخام الأعين : وهو يرجع إلى الأول ، وهى النّجلاء العيناء ، فوصف عيونهن بالحسن والعفة ، كقول زليخا فى يوسف حين جمّلته وأخرجته على تلك النسوة ، فأعظمنه وأكبرنه ، وظنن أنه ملك من الملائكة لحسنه وبهاء منظره ، قالت : (فذلكن الذى لمتننى فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم)(٢) ، أى : هو مع هذا الجمال عفيف تقى نقى . وهكذا الحور العين (خيرات حسان) (٣) . ولهذا قال : (وعندهم قاصرات الطرف عين) .

وقوله : (كأنهن بيض مكنون) [وصفهن(٤) ببراقة (٥) الأبدان بأحسن الألوان .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : (كأنهن بيض مكنون)(٦)] ، يقول : اللؤلؤ المكنون (٧) .

وينشد هاهنا بيت أبى دَهْبل الشاعر فى قصيدة له :

وَهْيَ زَهْرَاء مثلُ لُؤْلُؤة الغو اص مُيِّزَتْ من جوهر مَكْنُون

---

(١) إلى هنا ينتهى أثر السدى ، كما فى تفسير الطبرى : ٣٥/٢٣ . ووضع البيت فى هذا السياق مخل ؛ وقد ذكره الطبرى ، ولكن بعد أن قدم له بقوله : « يقول : لا تذهب هذه الخمر بعقول شاربيها ، كما تذهب بها خمور أهل الدنيا إذا شربوها فأكثروا منها ، كما قال الشاعر » وذكر البيت .

(٢) سورة يوسف ، آية : ٣٢ .

(٣) سورة الرحمن ، آية : ٧٠ .

(٤) من هنا وقع سقط فى مخطوطة الأزهر . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٥) كذا ، ولم يقع لنا هذا المصدر .

(٦) إلى هنا ينتهى السقط .

(٧) تفسير الطبرى : ٣٧/٢٣ .

وقال الحسن : (كأنهن بيض مكنون) ، يعني : محصون لم تمسه الأيدى .

وقال السدى : البيض فى عشه مكنون .

وقال سعيد بن جبير : (بيض مكنون) ، يعنى : بطن البيض .

وقال عطاء الخراسانى : هو السّحاء الذى يكون بين قشرته العليا ولباب البيضة .

وقال السدى : (كأنهن بيض مكنون) ، يقول : بياض البيض حين ينزع قشره . واختاره ابن جرير لقوله : (مكنون) ، قال : والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش وتنالها الأيدى بخلاف داخلها ، والله أعلم .

وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب ، حدثنا محمد بن الفرج الصدّفى الدمياطى ، عن عمرو بن هاشم ، عن ابن أبى كريمة ، عن هشام ، عن الحسن ، عن أمه ، عن أم سلمة — رضى الله عنها — قلتُ : يا رسول الله ، أخبرنى عن قول الله : (كأنهن بيض مكنون) . قال : « رقتهن كرقة الجلدة التى رأيتها فى داخل البيضة ، التى تلى القشر ، وهى الغرْقِئ (١) » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو غسّان النهدى ، حدثنا عبد السلام بن حرب ، عن ليث ، عن الربيع بن أنس ، عن أنس — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مُبشّرهم إذا حزنوا ، وأنا شفيعهم إذا حُبِسوا . لواء الحمد يومئذ بيدى ، وأنا أكرم ولد آدم على ربى عز وجل ولا فخر ، يطوف علىّ ألف خادم كأنهن البيض المكنون — أو : اللؤلؤ المكنون » .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ۝٦١ ﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، أى : عن أحوالهم ، وكيف كانوا فى الدنيا ، وماذا كانوا يعانون فيها ؟ وذلك من حديثهم على شرابهم ، واجتماعهم فى تنادمهم وعشرتهم فى مجالسهم ، وهم جلوس على السرُر ، والخدم بين أيديهم ، يسعون ويجيئون بكل خير عظيم ، من مآكل ومشارب وملابس ، وغير ذلك مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر — (قال قائل منهم : إنى كان لى قرين) ، قال مجاهد : يعنى شيطانا .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : هو الرجل المشرك ، يكون له صاحب من أهل الإيمان فى الدنيا (٢) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٣/٣٧ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٣/٣٨ .

ولا تنافى بين كلام مجاهد ، وابن عباس ؛ فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس فى النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاما نسمعه الأذنان ، وكلاهما متعاديان؛ قال الله تعالى : (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) (١) . وكل منهما يوسوس، كما قال تعالى : (من شر الوسواس الخناس . الذى يوسوس فى صدور الناس . من الجنة والناس)(٢) ، ولهذا (قال قائل منهم : إنى كان لى قرين، يقول: أئنك لمن المصدقين)،أى: أأنت تُصدِّق بالبعث والنشور والحساب والجزاء ؟ ! يعنى يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد،والكفر والعناد، (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون) — قال مجاهد ، والسدى : لمحاسبون ؟ وقال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظى : لمجزيون بأعمالنا ؟ وكلاهما صحيح — قال : (قال : هل أنتم مطلعون) ؟ أى : مشرفون . يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة : (فاطلع فرآه فى سواء الجحيم) ، قال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وخُلَيد العَصَرى ،وقتادة ، والسدى ، وعطاء الخراسانى : يعنى فى وسط الجحيم .

وقال الحسن البصرى : فى وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد .

وقال قتادة : ذُكِرَ لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلى . وذُكِرَ لنا أن كعب الأحبار قال: فى الجنة كُوًى إذا أراد أحدٌ من أهلها أن ينظر إلى عدوه فى النار اطلع فيها ، فازداد شكرا .

(قال : تالله إن كدت لتردين) ، يقول المؤمن مخاطبا للكافر : والله إن كدت لتُهلكنى لو أطعتك ، (ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين) ، أى : ولولا فضل الله علىّ لكنتَ مثلكَ فى سواء الجحيم حيث أنت ، محضر معك فى العذاب ،ولكنه تفضل ورَحِمنى فهدانى للإيمان ، وأرشدنى إلى توحيده ، (وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) (٣) .

وقوله : (أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين) ،هذا من كلام المؤمن مُغْبِطاً (٤) نفسه بما أعطاه الله من الخلد فى الجنة والإقامة فى دار الكرامة ، لا موت فيها ولا عذاب ، ولهذا قال: (إن هذا لهو الفوز العظيم) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو عبد الله الظهرانى، حدثنا حفص بن عُمر العدَنى ، حدثنا الحكم بن أبان ، عن عكرمة قال : قال ابن عباس : [رضى الله عنهما ، فى قول الله تبارك وتعالى لأهل الجنة: (كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون) ، قال ابن عباس رضى الله عنهما(٥)] :قوله (هنيئاً)،أى:لا يموتون فيها . فعندها قالوا: (أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين) .

[وقال الحسن البصرى : علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه ، فقالوا: (أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين)] ، قيل : لا . (قالوا : إن هذا لهو الفوز العظيم) .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ١١٢ .
(٢) سورة الناس ، الآيات : ٤ — ٦ .
(٣) سورة الأعراف ، آية : ٤٣ .
(٤) كذا فى المخطوطة ، وهذا تعبير غير سائغ ، فالفعل المتعدى منه ثلاثى .
(٥) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، وانظر الأثر فى الدر المنثور : ٥/٢٧٧ .

وقوله : (لمثل هذا فليعمل العاملون) ـ قال قتادة : هذا من كلام أهل الجنة .

وقال ابن جرير : هو من كلام الله تعالى ، ومعناه : لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون فى الدنيا ، ليصيروا إليه فى الآخرة (١) .

وقد ذكروا قصة رجلين كانا شريكين فى بنى إسرائيل ، تدخل فى ضمن عموم هذه الآية الكريمة :

قال أبو جعفر بن جرير : حدثنى إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد ، حدثنا عتاب بن بشير ، عن خُصَيف ، عن فرات بن ثعلبة البهرانىّ فى قوله : (إنى كان لى قرين) ، قال : إن رجلين كانا شريكين ، فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار ، وكان أحدهما له حرفة ، والآخر ليس له حرفة ، فقال الذى له حرفة للآخر : ليس عندك حرفة ، ما أرانى إلا مفارقك ومقاسمك . فقاسمه وفارقه ، ثم إن الرجل اشترى دارا بألف دينار كانت لملك ، مات ، فدعا صاحبه فأراه فقال : كيف ترى هذه الدار ؟ ابتعتها بألف دينار ؟ قال : ما أحسنها ! فلما خرج قال : « اللهم ، إن صاحبى ابتاع هذه الدار بألف دينار ، وإنى أسألك داراً من دور الجنة » : فتصدق بألف دينار ، ثم مكث ماشاء الله أن يمكث ؛ ثم إنه تزوج بامرأة بألف دينار ، فدعاه وصنع له طعاما ، فلما أتاه قال : إنى تزوجت امرأة بألف دينار ؛ [قال : ما أحسن هذا ! فلما انصرف قال : « يارب ، إن صاحبى تزوج امرأة بألف دينار] ، وإنى أسألك امرأة من الحور العين » : فتصدق بألف دينار ، ثم إنه مكث ما شاء الله أن يمكث . ثم اشترى بستانين بألفى دينار ، ثم دعاه فأراه فقال : إنى ابتعت هذين البستانين . فقال : « ما أحسن هذا » ! فلما خرج قال : «يارب ، إن صاحبى قد اشترى بستانين بألفى دينار ، وأنا أسألك بستانين فى الجنة » . فتصدق بألفى دينار ، ثم إن الملَك أتاهما فتوفاهما ، ثم انطلق بهذا المتصدق ، فأدخله داراً تعجبه ، وإذا امرأة تَطَّلعُ يضئُ ما تحتها من حسنها ، ثم أدخله بستانين وشيئاً الله به عليم ، فقال عند ذلك : ما أشبه هذا برجل كان من أمره كذا وكذا . قال : فإنه ذاك ، ولك هذا المنزل والبستانان والمرأة . قال : فإنه كان لى صاحب يقول : أئنك لمن المصدّقين ؟ قيل له : فإنه فى الجحيم . قال : هل أنتم مطلعون ؟ فاطلع فرآه فى سواء الجحيم . فقال عند ذلك : (تالله إن كدت لتردين . ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين) ... الآيات .

قال ابن جرير : وهذا يقوى قراءة من قرأ : (أئنك لمن المُصَّدّقين) ، بالتشديد (٢) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا عُمَر بن عبد الرحمن الأبّار أبو حفص قال : سألتُ إسماعيلَ السُّدّى عن هذه الآية : (قال قائل منهم : إنى كان لى قرين . يقول : أئنك لمن المصدقين) ؟ قال : فقال لى : ماذكرك هذا ؟ قلت : قرأته آنفا فأحببت أن أسألك عنه ؟ فقال : أمّا فاحفظْ ، كان شريكان فى بنى اسرائيل ، أحدهما مؤمن والآخر كافر ، فافترقا على ستة آلاف دينار ، كل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار ، فمكثا ماشاء الله أن يمكثا ، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن : ماصنعت فى مالك ؟ أضرَبْتَ (٣) به شيئا ؟ أتجرْتَ به فى شىء ؟ فقال له المؤمن : لا ، فما صنعت أنت ؟ فقال : اشتريت به أرضا ونخلا وثمارا وأنهارا . قال : فقال له المؤمن : أو فعلت ؟ قال : نعم . قال : فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ماشاء الله أن يصلى ، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه ، ثم قال : « اللهم ، إن فلانا ـ

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٣/ ٤٠ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٣/ ٣٨ .
(٣) أى : أكسبت به شيئاً ؟

يعنى شريكه الكافر — اشترى أرضا ونخلا وثمارا وأنهارا بألف دينار ، ثم يموت غدا ويتركها ، اللهم ، إنى اشتريت منك بهذه الألف دينار أرضا ونخلا [وثمارا] وأنهارا فى الجنة » . قال : ثم أصبح فقسمها فى المساكين : قال : ثم مكثا ماشاء الله أن يمكثا ، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن : ماصنعت فى مالك ، أضربت به فى شيء ؟ أتجرت به فى شيء ؟ قال : لا ، فما صنعت أنت . قال : كانت ضيعتى قد اشتد على مؤنتها ، فاشتريت رقيقا بألف دينار ، يقومون بى فيها ، ويعملون لى فيها ؛ فقال له المؤمن : أو فعلت ؟ قال : نعم : قال : فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ماشاء الله أن يصلى ، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه ، ثم قال : « اللهم إن فلانا — يعنى شريكه الكافر — اشترى رقيقا من رقيق الدنيا بألف دينار ، يموت غداً ويتركهم ، أو يموتون فيتركونه ، اللهم ، وإنى أشترى منك بهذه الألف الدينار رقيقا فى الجنة » . ثم أصبح فقسمها فى المساكين . قال : ثم مكثا ماشاء الله أن يمكثا ، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن : ماصنعت فى مالك ؟ أضربت به فى شيء ؟ أتجرت به فى شيء ؟ قال : لا ، فما صنعت أنت ؟ قال : أمرى كله قد تم إلا شيئا واحدا ، فلانة قد مات عنها زوجها ، فأصدقتها ألف دينار ، فجاءتنى بها ومثلها معها . فقال له المؤمن : أوفعلت ؟ قال : نعم : فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ماشاء الله أن يصلى ، فلما انصرف أخذ الألف الدينار الباقية ، فوضعها بين يديه ، وقال : « اللهم ، إن فلانا — يعنى شريكه الكافر — تزوج زوجة من أزواج الدنيا فيموت غداً فيتركها ، أو تموت فتتركه ، اللهم وإنى أخطب إليك بهذه الألف الدينار حوراء عيناء فى الجنة » . ثم أصبح فقسمها بين المساكين . قال : فبقى المؤمن ليس عنده شيء : قال : فلبس قميصاً من قطن ، وكساء من صوف ، ثم أخذ مرّاً (١) فجعله على رقبته ، يعمل الشيء ويحفر الشيء بقوته : قال : فجاءه رجل فقال : ياعبد الله ، أتؤاجرنى نفسك مشاهرة ، شهرا بشهر ، تقوم على دواب لى تعلفها وتكنس سرقينها ؟ قال : نعم : قال : فواجره نفسه مشاهرة ، شهراً بشهر ، يقوم على دوابه . قال : فكان صاحب الدواب يغدو كل يوم ينظر إلى دوابه ، فإذا رأى منها دابة ضامرة ، أخذ برأسه فوجأ عنقه ، ثم يقول له : سرقت شعير هذه البارحة ؟ . فلما رأى المؤمن هذه الشدة قال : لآتين شريكى الكافر ، فلأعملن فى أرضه فيطعمنى هذه الكسرة يوما ، ويكسونى هذين الثوبين إذا بليا : قال : فانطلق يريده فلما انتهى إلى بابه وهو ممسى ، فإذا قصر مشيد فى السماء ، وإذا حوله البوابون ، فقال لهم : استأذنوا لى صاحب هذا القصر ، فإنكم إذا فعلتم سره ذلك . فقالوا له : انطلق إن كنت صادقا فنم فى ناحية ، فاذا أصبحت فتعرض له . قال : فانطلق المؤمن ، فألقى نصف كسائه تحته ، ونصفه فوقه ، ثم نام . فلما أصبح أتى شريكه فتعرض له ، فخرج شريكه الكافر وهو راكب ، فلما رآه عرفه فوقف عليه وسلم عليه وصافحه ، ثم قال له : ألم تأخذ من المال مثل ماأخذت ؟ قال : بلى وهذه حالى وهذه حالك ؟ قال : أخبرنى ماصنعت فى مالك ؟ قال : لاتسألنى عنه . قال : فما جاء بك ؟ قال : جئت أعمل فى أرضك هذه ، فتطعمنى هذه الكسرة يوما بيوم ، وتكسونى هذين الثوبين إذا بليا . قال : لا ، ولكن أصنع بك ماهو خير من هذا ، ولكن لاترى منى خيراً حتى تخبرنى ماصنعت فى مالك ؟ [قال : أقرضته] قال : من ؟ قال : المَلىء (٢) الوفىّ . قال : من ؟ قال : الله ربى . قال وهو مصافحه ، فانتزع يده من يده ، ثم قال : (أئنك لمن المصدقين : أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون) — قال السدى : محاسبون — قال : فانطلق الكافر وتركه . قال : فلما رآه المؤمن ليس يلوى عليه ، رجع وتركه ، يعيش المؤمن فى شدة من الزمان ، ويعيش الكافر فى رخاء من الزمان : قال : فإذا كان يوم القيامة

---

(١) المر — بفتح الميم — : الحبل .

(٢) المليء : الغنى .

وأدخل الله المؤمن الجنة ، يتمشّى فإذا هو بأرض ونخل وثمار وأنهار ، فيقول : لمن هذا ؟ فيقال : هذا لك ؛ فيقول : ياسبحان الله : أو بلغ من فضل عملي أن أثاب بمثل هذا ؟ ! قال : ثم يمر ! فإذا هو ! بروقيق لاتحصى عدتهم ، فيقول : لمن هذا ؟ فيقال : هؤلاء لك . فيقول : ياسبحان الله ؛ أو بلغ من فضل عملي أن أثاب بمثل هذا ؟ ! قال : ثم يمر فإذا هو بقبة ! من [ياقوتة] حمراء مجوفة ، فيها حوراء عيناء ، فيقول : لمن هذه ؟ فيقال : هذه لك . فيقول : ياسبحان الله ! أو بلغ من فضل عملي أن أثاب بمثل هذا ؟ ! قال : ثم يذكر المؤمن شريكه الكافر فيقول : (إني كان لي قرين . يقول : أئنك لمن المصدقين . أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون) — قال : فالجنة عالية ، والنار هاوية . قال : فيريه الله شريكه في وسط الجحيم ، من بين أهل النار ، فإذا رآه المؤمن عرفه ، فيقول : (تالله إن كدت لتردين . ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين . أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين . إن هذا لهو الفوز العظيم . لمثل هذا فليعمل العاملون) : بمثل مامَنّ عليه . قال : فيتذكر المؤمن مامرّ عليه في [الدنيا من الشدة] ، فلا يذكر مما مر عليه في الدنيا من الشدة ، أشدّ عليه من الموت (١) .

أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾

يقول الله تعالى : أهذا الذي ذكره من نعيم الجنة وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ خيرٌ ضيافةً وعطاءً (أم شجرة الزقوم) ؟ أي : التي في جهنم .

وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة ، كما قال بعضهم من أنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محالّ جهنم ، كما أن شجرةَ طوبى مامن دار في الجنة إلا وفيها منها غصن .

وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر ، يقال له : الزقوم ، كقوله تعالى : (وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ (٢) للآكلين) ، يعني الزيتونة . ويؤيد ذلك قوله تعالى : (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم (٣)) .

وقوله : (إنا جعلناها فتنة للظالمين) ، قال قتادة : ذُكرت شجرة الزقوم ، فافتتن بها أهل الضلالة ، وقالوا : صاحبكم ينبئكم أن في النار شجرةً ، والنار تأكل الشجر ، فأنزل الله عز وجل : (إنها شجرة تخرج في اصل الجحيم) ، غُذيت من النار ، ومنها خلقت (٤) .

وقال مجاهد : (إنا جعلناها فتنة للظالمين) ، قال أبو جهل لعنه الله : إنما الزقوم التمر والزبد أتزقمه (٤)

---

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور عن ابن أبي حاتم : ٥/٢٧٥ — ٢٧٦ .

(٢) سورة « المؤمنون » آية : ٢٠ .

(٣) سورة الواقعة « آية » ٥١ ، ٥٢ .

(٤) تفسير الطبري : ٢٣/٤١ .

قلت : ومعنى الآية : إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختبارا نختبر به الناس ، من يصدق منهم ممن يكذب ، كقوله تعالى . (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ، والشجرة الملعونة فى القرآن ، ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا)[1] .

وقوله : (إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم) ، أى : أصل منبتها فى قرار النار ، (طلعها كأنه رءوس الشياطين) تبشيع وتكريه لذكرها .

قال وهب بن منبه : شعور الشياطين قائمة إلى السماء .

وإنما شبهها برءوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين ، لأنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر .

وقيل : المراد بذلك ضرب من الحيات ، رءوسها بشعة المنظر .

وقيل : جنس من النبات ، طلعه فى غاية الفحاشة .

وفى هذين الاحتمالين نظر ، وقد ذكرهما ابن جرير ، والأول أقوى وأولى ، والله أعلم .

وقوله : (فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون) ، ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التى لا أبشع منها ، ولا أقبح من منظرها ، مع ما هى عليه من سوء الطعم والريح والطبع ، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها ، لأنهم لا يجدون إلا إياها ، وما فى معناها ، كما قال : (ليس لهم طعام إلا من ضريع . لا يسمن ولا يغنى من جوع) .

وقال ابن أبى حاتم رحمه الله : حدثنا أبى ، حدثنا عمرو بن مرزوق ، حدثنا شعبة ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن ابن عباس — رضى الله عنهما — : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ، وقال : « اتقوا الله حق تقاته ، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا ، لأفسدت على أهل الأرض معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامه ؟ » .

ورواه الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، من حديث شعبة ، وقال الترمذى : « حسن صحيح[2] » .

وقوله تعالى : (ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم) ، قال ابن عباس : يعنى شرب الحميم على الزقوم[3] .

وقال فى رواية عنه : (شوبا من حميم) ، مزجا من حميم[3] .

وقال غيره : يعنى يمزج لهم الحميم بصديد وغساق ، مما يسيل من فروجهم وعيونهم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا حيوة بن شريح الحضرمى ، حدثنا بقية بن الوليد ، عن صفوان بن عمرو ، أخبرنى عبيد الله بن بسر[4] عن أبى أمامة الباهلى — رضى الله عنه — عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — أنه كان يقول : « يقرب — يعنى إلى أهل النار — ماء فيتكرهه ، فإذا أدنى منه شوى وجهه ، ووقعت فروة رأسه فيه . فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره » .

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ٦٠ .

(٢) تحفة الأحوذى ، أبواب صفة جهنم ، باب « ما جاء فى شراب أهل النار » ، الحديث ٢٧١١ : ٧/٣٠٧ – ٣٠٨ وقال الترمذى : « هذا حديث صحيح » . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « فى صفة النار » ، الحديث ٤٣٢٥ : ٢/٣٧ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٣/٤٢ .

(٤) فى المخطوطة : « عبيد بن بشر » ، ولم نجده ، والمثبت من ترجمة « عبيد الله بن بسر » فى التهذيب ٧/٤ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن رافع ، حدثنا يعقوب بن عبد الله ، عن جعفر وهارون بن عنترة ، عن سعيد بن جبير قال : إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم ، فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم ، فلو أن ماراً مر بهم يعرفهم لعرف وجوههم فيها ، ثم يصب عليهم العطش ، فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل — وهو الذى قد انتهى حره — فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حرّه لحومُ وجوههم التى قد سقطت عنها الجلود ، ويصهر ما فى بطونهم ، فيمشون [تسيل] أمعاؤهم وتتساقط جلودهم ، ثم يضربون بمقامع من حديد ، فيسقط كل عضو على حياله ، يدعون بالثبور .

وقوله : (ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم)،أى: ثم إن مَرَدّهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج ، وجحيم تتوقد ، وسعير تتوهج ، فتارة فى هذا وتارة فى هذا ، كما قال تعالى : (يطوفون بينها وبين حميم آن) .(١) . هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية(٢) ، وهو تفسير حسن قوى .

وقال السدى فى قراءة عبد الله : (ثم إن مقيلهم(٣) لإلى الجحيم) : وكان عبد الله يقول : والذى نفسى بيده لاينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة فى الجنة،وأهل النار فى النار . ثم قرأ :(أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا)

وروى الثورى ، عن ميسرة ، عن المنهال بن عمرو ، عن أبي عبيدة ، عن عبد الله قال : لاينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء ويقيل هؤلاء . قال سفيان:أراه،ثم قرأ :(أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) ، (ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم (٤))

قلت : على هذا التفسير تكون « ثم » عاطفة لخبر على خبر .

وقوله:(إنهم ألفوا آباءهم ضالين)،أى: إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك، من غير دليل ولا برهان ، ولهذا قال : (فهم على آثارهم يُهرَعون) ، قال مجاهد : شبيهة بالهرولة . وقال سعيد بن جبير : يَسْفَهُون .

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى ، وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين ، ينذرون بأس الله ، ويحذرونهم سطوته ونقمته ، ممن كفر به وعبد غيره ، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم ، فأهلك المكذبين ودَمَّرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفّرهم، ولهذا قال: (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين.إلا عباد الله المخلصين) .

(١) سورة الرحمن ، آية : ٤٤ .

(٢) تفسير الطبرى : ٤٢/٢٣ .

(٣) فى تفسير الطبرى : « منقلبهم » . والصواب ما هنا ، وانظر الدر المنثور : ٥/٢٧٨ .

(٤) انظر هذا الأثر عند تفسير الآية الرابعة والعشرين من سورة الفرقان : ٦/١١٣ .

وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة ، شرع يُبَيِّن ذلك مُفَصَّلا ، فذكر نوحا عليه السلام وما لقى من قومه من التكذيب ، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة ، لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم ، وكلما دعاهم ازدادوا نَفْرَة ، فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ، فغضب الله لغضبه عليهم ، ولهذا قال : (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون) أى : فلنعم المجيبون له ، (ونجيناه وأهله من الكرب العظيم) ، وهو التكذيب والأذى ، (وجعلنا ذريته هم الباقين) — قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس يقول : لم تبق إلا ذرية نوح عليه السلام (١) .

وقال سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة فى قوله : (وجعلنا ذريته هم الباقين) ، قال : الناس كلهم من ذرية نوح .

وقد روى الترمذى ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم ، من حديث سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : (وجعلنا ذريته هم الباقين) ، قال : سام ، وحام ، ويافث (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الوهاب ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة : أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال : « سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم (٣) » .

ورواه الترمذى عن بشر بن معاذ العَقَدىّ ، عن يزيد بن زُرَيع ، عن سعيد — وهو ابن أبى [عروبة ، عن قتادة ، به (٤) .

قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر : وقد روى عن عمران بن حصين ، عن النبى — صلى الله عليه وسلم — مثله .

والمراد بالروم هاهنا : هم الروم الأول ، وهم اليونان المنتسبون إلى رومى بن ليطى بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام .

ثم روى من حديث إسماعيل بن عياش ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال : ولد نوح ثلاثة : سام وحام ويافث ، وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة ، فولد سامُ العربَ وفارسَ والروم ، وولد يافثُ الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج ، وولد حامُ القبطَ والسودان والبربر . ورَوى عن وهب بن منبه نحو هذا ، والله أعلم .

وقوله : (وتركنا عليه فى الآخرين) ، قال ابن عباس : يذكر بخير (٥) .

وقال مجاهد : يعنى لسان صدق للأنبياء كلهم

---

(١) تفسير الطبرى : ٤٣/٢٣ .

(٢) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الصافات ، الحديث ٣٢٨٣ : ٩٧/٩ – ٩٨ ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث سعيد بن بشير » .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٩/٥ .

(٤) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الصافات ، الحديث ٣٢٨٤ : ٩٨/٩ .

(٥) تفسير الطبرى : ٤٣/٢٣ .

وقال قتادة ، والسدى : أبقى الله عليه [الثناء الحسن فى الآخرين .

قال الضحاك : السلام والثناء الحسن .

وقوله تعالى : (سلام على نوح فى العالمين) ، مفسر لما أبقى عليه] من الذكر الجميل والثناء الحسن : أنه يسلم عليه فى جميع الطوائف والأمم .

(إنا كذلك نجزى المحسنين) ، أى : هكذا نجزى من أحسن من العباد فى طاعة الله ، نجعل له لسان صدق يذكر به بعده بحسب مرتبته فى ذلك .

ثم قال : (إنه من عبادنا المؤمنين) ، أى : المصدقين الموحدين الموقنين ، (ثم أغرقنا الآخرين) ، أى : أهلكناهم ، فلم تبق منهم عين تطرف ، ولا ذكر لهم ولا عين ولا أثر ، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة .

* وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (وإن من شيعته لإبراهيم) ، يقول : من أهل دينه[1] .

وقال مجاهد : على منهاجه وسنته .

(إذا جاء ربه بقلب سليم) ، قال ابن عباس : يعنى شهادة أن لا إله إلا الله .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن عوف : قلت لمحمد بن سيرين : ما القلب السليم؟ قال : يعلم أن الله حق ، وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور .

وقال الحسن : سليم من الشرك .

وقال عروة : لايكون لعانا .

وقوله : (إذ قال لأبيه وقومه : ماذا تعبدون)؟! أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد ، ولهذا قال : أئفكا آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين) ـــ قال قتادة : ماظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟ !

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾

إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك ، ليقيم فى البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم ، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم ، فأحب أن يختلى بآلهتهم فيكسروها ، فقال لهم كلاما هو حق فى نفس الأمر ، فهموا منه أنه سقيم على

(١) تفسير الطبرى : ٢٣/٤٤ .

مقتضى مايعتقدونه ، (فتولوا عنه مدبرين) – قال قتادة : والعرب تقول لمن تفكر : نظر فى النجوم ؛ يعنى قتادة أنه نظر فى السماء متفكرا فيما يلهيهم به ، فقال : (إنى سقيم) ، أى : ضعيف .

فأما الحديث الذى رواه ابن جرير هاهنا :

حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنى هشام ، عن محمد ، عن أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات : ثنتين فى ذات الله ، قوله : (إنى سقيم) ، وقوله : (بل فعله كبيرهم هذا) ، وقوله فى سارة : « هى[1] أختى »

فهو حديث مخرج فى الصحاح[2] والسنن من طرق ، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقى الذى يذم فاعله ، حاشا وكلا . وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزا ، وإنما هو من المعاريض فى الكلام لمقصد شرعى دينى ، كما جاء فى الحديث : « إن المعاريض لمندوحة عن الكذب

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن ابى عمر، حدثنا سفيان، عن على بن زيد بن جدعان ، عن أبى نَضْرَةَ ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كلمات إبراهيم الثلاث التى قال – : مامنها كلمة إلا ماحَلَ بها عن دين الله تعالى، (فقال : إنى سقيم)، وقال :(بل فعله كبيرهم هذا)، وقال للملك حين أراد المرأة : هى أختى .

قال سفيان فى قوله : (إنى سقيم) ، يعنى : طعين . وكانوا يفرون من المطعون ، فأراد أن يخلو بآلهتهم . وكذا قال العوفى ، عن ابن عباس : (فنظر نظرة فى النجوم . فقال : إنى سقيم) ، فقالوا له وهو فى بيت آلهتهم : اخرج . فقال : إنى مطعون . فتركوه مخافة الطاعون .

وقال قتادة ، عن سعيد بن المسيب : رأى نجما طلع فقال : (إنى سقيم) كابد نبى الله عن دينه (فقال إنى[3] سقيم) .

وقال آخرون : (فقال : إنى سقيم) بالنسبة إلى مايستقبل ، يعنى مرض الموت .

وقيل : أراد (إنى سقيم) ، أى : مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله عز وجل .

وقال الحسن البصرى : خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم ، فأرادوه على الخروج ، فاضطجع على ظهره وقال : (إنى سقيم)، وجعل ينظر فى السماء ، فلما خرجوا أقبل إلى آلهتهم فكسرها . رواه ابن أبى حاتم .

ولهذا قال تعالى : (فتولوا عنه مدبرين) ، أى : إلى عيدهم ، (فراغ إلى آلهتهم) ، أى : ذهب إليها بعد أن خرجوا فى سرعة واختفاء ، (فقال : ألا تأكلون ؟) ، وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاما قربانا لتُبَرِّكَ لهم فيه .

قال السدى : دخل إبراهيم – عليه السلام – إلى بيت الآلهة ، فإذا هم فى بهو عظيم ، وإذا مستقبل باب البهو صنم عظيم ، إلى جنبه أصغر منه ، بعضها إلى جنب بعض ، كل صنم يليه أصغر منه ، حتى بلغوا باب البهو ، وإذا هم قد جعلوا طعاما وضعوه بين أيدى الآلهة ، وقالوا : إذا كان حين نرجع وقد بَرَّكَت الآلهةُ فى طعامنا أكلنا ، فلما نظر إبراهيم – عليه السلام – إلى مابين أيديهم من الطعام قال : (ألا تأكلون . مالكم لاتنطقون) ؟ !

(١) تفسير الطبرى : ٢٣/٤٥ .

(٢) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية الثالثة من سورة الأنبياء ، انظر : ٥/٣٤٣ – ٣٤٤ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٣/٤٥ .

وقوله : (فراغ عليهم ضربا باليمين) ـ قال الفراء : معناه مال عليهم ضربا باليمين[١] ؛

وقال قتادة والجوهرى : فأقبل عليهم ضربا باليمين .

وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى ، ولهذا تركهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون ، كما تقدم فى سورة الأنبياء تفسير ذلك[٢] ؛

وقوله هاهنا : (فأقبلوا إليه يزفون) ـ قال مجاهد وغير واحد : أى يسرعون ؛

وهذه القصة هاهنا مختصرة ، وفى سورة الأنبياء مبسوطة ، فإنهم لما رجعوا ماعرفوا من أول وهلة من فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا ، فعرفوا أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو الذى فعل ذلك . فلما جاءوا ليعاتبوه أخذ فى تأنيبهم وعَيْبهم ، فقال: (أتعبدون ماتنحتون) ؟! أى : أتعبدون من دون الله من الأصنام ماأنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم ؟! (والله خلقكم وما تعملون) ، يحتمل أن تكون « ما » مصدرية ، فيكون تقدير الكلام : والله خلقكم [وعَمَلكم . ويحتمل أن تكون بمعنى « الذى » تقديره : والله خلقكم] والذى تعملونه . وكلا القولين متلازم ، والأول أظهر ؛ لما رواه البخارى فى كتاب « أفعال العباد » ، عن على بن المدينى ، عن مروان بن معاوية ، عن أبى مالك ، عن ربْعِىّ بن حِرَاش ، عن حذيفة مرفوعا قال : « إن الله يصنع كل صانع وصنعته » . وقرأ بعضهم : (والله خلقكم وما تعملون[٣]) .

فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر ، فقالوا : (ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم) ؛ وكان من أمرهم ماتقدم بيانه فى سورة الأنبياء ، ونجاه الله من النار وأظهره عليهم ، وأعلى حجته ونصرها ، ولهذا قال تعالى : (وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين) ؛

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

يقول تعالى مخبرا عن خليله إبراهيم : أنه بعد ما نصره الله على قومه وأيس من إيمانهم بعدما شاهدوا من الآيات العظيمة ، هاجر من بين أظهرهم ، وقال : (إنى ذاهب إلى ربى سيهدين . رب هب لى من الصالحين) ، يعنى : أولادا

(١) معانى القرآن للفراء : ٢/٣٨٨ . ولفظه : « مال عليهم ضربا » . ونحسب أن كلمة « باليمين » زيادة من الناسخ .
(٢) انظر : ٥/٣٤٣ .
(٣) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور من البخارى ، والحاكم ، والبيهقى : ٥/٢٧٩ .

مطيعين عوَضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم . قال الله تعالى : (فبشرناه بغلام حليم) : وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام ، فانه أولُ ولد بشر به إبراهيم عليه السلام — وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل فى نص كتابهم أن إسماعيل ولد ولإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعُمْر إبراهيم تسع وتسعون سنة . وعندهم أن الله — تعالى — أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده ، وفى نسخة : بكْره،فأقحموا هاهنا كذبا وبهتانا « إسحاق »، ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم ، وإنما أقحموا « إسحاق » لأنه أبوهم،وإسماعيل أبو العرب ، فحسدوهم،فزادوا ذلك وحرّفوا وحيدك ، بمعنى الذى ليس عندك غيره ، فان إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى جنب مكة . وهذا تأويل وتحريف باطل ، فانه لا يقال « وحيد » إلا لمن ليس له غيره ، وأيضا فان أول ولد [له معزة](١) ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ فى الابتلاء والاختبار .

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق ، وحكى ذلك عن طائفة من السلف ، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضا ، وليس ذلك فى كتاب ولا سنة ، وما أظن ذلك تُلُقِّى إلا عن أحبار أهل الكتاب ، وأخذ ذلك مسلما من غير حجة . وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل ، فانه ذكر البشارة بالغلام الحليم ، وذكر أنه الذبيح ، ثم قال بعد ذلك : (وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين) . ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا : (إنا نبشرك بغلام عليم (٢)) ؛ وقال تعالى : (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب(٣)) ، أى : يولد له فى حياتهما ولد يسمى يعقوب، فيكون من ذريته عقب ونسل . وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير ، لأن الله قد وعدهما بأنه سيعقب ، ويكون له نسل ، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيرا ، وإسماعيل وصف هاهنا بالحلْم ؛ لأنه مناسب لهذا المقام .

وقوله : (فلما بلغ معه السعى) ، أى : كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشى معه . وقد كان إبراهيم — عليه السلام — يذهب فى كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد « فاران(٤) » وينظر فى أمرهما ، وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعا إلى هناك ، فالله أعلم .

وعن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وعطاء الخراسانى ، وزيد بن أسلم ، وغيرهم : (فلما بلغ معه السعى) ، بمعنى : شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعى والعمل ، (فلما بلغ معه السعى قال : يا بنى ، إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى) — [قال عبيد بن عمير : رؤيا الأنبياء وحى ، ثم تلا هذه الآية : (قال : يا بنى ، إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى] .

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين بن الجنيد، [حدثنا] أبو عبد الملك الكرندى(٥)، حدثنا سفيان بن عيينة، عن إسرائيل بن يونس ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رؤيا الأنبياء فى المنام وحى » . ليس هو فى شىء من الكتب الستة من هذا الوجه .

---

(١) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، ومكانه فى المخطوطة كلمة غير واضحة .
(٢) سورة الحجر ، آية : ٥٣ .
(٣) سورة هود ، آية : ٧١ .
(٤) فاران : كلمة عبرانية معربة ، وهى من أسماء مكة ، قيل : هو اسم لجبال مكة (ياقوت) .
(٥) كذا فى المخطوطة .

وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه ، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله وطاعة أبيه :

(قال : يا أبت ، افعل ماتؤمر) ، أى : امض لما أمرك الله من ذبحى ، (ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) ، أى : سأصبر وأحتسبه ذلك عند الله عز وجل . وصدق ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ فيما وعد ، ولهذا قال الله تعالى : (واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا(١)) .

قال الله تعالى : (فلما أسلما وتله للجبين) ، أى : فلما تشهدا وذكرا الله تعالى : إبراهيم على الذبح والولد على شهادة الموت : وقيل : (أسلما) ، استسلما وانقادا : إبراهيم امتثل أمرَ الله ، وإسماعيل طاعة الله وأبيه . قاله مجاهد، وعكرمة والسدى ، وقتادة ، وابن إسحاق ، وغيرهم .

ومعنى (تله للجبين) ، أى : صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه ، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ، ليكون أهون عليه :

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، وقتادة : (وتله للجبين) : أكبه على وجهه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سُرَيج ويونس قالا : حدثنا حماد بن سلمة ، عن أبى عاصم الغَنَوىّ، عن أبى الطفيل ، عن ابن عباس أنه قال : لما أمر إبراهيم بالمناسك عرَض له الشيطان عند المسعى ، فسابقه فسبقه إبراهيم ، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة ، فعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات ، وثَمّ تلّه للجبين ، وعلى إسماعيل قميص أبيض، فقال له : يا أبت ، إنه ليس لى ثوب تكفننى فيه غيره، فاخلعه حتى تكفِّننى فيه . فعالجه ليخلعه، فنُودِىَ من خلفه : (أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا) ، فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين ــ قال ابن عباس : لقد رأيتنا نتّبع (٢) ذلك الضرب من الكباش (٣) .

وذكر تمام الحديث فى « المناسك » بطوله . ثم رواه أحمد بطوله عن يونس ، عن حماد بن سلمة ، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، فذكر نحوه إلا أنه قال : « إسحاق » . فعن ابن عباس فى تسمية الذبيح روايتان ، والأظهر عنه إسماعيل لما سيأتى بيانه .

وقال محمد بن إسحاق ، عن الحسن بن دينار، عن قتادة ، عن جعفر بن إياس ، عن ابن عباس فى قوله : (وفديناه بذبح عظيم) ، قال : خرج عليه كبش من الجنة . قد رعى(٤) قبل ذلك أربعين خريفاً ، فأرسل إبراهيم ابنه واتبع الكبش ، فأخرجه إلى الجمرة الأولى ، فرماه بسبع حصيات فأفلته عندها ، فجاء الجمرةَ الوسطى فأخرجه عندها ، فرماه بسبع حصيات ثم أفلته [فأدركه عند] الجمرة الكبرى ، فرماه بسبع حصيات فأخرجه عندها . ثم أخذه ، فأتى به المنحر من منى فذبحه ، فوالذى نفسُ ابن عباس بيده لقد كان أولَ الإسلام ، وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه فى ميزاب الكعبة قد [حَشّ] يعنى : يبس(٥) .

---

(١) سورة مريم ، آية : ٥٤ ، ٥٥ .
(٢) فى المسند : « نتبع » . وفى تفسير الطبرى ٢٣/ ٥١ : « نتتبع » .
(٣) مسند الإمام أحمد : ١/ ٢٩٧ .
(٤) فى تفسير الطبرى : « رعاها » .
(٥) تفسير الطبرى : ٢٣/ ٥٦ . وما بين القوسين عنه .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن الزهرى : أخبرنا القاسم قال : اجتمع أبو هريرة وكعب ، فجعل أبو هريرة يحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وجعل كعب يحدث عن الكُتُب ، فقال أبو هريرة : قال النبى صلى الله عليه وسلم : إن لكل نبى دعوة مستجابة ، وإنى قد خبأتُ دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة . فقال له كعب : أنت سمعتَ هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . قال : فداك أبى وأمى — أو : فداه أبى وأمى — أفلا أخبرك عن إبراهيم عليه السلام ؟ إنه لما أُرِىَ ذَبْحَ ابنه إسحاق قال الشيطان : إن لم أفتن هؤلاء عند هذه لم أفتنهم أبدا . فخرج إبراهيم بابنه ليذبحه ، فذهب الشيطان فدخل على سارة ، فقال : أين ذهب إبراهيم بابنك ؟ قالت : غدا به لبعض حاجته . قال : لم يغد لحاجة ، وإنما ذهب به ليذبحه . قالت : ولِـمَ يذبحه ؟ قال : زعم أن ربه أمره بذلك . قالت : فقد أحسن أن يطيع ربه . فذهب الشيطان فى أثرهما فقال للغلام : أين يذهب بك أبوك ؟ قال : لبعض حاجته . قال : إنه لايذهب بك لحاجة ، ولكنه يذهب بك ليذبحك . قال : ولم يذبحنى ؟ قال : زعم أن ربه أمره بذلك . قال : فوالله لئن كان الله أمره بذلك ليفعلن . قال : فيئس منه فلحق بإبراهيم ، فقال : أين غدوت بابنك ؟ قال : لحاجة . قال : فإنك لم تغد به لحاجة ، وإنما غدوت به لتذبحه . قال : ولِمَ أذبحه ؟ قال : تزعم أن ربك أمرك بذلك . قال : فوالله لئن كان الله أمرنى بذلك لأفعلن . قال : فتركه ويئس أن يطاع .

وقد رواه ابن جرير عن يونس ، عن ابن وهب ، عن يونس بن يزيد ، عن ابن شهاب ، أن عمرو بن أبى سفيان بن أسيد بن جاريةَ الثقفى أخبره ، أن كعباً قال لأبى هريرة . . . فذكره بطوله ، وقال فى آخره : وأوحى الله إلى إسحاق أنى أعطيتك دعوة أستجيب لك فيها . قال إسحاق : اللهم ، إنى أدعو أن تستجيب لى : أيُّما عَبْد لقيك من الأولين والآخرين ، لايشرك بك شيئاً ، فأدخله الجنة (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن الوزير الدمشقى ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم ، عن أبيه ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله خيرنى بين أن يغفر لنصف أمتى ، وبين أن أختبىء شفاعتى ، فاختبأت شفاعتى ، ورجوت أن تكفر الجمّ لأمتى ، ولولا الذى سبقنى إليه العبد الصالح لتعجلت فيها دعوتى ، إن الله لما فرج عن إسحاق كَرْبَ الذبح قيل له : ياإسحاق ، سَلْ تُعْطَهْ . فقال : أما والذى نفسى بيده لأتعجلنها قبل نزغات الشيطان ، اللهم من مات لايشرك بك شيئا فاغفر له وأدخله الجنة » .

هذا حديث غريب منكر ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف الحديث ، وأخشى أن يكون فى الحديث زيادة مدرجة ، وهى قوله : « إن الله تعالى لما فرج عن إسحاق » . . . إلى آخره ، والله أعلم . فهذا إن كان محفوظاً فالأشبه أن السياق إنما هو عن « إسماعيل » ، وإنما حرفوه بإسحاق ؛ حَسَداً منهم كما تقدم ، وإلا فالمناسك والذبائح إنما محلها بمنى من أرض مكة ، حيث كان إسماعيل لاإسحاق ، فإنه إنما كان ببلاد كنعان من أرض الشام .

وقوله تعالى : (وناديناه أن ياإبراهيم . قد صدقت الرؤيا) ، أى : قد حصل المقصودُ من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٣/٥٢ .

وذكر السدّي وغيره أنه أمَرّ السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً ، بل حال بينها وبينه صفيحة من نحاس ، ونودى إبراهيم ــ عليه السلام ــ عند ذلك : (قد صدقت الرؤيا) .

وقوله (إنا كذلك نجزى المحسنين) ، أى : هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد ، ونجعل لهم من أمرهم فرجا ومخرجا ، كقوله تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لايحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء[1] قدرا) .

وقد استدل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل ، خلافا لطائفة من المعتزلة ، والدلالة من هذه ظاهرة ، لأن الله تعالى شرع لإبراهيم ذَبْحَ ولده ، ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء ، وإنما كان المقصود من شرعه أولا إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك ، ولهذا قال تعالى : (إن هذا لهو البلاء المبين) ، أى : الاختبار الواضح الجلى ؛ حيث أُمِرَ بذبح ولده ، فسارع إلى ذلك مستسلما لأمر الله ، منقادا لطاعته . ولهذا قال تعالى : (وإبراهيم الذى[2] وفى) .

وقوله : (وفديناه بذبح عظيم) ــ قال سفيان الثورى ، عن جابر الجُعْفى ، عن أبى الطفيل ، عن على رضى الله عنه : (وفديناه بذبح عظيم) ، قال : بكبش أبيض أعين أقرن ، قد ربط بسمرة ــ قال أبو الطفيل وجدوه مربوطاً بسَمُرَة فى ثَبِير[3] .

وقال الثورى أيضا ، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كبش قد رعى فى الجنة أربعين خريفاً .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار ، حدثنا داود العطّار ، عن ابن خثيم ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس قال : الصخرة التى بمنى بأصل ثَبِير هى الصخرة التى ذبح عليها إبراهيم فداء ابنه ، هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء ، فذبحه ، وهو الكبش الذى قرّبه ابن آدم فتقبل منه ، فكان مخزونا حتى فدى به إسحاق .

وروى أيضا عن سعيد بن جبير أنه قال : كان الكبش يرتع فى الجنة حتى تشقّق عنه ثبير ، وكان عليه عِهْن[4] أحمر .

وعن الحسن البصرى : أنه كان [اسم] كبش إبراهيم : جرير .

وقال ابن جريج : قال عبيد بن عمير : ذبحه بالمقام . وقال مجاهد : ذبحه بمنى عند المنحر . وقال هشيم ، عن سيار ، عن عكرمة : أنّ ابن عباس كان أفتى الذى جعل عليه [نذراً] أن ينحر نفسه ، فأمره بمائة من الإبل . ثم قال بعد ذلك : [لو كنت أفتيته] بكبش لأجزأه أن يذبح كبشا ، فإن الله تعالى قال فى كتابه : (وفديناه بذبح عظيم) .

---

(١) سورة الطلاق ، آية : ٢ ، ٣ .
(٢) سورة النجم ، آية : ٣٧ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٣/٥٥ . وثبير : موضع بمنى .
(٤) العهن : الصوف .

والصحيح الذى عليه الأكثرون أنه فُدى بكبش . وقال الثورى ، عن رجل ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس فى قوله : (وفديناه بذبح عظيم) ، قال : وَعِل(١)

وقال محمد بن إسحاق، عن عمرو بن عبيد ، عن الحسن أنه كان يقول: مافدى إسماعيل إلا بتيس من الأرْوَى(٢)، أهبط عليه من ثبير .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، حدثنى منصور ، عن خاله مسافع ، عن صفية بنت شيبة قالت : أخبرتنى امرأة من بنى سليم — وَلَدَتْ عامَّة أهل دارنا — أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن طلحة — وقال (٣) مرة : إنها سألت عثمان: لم دعاك النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قال: قال: « إنى كنتُ رأيتُ قرنى الكبش ، حين دخلت البيت ، فنسيت أن آمرك أن تخمّرهما(٤) ، فَخَمِّرْهما ، فإنه لا ينبغى أن يكون فى البيت [شئٌ] يشغل المصلى » قال سفيان : لم يزل قرنا الكبش معلقين فى البيت حتى احترق البيت ، فاحترقا(٥) .

وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل — عليه السلام — فإن قريشا توارثوا قرنى الكبش الذى فدى به إبراهيم خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل ، إلى أن بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم .

فصل فى ذكر الآثار الواردة عن السلف فى أن الذبيح من هو ؟

ذكر من قال : هو إسحاق :

قال حمزة الزيات ، عن أبى ميسرة — رحمه الله — قال : قال يوسف — عليه السلام — للملك فى وجهه : ترغب أن تأكل معى ، وأنا — والله — يوسف بن يعقوب نبى الله ، ابن إسحاق ذبيح الله ، ابن إبراهيم خليل الله(٦) .

وقال الثورى ، عن أبى سنان ، عن ابن أبى الهذيل : أن يوسف عليه السلام قال للملك كذلك أيضاً .

وقال سفيان الثورى ، عن زيد بن أسلم ، عن عبد الله بن عبيد بن عمير ، عن أبيه قال : قال موسى : يا رب ، يقولون: « يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب » ، فبم قالوا ذلك ؟ قال: إن إبراهيم لم يُعدل بى شئٌ قط إلا اختارنى عليه . وإن إسحاق جاد لى بالذبح ، وهو بغير ذلك أجود . وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادنى حُسنَ ظن » .

وقال شعبة ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص قال : افتخر رجل عند ابن مسعود فقال : أنا فلان بن فلان ، ابن الأشياخ الكرام . فقال عبد الله : ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله ، ابن إبراهيم خليل الله .

---

(١) الوعل — بفتح فكسر — : التيس الجبلى .
(٢) الأروى : جمع أروية — بضم فسكون ، فكسر الواو ، فياء مشددة — : وهى الشاة الواحدة من شياه الجبل ، وقيل : أنثى الوعول ، وهى تيوس الجبل .
(٣) فى المخطوطة : « وقالت » . والمثبت عن المسند فى الموضعين اللذين سنذكرهما بعد .
(٤) التخمير : التغطية .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٦٨/٤ ، ٣٨٠/٥ .
(٦) تفسير الطبرى : ٥٣/٢٣ .

وهذا صحيح إلى ابن مسعود ، وكذا رَوَى عكرمة ، عن ابن عباس أنه إسحاق . وعن أبيه العباس ، وعلى بن أبى طالب مثل ذلك . وكذا قال عكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، والشعبى ، وعبيد بن عمير ، وأبو ميسرة ، وزيد بن أسلم ، وعبد الله بن شقيق ، والزهرى ، والقاسم بن أبى بزّة ، ومكحول ، وعثمان بن حاضر ، والسدى ، والحسن ، وقتادة ، وأبو الهذيل ، وابن سابط . وهو اختيار ابن جرير . وتقدم روايته عن كعب الأحبار أنه إسحاق .

وهكذا روى ابن إسحاق عن عبدالله بن أبى بكر ، عن الزهرى ، عن أبى سفيان بن العلاء بن جارية ، عن أبى هريرة ، عن كعب الأحبار ، أنه قال : هو إسحاق (١) .

وهذه الأقوال ــ والله أعلم ــ كلها مأخوذة عن كعب الأحبار ، فإنه لما أسلم فى الدولة العُمَرية جعل يُحدّث عمر رضى الله عنه عن كتبه ، فربما استمع له عمر رضى الله عنه فترخّص الناس فى استماع ما عنده ، ونقلوا عنه غثّها وسمينها ، وليس لهذه الأمة ــ والله أعلم ــ حاجة إلى حرف واحد مما عنده . وقد حكى البغوى هذا القول بأنه إسحاق عن عمر ، وعلى ، وابن مسعود والعباس ، ومن التابعين عن كعب الأحبار ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، ومسروق ، وعكرمة ، ومقاتل ، وعطاء ، والزهرى ، والسدى ــ قال : وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس .

وقد ورد فى ذلك حديث ــ لو ثبت لقلنا به على الرأس والعين ، ولكن لم يصح سنده ــ قال ابن جرير :

حدثنا أبو كريب ، حدثنا زيد بن حُبَاب ، عن الحسن بن دينار ، عن على بن زيد بن جُدعان ، عن الحسن ، عن الأحنف بن قيس ، عن العباس بن عبد المطلب ، عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى حديث ذكره قال : هو إسحاق .

ففى إسناده ضعيفان ، وهما الحسن بن دينار البصرى ، متروك . وعلى بن زيد بن جُدْعان منكر الحديث . وقد رواه ابن أبى حاتم ، عن أبيه ، عن مسلم بن إبراهيم ، عن حماد بن سلمة ، عن على بن زيد بن جُدْعان ، به مرفوعا . ثم [قال] : قد رواه مبارك بن فضالة ، عن الحسن ، عن الأحنف ، عن العباس قوله ، وهذا أشبه وأصح .

[ذكر الآثار الواردة بأنه اسماعيل ــ عليه السلام ــ وهو الصحيح المقطوع به]

قد تقدمت الرواية عن ابن عباس أنه إسحاق ، قال سعيد بن جبير ، وعامر الشعبى ، ويوسف بن مهران ، ومجاهد ، وعطاء ، وغير واحد ، عن ابن عباس ؛ هو إسماعيل عليه السلام .

وقال ابن جرير : حدثنى يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن قيس ، عن عطاء بن أبى رباح ، عن ابن عباس أنه قال : المفدى إسماعيل عليه السلام ، وزعمت اليهود أنه إسحاق ، وكذبت اليهود (٢) .

وقال إسرائيل ، عن ثور ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : الذبيح إسماعيل .

وقال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : هو إسماعيل . وكذا قال يوسف بن مهران .

وقال الشعبى : هو إسماعيل عليه السلام . وقد رأيت قرنى الكبش فى الكعبة .

---

(١) تفسير الطبرى : ٥٢/٢٣ .
(٢) تفسير الطبرى : ٥٢/٢٣ – ٥٣ .

وقال محمد بن إسحاق ، عن الحسن بن دينار وعمرو بن عبيد ، عن الحسن البصرى : أنه كان [لا يشك] فى ذلك : أن الذى أمرَ بذبحه من ابنى إبراهيم إسماعيل .

قال ابن إسحاق : وسمعت محمد بن كعب القرظى [وهو] يقول : إن الذى أمر الله إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل : وإنا لنجد ذلك فى كتاب الله، وذلك أن الله حين فرغ من قصة المذبوح من ابنى إبراهيم قال : (وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين) يقول(١) الله تعالى : (فبشرناه باسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) ، يقول : بابن وابن ابن ، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعود بما وعده ، وما الذى أمرَ بذبحه إلا إسماعيل .

وقال ابن إسحاق ، عن بُرَيدة بن سفيان بن فَرْوَةَ الأسلمى ، عن محمد بن كعب القرظى أنه حدثهم : أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذكان معه بالشام ، فقال له عمر : إن هذا لشئ ماكنت أنظر فيه ، وإنى لأراه كما قلت : ثم أرسل إلى رجل [كان] عنده بالشام ، كان يهوديا فأسلم وحَسُن إسلامه ، وكان يرى أنه من علمائهم ، فسأله عمر بن عبدالعزيز عن ذلك — قال محمد بن كعب : وأنا عندعمر بن عبد العزيز — فقال له عمر : أىَّ ابنى إبراهيم أمرَ بذبحه ؟ فقال : إسماعيل والله يا أمير المؤمنين ، وإن يهود لتعلم بذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب ، على أن يكون أباكم الذى كان من أمر الله فيه ، والفضل الذى ذكره الله منه لصبره لما أمر به ، فهم يجحدون ذلك ، ويزعمون أنه إسحاق ، بكون إسحاق أبوهم ، والله أعلم أيهما كان ، وكلٌّ قدكان طاهرا طيبا مطيعا لله عز وجل (١) .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل — رحمه الله — : سألت أبى عن الذبيح، مَنْ هو ؟ إسماعيل أو إسحاق ؟ فقال : إسماعيل . ذكره فى كتاب الزهد .

وقال ابن أبى حاتم : وسمعت أبى يقول : الصحيح أن الذبيح إسماعيل عليه السلام . قال : ورُوِىَ عن على ، وابن عمر ، وأبى هريرة ، وأبى الطفيل ، وسعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، ومجاهد ، والشعبى ، ومحمد بن كعب القرظى، وأبى جعفر محمد بن على ، وأبى صالح أنهم قالوا : الذبيح إسماعيل .

وقال البغوى فى تفسيره : وإليه ذهب عبد الله بن عمر ، وسعيد بن المسيب ، والسدى ، والحسن البصرى ، ومجاهد ، والربيع بن أنس ، ومحمد بن كعب القرظى ، والكلبى . وهو رواية . عن ابن عباس ، وحكاه أيضا عن أبى عمرو ابن العلاء .

وقد روى ابنُ جرير فى ذلك حديثا غريبا فقال : حدثنى محمد بن عمار الرازى ، حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبى كريمة ، حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابى ، عن عُبَيد الله بن محمد العُتْبى — من ولد عُتبة بن أبى سفيان — عن أبيه : حدثنى عبد الله ابن سعيد ، عن الصُّنَابحى قال : كنا عند معاوية بن أبى سفيان ، فذكروا الذبيح : إسماعيل أو إسحاق ؟ فقال : على الخبير سقَطتّم ، كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءه رجل فقال : يا رسول الله ، عُدْ على مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، وما الذبيحان ؟ فقال : إن عبد المطلب لما أمير

---

(١) لفظ الطبرى ٢٣/ ٥٤ : « يقول : بشرناه باسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » .

بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله أمرها عليه ، ليذبحن أحد ولده ، قال : فخرج السهم على عبد الله ، فمنعه أخواله وقالوا : افد ابنك بمائة من الإبل . ففداه بمائة من الإبل ، وإسماعيل الثانى(١) .

وهذا حديث غريب جداً، وقد رواه الأموى فى مغازيه: حدثنا بعض أصحابنا، أخبرنا إسماعيل بن عبيد بن أبى كريمة ، حدثنا عمر بن عبد الرحمن القرشى ، حدثنا عبيدالله بن محمد العتبى — من ولد عتبة بن أبى سفيان — حدثنا عبدالله بن سعيد، حدثنا الصنابحى قال : حضرنا مجلس معاوية ، فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق، وذكره . كذا كتبته من نسخة [مغلوطة(٢)] .

وإنما عوّل ابنُ جرير فى اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى : (فبشرناه بغلام حليم) ، فجعل هذه البشارة هى البشارة بإسحاق فى قوله: (وبشروه بغلام عليم) . وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعى ، أى العمل ، ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضا . قال : وأما القرنان اللذان كانا مُعلَّقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد الشام . قال : وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه [ذبح (٣)] إسحاق هناك . هذا ما اعتمد عليه فى تفسيره ، وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم ، بل هو بعيد جداً ، والذى استدل به محمد بن كعب القرظى على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى ، والله أعلم .

* * *

وقوله : (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) ، لما تقدمت البشارة بالذبيح — وهو إسماعيل — عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق ، وقد ذكرت فى سورتى « هود » و « الحجر(٤) » .

وقوله : (نبيا) حالٌ مقدَّرة ، أى : سيصير منه نبى من الصالحين .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن عُليَّة ، عن داود ، عن عكرمة قال : قال ابن عباس رضى الله عنهما : الذبيح إسحاق . قال : وقوله: (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) ، قال: بشر بنبوته . قال : وقوله : (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً) ، قال : كان هارون أكبر من موسى ، ولكن أراد : وَهَبَ له نبوته .

وحدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا المعتمر بن سليمان قال : سمعتُ داود يُحدِّث ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى هذه الآية : (وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين) ، قال : إنما بُشِّر به نبياً حين فداه الله من الذبح ، ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده(٥) .

وقال [ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو نُعَيم ، حدثنا سفيان] الثورى ، عن داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس: (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) ، قال : بُشِّر به حين ولد ، وحين نُبِّئَ .

وقال سعيد بن أبى عَرُوبة ، عن قتادة فى قوله : (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) ، قال : بعد ما كان من أمره ، لما جاد لله بنفسه(٥) . وقال الله : (وباركنا عليه وعلى إسحاق) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٣/٥٤ .

(٢) ما بين القوسين من الطبعات السابقة .

(٣) فى المخطوطة : « أنه ذهب إسحاق » . والمثبت من الطبعات السابقة . لفظ الطبرى ٢٣/٥٥ : « وقد روى عن جماعة من أهل العلم أن إبراهيم إنما أمر بذبح ابنه إسحاق بالشام ... » .

(٤) انظر تفسير الآية الحادية والسبعين من سورة هود : ٤/٢٦٥ — ٢٦٦ ، والآية الثالثة والخمسين من سورة الحجر : ٤/٤٥٨ — ٤٥٩ .

(٥) تفسير الطبرى : ٢٣/٥٧ .

وقوله : (وباركنا عليه وعلى إسحاق ، ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) ، كقوله تعالى : (قيل : يا نوح ، اهبط بسلام منا وبركات عليك ، وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم[١]) .

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ (١١٦) وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١١٩) سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٢٢)

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما ، من قهر فرعون وقومه ، وما كان يعتمده في حقهم من الإساءة العظيمة ، من قتل الأبناء واستحياء النساء ، واستعمالهم في أخس الأشياء . ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم ، وأقر أعينهم منهم ، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم . ثم أنزل الله على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين ، وهو التوراة ، كما قال تعالى : (ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء[٢]) ، وقال هاهنا : (وآتيناهم الكتاب المستبين . وهديناهما الصراط المستقيم) ، أي : في الأقوال والأفعال ، (وتركنا عليهما في الآخرين)، أي : أبقينا لهما من بعدهما ذكرا جميلا وثناء حسنا ، ثم فسره بقوله : (سلام على موسى وهارون . إنا كذلك نجزي المحسنين إنهما من عبادنا المؤمنين) .

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ (١٢٥) ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١٢٩) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ

قال قتادة ، ومحمد بن إسحاق ، يقال : إلياس هو إدريس .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عبيدة بن ربيعة ، عن عبد الله ابن مسعود — رضي الله عنه — قال : إلياس هو إدريس . وكذا قال الضحاك .

وقال وهب بن منبه : هو إلياس بن [ياسين[٣]] بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران ، بعثه الله في بني إسرائيل بعد حزقيل عليهما السلام ، وكانوا قد عبدوا صنما يقال له « بعل » ، فدعاهم إلى الله ، ونهاهم عن عبادة ما سواه . وكان قد آمن به ملكهم ثم ارتد ، واستمروا على ضلالتهم ، ولم يؤمن به منهم أحد . فدعا الله عليهم ، فحبس عنهم القطر ثلاث سنين ، ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم ، ووعدوه الإيمان به إن هم أصابهم المطر . فدعا الله لهم ، فجاءهم الغيث فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر ، فسأل الله أن يقبضه إليه . وكان قد نشأ على يديه اليسع بن أخطوب — عليه السلام — فأمر إلياس أن يذهب إلى [مكان] كذا وكذا ، فمهما جاءه فليركبه ولا يهبه ، فجاءته فرس من نار فركب ، وألبسه الله النور وكساه الريش ، وكان يطير مع الملائكة ملكا إنسيا سماويا أرضيا ، هكذا حكاه وهب عن أهل الكتاب ، والله أعلم بصحته[٤] .

---

(١) سورة هود ، آية : ٤٨ .

(٢) سورة الأنبياء ، آية : ٤٨ .

(٣) في المخطوطة : « تسبي » . والمثبت من تفسير الطبري .

(٤) انظر تفسير الطبري : ٢٣/٥٩ — ٦٠ .

(إذا قال لقومه : ألا تتقون) ؟ أى : ألا تخافون الله فى عبادتكم غيره ؟ (أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين) ؟ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والسدى : [بعلا] ، يعنى : ربًّا .

قال قتادة وعكرمة : وهى لغة أهل اليمن . وفى رواية عن قتادة قال : هى لغة أزْد شَنُوءة .

وقال ابن إسحاق : أخبرنى بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها « بعل » .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه : هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها « بعلبك » ، غربى دمشق .

وقال الضحاك : هو صنم كانوا يعبدونه .

وقوله : (أتدعون بعلا) ؟ أى : أتعبدون صنما ؟ (وتذرون أحسن الخالقين . الله ربكم ورب آبائكم الأولين) ، أى : هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له .

قال الله تعالى : (فكذبوه فإنهم لمحضرون) ، أى : للعذاب يوم الحساب ، (إلا عباد الله المخلصين) ، أى : الموحدين منهم . وهذا استثناء منقطع من مثبت .

وقوله : (وتركنا عليه فى الآخرين) ، أى : ثناء جميلا ، (سلام على إلياسين) ، كما يقال فى إسماعيل : إسماعين . وهى لغة بنى أسد . وأنشد بعض بنى نمير فى ضب صاده(١) :

يَقُولُ رَبُّ السّوق لَمَّا جِينَا : هَـٰذَا وَرَبِّ البَيْتِ إِسْرَائِينَا

ويقال : ميكال ، وميكائيل ، وميكائين . وإبراهيم ، وإبراهام . وإسرائيل وإسرائين . وطور سيناء ، وطور سينين . وهو موضع واحد ، وكل هذا سائغ .

وقرأ آخرون : (سلام على إدراسين(٢)) ، وهى قراءة عبد الله بن مسعود . وآخرون : (سلام على آل ياسين) ، يعنى : آل محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله : (إنا كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين) ، قد تقدم تفسيره .

وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط — عليه السلام — أنه بعثه إلى قومه فكذبوه ، فنجاه الله من بين أظهرهم هو وأهله ، إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها ، فإن الله — تعالى — أهلكهم بأنواع من العقوبات ، وجعل محلتهم من الأرض

(١) معانى القرآن للفراء : ٢/٣٩١ ، وتفسير الطبرى : ٢٣/٦١ .

(٢) البحر المحيط لأبى حيان : ٧/٣٧٣ – ٣٧٤ . وتفسير الطبرى : ٢٣/٦٣ .

بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح ، وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلا ونهاراً . ولهذا قال : (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون) ، أى : أفلا تعتبرون بهم ، كيف دمر الله عليهم ، وتعلمون أن للكافرين أمثالها ؟

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨)

قد تقدمت قصة يونس — عليه السلام — فى سورة الأنبياء(١) . وفى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما ينبغى لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متّى ونَسَبَه إلى أمه(٢) » ، وفى رواية قيل : « إلى أبيه » .

وقوله : (إذ أبق إلى الفلك المشحون) — قال ابن عباس : هو المُوقَر . أى : المملوء بالأمتعة .

(فساهم) ، أى : قارع ، (فكان من المدحضين) ، أى : المغلوبين . وذلك أن السفينة تَلَعَّبَتْ بها الأمواج من كل جانب ، وأشرفوا على الغرق ، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى فى البحر ، لتخف بهم السفينة ، فوقعت القرعة على نبى الله يونس — عليه الصلاة والسلام — ثلاث مرات ، وهم يضنون به أن يلقى من بينهم ، فتجرد من ثيابه ليلقى نفسه وهم يأبون عليه ذلك . وأمر الله تعالى حوتا من البحر الأخضر أن يشق البحار ، وأن يلتقم يونس — عليه السلام — فلا يَهْشِمُ له لحما ، ولا يكسر له عظما . فجاء ذلك الحوت وألقى يونس — عليه السلام — نفسه ، فالتقمه الحوت ، وذهب به فطاف به البحار كلها . ولما استقر يونس فى بطن الحوت ، حسب أنه قد مات ، ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حى ، فقام يصلى فى بطن الحوت ، وكان من جملة دعائه : « يا رب ، اتخذتُ لك مسجدا فى موضع لم يبلغه أحد من الناس » . واختلفوا فى مقدار ما لبث فى بطن الحوت ، فقيل : ثلاثة أيام . قاله قتادة . وقيل : جُمْعَة (٣) قاله جعفر الصادق . وقيل : أربعين يوما ، قاله أبو مالك .

وقال مُجَالد ، عن الشعبى : التقمه ضحى ، وقذفه عشية .

والله أعلم بمقدار ذلك . وفى شعر أمية بن أبى الصلت(٤) :

وَأَنْتَ بِفَضْلٍ مِنْكَ نَجَّيْتَ يونُساً ... وَقَدْ بَاتَ فِى أَضْعَافِ حُوتٍ لَيَالِيَا

---

(١) انظر : ٥/٣٦٠ — ٣٦٤ .

(٢) البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : (وإن يونس لمن المرسلين) : ٤/١٩٣ . ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب « فى ذكر يونس عليه السلام ، وقول النبى — صلى الله عليه وسلم — : « لا ينبغى ... » : ٧/١٠٢ — ١٠٣ .

(٣) كذا فى المخطوطة . وفى الطبعات السابقة : « سبعة » .

(٤) سيرة ابن هشام : ١/٢٢٨ .

وقوله : (فلولا أنه كان من المسبحين . للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون) ، قيل : لولا ما تقدم له من العمل فى الرخاء ؛ قاله الضحاك بن قيس ، وأبو العالية ، ووهب بن منبه ، وقتادة ، وغير واحد . واختاره ابن جرير . وقد ورد فى الحديث الذى سنورده ما يدل على ذلك إن صح الخبر : وفى حديث عن ابن عباس : « تعَرَّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة » .

وقال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، وعطاء بن السائب ، والسدى ، والحسن ، وقتادة : (فلولا أنه كان من المسبحين) ، يعنى : المصلين ؛

وصرح بعضهم بأنه كان من المصلين قبل ذلك ؛ وقال بعضهم : كان من المسبحين فى جوف أبويه ؛

وقيل المراد : (فلولا أنه كان من المسبحين) ، هو قوله : (فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) ، قاله سعيد بن جبير وغيره ؛

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب ، حدثنا عمى ، حدثنا أبو صخر : أن يزيد الرَّقاشى حدَّثه : أنه سمع أنس بن مالك ــ ولا أعلم إلا أنَّ أنسا يرفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ أنَّ يونس النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات ، وهو فى بطن الحوت ، فقال : « اللهم ، لا إله إلا أنت سبحانك ، إنى كنت من الظالمين » . فأقبلت الدعوة تحف بالعرش ، قالت الملائكة : يارب ، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة ؟ فقال : أما تعرفون ذلك ؟ قالوا : يارب ، ومن هو ؟ قال : عبدى يونس . [قالوا : عبدك يونس] الذى لم يزل يرفع له عمل متقبل ، ودعوة مستجابة ؟ قالوا : يارب ، أولا ترحم ما كان يصنع فى الرخاء فتنجيَه من البلاء ؟ قال : بلى . فأمر الحوت فطرحه بالعراء[١] ؛

ورواه ابن جرير ، عن يونس ، عن ابن وهب ، به [٢] : زاد ابن أبى حاتم : « قال أبو صخر حُمَيد بن زياد : فأخبرنى ابن قُسَيط وأنا أحدثه هذا الحديث : أنه سمع أبا هريرة يقول : طرح بالعراء ، وأنبت الله عليه اليقطينة . قلنا : يا أبا هريرة ، وما اليقطينة ، قال : شجرة الدُّباء . قال أبو هريرة : وَهَيَّأَ الله له أُرْوِيَّة[٣] وحشية تأكل من خشاش الأرض ــ أو قال : هشاش الأرض ــ قال : فتتفشَّح[٤] عليه فتَرْوِيه من لبنها كل عَشيَّة وبُكرة حتى نبَت .

وقال أمية بن أبى الصلت فى ذلك بيتا من شعره :

فَأَنْبَتَ يَقْطِيناً عَلَيْه بِرَحْمَةٍ ... مِنَ الله ، لَوْلا اللهُ أُلفِىَ ضَاحِياً

وقد تقدم حديث أبى هريرة مسنداً مرفوعا فى تفسير « سورة الأنبياء » ؛

ولهذا قال تعالى : (فنبذناه) ، أى : ألقيناه (بالعراء) ــ قال ابن عباس ، وغيره : وهى الأرض التى ليس بها نبت ولا بناء : قيل : على جانب دجلة . وقيل : بأرض اليمن . فالله أعلم ؛

---

(١) تقدم هذا الأثر بهذا السند عند تفسير الآية السابعة والثمانين من سورة الأنبياء ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٥/٣٦٢ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٣/٦٤ .

(٣) الأروية ــ بضم فسكون ، فواو مكسورة ، فياء مشددة ــ : الشاة الجبلية . وخشاش الأرض : هوامها وحشراتها .

(٤) أى : تفرج ما بين رجليها ، ويقال بالجيم والحاء المهملة .

(وهو سقيم) ، أى : ضعيف البدن . قال ابن مسعود رضى الله عنه : كهيئة الفرخ ليس عليه ريش ؛ وقال السّدّى : كهيئة الصبى حين يولد ، وهو المنفوس . وقاله ابن عباس ، وابن زيد أيضا .

(وأنبتنا عليه شجرة من يقطين) ، قال ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ووهب بن منبه ، وهلال بن يَسَاف ، وعبد الله بن طاوس ، والسدى ، وقتادة ، والضحاك ، وعطاء الخراسانى ، وغير واحد قالوا كلهم : اليقطين هو القرع .

وقال هُشَيم، عن القاسم بن أبى أيوب ، عن سعيد بن جُبَير : كل شجرة لا ساق لها فهى من اليقطين(١) .

وفى رواية عنه : كل شجرة تَهْلك من عَامِها فهى من اليقطين .

وذكر بعضهم فى القرع فوائد ، منها : سرعة نباته ، وتظليلُ ورقه لكبره ، ونعومته ، وأنه لا يقربها الذباب ، وجودة أغذية ثمره ، وأنه يؤكل نيئا ومطبوخا بلبه وقشره أيضا . وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُحِبّ الدباء ، ويتتبعه من حَوَاشى الصَّحْفة (٢) .

وقوله تعالى : (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) — روى شهر بن حوشب ، عن ابن عباس أنه قال : إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت . رواه ابن جرير : حدثنى [الحارث قال : حدثنا الحسن قال : حدثنا] (٣) أبو هلال ، عن شهر ، به (٤) .

وقال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : ارسل إليهم قبل ان يلتقمه الحوت .

قلت : ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولا ، أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت ، فصدقوه كلهم وآمنوا به . وحكى البغوى أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت ، كانوا مائة ألف أو يزيدون .

وقوله : (أو يزيدون) ، قال ابن عباس — فى رواية عنه — : بل يزيدون ، وكانوا مائة وثلاثين ألفا ; وعنه : مائة ألف وبضعةً وثلاثين ألفا . وعنه : مائةَ ألف وبضعةً وأربعين ألفا .

وقال سعيد بن جبير : يزيدون سبعين ألفا .

وقال مكحول : كانوا مائة ألف وعشرة آلاف ، رواه ابن أبى حاتم .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الرحيم البرقى ، حدثنا عمرو بن أبى سلمة قال : سمعت زُهَيْراً عمن سمع أبا العالية قال : حدثنى أبى بن كعب (٥) أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) ، قال : يزيدون عشرين ألفا(٦) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٣/٦٥ .
(٢) البخارى ، كتاب الأطعمة ، باب « الثريد » : ٧/٩٨ . وباب « من ناول أو قدم إلى صاحبه على المائدة شيئاً » ٧/١٠٢ .
(٣) ما بين القوسين من تفسير الطبرى .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٣/٦٧ .
(٥) فى مخطوطة الأزهر : « محمد بن أبى بن كعب » . والمثبت من تفسير الطبرى ، والدر المنثور : ٥/٢٩١ .
(٦) تفسير الطبرى : ٢٣/٦٧ .

ورواه الترمذي عن علي بن حُجْر ، عن الوليد بن مسلم ، عن زُهَير ، عن رجل ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب ، به ، وقال : « غريب(١) » . ورواه ابن أبي حاتم من حديث زهير ، به .

قال ابن جرير : وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول في ذلك : معناه إلى المائة الألف ، أو كانوا يزيدون عندكم ، يقول : كذلك كانوا عندكم .

وهكذا سلك ابن جرير هاهنا ما سلكه عند قوله تعالى : (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة(٢)) ، وقوله : (إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية(٣)) ، وقوله : (فكان قاب قوسين أو أدنى(٤)) أن المراد ليس أنقص من ذلك ، بل أزيد .

وقوله : (فآمنوا) ، أي : فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس عليه السلام جميعهم ، (فمتعناهم إلى حين) ، أي : إلى وقت آجالهم ، كقوله : (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها ، إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، ومتعناهم إلى حين (٥)) .

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾

يقول تعالى منكراً على هؤلاء المشركين في جعلهم لله البنات — سبحانه — ولهم ما يشتهون ، أي : من الذكور ، أي : يودّون لأنفسهم الجيد . (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم(٦)) ، أي : يسوؤه ذلك ، ولا يختار لنفسه إلا البنين . يقول تعالى : فكيف نسبوا إلى الله القسم الذي لا يختارونه لأنفسهم ؟ ولهذا قال : (فاستفتهم) ، أي : سلهم على سبيل الإنكار عليهم : (ألربك البنات ولهم البنون) ؟ كقوله : (ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذا قسمة ضيزى (٧)) .

---

(١) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة الصافات ، الحديث ٣٢٨٣ : ٩/٩٧ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٧٤ ، وانظر : ١/١٦٣ .
(٣) سورة النساء ، آية : ٧٧ .
(٤) سورة النجم ، آية : ٩ .
(٥) سورة يونس ، آية : ٩٨ .
(٦) سورة النحل ، آية : ٥٨ .
(٧) سورة النجم ، آية : ٢١ ، ٢٢ .

وقوله : (أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون) ، أى : كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم ؟ كقوله : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون) (١) ، أى : يسألون عن ذلك يوم القيامة .

وقوله : (ألا إنهم من إفكهم)، أى : من كذبهم (ليقولون : ولد الله) ، أى : صدر منه الولد ، (وإنهم لكاذبون) ، فذكر الله عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب ، فأولا جعلوهم بنات الله ، فجعلوا لله ولداً . وجعلوا ذلك الولد أنثى ، ثم عبدوهم من دون الله . وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم .

ثم قال منكرا عليهم : (أصطفى البنات على البنين) ، أى : أىّ شىء يحمله عن أن يختار البنات دون البنين ؟ كقوله : (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا ؟ إنكم لتقولون قولا عظيما)(٢) ولهذا قال : (مالكم كيف تحكمون) ؟ أى : مالكم عقول تتدبرون بها ما تقولون ؟ (أفلا تذكرون ، أم لكم سلطان مبين) ، أى : حجة على ما تقولونه ، (فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين) ، أى : هاتوا برهانا على ذلك يكون مستنداً إلى [كتاب مُنَزّل] من السماء عن الله : أنه اتخذ ما تقولونه ، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل ، بل لا يُجَوِّزُه العقل بالكلية .

وقوله : (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) ، قال مجاهد: قال المشركون : الملائكةُ بناتُ الله . فسأل (٣) أبو بكر رضى الله عنه : فمن أمهاتهن ؟ قالوا : بنات سَرَوات الجن (٤) . وكذا قال قتادة ، وابن زيد . ولهذا قال تعالى : (ولقد علمت الجنة)، أى : الذين نسبوا إليهم ذلك : (إنهم لمحضرون) ، أى : إن الذين قالوا ذلك لمحضرون فى العذاب يوم الحساب لكذبهم فى ذلك وافترائهم ، وقولهم الباطل بلا علم .

وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله : (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) ، قال : زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان . حكاه ابن جرير (٤) .

وقوله : (سبحان الله عما يصفون) ، أى : تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد ، وعما يصفه به الظالمون الملحدون علوا كبيرا .

وقوله : (إلا عباد الله المخلصين) استثناء منقطع ، وهو من مثبت ، إلا أن يكون الضمير فى قوله : (عما يصفون) عائد إلى جميع الناس ثم استثنى منهم المخلصين ، وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبى ومرسل . وجعل ابن جرير هذا الاستثناء من قوله : (إنهم لمحضرون ... إلا عباد الله المخلصين) ، وفى هذا الذى قاله نظر (٤) .

---

(١) سورة الزخرف ، آية : ١٩ .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٤٠ .

(٣) فى المخطوطة : « قال أبو بكر » . والمثبت من تفسير الطبرى .

(٤) تفسير الطبرى : ٦٩/٢٣ .

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

يقول تعالى مخاطبا للمشركين : (فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بفاتنين . إلا من هو صال الجحيم) ، أى : [ما] ينقاد لمقالكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة إلا من هو أضل منكم ممن ذُرِئَ للنار(١) : (لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون(٢)) : فهذا الضرب من الناس هو الذى ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة ، كما قال تعالى : (إنكم لفى قول مختلف : يؤفك عنه من أفك(٣)) ، أى : إنما يضل به [من هو] مأفوك ومبطل .

ثم قال تعالى مُنَزِّها للملائكة مما نَسَبُوا إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله : (وما منا إلا له مقام معلوم) ، أى : له موضع مخصوص فى السموات ومقامات العبادة لا يتجاوزه ولا يتعداه .

وقال ابن عساكر فى ترجمته لمحمد بن خالد، بسنده إلى عبد الرحمن بن العلاء بن سعد، عن أبيه ــ وكان ممن بايع يوم الفتح ــ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوما لجلسائه : « أطَّت(٤) السماء وحُقَّ لها أن تئط ، ليس فيها موضع قَدَم إلا عليه ملك راكع أو ساجد » . ثم قرأ : (وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون(٥)) .

وقال الضحاك فى تفسيره : (وما منا إلا له مقام معلوم) ، قال : كان مسروق يَرْوِى عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ أنها قالت : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم » . فذلك قوله : (وما منا إلا له مقام معلوم) .

وقال الأعمش ، عن أبى إسحاق ، عن مسروق ، عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : إن فى السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدماه ، ثم قرأ عبد الله : (وما منا إلا له مقام معلوم(٦)) . وكذا قال سعيد بن جبير .

وقال قتادة : كانوا يصلون الرجال والنساء جميعاً ، حتى نزلت : (وما منا إلا له مقام معلوم) ، فتقدم الرجال وتأخر النساء .

---

(١) أى : خلق .

(٢) سورة الأعراف ، آية : ١٩٧ .

(٣) سورة الذاريات ، آية : ٨ ، ٩ .

(٤) أطت ــ بتشديد الطاء ــ من الأطيط ، وهو : صوت الرحل ، وأطيط الإبل : أصواتها وحنينها ؛ أى : إن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت . وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة ، وإن لم يكن ثم أطيط ، وإنما هو كلام تقريب ، أريد به تقرير عظمة الله تعالى .

(٥) انظر ترجمة العلاء بن سعد الساعدى فى أسد الغابة : ٤/٧٦ بتحقيقنا ، وقد خرجنا هذا الحديث هناك .

(٦) تفسير الطبرى : ٢٣/٧١ .

(وإنا لنحن الصافون) ، أى : نقف صفوفاً فى الطاعة ، كما تقدم عند قوله : (والصافات صفاً) — قال ابن جريج عن الوليد بن عبد الله بن أبى مغيث قال : كانوا لا يصفون فى الصلاة حتى نزلت : (وإنا لنحن الصافون) ، فصفوا .

وقال أبو نضرة : كان عمر إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ، ثم قال : أقيموا صفوفكم ، استووا قياماً ، يريد الله بكم هدى الملائكة ، ثم يقول : (وإنا لنحن الصافون) ، تأخر يافلان ، تقدم يافلان ، ثم يتقدم فيكبر رضى الله عنه . رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير[1] .

وفى صحيح مسلم عن حذيفة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فضلنا على الناس بثلاث : جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض مسجداً ، وتربتها طهورا ... » الحديث[2] .

(وإنا لنحن المسبحون) ، أى : نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه وننزهه عن النقائص ، فنحن عبيد له ، فقراء إليه ، خاضعون لديه .

وقال ابن عباس ، ومجاهد : (وما منا إلا له مقام معلوم) : الملائكة ، (وإنا لنحن الصافون) : الملائكة ، (وإنا لنحن المسبحون) : الملائكة يسبحون الله عز وجل .

وقال قتادة : (وإنا لنحن المسبحون) ، يعنى : المصلون ، يثبتون بمكانهم من العبادة ، كما قال تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، سبحانه ، بل عباد مكرمون ◦ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ◦ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ◦ ومن يَقُلْ منهم : إنى إله من دونه ، فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين[3]) .

وقوله : (وإن كانوا ليقولون ◦ لو أن عندنا ذكرا من الأولين ◦ لكنا عباد الله المخلصين) ، أى : قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يامحمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله ، وما كان من أمر القرون الأولى ، ويأتيهم بكتاب الله ، كما قال تعالى : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا[4]) ، وقال : (أن تقولوا : إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، وإن كنا عن دراستهم لغافلين ◦ أو تقولوا : لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ، فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ، سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون[5]) . ولهذا قال هاهنا : (فكفروا به فسوف يعلمون) ، وعيد أكيد وتهديد شديد ، على كفرهم بربهم — سبحانه وتعالى — وتكذيبهم رسوله صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٣/٧١ .
(٢) مسلم ، كتاب المساجد : ٢/٦٣ — ٦٤ .
(٣) سورة الأنبياء ، الآيات : ٢٦ — ٢٩ .
(٤) سورة فاطر ، آية : ٤٢ .
(٥) سورة الأنعام ، آية : ١٥٦ ، ١٥٧ .

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾

يقول تعالى : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) ، أى : تقدم فى الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم فى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز(١)) . وقال تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد(٢)) . ولهذا قال : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون) ، أى : فى الدنيا والآخرة . كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم ، وكيف أهلك الله الكافرين ، ونجى عباده المؤمنين : (وإن جندنا لهم الغالبون) ، [أى : تكون لهم العاقبة . وقوله جل وعلا] : (فتول عنهم حتى حين) ، أى : اصبر على أذاهم لك ، وانتظر إلى وقت مؤجل ، فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر ؛ ولهذا قال بعضهم : غيّى (٣) ذلك إلى يوم بدر . وما بعدها أيضاً فى معناها .

وقوله : (وأبصرهم فسوف يبصرون) ، أى : انظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال على مخالفتك وتكذيبك . ولهذا قال على وجه التهديد والوعيد : (فسوف يبصرون) . ثم قال عز وجل : (أفبعذابنا يستعجلون) ، أى : هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم ، فإن الله يغضب عليهم بذلك ، ويعجل لهم العقوبة ، ومع هذا أيضاً كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة . قال الله تعالى : (فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين) ، أى : فإذا نزل العذاب بمحلتهم ، فبئس ذلك اليوم يومهم ، بإهلاكهم ودمارهم .

قال السدى : (فإذا نزل بساحتهم) ، يعنى : بدارهم ، (فساء صباح المنذرين) ، أى : فبئس مايصبحون ، أى : بئس الصباح صباحهم . ولهذا ثبت فى الصحيحين من حديث إسماعيل ابن عُلَيّة ، عن عبد العزيز بن صُهَيب ، عن أنس رضى الله عنه ــ قال : صبّح رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خيبر ، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش ، رجعوا يقولون: محمد والله، محمدوالخميس . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « الله أكبر خرِبت خيبر ، إنا إذانزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين (٤) » .

ورواه البخارى من حديث مالك ، عن حُمَيد ، عن أنس (٥) .

(١) سورة المجادلة ، آية : ٢١ .
(٢) سورة غافر ، آية : ٥١ .
(٣) أى : جعل يوم بدر غاية لذلك .
(٤) البخارى ، كتاب الصلاة ، باب « مايذكر فى الفخذ » : ١/١٠٣-١٠٤ . ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب « غزوة خيبر » ١٨٥/٥ .
(٥) البخارى ، كتاب المغازى ، باب غزوة خيبر : ١٦٧/٥ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا رَوح،حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن أبي طلحة قال : لما صَبَّح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر، وقد أخذوا مساحيَهم وغدَوا إلى حروثهم وأرضيهم، فلما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم ولوا مدبرين، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم : [الله أكبر ، الله أكبر ، إنا (١)] إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين (٢) »

لم يخرجوه من هذه الوجه ، وهو صحيح على شرط الشيخين .

وقوله : (وتول عنهم حتى حين . وأبصر فسوف يبصرون) ، تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك .

سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

ينزه تعالى نفسه الكريمة ويقدسها ويبرئها عما يقوله الظالمون المكذبون المعتدون — تعالى وتقدس — عن قولهم علواً كبيراً . ولهذا قال : (سبحان ربك رب العزة)، أي : ذى العزة التى لاتُرَام ، (عما يصفون)، أي : عن قول هؤلاء المعتدين المفترين، (وسلام على المرسلين) ، أي : سلام الله عليهم فى الدنيا والآخرة ، لسلامة ماقالوه فى ربهم ، وصحته وحَقّيّته، (والحمد لله رب العالمين)، أي : له الحمد فى الأولى والآخرة فى كل حال . ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة ، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص— قرن بينهما فى هذا الموضع ، وفى مواضع كثيرة من القرآن . ولهذا قال: (سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين)

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا سلمتم عليَّ فسلموا على المرسلين ، فإنما أنا رسول من المرسلين » .

هكذا رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، من حديث سعيد ، عنه كذلك (٣) .

وقد أسنده ابن أبي حاتم رحمه الله فقال : حدثنا على بن الحسين بن الجنيد . حدثنا أبوبكر الأعين ومحمد بن عبد الرحيم صاعقة قالا : حدثنا حسين بن محمد، حدثنا شيبان ، عن قتادة قال : حدّث أنس بن مالك، عن أبي طلحة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا سلمتم عليَّ فسلموا على المرسلين » .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا محمد بن أبي بكر ، حدثنا نوح(٤)، حدثنا أبو هارون ، عن أبي سعيد، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا سلّم قال : « سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين . ثم يسلم » . إسناده ضعيف .

---

(١) ما بين القوسين من المسند .

(٢) مسند الإمام أحمد ٤/٢٨ ، ٢٩ .

(٣) تفسير الطبرى ٢٣/٧٤ .

(٤) فى المخطوطة : « حدثنا فرج » . والصواب : « نوح » ، وهو : نوح بن قيس بن رباح الأزدى ، يروى عن أبي هارون عمارة بن جوين . انظر التهذيب : ٧/٤١٢ ، ١٠/٤٨٥ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عمار بن خالد الواسطي ، حدثنا شبابة ، عن يونس بن أبي إسحاق ، عن الشعبي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة ، فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين) .

وروى من وجه آخر متصل موقوف على علي ، رضي الله عنه .

قال أبو محمد البغوي في تفسيره : أخبرنا أبو سعيد أحمد بن شريح (١) ، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي ، أخبرني ابن فنجُويه ، حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان ، حدثنا إبراهيم بن سهلويه ، حدثنا علي بن محمد الطنافسي ، حدثنا وكيع ، عن ثابت بن أبي صفية ، عن الأصبغ بن نباتة ، عن علي رضي الله عنه قال : من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه في مجلسه : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين) .

وروى الطبراني من طريق عبد الله بن صخر [بن أنس (٢)، عن] عبد الله بن زيد بن أرقم ، عن أبيه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قال دُبُرَ كل صلاة : « (سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين) ، ثلاث مرات ، فقد اكتال بالجَريب (٣) الأوفى من الأجر » .

وقد وردت أحاديث في كفارة المجلس : (سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك) ، وقد أفردت لها جزءاً على حدة ، فلتكتب هاهنا إن شاء الله تعالى .

[آخر تفسير سورة الصافات]

---

(١) كذا في مخطوطة الأزهر . وفي الطبعات السابقة : « أحمد بن إبراهيم الشريحي » . ولم تقع لنا ترجمته .
(٢) في المخطوطة : « ... صخر الأنسي عبد الله بن زيد » . والمثبت من الطبعات السابقة .
(٣) الجريب : مكيال .

تفسير سورة ص

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول « سورة البقرة » (١) بما أغنى عن إعادته هاهنا .

وقوله : (والقرآن ذى الذكر) ، أى : والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد ، ونفع لهم فى المعاش والمعاد .

قال الضحاك فى قوله : (ذى الذكر) ، كقوله : (لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم) ، أى : تذكيركم . وكذا قال قتادة ، واختاره ابن جرير (٢) .

وقال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وإسماعيل بن أبى خالد ، وابن عيينة ، وأبو حصين ، وأبو صالح ، والسدى : (ذى الذكر) : ذى الشرف ، أى : ذى الشأن والمكانة .

ولا منافاة بين القولين ، فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار .

واختلفوا فى جواب هذا القسم ، فقال بعضهم: هو قوله: (إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب) . وقيل : قوله : (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) ، حكاهما ابن جرير ، [وهذا الثانى فيه بعد كبير ، وضعفه ابن جرير] (٣) .

وقال قتادة : جوابه (بل الذين كفروا فى عزة وشقاق) ، [واختاره ابن جرير] .

وقيل : جوابه ماتضمنه سياق السورة بكمالها . والله أعلم .

ثم حكى ابن جرير عن بعض أهل العلم أنه قال : جوابه « ص » [بمعنى] : صدق حق والقرآن ذى الذكر (٤) .

وقوله : (بل الذين كفروا فى عزة وشقاق) ، أى : إن فى هذا القرآن لذكرا لمن يتذكر ، وعبرة لمن يعتبر . وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم (فى عزة) ، أى : استكبار عنه وحمية ، (وشقاق) ، أى : مخالفة له ومعاندة ومفارقة .

---

(١) انظر : ١/٥٦ - ٦٠ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٣/٧٥ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٣/٧٦ .

(٤) قال الطبرى ٢٣/٧٥ : « وكان بعض أهل العربية يقول (ص) فى معناها كقولك « وجب والله » و« حق والله » ، وهى جواب لقوله (والقرآن) ، كما تقول : « حقا والله » ، « نزل والله » .

ثم خوفهم ماأهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء ، فقال : (كم أهلكنا من قبلهم من قرن) ، أى : من أمة مكذبة ، (فنادوا) ، أى : حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله . وليس ذلك بمُجدٍ عنهم شيئا ، كما قال تعالى : (فلما أحسوا بأسنا إذاهم منها يركضون) ، أى : يهربون ، (لاتركضوا وارجعوا إلى ماأترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون) (١)

قال أبو داوود الطيالسى : حدثنا شعبة، عن أبى إسحاق، عن التميمى قال : سألت ابن عباس عن قول الله : (فنادوا ولات حين مناص) ، قال : ليس بحين [نداء] ، ولا نَزْو ، ولا فرار (٢) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ليس بحين مغاث .

وقال شبيب بن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : نادوا النداء حين لاينفعهم ، وأنشد :

• تَذَكَّرَ لَيْلَى لاتَ حينَ تَذَكُّرِ •

وقال محمد بن كعب فى قوله : (فنادوا ولات حين مناص) ، يقول : نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم ، واستناصوا [للتوبة] حين تولت الدنيا عنهم (٣) .

وقال قتادة : لما رأوا العذاب أرادوا التوبة فى غير حين النداء .

وقال مجاهد : (فنادوا ولات حين مناص) ، ليس بحين فرار ولا إجابة .

وقد رُوى نحو هذا عن عكرمة ، وسعيد بن جبير ، وأبى مالك ، والضحاك ، وزيد بن أسلم ، والحسن ، وقتادة .

وعن مالك ، عن زيد بن أسلم : (ولات حين مناص) ، ولا نداء فى غير حين النداء .

وهذه الكلمة وهى « لات » ، هى « لا » التى للنفى ، زيدت معها « التاء » ، كما تزاد فى « ثُمَّ » ، فيقولون : « ثُمَّتَ » ، و « رب » فيقولون : « رُبَّتَ » ، وهى مفصولة ، والوقف عليها . ومنهم من حكى عن المصحف الإمام فيما ذكره [ابن جرير] أنها متصلة بحين : (ولا تحين مناص) . والمشهور الأول . ثم قرأ الجمهور بنصب « حين » ، تقديره : وليس الحين حينَ مناص . ومنهم من جوز النصب بها ، وأنشد (٤) :

تَذَكَّرَ حُبَّ لَيْلَى لاتَ حِينًا ... وأَضْحَى الشَّيبُ قَدْ قَطَعَ القَرِينَا

ومنهم من جوَّز الجر بها ، وأنشد : (٥)

طَلَبُوا صُلْحَنَا وَلاتَ أَوَانٍ ... فَأَجَبْنَا أَنْ لَيسَ حِينَ بَقَاءِ

---

(١) سورة الأنبياء ، آية : ١٢ ، ١٣ .

(٢) أخرجه ابن جرير من طريق سفيان ، وإسرائيل ، وعنبسة ، عن أبى إسحاق بنحوه : ٢٣/٧٧ .

(٣) الدر المنثور : ٥/٢٩٦ .

(٤) معانى القرآن للفراء : ٢/٣٩٧ . وتفسير الطبرى : ٢٣/٧٧ .

(٥) البيت لأبى زبيد الطائى ، انظر خزانة الأدب : ٢/١٥٣ . ومعانى القرآن للفراء : ٢/٣٩٨ . وتفسير الطبرى : ٢٣/٧٧ .

وأنشد بعضهم أيضا (١) :

• ولاتَ ساعةَ مَنْدَمِ •

بخفض الساعة ؛ وأهل اللغة يقولون : النوص : التأخر ؛ والبوص : التقدم ؛ ولهذا قال تعالى : (ولات حين مناص) ، أى : ليس الحين حين فرار ولا ذهاب :

وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فى تعجبهم من بعثة الرسول بشراً ، كما قال تعالى : (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ، وبشر الذين آمنوا أن لهم قَدَم صدق عند ربهم ، قال الكافرون : إن هذا لساحر مبين (٢)) ؛ وقال هاهنا : (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) ، أى : بشر مثلهم ، (وقال الكافرون : هذا ساحر كذاب • أجعل الآلهة إلها واحدا) ، أى : أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو ؟ ! أنكر المشركون ذلك — قبَّحهم الله تعالى — وتعجبوا من ترك الشرك بالله ، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادةَ الأوثان وأشربته قلوبهم ، فلما دعاهم الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلى خلع ذلك من قلوبهم ، وإفراد الله بالوحدانية ، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا : (أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب • وانطلق الملأ منهم) ، وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين : (امشوا) ، أى : استمروا على دينكم ، (واصبروا على آلهتكم) ، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد .

وقوله : (إن هذا لشىء يراد) ، قال ابن جرير : إن هذا الذى يدعونا إليه محمد من التوحيد لشىء يريد به الشرف عليكم ، والاستعلاء ، وأن يكون له منكم أتباع ، ولسنا مُجيبيه إليه (٣) .

ذكر سبب نزول هذه الآيات :

قال السدى : إن أناسا من قريش اجتمعوا ، فيهم : أبو جهل بن هشام ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، فى نفر من مشيخة قريش ، فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى أبى طالب فلنُكَلِّمْه فيه ، فلْيُنصفنا منه ، فلْيَكُفّ عن شَتْم آلهتنا ، ونَدَعه وإلهه الذى يعبده ؛ فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ ، فيكونَ منا إليه شىء ، فتعيرنا

(١) انظر البيت فى المراجع المتقدمة .
(٢) سورة يونس ، آية : ٢ .
(٣) تفسير الطبرى ، ٢٣/٨٥ .

العرب ، يقولون : « تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه» . فبعثوا رجلا منهم يقال له « المطلب » ، فاستأذن لهم على أبي طالب ، فقال : هؤلاء مشيخة قومك وسَرَاتهم يستأذنون عليك ؟ قال : أدخلهم . فلما دخلوا عليه قالوا : يا أبا طالب ، أنت كبيرنا وسيدنا ، فأنصفنا من ابن أخيك ، فمره فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه. قال : فبعث إليه أبو طالب، فلما دخل عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قال : يا ابن أخى ، هؤلاء مشيخة قومك وسَرَاتهم ، وقد سألوك أن تكف عن عن شتم آلهتهم ويدَعُوك وإلهك . قال : « يا عم ، أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم ؟ » . قال : وإلام تدعوهم ؟ قال : أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ، ويملكون بها العجم » . فقال أبو جهل من بين القوم: ما هي وأبيك؟ لنعطينها وعشرة أمثالها . قال : تقولون : « لا إله إلا الله» . فنفر وقال (١) : سَلْنا غير هذا . قال : « لو جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى ، ما سألتكم غيرها» . فقاموا من عنده غضابًا،وقالوا : والله لنشتمنك وإلهك الذى أمرك بهذا . (وانطلق الملأ منهم : أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشئ يراد) .

رواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير ، وزاد: « فلما خرجوا دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه إلى قول«لا إله إلا الله »، فأبى وقال : بل على دين الأشياخ . ونزلت : (إنك لا تهدى من أحببت) (٢) .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا أبو كريب وابن وكيع قالا : حدثنا أبو أسامة، حدثنا الأعمش ، حدثنا عباد،عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب ، دخل عليه رهط من قريش،فيهم أبو جهل ، فقالوا : إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ، ويفعل ويفعل ، ويقول ويقول،فلو بعثت إليه فنهيته ؟ فبعث إليه ، فجاء النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل ، قال : فخشى أبو جهل إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرقّ له عليه : فوثب فجلس فى ذلك المجلس ، ولم يجد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مجلسا قرب عمه ، فجلس عند الباب . فقال له أبو طالب : أىْ ابنَ أخى ، ما بال قومك يشكونك ، يزعمون أنك تشتم آلهتهم ، وتقول وتقول ؟ قال : وأكثروا عليه من القول. وتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا عم، إنى أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب ، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية » . ففزعوا لكلمته ولقوله ، وقالوا : كلمة واحدة ! نعم وأبيك عشرا فقالوا : وماهي ؟ وقال أبو طالب : وأى كلمة هي يا ابن أخي؟ فقال: « لا إله إلا الله » : فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم ، وهم يقولون : (أجعل الآلهة إلها واحدا ! إن هذا لشيء عجاب) . قال : ونزلت من هذا الموضع إلى قوله : (لما يذوقوا عذاب) . لفظ أبي كريب (٣) .

وهكذا رواه الإمام أحمد والنسائي ، من حديث محمد بن عبد الله بن نمير ، كلاهما عن أبي أسامة ، عن الأعمش ، عن عباد ، غير منسوب، به نحوه. ورواه الترمذى ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، وابن جرير أيضا ، كلهم فى تفاسيرهم من حديث سفيان الثورى ، عن الأعمش ، عن يحيى بن عُمَارة الكوفى ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس ، فذكر نحوه . وقال الترمذى : « حسن » . (٤)

---

(١) فى تفسير الطبرى : « فنفروا وقالوا » .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٣/ ٨٠ – ٨١ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٣/ ٧٩ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ١/ ٣٦٢ ، وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة « ص » ، الحديث ٣٢٨٥ : ٩/ ٩٩ – ١٠١ .

وقولهم : (ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة) ، أى : ما سمعنا بهذا الذى يدعونا إليه محمد من التوحيد فى الملة الآخرة .

قال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : يعنون دين قريش .

وقال غيرهم : يعنون النصرانية . قاله محمد بن كعب ، والسدى .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة) ، يعنى النصرانية ، قالوا : لو كان هذا القرآن حقا أخبرتنا به النصارى (١) .

(إن هذا إلا اختلاق) ، قال مجاهد ، وقتادة : كذب . وقال ابن عباس : تخرص .

وقولهم : (أأنزل عليه الذكر من بيننا) ، يعنى : أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم ، كما قالوا فى الآية الأخرى : (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ؟ قال الله تعالى : (أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) (٢) . ولهذا لما قالوا هذا الذى دل على جهلهم وقلة عقلهم ، فى استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم ، قال الله تعالى : (بل لما يذوقوا عذاب) ، أى : إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذابَ الله ونقمته ، سيعلمون غبَّ (٣) ما قالوا ، وما كذبوا به ، يوم يُدَعّون إلى نار جهنم دعا .

ثم قال مبينا أنه المتصرف فى ملكه ، الفعال لما يشاء ، الذى يعطى من يشاء ما يشاء ، [ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، ويهدى من يشاء ، ويضل من يشاء] ، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده ، ويختم على قلب من يشاء ، فلا يهديه أحد من بعد الله ، وإن العباد لا يملكون شيئا من الأمر ، وليس إليهم من التصرف فى الملك ولا مثقال ذرة ، وما يملكون من قطمير . ولهذا قال تعالى منكرا عليهم : (أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب) ؟ أى : العزيز الذى لا يُرام جنابه ، الوهاب الذى يعطى ما يريد لمن يريد .

وهذه الآية شبيهة بقوله : (أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا . أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما . فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً) (٤) . وقوله : (قل : لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى ، إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق ، وكان الإنسان قتورا) (٥) . وذلك بعد الحكاية عن الكفار أنهم أنكروا بعثة الرسول البَشَرِىّ ، وكما أخبر تعالى عن قوم صالح حين قالوا : (أألقى الذكر عليه من بيننا ، بل هو كذاب أشر . سيعلمون غداً من الكذاب الأشر) (٦) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٣/٨٠ .
(٢) سورة الزخرف ، آية : ٣١ ، ٣٢ .
(٣) أى : عاقبته .
(٤) سورة النساء ، آية : ٥٣ - ٥٥ .
(٥) سورة الإسراء ، آية : ١٠٠ .
(٦) سورة القمر ، آية : ٢٥ ، ٢٦ .

وقوله : (أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا فى الاسباب) ، أى : إن كان لهم ذلك فليصعدو فى الأسباب .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وغيرهم : يعنى طرق السماء .

وقال الضحاك : فليصعدوا إلى السماء السابعة .

ثم قال : (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) ، أى : هؤلاء الجند المكذبون الذين هم فى عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويُكبتُون ، كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين . وهذه كقوله : (أم يقولون : نحن جميع منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر) ، وكان ذلك يوم بدر ، (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر(١)) .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية ، وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات فى مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء . وقد تقدّمت قصصهم مبسوطة فى أماكن متعددة .

وقوله : (أولئك الأحزاب) ، أى : كانوا أكثر منكم وأشد قوة ، وأكثر أموالا وأولاداً ، فما دافع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء ، لما جاء أمر ربك . ولهذا قال : (إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب) . فجعل علة هلاكهم هو تكذيبهم بالرسل ، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر

وقوله : (وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) ــ قال مالك ، عن زيد بن أسلم : أى ليس لها مثنوية(٢) ، أى : ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها ، أى : قد اقتربت ودنت وأزفت . وهذه الصيحة هى نفخة الفزع التى يأمر الله إسرافيل أن يُطوّلها ، فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع ، إلا من استثنى الله عز وجل .

وقوله : (وقالوا : ربنا ، عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) : هذا إنكار من الله على المشركين فى دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب ، فإن القطّ هو الكتابُ . وقيل : هو الحظ والنصيب .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، والحسن ، وغير واحد : سألوا تعجيل العذاب ــ زاد قتادة : كما قالوا : (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم) (٣) .

---

(١) سورة القمر ، الآيات : ٤٤ - ٤٦ .
(٢) أى : ليس لها استثناء ولا رد .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٣/٨٥ .

وقيل : سألوا تعجيل نصيبهم من الجنة ، إن كانت موجودة أن يلقوا ذاك فى الدنيا ، وإنما خرّج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب .

وقال ابن جرير : سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر فى الدنيا (١) ، وهذا الذى قاله جيد ، وعليه يدور كلام الضحاك ، وإسماعيل بن أبى خالد ، والله أعلم .

ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد ، قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم آمراً له بالصبر على أذاهم ، ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر .

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود — عليه الصلاة والسلام — : أنه كان ذا أيد ، والأيد : القوة فى العلم والعمل ، قال ابن زيد والسدى : الأيد : القوة — وقرأ ابن زيد : (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون (١)) .

وقال مجاهد : « الأيد : القوة فى الطاعة » .

وقال قتادة : أعطى داود قوة فى العبادة ، وفقها فى الإسلام ، وقد ذُكر لنا أنه — عليه السلام — كان يقوم ثلث الليل ، ويصوم نصف الدهر(١) .

وهذا ثابت فى الصحيحين عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوما ويفطر يوما ، ولا يفر إذا لاقى(٢) » ، وإنه كان أوابا ، وهو الرجاع إلى الله عز وجل فى جميع أموره وشئونه .

وقوله : (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق) ، أى : إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار ، كما قال تعالى : (ياجبال، أوبى معه والطير (٣)) . وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه ، وترجع بترجيعه ، إذا مر به الطير وهو سابح فى الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور ، لا تستطيع الذهاب ، بل تقف فى الهواء ، وتسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات ، ترجع معه ، وتسبح تبعا له .

قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا محمد بن بشر ، عن مسْعَر ، عن عبد الكريم ، عن موسى بن أبى كثير ، عن ابن عباس أنه بلغه : أن أم هانىء ذكرت أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يوم فتح مكة صلى الضحى ثمان ركعات ، قال ابن عباس : قد ظننت أن لهذه الساعة صلاة ، يقول الله تعالى : (يسبحن بالعشى والإشراق) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٣/٨٦ .

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية الثالثة عشرة من سورة سبأ ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٦/٤٨٨ .

(٣) سورة سبأ ، آية : ١٠ .

ثم رواه من حديث سعيد بن أبي عَرُوبة ، عن أبي المتوكل ، عن أيوب بن صفوان ، عن مولاه (١) عبدالله ابن الحارث بن نوفل ، أن ابن عباس كان لا يصلي الضحى . قال : فأدخلته على أم هانىء فقلت : أخبري هذا ما أخبرتني [به] : فقالت أم هانىء : دخل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم الفتح في بيتي ، ثم أمر بماء صُبّ في قصعة ، ثم أمر بثوب ، فأخذ بيني وبينه ، فاغتسل ثم رَش ناحية البيت ، فصلى ثمان ركعات ، وذلك من الضحى ، قيامهن وركوعهن وسجودهن [وجلوسهن] سواء ، قريب بعضهن من بعض . فخرج ابن عباس وهو يقول : لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن : (يسبحن بالعشي والإشراق) ، وكنت أقول : أين صلاة الإشراق. وكان بَعدُ يقول : صلاة الإشراق (٢) .

ولهذا قال : (والطير محشورة) ، أي : محبوسة في الهواء ، (كل له أواب) ، أي : مطيع يسبح تبعا له .

قال سعيد بن جبير ، وقتادة ، ومالك عن زيد بن أسلم ، وابن زيد : (كل له أواب) ، أي : مطيع .

(وشددنا ملكه) ، أي : جعلنا له ملكا كاملا من جميع ما يحتاج إليه الملوك .

قال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : كان أشد أهل الدنيا سلطاناً .

وقال السدي : كان يحرسه في كل يوم أربعة آلاف .

وقال بعض السلف : بلغني أنه كان حَرَسُه في كل ليلة ثلاثة وثلاثين ألفاً ، لا تدور عليهم النَّوبة إلى مثلها من [العام] القابل .

وقال غيره : أربعون ألفا مشتملون (٣) بالسلاح .

وقد ذكر ابنُ جرير ، وابن أبي حاتم ، من رواية علْباء بن أحمر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن نفَرين من بني إسرائيل استعدى أحدهما على الآخر إلى داود ـ عليه السلام ـ أنه اغتصبه بقراً ، فأنكر الآخر ، ولم يكن للمدعى بينه ، فأرجأ أمرهما . فلما كان الليل أمر داود ـ عليه السلام ـ في المنام بقتل المدعى . فلما كان النهار طلبهما وأمر بقتل المدعى ، فقال : يا نبي الله ، علام تقتلني وقد اغتصبني هذا بقري ؟ فقال : إن الله عز وجل أمرني بقتلك ، فأنا قاتلك لا محالة . فقال : والله يا نبي الله إن الله لم يأمرك بقتلي لأجل هذا الذي ادعيتُ عليه ، وإني لصادق فيما ادعيت ، ولكني كنت قد اغتلت أباه وقتلته ، ولم يشعر بذلك أحد ، فأمر به داود فقتل .

قال ابن عباس : فاشتدت هيبته في بني إسرائيل ، وهو الذي يقول الله عز وجل : (وشددنا ملكه (٤)) .

---

(١) في المخطوطة : « عن مولى » . والصواب ما أثبتناه ، انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٢٥٠/١/١ .
(٢) تفسير الطبري : ٨٧/٢٣ .
(٣) كذا في الطبعات السابقة . وفي المخطوطة : « مشتكون بالسلاح » . ولعل صوابه : شاكون السلاح .
(٤) تفسير الطبري : ٨٨/٢٣ .

وقوله : (وآتيناه الحكمة) — قال مجاهد : يعنى الفهم والعقل والفطنة . وقال مرّة : الحكمة والعدل . وقال مرّة : الصواب .

وقال قتادة : كتاب الله واتباع ما فيه .

وقال السدى : (الحكمة) : النبوة .

وقوله : (وفصل الخطاب) ، قال شريح القاضى ، والشعبى : فصل الخطاب : الشهود والأيمان .

وقال قتادة : شاهدان على المدعى ، أو يمين المدعى عليه ، هو فصل الخطاب الذى فصل به الأنبياء والرسل — أو قال : المؤمنون والصالحون — وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة . وكذا قال أبو عبد الرحمن السلمى .

وقال مجاهد ، والسدى : هو إصابة القضاء وفهمه .

وقال مجاهد أيضا : هو الفصل فى الكلام وفى الحكم .

وهذا يشمل هذا كله ، وهو المراد ، واختاره ابن جرير (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا عمر بن شبّة النميرى ، حدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنى عبد العزيز بن أبى ثابت ، عن عبد الرحمن بن أبى الزناد ، عن أبيه ، عن بلال بن أبى بردة ، عن أبيه ، عن أبى موسى — رضى الله عنه — قال : أول من قال « أما بعد » داود عليه السلام ، وهو فصل الخطاب .

وكذا قال الشعبى : فصل الخطاب : « أما بعد » .

* وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾

قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ، ولكن روى ابن أبى حاتم هنا حديثا لا يصح سنده ، لأنه من رواية يزيد الرقاشى ، عن أنس — ويزيد وإن كان من الصالحين — لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة ، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يُرَدّ علمها إلى الله عز وجل ، فإن القرآن حق ، وما تضمن فهو حق أيضا .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٣/٨٩ .

وقوله : (ففزع منهم) ، إنما كان ذلك لأنه كان فى محرابه ، وهو أشرف مكان فى داره ، وكان قد أمرَ أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم ، فلم يشعر إلا بشخصين قد تَسَوّرا عليه المحراب ، أى : احتاطا به يسألانه عن شأنهما .

وقوله : (وعزنى فى الخطاب) ، أى : غلَبَنى . يقال : عز يعز : إذا قهر وغلب .

وقوله : (وظن داود أنما فتناه) – قال على ابن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أى اختبرناه . (١) .

وقوله : (وخر راكعا) ، أى : ساجدا (وأناب) . ويحتمل أنه ركع أولا ، ثم سجد بعد ذلك . وقد ذكر أنه استمر ساجداً أربعين صباحا ، (فغفرنا له ذلك) . أى : ما كان منه مما يقال فيه : إن حسنات الأبرار سيئاتُ المقربين .

وقد اختلف الأئمة – رضى الله عنهم – فى سجدة « ص » ، هل هى من عزائم السجود ؟ على قولين ، الجديد من مذهب الشافعى – رحمه الله – أنها ليست من عزائم السجود ، بل هى سجدة شكر . والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد حيث قال :

حدثنا إسماعيل – وهو ابن عُلَيّة – عن أيوب ، عن ابن عباس أنه قال فى السجود فى « ص » : ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها (٢) .

ورواه البخارى ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى فى تفسيره ، من حديث أيوب ، به وقال الترمذى : « حسن صحيح (٣) » .

وقال النسائى أيضا عند تفسير هذه الآية : أخبرنى إبراهيم بن الحسن – هو المقْسَمى – حدثنا حجاج بن محمد ، عن عمرو بن ذر ، عن أبيه ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن النبى صلى الله عليه وسلم سجد فى « ص » ، وقال : « سجدها داود – عليه السلام – توبة ، ونسجدها شكرا » .

تفرد بروايته النسائى ، ورجال إسناده كلهم ثقات. وقد أخبرنى شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزِّى قراءة عليه وأنا أسمع :

أخبرنا أبو إسحاق المدرجى، أخبرنا زاهر بن أبى طاهر الثقفى، أخبرنا زاهر بن طاهر الشحّامى، أخبرنا أبو سعد الكنجروذى ، أخبرنا الحاكم أبو أحمد[محمد] بن محمد الحافظ ، أخبرنا أبو العباس السراج ، حدثنا هارون بن عبد الله ، حدثنا محمد بن يزيد بن خُنَيْس ، عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبى يزيد قال : قال لى ابن جريج : يا حسن ، حدثنى جدك عبيد الله بن أبى يزيد ، عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – فقال : يا رسول الله ، إنى رأيت فيما يرى النائم كأنى أصلى خلف شجرة ، فقرأت السجدة ، فسجدتُ فسجدتِ الشجرة لسجودى ، فسمعتها تقول وهي ساجدة : اللهم ، اكتب لى بها عندك أجرا . واجعلها لى عندك ذخرا . وضع عنى بها وزرا ، واقبلها منى كما قبلتها من عبدك داود .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٣/٩٢ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١/٣٦٠ .

(٣) البخارى ، أبواب سجود القرآن : ٢/٥٥ ، وسنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « السجود فى ص » ، الحديث ١٤٠٩: ٢/٥٩ . وتحفة الأحوذى ، أبواب السفر ، باب « ما جاء فى السجدة فى ص » ، الحديث ٥٧٤ : ٣/١٧٦ .

قال ابن عباس : فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم قام فقرأ السجدة ، ثم سجد ، فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة » .

رواه الترمذي عن قتيبة ، وابن ماجه عن أبي بكر بن خلاد ، كلاهما عن محمد بن يزيد بن خنيس ، نحوه ، وقال الترمذي : « غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه (١) » .

وقال البخاري عند تفسيرها أيضاً: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا محمد بن عبيد الطنافسي ، عن العوام قال : سألت مجاهدا عن سجدة « ص » فقال : سألت ابن عباس : من أين سَجَدْتَ ؟ فقال : أو ما تقرأ : (ومن ذريته داود وسليمان)، (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) ، فكان داود — عليه السلام — ممن أمرَ نَبِيّكم — صلى الله عليه وسلم — أن يقتدى به ، فسجدها داود عليه السلام ، فسجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا يزيد بن زُرَيع ، حدثنا حميد ، حدثنا بكر — هو ابن عبد الله المزني — أنه أخبره : أن أبا سعيد الخدري رأى رؤيا أنه يكتب « ص » ، فلما بلغ إلى التي يسجد(٣) بها رأى الدواة والقلم وكلَّ شيْ بحضرته انقلب ساجداً ، قال : فقصها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يزل يسجد بها ، بعد . تفرد به أحمد (٤) .

وقال أبو داود : حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث ، عن سعيد بن أبي هلال ، عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ، عن أبي سعيد الخُدْرِي رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر (ص) ، فلما بلغ السجدة نزل فسجد ، وسجد الناس معه ، فلما كان يوم آخر قرأها ، فلما بلغ السجدة تَشَزَّن (٥) الناس للسجود ، فقال : « إنما هي توبة نبي ، ولكني رأيتكم تَشَزَّنْتُم » . فنزل وسجد (٦) [وسجدوا] .

تفرد به أبو داود ، وإسناده على شرط الصحيح .

وقوله : (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب)، أي: وإن له يوم القيامة لقربة يُقَرِّبه الله عز وجل بها ، وحسن مرجع ، وهو الدرجات العاليات في الجنة ، لتوبته وعدله التام في ملكه . كما جاء في الصحيح : « المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا (٧) » .

---

(١) تحفة الأحوذي ، أبواب الدعوات ، باب « ماجاء ما يقول في سجود القرآن » ، الحديث ٣٤٨٤ : ٣٨٣/٩ . وابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب « سجود القرآن» ، الحديث ١٠٥٣ : ٣٣٤/١ .

(٢) البخاري ، تفسير سورة «ص» : ١٥٥/٦ .

(٣) في المسند : « بلغ إلى سجدتها » .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٧٨/٣ . وانظر أيضاً : ٨٤/٣ .

(٥) التشزن : التأهب والتهيؤ للشيء والاستعداد له .

(٦) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « السجود في ص » ، الحديث ١٤١٠ : ٥٩/٢ — ٦٠، وما بين القوسين منه .

(٧) مسلم ، كتاب الإمارة ، باب « فضيلة الإمام العادل » : ٧/٦ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا فضيل،عن عطية،عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسا ، إمام عادل . وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا ، إمام جائر [١] » .

ورواه الترمذى من حديث فضيل ــ وهو ابن مرزوق الأغر ــ عن عطية ، به . وقال : « لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه [٢] » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبد الله بن أبي زياد ، حدثنا سيار ، حدثنا جعفر بن سليمان : سمعت مالك بن دينار فى قوله : (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) ، قال : يقام داود يوم القيامة عند ساق العرش ، ثم يقول : يا داود ، مجدنى اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذى كنت تمجدنى به فى الدنيا . فيقول : وكيف وقد سلبته ؟ فيقول : إنى أرده عليك اليوم . قال : فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان .

يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس [بالحق] المنزل من عنده تبارك وتعالى ، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيله . وقد توعد تعالى من ضل عن سبيله ، وتناسى يوم الحساب ، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن خالد ، حدثنا الوليد ، حدثنا مروان بن جناح ، حدثنى إبراهيم أبو زرعة ــ وكان قد قرأ الكتاب ــ أن الوليد بن عبد الملك قال له : أيحاسب الخليفة،فإنك قد قرأت الكتاب الأول،وقرأت القرآن وفقهت ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، أقول؟ قال : قل فى أمان . قلت : يا أمير المؤمنين ، أنت أكرم على الله أو داود ؟ إن الله ــ عز وجل ــ جمع له النبوة والخلافة ، ثم توعده فى كتابه فقال : (يا داود . إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون) ... الآية .

وقال عكرمة : (لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) ، هذا من المقدم والمؤخر ، لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا .

وقال السدى : لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب .

وهذا القول أمشى على ظاهر الآية ، فالله أعلم .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣/٢٢ .

(٢) تحفة الأحوذى ، أبواب الأحكام ، باب : ما جاء فى الإمام العادل ، الحديث ١٣٤٤ : ٤/٥٥٩ ــ ٥٦٠ .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩) ﴾

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثا ، وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه ، ثم يجمعهم ليوم الجمع ، فيثيب المطيع ويعذب الكافر . ولهذا قال تعالى: (وما خلقنا السماء والأرض وما بينها باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا)،أى : الذين لا يرون بعثا ولا معادا ، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط ، (فويل للذين كفروا من النار) ، أى : ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم .

ثم بين تعالى أنه من عدله وحكمته لايساوى بين المؤمن والكافر ، فقال : (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض، أم نجعل المتقين كالفجار) ، أى: لانفعل ذلك ، ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا بُدّ من دار أخرى ، يثاب فيها هذا المطيع ، ويعاقب فيها هذا الفاجر . وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطرَ المستقيمة على أنه لابد من معاد وجزاء ، فإنا نرى الظالم الباغى يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك ، ونرى المطيع المظلوم يموت بكَمَده ، فلابد فى حِكْمَة الحكيم العليم العادل ، الذى لايظلم مثقال ذرة ، من إنصاف هذا من هذا ؛ وإذا لم يقع هذا فى هذه الدار ،فتعين [أن هناك] داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة . ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة ، قال : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب) ، أى : ذوو العقول ، وهى الألباب ، جمع لب ، وهو العقل .

قال الحسن البصرى : والله ماتَدَبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده ، حتى إن أحدهم ليقول : قرأت القرآن ، ما يُرَى له القرآنُ فى خلق ولاعمل . رواه ابن أبى حاتم .

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) ﴾

يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود سليمان ، أى : نبياً ،كما قال : (وورث سليمان داود) (١) ، أى : فى النبوة ، وإلا فقد كان له بنون غيره ، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر .

وقوله : (نعم العبد إنه أواب) ، ثناء على سليمان عليه السلام بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمود بن خالد ، حدثنا الوليد ، حدثنا ابن جابر، حدثنا مكحول قال : لما وهب الله لداود سليمان عليه السلام قال له : يا بنى ، ما أحْسَنُ ؟ قال : سكينة الله وإيمان. قال: فما أقبح ؟ قال : كفر

---

(١) سورة النمل ، آية : ١٦ .

بعد إعانة » قال : فما أحلى ؟ قال : روح الله بين عباده . قال : فما أبرد ؟ قال : عفو الله عن الناس ، وعفو الناس بعضهم عن بعض . قال داود عليه السلام : فأنت نبي .

وقوله : (إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد) ، أى : إذ عرض على سليمان فى حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات .

قال مجاهد : وهى التى تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة ، والجياد : السراع . وكذا قال غير واحد من السلف .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا مُؤمَّل ، حدثنا سفيان ، عن أبيه سعيد بن مسروق ، عن إبراهيم التيمى فى قوله : (إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد) ، قال : كانت عشرين فرساً ذات أجنحة . كذا رواه ابن جرير (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا ابن أبى زائدة ، أخبرنى إسرائيل ، عن سعيد بن مسروق ، عن إبراهيم التيمى قال : كانت الخيل التى شغلت سليمان عليه الصلاة والسلام عشرين ألف فرس ، فعقرها . وهذا أشبه ، والله أعلم .

وقال أبو داود : حدثنا محمد بن عوف ، حدثنا سعيد بن أبى مريم ، أخبرنا يحيى بن أيوب ، حدثنى عُمَارة بن غَزِيَّة : أن محمد بن إبراهيم حدثه ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : قَدِمَ رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — من غزوة تبوك — أو : خيبر — وفى سهوتها(٢) ستر ، فهبت الريح ، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة — لُعَب — فقال : « ما هذا ياعائشة ؟ » قالت : بناتى . ورأى بينهن فرساً له جناحان من رِقاع(٣) ، فقال : « ما هذا الذى أرى وسطهن ؟ » : قالت : فرس . قال : « وما هذا الذى عليه ؟ » : قالت : جناحان قال : « فرس له جناحان ؟ ! قالت : أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة ؟ قالت : فضحك حتى رأيت نواجذه(٤) صلى الله عليه وسلم .

وقوله : (فقال : إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب) . ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر ، والذى يقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً ، كما شُغِل النبى صلى الله عليه وسلم يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب ، وذلك ثابت فى الصحيحين من غير وجه ، من ذلك عن جابر قال : جاء عمر — رضى الله عنه — يوم الخندق بعد ما غربت الشمس ، فجعل يسب كفار قريش ، ويقول : يارسول الله ، والله ماكدْتُ أصلى العصر حتى كادت الشمس تغرب . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٣/٩٩ .

(٢) السهوة : بيت صغير منحدر فى الأرض قليلا ، شبيه بالمخدع والخزانة . وقيل : هو كالصفة تكون بين يدى البيت . وقيل : شبيه بالرف أو الطاق يوضع فيه الشىء .

(٣) أى : جلد .

(٤) سنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « اللعب بالبنات » .

« والله ما صليتها » : فقال : فقمنا إلى بُطْحَان(١) فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب(٢) .

ويحتمل أنه كان سائغاً في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال ، والخيل تراد للقتال ، وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعاً فنسخ ذلك بصلاة الخوف . ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسايفة والمضايقة ، حيث لا يمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود ، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم في فتح تُستَر ، وهو منقول عن مكحول ، والأوزاعي، وغيرهما . والأول أقرب ، لأنه قال بعدها : (ردوها على فطفق مسحا بالسوق والأعناق) .

قال الحسن البصري : قال : لا ، والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك ، ثم أمر بها فعقرت ، وكذا قال قتادة .

وقال السدي : ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : جعل يمسح أعراف الخيل ، وعراقيبها حباً لها(٣) .

وهذا القول اختاره ابن جرير ، قال : لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة ، ويهلك مالا من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها . وهذا الذي رَجّح به ابن جرير فيه نظر ؛ لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا ، ولا سيما إذا كان غضباً لله عز وجل بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة ، ولهذا لما خرج عنها لله تعالى عوضه الله تعالى ما هو خير منها ، وهي الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، غدوها شهر ورواحها شهر ، فهذا أسرع وخير من الخيل .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن حميد بن هلال ، عن أبي قتادة وأبي الدهماء — وكانا يكثران السفر نحو البيت — قالا : أتينا على رجل من أهل البادية ، فقال البدوي : أخذ بيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يعلمني مما علمه الله تعالى ، وقال : « إنك لا تدع شيئاً اتقاء الله — عز وجل — إلا أعطاك الله خيراً منه(٤) » .

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى : (ولقد فتنا سليمان) ، أي : اختبرناه بأن سلبناه الملك مرة ، (وألقينا على كرسيه جسدا) — قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم : يعني شيطاناً . (ثم أناب) ، أي : رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته .

---

(١) بطحان — بضم أوله ، وسكون ثانيه عند المحدثين . وأما أهل اللغة فيقولونه بفتح أوله وكسر ثانيه — : « واد بالمدينة » .

(٢) البخاري ، كتاب المغازي ، باب « غزوة الخندق ، وهي غزوة الأحزاب » : ١٤١/٥ . ومسلم ، كتاب المساجد ، باب « الدليل لمن قال : الصلاة الوسطى هي صلاة العصر » : ١١٣/٢ .

(٣) تفسير الطبري : ١٠٠/٢٣ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٧٨/٥ . وانظر أيضاً : ٧٩/٥ .

قال ابن جرير : وكان اسم ذلك الشيطان صخراً(١) : قاله ابن عباس ، وقتادة : وقيل: آصف : قاله مجاهد : وقيل: أصروا : قاله مجاهد أيضاً : وقيل : حبقيق قاله السدى : وقد ذكروا هذه القصة مبسوطة ومختصرة .

وقد قال سعيد بن أبى عَرُوبة ، عن قتادة : قال أمر سليمان — عليه والسلام — ببناء بيت المقدس ، فقيل له: ابنه ولا يُسمعُ فيه صوت حديد : قال : فطلب ذلك فلم يقدر عليه : فقيل له : إن شيطاناً فى البحر يقال له « صخر» شبه المارد : قال : فطلبه وكانت عين فى البحر يَرِدُها فى كل سبعة أيام مرة ، فنُزح ماؤها وجعل فيها خَمْر ، فجاء يوم ورْده فإذا هو بالخمر ، فقال : إنك لشراب طيب ، إلا أنك تُصبين (٢) الحليم ، وتزيدين الجاهل جهلا . ثم رجع حتى عَطِش عَطَشاً شديداً ، ثم أتاها فقال : إنك لشراب طيب ، إلا أنك تصبين الحليم ، وتزيدين الجاهل جهلا : ثم شربها حتى غلبت على عقله ، قال : فأرى الخاتم ، أو ختم به بين كتفيه فذَلّ . قال: وكان ملكه فى خاتمه ، فأتى به سليمان فقال : إنه قد أمرنا ببناء هذا البيت ، وقيل لنا : لايسمعن فيه صوت حديد . قال : فأتى ببيض الهدهد فجعل عليه زجاجة ، فجاء الهدهد فدار حولها ، فجعل يَرَى بيضه ولايقدر عليه ، فذهب فجاء بالماس فوضعه عليه ، فقطعها به ، حتى أفضى إلى بيضه : فأخذ الماس ، فجعلوا يقطعون به الحجارة : وكان سليمان إذا أراد أن يدخل الخلاء — أو : الحمام — لم يدخل بخاتمه فانطلق يوماً إلى الحمام ، وذلك الشيطان صخر معه ، وذلك عند مقارفة قارف فيه بعض نسائه. قال : فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه ، فألقاه فى البحر ، فالتقمته سمكة ، و نُزِع ملكُ سليمان منه ، وألقىَ على الشيطان شَبَه سليمان : قال : فجاء فقعد على كرسيه وسريره ، وسُلّط على ملك سليمان كله غير نسائه . قال : فجعل يقضى بينهم ، وجعلوا ينكرون منه أشياء ، [حتى قالوا : لقد فتن نبى الله] . وكان فيهم رجل يشبهونه بعمر بن الخطاب فى القوة فقال : والله لأجربنه : قال : فقال : يا نبى الله — وهو لايرى إلا أنه نبى الله — أحدنا تصيبه الجنابة فى الليلةالباردة ، فيدع الغسل عمداً حتى تطلع الشمس ، أترى عليه بأساً ؟ فقال : لا : قال : فبينا هو كذلك أربعين ليلة حتى وجد نبى الله خاتمه فى بطن سمكة ، فأقبل فجعل لايستقبله جنى ولا طير إلا سجد له ، حتى انتهى إليهم ، (وألقينا على كرسيه جسداً)، قال : هو الشيطان صخر(٣) .

وقال السدى : (ولقد فتنا سليمان) ، أى : ابتلينا سليمان ، (وألقينا على كرسيه جسداً) ، قال : جلس الشيطان على كرسيه أربعين يوماً : قال : وكان لسليمان — عليه السلام — مائةامرأة ، وكانت امرأة منهن يقال لها «جرادة»، وهى آثرُ نسائه وآمَنُهُنّ عنده ، وكان إذا أجنب أو أتى حاجة نزع خاتمه ، ولم يَأْتَمِنْ عليه أحداً من الناس غيرها ، فأعطاها يوماً خاتمه ودخل الخلاء ، فخرج الشيطان فى صورته ، فقال : هاتى الخاتم : فأعطته ، فجاء حتى جلس على مجلس سليمان وخرج سليمان بعد ذلك فسألها أن تعطيه خاتمه ، فقالت : ألم تأخذه قبل ؟ قال : لا : وخرج مكانه تائهاً : قال : ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوماً ، قال : فأنكر الناس أحكامه ، فاجتمع قراء بنى إسرائيل وعلماؤهم ، فجاءوا حتى دخلوا على نسائه ، فقالوا : إنا قد أنكرنا هذا ، فإن كان سليمان فقد ذهب عقلُه وأنكرنا أحكامه : قال : فبكى النساء

(١) تفسير الطبرى : ٢٣/١٠٠ .
(٢) أى : تجعليه يفعل فعل أهل اللهو والجهل .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٣/١٠١ .

عند ذلك ، قال: فأقبلوا يمشون حتى أتوا،فأحدقوا به ثم نشروا التوراة فقرأوا (١) قال:فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفة ، والخاتم معه . ثم طار حتى ذهب إلى البحر ، فوقع الخاتم منه فى البحر ، فابتلعه حوت من حيتان البحر . قال : وأقبل سليمان فى حاله التى كان فيها ، حتى انتهى إلى صياد من صيادى البحر ، وهو جائع ، وقد اشتد جوعه ، فاستطعمهم(٢) من صيدهم ، وقال : إنى أنا سليمان : فقام إليه بعضهم فضربه بعصا فشجّه، فجعل يغسل دمه وهو على شاطىء البحر ، فلام الصيادون صاحبهم الذى ضربه،فقالوا : بئس ما صنعت حيث ضربته . قال : إنه زعم أنه سليمان ؛ قال : فأعطوه سمكتين مما قد مَذِر(٣) عندهم ، فلم يشغله ما كان به من الضرب حتى قام إلى شط البحر، فشق بطونهما ، فجعل يغسل ، فوجد خاتمه فى بطن إحداهما ، فأخذه فلبسه،فرد الله عليه بهاءه وملكه،وجاءت الطير حتى حامت عليه ، فعرف القوم أنه سليمان — عليه السلام — فقام القوم يعتذرون مما صنعوا ، فقال : ما أحمدكم على عذركم ، ولا ألومكم على ما كان منكم ، كان هذا الأمر لابد منه . قال : فجاء حتى [أتى] ملكه ، وأرسل إلى الشيطان ، فجيء به أمر به فجعل فى صندوق من حديد ، ثم أطبق عليه ، وقفل عليه بقفل ، وختم عليه بخاتمه ، ثم أمر به فألقى فى البحر ، فهو فيه حتى تقوم الساعة . وكان اسمه حبقيق(٤) . قال: وسخر له الريح ، ولم تكن سخرت له قبل ذلك ، وهو قوله : (وهب لى ملكاً لاينبغى لأحد من بعدى ، إنك أنت الوهاب) .

وقال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد قوله : (وألقينا على كرسيه جسداً) ، قال : شيطاناً يقال له: آصف . فقال له سليمان : كيف تفتنون الناس ؟ قال : أرنى خاتمك أخبرك . فلما أعطاه إياه نبذه آصف فى البحر ، فساح سليمان وذهب ملكه ، وقعد آصف على كرسيه ، ومنعه الله نساء سليمان فلم يقربهن — ولم يقربنه وأنكرْنَه . قال : فكان سليمان يستطعم ، فيقول : أتعرفونى ؟ أطعمونى ، أنا سليمان . فيكذبونه ، حتى أعطته امرأة يوماً حوتاً فجعل يطيِّبُ بطنه ، فوجد خاتمه فى بطنه ، فرجع إليه ملكه ، وفر آصف ، فدخل البحر فاراً(٥) .

وهذه كلها من الإسرائيليات ، ومن أنكرها ماقال ابن أبى حاتم :

حدثنا على بن الحسين ، حدثنا محمد بن العلاء وعثمان بن أبى شيبة وعلى بن محمد قالوا : حدثنا أبو معاوية ، أخبرنا الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب) ، قال : أراد سليمان أن يدخل الخلاء ، فأعطى الجرادة خاتمه — وكانت الجرادة امرأته ، وكانت أحب نسائه إليه — فجاء الشيطان فى صورة سليمان ، فقال لها : هاتى خاتمى . فأعطته [إياه] . فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين، فلما خرج سليمان من الخلاء قال لها : هاتى خاتمى . قالت : قد أعطيته سليمان . [قال : أنا سليمان] . قالت : كذبت ، لست سليمان ؛ فجعل لايأتى أحداً فيقول له : « أنا سليمان » ، إلا كذبه ، حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة . فلمارأى ذلك عرَف أنه من أمر الله عز وجل . قال : وقام الشيطان يحكم بين الناس ، فلما أراد الله أن يرد على سليمان سلطانه ، ألقى فى قلوب الناس

---

(١) فى المخطوطة : « ثم نشروا فقرأوا التوراة » . والمثبت من تفسير الطبرى .
(٢) فى المخطوطة : « فاستطعمه من صيده » . والمثبت من تفسير الطبرى .
(٣) أى : فسد .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٣ / ١٠١ — ١٠٢ .
(٥) تفسير الطبرى : ٢٣ / ١٠٠ — ١٠١ .

إنكارَ ذلك الشيطان . قال : فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا لهن : أتنكرن من سليمان شيئاً ؟ قلن : نعم ، إنه يأتينا ونحن حُيَّض ، وما كان يأتينا قبل ذلك . فلما رأى الشيطان أنْ قد فُطِن له ، ظن أن أمره قد انقطع ، فكتبوا كتباً فيها سحر وكفر ، فدفنوها تحت كرسى سليمان ، ثم أثاروها وقرءوها على الناس . وقالوا : بهذا كان يظهر سليمان على الناس ، فأكفر الناسُ سليمانَ ــ عليه السلام ــ فلم يزالوا يكفرونه ، وبعث ذلك الشيطانُ بالخاتم فطرحه فى البحر ، فتلقته سمكة فأخذته . وكان سليمان يحمل على شط البحر بالأجر ، فجاء رجل فاشترى سمكاً فيه تلك السمكة التى فى بطنها الخاتم ، فدعا سليمان فقال : تحمل لى هذا السمك ؟ فقال : نعم . قال : بكم ؟ قال : بسمكة من هذا السمك . قال : فحمل سليمان ــ عليه السلام ــ السمك ، ثم انطلق به إلى منزله ، فلما انتهى الرجل إلى بابه أعطاه تلك السمكة التى فى بطنها الخاتم ، فأخذها سليمان فشق بطنها ، فإذا الخاتم فى جوفها ، فأخذه فلبسه . قال : فلما لبسه دانت له الجن والإنس والشياطين ، وعاد إلى حاله ، وهَرَب الشيطان حتى دخل جزيرة من جزائر البحر ، فأرسل سليمان فى طلبه ، وكان شيطاناً مريداً ، فجعلوا يطلبونه ولا يقدرون عليه ، حتى وجدوه يوماً نائماً ، فجاءوا فبنوا عليه بنياناً من رصاص ، فاستيقظ فوثب فجعل لايثب فى مكان من البيت إلا انماط(١) معه الرصاص ، قال : فأخذوه فأوثقوه ، وجاءوا به إلى سليمان ، فأمر به فنقر له تخت من رخام ، ثم أدخل فى جوفه ، ثم سد بالنحاس ، ثم أمر به فطرح فى البحر ، فذلك قوله : ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب﴾ ، قال : يعنى الشيطان الذى كان سلط عليه .

إسناده إلى ابن عباس قوى ، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس ــ إن صح عنه ــ من أهل الكتاب ، وفيهم طائفة لايعتقدون نبوة سليمان عليه السلام ، فالظاهر أنهم يكذبون عليه . ولهذا كان فى هذا السياق منكرات من أشدها ذكر النساء، فإن المشهور أن ذلك الجنى لم يسلط على نساء سليمان ، بل عصمهن الله منه ، تشريفاً وتكريماً لنبيه صلى الله عليه وسلم. وقد رُويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف ، كسعيد بن المسيب،وزيد بن أسلم ، وجماعة آخرين ، وكلها متُلقَّاة من قصص أهل الكتاب ، والله أعلم بالصواب .

وقال يحيى بن أبى عمرو السيبانى(٢): وجد سليمان خاتمه فى عسقلان، فمشى فى خرقة إلى بيت المقدس، تواضعاً لله عز وجل. رواه ابن أبى حاتم .

وقد روى ابن أبى حاتم عن كعب الأحبار [فى صفة كرسى سليمان ــ عليه الصلاة والسلام ــ خبرا عجيبا ، فقال : حدثنا أبى رحمه الله ، حدثنا أبو صالح كاتب الليث ، أخبرنى أبو إسحاق المصرى ، عن كعب الأحبار] : أنه لما فرغ من حديث « إرم ذات العماد » قال له معاوية : يا أبا إسحاق ، أخبرنى عن كرسى سليمان بن داود ، وما كان عليه ، ومن أىّ شىء هو ؟ فقال : كان كرسى سليمان من أنياب الفيلة مُفَصَّصاً بالدر والياقوت والزبرجد واللؤلؤ . وقد جُعِل [له] درجة منها مُفَصَّصة(٣) بالدر والياقوت والزبرجد ، ثم أمر بالكرسى فحُفّ من جانبيه بالنخل ، نخل من ذهب ، شماريخها من ياقوت وزبرجد ولؤلؤ . وجعل على رءوس النخل [التى عن يمين الكرسى طواويس من ذهب ، ثم جُعِل

(١) أى : تنحى وبعد . وفى الدر المنثور ٥/٣١٠ : « إلا أن دار معه الرصاص » .
(٢) فى المخطوطة : « ابن أبى عروبة الشيبانى » . ولم نجده ، ولعل الصواب ما أثبتناه .
(٣) فى المخطوطة : « مفصصاً » ، ولعل الصواب ما أثبتناه .

على رءوس النخل التي على يسار الكرسي نسور من ذهب مقابلة الطواويس ؛ وجعل على يمين الدرجة الأولى شجرتا صنوبر من ذهب ، وعن يسارها أسدان من ذهب ، وعلى رءوس الأسدين عمودان من زبرجد ، وجُعِل من جانبي الكرسي] شجرتا كرم من ذهب ، قد أظلتا الكرسي ، وجعل عناقيدهما درا وياقوتا أحمر ؛ ثم جعل فوق درج الكرسي أسدان عظيمان من ذهب مجوفان محشوان مسكا وعنبرا ؛ فإذا أراد سليمان أن يصعد على كرسيه استدار الأسدان ساعة ، ثم يقعان فينضحان مافي أجوافهما من المسك والعنبر حول كرسي سليمان — عليه السلام — ثم يوضع منبران من ذهب ، واحد لخليفته والآخر لرئيس أحبار بني إسرائيل ذلك الزمان ؛ ثم يوضع أمام كرسيه سبعون منبرا من ذهب ، يقعد عليها سبعون قاضيا من بني إسرائيل وعلمائهم ، وأهل الشرف منهم والطول ، ومن خلف تلك المنابر كلها خمسة وثلاثون منبرا من ذهب ، ليس عليها أحد ، فإذا أراد أن يصعد على كرسيه وضع قدميه على الدرجة السفلى ، فاستدار الكرسي كله بما فيه وما عليه ، ويبسط الأسد يده اليمنى وينشر النسر جناحه الأيسر ، ثم يصعد على الدرجة الثانية ، فيبسط الأسد يده اليسرى ، وينشر النسر جناحه الأيمن ، فإذا استوى سليمان على الدرجة الثالثة وقعد على الكرسي ، أخذ نسر من تلك النسور عظيم تاج [سليمان] فوضعه على رأسه ، [فإذا وضعه على رأسه] استدار الكرسي بما فيه كما تدور الرحى المسرعة ؛ فقال معاوية رضي الله عنه(1) : وما الذي يديره يا أبا إسحاق ؟ قال : تنين من ذهب، ذلك الكرسي عليه وهو عظيم مما عمله صخر الجني ، فإذا أحست بدورانه تلك النسور والأُسْدُ والطواويس التي في أسفل الكرسي دُرْنَ إلى أعلاه ، فإذا وقف وقفن كلهن منكسات رءوسهن على رأس سليمان عليه السلام وهو جالس ، ثم ينضحن جميعاً ما في أجوافهن من المسك والعنبر على رأس سليمان عليه السلام. ثم تتناول حمامة من ذهب واقفة على عمود من جوهر، التوراةَ فتجعلها في يده ، فيقرءوها سليمان على الناس ؛

وذكر تمام الخبر ، وهو غريب جدا ؛

(قال : رب ، اغفرلي وهب لي ملكا ، لا ينبغي لأحد من بعدي ، إنك أنت الوهاب) ، قال بعضهم : معناه لا ينبغي لأحد من بعدي ، أي : لا يصلح لأحد أن يسلبنيه ، كما كان من قضية الجسد الذي ألقي على كرسيه ، لا أنه يحجر على من بعده من الناس . والصحيح أنه سأل من الله ملكا لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله ، وهذا هو ظاهر السياق من الآية ، وبه وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛

قال البخاري ، عند تفسير هذه الآية : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا روح ومحمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن محمد بن زياد ، عن أبي هريرة — رضي الله عنه — عن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : « إن عفريتا من الجن تَفَلَّتَ عليّ البارحة — أو كلمة نحوها — ليقطع علي الصلاة ، فأمكنني الله منه ، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تُصبحوا وتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخي سليمان : (رب ، اغفرلي ، وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي) ؛

---

(1) في المخطوطة : « فقال إسحاق » . والمثبت من الطبعات السابقة .

قال روح : فرده خاسئا (١) .

وكذا رواه مسلم والنسائي ، من حديث شعبة ، به (٢) .

وقال مسلم في صحيحه : حدثنا محمد بن سلمة المُرَادي ، حدثنا عبد الله بن وهب ، عن معاوية بن صالح ، حدثني ربيعة بن يَزِيد ، عن أبي إدريس الخولاني ، عن أبي الدرداء قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي (٣) ، فسمعناه يقول : «أعوذ بالله منك» . ثم قال : «ألعنك بلعنة الله» ـ ثلاثا ـ وبسط يَدَه كأنه يتناول شيئا ، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله ، قد سمعناك تقول في الصلاة شيئا لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك ؟ قال : « إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي ، فقلت : أعوذ بالله منك ـ ثلاث مرات ـ ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة . فلم يستأخر ثلاث مرات ، ثم أردت أَخْذَه والله لولا دعوة أخينا سليمان ، لأصبح موثقا يلعب به صبيان أهل المدينة (٤) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو أحمد ، حدثنا ميسرة بن معبد ، حدثنا أبو عبيد حاجب (٥) سليمان قال : رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائما يصلي ، فذهبت أمر بين يديه فردني ، ثم قال : حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قام يصلي صلاة الصبح وهو خلفه ، فقرأ فالتبست عليه القراءة ، فلما فرغ من صلاته قال : « لو رأيتموني وإبليس ، فأهويت بيدي ، فما زلت أخنقه حتى وجدت بَرْدَ لعابه بين إصبعي هاتين ـ الإبهام والتي تليها ـ ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطا بسارية من سواري المسجد ، يتلاعب به صبيان المدينة ، فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل (٦) » .

[وقد روى أبو داود منه : « من استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل»] ، عن أحمد بن أبي سُرَيج ، عن أبي أحمد الزبيري ، به (٧) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا إبراهيم بن محمد الفزاري ، حدثنا الأوزاعي ، حدثني ربيعة ابن يزيد ، عن عبد الله الديلمي قال : دخلت على عبد الله بن عمرو ، وهو في حائط له بالطائف يقال له «الوهط» ، وهو مُخَاصر فتى من قريش يُزَنّ بشُرْب (٨) الخمر ، فقلت : بلغني عنك حديث أنه « من شرب شربة خَمْر لم يقبل الله ـ عز وجل ـ له توبةً أربعين صباحاً ، وإن الشقي من شقي في بطن أمه ، وإنه من أتى بيت المقدس لا يَنْهَزه (٩) إلا الصلاة فيه ، خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه ، فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتذب يده من يده ، ثم انطلق ،

(١) البخاري ، تفسير سورة « ص » : ٦/١٥٦ .
(٢) مسلم ، كتاب المساجد ، باب « جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة . . . » : ٢ / ٧٢ .
(٣) كلمة « يصلي » غير ثابتة في مسلم . وهي في رواية النسائي ، انظر كتاب السهو ، باب «لعن إبليس في الصلاة» : ٣/١٣ .
(٤) مسلم في الكتاب والباب المتقدمين : ٢/٧٢ ـ ٧٣ .
(٥) في المسند : « صاحب » .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٣/٨٣ .
(٧) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « ما يؤمر المصلي أن يدرأ عن الممر بين يديه » .
(٨) أي : يتهم . يقال : زنه بكذا وأزنه : إذا اتهمه وظنه فيه .
(٩) النهز : الدفع . يريد أنه لم ينو بخروجه غير الصلاة فيه .

فقال عبد الله بن عمرو : إني لا أحل لأحد أن يقول علَيَّ ما لم أقل ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من شرب من الخمر شربة ، لم تقبل له صلاة أربعين صباحا ، فإن تاب تاب الله عليه ، [فإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحا ، فإن تاب تاب الله عليه . فإن عاد] (١) — قال : فلا أدرى فى الثالثة أو الرابعة — فإن عاد كان حقا على الله أن يسقيه من رَدْغَة (٢) الخبال يوم القيامة . قال : وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى ، ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على علم الله عز وجل » . وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن سليمان سأل الله تعالى ثلاثا ، فأعطاه اثنتين ، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة : سأله حكما يصادف حكمه ، فأعطاه إياه ، وسأله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، فأعطاه إياه ، وسأله : أيّما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة فى هذا المسجد ، خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه ، فنحن نرجو أن يكون الله تعالى قد أعطانا إياها (٣) » .

وقد روى هذا الفصل الأخير من هذا الحديث النسائى وابن ماجه من طرق ، عن عبد الله بن فيروز الديلمى ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز وجل خلالا ثلاثا » ... وذكره (٤) .

وقد روى من حديث رافع بن عمير — رضى الله عنه — بإسناد وسياق غريبين ، فقال الطبرانى :

حدثنا محمد بن الحسن بن قتيبة العسقلانى ، حدثنا محمد بن أيوب بن سويد ، حدثنى أبى ، حدثنا إبراهيم بن أبى عبلة ، عن أبى الزاهرية ، عن رافع بن عمير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله عز وجل لداود عليه السلام : ابن لى بيتاً فى الأرض . فبنى داود بيتاً لنفسه قبل البيت الذى أمر به ، فأوحى الله إليه : يا داود ، نصبت بيتك قبل بيتى ؟ قال : يا رب ، هكذا قضيت ، من ملك استأثر . ثم أخذ فى بناء المسجد ، فلما تم السور سقط ، ثلاثا ، فشكا ذلك إلى الله عز وجل ، فقال : يا داود ، إنك لا تصلح أن تبنى لى بيتاً . قال : ولم يا رب ؟ قال : لما جرى على يديك من الدماء . قال : يا رب ، أو ما كان ذلك فى هواك ومحبتك ؟ قال : بلى ، ولكنهم عبادى ، وأنا أرحمهم . فشق ذلك عليه ، فأوحى الله إليه : لا تحزن ، فإنى سأقضى بناءه على يدى ابنك سليمان . فلما مات داود أخذ سليمان فى بنيانه فلما تم قرب القرابين ، وذبح الذبائح ، وجمع بنى إسرائيل ، فأوحى الله إليه : قد أرى سرورك ببنيان بيتى ، فسلنى أعطك . قال : أسألك ثلاث خصال : حكما يصادف حكمك ، وملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ، ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما ثنتان فقد أعطيهما ، وأنا أرجو أن يكون قد أعطى الثالثة .

---

(١) ما بين القوسين عن المسند .

(٢) الردغة : عصارة أهل النار .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢/١٧٦ .

(٤) النسائى ، كتاب المساجد ، باب « فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه » : ٢/٤٣ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب « ما جاء فى الصلاة فى مسجد بيت المقدس » ، الحديث ١٤٠٨ : ١/٤٥١ — ٤٥٢ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عُمَر بن راشد اليمامي ، حدثنا إياس بن سلمة بن الأكوع ، عن أبيه قال : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلا استفتحه بـ « سبحان الله ربي الأعلى العليّ الوهاب (١) » .

وقد قال أبو عبيد : حدثنا علي بن ثابت ، عن جعفر بن برْقان ، عن صالح بن مسمار قال : لما مات نبي الله داود أوحى الله إلى ابنه سليمان — عليهما السلام — : أن سلني حاجتك : قال : أسألك أن تجعل لي قلبا يخشاك ، كما كان قلب أبي ، وأن تجعل قلبي يحبك كما كان قلب أبي ; فقال الله : أرسلت إلى عبدي وسألته حاجته ، فكانت : أن أجعل قلبه يخشاني ، وأن أجعل قلبه يحبني : لأهَبَنّ له ملكا لا ينبغي لأحد من بعده : قال الله تعالى : (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) ، والتي بعدها ، قال : فأعطاه ما أعطاه ، وفي الآخرة لا حساب عليه .

هكذا أورده أبو القاسم بن عساكر في ترجمة سليمان — عليه السلام — في تاريخه :

وروى عن بعض السلف أنه قال : بلغني عن داود أنه قال : « إلهي ، كن لسليمان كما كنت لي » : فأوحى الله إليه : أن قل لسليمان : يكون لي كما كنتَ لي أكون له كما كنتُ لك .

وقوله : (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) ، قال الحسن البصري رحمه الله : لما عقر سليمان الخيل غضبا لله عز وجل ، عوضه الله ما هو خير منها وأسرع ، الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر .

وقوله : (حيث أصاب) ، أي : حيث أراد من البلاد :

وقوله : (والشياطين كل بناء وغواص) ، أي : منهم من هو مستعمل في الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر ، وطائفة غواصون في البحار يستخرجون مما فيها من اللآلىء والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها ، (وآخرين مقرنين في الأصفاد) ، أي : موثوقون في الأغلال والأكبال ، ممن قد تَمَرّد وعصى وامتنع من العمل وأبى ، أو قد أساء في صنيعه واعتدى .

وقوله (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) ، أي : هذا الذي أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا ، فأعط من شئت واحرم من شئت ، لا حساب عليك ، أي : مهما فعلتَ فهو جائز لك ، احكم بما شئت فهو صواب :

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خُيِّر بين أن يكون عبداً رسولا — وهو الذي يفعل ما يؤمر به ، وإنما هو قاسم يقسم بين الناس ما أمره الله به — وبين أن يكون ملكا نبيا ، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح ، اختار المنزلة الأولى بعد ما استشار جبريل ، فقال له : تواضع : فاختار المنزلة الأولى ، لأنها أرفع قدرا عند الله وأعلى منزلة في المعاد : وإن كانت المنزلة الثانية وهي النبوة مع الملك عظيمة أيضا في الدنيا وفي الآخرة . ولهذا لما ذكر تعالى ما أعطى سليمان في الدنيا نبه على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضا ، فقال : (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) ، أي : في الدار الآخرة .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٤/٥٤ .

وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب — عليه السلام — وما كان ابتلاه تعالى به من الضر فى جسده وماله وولده ، حتى لم يبق من جسده مغرز إبرة سليما سوى قلبه ، ولم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه ، غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله ورسوله ، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه، وتخدمه نحوا من ثماني عشرة سنة ؛ وقد كان قبل ذلك فى مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا ، فسُلِبَ جميعَ ذلك ، حتى آل به الحال إلى أن ألقي على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكمالها، ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته ، رضى الله عنها ، فإنها كانت لا تفارقه صباحاً ومساء إلا بسبب خدمة الناس ، ثم تعود إليه قريباً ؛ فلما طال المطال ، واشتد الحال ، وانتهى القدر المقدور ، وتم الأجل المقدر ، تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين ، فقال : (إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) ، وفى هذه الآية الكريمة قال : رَبِّ ، إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ، قيل : بنصب فى بدنى ، وعذاب فى مالى وولدى ؛ فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين ، وأمره أن يقوم من مقامه ، وأن يركض الأرض برجله ؛ ففعل فأنبع الله عينا وأمره أن يغتسل منها ، فأذهبت جميع ما كان فى بدنه من الأذى ؛ ثم أمره فضرب الأرض فى مكان آخر ، فأنبع له عينا أخرى وأمره أن يشرب منها ، فأذهبت ما كان فى باطنه من السوء ، وتكاملت العافية ظاهرا وباطنا ، ولهذا قال تعالى : (اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) ؛

قال ابن جرير ، وابن أبى حاتم جميعاً : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى نافع بن يزيد ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن نبى الله أيوب — عليه السلام — لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد ، إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به ، كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم — والله — لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين ؛ قال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : من ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله ، فيكشفَ ما به ؛ فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ؛ فقال أيوب : لا أدرى ما تقول ، غير أن الله يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان ، فيذكران الله — عز وجل — فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما ، كراهية أن يذكرا الله إلا فى حق ؛ قال : وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها ، وأوحى الله تعالى إلى أيوب — عليه السلام — أن (اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) ، فاستبطأته ، فتلقته تنظر ، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء ، وهو على أحسن ما كان ؛ فلما رأته قالت : أى بارك الله فيك ، هل رأيت نبى الله هذا المبتلى ؛ فوالله على ذلك ما رأيت رجلا أشبه به منك إذ كان صحيحا ؛ قال : فإنى أنا هو ؛ قال : وكان له أندران (١) ، أندر للقمح وأندر

---

(١) الأندر : بيت كبير يجمع فيه الطعام ويكدس .

للشعير ، فبعث الله سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير حتى فاض . هذا لفظ ابن جرير رحمه الله (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر، عن همام بن مُنَبِّه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينما أيوب يغتسل عريانا ، خَرّ عليه جراد من ذهب ، فجعل أيوب يحثو في ثوبه ، فناداه ربه : يا أيوب ، ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يا رب ، ولكن لا غنى بي عن بركتك (٢) » .

انفرد بإخراجه البخاري ، من حديث عبد الرزاق ، به (٣) .

ولهذا قال تعالى: (ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب) — قال الحسن، وقتادة: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم (٤) .

وقوله : (رحمة منا) ، أي: به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته ، (وذكرى لأولى الألباب) ، أي : لذوي العقول ، ليعلموا أن عاقبةَ الصبر الفرجُ والمخرجُ والراحة .

وقوله : (وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث) ، وذلك أن أيوب — عليه السلام — كان قد غضب على زوجته ، ووَجَد عليها في أمر فعلته . قيل : باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته [إياه] ، فلامها على ذلك ، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة . وقيل : لغير ذلك من الأسباب. فلما شفاه الله وعافاه، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله — عز وجل — أن يأخذ ضغثاً — وهو : الشِّمراخ — فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة، وقد برّت يمينه ، وخرج من حنثه ووفى بنذره ، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأناب إليه. ولهذا قال تعالى : (إنا وجدناه صابرا ، نعم العبد ، إنه أواب) ، أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه (نعم العبد ، إنه أواب) ، أي : رجاع منيب . ولهذا قال تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب (٥)) .

وقد استدل كثير من الفقهاء بهذه الآية الكريمة على مسائل في الأيمان وغيرها ، وأخذوها بمقتضاها .

وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ

يقول تعالى مخبرا عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين : (واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار) ، يعني بذلك : العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة .

---

(١) تفسير الطبري : ٢٣/١٠٧ — ١٠٨ .
(٢) مسند الإمام أحمد ، من حديث طويل : ٢/٣١٤ .
(٣) البخاري ، كتاب الغسل ، باب « من اغتسل عرياناً في الخلوة ... » : ١/٧٨ .
(٤) تفسير الطبري : ٢٣/١٠٨ .
(٥) سورة الطلاق ، آية : ٢ ، ٣ .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (أولى الأيدى والأنصار)، ، يقول : أولى القوة والعبادة ، (والأبصار)، يقول : الفقه فى الدين(١) .

وقال مجاهد : (أولى الأيدى) ، يعنى : القوة فى طاعة الله ، (والأبصار) ، يعنى : البصر فى الحق .

وقال قتادة والسدى : أعطوا قوة فى العبادة وبصرا فى الدين .

(إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار) ، قال مجاهد : أى جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم هم غيرها . وكذا قال السدى : ذكرهم للآخرة وعملهم لها

وقال مالك بن دينار : نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها ، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها . وكذا قال عطاء الخراسانى .

وقال سعيد بن جبير : يعنى بالدار الجنة ، يقول : أخلصناها لهم بذكرهم لها . وقال فى رواية أخرى : (ذكرى الدار) : عقبى الدار .

وقال قتادة : كانوا يذكرون الناس الدار الآخرة والعمل لها .

وقال ابن زيد : جعل لهم خاصة أفضل شئ فى الدار الآخرة .

وقوله : (وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) ، أى : لمن المختارين المجتبين الأخيار ، فهم أخيار مختارون .

وقوله : (واذكر إسماعيل ، واليسع ، وذا الكفل ، وكل من الأخيار) ، قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة فى (سورة الأنبياء (٢)) بما أغنى عن إعادته هاهنا .

وقوله : (هذا ذكر) ، أى : هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر .

وقال السدى : يعنى القرآن .

وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ * وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء ، أن لهم فى الآخرة (لحسن مآب) ، وهو : المرجع والمنقلب ، ثم فسره بقوله : (جنات عدن) ، أى : جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٣/١٠٩ .

(٢) انظر فيما تقدم : ٥/٣٥٧ - ٣٦٩ .

والألف واللام هنا بمعنى الإضافة ، كأنه يقول : « مفتحة لهم أبوابها » ، أى : إذا جاءوها فتحت لهم أبوابها .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن [ثواب] الهبّارى ، حدثنا عبد الله بن نمير ، حدثنا عبد الله بن مسلم ــ يعنى ابن هرمز ، عن ابن سابط ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن فى الجنة قصرا يقال له : « عدن » ، حوله البروج والمروج ، له خمسة آلاف باب ، عند كل باب خمسة آلاف حِبَرَة (١) لا يدخله ــ أو : لا يسكنه ــ إلا نبى أو صديق أو شهيد أو إمام عدل » .

وقد ورد فى أبواب الجنة الثمانية أحاديث كثيرة من وجوه عديدة .

وقوله : (متكئين فيها) ، قيل : متربعين فيها على سرر تحت الحجال (٢) ، (يدعون فيها بفاكهة كثيرة) ، أى : مهما طلبوا وجدوا ، وحضر كما أرادوا . (وشراب) ، أى : من أىّ أنواعه شاءوا أتتهم به الخدام (بأكواب وأباريق وكأس من معين (٣)) .

(وعندهم قاصرات الطرف) ، أى : عن غير أزواجهن ، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ، (أتراب) ، أى : متساويات فى السن والعمر . هذا معنى قول ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن كعب ، والسّدّى(٤) .

(هذا ما توعدون ليوم الحساب) ، أى : هذا الذى ذكرنا من صفة الجنة التى وعدها لعباده المتقين ، التى يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار .

ثم أخبر عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا انقضاء ولا زوال ولا انتهاء ، فقال : (إن هذا لرزقنا ماله من نفاد) ، كقوله تعالى : (ما عندكم ينفد وما عند الله باق (٥)) . وكقوله : (عطاء غير مجذوذ (٦)) . وكقوله : (لهم أجر غير ممنون (٧)) ، أى : غير مقطوع . وكقوله : (أكلها دائم وظلها ، تلك عقبى الذين اتقوا ، وعقبى الكافرين النار (٨)) . والآيات فى هذا كثيرة جدا .

---

(١) الحبرة ــ بزنة عنبة ــ : حلة يمنية .
(٢) الحجال : جمع حجلة ــ بفتح الحاء والجيم ــ وهى : بيت كالقبة يستر بالثياب ، وتكون له أزرار كبار .
(٣) سورة الواقعة ، آية : ١٨ .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٣/١١٢ .
(٥) سورة النحل ، آية : ٩٦ .
(٦) سورة هود ، آية : ١٠٨ .
(٧) سورة فصلت ، آية : ٨ .
(٨) سورة الرعد ، آية : ٣٥ .

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾

لما ذكر تعالى مآل السعداء ، ثنّى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم فى دار معادهم وحسابهم ، فقال : (هذا وإن للطاغين) ، وهم : الخارجون عن طاعة الله ، المخالفون لرسل الله ، (لشر مآب) ، أى : لسوء منقلب ومرجع ؛ ثم فسره بقوله : (جهنم يصلونها) ، أى : يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم ، (فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حميم وغساق) ، أما الحميم فهو : الحار الذى قد انتهى حره ، وأما الغَسَّاق فهو : ضده ، وهو البارد الذى لا يستطاع من شدة برده المؤلم . ولهذا قال : (وآخر من شكله أزواج) ، أى: وأشياء من هذا القبيل ، الشىء وضده يعاقبون بها .

قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لَهيعة ، حدثنا درّاج ، عن [أبى] الهيثم ، عن أبى سعيد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو أن دَلْواً من غَسَّاق يهراق فى الدنيا ، لأنتن أهل الدنيا (١) » .

ورواه الترمذى ، عن سويد بن نصر ، عن ابن المبارك ، عن رِشْدين بن سعد ، عن عمرو بن الحارث ، عن درّاج ، به . ثم قال : « لا نعرفه إلا من حديث رشدين (٢) » . كذا قال : وقد تقدم من غير حديثه . ورواه ابن جرير ، عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، (٣) به .

وقال كعب الأحبار : غساق : عين فى جهنم ، يسيل إليها حُمَة كل ذات حُمَة(٤) من حية وعقرب وغير ذلك ، فيستنقع ، فيؤتى بالآدمى فيغمس فيها غمسة واحدة ، فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام ، ويتعلق جلده ولحمه فى كعبيه وعقبيه ، ويُجَرّ لحمه كما يَجُر الرجل ثوبه . رواه ابن أبى حاتم (٥) .

وقال الحسن البصرى فى قوله : (وآخر من شكله أزواج) ، ألوان من العذاب (٦) .

وقال غيره : كالزمهرير ، والسموم ، وشرب الحميم ، وأكل الزقوم ، والصعود والهُوِىّ ، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة والمتضادة ، والجميع مما يعذبون به ، ويهانون بسببه .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٨/٣ . وانظر أيضاً المسند : ٨٣/٣ .
(٢) تحفة الأحوذى ، أبواب صفة جهنم ، باب « ما جاء فى صفة شراب أهل النار » ، الحديث ٢٧١٠ : ٣٠٥/٧ - ٣٠٧ .
(٣) تفسير الطبرى : ١١٤/٢٣ .
(٤) الحمة - بضم الحاء وفتح الميم مخففة ، وأجاز ابن الأعرابى تشديدها - : سم العقرب .
(٥) ورواه الطبرى ، انظر : ١١٤/٢٣ .
(٦) تفسير الطبرى : ١١٥/٢٣ .

وقوله : (هذا فوج مقتحم معكم ، لا مرحبا بهم ، إنهم صالوا النار) ، هذا إخبار عن قيل أهل النار بعضهم لبعض [كما قال تعالى] : (كلما دخلت أمة لعنت أختها (١)) ، يعني بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون ، ويكفر بعضهم ببعض ، فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى ، إذا أقبلت التي بعدها مع الخزنة من الزبانية : (هذا فوج مقتحم) ، أي : داخل معكم ، (لا مرحبا بهم ، إنهم صالو النار) ، لأنهم من أهل جهنم : (قالوا : بل أنتم لا مرحبا بكم) ، أي : فيقول لهم الداخلون : (بل أنتم لا مرحبا بكم ، أنتم قدمتموه لنا) ، أي : أنتم دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ، (فبئس القرار) ، أي : فبئس المنزل والمستقر والمصير : (قالوا : ربنا ، من قدم لنا هذا ، فزده عذابا ضعفا في النار) ، [كما قال عز وجل : (قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا ، فآتهم عذابا ضعفا من النار] ، قال : لكل ضعف ، ولكن لا تعلمون (١)) ، أي : لكل منكم عذاب بحسبه ، (وقالوا : مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار . أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار ؟) ، هذا إخبار عن الكفار في النار أنهم يتفقدون رجالا كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة ، وهم المؤمنون في زعمهم ، قالوا : مالنا لا نراهم معنا في النار ؟

قال مجاهد : هذا قول أبي جهل ، يقول : مالي لا أرى بلالا وعمارا وصهيبا وفلانا وفلانا (٢) .

وهذا مثل ضُرب ، وإلا فكل الكفار هذا حالهم : يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار ، فلما دخل الكفار [النار] افتقدوهم فلم يجدوهم ، فقالوا : (مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار . أتخذناهم سخريا) ، أي : في الدنيا ، (أم زاغت عنهم الأبصار؟) ، يُسلّون أنفسهم بالمحال ، يقولون : أو لعلهم معنا في جهنم ، ولكن لم يقع بصرنا عليهم . فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات ، وهو قوله : (ونادى أصحابُ الجنة أصحابَ النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا : نعم ، فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين) إلى قوله : (ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون(٣)) .

وقوله : (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) ، أي : إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد ، من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض ، ولعن بعضهم لبعض ، لحق لا مرْية فيه ولا شكّ .

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى آمرا رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله: إنما أنا منذر ، لست كما تزعمون ، (وما من إله إلا الله الواحد القهار) ، أي : هو وحده قد قهرَ كلّ شيء وغلبه . (رب السموات

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ٣٨ .

(٢) تفسير الطبري : ١١٦/٢٣ .

(٣) سورة الأعراف ، الآيات : ٤٤ - ٤٩ .

والأرض وما بينهما) ، أى : هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه ، (العزيز الغفار)، أى : غفار مع عزته وعظمته .

(قل هو نبأ عظيم) ، أى : خبر عظيم وشأن بليغ ، وهو إرسال الله إياى إليكم ، (أنتم عنه معرضون) ، أى : غافلون .

قال مجاهد ، وشُرَيح القاضى ، والسُدّى فى قوله : (قل : هو نبأ عظيم) ، يعنى : القرآن .

وقوله : (ماكان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون)، أى : لولا الوحى من أين كنت أدرى باختلاف الملأ الأعلى؟ يعنى فى شأن آدم وامتناع إبليس من السجود له ، ومحاجته ربه فى تفضيله عليه . فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال :

حدثنا أبوسعيد مولى بنى هاشم، حدثنا جَهْضَم اليمامى، عن يحيى بن أبى كثير، عن زيد بن أبى سلام، عن أبى سلام، عن عبد الرحمن بن عائش(١) ، عن مالك بن يَخَامر ، عن معاذ — رضى الله عنه — قال : احتبس علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات غداة عن صلاة الصبح ، حتى كدنا نتراءى قَرن الشمس . فخرج [رسول الله صلى الله عليه وسلم] سريعاً ، فثَوَّب(٢) بالصلاة فصلى، وتَجَوّز فى(٣) صلاته، فلما سلم قال : «كما أنتم [على مَصَافّكم] . ثم أقبل إلينا فقال : [إنى سأحدّثكم ما حَبَسَنى عنكم الغداة] ، إنى قمت من الليل فصليت ما قُدّر لى ، فنَعَسْت فى صلاتى حتى استيقظت ، فإذا أنا بربى فى أحسن صورة ، فقال : يا محمد ، أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدرى ربّ — أعادها ثلاثاً — فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدرى ، فتجلى لى كل شىء وعرفت ، فقال : يامحمد ، فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : فى الكفارات . قال : وما الكفارات ؟ قلت : نقل الأقدام إلى الجُمُعات(٤) ، والجلوس فى المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات . قال : وما الدرجات ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام . قال : سل . قلت : اللهم ، إنى أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لى وترحمنى ، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفنى غير مفتون ، وأسألك حُبّك وحُبَّ من يُحبك ، وحُبّ عمل يقربنى إلى حبك . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنها حق فادرسوها وتعلموها(٥) .

فهو حديث المنام المشهور ، ومن جعله يقظة فقد غلط ، وهو فى السنن من طرق . وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذى من حديث « جهضم بن عبد الله اليمامى» به . وقال : « حسن صحيح(٦) . وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور [فى القرآن ، فإن هذا] قد فُسّر ، وأما الاختصام الذى فى القرآن فقد فسر بعد هذا ، وهو قوله تعالى :

---

(١) فى المسند : « عياش » . والصواب ما هنا ؛ انظر ترجمة عبد الرحمن بن عائش فى أسد الغابة : ٣/٤٦٥ والترمذى ، والخلاصة .

(٢) التثويب : إقامة الصلاة .

(٣) أى : خففها وأسرع بها .

(٤) كذا فى المخطوطة والمسند . وفى الترمذى : « الجماعات » .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٥/٢٤٣ ، وما بين القوسين عنه .

(٦) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة « ص » ، الحديث ٣٢٨٨ : ٩/١٠٦ — ١٠٩ .

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾

هذه القصة ذكرها الله ــ تعالى ــ فى «سورة البقرة» ، وفى أول «الأعراف» ، وفى «سورة الحجر ، وسبحان ، والكهف» . وهاهنا . وهى أن الله ــ سبحانه ــ أعلم الملائكة قبل خلق آدم ــ عليه السلام ــ بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراماً وإعظاماً واحتراماً ، وامتثالا لأمر الله عز وجل . فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس،ولم يكن منهم جنساً ؛ كان من الجن فخانه طبعه وجبلته أحوج ما كان إليه، فاستنكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه عز وجل فيه، وادعى أنه خير من آدم؛ فإنه مخلوق من نار وآدم خلق من طين ، [والنار خير من الطين] فى زعمه . وقد أخطأ فى ذلك، وخالف أمر الله ، وكفر بذلك ، فأبعده الله وأرغم أنفه، وطرده عن باب رحمته ومحل أنسه، وحضرة قدسه ، وسماه «إبليس» ، إعلاماً له بأنه قد أبلس(١) من الرحمة، وأنزله من السماء مذموماً مدحوراً إلى الأرض ، فسأل [الله] النظرة إلى يوم البعث ، فأنظره الحليم الذى لا يعجل على من عصاه . فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى ، وقال : (فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين) كما قال : (أرأيتك هذا الذى كرمت على ، لئن أخرتن إلى يوم القيامة، لأحتنكن ذريته إلا قليلا(٢)) ، وهؤلاء هم المستثنون فى الآية الأخرى ، وهى قوله تعالى : (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا(٣)) .

وقوله : (قال : فالحق والحق أقول . لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) ــ قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع «الحق» الأولى ، وفسره مجاهد بأن معناه : أنا الحق ، والحق أقول . وفى رواية عنه : الحق منى ، وأقول الحق .

وقرأ آخرون بنصبهما :

قال السدى : هو قسم أقسم الله به(٤) :

---

(١) أى : يئس .
(٢) سورة الإسراء ، آية : ٦٢ .
(٣) سورة الإسراء ، آية : ٦٥ .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٣/١٢٠ .

قلت : وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى : (ولكن حقّ القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين)(١) ؛ وكقوله تعالى : (قال : اذهب فمن تبعك منهم ، فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً (٢)) .

قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين : ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجراً تعطونيه من عرض الحياة الدنيا ، (وما أنا من المتكلفين) ، أى : وما أريد على ما أرسلنى الله به ، ولا أبتغى زيادة عليه، بل ما أمرت به أدّيته لا أزيد عليه ولا أنقص منه ، وإنما أبتغى بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة .

قال سفيان الثورى ، عن الأعمش ومنصور ، عن أبى الضحى ، عن مسروق قال : أتينا عبد الله بن مسعود قال : يا أيها الناس ، من علم شيئاً فليقل به ، ومن لا يعلم فليقل : الله أعلم ؛ فإن من العلم أن يقولَ الرجلُ لما لا يعلم : الله أعلم ، فإن الله قال لنبيكم صلى الله عليه وسلم : (قل: ما أسألكم عليه من أجر ، وما أنا من المتكلفين). أخرجاه من حديث الأعمش ، به (٣) .

وقوله : (إن هو إلا ذكر للعالمين) ، يعنى : القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن ، قاله ابن عباس ؛ ورواه ابن أبى حاتم عن أبيه ، عن أبى غسان مالك بن إسماعيل : حدثنا قيس ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله : (للعالمين) ، قال : الجن والإنس .

وهذه الآية كقوله تعالى : (لأنذركم به ومن بلغ (٤)) ، (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده)(٥) ؛

وقوله : (ولتعلمن نبأه) ، أى : خبره وصدقه (بعد حين) ، أى : عن قريب .

قال قتادة : بعد الموت . وقال عكرمة : يعنى يوم القيامة . ولا منافاة بين القولين ؛ فإن من مات فقد دخل فى حكم القيامة .

وقال قتادة فى قوله تعالى : (ولتعلمن نبأه بعد حين) ، قال [الحسن] : يا ابن آدم ، عند الموت يأتيك الخبر اليقين(٦) ؛

آخر تفسير سورة « ص » ولله الحمد والمنة ؛

---

(١) سورة السجدة ، آية : ١٣ .
(٢) سورة الإسراء ، آية : ٦٣ .
(٣) البخارى ، تفسير سورة « ص » : ٦/١٥٦ . ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار : ٨/١٣١ .
(٤) سورة الأنعام ، آية : ١٩ .
(٥) سورة هود ، آية : ١٧ .
(٦) تفسير الطبرى : ٢٣/١٢١ .

تفسير سورة الزُّمَر

وهي مكية

قال النسائي : حدثنا محمد بن النضر بن مساور ، حدثنا حماد ، عن مَرْوانَ أبي لبابة ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول : ما يريد أن يفطر . ويفطر حتى نقول : ما يريد أن يصوم(١) . وكان يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب — وهو القرآن العظيم — من عنده — تبارك وتعالى — فهو الحق الذي لامرية فيه ولاشك، كما قال تعالى : (وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين(٢)) . وقال : (وإنه لكتاب عزيز . لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد(٣) . وقال هاهنا : (تنزيل الكتاب من الله العزيز) ، أي : المنيع الجناب ، (الحكيم) ، أي : في أقواله وأفعاله ، وشَرْعه وقَدَره .

(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين) ، أي : فاعبد الله وحده لاشريك له ، وادع الخلق إلى ذلك ، وأعلمهم أنه لاتصلح العبادة إلا له ، وأنه ليس له شريك ولاعَديل ولا نَديد . ولهذا قال : (ألا لله الدين الخالص) ، أي : لايقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العاملُ لله وحده ، لاشريك له .

وقال قتادة في قوله : (ألا لله الدين الخالص) : شهادة أن لا إله إلا الله(٤) .

---

(١) إلى هنا أخرجه النسائي في المجتبى ، كتاب الصوم ، باب « صوم النبي صلى الله عليه وسلم » : ٤/١٩٩ . وانظر الحديث أول سورة الإسراء ، فقد أخرجناه هنالك عن مسند الإمام أحمد من طريق حماد : ٥/٣ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيات : ١٩٢ — ١٩٥ .

(٣) سورة فصلت ، آية : ٤٢ .

(٤) تفسير الطبري : ٢٣/١٢٢ .

ثم أخبر تعالى عن عباد الأصنام من المشركين أنهم يقولون : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) ، أى : إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عَمَدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين فى زعمهم ، فعبدوا تلك الصُّوَر تنزيلا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ، ليشفعوا لهم عند الله فى نَصْرهم ورِزْقهم ، وما ينوبهم من أمْر الدنيا ، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به .

قال قتادة ، والسّدّى ، ومالك عن زيد بن أسلم ، وابن زيد : (إلا ليقربونا إلى الله زلفى) ، أى : ليشفعوا لنا ، ويقربونا عنده منزلة .

ولهذا كانوا يقولون فى تلبيتهم إذا حَجّوا فى جاهليتهم : « لبيك لاشريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك » ، وهذه الشبهة هى التى اعتمدها المشركون فى قديم الدهر وحديثه ، وجاءتهم الرسل — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — بردّها والنهى عنها ، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لاشريك له ، وأن هذا شىء اخترعه المشركون من عند أنفسهم ، لم يأذَن الله فيه ولارَضِىَ به ، بل أبغضه ونهى عنه : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا : أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت[١]) ، (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون [٢]) :

وأخبر أن الملائكة التى فى السموات من المقربين وغيرهم ، كلّهم عبيد خاضعون لله ، لايشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى ، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم ، يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبَوه ، (فلا تضربوا لله الأمثال[٣]) ، تعالى الله عن ذلك .

وقوله : (إن الله يحكم بينهم) ، أى : يوم القيامة ، (فيما هم فيه يختلفون) أى : سيفصل بين الخلائق يوم مَعَادهم ، ويجزى كل عامل بعمله ، (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا : سبحانك ! أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون [٤]) .

وقوله : (إن الله لايهدى من هو كاذب كفار) ، أى : لا يرشد إلى الهداية مَن قَصْدُه الكذبُ والافتراء على الله ، وقلبه كَفَّار يجحد بآياته وبراهينه .

ثم بين تعالى أنه لاولد له كما يزعمه جَهَلَة المشركين فى الملائكة ، والمعاندون من اليهود والنصارى فى العُزَيْز وعيسى ، فقال : (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء) ، أى : لكان الأمر على خلاف ما يزعمون . وهذا شرط لايلزم وقوعه ولا جوازه ، بل هو محال ، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه ، كما قال : (لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين[٥]) ، (قل : إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين [٦]) — كل هذا من باب الشرط ، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم .

---

(١) سورة النحل ، آية : ٣٦ .
(٢) سورة الأنبياء ، آية : ٢٥ .
(٣) سورة النحل ، آية : ٧٤ .
(٤) سورة سبأ ، آية : ٤٠ ، ٤١ .
(٥) سورة الأنبياء ، آية : ١٧ .
(٦) سورة الزخرف ، آية : ٨١ .

وقوله : (سبحانه هو الله الواحد القهار) ، أى : تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد ، فإنه الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى كل شىء عبد لديه ، فقير إليه ، وهو الغنى عما سواه ، الذى قد قهر الأشياء فدانت له وذلّت وخضعت .

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾

يخبر تعالى أنه الخالق لما فى السموات والأرض ، وما بين ذلك من الأشياء ، وأنه مالك الملك المتصرف فيه ، يقلب ليله ونهاره ، (يكور الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل) ، أى : سخرهما يجريان متعاقبين لا يقرّان ، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً ، كقوله : (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً)(١) ــ هذا معنى ما رُوى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم(٢) .

وقوله : (وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى) ، أى : إلى مدة معلومة عند الله ثم تنقضى يوم القيامة .

(ألا هو العزيز الغفار) ، أى : مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه .

وقوله : (خلقكم من نفس واحدة) ، أى : خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم من نفس واحدة ، وهو آدم عليه السلام ، (ثم جعل منها زوجها) ، وهى حواء عليهما السلام ، كقوله : (يا أيها الناس ، اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء)(٣) .

وقوله : (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) ، أى : وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج ، وهى المذكورة فى سورة الأنعام : (ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين)(٤) ، (ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين)(٥) .

وقوله : (يخلقكم فى بطون أمهاتكم) ، أى : قدركم فى بطون أمهاتكم (خلقاً من بعد خلق) ، أى : يكون أحدكم أولا نطفة ، ثم يكون علقة ، ثم يكون مضغة ، ثم يخلق فيكون لحماً وعظماً وعصَباً وعروقاً ، وينفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر ، (فتبارك الله أحسن الخالقين)(٦) .

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ٥٤ .
(٢) انظر تفسير الطبرى : ٢٣/١٢٣ – ١٢٤ .
(٣) سورة النساء ، آية : ١ .
(٤) سورة الأنعام ، آية : ١٤٣ .
(٥) سورة الأنعام ، آية : ١٤٤ .
(٦) سورة « المؤمنون » ، آية : ١٤ .

وقوله : (فى ظلمات ثلاث) ، يعنى : ظلمة الرحم ، وظلمة المَشِيمة – التى هى كالغشاوة والوقاية على الولد – وظلمة البطن . كذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وأبومالك ، والضحاك ، وقتادة ، والسدى ، وابن زيد(١) :

وقوله : (ذلكم الله ربكم) ، أى : هذا الذى خلق السموات والأرض وما بينهما [وخلقكم] وخلق آباءكم ، هو الرب له الملك والتصرف فى جميع ذلك ، (لاإله إلا هو) ، أى : الذى لاتنبغى العبادة إلا له وحده ، (فأنى تصرفون) ، أى : فكيف تعبدون معه غيره ؟ أين يُذْهَبُ بعقولكم ؟ !

إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ * وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه تعالى : أنه الغنى عما سواه من المخلوقات ، كما قال موسى : (إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فإن الله لغنى حميد) .

وفى صحيح مسلم : «يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً(٢)» :

وقوله : (ولا يرضى لعباده الكفر) ، أى : لايحبه ولايأمر به ، (وإن تشكروا يرضه لكم) ، أى : يحبه منكم ويزدكم من فضله .

(ولا تزر وازرة وزر أخرى) ، أى : لاتحمل نفس عن نفس [شيئاً] ، بل كل مطالب بأمر نفسه ، (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون ، إنه عليم بذات الصدور) ، أى : فلا تخفى عليه خافية .

وقوله : (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه) ، أى : عند الحاجة يضرع ويستغيث بالله وحده لاشريك له ، كما قال تعالى : (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ، وكان الإنسان كفورا(٣)) ؛ ولهذا قال : (ثم إذا خوله نعمة منه نَسِى ماكان يدعو إليه من قبل) ، أى : فى حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع ، كما قال تعالى : (وإذا مس الإنسان الضرّ دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه(٤)) ؛

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٣/١٢٥ – ١٢٦ .
(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية الأربعين من سورة النمل ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٦/٢٠٣ .
(٣) سورة الإسراء ، آية : ٦٧
(٤) سورة يونس ، آية : ١٢ .

(وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله) ، أى : فى حال العافية يشرك بالله ، ويجعل له أندادا . (قل : تمتع بكفرك قليلا، إنك من أصحاب النار) ، أى : قل لمن هذه حاله وطريقته ومسلكه : تمتع بكفرك قليلا . وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، كقوله : (قل : تمتعوا فإن مصيركم إلى النار)(١) . وقوله : (نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ)(٢) .

أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾

يقول تعالى : أمَّن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أندادا ؟ لايستوون عند الله ، كما قال تعالى : (ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون)(٣) . وقال هاهنا : (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً)، أى : فى حال سجوده وفى حال قيامه . ولهذا استدل بهذه الآية مَن ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع فى الصلاة ، ليس هو القيامَ وحده ، كما ذهب إليه آخرون .

قال الثورى ، عن فراس ، عن الشعبى ، عن مسروق، عن ابن مسعود أنه قال : القانت : المطيع لله ولرسوله .

وقال ابن عباس ، والحسن ، والسدى ، وابن زيد : آناء الليل : جوف الليل .

وقال الثورى ، عن منصور : بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء .

وقال الحسن ، وقتادة : آناء الليل : أوله وأوسطه وآخره .

وقوله : (يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) ، أى : فى حال عبادته خائف راج ، ولابدّ فى العبادة من هذا وهذا ، وأن يكون الخوف فى مدة الحياة هو الغالب . ولهذا قال : (يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) ، فإذا كان عند الاحتضار فَلْيَكُن الرجاء هو الغالب [عليه] ، كما قال الإمام عَبْدُ بن حُمَيد فى مسنده :

حدثنا يحيى بن عبد الحميد ، حدثنا جعفر بن سليمان ، حدثنا ثابت ، عن أنس قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل وهو فى الموت، فقال له : «كيف تجدك ؟ »قال : أرجو وأخاف. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لايجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله عزوجل الذى يرجو ، وأمنه الذى يخافه » .

ورواه الترمذى والنسائى فى « اليوم والليلة » ، وابن ماجه من حديث سيَّار بن حاتم ، عن جعفر بن سليمان ، به ، وقال الترمذى : « غريب . وقد رواه بعضهم عن ثابت ، عن أنس، عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا(٤) » .

---

(١) سورة إبراهيم ، آية : ٣٠ .
(٢) سورة لقمان ، آية : ٢٤ .
(٣) سورة آل عمران ، آية : ١١٣ .
(٤) تحفة الأحوذى ، أبواب الجنائز ، الحديث ٩٨٨ : ٤/٥٧ — ٥٨ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « ذكر الموت والاستعداد له » ، الحديث ٤٢٦١ : ٢/١٤٢٣ .

وقال ابن أبي حاتم ، حدثنا عمر بن شبّة ، عن عبيدة النميري ، حدثنا أبو خلف عبد الله بن عيسى الخزّاز ، حدثنا يحيى البكاء، أنه سمع ابن عمر قرأ: (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) . قال ابن عمر : ذاك عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وإنما قال ابن عمر ذلك ؛ لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان بالليل وقراءته ، حتى إنه ربما قرأ القرآن في ركعة ، كما روى ذلك أبو عبيدة عنه رضي الله عنه ، وقال الشاعر(١) :

ضَحّوا بِأشْمَطَ عُنوانُ السُّجُودِ بِهِ ... يُقَطِّع اللّيلَ تَسْبيحاً وقُرْآنا (٢)

وقال الإمام أحمد : كتب إلى الربيع بن نافع : حدثنا الهيثم بن حميد ، عن زيد بن واقد ، عن سليمان بن موسى ، عن كثير بن مرة ، عن تميم الداري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ بمائة آية في ليلة، كُتبَ له قنوتُ ليلة(٣) » .

وكذا رواه النسائي في « اليوم والليلة » عن إبراهيم بن يعقوب ، عن عبد الله بن يوسف والربيع بن نافع ، كلاهما عن الهيثم بن حُميد ، به .

وقوله : (قل : هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون) ، أي : هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ؟! (إنما يتذكر أولو الألباب) ، أي : إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا مَن له لُبّ وهو العقل .

قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه (قل : ياعباد الذين آمنوا ، اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) ، أي : لمن أحسنَ العملَ في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم .

وقوله (وأرض الله واسعة) ـ قال مجاهد: فهاجروا فيها ، وجاهدوا ، واعتزلوا الأوثان (٤) .

وقال شريك ، عن منصور ، عن عطاء في قوله : (وأرض الله واسعة) ، قال : إذا دعيتم إلى المعصية فاهربوا ، ثم قرأ : (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) ؟

---

(١) هو حسان بن ثابت ، ديوانه ط بيروت : ٢٤٨ . وانظر أسد الغابة : ٣/٥٩٥ بتحقيقنا .
(٢) الأشمط : الأبيض . يعني: ذبحوا رجلا أشيب كما تذبح الضحية . عنوان السجود ، أي: في وجهه علامة الصلاة. وقرآنا قراءة .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٤/١٠٣ .
(٤) تفسير الطبري : ٢٣/١٣٠ .

وقوله : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)، قال الأوزاعى : ليس يوزن لهم ولا يكال، إنما يغرف لهم غرفا .

وقال ابن جريج : بلغنى أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط ، ولكن يزادون على ذلك .

وقال السدى : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) : يعنى فى الجنة(١) .

وقوله : (قل : إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) ، أى : إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لاشريك له ، (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) ، قال السدى : يعنى من أمته صلى الله عليه وسلم .

قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾

يقول تعالى : قل يامحمد وأنت رسول الله : (إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) ، وهو يوم القيامة . وهذا شرط ، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى ، (قل : الله أعبد مخلصاً له دينى . فاعبدوا ما شئتم من دونه) ، وهذا أيضاً تهديد وتبرّ منهم ، (قل : إن الخاسرين) ، أى : إنما الخاسرون كل الخسران (الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة) ، أى : تفارقوا فلا التقاء لهم أبدا ، سواء ذهب أهلوهم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار ، أو أن الجميع اسكنوا النار ، ولكن لاجتماع لهم ولا سرور ، (ألاذلك هو الخسران المبين) ، أى: هذا هو الخسار البيّن الظاهر الواضح .

ثم وصف حالهم فى النار فقال : (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل) ، كما قال : (لهم من جهنم مهاد، ومن فوقهم غواش ، وكذلك نجزى الظالمين)(٢) . وقال : (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ويقول : ذوقوا ماكنتم تعملون)(٣) .

وقوله : (ذلك يخوف الله به عباده) ، أى : إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده ، لينزجروا عن المحارم والمآثم .

وقوله : (ياعباد فاتقون) ، اى : اخشوا بأسى وسطوتى ، وعذابى ونقمتى .

وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها) ، نزلت فى زيد بن عمرو بن نفيل ، وأبى ذر ، وسلمان الفارسى(٤) .

(١) تفسير الطبرى : ١٣٠/٢٣ .
(٢) سورة الأعراف ، آية : ٤١ .
(٣) سورة العنكبوت ، آية : ٥٥ .
(٤) تفسير الطبرى : ١٣٢/٢٣ .

والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ، ممن اجتنب عبادة الأوثان ، وأناب إلى عبادة الرحمن : فهؤلاء [هم] الذين لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

ثم قال : (فبشر عباد • الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) ، أى : يفهمونه ويعملون بما فيه ، كقوله تعالى لموسى حين آتاه التوراة : (فخذها بقوة ، وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) (١) .

(أولئك الذين هداهم الله) ، أى : المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله فى الدنيا والآخرة ، (وأولئك هم أولو الألباب) ، أى : ذوو العقول الصحيحة ، والفطَر المستقيمة .

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ (١٩) لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ (٢٠)

يقول تعالى : أفمن كتب الله أنه شَقِيّ تقدرُ تُنْقذُه مما هو فيه من الضلال والهلاك ؟ أى : لايهديه أحد من بعد الله ؛ لأنه من يضلل الله فلا هادى له ، ومن يهده فلا مضل له .

ثم أخبر عن عباده السعداء أنهم لهم غرف فى الجنة ، وهى القصور الشاهقة ، (من فوقها غرف مبنية) ، أى : طباق فوق طباق ، مَبْنيات محكمات مزخرفات عاليات .

قال عبد الله ابن الإمام أحمد : حدثنا عباد بن يعقوب الأسدى ، حدثنا محمد بن فضيل ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن النعمان بن سعد ، عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن فى الجنة لغرفاً يُرَى بطونها من ظهورها ، وظهورها من بطونها . فقال أعرابى : لمن هى يارسول الله ؟ قال : « لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وصلى [لله بالليل] والناس نيام (٢) » .

ورواه الترمذى من حديث عبد الرحمن بن إسحاق ، وقال : « حسن غريب ، وقد تكلم بعض أهل العلم فيه من قبَل حفظه (٣) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن ابن مُعانق – أو : أبى مُعَانق – عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن فى الجنة لغرفة يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام ، وألان الكلام ، وتابع الصيام ، وصلى والناس نيام (٤) » .

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ١٤٥ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ١/١٥٥ – ١٥٦ . وما بين القوسين عنه .
(٣) تقدم تخريج حديث الترمذى عند تفسير الآية الثانية والسبعين من سورة براءة : ٤/١١٧ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٥/٣٤٣ .

تفرد به أحمد من حديث عبد الله بن مُعَانق الأشعرى ، عن أبى مالك ، به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن ، عن أبى حازم ، عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة فى الجنة كما تراءون الكوكب فى السماء » . قال : فحدثتُ بذلك النعمان بن أبى عياش ، فقال : سمعت أبا سعيد الخدرى يقول : « كما تراءون الكوكب الدرّىّ فى الأفق الشرقى أو الغربى(١) » .

أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث أبى حازم(٢) ، وأخرجاه [أيضاً] فى الصحيحين من حديث مالك ، عن صفوان ابن سليم ، عن عطاء بن يَسَار ، عن أبى سعيد ، عن النبى صلى الله عليه وسلم(٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا فزارة ، أخبرنى فُلَيح، عن هلال بن على، عن عطاء بن يسار، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « إن أهل الجنة ليتراءون فى الجنة أهل الغرف، كما تراءون الكوكب الدرّى الغارب فى الأفق الطالع ، فى تفاضل أهل الدرجات . فقالوا : يارسول الله، أولئك النبيون ؟ فقال : « بلى ، والذى نفسى بيده ، وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل(٤) » .

ورواه الترمذى عن سُويد ، عن ابن المبارك، عن فُلَيح، به ، وقال : « حسن صحيح(٥) » .

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر وأبو[كامل](٦) قالا : حدثنا زهير، حدثنا سعد، الطائى، حدثنا أبو المدلّه — مولى أم المؤمنين — أنه سمع أبا هريرة يقول : قلنا : يارسول الله ، إنا إذا رأيناك رقّت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشَمَمْنا النساء والأولاد . قال : « لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التى أنتم عليها عندى ، لصافحتكم الملائكة بأكفهم ، ولزارتكم فى بيوتكم . ولو لم تُذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كى يغفر لهم » . قلنا : يارسول الله، حدّثنا عن الجنة ، ما بناؤها ؟ قال : « لَبِنَةٌ ذهب ولَبِنَةٌ فضة ، وملاطها المسك الأذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا يَبْأس ، ويخلد ولا يموت ، لاتبلى ثيابه ولايفنى شبابه . ثلاثة لاتُرَدُّ دعوتُهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم تُحمَل على الغمام، وتفتح لها أبواب السموات ، ويقول الرب : وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين(٧) » .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/ ٣٤٠ .

(٢) تقدم تخريجه من هذه الطريق عند تفسير آية براءة : ٤/ ١١٦

(٣) البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب « ما جاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة » : ٤/ ١٤٥ . ومسلم ، كتاب الجنة ، باب « تراءى أهل الجنة أهل الغرف ، كما يرى الكوكب فى السماء » : ٨/ ١٤٥ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢/ ٣٣٩ .

(٥) تحفة الأحوذى ، أبواب ، صفة الجنة ، باب « ما جاء فى تراءى أهل الجنة فى الغرف » ، الحديث ٢٦٨١ : ٧/ ٢٧٢ – ٢٧٣ .

(٦) فى المخطوطة : « وأبوعامر » . والمثبت عن المسند .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٢/ ٣٠٤ – ٣٠٥ . وقد تقدم بعضه فى ٤/ ١١٧ ، وشرحنا غريبه هنالك .

وروى الترمذى ، وابنُ ماجه بعضَه ، من حديث سعد أبى مجاهد الطائى — وكان ثقة — عن أبى المُدِلّه — وكان ثقة — به(١) .

وقوله : (تجرى من تحتها الأنهار) ، أى : تسلك الأنهار بين خلال ذلك ، كما يشاءوا وأين أرادوا ، (وعد الله) ، أى : هذا الذى ذكرناه وَعْدٌ وعدَه الله عباده المؤمنين (إن الله لا يخلف الميعاد) .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى : أن أصل الماء فى الأرض من السماء كما قال تعالى : (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) (٢) ، فإذا أنزل الماء من السماء كَمَنَ فى الأرض ، ثم يصرفه تعالى فى أجزاء الأرض كما يشاء ، ويُنبعه عيوناً ما بين صغار وكبار ، بحسب الحاجة إليها ، ولهذا قال : (فسلكه ينابيع فى الأرض) .

قال ابن أبى حاتم رحمه الله : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا عمرو بن على ، حدثنا أبو قتيبة عتبة بن يقظان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض) ، قال : ليس فى الأرض ماء إلا نزل من السماء ، ولكن عروق فى الأرض تغيره ، فذلك قوله تعالى : (فسلكه ينابيع فى الأرض) ، فمن سره أن يعود الملح عذبا فليصعده .

وكذا قال سعيد بن جبير ، وعامر الشعبى : أن كل ماء فى الأرض فأصله من السماء .

وقال سعيد بن جُبَيْر : أصله من الثلج . يعنى أن الثلج يتراكم على الجبال ، فيسكن فى قرارها ، فتنبع العيون من أسافلها .

وقوله : (ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه) ، أى : ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعا (مختلفا ألوانه) ، أى : أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه ، (ثم يهيج) ، أى : بعد نضارته وشبابه يكتهل (فتراه مصفرا) ، قد خالطه اليُبْس ، (ثم يجعله حُطاما) ، أى : ثم يعود يابسا يتحطم ، (إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب) ، أى : الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا ، تكون خَضِرةً نضرةً حسناء ، ثم تعود عَجُوزا شوهاء ، والشاب يعود شيخا هَرِما كبيرا ضعيفا ، وبعد ذلك كله الموت . فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير ، وكثيراً ما يضرب الله

---

(١) تحفة الأحوذى أبواب الدعوات ، الحديث ٣٦٦٨ : ١٠/٥٦ . وابن ماجه ، كتاب الصيام ، باب فى الصائم لا ترد دعوته ، الحديث ١٧٥٢ : ١/٥٥٧ .

(٢) سورة الفرقان ، آية : ٤٨ .

تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء، وينبت به زروعا وثمارا ، ثم يكون بعد ذلك حُطاما، كما قال تعالى : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدرا) (١) .

وقوله : (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه) ، أى : هل يستوى هذا ومن هو قاسى القلب بعيد من الحق ؟! كقوله تعالى : (أومن كان ميتا فأحييناه، وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس ، كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) (٢) . ولهذا قال : (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) ، أى : فلا تلين عند ذكره ، ولا تخشع ولا تعى ولا تفهم ، (أولئك فى ضلال مبين) .

ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾

هذا مَدْحٌ من الله — عز وجل — لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم ، قال الله تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى) — قال مجاهد : يعنى القرآن [كله] متشابه مثانى .

وقال قتادة : الآية تشبه الآية ، والحرف يشبه الحرف .

وقال الضحاك : (مثانى) : ترديد القول ليفهموا عن ربهم عز وجل .

وقال عكرمة ، والحسن : ثنَّى الله فيه القضاء — زاد الحسن : تكون السورة فيها آية ، وفى السورة الأخرى آية تشبهها (٣) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (مثانى): مُرَدَّد ، رُدِّد موسى فى القرآن ، وصالح وهود والأنبياء — عليهم السلام — فى أمكنة كثيرة .

وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (مثانى) ، قال : القرآن يشبه بعضه بعضا ، ويُرَدُّ بعضه على بعض .

وقال بعض العلماء : ويُرْوَى عن سفيان بن عيينة معنى قوله : (متشابها مثانى) : أنَّ سياقات القرآن تارةً تكونُ فى معنى واحد ، فهذا من المتشابه ، وتارةً تكونُ بذكر الشيء وضده ، كذكر المؤمنين ثم الكافرين ، وكصفة الجنة ثم صفة النار ، وما أشبه هذا ، فهذا من المثانى ، كقوله تعالى : (إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم(٤))، وكقوله : (كلا إن كتاب الفجار لفى سجين) ، إلى أن قال : (كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين(٥)) .

---

(١) سورة الكهف ، آية : ٤٥ .
(٢) سورة الأنعام ، آية : ١٢٢ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٣٥/٢٣ .
(٤) سورة الانفطار ، آية : ١٣ ، ١٤ .
(٥) سورة المطففين ، الآيات : ٧ – ١٨ .

(هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب) ، إلى أن قال : (هذا وإن للطاغين لشر مآب (١)) ، ونحو هذا من السياقات ، فهذا كله من المثاني ، أي : في معنيين [اثنين] ، وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضا ، فهو المتشابه ، وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله : (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) ، ذلك معنى آخر .

وقوله : (تقشعر منه جلود الذين يخشَوْن ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) ، أي : هذه صفة الأبرار ، عند سماع كلام الجبار ، [المهيمن العزيز الغفار] ، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد ، والتخويف والتهديد ، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف . (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) ، لما يرجون ويؤمّلون من رحمته ولطفه ، فهم مخالفون لغيرهم من الكفار من وجوه :

أحدها : أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات ، وسماع أولئك نغمات الأبيات ، من أصوات القينات (٢) .

الثاني : أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبُكيا ، بأدب وخشية ، ورجاء ومحبة ، وفهم وعلم ، كما قال : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ، ومغفرة ورزق كريم (٣)) . وقال تعالى : (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا (٤)) : أي : لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها ، بل مصغين إليها ، فاهمين بصيرين بمعانيها ، فلهذا إنما يعملون بها ، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم .

الثالث : أنهم يلزمون الأدب عند سماعها ، كما كان الصحابة - رضي الله عنهم - عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تقشعر جلودهم ، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله . لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلّفون ما ليس فيهم ، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية مالا يلحقهم أحد في ذلك ، ولهذا فازوا بالقدْح المُعلّى في الدنيا والآخرة .

قال عبد الرزاق : حدثنا معمر قال : تلا قتادة رحمه الله : (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) ، قال : هذا نعت أولياء الله ، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم ، وتبكي أعينهم ، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم ، إنما هذا في أهل البدع ، وهذا من الشيطان .

وقال السُّدّي : (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) ، أي : إلى وعد الله .

وقوله : (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده) ، أي : هذه صفة من هداه الله ، ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله ، (ومن يضلل الله فما له من هاد (٥)) .

---

(١) سورة « ص » الآيات : ٤٩ - ٥٥ .
(٢) القينات : المغنيات .
(٣) سورة الأنفال ، الآيات : ٢ - ٤ .
(٤) سورة الفرقان ، آية : ٧٣ .
(٥) سورة الرعد ، آية : ٣٣ .

أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى : (أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة) ، ويُقَرَّعُ فيقال له ولأمثاله من الظالمين : (ذوقوا ما كنتم تكسبون) ، كمن يأتى آمنا يوم القيامة ؟! كما قال تعالى : (أفمن يمشى مُكبًّا على وجهه أهدى ، أمن يمشى سويا على صراط مستقيم (١) ؟) ، وقال : (يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر(٢)) ، وقال : (أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة(٣)) ، واكتفى فى هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر ، كقول الشاعر(٤) :

فَمَا أدْرِى إذَا يَمَّمْتُ أرْضاً أريدُ الخيرَ : أيّهما يَلِينِى ؟

[يعنى الخير أو الشر] .

وقوله : (كذب الذين من قبلهم ، فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) ، يعنى : القرون الماضية المكذبة للرسل ، أهلكهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق .

وقوله : (فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا) ، أى : بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشفى المؤمنين بهم ، فليحذر المخاطبون من ذلك ، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل ، وخاتم الأنبياء ، والذى أعده الله لهم فى الآخرة من العذاب الشديد أعظمُ مما أصابهم فى الدنيا ، ولهذا قال : (ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) .

وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

يقول تعالى : (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) ، أى : بينا للناس فيه بضرب الأمثال ، (لعلهم يتذكرون) ، فإن المثل يُقَرِّبُ المعنى إلى الأذهان ، كما قال تعالى : (ضرب لكم مثلا من أنفسكم(٥)) ، أى : تعلمونه من أنفسكم ، وقال : (وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون (٦)) .

---

(١) سورة الملك ، آية : ٢٢ .
(٢) سورة القمر ، آية : ٤٨ .
(٣) سورة فصلت ، آية : ٤٠ .
(٤) تقدم البيت فى : ٣/٦١ ، ٦/٢٥٣ ، ٥٤٩ وخرجناه هنالك .
(٥) سورة الروم ، آية : ٢٨ .
(٦) سورة العنكبوت ، آية : ٤٣ .

وقوله : (قرآنا عربيا غير ذى عوج) ، أى : هو قرآن بلسان عربى مبين ، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس ، بل هو بيان ووضوح وبرهان ، وإنما جعله الله كذلك ، وأنزله بذلك ، (لعلهم يتقون) ، أى : يحذرون ما فيه من الوعيد ، ويعملون بما فيه من الوعد .

ثم قال : (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون) ، أى : يتنازعون فى ذلك العبد المشترك بينهم ، (ورجلا سالمًا (١) لرجل) ، أى : خالصا لرجل ، لا يملكه أحد غيره ، (هل يستويان مثلا ؟) ، أى : لا يستوى هذا وهذا . كذلك لا يستوى المشرك الذى يعبد آلهة مع الله ، والمؤمن المخلص الذى لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له . فأين هذا من هذا ؟ .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : هذه الآية ضربت مثلا للمشرك والمخلص ، ولما كان هذا المثلُ ظاهرا بَيِّنًا جليا ، قال : (الحمد لله)، أى : على إقامة الحجة عليهم ، (بل أكثرهم لا يعلمون) ، أى : فلهذا يشركون بالله .

وقوله : (إنك ميت وإنهم ميتون) ، هذه الآية من الآيات التى استشهد بها الصديق عند موت الرسول صلى الله عليه وسلم ، حتى تحقق الناس موته ، مع قوله : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين (٢)) .

ومعنى هذه الآية : ستنقلون من هذه الدار لا محالة ، وستجتمعون عند الله فى الدار الآخرة ، وتختصمون فيما أنتم فيه فى الدنيا من التوحيد والشرك بين يدى الله عز وجل ، فيفصل بينكم ، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم . فينجى المؤمنين المخلصين الموحدين ، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين .

ثم إن هذه الآية — وإن كان سياقها فى المؤمنين والكافرين ، وذِكْر الخصومة بينهم فى الدار الآخرة — فإنها شاملة لكل متنازعين فى الدنيا ، فإنه تعاد عليهم الخصومة فى الدار الآخرة .

قال ابن أبى حاتم رحمه الله : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرىء، حدثنا سفيان ، عن محمد بن عمرو ، عن ابن حاطب — يعنى يحيى بن عبد الرحمن — عن [ابن الزبير ، عن (٣)] الزبير قال : لما نزلت : (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) ، قال الزبير : يا رسول الله : أتكرر علينا الخصومة ؟ قال : « نعم » . قال : إن الأمر إذاً لشديد .

وكذا رواه الإمام أحمد [عن سفيان] ، وعنده زيادة : « ولما نزلت : (ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم) ، قال الزبير : أى رسول الله ، أىُّ نعيم نُسألُ عنه ؟ وإنما — يعنى : هما (٤) الأسودان : التمر والماء — قال « أما إن ذلك سيكون (٥) » .

---

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر : (سالما) . وهى قراءة ثابتة . انظر البحر المحيط لأبى حيان : ٧/٤٢٤ ، وتفسير الطبرى : ٢٣/١٣٧ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ١٤٤ .

(٣) ما بين القوسين من مسند الإمام أحمد ، والترمذى ، وابن ماجه .

(٤) فى المخطوطة : « يعنى بهما » . والمثبت عن المسند ولفظ الترمذى : وإنما هما الأسودان . . . » .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١/ ١٦٤ .

وقد روى هذه الزيادة الترمذى وابن ماجه ، من حديث سفيان ، به . وقال الترمذى : « حسن (١) » .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا ابن نمير ، حدثنا محمد ــ يعنى ابن عمرو ــ عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب ، عن عبد الله بن الزبير ، [عن الزبير] بن العوام قال : لما نزلت هذه السورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنك ميت وإنهم ميتون . ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) ، قال الزبير : أىْ رسول الله ، أيكرر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال : « نعم ، ليكررَنّ عليكم ، حتى يُؤدَّى إلى كل ذى حق حقه » . قال الزبير : والله إن الأمر لشديد (٢) .

ورواه الترمذى من حديث محمد بن عمرو ، به وقال : « حسن صحيح (٣) » .

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لهيعة، عن أبى عُشَّانة ، عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول الخصمين يوم القيامة جاران (٤) » . تفرد به أحمد .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا درّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده إنه ليختصم ، حتى الشاتان فيما انتطحتا (٥) » تفرد به أحمد .

وفى المسند عن أبى ذر ــ رضى الله عنه ــ قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شاتين ينتطحان ، فقال : « أتدرى فيم ينتطحان يا أبا ذر » ؟ قلت : لا . قال : « لكن الله يدرى وسيحكم بينهما (٦) » .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا سهل بن بحر ، حدثنا حيان بن أغلب ، حدثنا أبى ، حدثنا ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يجاء بالإمام الخائن يوم القيامة ، فتخاصمه الرعية فيَفْلَجُون عليه، فيقال له : سُدّ ركنا من أركان جهنم » .

ثم قال : الأغلب بن تميم ليس بالحافظ .

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس رضى الله عنهما: (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون)، يقول : يخاصم الصادقُ الكاذبَ ، والمظلومُ الظالمَ ، والمهدىُّ الضالَّ ، والضعيفُ المستكبرَ(٧) .

---

(١) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة « ألهاكم التكاثر » ، الحديث ٣٤١٤ : ٩/٢٨٩ . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « معيشة أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٤١٥٩ : ٢/١٣٩٢ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١/١٦٧ .

(٣) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الزمر ، الحديث ٣٢٨٩ : ٩/١١٠ ــ ١١١ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٤/١٥١ .

هذا ، وإنما كان أول الخصمين يوم القيامة جارين ، لأن ما بينهما من القرب كثيراً ما يدفع إلى سوء التفاهم ، واعتداء كل منهما على حقوق صاحبه . وفى الحديث إيماء إلى ما ينبغى أن تكون عليه علائق الجوار من الحسن و النقاء .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣/٢٩ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٥/١٦٢ .

(٧) تفسير الطبرى ٢٤/٢ .

وقد روى ابن مَنْدَه فى كتاب «الروح» ، عن ابن عباس أنه قال: يختصم الناس يوم القيامة ، حتى تختصم الروح مع الجسد ، فتقول الروح للجسد : أنتَ فعلت . ويقول الجسد للروح : أنت أمرت ، وأنت سولت . فيبعث الله مَلَكاً يفصل بينهما ، فيقول : إن مثلكما كمثل رجل مُقعَد بصير وآخر ضرير ، دخلا بستانا ، فقال المقعد للضرير : إنى أرى هاهنا ثماراً ، ولكن لا أصل إليها ؛ فقال له الضرير : اركبنى فتناولها ؛ فركبه فتناولها ، فأيهما المعتدى ؟ فيقولان : كلاهما . فيقول لهما الملك : فإنكما قد حكمتما على أنفسكما . يعنى أن الجسدَ للروح كالمطية ، وهو راكبه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا جعفر بن أحمد بن عوسجة ، حدثنا ضرار ، حدثنا أبو سلمة الخزاعى منصور بن سلمة ، حدثنا القُمّى — يعنى يعقوب بن عبد الله — عن جعفر بن المغيرة ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عمر قال : نزلَت هذه الآية ، وما نعلم فى أىّ شىء نزلت : (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) ، قلنا : من نخاصم ؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة ، فمن نخاصم ؟ حتى وقعت الفتنة ، فقال ابن عمر : هذا الذى وَعَدَنا ربّنا — عز وجل — نختصم فيه .

ورواه النسائى عن محمد بن عامر ، عن منصور بن سلمة ، به .

وقال أبو العالية : (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) ، قال : يعنى أهل القبلة .

وقال ابن زيد : يعنى أهل الإسلام وأهل الكفر .

وقد قدمنا أن الصحيح العموم ، والله أعلم .

* ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى مخاطبا للمشركين الذين افتروا على الله ، وجعلوا معه آلهة أخرى ، وادّعوا أن الملائكة بناتُ الله ، وجعلوا لله ولداً — تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً — ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله — صلوات الله عليهم أجمعين — ولهذا قال : (فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه) ، أى : لا أحد أظلم من هذا ؛ لأنه جمع بين طرَفَى الباطل ، كَذَبَ على الله ، وكَذّب رسول الله ، قالوا الباطل وردوا الحق ، ولهذا قال متوعداً لهم : (أليس فى جهنم مثوى للكافرين) ؟ وهم الجاحدون المكذبون .

ثم قال : (والذى جاء بالصدق وصدق به) ، قال مجاهد ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، وابن زيد : الذى جاء بالصدق هو الرسول .

وقال السدى : هو جبريل عليه السلام ، (وصدق به) ، يعنى : محمداً صلى الله عليه وسلم[1] .

---

(١) تفسير الطبرى ٢٤/٣ .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (والذى جاء بالصدق) ، قال : من جاء بلاإله إلا الله ، (وصدّق به)، يعني : رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقرأ الربيع بن أنس : (والذين(١) جاءوا بالصدق) ، يعنى الأنبياء ، (وصدقوا به) ، يعنى : الأتباع .

وقال ليث بن أبي سليم،عن مجاهد :(والذى جاء بالصدق وصدق به) ، قال : أصحابُ القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة ، فيقولون : هذا ما أعطيتمونا ، فعملنا فيه بما أمرتمونا .

وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين ؛ فإن المؤمن يقول الحق ويعمل به ، والرسول — صلى الله عليه وسلم — أولى الناس بالدخول فى هذه الآية على هذا التفسير ، فإنه جاء بالصدق ، وصدّق المرسلين ، وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (والذى جاء بالصدق) : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (وصدق به) المسلمون .

(أولئك هم المتقون) ، قال ابن عباس : اتقوا الشرك(٢) .

(لهم ما يشاءون عند ربهم) ، يعنى : فى الجنة،مهما طلبوا وجدوا، (ذلك جزاء المحسنين ، ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون) . كما قال فى الآية الأخرى : (أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة ، وعد الصدق الذى كانوا يوعدون) (٣) :

أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى : (أليس الله بكاف عبده؟) — وقرأ بعضهم : (عباده) (٤) — يعنى أنه تعالى يكفى من عَبَده وتوكل عليه ؛

---

(١) لم تقع لنا هذه القراءة . ولكن روى عن ابن مسعود أنه قرأ : (والذى جاء بالصدق وصدقوا به) ، انظرها فى البحر المحيط : ٧/٤٢٨ ،والقرطبى : ١٥/٢٥٦ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٤/٤ .

(٣) سورة الأحقاف ، آية : ١٦ .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٤/٥ . والبحر المحيط : ٧/٤٢٩ .

وقال ابن أبي حاتم هاهنا : حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب ، حدثناعمي ، حدثنا أبو هانئ ، عن أبي على عمرو بن مالك الجَنْبِيّ ، عن فضالة بن عبيد الأنصارى [أنه] سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : « أفلح من هُدِيَ إلى الإسلام ، وكان عيشه كفافا ، وقَنَعَ به »

[ورواه الترمذى والنسائى، من حديث حَيْوةَ بن شُرَيح ، عن أبي هانىء الخولانى، به : وقال الترمذى: (١) صحيح]

(ويخوفونك بالذين من دونه) ، يعنى المشركين يُخَوّفون الرسول ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التى يدعونها من دونه ؛ جهلا منهم وضلالا ، ولهذا قال تعالى : (ومن يضلل الله فما له من هاد ٭ ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذى انتقام) ؟ أى : منيع الجناب لايضام ، من استند إلى جنابه ولجأ إلى بابه ، فإنه العزيز الذى لاأعز منه ، ولاأشد انتقاما منه ، ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقوله : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ، يعنى : المشركين كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق للأشياء كلها ، ومع هذا يعبدون معه غيره ، مما لايملك لهم ضراً ولانفعا ، ولهذا قال : (قل أفرأيتم ماتدعون من دون الله ، إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ؟ أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟) ، أى : لاتستطيع شيئا من الأمر .

وذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديث قيس بن الحجاج ، عن حَنَش الصَّنْعانى ، عن ابن عباس مرفوعا : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تَعَرَّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لواجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يضروك ، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك . جفّت الصحف ، ورفعت الأقلام ، واعمل لله بالشكر فى اليقين . واعلم أن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً . وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا(٢) » .

(قل : حسبى الله) أى : الله كافىّ ، عليه توكلت وعليه يتوكل المتوكلون . كما قال هود عليه السلام حين قال له قومه : (إن نقول : إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال : إنى أشهد الله ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون ٭ من دونه فكيدونى جميعا ثم لاتُنظرون ٭ إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم(٣)) .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن عصام الأنصارى، حدثنا عبد الله بن بكر السهمى ،حدثنا محمد بن حاتم ، عن أبي المقدام – مولى آل عثمان – عن محمد بن كعب القرظى ،حدثنا ابن عباس – رفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله . ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله أوثق بما فى يديه . ومن أحب أن يكون أكرم الناس ، فليتق الله » .

---

(١) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة . والحديث أخرجه الترمذى فى أبواب الزهد ، انظر تحفة الأحوذى، باب «ما جاء فى الكفاف والصبر عليه» ، الحديث ٢٤٥٣ : ٦/١٥ – ١٦ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده : ١/٣٠٧ – ٣٠٨ .

(٣) سورة هود ، الآيات : ٥٤ – ٥٦ .

وقوله : (قل يا قوم اعملوا على مكانتكم) ، أى : على طريقتكم . وهذا تهديد ووعيد ، (إنى عامل) ، أى : على طريقتى ومنهجى ، (فسوف تعلمون) ، أى : ستعلمون غِبَّ ذلك وَوَباله ، (من يأتيه عذاب يخزيه) ، أى : فى الدنيا ، (ويحل عليه عذاب مقيم) ، أى : دائم مستمر ، لا محيد له عنه . وذلك يوم القيامة .

إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ــ صلى الله عليه وسلم ــ : (إنا أنزلنا عليك الكتاب)، يعنى : القرآن (للناس بالحق)، أى لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به ، (فمن اهتدى فلنفسه) ، أى : فإنما يعود نفعُ ذلك إلى نفسه ، (ومن ضل فإنما يضل عليها) ، أى: إنما يرجع وبال ذلك على نفسه، (وما أنت عليهم بوكيل) (١)، [أى : بموكل] أن يهتدوا ، (إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل) (٢) ، (إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب)(٣) .

ثم قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف فى الوجود بما يشاء ، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى ، بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان . والوفاة الصغرى عند المنام ، كما قال تعالى : (وهو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ويُرسِلُ عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لايفرطون) (٤) . فذكر الوفاتين : الصغرى ثم الكبرى. وفى هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى . ولهذا قال : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى)، فيه دلالة على أنها تجتمع فى الملأ الأعلى ، كما ورد بذلك الحديث المرفوع الذى رواه ابن منده وغيره . وفى صحيحى البخارى ومسلم من حديث عُبيد الله بن عمر ، عن سعيد بن أبى سعيد ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « إذا أوى أحدكم إلى فراشه

(١) ثبت على هامش مخطوطة الأزهر ، عند قوله تعالى : (وما أنت عليهم بوكيل) ما يأتى : « وقيل : الوكيل يحمل إليه الشىء يعجز موكله عنه بنفسه ، يقول : لسنا بعاجزين عن حملهم [على] الإيمان فنكل ذلك إليك ! بل نحن قادرون على ذلك ؛ قال الله تعالى : (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ،أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) . وقيل : نسخت بهذه الآية آية الأمر بالقتال ، نسخ » .

(٢) سورة هود ، آية : ١٢ .

(٣) سورة الرعد ، آية : ٤٠ .

(٤) سورة الأنعام ، آية : ٦٠ ، ٦١ .

فلينفضه بداخلة إزاره(١) ، فإنه لايدرى ما خلفه عليه، ثم ليقل: باسمك ربى وضعت جنبى ، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين(٢) .

وقال بعض السلف : يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا ، وأرواح الأحياء إذا ناموا ، فتتعارف ماشاء الله تعالى أن تتعارف، (فيمسك التى قضى عليها الموت) ، التى : قد ماتت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى .

قال السدى : إلى بقية أجلها . وقال ابن عباس : يمسك أنفس الأموات ، ويرسل أنفس الأحياء ، ولايغلط . (إن فى ذلك لآيات لقوم يفكرون) .

أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى ذاما للمشركين فى اتخاذهم شفعاء من دون الله ، وهم الأصنام والأنداد ، التى اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولابرهان حداهم على ذلك ، وهى لاتملك شيئا من الأمر ، بل وليس لها عقل تعقل به ، ولاسمع تسمع به ، ولابصر تبصر به ، بل هى جمادات أسوأ حالا من الحيوان بكثير .

ثم قال : قل ، أى يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله ، أخبرهم أن الشفاعة لاتنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له ، فرجعها كلها إليه ، (من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه(٣)) .

(له ملك السموات والأرض) ، أى : هو المتصرف فى جميع ذلك ، (ثم إليه ترجعون) ، أى : يوم القيامة ، فيحكم بينكم بعدله ، ويجزى كلا بعمله .

ثم قال تعالى ذاما للمشركين أيضا : (وإذا ذكر الله وحده) ، أى : إذا قيل : لا إله إلا الله (اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة) — قال مجاهد : (اشمأزت) انقبضت .

وقال السدى : نفرت . وقال قتادة : كفرت واستكبرت . وقال مالك، عن زيد بن أسلم: استكبرت . كما قال تعالى : (إنهم كانوا إذا قيل لهم : لا إله إلا الله ، يستكبرون (٤) ، أى : عن المتابعة والانقياد لها . فقلوبهم لاتقبل الخير ، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر . ولهذا قال : (وإذا ذكر الذين من دونه) ، أى : من الأصنام والأنداد ، قاله مجاهد ، (إذا هم يستبشرون) ، أى : يفرحون ويسرون .

---

(١) داخلة الإزار : طرفه . ومعناه : يستحب مسح الفراش قبل الدخول فيه ، خوف أن يكون فيه عقرب أو غيرها ، وينفضه ويده مستورة بإزار ؛ خوف أن يكون فيه ما يؤذيه .

(٢) البخارى ، كتاب الدعوات ، باب « التعوذ والقراءة عند المنام » : ٨٧/٨ . ومسلم ، كتاب الذكر ، باب « ما يقول عند النوم وأخذ المضجع » : ٧٧/٨ .

(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٥٥ .

(٤) سورة الصافات ، آية : ٣٥ .

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى بعد ماذكر عن المشركين ماذكر ، من المذمة لهم فى حبهم الشرك ، ونفرتهم عن التوحيد ، (قل : اللهم فاطر السموات والأرض [عالم الغيب والشهادة) ، أى : ادع أنت الله وحده لاشريك له ، الذى خلق السموات والأرض] وفطرها ، أى : جعلها على غير مثال سبق ، (عالم الغيب والشهادة) ، أى : السر والعلانية ، (أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) ، أى : فى دنياهم ، ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم ، وقيامهم من قبورهم .

وقال مسلم فى صحيحه : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا عمر بن يونس ، حدثنا عكرمة بن عمار ، حدثنا يحيى بن أبى كثير ، حدثنى أبوسلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة: بأىّ شىء كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يفتتح صلاته إذا قام من الليل ؟ قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم ، ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطرَ السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختُلِفَ فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم(١) » .

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، وأخبرنا سهيل بن أبى صالح وعبد الله بن عثمان بن خُثَيم ، عن عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال: «من قال: اللهم فاطرَ السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إنى أعهد إليك فى هذه الدنيا أنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لاشريك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك، فإنك إن تكلنى إلى نفسى تُقرِّبْنى من الشر وتباعدنى من الخير ، وإنى لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لى عندك عهداً تُوَفِّينيه يوم القيامة ، إنك لاتُخْلِف الميعاد — إلا قال الله — عز وجل — لملائكته يوم القيامة : إن عبدى قد عهد إلى عهدا فأوفوه إياه ، فيدخله الله الجنة » .

قال سهيل : فأخبرت القاسم بن عبد الرحمن أن عوناً أخبر بكذا وكذا ؟ فقال : ما فى أهلنا جارية إلا وهى تقول هذا فى خدرها . انفرد به الإمام أحمد(٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا [حسن ، حدثنا] ابن لهيعة ، حدثنى حيى بن عبد الله : أن أبا عبد الرحمن حدثه قال : أخرج لنا عبد الله بن عمرو قرطاسا وقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا يقول : اللهم فاطرَ السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت ربّ كل شىء ، وإله كل شىء ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، وحدك لاشريك لك ، وأن

---

(١) مسلم فى كتاب صلاة المسافرين ، باب « الدعاء فى صلاة الليل وقيامه » : ٢/١٨٥ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١/٤١٢ .

محمداً عبدك ورسولك، والملائكة يشهدون: أعوذ بك من الشيطان وشركه، وأعوذ بك أن أقترف على نفسي إثماً، أو أجُرَّه إلى مسلم .

قال أبو عبد الرحمن : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمه عبدالله بن عمرو أن يقول ذلك حين يريد أن ينام . تفرد به أحمد أيضاً (١) .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا ابن عَيَّاش ، عن محمد بن زياد الألهاني ، عن أبي راشد الحُبْرَاني قال : أتيت عبد الله بن عمرو فقلت له : حَدِّثنا ما سمعتَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم : فألقى بين يَدَيَّ صحيفة فقال : هذا ما كتب لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : فنظرت فيها فإذا فيها أن أبا بكر الصديق قال : يارسول الله ، علّمني ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا بكر ، قل : اللهم فاطرَ السموا ت والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، لا إله إلا أنت ، ربَّ كل شيء ومليكه ، أعوذ بك من شر نفسي ، وشر الشيطان وشركه ، أو أقترف على نفسي سوءا ، أو أجره إلى مسلم(٢) » .

ورواه الترمذي ، عن الحسن بن عرفة ، عن إسماعيل بن عياش ، به ، وقال : « حسن غريب من هذا الوجه(٣) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم ، حدثنا شيبان(٤) ، عن ليث ، عن مجاهد قال : قال أبوبكر الصديق : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت ، وإذا أخذت مضجعي من الليل : اللهم فاطرَ السموات والأرض إلى آخره(٥) .

وقوله : (ولو أن للذين ظلموا) ، وهم المشركون ، (ما في الأرض جميعاً ومثله معه) ، أي : ولو أن جميعَ ملك الأرض وضعفَه معه (لافتدوا به من سوء العذاب) ، أي : الذي أوجبه الله لهم يوم القيامة ، ومع هذا لا يُتَقَبَّل منهم الفداء ولو كان ملءَ الأرض (٦) ذهباً ، كما قال في الآية الأخرى ، (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) ، أي : وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم مالم يكن في بالهم ولا في حسابهم ، (وبدا لهم سيئات ماكسبوا) ، أي : وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم ، (وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون) ، أي : وأحاط بهم من العذاب والنكال ماكانوا يستهزئون به في الدار الدنيا .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢/١٧١ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/١٩٦ .
(٣) تحفة الأحوذي ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٥٩٨ : ٩/٥١٤ .
(٤) في المخطوطة : « حدثنا سيار » . والمثبت من المسند ، وهو الصواب . وشيبان هذا هو ابن عبد الرحمن التميمي ، أبو معاوية البصري ، يروى عن ليث بن أبي سليم ، ويروى عنه هاشم بن القاسم بن مسلم أبو النضر . انظر التهذيب : ٨/٤٦٥ - ٤٦٦ ، ٤/٣٧٣ ، ١٠/١٨ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ١/١٤ .
(٦) يشير إلى آية آل عمران ٩١ : « فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به » .

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان أنه فى حال الضراء يَتضرع إلى الله ـ عز وجل ـ وينيب إليه ويدعوه ، وإذا خوله منه نعمة بغى وطغى ، وقال : (إنما أوتيته على علم) ، أى : لما يعلم الله من استحقاقى له ، ولولا أنى عند الله تعالى خصيص لما خوّلنى هذا !

قال قتادة : (على علم عندى) : على خيْر عندى (١) .

قال الله عز وجل : (بل هى فتنة) ، أى : ليس الأمر كما زعموا ، بل أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه ، أيُطيع أم يعصى ؟ مع علمنا المتقدم بذلك ، فهى فتنة أى : اختبار ، (ولكن أكثرهم لايعلمون) ، فلهذا يقولون ما يقولون، ويدّعون ما يدّعون .

(قد قالها الذين من قبلهم) ، أى: قد قال هذه المقالة وزعَم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى ، كثير ممن سلف من الأمم ، (فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون) ، أى : فما صح قولهم ولا منعهم جمعهم وماكانوا يكسبون ، (فأصابهم سيئات ماكسبوا والذين ظلموا من هؤلاء) ، أى : من المخاطبين (سيصيبهم سيئات ماكسبوا) ، أى : كما أصاب أولئك ، (وماهم بمعجزين) كما قال تعالى مخبراً عن قارون أنه قال له قومه : (لاتفرح إن الله لايحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولاتنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولاتبغ الفساد فى الأرض إن الله لايحب المفسدين . قال : إنما أوتيته على علم عندى ، أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون(٢)) . وقال تعالى : (وقالوا : نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين(٣)) :

وقوله : (أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر)، أى : يُوسّعه على قوم ويضيقه على آخرين، (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) ، أى : لعبراً وحججا .

---

(١) تفسير الطبرى : ٩/٢٤ .

(٢) سورة القصص ، الآيات : ٧٦ ـ ٧٨ .

(٣) سورة سبأ ، آية : ٣٥ .

۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها ،وإن كانت مهما كانت ، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر . ولا يصح حمل هذه على غير توبة ، لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه .

وقال البخاري : حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا هشام بن يوسف : أن ابن جُرَيج أخبرهم : قال يعلى : إن سعيد ابن جبير أخبره عن ابن عباس : أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا . فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لَحَسَنٌ لو تُخبرنا أنّ لما عملنا كفارة . فنزل : (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون) ، ونزل : (قل : يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله(١)) .

وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي ، من حديث ابن جُرَيج ، عن يعلى بن مسلم المكي ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، به(٢) .

والمراد من الآية الأولى قوله : (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا(٣)) . . . الآية .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حَسَن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا أبو قَبِيل قال : سمعت أبا عبد الرحمن المزَنيّ يقول : سمعت ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية : (ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم) . . . إلى آخر الآية ، فقال رجل : يارسول الله ، فمن أشرك ؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « ألا ومن أشرك » ، ثلاث مرات . تفرد به الإمام أحمد(٤) .

---

(١) البخاري ، تفسير سورة الزمر : ٦/١٥٧ .
(٢) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب «كون الإسلام يهدم ما قبله» : ١/٧٩ .
(٣) سورة مريم ، آية : ٦٠ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٥/٢٧٥ .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا سُرَيج بن النعمان ، حدثنا نوح بن قيس ، عن أشعث بن جابر الحُدّانى ، عن مكحول ، عن عمرو بن عَبَسَة قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، شيخ كبير يَدّعِم على عصا له ، فقال : يارسول الله ، إن لى غَدَرَات وفَجَرَات ، فهل يغفر لى ؟ فقال : « ألست تشهد أن لا إله إلا الله؟ » . قال : بلى ، وأشهد أنك رسول الله . فقال : « قد غفر لك غَدَرَاتك وفجراتك » . تفرد به أحمد(١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن شهر بن حَوْشَب ، عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعتُ رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ : (إنه عمل غير صالح) ، وسمعته يقول : « ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى ، إنه الغفور الرحيم » (٢)

ورواه أبو داود والترمذى ، من حديث ثابت ، به .

فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد: أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة: ولا يقنطنّ عبد من رحمة الله ، وإن عَظُمت ذنوبه وكثرت ، فإن باب التوبة والرحمة واسع ، قال الله تعالى: (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) (٣) . وقال تعالى : (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله، يجد الله غفورا رحيما (٤)) . وقال تعالى فى حق المنافقين : (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا . إلا الذين تابوا (٥))، وقال : (لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم) . ثم قال : (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم (٦)) . وقال (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا (٧)) .

قال الحسن البصرى : انظر إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة !

والآيات فى هذا كثيرة جدا .

وفى الصحيحين عن أبى سعيد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ حديثُ الذى قتل تسعا وتسعين نفسا ، ثم ندم وسأل عابدا من عُبَّادِ بنى إسرائيل : هل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله وأكمل به مائة . ثم سأل عالما من علمائهم: هل له من توبة ؟ فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها ، فقصدها فأتاه الموت فى أثناء الطريق ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فأمر الله أن يقيسوا مابين الأرضين ، فإلى أيهما كان أقرب فهو منها . فوجدوه أقرب إلى الأرض التى هاجر إليها بشبر ، فقبضته ملائكة الرحمة . وذُكر أنه نأى بصدره عند الموت ، وأن الله أمر البلدة الخَيِّرة أن تقترب ، وأمر تلك البلدة أن تتباعد .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٨٥/٤ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٤٥٤/٦ . وقد تقدم فى سورة هود عند تفسير الآية ٤٦ منها ، انظر : ٢٥٩/٤ .
(٣) سورة التوبة ، آية : ١٠٤ .
(٤) سورة النساء ، آية : ١١٠ .
(٥) سوره النساء ، آية : ١٤٥ ، ١٤٦ .
(٦) سورة المائدة ، آية : ٧٣ ، ٧٤ .
(٧) سورة البروج ، آية : ١٠ .

هذا معنى الحديث ، وقد كتبناه فى موضع آخر بلفظه (١) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قوله : (قل : ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لاتقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا) ... إلى آخر الآية ، قال : قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله ، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله ، ومن زعم أن عُزَيراً ابن الله ، ومن زعم أن الله فقير ، ومن زعم أن يد الله مغلولة ، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة ، يقول الله تعالى لهؤلاء : (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم) ؟ ثم دعا إلى توبته مَنْ هو أعظم قولا من هؤلاء ، من قال : (أنا ربكم الأعلى) ، وقال : (ماعلمت لكم من إله غيرى) – قال ابن عباس : مَن آيَسَ عبادَ الله من التوبة بعد هذا فقد جَحَدَ كتاب الله ، ولكن لايقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه .

وروى الطبرانى من طريق الشعبى ، عن شُتَير (٢) بن شَكَل أنه قال : سمعتُ ابنَ مسعود يقول : إن أعظم آية فى كتاب الله : (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) ، وإن أجمع آية فى القرآن بخير وشر : (إن الله يأمر بالعدل والأحسان) ، وإن أكثر آية فى القرآن فرجاً فى سورة الغرف (٣) : (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله) ، وإن أشد آية فى كتاب الله تصريفاً : (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لايحتسب) . فقال له مسروق : صدقت .

وقال الأعمش ، عن أبى سعيد ، عن أبى الكنود قال : مر عبد الله – يعنى ابن مسعود – على قاص ، وهو يذكّر الناس ، فقال : يامُذَكِّر ، لم تُقَنِّط الناس ؟ ثم قرأ : (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله). رواه ابن أبى حاتم .

ذكر أحاديث فيها نفى القنوط

قال الإمام أحمد : حدثنا سُرَيج بن النعمان ، حدثنا أبو عُبيدة عبد المؤمن بن عبيد الله ، حدثنى أخشن (٤) السدوسى قال : دخلت على أنس بن مالك فقال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « والذى نفسى بيده ، لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ، ثم استغفرتم الله لغفر لكم ، والذى نفس محمد بيده ، لو لم تخطئوا لجاء الله بقوم يخطئون ، ثم يستغفرون الله فيغفر لهم » . تفرد به أحمد (٥) .

---

(١) البخارى ، كتاب الأنبياء : ٢١١/٤ – ٢١٢ . ومسلم ، كتاب التوبة ، باب « قبول توبة القاتل وإن كثر قتله » : ١٠٣/٨ – ١٠٤ . وانظر فيما تقدم : ٣٣٥/٢ .

(٢) فى المخطوطة : « سنيد » . والمثبت عما تقدم فى سورة النحل ، عند تفسير الآية التسعين منها ، انظر : ٥١٥/٤ ، وانظر أيضاً تفسير الطبرى : ١١/٢٤ .

(٣) يعنى سورة الزمر ، فهى تسمى أيضاً سورة الغرف ، لما فيها من الحديث عن غرف أهل الجنة .

(٤) فى المخطوطة : « حسن السدوسى » . وفى المسند : « أخشم السدوسى » . والمثبت عن الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٣٤٦/١/١ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢٣٨/٣ .

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثني ليث، حدثني محمد بن قيس ــ قاصّ عمر بن عبد العزيز ــ عن أبي صِرْمة، عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « لولا أنكم تذنبون ، لخلق الله قوما يذنبون فيغفر لهم(١) » .

هكذا رواه الإمام أحمد ، وأخرجه مسلم في صحيحه ، والترمذي جميعا ، عن قتيبة ، عن الليث بن سعد، به . ورواه مسلم من وجه آخر به، عن محمد بن كعب القرظي ، عن أبي صِرْمَةَ ــ وهو الأنصاري صحابي ــ عن أبي أيوب، به (٢).

وقال الإمام أحمد : حدثنا أحمد بن عبد الملك الحراني ، حدثنا يحيى بن عمرو بن مالك النُّكرى قال: سمعت أبي يحدث عن أبي الجوزاء ، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كفارة الذنب الندامة » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون ، فيغفر لهم » تفرد به أحمد (٣) .

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد : حدثني عبد الأعلى بن حماد النَّرسِيّ ، حدثنا داود بن عبد الرحمن ، حدثنا أبو عبد الله مسلمة الرازي ، عن أبي عمرو البَجَلي ، عن عبد الملك بن سفيان الثقفي، عن أبي جعفر محمد بن علي ، عن محمد بن الحنفية،عن أبيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب العبد المُفتَّن التواب(٤) » : لم يخرجوه من هذا الوجه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، أخبرنا : ثابت وحميد ، عن عبد الله بن عبيد ابن عمير قال : إن إبليس ــ عليه لعائن الله ــ قال : يارب ، إنك أخرجتني من الجنة من أجل آدم ، وإني لا أستطيعه إلا بسلطانك . قال : فأنت مسلط . قال : يارب ، زدني . قال : لايولد له ولد إلا ولد لك مثله . قال : يارب ، زدني . قال : اجعل صدورهم مساكن لكم ، وتجرون منهم مجرى الدم . قال : يارب ، زدني . قال : أجلب عليهم بخيلك ورجلك، وشاركهم في الأموال والأولاد ، وعدْهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . فقال آدم : يارب ، قد سلطته عليّ ، وإني لا أمتنع إلا بك . قال : لايولد لك ولد إلا وكّلت به من يحفظه من قرناء السوء . قال : يارب ، زدني . قال : الحسنة عشر أو أزيد ، والسيئة واحدة أو أمحوها . قال : يارب ، زدني . قال : باب التوبة مفتوح ماكان الروح في الجسد . قال : يارب ، زدني . قال : (ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم)

وقال محمد بن إسحاق : قال نافع : عن عبد الله بن عمر ، عن عمر ــ رضي الله عنه ــ في حديثه قال : وكنا نقول : ما الله بقابل ممن افتتن صَرْفا ولا عدلا ولا توبة ، عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم . قال : وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم . قال: فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، أنزل الله فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم : (ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ، من قبل أن يأتيكم العذاب

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/٤١٤ .

(٢) مسلم ، كتاب التوبة ، باب « سقوط الذنوب بالاستغفار » : ٨/٩٤ . وتحفة الأحوذي ، أبواب صفة الجنة ، وتحفة الأحوذي ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٦٠٦ : ٩/٥٢٣ ــ ٥٢٤ . وقال الترمذي : « حسن غريب » .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١/٢٨٩ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١/٨٠ ، ١٠٣ .

بغتة وأنتم لا تشعرون) . قال عمر رضى الله عنه : فكتبتها بيدى فى صحيفة ، وبعثت بها إلى هشام بن العاص قال : فقال هشام : لما أتتنى جعلت [أقرؤها] بذى طُوًى أصَعّد بها فيه وأصَوّت ولا أفهمها ، حتى قلت : اللهم أفهمنيها . قال : فألقى الله فى قلبى أنها إنما أنزلت فينا ، وفيما كنا نقول فى أنفسنا ، ويقال فينا . قال : فرجعت إلى بعيرى فجلست عليه ، فلحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة .

ثم استحث تعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة ، فقال : (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له) ، [أى : ارجعوا إلى الله واستسلموا له ، (من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون] ، أى : بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة ، (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) ، وهو القرآن العظيم ، (من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) ، أى : من حيث لا تعلمون ولا تشعرون .

ثم قال : (أن تقول نفس : يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله) ، أى : يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط فى التوبة والإنابة ، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل .

وقوله : (وإن كنت لمن الساخرين) ، أى : إنما كان عملى فى الدنيا عمل ساخر مستهزىء غير موقن مصدق .

(أو تقول : لو أن الله هدانى لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب : لو أن لى كرة فأكون من المحسنين) ، أى : تود أن لو أعيدت إلى الدار الدنيا فتحسن العمل .

قال على بن أبى طلحة : عن ابن عباس : أخبر الله — سبحانه — ما العباد قائلون قبل أن يقولوه ، وعملهم قبل أن يعملوه . وقال : (ولا ينبئك مثل خبير) ، (أن تقول نفس : يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله ، وإن كنت لمن الساخرين . أو تقول : لو أن الله هدانى لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب : لو أن لى كرة فأكون من المحسنين) فأخبر الله تعالى : أن لو رُدّوا لما قدروا على الهدى ، وقال تعالى : (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) (١) .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أسود ، حدثنا أبو بكر ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول : « لو أن الله هدانى » ؟! فتكون عليه حسرة . قال : وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول : « لولا أن الله هدانى » ! قال : (فيكون له الشكر)(٢) .

ورواه النسائى من حديث أبى بكر بن عياش ، به .

ولما تمنى أهل الجرائم العَوْدَ إلى الدنيا ، وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله ، قال : (بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) ، أى : قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتى فى الدار الدنيا ، وقامت حججى عليك ، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها ، وكنت من الكافرين بها ، الجاحدين لها .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٤/٢٤ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٥١٢/٢ .

وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه ، وتبيض فيه وجوه ، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف ، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، قال تعالى هاهنا : (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله) ، أى : فى دعواهم له شريكا وولدا (وجوههم مسودة) ، أى : بكذبهم وافترائهم .

وقوله : (أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ؟) أى : أليست جهنم كافية لها سجنا وموئلا ، لهم فيها الخزى والهوان ، بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب ، حدثنا عمى ، حدثنا عيسى بن أبى عيسى الخياط ، عن عمرو ابن شعيب ، عن أبيه ، عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر فى صور الناس ، يعلوهم كل شىء من الصغار ، حتى يدخلوا سجنا من النار فى واد يقال له بولس ، من نار الأنيار ، ويسقون عصارة أهل النار ، من طينة الخبال » .

وقوله : (وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم) ، أى : بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله ، (لا يمسهم السوء) ، أى : يوم القيامة ، (ولاهم يحزنون) ، أى : ولا يحزنهم الفزع الأكبر ، بل هم آمنون من كل فزع ، مزحزحون عن كل شر ، مؤملون كل خير .

ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها ، وربها ومليكها والمتصرف فيها ، وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته .

وقوله : (له مقاليد السموات والأرض) ، قال مجاهد : المقاليد هى : المفاتيح بالفارسية (١) . وكذا قال قتادة ، وابن زيد ، وسفيان بن عيينة .

وقال السدى : (له مقاليد السموات والأرض) ، أى : خزائن السموات والأرض .

والمعنى على كلا القولين : أن أزمة الأمور بيده ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ؛ ولهذا قال : (والذين كفروا بآيات الله) ، أى : حججه وبراهينه ، (أولئك هم الخاسرون) .

---

(١) فى المعرب للجواليقى ٣٦٢ : « المقليد [بكسر الميم] : المفتاح . فارسى معرب . لغة فى الإقليد ، والجمع مقاليد » .

وقد روى ابن أبي حاتم هاهنا حديثا غريبا جداً – وفي صحته نظر – ولكن نذكره كما ذكره ، فإنه قال :

حدثنا يزيد بن سنان البصري بمصر ، حدثنا يحيى بن حماد ، حدثنا الأغلب بن تميم ، عن مخلد بن هذيل العبدي ، عن عبد الرحمن المدني ، عن عبد الله بن عمر ، عن عثمان بن عفان – رضي الله عنه – : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير : (له مقاليد السموات والأرض) ، فقال : « ما سألني عنها أحد قبلك يا عثمان » ، قال : « تفسيرها : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله وبحمده ، أستغفر الله ، ولا قوة إلا بالله ، الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، بيده الخير ، يحيي ويميت [وهو على كل شيءٌ قدير] : من قالها يا عثمان [إذا أصبح] عشر مرار أعطي خصالا [ستا] : أما أولاهن : فيحرس من إبليس وجنوده ، وأما الثانية : فيعطى قنطارا من الأجر ، وأما الثالثة : فترفع له درجة في الجنة ، وأما الرابعة : فيتزوج من الحور العين ، وأما الخامسة : فيحضره اثنا عشر ملكا ، وأما السادسة : فيعطى من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور ، وله مع هذا يا عثمان من الأجر ، كمن حج وتقبلت حجته ، واعتمر فتقبلت عمرته ، فإن مات من يومه طبع بطابع الشهداء (١) » .

ورواه أبو يعلى الموصلي من حديث يحيى بن حماد ، به مثله ، وهو غريب ، وفيه نكارة شديدة ، والله أعلم .

وقوله : (قل : أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ؟) ، ذكروا في سبب نزولها ما رواه ابن أبي حاتم وغيره ، عن ابن عباس : أن المشركين بجهلهم دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبادة آلهتهم ، ويعبدوا معه إلهه ، فنزلت : (قل : أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ؟ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك : لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) .

وهذه كقوله : (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) .

وقوله : (بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) ، أي : أخلص العبادة لله وحده ، لا شريك له ، أنت ومن معك ، أنت ومن اتبعك وصدقك .

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)

يقول تعالى : وما قدر المشركون الله حق قدره ، حين عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذي لا أعظم منه ، القادر على كل شيءٌ ، المالك لكل شيء ، وكل شيءٌ تحت قهره وقدرته .

قال مجاهد : نزلت في قريش . وقال السدي : ما عظموه حق عظمته (٢) .

وقال محمد بن كعب : لو قدروه حق قدره ما كذبوه .

---

(١) انظر الدر المنثور للسيوطي : ٣٢٣/٥ – ٣٢٤ . والجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٣٤٩/١/٤ – ٣٥٠ .
(٢) سورة الأنعام ، آية : ٨٨ .
(٣) تفسير الطبري : ١٢/٢٤ .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (وما قدروا الله حق قدره) ، هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم ، فمن آمن أن الله على كل شئ قدير ، فقد قدَر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره .

وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة ، والطريق فيها وفى أمثالها مذهبُ السلف ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف .

قال البخارى : قوله : (وما قدروا الله حق قدره) : حدثنا آدم ، حدثنا شيبان ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن عَبِيدة ، عن عبد الله بن مسعود قال : جاء حَبْرٌ من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلائق على إصبع : فيقول : أنا الملِكُ : فضحك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى بدت نواجذه ؛ تصديقا لقول الحَبْر ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وماقدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة... الآية(١)).

ورواه البخارى أيضا فى غير هذا الموضع من صحيحه ، والإمام أحمد ، ومسلم ، والترمذى والنسائى فى التفسير من سننيهما، كلهم من حديث سليمان بن مهران الأعمش ، عن إبراهيم [عن عَبِيدة ، عن ابن مسعود —رضى الله عنه— بنحوه(٢).

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم (٣)] عن علقمة ، عن عبد الله — رضى الله عنه — قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب ، فقال : يا أبا القاسم ، أبلغك أن الله يحمل الخلائق على إصبع ، والسموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والثرى على إصبع ؟ قال : فضحك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى بدت نواجذه . قال : وأنزل الله عز وجل : (وما قدروا الله حق قدره) إلى آخر الآية (٤) .

وهكذا رواه البخارى ، ومسلم ، والنسائى — من طُرُق — عن الأعمش ، به (٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حُسَين بن حسن الأشقر ، حدثنا أبو كُدَينة ، عن عطاء ، عن أبى الضُّحى ، عن ابن عباس قال : مرّ يهودى برسول الله — صلى الله عليه وسلم— وهو جالس فقال : كيف تقول يا أبا القاسم: يوم يَجْعَل الله السماء على

---

(١) البخارى ، تفسير سورة الزمر : ١٥٧/٦ — ١٥٨ .

(٢) البخارى ، كتاب التوحيد : ١٨٤/٩ . ومسند الإمام أحمد : ٤٢٩/١ . ومسلم ، كتاب «صفة القيامة والجنة والنار» : ١٢٥/٨ — ١٢٦ — ولكن الذى وقع لنا فيه من طريق الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة — وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة الزمر : ١١٢/٩ — ١١٤ .

(٣) ما بين القوسين من الطبعات السابقة .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٣٧٨/١ .

(٥) البخارى ، كتاب التوحيد : ١٦٤/٩ — ١٦٥ . ومسلم ، فى الكتاب والباب المتقدمين .

ذه — وأشار بالسبابة — والأرض على ذه ، والجبال على ذه ، وسائر الخلق على ذه — كل ذلك يشير بإصبعه — قال : فأنزل الله عز وجل : (وما قدروا الله حق قدره) (١) . . . الآية .

وكذا رواه الترمذى فى التفسير عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، عن محمد بن الصلت أبى جعفر ، عن أبى كدينة يحيى بن المهلب ، عن عطاء بن السائب ، عن أبى الضحى مسلم بن صبيح ، به ، وقال : « حسن صحيح [غريب] ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه (٢) » .

ثم قال البخارى : حدثنا سعيد بن عُفَير ، حدثنا الليث ، حدثنى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر ، عن ابن شهاب ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن : أن أبا هريرة — رضى الله عنه — قال : سمعتُ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « يقبض الله الأرض ، ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض (٣) ؟

تفرد به من هذا الوجه ، ورواه مسلم من وجه آخر (٤) .

وقال البخارى فى موضع آخر : حدثنا مُقَدّم بن محمد ، حدثنا عمى القاسم بن يحيى ، عن عبيد الله ، عن نافع ، عن ابن عمر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع (٥) ، وتكون السمواتُ بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك (٦) » .

تفرد به أيضاً من هذا الوجه ، ورواه مسلم من وجه آخر (٧) . وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ آخر أبسط من هذا السياق وأطول ، فقال :

حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة ، عن عُبَيد الله بن مقسم ، عن ابن عمر أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر : (وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون) ، ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول هكذا بيده ، يحركها يقبل بها ويدبر : « يمجد الرب نفسه : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم » ، فرجف برسول الله — صلى الله عليه وسلم — المنبرُ حتى قلنا : ليَخِرّن به (٨) .

وقد رواه مسلم ، والنسائى ، وابن ماجه من حديث عبد العزيز بن أبى حازم — زاد مسلم : ويعقوب بن عبد الرحمن ، كلاهما عن أبى حازم ، عن عبيد الله بن مقسم ، عن ابن عمر ، به ، نحوه (٩) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١/ ٣٢٤ .

(٢) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الزمر ، الحديث ٣٢٩٣ : ٩/ ١١٥ .

(٣) البخارى ، تفسير سورة الزمر : ٦/ ١٥٨ .

(٤) مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار : ٨/ ١٢٦ .

(٥) « على إصبع » غير ثابت فى الصحيح .

(٦) البخارى ، كتاب التوحيد : ٩/ ١٥٠ .

(٧) مسلم ، فى الكتاب والباب المتقدمين : ٨/ ١٢٦ — ١٢٧ .

(٨) مسند الإمام أحمد : ٢/ ٧٢ . وانظر أيضاً المسند : ٢/ ٨٧ — ٨٨ .

(٩) مسلم ، فى الكتاب المتقدم : ٨/ ١٢٦ — ١٢٧ . وابن ماجه ، المقدمة ، الحديث ١٩٨ : ١/ ٧١ — ٧٢ ، وكتاب الزهد ، باب « ذكر البعث » ، الحديث ٤٢٧٥ : ٢/ ١٤٢٩ .

ولفظ مسلم – عن عبيد الله بن مقسم فى هذا الحديث – : « أنه نظر إلى عبدالله بن عمر كيف يحكى النبىّ – صلى الله عليه وسلم – ، قال : يأخذ الله سمواته وأرَضيه بيده ويقول : أنا الملك(١) ، ويقبض أصابعه ويبسطها: أنا الملك ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شئ منه ، حتى إنى لأقول : أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

وقال البزار : حدثنا سليمان بن سيف ، حدثنا أبو على الحنفى ، حدثنا عبَّاد المنْقَرى ، حدثنى محمد بن المنكدر قال : حدثنا عبد الله بن عمر ، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قرأ هذه الآية على المنبر : (وما قدروا الله حق قدره) ، حتى بلغ : (سبحانه وتعالى عما يشركون) ، فقال المنبر هكذا ، [فجاء] وذهب ثلاث مرات .

ورواه الإمام الحافظ أبو القاسم الطبرانى من حديث عُبَيد بن عُمَير ، عن عبد الله بن عمرو وقال : صحيح .

وقال الطبرانى فى المعجم الكبير : حدثنا عبد الرحمن بن معاوية العتْبى ، حدثنا حيَّان بن نافع بن صخر بن جويرية ، حدثنا سعيد بن سالم القداح ، عن معمر بن الحسن ، عن بكر بن خُنَيس ، عن أبى شيبة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن جرير قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لنفر من أصحابه: « إنى قارئ عليكم آيات من آخر سورة الزمر ، فمن بكى منكم وجبت له الجنة » ؟ فقرأها من عند قوله : (وما قدروا الله حق قدره) ، إلى آخر السورة ، فمنا من بكى ، ومنا من لم يبك ، فقال الذين لم يبكوا : يا رسول الله ، لقد جهدنا أن نبكى ، فلم نبك ؟ فقال : « إنى سأقرؤها عليكم ، فمن لم يبك فليتباك » . هذا حديث غريب جداً .

وأغرب منه ما رواه فى المعجم الكبير أيضاً : حدثنا هاشم بن زيد (٢) ، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش ، حدثنى أبى ، حدثنى ضمضم بن زرعة ، عن شُرَيح بن عُبَيد ، عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم – : « إن الله تعالى يقول : ثلاث خلال غيَّبتهُنَّ عن عبادى ، لو رآهن رجل ما عمل سوءاً أبداً: لو كشفت غطائى فرآنى حتى نستيقن ويعلم كيف أفعل بخلقى إذا أتيتهم ، وقبضت السموات بيدى ، ثم قبضت الأرضين ، ثم قلت : أنا الملك ، من ذا الذى له الملك دونى ؟ ثم أريتهم الجنة وما أعددت لهم فيها من كل خير ، فيستيقنوها . وأريهم النار وما أعددت لهم فيها من كل شر فيستيقنوها ، ولكن عمدا غيبت ذلك عنهم لأعلم كيف يعملون ، وقد بينته لهم (٣) » .

وهذا إسناد متقارب ، وهى نسخة تروى بها أحاديث جمة ، والله أعلم .

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى مخبرا عن هول يوم القيامة ، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة ، فقوله : (ونفخ فى الصور ، فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) ، هذه النفخة هى الثانية ، وهى نفخة الصعق ، وهى التى يموت بها

(١) فى صحيح مسلم : « أنا الله » .

(٢) كذا فى المخطوطة . وفى المعجم الصغير : « مزيد » .

(٣) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور من الطبرانى : ٥/٣٣٥ .

الأحياء من أهل السموات والأرض ، إلا من شاء الله كما هو مُصَرَّح به مفسراً فى حديث الصور المشهور (١) : ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولا ، وهو الباقى آخرا بالديمومة والبقاء ، ويقول : (لمن الملك اليوم) ؟ ثلاث مرات . ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول : (لله الواحد القهار) : أى : الذى هو واحد وقد قهر كل شئ ، وحكم بالفناء على كل شئ . ثم يحيى أول من يحيى إسرافيل ، ويأمره أن ينفخ فى الصور أخرى ، وهى النفخة الثالثة نفخة البعث ، قال تعالى : (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) ، أى : أحياء بعد ما كانوا عظاما ورفاتا ، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة ، كما قال تعالى : (فإنما هى زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة (٢)) : وقال تعالى : (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا (٣)) : وقال تعالى : (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون (٤)) .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن النعمان بن سالم قال : سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة ابن مسعود قال : سمعت رجلا قال لعبد الله بن عمرو : إنك تقول : الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ قال : لقد هممت أن لا أحدثكم شيئاً، إنما قلت: سترون بعد قليل أمرا عظيما(٥) . ثم قال عبد الله بن عمرو: قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم— : « يخرج الدجال فى أمتى ، فيمكث فيهم أربعين — لا أدرى أربعين يوما أو أربعين عاما أو أربعين شهراً أو أربعين ليلة — فيبعث الله عيسى ابن مريم، كأنه عروة بن مسعود الثقفى، فيظهر فيهلكه الله . ثم يلبث الناس بعده سنين سبعا ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد فى قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن (٦) أحدهم كان فى كَبَد جَبَل لدخلت عليه » . قال : سمعتها من رسول الله —صلى الله عليه وسلم— : « ويبقى شرار الناس فى خفة الطير ، وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفا ، ولا ينكرون منكرا . قال : فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدونها ، وهم فى ذلك دَارَّة أرزاقهم ، حسن عيشهم . ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى [له (٧)] ، وأول من يسمعه رجل يَلُوط حوضه ، فيصعق . ثم لا يبقى أحد إلاصعق . ثم يرسل الله — أو : ينزل الله — مطراً(٨) كأنه الطَّلُّ — أو : الظّل ، شك نعمان — فتنبت منه أجساد الناس . ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال : يا أيها الناس، هلموا إلى ربكم:(وقفوهم إنهم مسئولون) — قال— : ثم يقال: أخرجوا بَعْثَ النار . قال : فيقال: كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين . فيومئذ تبعث الولدان شيبا ، ويومئذ يكشف عن ساق (٩) » .

انفرد بإخراجه مسلم فى صحيحه (٩) .

---

(١) انظر حديث الصور فى ٣/٢٧٦ — ٢٨٢ . وانظر أيضا : ٥/١٩٦ ، ٢٢٥ ، ٣٠٨ .

(٢) سورة النازعات ، آية : ١٣ ، ١٤ .

(٣) سورة الإسراء ، آية : ٥٢ .

(٤) سورة الروم ، آية : ٢٥ .

(٥) بعده فى المسند : «كان تحريق البيت - قال شعبة : هذا او نحوه » .

(٦) فى المخطوطة : « حتى أن لو كان أحدهم » . و المثبت عن المسند .

(٧) ما بين القوسين عن المسند .

(٨) فى المسند : « قطراً » .

(٩) مسند الإمام أحمد : ٢/١٦٦ . وقد شرحنا غريبه من قبل عند سياقة حديث مسلم فى تفسير الآية السابعة والثمانين من سورة النمل : ٥/٢٢٥ — ٢٢٦ .

وقال البخارى : حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا أبى ، حدثنا الأعمش قال : سمعت أبا صالح قال : سمعت أبا هريرة عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « بين النفختين أربعون » . قالوا : يا أبا هريرة ، أربعون يوما ؟ قال : أبيت[١] قالوا : أربعون سنه ؟ قال : أبيت.قالوا أربعون شهرا ؟ قال: أبيت . ويبلى كل شئ من الإنسان إلا عجب[٢] ذنبه ، فيه يركب الخلق[٣] .

وقال أبو يعلى : حدثنا يحيى بن معين ، حدثنا أبو اليمان ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن عمر بن محمد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « سألت جبريل – عليه السلام – عن هذه الآية : (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) : من الذين لم يشأ الله أن يصعقهم ؟ قال : هم الشهداء ، مُقلَّدون أسيافهم حول عرشه، تتلقاهم ملائكة يوم القيامة إلى المحشر بنجائب[٤] من ياقوت نمارها[٥] ألين من الحرير ، مدٌّ خطاها مد أبصار الرجال ، يسيرون فى الجنة يقولون عند طول النزهة : انطلقوا بنا إلى ربنا – عز وجل – لننظر كيف يقضى بين خلقه ، يضحك إليهم إلهى ، وإذا ضحك إلى عبد فى موطن فلا حساب عليه » .

رجاله كلهم ثقات إلا شيخ إسماعيل بن عياش ، فإنه غير معروف ، والله أعلم .

وقوله : (وأشرقت الأرض بنور ربها) ، أى : أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق – تبارك وتعالى – للخلائق لفصل القضاء ، (ووضع الكتاب) ، قال قتادة : كتاب الأعمال ، (وجئ بالنبيين) ، قال ابن عباس يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم (والشهداء) ، أى : الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر ، (وقضى بينهم بالحق) ، أى : بالعدل ، (وهم لا يظلمون) . قال الله : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين [٦]) . وقال تعالى : (إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما [٧]) . ولهذا قال : (ووفيت كل نفس ما عملت) ، أى : من خير أو شر ، (وهو أعلم بما يفعلون) .

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار ؟ وإنما يساقون سوقا عنيفا بزجر وتهديد ووعيد . كما قال تعالى : (يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دعًّا[٨]) ، أى: يدفعون إليها دفعا.هذا وهم عطاش ظماء، كما قال فى الآية الأخرى:

---

(١) أى : أبيت أن أقول فى الخبر ما لم أسمعه .
(٢) تقدم تفسير هذه الكلمة فى : ٥/٤٦١ .
(٣) البخارى ، تفسير سورة الزمر : ٦/١٥٨ .
(٤) النجائب : جمع نجيبة ، تأنيث النجيب من الإبل ، وهو القوى الخفيف السريع .
(٥) النمار – بكسر النون – جمع نمرة – بفتح فكسر – وهو : كل شملة مخططة من مآزر الأعراب .
(٦) سورة الأنبياء ، آية : ٤٧ .
(٧) سورة النساء ، آية : ٤٠ .
(٨) سورة الطور ، آية : ١٣ .

(يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا * ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا (١)) : وهم فى تلك الحال صمٌّ وبكم وعمى ، منهم من يمشى على وجهه ، (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ، مأواهم جهنم ، كلما خبت زدناهم سعيرا (٢)) :

وقوله : (حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها) ، أى : بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعا ، لتعجل لهم العقوبة ، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية — الذين هم غلاظ الأخلاق ، شداد القُوَى ، على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل — : (ألم يأتكم رسل منكم ؟) ، أى : من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم ، (يتلون عليكم آيات ربكم) ، أى : يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه ، (وينذرونكم لقاء يومكم هذا) ، أى : ويحذرونكم من شر هذا اليوم ؟ فيقول الكفار لهم : (بلى) ، أى : قد جاءونا وأنذرونا ، وأقاموا علينا الحجج والبراهين ، (ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) ، أى : ولكن كذبناهم وخالفناهم ، لما سبق إلينا من الشقوة التى كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل ، كما قال تعالى مخبرا عنهم فى الآية الأخرى :(كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير؟ * قالوا : بلى ، قد جاءنا نذير، فكذبنا وقلنا : ما نزل الله من شئ ، إن أنتم إلا فى ضلال كبير * وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير (٣)، أى : رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة . (فاعترفوا بذنبهم ، فسحقا لأصحاب السعير) ، أى : بُعداً لهم وخسارا .

وقوله هاهنا : (قيل : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها) ، أى : كل من رآهم وعلِم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب ، ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين ، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم مستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به . ولهذا [قال جل وعلا] : (قيل : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها) ، أى : ماكثين فيها لا خروج لكم منها ، ولا زوال لكم عنها ، (فبئس مثوى المتكبرين)، أى : فبئس المصير وبئس المقيل لكم ، بسبب تكبركم فى الدنيا ، وإبائكم عن اتباع الحق ، فهو الذى صيركم إلى ما أنتم فيه ، فبئس الحال وبئس المآل .

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدا إلى الجنة (زُمَرًا) أى: جماعة بعد جماعة: المقربون، ثم الأبرار ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم. والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم ، وكل صنف مع صنف ، كل زمرة تناسب بعضها بعضا .

(حتى إذا جاءوها) ، أى : وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط، حُبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هُذّبوا ونُقّوا أذن لهم فى دخول الجنة ، وقد ورد فى حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم بالدخول ، فيقصدون آدم ، ثم نوحا ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم

(١) سورة مريم ، آية : ٨٥ ، ٨٦ .
(٢) سورة الإسراء ، آية : ٩٧ .
(٣) سورة الملك ، الآيات : ٨ — ١٠ .

عيسى ، ثم محمداً ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ كما فعلوا فى العرصات عند استشفاعهم إلى الله ـ عز وجل ـ أن يأتى لفصل القضاء ، ليظهر شرف محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على سائر البشر فى المواطن كلها .

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أنا أول شفيع فى الجنة(١) » وفى لفظ لمسلم : « وأنا أول من يقرع باب الجنة (١) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم ، حدثنا سليمان ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « آتى باب الجنة يوم القيامة فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد . قال : يقول : بك أمرتُ أن لا أفتح لأحد قبلك (٢) » .

ورواه مسلم عن عَمرو الناقد وزهير بن حرب ، كلاهما عن أبى النضر هاشم بن القاسم ، عن سليمان ـ وهو ابن المغيرة القيسى ـ عن ثابت ، عن أنس ، به (٣) .

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن همام بن مُنَبِّه، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أول زُمْرة تلج الجنة صُورَهم على صورة القمر ليلة البدر، ولا يبصقون فيها ، ولا يمتخطون فيها ، ولا يتغوطون فيها . آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ، ومجامرهم الألُوّة ، ورشْحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان ، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم ، من الحسن . لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب واحد ، يسبحون الله بكرة وعشيا (٤) » .

رواه البخارى عن محمد بن مقاتل ، عن ابن المبارك . ورواه مسلم عن محمد بن رافع ، عن عبد الرزاق ، كلاهما عن معمر بإسناده نحوه (٤) . وكذا رواه أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا جَرير ، عن عُمَارة بن القعقاع ، عن أبى زرعة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أول زُمْرَة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دُرِّىّ فى السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتْفلون ولا يمتخطون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوّة ، وأزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ، ستون ذراعا فى السماء » .

وأخرجاه أيضا من حديث جَرير (٥) .

وقال الزهرى ، عن سعيد ، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال: « يدخل الجنة من أمتى زُمْرَة ، هم سبعون ألفا ، تضئ وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر » . فقام عُكَّاشة بن محْصَن فقال : يا رسول

(١) كتاب الإيمان ، باب « فى قول النبى صلى الله عليه وسلم : أنا أول الناس يشفع ... » : ١/١٣٠ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣١٦/٢ .

(٣) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « فى قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أنا أول الناس من يشفع ... » : ١٣٠/١ .

(٤) تقدم الحديث عند تفسير الآية الثانية والستين من سورة مريم ، وخرجناه هنا لك ، وشرحنا غريبه ، انظر : ٢٤١/٥ - ٢٤٢ .

(٥) البخارى ، كتاب الأنبياء : ١٦٠/٤ . ومسلم ، كتاب الجنة ، باب « أول زمرة تدخل الجنة ... » : ١٤٦/٨ .

الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم . فقال : « اللهم اجعله منهم » . ثم قام رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم . فقال — صلى الله عليه وسلم — : « سبقك بها عُكَّاشة » :

أخرجاه(١) . وقد روى هذا الحديث — فى السبعين ألفا [يدخلون الجنة] بغير حساب — البخارى ومسلم، عن ابن عباس ، وجابر بن عبد الله ، وعمران بن حصين ، وابن مسعود ، ورفاعة بن عرابة الجهنى ، وأم قيس بنت محصن .

ولهما عن أبى حازم ، عن سهل بن سعد : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « ليدخلن الجنة من أمتى سبعون ألفا — أو : سبعمائة ألف — آخذٌ بعضهم ببعض ، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة ، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر(١)؛

وقال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن محمد بن زياد قال : سمعت أبا أمامة الباهلى يقول : سمعت رسول الله —صلى الله عليه وسلم—يقول : وعدنى ربى عز وجل أن يَدخُلَ الجنة من أمتى سبعون ألفا ، مع كل ألف سبعون ألفا ، ولا حساب عليهم ولا عذاب ، وثلاث حثَيات من حثَيات ربى عز وجل » .

وكذا رواه الوليد بن مسلم ، عن صفوان بن عمرو ، عن سليم (٢) بن عامر ، عن أبى اليمان عامر بن عبد الله بن لُحَيّ(٣) عن أبى أمامة .

ورواه الطبرانى ، عن عُتبة بن عَبْد السُّلَمى : « ثم يشفع كل ألف فى سبعين ألفا » .

وروى مثله عن ثوبان ، وأبى سعيد الأنمارى . وله شواهد من وجوه كثيرة .

وقوله : (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : سلام عليكم ، طبتم ، فادخلوها خالدين) : لم يذكر الجواب هاهنا ، وتقديره : حتى إذا جاءوها ، وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراما وتعظيما ، وتلقتهم الملائكة الخَزَنة بالبشارة والسلام والثناء ، لا كما تلقى الزبانيةُ الكفرةَ بالتثريب (٤) والتأنيب ، فتقديره : إذا كان هذا سَعِدوا وطابوا، وسُرّوا وفرحوا ، بقَدْر كل ما يكون لهم فيه نعيم . وإذا حذف الجواب هاهنا ذهب الذهن كلَّ مذهب فى الرجاء والأمل .

ومن زعم أن « الواو » فى قوله : (وفتحت أبوابها) واوُ الثمانية ، واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية (٥) ، فقد أبعد النَّجْعَة ، وأغرق فى النَّزْع . وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهرى ، عن حُمَيد بن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله —صلى الله عليه وسلم—: «من أنفق زوجين من ماله فى سبيل الله ، دُعِى من أبواب الجنة ، وللجنة أبواب ، فمن كان من أهل الصلاة دُعى من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الصدقة دُعى من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الجهاد دُعى من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دُعى من باب الرَّيّان » . فقال أبو بكر — رضى الله تعالى

---

(١) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب » : ٨/١٤٠ — ١٤١ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب » : ١/١٣٦ — ١٣٧ .

(٢) فى المخطوطة : « حكيم بن عامر » . ولم نجده . ولعل الصواب ما أثبتناه ، انظر التهذيب ترجمة «صفوان بن عمرو » ، ٤/٤٢٨ .

(٣) فى المخطوطة : « بن يحيى » . والمثبت من الخلاصة .

(٤) التثريب : التوبيخ .

(٥) ينسب هذا القول إلى الحريرى ، وابن خالويه ، والثعلبى . انظر مغنى اللبيب لابن هشام : ٤٠٤ ، ط. بيروت .

عنه ــ : يا رسول الله ، ما علَى أحد من ضرورة دُعِى ، من أيها دعى ، فهل يدعى منها كلها أحد يارسول الله ؟ قال : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم (١) » .

رواه البخارى ومسلم ، من حديث الزهرى ، بنحوه (٢) .

وفيهما من حديث أبى حازم سلمة بن دينار ، عن سهل بن سعد أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « إن فى الجنة ثمانية أبواب ، باب منها يسمى الريان ، لا يدخله إلا الصائمون (٣) » .

وفى صحيح مسلم ، عن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « مامنكم من أحد يتوضأ فيبلغ ــ أو : فيسبغ الوضوء ــ ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء (٤) » .

وقال الحسن بن عرفة : حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حُسَيْن ، عن شهر بن حوشب ، عن معاذ ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « مفتاح الجنة : لا إله إلا الله » .

ذكر سعة أبواب الجنة ــ نسأل الله العظيم من فضله أن يجعلنا من أهلها

فى الصحيحين من حديث أبى زُرْعَةَ ، عن أبى هريرة فى حديث الشفاعة الطويل : « فيقول الله : يا محمد ، أدْخِلْ مَن لا حساب عليه من أمتك من الباب الأيمن ، وهم شركاء الناس فى الأبواب الأخَر . والذى نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة ــ ما بين (٥) عضادتى الباب ــ ، لكما بين مكة وهَجَر ــ أو : هَجَر ومكة » : وفى رواية : « مكة وبُصْرى (٦) » .

وفى صحيح مسلم ، عن عُتْبَةَ بن غَزْوَانَ أنه خَطَبَهم [خطبة] فقال فيها : « ولقد ذُكر لنا أن [ما بين] مصراعين من مصاريع الجنة ، مسيرة أربعين سنة ، وليأتين عليه يوم وَهُو كظيظ(٧) [من] الزحام (٨) » .

وفى المسند عن حكيم بن معاوية ، عن أبيه ، عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، مثله (٩) .

وقال عبد بن حميد : حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا دراج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم قال ــ : « إن ما بين مصراعين فى الجنة مسيرة أربعين سنة (١٠) » .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٦٨/٢ .

(٢) البخارى ، كتاب الصوم ، باب « الريان للصائمين » : ٣٢/٣ . ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب « من جمع الصدقة وأعمال البر » : ٩١/٣ .

(٣) البخارى فى الكتاب والباب المتقدمين : ٣٢/٣ . ومسلم ، باب الصوم ، باب « فضل الصيام » : ١٥٨/٣ ــ ١٥٩ .

(٤) مسلم ، كتاب الطهارة ، باب « الذكر المستحب عقب الوضوء » : ١٤٤/١ ــ ١٤٥ .

(٥) فى مسلم : « إلى عضادتى الباب » . والعضادتان : خشبتا الباب من جانبيه .

(٦) البخارى ، تفسير سورة الإسراء : ١٠٧/٦ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « أدنى أهل الجنة منزلة » : ١٢٩/١ .

(٧) أى : ممتلىء .

(٨) مسلم ، كتاب الزهد : ٢١٥/٨ .

(٩) مسند الإمام أحمد : ٥/٣ .

(١٠) أخرجه الإمام أحمد من طريق الحسن . المسند : ٢٩/٣ .

وقوله : (وقال لهم خزنتها : سلام عليكم ، طبتم) ، أى : طابت أعمالكم وأقوالكم ، وطاب سعيكم فطاب جزاؤكم ، كما أمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن ينادى بين المسلمين فى بعض الغزوات : « إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة » وفى رواية : « مؤمنة (١) » .

وقوله : (فادخلوها خالدين) ، أى : ماكثين فيها أبدا ، لا يبغون عنها حولا .

(وقالوا : الحمد لله الذى صدقنا وعده) ، أى : يقول المؤمنون إذا عاينوا فى الجنة ذلك الثواب الوافر ، والعطاء العظيم ، والنعيم المقيم ، والملك الكبير ، يقولون عند ذلك : (الحمد لله الذى صدقنا وعده) ، أى : الذى كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام ، كما دعَوا فى الدنيا : (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد) (٢) ، (وقالوا : الحمد لله الذى هدَانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رُسُل ربنا بالحق) (٣) ، (وقالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزَن ، إن ربنا لغفور شكور . الذى أحلنا دار المقامة من فضله، لا يمسنا فيها نَصَبٌ ولا يَمَسنا فيها لُغُوب) (٤) .

وقولهم : (وأورثَنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء، فنعم أجر العاملين) — قال أبو العالية، وأبو صالح، وقتادة ، والسدى ، وابن زيد : أى أرض الجنة (٥) .

وهذه الآية كقوله : (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر : أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) (٦) ، ولهذا قالوا : (نتبوأ من الجنة حيث نشاء) ، أى : أين شئنا حللنا ، فنعم الأجر أجرُنا على عملنا .

وفى الصحيحين من حديث الزهرى ، عن أنس فى قصة المعراج قال النبى — صلى الله عليه وسلم — : « أدخلت الجنة فإذا فيها جَنَابِذُ (٧) اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك (٨) » .

وقال عبد بن حميد : حدثنا روح بن عبادة ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا الجريرى ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سأل ابن صائد عن تربة الجنة ؟ فقال : دَرْمَكَةٌ بيضاءُ مِسْكٌ خالِص . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « صَدَق » .

وكذا رواه مسلم ، من حديث أبى مسلمة (٩) ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد ، به (٩) .

ورواه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن أبى أسامة ، عن الجُرَيرى ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد : أن ابن صائد سأل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن تربة الجنة ، فقال : « دَرْمَكة بيضاء مسك خالص (١٠) » .

---

(١) النسائى ، كتاب الحج ، باب قوله عز وجل : (خذوا زينتكم عند كل مسجد) : ٥/٢٣٤ .
(٢) سورة آل عمران ، آية : ١٩٤ .
(٣) سورة الأعراف ، آية : ٤٣ .
(٤) سورة فاطر ، آية : ٣٤ ، ٣٥ .
(٥) انظر تفسير الطبرى : ٢٤/٢٥ .
(٦) سورة الأنبياء ، آية : ١٠٥ .
(٧) الجنابذ : جمع جنبذة — بضم الجيم والباء ، وبينهما نون ساكنة — هى : القبة .
(٨) تقدم الحديث عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء ، وخرجناه هنالك . انظر : ٥/١٥ — ١٧ .
(٩) فى المخطوطة : « سلمة » . والصواب : « مسلمة » . وأبو مسلمة هذا هو : سعيد بن يزيد بن مسلمة . انظر ترجمته فى التهذيب : ٤/١٠٠ .
(١٠) مسلم ، كتاب الفتن ، باب « ذكر ابن صياد » : ٨/١٩١ — ١٩٢ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عاصم ابن ضمرة ، عن علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — في قوله تعالى : (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا) ، قال : سيقوا حتى انتهوا إلى باب من أبواب الجنة ، فوجدوا عندها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان ، فعمدوا إلى إحداهما فتطهروا منها ، فجرت عليهم نضرة النعيم ، فلم تُغَيّر أبشارهم بعدها أبدا ، ولم تُشْعَث أشعارهم أبدا بعدها ، كأنما دُهنوا بالدِّهان ؛ ثم عَمَدوا إلى الأخرى كأنما أُمِرُوا بها ، فشربوا منها ، فأذهبت ما كان في بطونهم من أذى أو قذى ؛ وتلقتهم الملائكة على أبواب الجنة : (سلام عليكم طبتم ، فادخلوها خالدين) ؛ ويلقى كل غلمان صاحبهم يُطيفون به ، فِعْلَ الولدان بالحميم جاء من الغيبة : أبْشِرْ ، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا ، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا ؛ قال : وينطلق غلام من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين ، فيقول : هذا فلان — باسمه في الدنيا — فيقلن : أنت رأيته ؟ فيقول : نعم ؛ فيستخفهن الفرح حتى تخرج إلى أسْكُفّة(١) الباب . قال : فيجيء فإذا هو بنمارق مصفوفة ، وأكواب موضوعة ، وزرابي مبثوثة ؛ قال : ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه ، فإذا هو قد أسس على جندل اللؤلؤ ، بين أحمر وأخضر وأصفر ، ومن كل لون ؛ ثم يرفع طرفه [إلى سقفه] ، فلولا أن الله قدّره له ، لألَمَّ أن يذهب ببصره ، إنه لمثل البرق ؛ ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين ، ثم يتكيء على أريكة من أرائكه ، ثم يقول : (الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) ... الآية .

ثم قال : حدثنا أبي ، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدي ، حدثنا مسلمة بن جعفر البجلي قال : سمعت أبا معاذ البصري يقول : إن عليا — رضي الله عنه — كان ذات يوم عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده ، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يُستقبلون — أو : يُؤْتَوْنَ — بنوق لها أجنحة ، وعليها رحال الذهب ، شراك (٢) نعالهم نور يتلألأ ، كل خطوة منها مَدّ البصر ، فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان ، فيشربون من إحداهما فيُغْسَل ما في بطونهم من دَنس ، ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبدا ، وتجرى عليهم نضرة النعيم ، فينتهون — أو : فيأتون — باب الجنة ، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب ، فيضربون بالحلقة على الصفيحة ، فيسمع (٣) لها طنين ياعلى ، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل ، فتبعث قَيِّمها فيفتح له ، فإذا رآه خرّ له — قال مسلمة : أراه قال : ساجداً — فيقول : ارفع رأسك ، فإنما أنا قَيِّمك ، وكلت بأمرك . فيتبعه ويقفو أثره ، فتستخف الحوراء العجلة ، فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه ، ثم تقول : أنت حِبّي ، وأنا حِبُّك ، وأنا الخالدة التي لا أموت ، وأنا الناعمة التي لا أبأس ، وأنا الراضية التي لا أسخط ، وأنا المقيمة التي لا أظعن » . فيدخل بيتاً من أسّه إلى سقفه مائة ألف ذراع ، بناؤه على جندل اللؤلؤ ، طرائق أصفر وأخضر وأحمر ، ليس فيها طريقة تشاكل صاحبتها ، في البيت سبعون سريرا ، على كل سرير سبعون حَشِيّة ، على كل حشية سبعون زوجة ، على كل زوجة سبعون حلة ، يرى مُخّ ساقها من باطن الحُلَل ، يقضي جماعها في مقدار ليلة من لياليكم هذه ؛ الأنهار من تحتهم تَطَّرِد ، أنهار من

---

(١) الأسكفة : خشبة الباب التي يوطأ عليها .

(٢) الشراك — بكسر الشين — : سير النعل .

(٣) في المخطوطة : « فلو تسمع » ، والمثبت من الطبعات السابقة .

ماء غير آسن — قال : صاف ، لا كدَر فيه — وأنهار من لبن لم يتغير طعمه — قال : لم يخرج من ضروع الماشية — وأنهار من خمر لذة للشاربين — قال : لم تعصرها الرجال بأقدامهم — وأنهار من عسل مصفى — قال : لم يخرج من بطون النحل ، يستجنى الثمار ، فإن شاء قائما ، وإن شاء قاعدا ، وإن شاء متكئا — ثم تلا : (ودانية عليهم ظلالها ، وذللت قطوفها تذليلا) — فيشتهى الطعام فيأتيه طير أبيض — قال : وربما قال : أخضر : قال — فترفع أجنحتها ، فيأكل من جنوبها ، أىّ الألوان شاء، ثم يطير فيذهب ، فيدخل الملك فيقول : سلام عليكم ، تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون : ولو أن شعرة من شعر الحوراء وقعت لأهل الأرض ، لأضاءت الشمس معها سوادا فى نور » .

هذا حديث غريب ، وكأنه مرسل ، والله أعلم .

وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

لما ذكر تعالى حكمه فى أهل الجنة والنار ، وأنه نزّل كُلاًّ فى المحل الذى يليق به ويصلح له ، وهو العادل فى ذلك الذى لا يجور — أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول عرشه المجيد ، يسبحون بحمد ربهم ، ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور ، وقد فصل القضية ، وقضى الأمر ، وحكم بالعدل : ولهذا قال : (وقضى بينهم) ، أى : بين الخلائق (بالحق) .

ثم قال :(وقيل : الحمد الله رب العالمين) ، أى : ونطق الكون أجمعه — ناطقه وبهيمه — لله رب العالمين ، بالحمد فى حكمه وعدله ، ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه ، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد .

قال قتادة : افتتح الخلق بالحمد فى قوله : (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) ، واختتم بالحمد فى قوله : (وقضى بينهم بالحق ، وقيل : الحمد الله رب العالمين) .

آخر تفسير سورة الزمر ولله الحمد

• • •

تفسير سورة غافر

وهى مكية

قد كرّه بعض السلف ، منهم محمد بن سيرين أن يقال : « الحواميم » ، وإنما يقال : « آل حم » ؛

قال عبد الله بن مسعود : « آل حم » ديباج القرآن .

وقال ابن عباس : إن لكل شيء لباباً ، ولُبَاب القرآن « آل حم » — أو قال : الحواميم ؛

قال مِسْعَر بن كِدَام : كان يقال لهن : « العرائس » ؛

روى ذلك كله الإمام العَلَمُ أبو عُبَيد القاسم بن سلام رحمه الله ، فى كتاب « فضائل القرآن » ؛

وقال حُمَيد بن زَنْجويه : حدثنا عبيد الله بن موسى ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن عبيد الله قال : إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلا ، فمر بأثر غيث . فبينا هو يسير فيه ويتعجب ، إذ هبط على روضات دَمِثات (١) فقال : عجبت من الغيث الأول فهذا أعجب وأعجب. فقيل له : إن مثل الغيث الأول مثل عظم القرآن ، وإن مثل هؤلاء الروضات الدمثات ، مثل آل حم فى القرآن . أورده البغوى .

وقال ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبى حبيب : أن الجرّاح بن أبى الجرّاح حدّثه عن ابن عباس ، قال : لكل شيء لباب ، ولُباب القرآن الحواميم ؛

وقال ابن مسعود : إذا وقَعتُ فى « آل حم » فقد وقعتُ فى روضات أتأنّق (٢) فيهن ؛

وقال أبو عبيد : حدثنا الأشجعى ، حدثنا مِسْعر — هو ابن كِدَام — عمن حدثه : أن رجلا رأى أبا الدرداء يبنى مسجداً ، فقال له : ماهذا ؟ فقال : أبنيه من أجل « آل حم » .

وقد يكون هذا المسجد الذى بناه أبو الدرداء ، هو المسجد المنسوب إليه داخل قلعة دمشق . وقد يكون صيانتها وحفظها ببركته وبركة ما وُضع له ، فإن هذا الكلام يدل على النصر على الأعداء ، كما قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لأصحابه فى بعض الغزوات : « إن بُيّتم الليلة فقولوا : « حم » لا ينصرون » . وفى رواية : « لا تنصرون (٣) » .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن الحكم [بن ظبيان] بن خلف المازنى ، ومحمد بن الليث الهمدانى قالا : حدثنا موسى بن مسعود ، حدثنا عبد الرحمن بن أبى بكر المليكى ، عن زرارة بن مصعب ، عن أبى سلمة ، عن أبى هُرَيرة — رضى الله عنه — قال : قال رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — : « من قرأ آية الكرسىّ وأولَ حم المؤمن ، عُصِم ذلك اليوم من كل سوء » ؛

---

(١) دمثات جمع دمثة — بفتح فكسر — وهى : الأرض السهلة الرخوة .

(٢) أى : أعجب بهن ، وأستلذ قراءتهن ، وأتتبع محاسنهن .

(٣) سنن أبى داود ، كتاب الجهاد ، باب « فى الرجل ينادى بالشعار » . ومسند الإمام أحمد عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : ٤/ ٦٥ ، ٥/ ٣٧٧ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الجهاد ، باب « ماجاء فى الشعار » ، الحديث ١٧٣٣ : ٥/ ٣٢٩ .

ثم قال : « لا نعلمه يُروَى إلا بهذا الإسناد » ؛ ورواه الترمذيّ من حديث المليكى ، وقال : « تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه (١) » .

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة ، فقد تقدم فى أول « سورة البقرة (٢) » بما أغنى عن إعادته هاهنا .

وقد قيل : إن (حم) اسم من أسماء الله عز وجل ، وأنشدوا فى ذلك (٣) :

يُذَكِّرُنى حَامِيمَ والرمحُ شَاجِرٌ فَهَلَّا تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ

وقد ورد فى الحديث الذى رواه أبو داود والترمذى ، من حديث الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن المهلب بن أبى صُفْرَة قال : حدثنى من سَمِع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن بُيِّتُّم الليلة فقولوا : حم لا ينصرون » ؛ وهذا إسناد صحيح (٤) .

واختار أبو عبيد أن يُروَى : « فقولوا : حم ، لا ينصروا » ، أى : إن قلتم ذلك لا ينصروا . جعله جزاء لقوله : [فقولوا] .

وقوله : (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) ، أى : تنزيل هذا الكتاب — وهو القرآن — من الله ذى العزة والعلم ، فلا يرام جنابه ، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابه .

وقوله : (غافر الذنب وقابل التوب) ، أى : يغفر ماسلف من الذنب ، ويقبل التوبة فى المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه .

وقوله : (شديد العقاب) ، أى : لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا ، وعتا عن أوامر الله ، وبغى . وهذه كقوله تعالى : (نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم (٥)) ، يقرن هذين الوصفين كثيراً فى مواضع متعددة من القرآن ؛ ليبقى العبد بين الرجاء والخوف .

وقوله : (ذى الطول) — قال ابن عباس : يعنى السعة والغنى . وكذا قال مجاهد ، وقتادة .

وقال يزيد بن الأصم : (ذى الطول) : يعنى : الخير الكثير .

---

(١) تحفة الأحوذى ، أبواب فضائل القرآن ، الحديث ٣٠٣٩ : ١٨٢/٨ – ١٨٣ .

(٢) انظر : ٥٦/١–٦٠ .

(٣) البيت فى تفسير الطبرى : ٢٦/٢٤ منسوباً إلى شريح بن أوفى العبسى ، وكتاب نسب قريش : ٢٨١ ، والاستيعاب لابن عبد البر : ١٣٧٢/٣ ، وأسد الغابة ، فى ترجمة محمد بن طلحة القرشى : ٩٨/٥ بتحقيقنا ، واللسان ، مادة « حم » .

(٤) تقدم تخريج الحديث فى الصفحة السابقة .

(٥) سورة الحجر ، آية : ٤٩ ، ٥٠ .

وقال عكرمة : (ذى الطول) : ذى المنّ .

وقال قتادة : ذى النعم والفواضل .

والمعنى : أنه المتفضل على عباده ، المتطول عليهم بما هم فيه من المنَن والأنعام ، التى لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها ، (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها(١)) :.. الآية .

وقوله : (لا إله إلا هو) ، أى : لا نظير له فى جميع صفاته ، فلا إله غيره ، ولا رب سواه (إليه المصير) ، أى : إليه المرجع والمآب ، فيجازى كل عامل بعمله ، (وهو سريع الحساب (٢)) .

وقال أبو بكر بن عياش : سمعت أبا إسحاق السبيعى يقول : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال : ياأمير المؤمنين ، إنى قتَلْتُ ،فهل لى من توبة ؟ فقرأعليه : (حم * تنزيل الكتابمن الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) ، وقال : اعمل ولا تيأس .

رواه ابن أبى حاتم ــ واللفظ له ــ وابن جرير(٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا موسى بن مروان الرَّقّى،حدثناعمر ــ يعنى ابن أيوب ــ أخبرنا: جعفر ابن برْقان ، عن يزيد بن الأصم قال : كان رجل من أهل الشام ذو بأس ، وكان يفد إلى عمر بن الخطاب ، ففقده عمر فقال : ما فعل فلان بن فلان ؟ فقالوا : ياأمير المؤمنين ، يتابع فى هذا الشراب . قال : فدعا عمر كاتبه ، فقال : اكتب : « من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، غافر الذنب وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذى الطول ، لا إله إلا هو إليه المصير » . ثم قال لأصحابه :ادعوا الله لأخيكم أن يُقْبِلَ بقلبه ، وأن يتوب [الله] عليه . فلما بلغ الرجل كتابُ عمر جعل يقرؤه ويردده ، ويقول : غافر الذنب،وقابل التوب [شديد العقاب] ، قد حذرنى عقوبته ، ووعدنى أن يغفر لى .

ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث جعفر بن برقان ، وزاد : « فلم يزل يُرَدّدها على نفسه ، ثم بكى ، ثم نَزَع فأحسن النَّزع (٤) . فلما بلغ عمرَ خبرُه قال : هكذا فاصنعوا ، إذا رأيتم أخاكم زلّ زلّة فسددوه ووفقوه ، وادعوا الله له أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا عمر بن شبَّة ، حدثناحماد بن واقدــأبو عُمَر الصفَّارــ، حدثنا ثابت البنانى ، قال : كنت مع مصعب بن الزبير فى سواد الكوفة ، فدخلت حائطاً أصلى ركعتين ، فافتتحت : « حم » المؤمن ، حتى بلغت : « لا إله إلا هو إليه المصير » فإذا رجل خلفى على بغلة شهباء عليه مُقَطَّعات يمنية ، فقال : إذا قلت : « غافر الذنب » فقل : « ياغافر الذنب،اغفر لى ذنبى » . وإذا قلتَ :« قابل التوب» ، فقل : « ياقابل التوب ، اقبل توبتى » . وإذا قلت : « شديد العقاب » ، فقل : « ياشديد العقاب ، لا تعاقبنى » . قال : فالتفت فلم أر أحداً ، فخرجت إلى الباب فقلت : مرّ بكم رجل عليه مقطعات يمنية ؟ قالوا : ما رأينا أحداً . فكانوا يُرَون أنه إلياس .

ثم رواه من طريق أخرى ، عن ثابت ، بنحوه . وليس فيه ذكر إلياس .

---

(١) سورة إبراهيم ، آية : ٣٤ .
(٢) سورة الرعد ، آية : ٤١ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٧/٢٤ .
(٤) هذا أسلوب تمثيل،ففيه تصوير من رجع إلى الشريعة،يأخذ منها،بمن ينزع الدلو من البئر ــ أى : يجذبها ــ فيحسن النزع .

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾

يقول تعالى : ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان (إلا الذين كفروا) ، أى : الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه ، (فلا يغررك تقلبهم فى البلاد) ، أى : فى أموالهم ونعيمها وزهرتها ، كما قال : (لايغرنّك تقلب الذين كفروا فى البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) (١) ، وقال تعالى : (نمتعهم قليلا ، ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) (٢) .

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى تكذيب من كذّبه من قومه ، بأن له أسوة من سلف من الأنبياء ؛ فإنه قد كذبهم أممهم وخالفوهم ، وما آمن بهم منهم إلا قليل ، فقال : (كذبت قبلهم قوم نوح) ، وهو أول رسول بعَثه الله ينهى عن عبادة الأوثان ، (والأحزاب من بعدهم) ، أى : من كل أمة ، (وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه) ، أى : حرصوا على قتله بكل ممكن ، ومنهم من قتل رسوله ، (وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق) ، أى : ماحَلُوا(٣) بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلى .

وقد قال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا على بن عبد العزيز ، حدثنا عارم أبو النعمان ، حدثنا معتمر بن سليمان قال : سمعت أبى يحدث عن حَنَش(٤) ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من أعان باطلا ليدحض بباطله حقاً ، فقد برئت منه ذمة الله ، وذمة رسوله » .

وقوله : (فأخذتهم) ، أى : أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام ، (فكيف كان عقاب) ، أى : فكيف بلغك عذابى لهم ، ونكالى بهم ؟ : قد كان شديداً موجعاً مؤلما .

قال قتادة : كان والله شديداً .

وقوله : (وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) ، أى : كما حقت كلمةُ العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة ، كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يامحمد بطريق الأولى والأحرى ، لأن من كذّبك فلا وثوق له بتصديق غيرك .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ١٩٦ ، ١٩٧ .
(٢) سورة لقمان ، آية : ٢٤ .
(٣) أى : دافعوا وحاولوا ، من المحال ، وهو : الكيد . وقيل : المكر .
(٤) حنش هذا هو : الحسين بن قيس الرحبى ، أبو على الواسطى ، لقبه : حنش . يروى عن عكرمة وعلباء بن أحمر ، وعنه سليمان التيمى وغيره . قال النسائى : ليس بثقة . انظر الخلاصة .

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حَمَلَة العرش الأربعة ، ومن حوله من الكَرُوبيين (١) : بأنهم يسبحون بحمد ربهم ، أى : يقرنون بين التسبيح الدال على نفى النقائص ، والتحميد المقتضى لإثبات صفات المدح ، (ويؤمنون به) ، أى : خاشعون له أذلاء بين يديه ، وأنهم (يستغفرون للذين آمنوا) ، أى : من أهل الأرض ممن آمن بالغيب ، فقيض الله سبحانه ملائكته المقربين أن يَدْعُوا للمؤمنين بظهر ، الغيب [ولما كان هذا من سجايا الملائكة ـ عليهم الصلاة السلام ـ كانوا يُؤمِّنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب] ، كما ثبت فى صحيح مسلم : « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك : آمين ، ولك بمثله (٢) » .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن محمد ـ هو ابن أبى شيبة ـ ، حدثنا عبدة بن سليمان ، عن محمد بن إسحاق ، عن يعقوب بن عتبة (٣) ، عن عكرمة عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صَدَّق أمية فى شىء من شعره ، فقال :

[رَجُلٌ] وثَورٌ تَحتَ رِجلِ يَمينه ... وَالنَّسْرُ للأُخرَى، ولَيْثٌ مُرْصَدُ (٤)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صدق » . فقال (٥) :

وَالشمسُ تَطلعُ كلَّ آخرِ لَيْلَةٍ ... حَمْراءُ يُصْبِحُ لَونُها [يَتَوَرَّدُ] (٦)

تَأبَى فَما تَطْلُعُ لَنَا فى رِسْلِها ... إلاَّ مُعَذَّبَةً وَإلاَّ تُجْلَدُ (٧)

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « صدق (٨) » .

---

(١) الكروبيون : سادة الملائكة المقربون .

(٢) مسلم ، كتاب الذكر ، باب « فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب » : ٨٦/٨ .

(٣) فى المسند : « عتيبة » . والصواب ما هنا ، انظر التهذيب : ٣٩٢/١١ .

(٤) البيت فى الإصابة : ١٣٤/١ . وخزانة الأدب : ١٢١/١ . وينقل البغدادى عن محمد بن حبيب فى شرحه لديوان أمية : « يقال : إن حملة العرش ثمانية : رجل ، وثور ، ونسر ، وأسد ... » . ثم يقول ابن حبيب : « وبلغنى لكل ملك منهم أربعة وجوه : وجه رجل ، ووجه ثور ، ووجه أسد ، ووجه نسر » .

(٥) فى المسند : « وقال » .

(٦) فى المخطوطة : « يتردد » . والمثبت عن المسند .

(٧) هذا البيت فى الشعر والشعراء : ٤٦٠/١ ، وروايته فيه :

ليست بطالعة لهم فى رسلها ... إلا معذبة وإلا تجلد

(٨) مسند الإمام أحمد : ٢٥٦/١ .

وهذا إسناد جيد : وهو يقتضى أن حملة العرش اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية ، كما قال تعالى : (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية (١)) :

وهنا سؤال ، وهو أن يقال : ما الجمع بين المفهوم من هذه الآية ، ودلالة هذا الحديث ؟ وبين الحديث الذى رواه أبو داود :

حدثنا محمد بن الصباح البزاز ، حدثنا الوليد بن أبى ثور ، عن سماك ، عن عبد الله بن عَمِيرة ، عن الأحنف ابن قيس ، عن العباس بن عبد المطلب ، قال : كنت بالبطحاء فى عصابة فيهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فمرت بهم سحابة ، فنظر إليها فقال : « ما تسمون هذه ؟ » : قالوا : السحاب . قال : « والمزن » ؟ قالوا : والمزن قال : « والعَنَان » ؟ . قالوا : والعنان – قال أبو داود: ولم أتقن العنان جيداً – قال : « هل تدرون بُعد ما بين السماء والأرض ؟ » . قالوا : لا ندرى . قال : « بُعدما بينهما إما واحدة ، أو اثنتان ، أو ثلاث وسبعون سنة ، ثم السماء فوقها كذلك ، حتى عدّ سبع سموات ، ثم فوق السماء السابعة بحر(٢) ، بين أسفله وأعلاه مثل بين سماء إلى سماء ، ثم فوق ذلك ثمانية أوْعَال ، بين أظلافهن ورُكَبِهن مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم الله – عز وجل – فوق ذلك(٣) » ، ثم رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه ، من حديث سماك بن حرب ، به . وقال الترمذى : « حسن غريب(٤) » :

وهذا يقتضى أن حملة العرش ثمانية ، كما قال شهر بن حوشب : حملة العرش ثمانية ، أربعة يقولون : « سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على حلمك بعد علمك » . وأربعة يقولون : [« سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك »] :

ولهذا يقولون [إذا استغفروا للذين آمنوا : (ربنا ، وسعت كل شىء رحمة وعلما) ، أى : إن رحمتك تسَع ذنوبهم وخطاياهم ، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وحركاتهم وسكناتهم ، (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) ، أى : فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه ، واتبعوا ما أمرتهم به ، من فعل الخيرات وترك المنكرات ، (وقهم عذاب الجحيم) ، أى : وزحزحهم عن عذاب الجحيم ، وهو العذاب الموجع الأليم . (ربنا ، وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) ، أى : اجمع بينهم وبينهم ، لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع فى منازل متجاورة ، كما قال : (والذين آمنوا وأتبعناهم ذُرِّيَّاتهم(٥) بإيمان ألحقنا بهم ذرياتِهم(٥) وما ألتناهم من عملهم من شىء(٦)) ، أى : ساوينا بين الكل فى المنزلة ، لتقر أعينهم ، وما نقصنا العالى حتى يساوى الدانى ، بل رفعنا الناقص فى العمل ، [فساويناه بكثير العمل] ، تفضلا [منا] ومنة :

---

(١) سورة الحاقة ، آية : ١٧ .
(٢) فى المخطوطة : « بحر ماء ، أسفله » . والمثبت عن مسند أبى داود .
(٣) سنن أبى داود ، كتاب السنة ، باب « فى الجهمية » .
(٤) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الحاقة ، الحديث ٣٣٧٦ : ٩/٢٣٣ – ٢٣٦ .
(٥) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وهى قراءة ثابتة عن أبى عمرو . انظر البحر المحيط لأبى حيان : ٨/١٤٩ .
(٦) سورة الطور ، آية : ٢١ .

قال سعيد بن جبير : إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه ، وأين هم ؟ فيقال : إنهم لم يبلغوا طبقتك فى العمل ؛ فيقول : إنى إنما عملت لى ولهم ؛ فيُلحَقُونَ به فى الدرجة ، ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية : (ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم) .

قال مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير : أنصحُ عبادِ الله للمؤمنين الملائكةُ ، ثم تلا هذه الآية : (ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم) ؛ وأغشُّ عباد الله للمؤمنين الشياطينُ .

وقوله : (إنك أنت العزيز الحكيم) ، أى : الذى لا يمانع ولا يغالب ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، الحكيم فى أقوالك وأفعالك ، من شرعك وقَدَرك .

(وقهم السيئات) ، أى : فعلها أو وَبَالها ممن وقعت منه ، (ومن تق السيئات يومئذ) ، أى : يوم القيامة ، (فقد رَحمته) ، أى : لطفت به ونَجَّيته من العقوبة ، (وذلك هو الفوز العظيم) .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى مخبرا عن الكفار : أنهم يُنَادَون يوم القيامة وهم فى غَمَرات النيران يتلظون ، وذلك عندما باشروا من عذاب الله مالا قِبَلَ لأحد به ، فمقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض ، بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة ، التى كانت سببَ دخولهم إلى النار : فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخبارا عاليا ، نادوهم نداء [بأن] مقت الله لهم فى الدنيا حين كان يُعرَض [عليهم] الإيمان ، فيكفرون ــ أشدُّ من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم فى هذه الحالة .

قال قتادة فى قوله : (لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تُدعَون إلى الإيمان فتكفرون) ، يقول : لمقتُ الله أهلَ الضلالة حين عُرِض عليهم الإيمان فى الدنيا ، فتركوه وأبوا أن يقبلوه ــ أكبرُ مما مَقَتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة (١) .

وهكذا قال الحسن البصرى ، ومجاهد ، والسدى ، وذَرُّ بن عبد(٢) الله الهَمْدانى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وابن جرير الطبرى ، رحمهم الله .

وقوله : (قالوا : ربنا ، أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) قال الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن ابن مسعود : هذه الآية كقوله تعالى : (كيف تكفرون بالله ، وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ، ثم إليه

---

(١) تفسير الطبرى : ٣١/٢٤ .

(٢) فى المخطوطة : « عبيد الله » . والصواب عن الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٤٥٣/٢/١ .

ترجعون (١)) : وكذا قال ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة ، وأبو مالك ؛ وهذا هو الصواب الذى لا شك فيه ولا مرية .

وقال السدّى : أميتوا فى الدنيا ثم أحيوا فى قبورهم فخوطبوا ، ثم أميتوا ثم أحيوا يوم القيامة .

وقال ابن زيد : أحيوا حين أخذ عليهم الميثاق من صلب آدم ، ثم خلقهم فى الأرحام ثم أماتهم يوم القيامة .

وهذان القولان — من السدى ، وابن زيد — ضعيفان ؛ لأنه يلزمهما على ما قالا ثلاث إحياءات وإماتات . والصحيح قول ابن مسعود وابن عباس ومن تابعهما . والمقصود من هذا كله : أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدى الله — عز وجل — فى عرصات القيامة ، كما قال : (ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم : ربنا أبصرنا وسمعنا ، فارجعنا نعمل صالحا ، إنا موقنون (٢)) ، فلا يجابون . ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها ، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال ، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة ، فلا يجابون ، قال الله تعالى : (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا : ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ماكانوا يخفون من قبل، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون(٣)) : فإذا دخلوا النار وذاقوا مسّها وحسيسها ومقامعها وأغلالها ، كان سؤالهم للرجعة أشدّ وأعظم ، (وهم يصطرخون فيها : ربنا ، أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل ، أو لم نعمّركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير؟ فذوقوا فما للظالمين من نصير(٤)) ، (ربنا ، أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون . قال: اخسأوا فيها ولا تكلمون) (٥) : وفى هذه الآية الكريمة تلطفوا فى السؤال ، وقدّموا بين يدى كلامهم مقدّمة ، وهى قولهم : (ربنا ، أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) ، أى : قدرتك عظيمة ، فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتا ، ثم أمتنا ثم أحييتنا ، فأنت قادر على ما تشاء ، [وقد] اعترفنا بذنوبنا ، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا فى الدار الدنيا ، (فهل إلى خروج من سبيل) ، أى : فهل أنت مجيبنا [إلى أن تعيدنا] إلى الدار الدنيا ؟ فإنك قادر على ذلك ، لنعمل غير الذى كنا نعمل ، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإنا ظالمون . فأجيبوا أن لا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا ، ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تجحده وتنفيه ، ولهذا قال تعالى : (ذلكم بأنه إذا دُعِىَ الله وحده كفرتم ، وإن يشرك به تؤمنوا) ، أى : أنتم هكذا تكونون ، وإن رددتم إلى الدنيا ، كما قال تعالى : (ولو رُدّوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون (٦)) .

وقوله : (فالحكم لله العلى الكبير) ، أى : هو الحاكم فى خلقه ، العادل الذى لا يجور ، فيهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، ويرحم من يشاء ، ويعذب من يشاء ، لا إله إلا هو .

وقوله : (هو الذى يريكم آياته) ، أى : يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه فى خلقه العلوى والسفلى من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ، (وينزل لكم من السماء رزقاً) ، وهو المطر الذى يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس ، من اختلاف ألوانه وطعومه ، وروائحه وأشكاله وألوانه ، وهو ماء واحد ، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء ، (وما يتذكر) ، أى : يعتبر ويتفكر فى هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها (إلا من ينيب) ، أى : [من] هو بصير منيب إلى الله عز وجل .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٤/٣١ .
(٢) سورة السجدة ، آية : ١٢ .
(٣) سورة الأنعام ، آية : ٢٧ ، ٢٨ .
(٤) سورة فاطر ، آية : ٣٧ .
(٥) سورة المؤمنون ، آية : ١٠٧ ، ١٠٨ .
(٦) سورة الأنعام ، آية : ٢٨ .

وقوله : (فادعوا الله مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون) ، أى : فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء ، وخالفوا المشركين فى مسلكهم ومذهبهم .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن نمير ، حدثنا هشام ــ يعنى بن عروة بن الزبير ــ عن أبى الزبير محمد بن مسلم ابن مدرس المكىّ قال : كان عبد الله بن الزبير يقول فى دبر كل صلاة حين يسلم : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » . قال : وكان رسولُ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يُهَلِّلُ (١) بهن دُبُر كل صلاة (٢) .

ورواه مسلم وأبو داود والنسائى ، من طرق ،عن هشام بن عروة ، وحجاج بن أبى عثمان ، وموسى بن عقبة ، ثلاثتهم عن أبى الزبير ،عن عبد الله بن الزبير قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى دبر الصلاة(٣) : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له » . ... وذكر تمامه .

وقد ثبت فى الصحيح عن ابن الزبير : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عقب الصلوات المكتوبات : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير : لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الربيع (٤)، حدثنا الخصيب بن ناصح ، حدثنا صالح ــ يعنى المرى ــ عن هشام بن حسان ، عن ابن سيرين ، عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً مِنْ قلب غافل لاه » .

رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾

يقول تعالى عن عظمته وكبريائه ، وارتفاع عرشه العظيم العالى على جميع مخلوقاته كالسقف لها ، كما قال تعالى : (من الله ذى المعارج . تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة (٥)) ، وسيأتى بيانُ أنّ هذه مسافة

---

(١) فى المخطوطة : « يهل » . والمثبت من المسند ، ومسلم ، والنسائى .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٤/٤ .

(٣) مسلم ، كتاب المساجد ، باب « استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته » : ٢/٩٦ . وسنن أبى داود ، أبواب الوتر باب « ما يقول الرجل إذا أسلم » . والنسائى ، كتاب السهو ، باب التهليل بعد التسليم » : ٣/٦٩ ــ ٧٠ .

(٤) فى المخطوطة : « حدثنا الربيع بن الخصيب ، حدثنا ناصح» ، وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه . والربيع هو ابن سليمان المرادى . انظر الجرح والتعديل : ١/٢/٣٩٧ ، ١/٢/٤٦٤ .

(٥) سورة المعارج ، آية : ٣ ــ ٤ .

ما بين العرش إلى الأرض السابعة ، فى قول جماعة من السلف والخلف ، وهو الأرجح إن شاء الله ؛ وقد ذكر غيرُ واحد : أن العرش من ياقوتة حمراء ، اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة . وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة . وقد تقدم فى حديث « الأوعال(١) » ما يدل على ارتفاعه عن السموات السبع بشىء عظيم .

وقوله : (يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده) ، كقوله تعالى : (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده : أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون(٢)) . وكقوله : (وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين : على قلبك لتكون من المنذرين(٣)) . ولهذا قال : (لينذر يوم التلاق) — قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : يوم التلاق : اسم من أسماء يوم القيامة ، حذر منه عباده (٤) .

وقال ابن جريج : قال ابن عباس : يلتقى فيه آدم وآخرُ ولده .

وقال ابن زيد : يلتقى فيه العباد .

وقال قتادة ، والسدى ، وبلال بن سعد ، وسفيان بن عيينة : يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض .

وقال قتادة أيضا : يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض ، والخالق والخلق .

وقال ميمون بن مهران : يلتقى الظالم والمظلوم .

وقد يقال : إن يوم القيامة هو يشمل هذا كله ، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمل من خير وشر : كما قاله آخرون .

وقوله : (يوم هم بارزون) ، أى : ظاهرون بادون كلهم، لا شىء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم . ولهذا قال : (يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء) ، أى : الجميع فى علمه على السواء .

وقوله : (لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار) قد تقدم فى [حديث] ابن عمر : أنه تعالى يطوى السموات والأرض بيده ، ثم يقول : أنا الملك ، أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون(٥) ؟ .

وفى حديث الصور : أنه تعالى إذا قبض أرواح جميع خلقه ، فلم يبق سواه ، وحده لا شريك له ، حينئذ يقول : لمن الملك اليوم ؟ ، ثلاث مرات ، ثم يجيب نفسه قائلا : (لله الواحد القهار) ، أى : الذى هو وحدَه قد قهَر كل شىء وغلبه(٦) :

[وقد قال] ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن غالب الدقاق ، حدثنا عبيد بن عبيدة ، حدثنا معتمر ، عن أبيه ، حدثنا أبو نضرة ، عن ابن عباس قال : ينادى مناد بين يدى الساعة : يا أيها الناس ، أتتكم الساعة . فيسمعها الأحياء والأموات ، قال : وينزل الله إلى سماء الدنيا ويقول : (لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار) .

---

(١) انظر : ٧/١٢١ .
(٢) سورة النحل ، آية : ٢ .
(٣) سورة الشعراء ، الآيات : ١٩٢ — ١٩٤ .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٤/٣٣ .
(٥) انظر : ٧/١٠٥ .
(٦) تقدم حديث الصور بتمامه عند تفسير الآية الثالثة والسبعين من سورة الأنعام ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٣/٢٧٨ .

وقوله : (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم ، إن الله سريع الحساب) : يخبر تعالى عن عدله فى حكمه بين خلقه ، أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر ، بل يجزى بالحسنة عشر أمثالها ، وبالسيئة واحدة ، ولهذا قال : (لا ظلم اليوم) : كما ثبت فى صحيح مسلم ، عن أبى ذر ، عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيما يحكى عن ربه عز وجل أنه قال : « يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ــ إلى أن قال ــ : يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم [ثم أوفيكم إياها] ، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه (١)

وقوله : (إن الله سريع الحساب) ، أى : يحاسب الخلائق كلهم ، كما يحاسب نفساً واحدة ، كما قال : (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) (٢) وقال : (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) (٣) .

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

يوم الآزفة هو: اسم من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: (أزفت الآزفة ، ليس لها من دون الله كاشفة(٤)) وقال: (اقتربت الساعة وانشق القمر(٥)): وقال :(اقترب للناس حسابهم(٦))، وقال : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه (٧)) وقال : (فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ، وقيل هذا الذى كنتم به تدعون) (٨) .

وقوله : (إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين) ــ قال قتادة : وقفت القلوب فى الحناجر من الخوف ، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها . وكذا قال عكرمة ، والسدى ، وغير واحد .

ومعنى (كاظمين)، أى: ساكتين، لايتكلم أحد إلا بإذنه . (يوم يقوم الروح والملائكة صفا، لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا (٩))

وقال ابن جريج : (كاظمين) ، اى : باكين :

وقوله : (ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) ، أى : ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ، ولا شفيع يشفع فيهم ، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير .

(١) مسلم ، كتاب البر ، باب « تحريم الظلم » : ١٧/٨ . وانظر فيما تقدم تفسير الآية ٢٢٧ من سورة الشعراء : ١٨٧/٦ ، فقد خرجناه هنالك بأوسع من هذا .
(٢) سورة لقمان ، آية : ٢٨ .
(٣) سورة القمر ، آية : ٥٠ .
(٤) سورة النجم ، آية : ٥٧ ــ ٥٨ .
(٥) سورة القمر ، آية : ١ .
(٦) سورة الأنبياء ، آية : ١ .
(٧) سورة النحل ، آية : ١ .
(٨) سورة الملك ، آية : ٢٧ .
(٩) سورة النبأ ، آية : ٣٨ .

وقوله : (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء ، جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها ولطيفها ، ليحذر الناس علمه فيهم ، فيستحيوا من الله حقّ الحياء ، ويتّقوه حق تقواه ، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه ، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ، ويعلم ماتنطوى عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر .

قال ابن عباس فى قوله : (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) : وهو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم ، وفيهم المرأة الحسناء ، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء ، فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا فطنوا غضّ ، فإذا غفلوا لحظ ، فإذا فطنوا غض . وقد اطلع الله من قلبه أنه ودّ لو اطلع على فرجها : رواه ابن أبى حاتم .

وقال الضحاك : (خائنة الأعين) : هو الغمز ، وقول الرجل : رأيت ، ولم ير ؛ أو : لم أر ، وقد رأى .

وقال ابن عباس : يعلم تعالى من العين فى نظرها ، هل تريد الخيانة أم لا ؟ وكذا قال مجاهد ، وقتادة .

وقال ابن عباس فى قوله : (وما تخفى الصدور) ، يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزنى بها أم لا ؟

وقال السدى : (وما تخفى الصدور) ، أى : من الوسوسة .

وقوله : (والله يقضى بالحق) ، أى : يحكم بالعدل .

وقال الأعمش : عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله : (والله يقضى بالحق) : قادر على أن يجزى بالحسنة الحسنة ، وبالسيئة السيئة (إن الله هو السميع البصير)

وهذا الذى فسر به ابن عباس فى هذه الآية كقوله تعالى : (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى[1]) .

وقوله (والذين يدعون من دونه) ، أى : من الأصنام والأوثان والأنداد ، (لايقضون بشىء) ، أى : لايملكون شيئا ولا يحكمون بشىء ، (إن الله هو السميع البصير) ، أى : سميع لأقوال خلقه ، بصير بهم ، فيهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وهو الحاكم العادل فى جميع ذلك .

* أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى : أو لم يسر هؤلاء المكذبون برسالتك يامحمد ، (فى الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم) ، أى : من الأمم المكذبة بالأنبياء ، ما حلّ بهم من العذاب والنكال ، مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة ، (وآثارا فى الأرض) ، أى : أثروا فى الأرض من البنايات والمعالم والديارات ، مالا يقدر عليه هؤلاء ، كما قال : (ولقد

---

(١) سورة النجم ، آية : ٣١ .

مكناهم فيما إن مكناكم فيه) (١) ، وقال: (وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها (٢))، أي : ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد ، أخذهم الله بذنوبهم ، وهي كفرهم برسلهم، (وما كان لهم من الله من واق) ، أي : وما دفع عنهم عذاب الله أحد ، ولا رده عنهم راد ، ولا وقاهم واق .

ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنوبهم التي ارتكبوها واجترموها ، فقال : (ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات) أي : بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات ، (فكفروا) ، أي : مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا ، (فأخذهم الله) ، أي : أهلكهم ودمَّر عليهم وللكافرين أمثالها ، (إنه قوى شديد العقاب) ، أي : ذو قوة عظيمة وبطش شديد ، (وهو شديد العقاب) ، أي : عقابه أليم شديد وجيع . أعاذنا الله منه .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى مسليا لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تكذيب من كذبه من قومه ، ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له فى الدنيا والآخرة ، كما جرى لموسى بن عمران ، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات ، والدلائل الواضحات . ولهذا قال : (بآياتنا وسلطان مبين) ـ والسلطان هو : الحجة والبرهان ـ (إلى فرعون) ، هو : ملك القبط بالديار المصرية، (وهامان) ، وهو : وزيره فى مملكته ، (وقارون) ، وكان أكثر الناس فى زمانه مالا وتجارة (فقالوا : ساحر كذاب) ، أى : كذبوه وجعلوه ساحراً مُمَخْرِقاً مموهاً كذاباً فى أن الله أرسله . وهذه كقوله : (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا: ساحر أو مجنون . أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون (٤)) .

(فلما جاءهم بالحق من عندنا) ، أى : بالبرهان القاطع الدال على أن الله تعالى أرسله إليهم ، (قالوا: اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه، واستحيوا نساءهم) . وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بنى إسرائيل. أما الأول: فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى ، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين . وأما الأمر الثانى: فللعلة الثانية، لإهانة هذا الشعب ، ولكى يتشاءموا بموسى عليه السلام . ولهذا قالوا: (أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، قال : عسى ربكم أن يهلك عدوكم ، ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون (٥)) .

---

(١) سورة الأحقاف ، آية : ٢٦ .
(٢) سورة الروم ، آية : ٩ .
(٣) الممخرق : المموه .
(٤) سورة الذاريات ، آية : ٥٢ ، ٥٣ .
(٥) سورة الأعراف ، آية : ١٢٩ .

قال قتادة : هذا أمر بعد أمر .

قال الله تعالى : (وما كيد الكافرين إلا فى ضلال) ، أى : وما مكرهم وقصدهم الذى هو تقليل عدد بنى إسرائيل لئلا يُنصَروا عليهم ، إلا ذاهب وهالك فى ضلال .

(وقال فرعون: ذرونى أقتل موسى وليدع ربه): وهذا عزْمٌ من فرعون — لعنه الله — على قتل موسى — عليه السلام — أى : قال لقومه : دعونى حتى أقتل لكم هذا ، (وليدع ربه) ، أى : لا أبالى منه . وهذا فى غاية الجحد والتجهرم والعناد .

وقوله — قبحه الله — : (إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد) ، يعنى: موسى ، يخشى فرعون أن يُضِلَّ موسى الناسَ ويغير رسومهم وعاداتهم . وهذا كما يقال فى المثل : « صار فرعون مُذَكِّراً» ، يعنى : واعظا ، يشفق على الناس من موسى عليه السلام .

وقرأ الأكثرون : (أن يبدل دينكم وأن يُظهِرَ فى الأرض الفسادَ) وقرأ آخرون : (أو أن يُظهِرَ فى الأرض الفسادَ) وقرأ بعضهم : (يَظْهَرَ فى الأرض الفسادُ) ، بالضم (١)

وقال موسى :(إنى عذت بربى وربكم ، من كل متكبر لايؤمن بيوم الحساب) ، أى : لما بلغه قولُ فرعون : (ذرونى أقتل موسى) ، قال موسى : استجرتُ بالله وعُذْتُ به من شره وشر أمثاله . ولهذا قال : (إنى عذت بربى وربكم) ، أيها المخاطبون ، (من كل متكبر) ، أى : عن الحق ، مجرم ، (لايؤمن بيوم الحساب) . ولهذا جاء فى الحديث عن أبى موسى — رضى الله عنه — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان إذا خاف قوما قال : « اللهم ، إنا نعوذ بك من شرورهم ، وندرأ بك فى نحورهم (٢) »

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾

المشهور أن هذا الرجلَ المؤمنَ كان قِبْطِيّاً من آل فرعون

قال السدى : كان ابن عم فرعون ، ويقال : إنه الذى نجا مع موسى (٣) . واختاره ابن جرير ، ورَدَّ قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً ، لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه ، وكفَّ عن قتل موسى عليه السلام ، ولو كان إسرائيليا لأوشك أن يُعاجَل بالعقوبة ، لأنه منهم :

---

(١) انظر تفسير الطبرى : ٢٤/٣٧ .

(٢) سنن أبى داود أبواب الوتر ، باب « ما يقول إذا خاف قوما » . ومسند الإمام أحمد : ٤/٤١٤ ، ٤١٥ . ولفظه : « اللهم إنى أجعلك فى نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم » .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٤/ ٣٨ .

وقال ابن جُرَيج ، عن ابن عباس : لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون ، والذى قال : (ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك) . رواه ابن أبى حاتم

وقد كان هذا الرجلُ يكتم إيمانه عن قومه القبط ، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون : (ذرونى أقتل موسى) ، فأخذت الرجلَ غضبة لله عز وجل . و«أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» (١) . كما ثبت بذلك الحديث، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون ، وهى قوله : (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله) ، اللهم إلا مارواه البخارى فى صحيحه حيث قال :

حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا الأوزاعى ، حدثنى يحيى بن أبى كثير ، حدثنى محمد بن إبراهيم التيمى، حدثنى عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرنى بأشد شىء مما(٢) صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بفناء الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبى مُعَيط ، فأخذ بمَنْكِب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولَوَى ثوبه فى عنقه ، فخنقه خنقاً شديدا ، فأقبل أبو بكر — رضى الله عنه — فأخذ بمنكبه ودَفَع عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم (٣) .

انفرد به البخارى من حديث الأوزاعى . قال : وتابعه محمد بن إسحاق ، عن [يحيى] (٤) بن عروة ، عن أبيه ، به .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا هارون بن إسحاق الهمدانى ، حدثنا عَبْدة ، عن هشام — يعنى ابن عروة — عن أبيه، عن عمرو ابن العاص أنه سُئِل : ماأشد مارأيت قريشاً بلغوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : مر بهم ذات يوم فقالوا له : أنت تنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا ؟ فقال : « أنا ذاك » . فقاموا إليه ، فأخذوا بمجامع ثيابه ، فرأيتُ أبا بكر محتضنه من ورائه، وهو يصيح بأعلى صوته ، وإن عينيه ليسيلان ، وهو يقول : ياقوم ، (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم) ؟ حتى فرغ من الآية كلها .

وهكذا رواه النسائى من حديث عبدة ، فجعله من مسند عمرو بن العاص ، رضى الله عنه

وقوله : (وقد جاءكم بالبينات من ربكم)، أى : كيف تقتلون رجلا لكونه يقول : « ربى الله » ، وقد أقام لكم البرهان على صدق ماجاءكم به من الحق ؟ ثم تَنَزّل معهم فى المخاطبة فقال: (وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم

---

(١) سنن أبى داود ، كتاب الملاحم ، باب « الأمر والنهى » . وتحفة الأحوذى ، أبواب الفتن ، باب « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » ، الحديث ٢٢٦٥ : ٦/٣٩٥ — ٣٩٦ . والنسائى ، كتاب البيعة ، باب « فضل من تكلم بالحق عند سلطان جائر » : ٧/١٦١ . وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب : « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ، الحديث ٤٠١١ ، ٤٠١٢ : ٢/١٣٢٩ — ١٣٣٠ . ومسند الإمام أحمد عن سعيد بن جبير : ٣/١٩ ، ٦١ . وعن طارق بن شهاب : ٤/٣١٤ ، ٣١٥ . وعن أبى أمامة : ٥/٢٥١ ، ٢٥٦ .

(٢) كذا فى مخطوطة الأزهر . ولفظ البخارى : بأشدما » .

(٣) البخارى ، تفسير سورة « المؤمن » : ٦/١٥٩ . وانظر أيضاً ، كتاب فضائل الصحابة : ٥/١٢ . وباب مناقب الأنصار : ٥/٥٨ .

(٤) ما بين القوسين من البخارى : ٥/٥٨ . ومكانه فى المخطوطة : « كثير » .

بعض الذى يعدكم) ، يعنى : إذا لم يظهر لكم صحة ماجاءكم به ، فمن العقل والرأى التام والحزم أن تتركوه ونفسه ، فلا تؤذوه ، فإن يك كاذبا فإن الله سيجازيه على كذبه بالعقوبة فى الدنيا والآخرة ، وإن يك صادقا وقد آذيتموه يصبكم بعض الذى يعدكم ، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب فى الدنيا والآخرى ، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقا ، فينبغى على هذا أن لاتتعرضوا له ، بل إتركوه و قومه يدعوهم ويتبعونه .

وهكذا أخبر الله عن موسى — عليه السلام — أنه طلب من فرعون وقومه الموادعة فى قوله : (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم . أن أدوا إلى عباد الله ، إنى لكم رسول أمين . وأن لا تعلوا على الله ، إنى آتيكم بسلطان مبين . وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون . وإن لم تؤمنوا بىفاعتزلون) . وهكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [لقريش] أن يتركوه يدعو إلى الله عبادَ الله ، ولا يمسوه بسوء ، وأن يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة فى ترك أذيته ، قال الله تعالى : (قل : لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) ، أى : إلا أن [لا] تؤذونى فيما بينى وبينكم من القرابة ، فلا تؤذونى وتتركوا بينى و بين الناس . وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية وكان فتحاً مبينا .

وقوله : (إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب) ، أى : لو كان هذا الذى يزعم أن الله أرسله إليكم كاذبا كما تزعمون ، لكان أمره بينا ، يظهر لكل أحد فى أقواله وأفعاله ، كانت تكون فى غاية الاختلاف والاضطراب ، وهذا نرى أمره سديدا ومنهجه مستقيما ، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله ، وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله .

ثم قال المؤمن محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم ، وحلول نقمة الله بهم : (يا قوم ، لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض)، أى : قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور فى الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض ، فراعوا هذه النعمة بشكر الله ، وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم ، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله ، (فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا) ، أى : لا تغنى عنكم هذه الجنود وهذه العساكر ، ولا ترد عنا شيئا من بأس الله إن أرادنا بسوء .

(قال فرعون) لقومه ، راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذى [كان] أحق بالملك من فرعون : (ما أريكم إلا ما أرى) ، أى : ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسى . وقد كذب فرعون ، فإنه كان يتحقق صدق موسى فيما جاء به من الرسالة (قال : لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر (١)) ، وقال الله تعالى : (وجَحَدُوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً (٢)) .

فقوله : (ما أريكم إلا ما أرى) : كذب فيه وافترى ، وخان الله ورسوله ورعيته ، فغشهم وما نصحهم . وكذا قوله : (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) ، أى : وما أدعوكم إلاإلى طريق الحق والصدق والرشد . وقد كذب أيضا فى ذلك، وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه ، قال الله تعالى : (فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد (٣)) . وقال تعالى :

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ١٠٢ .
(٢) سورة النمل ، آية : ١٤ .
(٣) سورة هود ، آية : ٩٧ .

(وأضل فرعون قومه وماهدى (١)) ؛ وفي الحديث : « ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته ، إلا لم يَرح رائحة الجنة (٢) ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام » .

وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

هذا إخبار من الله — عز وجل — عن هذا الرجل الصالح ، مؤمن آل فرعون : أنه حذر قومه بأس الله في الدنيا والآخرة فقال : (يا قوم ، إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب) ، أي : الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر ، كقوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة ، كيف حلّ بهم بأس الله ، وما ردّه عنهم رادّ ، ولا صده عنهم صاد .

(وما الله يريد ظلما للعباد) ، أي : إنما أهلكهم الله بذنوبهم ، وتكذيبهم رسله ، ومخالفتهم أمره . فأنفذ فيهم قدره ، ثم قال : (ويا قوم ، أخاف عليكم يوم التناد) ، يعني : يوم القيامة . وسُمي بذلك ، قال بعضهم : لما جاء في حديث الصور : إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر ، وماجت وارتجت ، فنظر الناس إلى ذلك ، ذهبوا هاربين ينادي بعضهم بعضا .

وقال آخرون ، منهم الضحاك : بل ذلك إذا جيء بجهنم ، ذهب الناس هرابا ، فتتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر ، وهو قوله وتعالى : (والملك على أرجائها (٣)) ، وقوله : (يا معشر الجن والإنس ، إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان (٤)) .

وقد رُوى عن ابن عباس ، والحسن ، والضحاك : أنهم قرأوا : (يوم التنادّ (٥)) ، بتشديد الدال ، من ندّ البعير : إذا شرد وذهب .

---

(١) سورة طه ، آية : ٧٩ .

(٢) انظر البخاري ، كتاب ، الأحكام ، باب « من استرعى رعية فلم ينصح » : ٩/٨٠ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « استحقاق الوالي الغاش لرعية النار » : ١/٨٧ — ٨٨ ، وكتاب الإمارة ، باب « فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر » ، ٦/٩ . ومسند الإمام أحمد عن معقل بن يسار : ٥/٢٥ .

(٣) سورة الحاقة ، آية : ١٧ .

(٤) سورة الرحمن ، آية : ٣٣ .

(٥) انظر تفسير الطبري : ٢٤/٤٠ .

وقيل : لأن الميزانَ عنده مَلَكٌ ، وإذا وُزِنَ عَمَلُ العبد فرجحَ نادى بأعلى صوته : ألا قد سَعِدَ فلانُ بن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا . وإن خَفَّ عَمَلُهُ نادى : ألا قد شقيَ فلانُ بنُ فلان .

وقال قتادة : ينادى كل قوم بأعمالهم : ينادى أهلُ الجنة أهلَ الجنة ، وأهلُ النار أهل النار (١) .

وقيل : سمى بذلك لمناداة أهل الجنة أهلَ النار : (أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ قالوا : نعم (٢)) . ومناداة أهل النار أهل الجنة : (أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، قالوا : إن الله حرمهما على الكافرين(٣)) ولمناداة أصحاب الأعراف أهلَ الجنة وأهلَ النار ، كما هو مذكور فى سورة الأعراف (٤) .

واختار البغوى وغيره : أنه سمى بذلك لمجموع ذلك : وهو قول حسن جيد ، والله أعلم .

وقوله : (يوم تولون مدبرين) ، أى : ذاهبين هاربين ، (كلا ، لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر (٥)) : ولهذا قال : (ما لكم من الله من عاصم) ، أى : ما لكم مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه ، (ومن يضلل الله فما له من هاد) ، أى : من أضله فلا هادى له غيره .

وقوله : (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات) ، يعنى : أهل مصر ، قد بعث الله فيهم رسولا من قبل موسى ، وهو يوسف — عليه السلام — كان عزيز أهل مصر ، وكان رسولا يدعو إلى الله أمته القبط ، فما أطاعوه تلك الساعة إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوى . ولهذا قال : (فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم : لن يبعث الله من بعده رسولا) ، [أى : يئستم فقلتم طامعين : (لن يبعث الله من بعده رسولا)] ، (وذلك لكفرهم وتكذيبهم ، (كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب) ، أى : كحالكم هذا يكون حال من يضله الله لإسرافه فى أفعاله وارتياب قلبه .

ثم قال : (الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم) ، أى : الذين يدفعون الحق بالباطل ، ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله ، فإن الله يمقت على ذلك أشد المقت . ولهذا قال تعالى : (كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا) ، أى : والمؤمنون أيضا يُبغضُونَ من تكون هذه صفته ، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه ، فلا يعرف بعد ذلك معروفا ، ولا ينكر منكرا . ولهذا قال : (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر) ، أى : على اتباع الحق (جبار) .

وروى ابن أبى حاتم ، عن عكرمة ، — وحكى عن الشعبى — أنهما قالا : لا يكون الإنسان جبارا حتى يقتل نفسين .

وقال أبو عمران الجونى ، وقتادة : آية الجبابرة القتل بغير حق .

---

(١) انظر تفسير الطبرى ٢٤/٤٠ .
(٢) سورة الأعراف ، آية : ٤٤ .
(٣) سورة الأعراف ، آية : ٥٠ .
(٤) سورة الأعراف ، آية : ٤٨ ، ٤٩ .
(٥) سورة القيامة ، آية : ١١ ، ١٢ .

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عن فرعون، وعتوه، وتمرده، وافترائه فى تكذيبه موسى – عليه السلام –: أنه أمر وزيره هامان أن يبنى له صرحا ، وهو : القصر العالى المنيف الشاهق . وكان اتخاذه من الآجرّ المضروب من الطين المشوى ، كما قال : (فأوقد لى يا هامان على الطين ، فاجعل لى صرحا (١)) . ولهذا قال إبراهيم النَّخَعِىّ : كانوا يكرهون البناء بالآجر ، وأن يجعلوه فى قبورهم . رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : (لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات) – قال سعيد بن جبير ، وأبو صالح : أبواب السموات . وقيل : طرق السموات – (فأطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه كاذباً) ، وهذا من كفره وتمرده، أنه كذب موسى فى أن الله – عز وجل – أرسله إليه، قال الله تعالى: (وكذلك زُيِّنَ لفرعون سوء عمله، وصد عن السبيل) ، أى: بصنيعه هذا الذى أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئاً يتوصل به إلى تكذيب موسى – عليه السلام – ولهذا قال تعالى: (وما كيد فرعون إلا فى تباب) – قال ابن عباس، ومجاهد : يعنى إلا فى خسار .

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾

يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، ونسى الجبار الأعلى ، فقال لهم : (يا قوم ، اتبعون أهدكم سبيل الرشاد) ، لا كما كذب فرعون فى قوله : (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) .

ثم زهدهم فى الدنيا التى آثروها على الأخرى، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى ، فقال : (يا قوم، إنما هذه الحياة الدنيا متاع) ، أى: قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتضمحل ، (وإن الآخرة هى دار القرار) ، أى : الدار التى لا زوال لها ، ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها ، بل إما نعيم وإما جحيم ، ولهذا قال : (من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها) ، أى : واحدة مثلها ، (ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب) ، أى : [لا] يتقدر بجزاء (٢) [بل] يثيبه الله ، ثوابا كثيرا لا انقضاء له ولا نفاد .

---

(١) سورة القصص ، آية : ٣٨ .

(٢) فى مخطوطة الأزهر : « أى : تتقدر بجزاء ، ثم يثيبه » والمثبت من الطبعات السابقة .

* وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

يقول لهم المؤمن : ما بالى أدعوكم إلى النجاة ، وهى عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الذى بعثه ، (وتدعوننى إلى النار . تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم) ؟ أى : جهل بلا دليل (وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار) ، أى : هو فى عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه ، (لا جرم أنما تدعوننى إليه) ، يقول : حقا .

قال السدى ، وابن جرير : معنى قوله : (لا جرم) : حقا .

وقال الضحاك : (لا جرم) : لا كذب .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (لا جرم) ، يقول : بلى ، إن الذى تدعوننى إليه من الأصنام والأنداد (ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة) .

قال مجاهد : الوثن ليس بشىء [1] .

وقال قتادة : يعنى الوثن ، لا ينفع ولا يضر

وقال السدى : لا يجيب داعيه ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وهذا كقوله تعالى : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ؟ . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين [2]) ، (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم [3]) .

وقوله : (وأن مردنا إلى الله) ، أى : فى الدار الآخرة ، فيجازى كلا بعمله . ولهذا قال : (وأن المسرفين هم أصحاب النار) ، أى : خالدين فيها بإسرافهم ، وهو شركهم بالله .

(فستذكرون ما أقول لكم)، أى: سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتتذكرونه ، وتندمون حيث لا ينفعكم الندم ، (وأفوض أمرى إلى الله) ، أى : وأتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم ، (إن الله

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٤/٤٥ .

(٢) سورة الأحقاف ، آية : ٥ ، ٦ .

(٣) سورة فاطر ، آية : ١٤ .

بصير بالعباد) ، أى : هو بصير بهم، فيهدى من يستحق الهداية ، ويضل من يستحق الإضلال ، وله الحجة البالغة ، والحكمة التامة ، والقدر النافذ .

وقوله : (فوقاه الله سيئات ما مكروا) ، أى : فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فنجاه الله مع موسى — عليه السلام — ، وأما فى الآخرة فبالجنة . (وحاق بآل فرعون سوء العذاب) ، وهو : الغرق فى اليم ، ثم النقلة منه إلى الجحيم . فإن أرواحهم تعرض على النار صباحا ومساحا إلى قيام الساعة ، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم فى النار . ولهذا قال : (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) ، أى: أشدّه ألما وأعظمه نكالا . وهذه الآية أصل كبير فى استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ فى القبور ، وهى قوله : (النار يعرضون عليها غدواً وعشيا) .

ولكن هاهنا سؤال ، وهو أنه لا شك أن هذه الآية مكية ، وقد استدلوا بها على عذاب القبر فى البرزخ ، وقد قال الإمام أحمد :

حدثنا هاشم — هو ابن القاسم أبو النضر — حدثنا إسحاق بن سعيد — هو ابن عمرو بن سعيد بن العاص — حدثنا سعيد — يعنى أباه — عن عائشة : أن يهودية كانت تخدمها ، فلا تصنع عائشة إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها [اليهودية] : وقاك الله عذاب القبر . قالت : فدخل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — علىّ فقلت : يا رسول الله ، هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة ؟ قال : « لا ، وعم ذلك ؟ » . قالت : هذه اليهودية ، لا نصنع إليها شيئا من المعروف إلا قالت : وقاك الله عذاب القبر . قال : « كذبت يهود . وهم على الله أكذب ، لا عذاب دون يوم القيامة » . ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث ، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملا بثوبه ، محمرّة عيناه ، وهو ينادى بأعلى صوته : « القبر كقطع الليل المظلم . أيها الناس ، لو تعلمون ما أعلم بكيتم كثيرا وضحكتم قليلا . أيها الناس ، استعيذوا بالله من عذاب القبر ، فإن عذاب القبر حق (١) » .

وهذا إسناد صحيح على شرط البخارى ومسلم ، ولم يخرجاه .

وروى أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا سفيان ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة — قال : سألتها امرأة يهودية فأعطتها ، فقالت لها : أعاذك الله من عذاب القبر . فأنكرت عائشة ذلك ، فلما رأت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قالت له ، فقال : « لا » . قالت عائشة : ثم قال لنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعد ذلك : « وإنه أوحى إلىّ أنكم تفتنون فى قبوركم » (٢)

وهذا أيضا على شرطهما .

فيقال : فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية ، وفيها الدليل على عذاب البرزخ ؟ والجواب : أن الآية دلت على عرض الأرواح على النار غدواً وعشيا فى البرزخ ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها فى القبور ، إذ قد يكون ذلك مختصا بالروح ، فأما حصول ذلك للجسد وتألمه بسببه ، فلم يدل عليه إلا السنة فى الأحاديث المرضية الآتى ذكرها .

وقد يقال : إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار فى البرزخ ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن فى قبره بذنب . ومما يدل على هذا ما رواه الإمام أحمد :

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٨١/٦ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢٣٨/٦ .

حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا يونس ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة — رضى الله عنها — : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — دخل عليها وعندها امرأة من اليهود ، وهى تقول : أشعرت أنكم تُفتَنُون فى قبوركم ؟ فارتاع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقال : « إنما يُفتَنُ يهود » . قالت عائشة : فلبثنا ليالى ، ثم قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أشعرت أنه أوحِيَ إلىّ أنكم تفتنون فى القبور؟ » . وقالت عائشة : [سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — (١)] بعدُ يستعيذ من عذاب القبر (٢) .

وهكذا رواه مسلم ، عن هارون بن سعيد وحرْملة ، كلاهما عن ابن وهب ، عن يونس بن يزيد الأيلى ، عن الزهرى ، به (٣) .

وقد يقال : إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح فى البرزخ ، ولا يلزم من ذلك أن يتصل بالأجساد فى قبورها ، فلما أوحى إليه فى ذلك بخصوصيته استعاذ منه ، والله — سبحانه وتعالى — أعلم .

وقد روى البخارى من حديث شعبة ، عن أشعث بن أبى الشعثاء ، عن أبيه ، عن مسروق ، عن عائشة — رضى الله عنها — أن يهودية دخلت عليها فقالت : أعاذك الله من عذاب القبر . فسألت عائشة رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — عن عذاب القبر؟ فقال : « نعم ، عذابُ القبر حقّ » . قالت عائشة : فما رأيتُ رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — بعدُ صلىّ صلاةً إلا تعَوّذ من عذاب القبر (٤) .

فهذا يدل على أنه بادر إلى تصديق اليهودية فى هذا الخبر ، وقرر عليه . وفى الأخبار المتقدمة : أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحى ، فلعلهما قضيتان ، والله أعلم ، وأحاديث عذاب القبر كثيرة جدا .

وقال قتادة فى قوله : (غدواً وعشيا) : صباحا ومساء ، ما بقيت الدنيا ، يقال لهم : يا آل فرعون ، هذه منازلكم توبيخا ونقمة وصَغَارا لهم (٥) .

وقال ابن زيد : هم فيها اليوم ، يُغدَى بهم ويُراح إلى أن تقوم الساعة .

وقال ابن أبى حاتم ، حدثنا أبو سعيد ، حدثنا المحاربى ، حدثنا ليث ، عن عبد الرحمن بن ثَرْوان ، عن هُزَيل ، عن عبد الله ابن مسعود — رضى الله عنه — قال : إن أرواح الشهداء فى أجواف طير خُضْر تَسرَح بهم فى الجنة حيث شاءوا . وإن أرواح ولدان المؤمنين فى أجواف عصافير تسرح فى الجنة حيث شاءت ، فتأوى إلى قناديل معلقة فى العرش . وإن أرواح آل فرعون فى أجواف طير سُود تغدو على جهنم وتروح عليها ، فذلك عرضها .

---

(١) ما بين القوسين المعقوفين عن المسند .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٦/٢٤٨ .

(٣) مسلم ، كتاب المساجد ، باب « استحباب التعوذ من عذاب القبر » : ٢/٩٢ .

(٤) البخارى ، كتاب الجنائز ، باب « ما جاء فى عذاب القبر » : ٢/١٢٣ .

(٥) تفسير الطبرى : ٢٤/٤٧ .

وقد رواه الثورى، عن أبى قيس، عن الهُزَيل(١) بن شرحبيل، من كلامه فى أرواح آل فرعون(٢)، وكذلك قال السدى.

وفى حديث الإسراء من رواية أبى هارون العبدى، عن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال فيه: «ثم انطلق بى إلى خلق كثير من خلق الله، رجال كلُّ رجل منهم بطنُه مثلُ البيت الضخم، مصفدون على سابلة آل فرعون، وآل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشياً. (ويوم تقوم الساعة: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) وآل فرعون كالإبل [المسومة يخبطون(٣)] الحجارة والشجر ولا يعقلون».

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا زيد بن أخرم، حدثنا عامر بن مدرك الحارثى، حدثنا عتبة ــ يعنى ابن يقظان ــ عن قيس بن مسلم، عن طارق، عن شهاب، عن ابن مسعود، عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال: «ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أثابه الله». قال: قلنا: يا رسول الله، ما إثابة الكافر؟ فقال: «إن كان قد وصل رَحماً أو تصدق بصدقه أو عمل حسنة، أثابه الله المالَ والولدَ والصحة وأشباه ذلك». قلنا: فما إثابته فى الآخرة؟ قال: «عذابا دون العذاب»، وقرأ: (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب).

ورواه البزار فى مسنده، عن زيد بن أخرم، ثم قال: لا نعلم له إسنادا غير هذا.

وقال ابن جرير: حدثنا عبد الكريم بن أبى عمير، حدثنا حماد بن محمد الفزارى البلخى قال: سمعتُ الأوزاعىَّ وسأله رجل فقال: رحمك الله، رأينا طيورا تخرج من البحر، تأخذ ناحية الغرب بيضا، فوجا فوجاً، لا يعلم عددها إلا الله ــ عز وجل ــ فإذا كان العشى رجع مثلها سودا. قال: وفطنتم إلى ذلك؟ قال: نعم. قال: إن تلك(٤) الطير فى حواصلها أرواح آل فرعون، تُعرض على النار غدواً وعشيا، فترجع إلى وكورها وقد احترقت رياشُها وصارت سودا، فينبت عليها من الليل ريش أبيض، وتتناثر السود، ثم تغدو على النار غدوا وعشيا، ثم ترجع إلى وكورها. فذلك دأبهم فى الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى: (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب)، قال: وكانوا يقولون: إنهم ستمائة ألف مقاتل(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق، أخبرنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: «إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشى، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله ــ عز وجل ــ إليه يوم القيامة(٦)».

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث مالك، به (٧).

---

(١) فى المخطوطة: «عن أبى الهذيل». والمثبت من تفسير الطبرى، والخلاصة. على أن فى تفسير الطبرى: «الهذيل» بالذال. والمثبت من الخلاصة.

(٢) تفسير الطبرى: ٤٦/٢٤.

(٣) فى المخطوطة: «المنسومة يختطفون». والمثبت من الطبعات السابقة.

(٤) فى المخطوطة: «ذاك الطير». والمثبت من تفسير الطبرى.

(٥) تفسير الطبرى: ٤٦/٢٤.

(٦) مسند الإمام أحمد: ١١٣/٢.

(٧) البخارى، كتاب الجنائز، باب «الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشى»: ١٢٤/٢. ومسلم، كتاب الجنة، باب «عرض مقعد الميت..»: ١٦٠/٨.

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠)﴾

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار فى النار ، وتخاصمهم ، وفرعونُ وقومه من جملتهم ، فيقول الضعفاء — وهم : الأتباع — للذين استكبروا — وهم : القادة والسادة والكبراء : (إنا كنا لكم تبعا) ، أى : أطعناكم فيما دعوتمونا إليه فى الدنيا من الكفر والضلال ، (فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار) ، أى : قسطا تتحملونه عنا . (قال الذين استكبروا : إنا كل فيها) ، أى : لا نتحمل عنكم شيئا ، كفى بنا ما عندنا ، وما حملنا من العذاب والنكال . (إن الله قد حكم بين العباد) ، أى : يقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا ، كما قال تعالى : (قال : لكل ضعف ، ولكن لا تعلمون (١)) .

(وقال الذين فى النار لخزنة جهنم : ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب) : لما علموا أن الله — سبحانه — لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم ، بل قد قال : (اخسأوا فيها ولا تكلمون (٢)) سألوا الخزنة — وهم كالبوّابين لأهل النار — أن يدعُوا لهم الله فى أن يخفف عن الكافرين ولو يوما واحدا من العذاب ، فقالت لهم الخزنة رادّين عليهم : (أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟) ، أى : أو ما قامت عليكم الحججُ فى الدنيا على ألسنة الرسل ؟ (قالوا : بلى ، قالوا : فادعوا) ، أى : أنتم لأنفسكم ، فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم ، ونحن منكم برآء ، ثم نخبركم أنه سواء دعوتم أو لم تدعوا ، لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم ، ولهذا قالوا : (وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) ، أى : إلا فى ذهاب ، لا يتقبل ولا يستجاب .

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦)﴾

قد أورد أبو جعفر بن جرير — رحمه الله تعالى — عند قوله تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا) سؤالا فقال : قد عُلِم أن بعض الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعياء ، ومنهم من خرج من

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ٣٨ .

(٢) سورة « المؤمنون » ، آية : ١٠٨ .

بين أظهرهم إمامهاجرا كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى ، فأين النصرة فى الدنيا ؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين (١) :

أحدهما: أن يكون الخبر خرج عاما ، والمراد به البعض، قال : وهذا سائغ فى اللغة .

الثانى : أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم ، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو فى غيبتهم أو بعد موتهم ، كما فُعِل بقتلة يحيى وزكريا وشعياء،سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم،وقد ذكر أن النمروذ أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، وأما الذين راموا صلب المسيح — عليه السلام — من اليهود ، فسلط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم ، وأظهرهم الله عليهم . ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم إماما عادلا ، وحكما مقسطا ، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ، ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام . وهذه نصرة عظيمة ، وهذه سنة الله فى خلقه فى قديم الدهر وحديثه : أنه ينصر عباده المؤمنين فى الدنيا ، ويقر أعينهم ممن آذاهم ، ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال: « يقول الله تعالى: من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب (٢) » . وفى الحديث الآخر : « إنى لأثأر لأوليائى كما يثأر الليث الحَرِب (٣) » . ولهذا أهلك تعالى قوم نوح وعاد وثمود ، وأصحاب الرس ، وقوم لوط ، وأهل مدين ، وأشباههم وأضرابهم ، ممن كذب الرسل وخالف الحق . وأنجى الله من بينهم المؤمنين ، فلم يهلك منهم أحداً ، وعذب الكافرين ، فلم يفلت منهم أحدا .

قال السدى : لم يبعث الله رسولا قط إلى قوم فيقتلونه ، أو قوما من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون ، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله لهم من ينصرهم ، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم فى الدنيا — قال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون فى الدنيا ، وهم منصورون [فيها] .

وهكذا نصر الله نبيه محمداً—صلى الله عليه وسلم—وأصحابه على من خالفه وناوأه، وكذبه وعاداه،فجعل كلمته هى العليا، ودينه هوالظاهر على سائر الأديان ، وأمره بالهجرة من بين ظهرانَى قومه إلى المدينة النبوية ، وجعل له فيها أنصاراً وأعوانا ، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر ، فنصره عليهم وخذلهم له ، وقتل صناديدهم ، وأسر سراتهم ، فاستاقهم مقرنين فى الأصفاد . ثم منّ عليهم بأخذه الفداء منهم ، ثم بعد مدة قريبة فتح مكة، فقرت عينه ببلده ، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم ، فأنقذه الله به مما كان فيه من الشرك والكفر ، وفتح له اليمن ، ودانت له جزيرة العرب بكمالها ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا . ثم قبضه الله — تعالى — إليه ، لما له عنده من الكرامة العظيمة ، فأقام الله أصحابه خلفاء بعده ، فبلّغوا عنه دينَ الله ، ودعوا عباد الله إلى الله . وفتحوا البلاد والرّساتيق (٤) والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب ، حتى انتشرت الدعوة المحمدية فى مشارق الأرض ومغاربها . ثم لا يزال هذا الدين قائما منصورا ظاهرا إلى قيام الساعة ، ولهذا قال تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) ، أى : يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل .

قال مجاهد : الأشهاد : الملائكة .

---

(١) انظر تفسير الطبرى : ٢٤/٤٨ — ٤٩ .

(٢) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « التواضع » : ٨/١٣١ . ولفظه : « فقد آذنته بالحرب » .

(٣) أى : الشديد الغضب .

(٤) انظر تفسيرها فى : ٥/١٨٦ ، ٣٠٠ .

وقوله : (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم) بدلٌ من قوله : (ويوم يقوم الأشهاد) .

وقرأ آخرون : (يومُ) بالرفع ، كأنه فسره به (يوم يقوم الأشهادُ . يومُ لا ينفع الظالمين) ، وهم المشركون (معذرتهم) أى : لا يقبل منهم عذر ولا فدية ، (ولهم اللعنة) ، أى : الإبعاد والطرد من الرحمة ، (ولهم سوء الدار) ، وهى النار . قاله السدى ، بئس المنزل والمقيل .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (ولهم سوء الدار) ، أى : سوء العاقبة .

وقوله : (ولقد آتينا موسى الهدى) ، وهو ما بعثه الله به من الهدى والنور ، (وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب) ، أى جعلنا لهم العاقبة ، وأورثناهم بلادَ فرعونَ وأمواله وحواصله وأرضه ، بما صبروا على طاعة الله واتباع رسوله موسى — عليه السلام — وفى الكتاب الذى أورثوه — وهو التوراة — (هدى وذكرى لأولى الألباب) ، وهى : العقول الصحيحة السليمة .

وقوله : (فاصبر) ، أى : يا محمد ، (إن وعد الله حق) ، أى : وعدناك أنا سنعلى كلمتك ، ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك ، والله لا يخلف الميعاد . وهذا الذى أخبرناك به [حق] لا مرية فيه ولا شك .

وقوله : (واستغفر لذنبك) ، هذا تهييج للأمة على الاستغفار ، (وسبح بحمد ربك بالعشى) ، أى : فى أواخر النهار وأوائل الليل ، (والإبكار) ، وهى أوائل النهار وأواخر الليل .

وقوله : (إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم) ، أى : يدفعون الحق بالباطل ، ويردون الحججَ الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله ، (إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) ، أى : ما فى صدورهم إلا كبر على اتباع الحق ، واحتقار لمن جاءهم به ، وليس ما يرومونه من إخمال الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم ، بل الحق هو المرفوع ، وقولهم وقصدهم هو الموضوع ، (فاستعذ بالله) ، أى : من حال مثل هؤلاء ، (إنه هو السميع البصير) ، أو : من شر مثل هؤلاء المجادلين فى آيات الله بغير سلطان . هذا تفسير ابن جرير(١) .

وقال كعب وأبو العالية : نزلت هذه الآية فى اليهود : (إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ، إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) — قال أبو العالية : وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم ، وأنهم يملكون به الأرض . فقال الله لنبيه — صلى الله عليه وسلم — آمرا له أن يستعيذ من فتنة الدجال ، ولهذا قال : (فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير) .

وهذا قول غريب ، وفيه تعسف بعيد ، وإن كان قد رواه ابن أبى حاتم فى كتابه ، والله أعلم .

لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى منبها على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة ، وأن ذلك سهل عليه ، يسير لديه — بأنه خلق السموات والأرض ، وخلقُها أكبرُ من خلق الناس بدأةً وإعادة ، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى ، كما قال تعالى :

(١) تفسير الطبرى : ٢٤ / ٥٠ .

(أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعىَ بخلقهن ، بقادر على أن يحيى الموتى ، بلى إنه على كل شئ قدير) (١) ؛ وقال هاهنا : (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ؛ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها ، كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله خلق السموات والأرض ، وينكرون المعاد ، استبعادا وكفرا وعنادا ، وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا .

ثم قال : (وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسئ) ، أى : كما لا يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئاً ، والبصير الذى يرى ما انتهى إليه بصره ، بل بينهما فرق عظيم ، كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار ، (قليلا ما يتذكرون) ، أى : ما أقل ما يتذكر كثير من الناس .

ثم قال : (إن الساعة لآتية) ، أى : لكائنة وواقعة ، (لا ريب فيها ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) ، أى : لا يصدقون بها ، بل يكذبون بوجودها .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، حدثنا أشهب ، حدثنا مالك ، عن شيخ قديم من أهل اليمن — قدم من ثَمَّ — قال : سمعت أن الساعة إذا دنت اشتد البلاء على الناس ، واشتد حر الشمس .

وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)

هذا من فضله — تبارك وتعالى — وكرمه : انه ندب عباده إلى دعائه ، وتكفل لهم بالإجابة ، كما كان سفيان الثورى يقول : يا مَنْ أحبُّ عباده إليه مَنْ سأله فأكثر سؤاله ، ويا مَنْ أبغضُ عباده إليه مَن لم يسأله ، وليس كذلك غيرك يارب . رواه ابن أبى حاتم .

وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

اللهُ يَغْضَبُ إنْ تركْتَ سؤالهُ وَبُنَىُّ آدَمَ حِينَ يُسألُ يَغْضَبُ !

وقال قتادة : قال كعب الأحبار : أعطيت هذه الأمة ثلاثا لم تُعطهُنَّ أمة قبلهم إلا نبى : كان إذا أرسل [الله نبيا] قيل له : « أنت شاهد على أمتك » ، وجعلتكم شهداء على الناس . وكان يقال له : « ليس عليك فى الدين من حرج » . وقال لهذه الأمة : (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) . وكان يقال له : « ادعنى استجب لك » ، وقال لهذه الأمة : (ادعونى أستجب لكم) : رواه ابن أبى حاتم .

وقال الإمام الحافظ أبو يعلى . أحمد بن على بن المثنى الموصلى فى مسنده : حدثنا أبو إبراهيم الترجمانى ، حدثنا صالح المُرِّى قال : سمعت الحسن يحدِّث عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — عن النبى — صلى الله عليه وسلم ، فيما يروى عن ربه عز وجل — قال : « أربع خصال ، واحدة منهن لى ، وواحدة لك ، وواحدة فيما بينى وبينك ، وواحدة فيما بينك وبين عبادى : فأما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيئاً ، وأما التى لك على فما عملتَ من خير جزيتُك به ، وأما التى بينى وبينك فمنك الدعاء وعلى الإجابة ، وأما التى بينك وبين عبادى فارضَ لهم ما ترضى لنفسك » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن ذرّ ، عن يُسيع الكِنْدى ، عن النعمان بن بشير — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إن الدعاء هو العبادة » ، ثم قرأ : (ادعونى أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين (٢)) .

---

(١) سورة الأحقاف ، آية : ٣٣ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢٧١/٤ .

وهكذا رواه أصحاب السنن : الترمذى، والنسائى ، وابن ماجه ، وابن أبى حاتم،وابن جرير ، كلهم من حديث الأعمش ، به . وقال الترمذى : « حسن صحيح [١] » .

ورواه أبو داود ، والترمذى [٢] ، والنسائى ، وابنُ جرير أيضا ، من حديث شعبة ، عن منصور ، عن ذَرّ ، به [٣] .

وأخرجه الترمذى أيضا من حديث الثورى ، عن منصور والأعمش ، كلاهما عن ذر ، به [٤] .

ورواه ابن حبّان والحاكم فى صحيحيهما ، وقال الحاكم : « صحيح الإسناد [٥] » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنى أبو مليح [٦] المدنى — شيخ من أهل المدينة — سمعه عن أبى صالح ، وقال مرة : سمعت أبا صالح يحدث عن أبى هريرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « من لم يدع الله — عز وجل — غضب الله عليه [٧] » .

تفرد به أحمد[٨] ، وهذا إسناد لا بأس به .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا مَرْوان الفزَارى ، حدثنا صُبيح أبو المليح : سمعتُ أبا صالح يحدث عن أبى هريرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « من لا يسأله يغضب عليه [٩] » .

قال ابن معين : أبو المليح هذا اسمه : صُبيح . كذا قيده بالضم [١٠] عبد الغنى بن سعيد . وأما أبو صالح هذا فهو الخُوزىّ ، سكن شعب الخُوز : قاله البزار فى مسنده. وكذا وقع فى روايته أبو المليح الفارسى ، عن أبى صالح الخُوزىّ ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « من لا يسأل الله يغْضب عليه » .

وقال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرَّامَهُرْمزىّ [١١] : حدثنا همام ، حدثنا إبراهيم، عن الحسن، حدثنا نائل بن نَجيح ، حدثنى عائذ بن حبيب ، عن محمد بن سعيد قال : لما مات محمد بن مسلمة الأنصارىّ، وجدنا فى ذؤابة سيفه كتابا : « بسم الله الرحمن الرحيم ، سمعت رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « إن لربكم فى بقية دهركم لنفحات ، فتعرضوا له ، لعل دعوة أن تُوافق رحمة فيسعد بها صاحبها سعادةً لا يخسر بعدها أبدا » » .

---

(١) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة البقرة ، الحديث ٤٩ ٤٠ : ٨/٣٠٩ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الدعاء ، باب « فضل الدعاء » الحديث ٣٨٢٨ : ٢/١٢٥٨ ، وتفسير الطبرى : ٢٤/٥١ .

(٢) لم يقع لنا فى الترمذى من رواية شعبة عن منصور ، انظر الإحالة المتقدمة ، والتى تأتى بعد ، وانظر أيضاً تحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، باب « ما جاء فى فضل الدعاء » ، الحديث ٣٤٣٢ : ٩/٣١١ – ٣١٢ .

(٣) سنن أبى داود ، أبواب الوتر ، باب « الدعاء » وتفسير الطبرى : ٢٤/٥١ .

(٤) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة المؤمن ، الحديث ٣٢٩٩ : ٩/١٢١ – ١٢٢ .

(٥) المستدرك ، كتاب الدعاء : ١/٤٩٠ – ٤٩١ .

(٦) فى المخطوطة : « أبو فليح » . والمثبت من المسند .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٢/٤٧٧ .

(٨) كذا ، وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الدعاء ، باب « فضل الدعاء » ، الحديث ٣٨٢٧ : ٢/١٢٥٨ ، من أبى بكر ابن أبى شيبة وعلى بن محمد ، كلاهما عن وكيع ، به .

(٩) مسند الإمام أحمد : ٢/٤٤٢ .

(١٠) أى : ضم الصاد . انظر ترجمته فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢/١/٤٥١ .

(١١) هو صاحب كتاب «المحدث الفاصل بين الراوى والواعى» ، وهو من أول ما ألف فى كتب مصطلح الحديث ، روى أبو محمد عن مطين ، ومحمد بن حيان المازنى ، قال عنه أبو القاسم ابن منده : عاش إلى قريب الستين وثلاثمائة . انظر ترجمته فى العبر للذهبى ٢/٣٢١ – ٣٢٢ .

وقوله : (إن الذين يستكبرون عن عبادتى) ، أى : عن دعائى وتوحيدى ، (سيدخلون جهنم داخرين) ، أى : صاغرين حقيرين ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا يحيى بن سعيد ، عن ابن عَجْلان ، حدثنى عَمْرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذَّرّ (١) ، فى صُوَر الناس ، يعلوهم كلّ شئ من الصغار ، حتى يدخلوا سجنا فى جهنم ــ يقال له : بولس ــ تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من طينة الخبال : عصارة أهل النار (٢) » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أبو بكر بن محمد بن يزيد بن خُنَيس : سمعت أبى يحدث عن وُهيب ابن الورد : حدثنى رجل قال : كنت أسير ذات يوم فى أرض الروم ، فسمعت هاتفا من فوق رأس جبل وهو يقول : يا رب، عجبتُ لمن عرفك كيف يرجو أحدا غيرك ! يا رب ، عجبت لمن عرفك كيف يطلبُ حوائجه إلى أحد غيرك ــ قال : ثم ذَهبت ، ثم جاءت الطامةُ الكبرى ــ قال : ثم عاد الثانية فقال : يا رب ، عجبت لمن عرفك كيف يتعرض لشئ من سخطك يُرضى غيرَك . قال وَهيب : وهذه الطامة الكبرى . قال : فناديتُه : أجنىّ أنت أم إنسى ؟ قال : بل إنسى ، اشغلْ نفسك بما يَعْنيك عما لا يَعْنيك .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾

يقول تعالى ممتنا على خلقه ، بما جعل لهم من الليل الذى يسكنون فيه ويستريحون من حركات ترددهم فى المعايش بالنهار ، وجعل النهار مبصراً ، أى : مضيئا ، ليتصرفوا فيه بالأسفار ، وقطع الأقطار ، والتمكن من الصناعات ، (إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) ، أى : لا يقومون بشكر نعم الله عليهم .

ثم قال : (ذلكم الله ربكم خالق كل شئ لا إله إلا هو) ، أى : الذى فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد ، خالق الأشياء ، الذى لا إله غيره ، ولا رب سواه ، (فأنى تؤفكون) ، أى : فكيف تعبدون غيرَه من الأصنام ، التى لا تخلق شيئاً ، بل هى مخلوقة منحوتة .

وقوله : (كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون) ، أى : كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله ، كذلك أفك الذين من قبلهم ، فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان ، بل بمجرد الجهل والهوى ، وجحدوا حُجج الله وآياته :

وقوله : (الله الذى جعل لكم الأرض قرارا) ، أى : جعلها مستقرا لكم ، بساطا مهادا تعيشون عليها ، وتتصرفون فيها ، وتمشون فى مناكبها ، وأرساها بالجبال لئلا تَميد بكم ، (والسماء بناء) ، أى : سقفا للعالم محفوظا ، (وصوّركم فأحسن

---

(١) الذر : النمل الصغير ، واحدتها : ذرة .

(٢) مسند الإمام احمد : ١٧٩/٢ .

صوركم) ، أى : فخلقكم فى أحسن الأشكال ، ومنحكم أكمل الصور فى أحسن تقويم ، (ورزقكم من الطيبات) ، أى : من المآكل والمشارب فى الدنيا . فذكر أنه خلق الدار ، والسكان ، والأرزاق — فهو الخالق الرازق ، كما قال فى سورة البقرة : (يا أيها الناس، اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون (١)) : وقال هاهنا بعد خلق هذه الأشياء : (ذلكم الله ربكم ، فتبارك الله رب العالمين) ، أى : فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم :

ثم قال : (هو الحى لا إله إلا هو) ، أى : هو الحى أزلا وأبدا ، لم يزل ولا يزال ، وهو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، (لا إله إلا هو) ، أى : لا نظير له ولا عديل له ، (فادعوه مخلصين له الدين) ، أى : موحدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو (الحمد لله رب العالمين) :

قال ابن جرير : كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال : «لا إله إلا الله» أن يُتبعها بالحمد لله رب العالمين، عملا بهذه الآية (٢) :

ثم روى عن محمد بن على بن الحسن بن شقيق ، عن أبيه ، عن الحسين بن واقد ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : من قال : « لا إله إلا الله » ، فليقل على أثرها : « الحمد لله رب العالمين » ، [فذلك قوله تعالى : (فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين (٢))].

وقال أبو أسامة وغيره ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن سعيد بن جبير قال : إذا قرأت : (فادعوا الله مخلصين له الدين) ، فقل : « لا إله إلا الله » وقل على أثرها : « الحمد لله رب العالمين »، ثم قرأ هذه الآية : (فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين (٣)) :

* قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

يقول تعالى : قل يامحمد لهؤلاء المشركين : إن الله ينهى أن يُعْبَد أحدٌ سواه من الأصنام والأنداد والأوثان : وقد بين تعالى أنه لايستحق العبادة أحد سواه ، فى قوله : (هو الذى خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم يخرجكم

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٠ ، ٢١ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٤ / ٥٣ .
(٣) وقع بعد هذا فى الطبعات السابقة الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن نمير بإسناده إلى عبد الله بن الزبير ، والذى ساقه ابن كثير بطرقه عند قوله تعالى فى هذه السورة : (فادعوا الله مخلصين له الدين ولوكره الكافرون) ، وقد خلت منه مخطوطة الأزهر

طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخا) ، أى : هو الذى يقلبكم فى هذه الأطوار كلها، وحده لاشريك له ، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله ، (ومنكم من يتوفى من قبل) ، أى : من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم ، بل تُسقطُه أمّه سقْطاً ، ومنهم من يتوفى صغيرا ، وشابا ، وكهلا قبل الشيخوخة ، كقوله : (لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى(١)) ، وقال هاهنا : (ولعلكم تعقلون) ، قال ابن جريج : تتذكرون البعث .

ثم قال : (هو الذى يحيي ويميت) ، أى : هو المتفرد بذلك ، لايقدر على ذلك أحد سواه ، (فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون)، أى : لايخالفَ ولا يمانع ، بل ماشاء كان .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

يقول تعالى : ألا تعجَبَ يامحمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله، ويجادلون فى الحق بالباطل ، كيف تُصرَفُ عقولهم عن الهدى إلى الضلال ، (الذين كذبوا بالكتاب ، وبما أرسلنا به رسلنا)، أى : من الهدى والبيان ، (فسوف يعلمون) : هذا تهديد شديد ، ووعيد [أكيد] ، من الرب ــ جل جلاله ــ لهؤلاء ، كما قال تعالى : (ويل يومئذ للمكذبين(٢))

وقوله : (إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل) ، أى : متصلة بالأغلال ، بأيدى الزبانية يسحبونهم على وجوههم ، تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم . ولهذا قال : (يسحبون . فى الحميم ثم فى النار يسجرون) ، كما قال تعالى : (هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون . يطوفون بينها وبين حميم آن (٣)) . وقال بعد ذكْره أكلهم الزقوم وشربهم الحميم : (ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم (٤)) وقال : (وأصحاب الشمال ماأصحاب الشمال * فى سموم وحميم * وظل من يحموم * لابارد ولا كريم) إلى أن قال : (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون * لآكلون من شجر من زقوم * فمالئون منها البطون، فشاربون عليه من الحميم. فشاربون شرب الهيم . هذا نزلهم يوم الدين (٥)) . وقال : (إن شجرة الزقوم . طعام الأثيم . كالمهل يغلى فى البطون . كغلى الحميم . خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم . إن هذا ماكنتم به تمترون (٦)) ، أى : يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ ، والتحقير والتصغير ، والتهكم والاستهزاء بهم ،

(١) سورة الحج ، آية : ٥ .
(٢) سورة المرسلات ، آية : ١٥ .
(٣) سورة الرحمن ، آية : ٤٣ ، ٤٤ .
(٤) سورة الصافات ، آية : ٦٨ .
(٥) سورة الواقعة ، الآيات : ٤١ – ٤٤ ، ٥١ – ٥٦ .
(٦) سورة الدخان ، الآيات : ٤٣ – ٥٠ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا على بن الحسين، حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا منصور بن عمار ، حدثنا بَشِير بن طلحة الخزامى (١) ، عن خالد بن دريك ، عن يعلى بن مُنْيَة — رفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم — قال : « ينشىء الله سحابة لأهل النار سوداء مظلمة ، ويقال: يأهل النار ، أىّ شيء تطلبون ؟ فيذكرون بها سحاب الدنيا فيقولون : نسأل بَرْد الشراب . فتمطرهم أغلالا تزيد فى أغلالهم ، وسلاسل تزيد فى سلاسلهم ، وجَمْرا يُلْهِبُ النارَ (٢) عليهم » . هذا حديث غريب .

وقوله : (ثم قيل لهم : أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟) ، أى: قيل لهم: أين الأصنام التى كنتم تعبدونها من دون الله ؟ هل ينصرونكم اليوم؟ (قالوا: ضلوا عنا)، أى: ذهبوا فلم ينفعونا، (بل لم نكن ندعو من قبل شيئا)، أى: جحدوا عبادتهم، كقوله تعالى : (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين(٣)) . ولهذا قال : (كذلك يضل الله الكافرين)

وقوله : (ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) ، أى : تقول لهم الملائكة : هذا الذى أنتم فيه جزاءٌ على فَرَحكم فى الدنيا بغير الحق ، ومَرَحكم وأشركم وبطركم ، (ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) ، أى : فبئس المنزلُ والمَقيلُ الذى فيه الهوانُ والعذاب الشديد ، لمن استكبر عن آيات الله ، واتباع دلائله وحُجَجه .

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)

يقول تعالى آمرا رسوله — صلوات الله وسلامه عليه — بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه ؛ فإن الله سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك ، وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك فى الدنيا والآخرة ، (فإما نرينك بعض الذى نعدهم) ، أى : فى الدنيا . وكذلك وقع ، فإن الله أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم، أبيدوا فى يوم بدر . ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب فى أيام حياته ، صلى الله عليه وسلم .

وقوله : (أو نتوفينك ، فإلينا يرجعون) ، أى : فنذيقهم العذاب الشديد فى الآخرة .

ثم قال مسليا له : (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) ، كما قال فى « سورة النساء (٤) » سواء ، أى : منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة ، (ومنهم من لم نقصص عليك) ، وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف ، كما تقدم التنبيه على ذلك فى سورة (٥) النساء » ، ولله الحمد والمنة .

---

(١) كذا ، وفى الجرح والتعديل ١/١/٣٧٥ : « الخشنى » .
(٢) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور من ابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه . انظر : ٥/٣٥٧ .
(٣) سورة الأنعام ، آية ٢٣ .
(٤) سورة النساء ، آية : ١٦٤ .
(٥) انظر : ٢/٤٢٢ — ٤٢٦ .

وقوله : (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله) ، أى : ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتى قومه بخارق للعادات ، إلا أن يأذن الله له فى ذلك ، فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به ، (فإذا جاء أمر الله) ، وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ، (قضى بالحق) ، فينجو المؤمنون ، ويهلك الكافرون ، ولهذا قال : (وخسر هنالك المبطلون) :

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾

يقول تعالى ممتنا على عباده، بما خلق لهم من الأنعام ، وهى : الإبل والبقر والغنم ، (فمنها ركوبهم ومنها يأكلون (١))، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب ، ويحمل عليها الأثقال فى الأسفار والرحال إلى البلاد النائية ، والأقطار الشاسعة : والبقر تؤكل ، ويشرب لبنها ، وتحرث عليها الأرض : والغنم تؤكل ، ويشرب لبنها : والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها ، فيتخذ منه الأثاث والثياب والأمتعة ، كما فصل وبين فى أماكن تقدم ذكرها فى « سورة الأنعام(٢) » ، « وسورة النحل(٣) » ، وغير ذلك . ولهذا قال هاهنا : (لتركبوا منها ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ؛ ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم ، وعليها وعلى الفلك تحملون)

وقوله : (ويريكم آياته) ، أى : حججه وبراهينه فى الآفاق وفى أنفسكم ، (فأى آيات الله تنكرون) ؟ أى: لاتقدرون على إنكار شىء من آياته ، إلا أن تعاندوا وتكابروا .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل فى قديم الدهر ، وماذا حل بهم من العذاب الشديد ، مع شدة قواهم ، وما أثروه(٤) فى الأرض، وجمعوه من الأموال ، فما أغنى عنهم ذلك شيئا ، ولارد عنهم ذرة من بأس الله؛ وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات ، والحجج القاطعات ، والبراهين الدامغات ، لم يلتفتوا إليهم ، ولا أقبلوا عليهم ، واستغنوا بما عندهم من العلم فى زعمهم عما جاءتهم به الرسل

---

(١) سورة يس ، آية : ٧٢ .
(٢) انظر ٣/٣٤٠ – ٣٤٤ .
(٣) انظر : ٤/٤٧٥ – ٤٧٨ .
(٤) أى : تركوا فيها من الآثار .

قال مجاهد : قالوا : نحن أعلم منهم ، لن نبعث ولن نعذب (١)

وقال السدى : فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم ، فأتاهم من بأس الله مالا قِبَلَ لهم به (١)

(وحاق بهم) ، أى : أحاط بهم (ماكانوا به يستهزئون) ، أى ، يكذبون ويستبعدون وقوعه

(فلما رأوا بأسنا) ، أى : عاينوا وقوع العذاب بهم ، (قالوا : آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين) ، أى : وَحَّدوا الله وكفروا بالطاغوت ، ولكن حيث لاتُقَال العثرات ، ولا تنفع المعذرة . وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق : (آمنت أنه لاإله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين) ، قال الله تعالى : (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين (٢) ؟ : أى : فلم يقبل الله منه ، لأنه قد استجاب لنبيه موسى دعاءه عليه حين قال : (واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم(٣)) . وهاهنا قال : (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده) ، أى : هذا حكم الله فى جميع مَنْ تاب عند معاينة العذاب : أنه لايقبل . ولهذا جاء فى الحديث : « إن الله يقبل توبة العبد مالم يُغَرْغِرْ(٤) » ، أى : فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة ، وعاين المَلَك ، فلا توبة حينئذ . ولهذا قال : (وخسر هنالك الكافرون) :

آخر تفسير « سورة غافر » . ولله الحمد والمنة .

* * *

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٤ / ٥٨ .

(٢) سورة يونس ، آية : ٩٠ ، ٩١ .

(٣) سورة يونس ، آية : ٨٨ .

(٤) تحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، الحديث ، ٣٦٠٣ : ٩ / ٥٢١ . وقال الترمذى : « حسن غريب » . وسنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « ذكر التوبة » ، الحديث ٤٢٥٣ : ٢ / ١٤٢٠ . ومسند الإمام أحمد ، عن عبد الله بن عمر : ٢ / ١٣٢ ، ١٥٣ ، وعن رجل ، عن النبى – صلى الله عليه وسلم – : ٣ / ٤٢٥ .

تفسير سورة فُصِّلَت

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾

يقول تعالى : (حم . تنزيل من الرحمن الرحيم) ، يعنى : القرآن منزل من الرحمن الرحيم ، كقوله تعالى : (قل : نزله روح القدس من ربك بالحق (١)) ؛ وقوله : (وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين(٢))

وقوله : (كتاب فصلت آياته) ، أى : بيِّنت معانيه وأحكمت أحكامه ، (قرآنا عربيا) ، أى : فى حال كونه لفظا عربيا ، بينا واضحا ، فمعانيه مفصلة ، وألفاظه واضحة غير مشكلة ، كقوله : (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير(٣)) ، أى : هو معجز من حيث لفظه ومعناه ، (لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد(٤))

وقوله : (لقوم يعلمون) ، أى : إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماءُ الراسخون ، (بشيرا ونذيرا) ، أى : تارة يبشر المؤمنين ، وتارة ينذر الكافرين ، (فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون) ، أى : أكثر قريش ، فهم لايفهمون منه شيئا مع بيانه ووضوحه ، (وقالوا : قلوبنا فى أكنة) ، أى : فى غلف مغطاة (مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر) ، أى : صمم مما جئتنا به ، (ومن بيننا وبينك حجاب) ، فلا يصل إلينا شىء مما تقول ، (فاعمل إننا عاملون) ، أى : اعمل أنت على طريقتك ، ونحن على طريقتنا لانتابعك

قال الإمام العَلَم عبد بن حُمَيد فى مسنده : حدثنى ابن أبى شيبة ، حدثنا على بن مسهر ، عن الأجلح ، عن الذَيَّال ابن حَرْمَلَة الأسدى ، عن جابر بن عبد الله — رضى الله عنه — قال : اجتمعت قريش يوما فقالوا : انظروا أعلمَكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت هذا الرجل الذى قد فرّق جماعتنا ، وشتَّت أمرنا ، وعاب ديننا ، فلْيكلمه ولْننظُرْ

---

(١) سورة النحل ، آية : ١٠٢ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيات : ١٩٢ — ١٩٤ .

(٣) سورة هود ، آية : ١ .

(٤) سورة فصلت ، آية : ٤٢ .

ماذا يَرُدّ عليه ؟ فقالوا : مانعلم أحداً غير عُتْبَة بن ربيعة . فقالوا : أنت ياأبا الوليد . فأتاه عتبة فقال : يامحمد ، أنت خير أم عبد الله ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك ، فقد عبدوا الآلهة التي عبتَ ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلّم حتى نسمع قولك ، إنا والله ما رأينا سَخْلة(١) قطُّ أشأم على قومك منك ، فرّقت جماعتنا ، وشتّت أمرنا ، وعبتَ ديننا ، وفضحتنا في العرب ، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً ، وأن في قريش كاهنا! والله ما ننظر إلا مثل صيحة الحُبْلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف ،حتى نتفانى ! أيها الرجل ، إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا ، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أيّ نساء قريش فلْنُزوجك عشراً . فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « فرغت ؟ » قال : نعم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بسم الله الرحمن الرحيم * حم * تنزيل من الرحمن الرحيم) حتى بلغ (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) . فقال عتبة : حسبك ! حسبك! ماعندك غير هذا ؟ قال : «لا» . فرجع إلى قريش ، فقالوا : ماوراءك ؟ قال : ماتركت شيئا أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته : قالوا : فهل أجابك ؟ قال : لا ، والذى نصبها بَنِيّة(٢) مافهمتُ شيئا مما قال ، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، قالوا : ويلك ! يكلمك الرجل بالعربية ماتدرى ماقال ؟! قال : لا ، والله مافهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة .

وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده ، عن أبي بكر بن أبي شيبة بإسناده ، مثله سواء .

وقد ساقه البغوى في تفسيره بسنده عن محمد بن فضيل ، عن الأجلح -وهو ابن عبد الله الكِنْدى - وقد ضُعِّف بعض الشيء عن الذَّيَّال بن حرملة ، عن جابر ، فذكر الحديث إلى قوله : (فإن أعرضوا فقل: أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) فأمسك عتبة على فيه ، وناشده بالرّحِم ، ورجع إلى أهله ، ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم . فقال أبو جهل : يامعشر قريش ، والله مانرى عتبة إلا قد صبَأ إلى محمد ، وأعجبه طعامه ، وما ذاك إلا من حاجة أصابته ، فانطلقوا بنا إليه . فانطلقوا إليه فقال أبو جهل : ياعتبة ، ماحَبَسك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك طعامه ، فإن كانت لك حاجة جمعنا لك من أموالنا مايغنيك عن طعام محمد . فغضب عتبة ، وأقسم أن لايكلم محمدا أبدا ، وقال: والله لقد علمتم أنى من أكثر قريش مالا ، ولكنى أتيته وقَصَصت عليه فأجابنى بشيء والله ماهو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، وقرأ السورة إلى قوله : (فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) ، فأمسكت بفيه ،وناشدته بالرحم أن يكف ، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، فخشيت أن ينزل بكم العذاب .

وهذا السياق أشبه من سياق البزار وأبي يعلى ، والله أعلم .

وقد أورد هذه القصة الإمام محمد بن إسحاق بن يَسَار في كتاب السيرة على خلاف هذا النمط ، فقال :

حدثنى [يزيد] بن زياد ، عن محمد بن كعب القُرَظى قال : حُدِّثتُ أن عتبة بن ربيعة - وكان سيدا - قال يوما وهو جالس في نادى قريش، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد

(١) السخلة : ولد الشاة من المعز والضأن . والسخل : المولود المحبب إلى أبويه . وهو في الأصل ولد الغنم .

(٢) يعنى بالبنية : الكعبة . وكانت تدعى بنية إبراهيم عليه السلام ، لأنه بناها ، وقد كثر قسمهم برب هذه البنية .

فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيّها شاء ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلمه . فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَة (١) في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرّقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منّى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها . قال : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «قل يا أبا الوليد أسمع» . قال: يا ابن أخي ، إن كنتَ إنما تريدُ بما جئتَ به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا أموالا . وإن كنت تريد [به] شرفا سوّدناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ؛ وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ؛ وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيّاً(٢) تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطبّ ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غَلَبَ التابعُ(٣) على الرجل حتى يُداوَى منه ــ أو كما قال له ــ حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يستمع منه قال : « أفرغت يا أبا الوليد؟ » ; قال : نعم . قال : « فاستمع منى » قال : أفعل ؛ قال : (بسم الله الرحمن الرحيم ؛ حم ؛ تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون ؛ بشيرا ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون) ؛ ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه ؛ فلما سمع عتبةُ أنصتَ لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه؛ ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة [منها] ، فسجد ، ثم قال : « قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك » . فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض: أقسم ــ يحلف بالله ــ لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ؛ فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى قد سمعتُ قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ماهو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ؛ يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها لى ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكوننّ لقوله الذى سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملْكُهُ مُلككم ، وعزّه عزّكم ، وكنتم أسعد الناس به ؛ قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ! قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم (٤) ؛

وهذا السياق أشبه من الذى قبله ، والله أعلم .

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ﴾

يقول تعالى (قل) يا محمد [لهؤلاء] المكذبين المشركين : (إنما أنا بشر مثلكم ، يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد) ، لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين ، إنما الله إله واحد ، (فاستقيموا إليه) ، أى : أخلصوا له العبادة على

(١) السطة ــ بكسر السين ــ : الشرف . وكان فى المخطوطة : « السبطة » . والمثبت من سيرة ابن هشام .
(٢) الرئى ــ بفتح الراء ، وبنو تميم يكسرونها ــ : ما يتراءى للإنسان من الجن .
(٣) التابع : ما يتبع الإنسان من الجن .
(٤) سيرة ابن هشام : ١/٢٩٣ ــ ٢٩٤ .

منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل (واستغفروه) ، أى : لسالف الذنوب ، (وويل للمشركين) ، أى : دمارٌ لهم وهلاك عليهم ، (الذين لا يؤتون الزكاة) — قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : يعنى الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله (١) ؛ وكذا قال عكرمة .

وهذا كقوله تعالى : (قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها(٢)) . وكقوله : (قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى(٣)) . وقوله : (فقل : هل لك إلى أن تزكى(٤) ؟) . والمراد بالزكاة هاهنا : طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة ، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك . وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تُطَهِّره من الحرام ، وتكون سَبَباً لزيادته وبركته وكثرة نفعه ، وتوفيقا إلى استعماله فى الطاعات .

وقال السدى : (وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة) ، أى : الذين لا يَدِينُون بالزكاة(٥) ؛

وقال معاوية بن قرة : ليس هم من [أهل] الزكاة .

وقال قتادة : يمنعون زكاة أموالهم .

وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين . واختاره ابن جرير . وفيه نظر ؛ لأن إيجاب الزكاة إنما كان فى السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة ، على ما ذكره غير واحد ، وهذه الآية مكية ، اللهم إلا أن يقال : لا يبعد أن يكون أصل الزكاة الصدقة كان مأمورا به فى ابتداء البعثة ، كقوله تعالى : (وآتوا حقه يوم حصاده) ، فأما الزكاة ذات النُّصُب والمقادير فإنما بين أمرها بالمدينة ، ويكون هذا جمعا بين القولين ، كما أن أصل الصلاة كان واجبا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فى ابتداء البعثة ، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف ، فرض الله على رسوله الصلوات الخمس ، وفَصَّل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك ، شيئا فشيئا ، والله أعلم .

ثم قال بعد ذلك : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) — قال مجاهد وغيره : « لا مقطوع ولا مجبوب » ، كقوله : (ما كثين فيه أبدا(٦)) ، وكقوله تعالى : (عطاء غير مجذوذ(٧)) .

وقال السدى : (غير ممنون) عليهم . وقد رد عليه بعض الأئمة هذا التفسير ، فإن المنة لله على أهل الجنة ؛ قال الله تعالى : (بل الله يَمُنّ عليكم أن هداكم للإيمان(٨)) . وقال أهل الجنة : (فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم(٩)) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إلا أن يَتَغَمَّدَنِى الله برحمة منه وفضل(١٠) » ؛

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٤/٦٠ .
(٢) سورة الشمس ، آية : ٩/١٠ .
(٣) سورة الأعلى ، آية : ١٤ ، ١٥ .
(٤) سورة النازعات ، آية : ١٨ .
(٥) كذا فى مخطوطة الأزهر . ومعنى : « لا يدينون بها » : لا يؤمنون بها . وأثر السدى كما فى تفسير الطبرى ٢٤ / ٦٠ : « قال : لو زكوا وهم مشركون ، لم ينفعهم » .
(٦) سورة الكهف ، آية : ٣ .
(٧) سورة هود ، آية ١٠٨ .
(٨) سورة الحجرات ، آية : ١٧ .
(٩) سورة الطور ، آية : ٢٧ .
(١٠) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « القصد والمداومة على العمل » : ٨/١٢٣ . ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب « لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله تعالى » : ٨/١٣٩ — ١٤٠ .

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا معه غيره ، وهو الخالق لكل شيء ، القاهر لكل شيء ، المقدّر لكل شيء ، فقال : (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتجعلون له أندادا) ، أى : نظراء وأمثالا تعبدونها معه ، (ذلك رب العالمين) ، أى : الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم .

وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى : (خلق السموات والأرض فى ستة أيام) (١) ، ففصّل هاهنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء ، فذكر أنه خلَق الأرض أولا لأنها كالأساس ، والأصل أن يُبْدَأ بالأساس ، ثم بعده بالسقف ، كما قال : (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات (٢)) ... الآية .

فأما قوله : (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ، متاعا لكم ولأنعامكم (٣)) ففى هذه الآية أن دَحْى الأرض كان بعد خلق السماء ، فالدَّحْى هو مفسر بقوله : (أخرج منها ماءها ومرعاها) ، وكان هذا بعد خلق السماء ، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص ، وبهذا أجاب ابن عباس فيما ذكره البخارى عند تفسير هذه الآية من صحيحه ، فإنه قال :

وقال المنهال ، عن سعيد بن جبير قال : قال رجل لابن عباس : إنى أجدُ فى القرآن أشياء تختلف علىّ ، قال : (فلا أنساب بينهم يومئذ ولايتساءلون) ، (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) – (ولا يكتمون الله حديثا) ، (والله ربنا ما كنا مشركين) ، فقد كتموا فى هذه الآية ؟ وقال : (أم السماء بناها) ، إلى قوله : (دحاها) ، فذكر خلْقَ السماء قبل الأرض ، ثم قال : (قل : أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين) ، إلى قوله : (طائعين) ، فذكر فى هذه خلق الأرض قبل خلق السماء ؟ وقال : (وكان الله غفورا رحيما) ، (عزيزا حكيما) ، (سميعاً بصيرا) ، فكأنه كان ثمّ مضى .

قال – يعنى ابن عباس – : (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) فى النفخة الأولى ، ثم ينفخ فى الصور ، (فصَعِقَ من فى السموات ومن فى الأرض إلامن شاء الله) ، فلا أنساب [بينهم] عند ذلك ولا يتساءلون ، [ثم] (٤) فى النفخة الأخرى (أقبل بعضهم على بعض يتساءلون) .

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ٥٤ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٩ .
(٣) سورة النازعات ، الآيات : ٢٧ – ٣٣ .
(٤) ما بين القوسين من البخارى .

وأما قوله : (ما كنا مشركين) ، (ولا يكتمون الله حديثا) ، فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم ، فقال المشركون : تعالوا نقول : « لم نكن مشركين » ، فيختم على أفواههم ، فتنطق أيديهم ، فعند ذلك يعرف أن الله لا يُكتَمُ حديثا ، وعنده (يود الذين كفروا) الآية .

وخلق الأرض فى يومين ، ثم خلق السماء ، ثم استوى إلى السماء : فسواهن فى يومين آخرين ، ثم دَحَى الأرض ، ودَحْيُها : أن أخرج منها الماء والمرعى ، وخلق الجبال والجماد (١) والآكام وما بينها فى يومين آخرين ، فذلك قوله (دحاها) ، وقوله : (خلق الأرض فى يومين) فَخُلِقَت الأرض وما فيها من شىء فى أربعة أيام ، وخُلِقَت (٢) السموات فى يومين .

(وكان الله غفورا رحيما) : سمى نفسه بذلك ، وذلك قوله ، أى : لم يزل كذلك ؛ فإن الله لم يُرِد شيئاً إلا أصاب به الذى أراد ، فلا يختلفَنّ عليك القرآن ، فإن كلا من عند الله عز وجل .

قال البخارى : حدثنيه يوسف بن عَدِىّ ، حدثنا عُبَيْد الله بن عمرو ، عن زيد بن أبى أنيسة ، عن المنهال — هو ابن عمرو — بالحديث (٣) .

فقوله : (خلق الأرض فى يومين) — يعنى : يوم الأحد ويوم الاثنين — (وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها) أى : جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس ، وقَدَّر فيها أقواتها — وهو : ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التى تزدرع وتغرس — يعنى يوم الثلاثاء والأربعاء ، فهما مع اليومين السابقين أربعة ، ولهذا قال تعالى : (فى أربعة أيام سواء للسائلين) ، أى : لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه .

وقال مجاهد وعكرمة فى قوله : (وقَدَّر فيها أقواتها) : جعل فى كل ارض مالا يصلح فى غيرها ، ومنه : العَصْب (٤) باليمن ، والسابرىّ بسابور ، والطيالسة بالرّى (٥) .

وقال ابن عباس ، وقتادة ، والسدى فى قوله تعالى : (سواء للسائلين) ، أى : لمن أراد السؤال عن ذلك .

وقال ابن زيد : معناه (وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين) ، أى : على وفق مراد من له حاجة إلى رزق أو حاجة ، فإن الله قَدَّر له ما هو محتاج إليه .

وهذا القول يشبه ما ذكروه فى قوله تعالى : (وآتاكم من كل ما سألتموه (٦)) ، والله أعلم .

---

(١) فى البخارى : « الجبال والجمال والآكام » .

(٢) فى المخطوطة : « وخلق » . والمثبت من البخارى .

(٣) البخارى ، تفسير سورة « حم . السجدة » : ٦/١٥٩ — ١٦٠ .

(٤) العصب — بفتح فسكون — : برود يمنية يعصب غزلها ، أى : يجمع ويشد ثم يصبغ وينسج ، فيأتى موشيا ، لبقاء ما عصب منه أبيض لم يأخذه صبغ .

وأما السابرى فهو منسوب إلى سابور — بلدة قريبة من أصفهان — وكل ثوب رقيق عندهم : سابرى .

وأما الطيالسة فجمع طيلسان وطيلس . وهى كلمة فارسية معربة . وفسر بأنه : «ثوب يلبس على الكتف» . وقيل : ثوب يحيط بالبدن ينسج للبس ، خال عن التفصيل والخياطة» . وقيل أيضاً : «كساء مدور أخضر لا أسفل له ، لحمته أو سداه من صوف ، يلبسه الخواص من العلماء والمشايخ ، وهو من لباس العجم» .

والرى — بفتح الراء — : مدينة مشهورة بفارس .

(٥) انظر تفسير الطبرى : ٢٤/٦٢ .

(٦) سورة إبراهيم ، آية : ٣٤ .

وقوله : (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) ، وهو : بخار الماء المتصاعد منه [حين] خلقت [الأرض](١) ، (فقال لها وللأرض : ائتيا طوعا أو كرها) ، أي : استجيبا لأمري ، وانفعلا لفعلي ، طائعتين أو مكرهتين .

قال الثوري ، عن ابن جُرَيج ، عن سليمان بن موسى ، عن مجاهد ، عن ابن عباس في قوله : (فقال لها وللأرض : ائتيا طوعا أو كرها) ، قال : قال الله تعالى للسموات : أطلعي شمسي وقمري ونجومي . وقال : للأرض : شققي أنهارك ، وأخرجي ثمارك : فقالتا : (أتينا طائعين (٢)) .

واختاره ابن جرير رحمه الله .

(قالتا أتينا طائعين) ، أي : بل نستجيب لك مطيعين بما فينا ، مما تريد خلقه من الملائكة والإنس والجن جميعا مطيعين لك . حكاه ابن جرير عن بعض أهل العربية ، قال : وقيل : تنزيلا لهن معاملة من يعقل بكلامهما (٣) .

وقيل : إن المتكلم من الأرض بذلك هو مكان الكعبة ، ومن السماء ما يسامته منها ، والله أعلم .

وقال الحسن البصري : لو أبيا عليه أمرَه لعذبها عذابا يجدان ألمه . رواه ابن أبي حاتم .

(فقضاهن سبع سموات في يومين) ، أي : ففرغ من تسويتهن سبع سموات في يومين ، أي : آخرين ، وهما يوم الخميس ويوم الجمعة .

(وأوحى في كل سماء أمرها) ، أي : ورتب مقررا في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة ، وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو ، (وزينا السماء الدنيا بمصابيح) ، وهنّ الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض ، (وحفظا) ، أي : حرسا من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى .

(ذلك تقدير العزيز العليم) ، أي : العزيز الذي قد عزّ كل شيء فغلبه وقهره ، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم .

قال ابن جرير : حدثنا هنّاد بن السري ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن أبي سعيد البقال ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ــ قال هنّاد : قرأت سائر الحديث أن اليهود أتت النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فسألته عن خلق السموات والأرض ، فقال : « خلق الله الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع ، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب ، فهذه أربعة (٤) ، (قل : أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ،

---

(١) في المخطوطة : « السماء » . والمثبت من الطبعات السابقة .

(٢) تفسير الطبري : ٢٤/٦٤ .

(٣) قال الطبري ٢٤/٦٤ : « وقيل : (قالتا أتينا طائعين) ولم يقل : « طائعتين » ، والسماء والأرض مؤنثتان ؟ لأن النون والألف اللتين هما كناية أسمائهما في قوله : (أتينا) نظيرة كناية أسماء المخبرين من الرجال عن أنفسهم ، فأجرى قوله (طائعين) على ما جرى به الخبر عن الرجال كذلك . وقد كان بعض أهل العربية يقول : ذهب به إلى السموات والأرض ومن فيهن . وقال آخرون منهم : قيل ذلك كذلك ، لأنهما لما تكلمتا أشبهتا الذكور من بني آدم » .

(٤) بعده في تفسير الطبري : « ثم قال : (أئنكم) . . . » .

وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين) : لمن سأل — قال : وخلق يوم الخميس السماء ، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه [فخلق فى أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال ، حين يموت من مات (١)] ، وفى الثانية ألقى الآفة على كل شىء مما ينتفع به الناس ، وفى الثالثة آدم ، وأسكنه الجنة ، وأمر إبليس بالسجود له ، وأخرجه منها فى آخر ساعة » . ثم قالت اليهود : ثم ماذا يا محمد ؟ قال : « ثم استوى على العرش » . قالوا : قد أصبت لو أتممت ! قالوا : ثم استراح ، فغضب النبى — صلى الله عليه وسلم — غضبا شديدا ، فنزل : (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب * فاصبر على ما يقولون (٢)) .

هذا الحديث فيه غرابة . فأما حديث ابن جريج ، عن إسماعيل بن أمية ، عن أيوب بن خالد ، عن عبد الله بن رافع ، عن أبى هريرة قال : أخذ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بيدى فقال : « خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الإثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل » .

فقد رواه مسلم (٣) والنسائى فى كتابيهما ، عن حديث ابن جريج ، به . وهو من غرائب الصحيح ، وقد علله البخارى فى التاريخ فقال : رواه بعضهم عن أبى هريرة ، عن كعب الأحبار ، وهو الأصح .

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق : إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله ، فإنى أنذركم حلول نقمة الله بكم ، كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين (صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) ، أى : ومن شاكلها ممن فعل كفعلها ، (إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم) ، كقوله تعالى : (واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف ، وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه (٤)) ، أى : فى القرى المجاورة لبلادهم ، بعث الله إليهم الرسل يأمرون

(١) ما بين القوسين سقط من تفسير ابن كثير ، وقد أثبتناه من الطبرى .

(٢) تفسير الطبرى : ٦١/٢٤ .

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية الرابعة والخمسين من سورة الأعراف : ٤٢٢/٣ ، وخرجناه هنالك .

(٤) سورة الأحقاف ، آية : ٢١ .

بعبادة الله وحده لا شريك له ، ومبشرين ومنذرين ، ورأوا ما أحلَّ اللهُ بأعدائه من النقم ، وما ألبس أولياءه من النعم ، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا ، بل كذبوا وجحدوا ، وقالوا : (لو شاء ربنا لأنزل ملائكة) ، أى : لو أرسل الله رسلا لكانوا ملائكة من عنده ، (فإنا بما أرسلتم به) ، أى : أيها البشر (كافرون) ، أى : لانتبعكم وأنتم بشر مثلنا . قال الله تعالى: (فأما عاد فاستكبروا فى الأرض) ، أى : بغوا وعتَوا وعصَوا ،(وقالوا : من أشد منا قوة ؟) ، أى : منّوا بشدة تركيبهم وقواهم ، واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله ! (أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة) ، أى : أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة ؟ فإنه العظيم الذى خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها ، وإن بطشه شديد ، كما قال تعالى : (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون (١)) ، فبارزوا الجبار بالعداوة ، وجحدوا بآياته وعصوا رسوله ، فلهذا قال : (فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً) — قال بعضهم : وهى الشديدة الهبوب . وقيل : الباردة . وقيل : هى التى لها صوت .

والحق : أنها متصفة بجميع ذلك ، فإنها كانت ريحا شديدة قوية ، لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم ، وكانت باردة شديدة [البرد ، جدا كقوله تعالى : (بريح صرصر عاتية(٢)) ، أى : باردة شديدة] ، وكانت ذاتَ صوت مزعج ، ومنه سمى النهر المشهور ببلاد المشرق « صرصراً (٣) » ، لقوة صوت جريه .

وقوله : (فى أيام نحسات) ، أى : متتابعات ، (سبع ليال وثمانية أيام حسوما (٤)) ، كقوله : (فى يوم نحس مستمر (٥)) ، أى : ابتدئوا بهذا العذاب فى يوم نحس عليهم ، واستمر بهم هذا النحس سبع ليال وثمانية أيام ، حتى أبادهم عن آخرهم ، واتصل بهم خزى الدنيا بعذاب الآخرة . ولهذا قال تعالى : (لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى) ، أشد خزيا لهم ، (وهم لا ينصرون) ، أى : فى الأخرى كما لم ينصروا فى الدنيا ، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال .

وقوله : (وأما ثمود فهديناهم) — قال ابن عباس ، وأبو العالية ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، والسدى ، وابن زيد : بينا لهم (٦) .

وقال الثورى : دعوناهم .

(فاستحبوا العمى على الهدى) ، أى : بصَّرناهم ، وبيَّنّا لهم ، ووضّحنا لهم الحقّ على لسان نبيهم صالح — صلى الله عليه وسلم — فخالفوه وكذبوه ، وعقروا ناقة الله التى جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم ، (فأخذتهم صاعقة العذاب الهون) ، أى : بعث الله عليهم صيحة ورَجْفَةً وذلا وهوانا وعذابا ونكالا ، (بما كانوا يكسبون) ، أى : من التكذيب والجحود .

(ونجينا الذين آمنوا) ، أى : من بين أظهرهم ، لم يمسَسْهم سوء ، ولا نالهم من ذلك ضرر ، بل نجاهم الله مع نبيهم صالح بإيمانهم ، وتقواهم لله ، عز وجل .

---

(١) سورة الذاريات ، آية : ٤٧ .

(٢) سورة الحاقة ، آية : ٦ .

(٣) فى معجم البلدان لياقوت : « وصرصر قريتان من سواد بغداد : صرصر العليا وصرصر السفلى ، وهما على ضفة نهر عيسى وربما قيل : نهر صرصر ، فنسب النهر إليهما .

(٤) سورة الحاقة ، آية : ٧ .

(٥) سورة القمر ، آية : ١٩ .

(٦) تفسير الطبرى ٢٤/ ٦٧ .

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) ﴾

يقول تعالى : (ويوم يُحشَر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون) ، أى : اذكر لهؤلاء المشركين يومَ يُحشرون إلى النار ، (يوزعون) ، أى : تجمع الزبانية أولهم على آخرهم ، كما قال تعالى : (ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا) (١) ، أى : عطاشا .

وقوله : (حتى إذا ما جاءوها) ، أى : وقفوا عليها ، (شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) ، أى : بأعمالهم مما قدموه وأخَّروه ، لا يُكتَم منه حرف .

(وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا) ؟ أى : لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم ، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء: (قالوا : أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ ، وهو خلقكم أول مرة) ، أى : فهو لا يخالف ولا يمانع ، وإليه ترجعون .

قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا [محمد بن] عبد الرحيم ، حدثنا على بن قادم ، حدثنا شريك ، عن عُبَيْد المُكتب ، عن الشعبى ، عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وتبسم ، فقال : « ألا تسألونى عن أى شئ ضحكت ؟ » قالوا : يا رسول الله ، من أى شئ ضحكت ؟ قال : « عَجِبتُ من مجادلة العبد ربَّه يوم القيامة ، يقول : أى ربى ، أليس وعدتنى أن لا تظلمنى ؟ قال : بلى . فيقول : فإنى لا أقبل علىَّ شاهدا إلا من نفسى . فيقول الله تبارك وتعالى : أو ليس كفى بى شهيدا ، وبالملائكة الكرام الكاتبين ؟ ! قال : فيردد هذا الكلام مرارا . قال : فيختم على فيه ، وتتكلم أركانه بما كان يعمل ، فيقول : بُعداً لكُنَّ وسُحقا ، عنكن كنت أجادل » .

ثم رواه هو وابن أبى حاتم (٢) ، من حديث أبى عامر الأسدى ، عن الثورى ، عن عُبَيْد المكتب ، عن فُضَيْل ابن عمرو ، عن الشعبى . ثم قال : « لا نعلم رواه عن أنس غير الشعبى » . وقد أخرجه مسلم (٣) والنسائى جميعا عن أبى بكر ابن أبى النضر ، [عن أبى النضر] ، عن عُبَيْد الله بن عبد الرحمن الأشجعى ، عن الثورى ، به . ثم قال النسائى : « لا أعلم أحداً رواه عن الثورى غير الأشجعى » . وليس كما قال كما رأيت ، والله أعلم .

---

(١) سورة مريم ، آية : ٨٦ .

(٢) تقدمت رواية ابن أبى حاتم عند تفسير الآية الرابعة والعشرين من سورة النور : ٣٤/٦ ، والآية الخامسة والستين من سورة « يس » : ٥٧٢/٦ .

(٣) انظر التعليق السابق ، فقد أخرجنا حديث مسلم هنالك .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن إبراهيم ، حدثنا إسماعيل ابن عُلَيّة ، عن يونس بن عُبَيْد ، عن حُمَيْد بن هلال قال : قال أبو بردة : قال أبو موسى : ويدعى الكافر والمنافق للحساب ، فيَعرض عليه ربه ــ عز وجل ــ عمله ، فيجحد ويقول : أىْ ربّ ، وعزتك لقد كتب على هذا الملك ما لم أعمل ! فيقول له الملك : أما عملت [كذا] ، فى يوم كذا ، فى مكان كذا ؟ فيقول : لا وعزتك ، أىْ رب ما عملته ، فإذا فعل ذلك خُتِم على فيه ــ قال الأشعرى : فإنى لأحسب أول ما ينطق منه فخذه (١) اليمنى .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا زهير ، حدثنا حسن ، عن ابن لهيعة : قال دراج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم القيامة ، عُرِّف الكافر بعمله ، فجحد وخاصم ، فيقال : هؤلاء جيرانك يشهدون عليك ؟ فيقول : كذبوا . فيقول : أهلك عشيرتك ؟ فيقول : كذبوا . فيقول : احلفوا . فيحلفون ، ثم يصمتهم الله وتشهد [عليهم] ألسنتهم ، ويدخلهم النار (٢) » .

وقال ابن أبى حاتم : وحدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن إبراهيم ، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث : سمعت أبى : حدثنا على بن زيد ، عن مسلم بن صُبَيح أبى الضُّحى ، عن ابن عباس : أنه قال لابن الأزرق : إن يوم القيامة يأتى على الناس منه حين ، لا ينطقون ولا يعتذرون ولا يتكلمون حتى يؤذن لهم ، ثم يؤذن لهم فيختصمون ، فيجحد الجاحد بشركه بالله ، فيحلفون له كما يحلفون لكم ، فيبعث الله عليهم حين يجحدون شهداء من أنفسهم ، جلودَهم وأبصارَهم وأيديَهم وأرجلَهم ، ويختم على أفواههم ، ثم يفتح لهم الأفواه فتخاصم الجوارحَ ، فتقول : (أنطقنا الله الذى أنطق كل شىْ ، وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون) ، فتقر الألسنة بعد الجحود .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عَبْدَة بن سليمان ، حدثنا ابن المبارك ، حدثنا صفوان بن عمرو ، عن عبد الرحمن ابن جُبَيْر الحضرمى ، عن رافع أبى الحسن ــ وَصَف رجلا جحد ــ قال : فيشير الله إلى لسانه ، فيربو فى فمه حتى يملأه ، فلا يستطيع أن ينطق بكلمة ، ثم يقول لآرابه (٣) كلها : تكلمى واشهدى عليه . فيشهد عليه سمعه وبصره وجلده ، وفرجه ويداه ورجلاه : صنعنا ، عملنا ، فعلنا .

وقد تقدم أحاديث كثيرة ، وآثار عند قوله تعالى فى سورة يس : (اليوم نختم على أفواههم ، وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) ، بما أغنى عن إعادته هاهنا .

وقال ابن أبى حاتم ــ رحمه الله ــ حدثنا أبى ، حدثنا سُوَيد بن سعيد ، حدثنا يحيى بن سُلَيم الطائفى ، عن ابن خُثَيم ، عن أبى الزبير ، عن جابر بن عبد الله قال : لما رَجَعَت إلى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ مُهَاجِرَةُ البحر قال : « ألا تحدثون بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة ؟ » فقال فتية منهم : بلى يا رسول الله ، بينا نحن جلوس إذ مرت علينا عجوز من

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية الخامسة والستين من سورة « يس » من رواية الطبرى عن يعقوب بن إبراهيم ، عن ابن علية ، به . انظر : ٥٧٣/٦ .

(٢) تقدم الحديث عند تفسير آية « النور » ، من رواية ابن جرير وابن أبى حاتم ، كلاهما عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن دراج ، به نحوه ، انظر : ٣٣/٦ .

(٣) أى : أعضائه .

عجائز رهابينهم ، تحمل على رأسها قلة من ماء ، فمرت بفتى منهم ، فجعل إحدى يديه بين كتفيها ، ثم دفعها فخرت على ركبتيها ، فانكسرت قلتها . فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت : سوف تعلم يا غُدَر إذا وضع الله الكرسى ، وجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدى والأرجل بما كانوا يكسبون ، فسوف تعلم كيف أمرى وأمرك عنده غدا ؟ قال : يقول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « صَدَقَتْ ، صدقت ، كيف يُقَدِّس (١) الله قوما لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم ؟ » ؛

هذا حديث غريب من هذا الوجه . ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الأهوال : أخبرنا إسحاق بن إبراهيم قال : أخبرنا يحيى بن سليم ، به (٢) .

وقوله : (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) ، أى : تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم : ما كنتم تتكتمون منا الذى كنتم تفعلونه ، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصى ، ولا تبالون منه فى زعمكم ، لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم ، ولهذا قال : (ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون * وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم) ، أى : هذا الظن الفاسد — وهو اعتقادكم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون — هو [الذى] أتلفكم وأرداكم عند ربكم ، (فأصبحتم من الخاسرين) ، أى : فى مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم ؛

قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن عُمَارة ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن عبد الله قال : كنت مستترا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر : قرشى ، وخَتَنَاه (٣) ثقفيّان — أو : ثقفى وخَتَنَاه قُرَشيّان — كثير شحم بطونهم ، قليل فقه قلوبهم . فتكلموا بكلام لم أسمعه ، فقال أحدهم : أترَوْنَ أن الله يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخر : إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه ، وإذا لم نرفعه لم يسمعه . فقال الآخر : إن سمع منه شيئا سَمِعه كله . قال : فذكرت ذلك للنبى — صلى الله عليه وسلم — فأنزل الله عز وجل : (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) ، إلى قوله : (من الخاسرين (٤)) .

وكذا رواه الترمذى عن هَنّاد ، عن أبى معاوية ، بإسناده نحوه (٥) . وأخرجه أحمد ومسلم والترمذى أيضا ، من حديث سفيان الثورى ، عن الأعمش ، عن عُمَارة بن عُمَير ، عن وهب بن ربيعة ، عن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — بنحوه (٦) . ورواه البخارى ومسلم أيضا ، من حديث السفيانين ، عن منصور ، عن مجاهد ، عن أبى معمر عبد الله بن سَخْبَرة ، عن ابن مسعود ، به (٧) .

---

(١) أى : يطهرهم من الدنس والآثام .

(٢) ورواه ابن ماجه فى كتاب الفتن من سننه ، باب « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الحديث ٤٠١٠ ، عن سويد بن سعيد بإسناده مثله . انظر : ١٣٢٩/٢ .

(٣) الختن — بفتح فسكون — : زوج البنت .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٣٨١/١ .

(٥) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة « حم . السجدة » ، الحديث ٣٣٠١ : ١٢٣/٩ ، وقال : « هذا حديث حسن » .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٤٠٨/١ . ومسلم ، كتاب صفات المنافقين : ١٢١/٨ . و تحفة الأحوذى ، الكتاب المتقدم ، الحديث ٣٣٠٢ : ١٢٤/٩ .

(٧) البخارى ، تفسير سورة « حم . السجدة : ١٦١/٦ — ١٦٢ . ومسلم ، كتاب صفة المنافقين : ١٢١/٨ .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ في قوله : (أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) ، قال : « إنكم تُدعَون مُفَدَّماً على أفواهكم بالفِدام ، فأول شئ يبين عن أحدكم فخذه وكفه (١) » .

قال معمر : وتلا الحسن : (وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم) ، ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله : أنا مع عبدى عند ظنه بى ، وأنا معه إذا دعانى » ، ثم افترّ الحسن (٢) ينظر فى هذا ، فقال : ألا إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم ، فأما المؤمن فأحسنَ الظنّ بربه فأحسنَ العملَ ، وأما الكافر والمنافق فأساءا الظنّ بالله فأساءا العمل . ثم قال : قال الله تعالى : (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم) ، إلى قوله : (وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا النضر بن إسماعيل القاص ــ وهو أبو المغيرة ــ حدثنا ابن أبى ليلى ، عن أبى الزبير ، عن جابر قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن ، فإن قوما [قد] أرداهم سوء ظنهم بالله ، فقال الله تعالى : (وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم ، فأصبحتم من الخاسرين (٣)) .

وقوله : (فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) ، أى : سواء عليهم أصبروا أم لم يصبروا هم فى النار ، لا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها . وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذارا فما لهم أعذار ، ولا تقال لهم عثرات .

قال ابن جرير : ومعنى قوله : (وإن يستعتبوا) ، أى : يسألوا الرجعة إلى الدنيا ، فلا جواب لهم ــ قال : وهذه كقوله تعالى إخبارا عنهم : (قالوا : ربنا ، غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين * ربنا أخرجنا منها ، فإن عدنا فإنا ظالمون * قال : اخسئوا فيها ولا تكلمون (٤)) .

* وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

يذكر تعالى أنه هو [الذى] أضل المشركين ، وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته ، وهو الحكيم فى أفعاله ، بما قيّض لهم من القُرَناء من شياطين الإنس والجن : (فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم) ، أى : حسّنوا لهم أعمالهم فى الماضى ، وبالنسبة

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية الخامسة والستين من سورة « يس » : ٦/٥٧٢ ، وانظر تعليقنا هنالك على غريبه .
(٢) أى : تبسم حتى بدت أسنانه من غير قهقهة .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/٣٩٠ ــ ٣٩١ .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٤/٧٠ ــ ٧١ .

إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين ، كما قال تعالى : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) (١) .

وقوله تعالى : (وحق عليهم القول) ، أى : كلمة العذاب كما حَقّ على أمم قد خلت من قبلهم ، ممن فعل كفعلهم ، من الجن والإنس ، (إنهم كانوا خاسرين) ، أى : استَوَوا هم وإياهم فى الخَسَار والدّمار .

وقوله تعالى : (وقال الذين كفروا : لا تسمعوا لهذا القرآن) ، أى : تواصوا فيما بينهم أن لا يطيعوا للقرآن ، ولا ينقادوا لأوامره ، (والغوا فيه) ، أى : إذا تُلِى لا تستمعوا له . كما قال مجاهد : (والغوا فيه) ، يعنى بالمُكَاء والصفير والتخليط فى المنطق على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا قرأ القرآن قريش تفعله (٢) .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : (والغوا فيه) : عَيِّبوه .

وقال قتادة : اجحدوا به ، وأنكروه وعادوه .

(لعلكم تغلبون) : هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار ، ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن . وقد أمر الله – سبحانه – عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال : (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون)(٣) .

ثم قال تعالى : منتصرا للقرآن ، ومنتقما ممن عاداه من أهل الكفران : (فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا) ، أى : فى مقابلة ما اعتمدوه فى القرآن وعند سماعه ، (ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون) ، أى : بشر أعمالهم ، وسَيِّئِ أفعالهم (ذلك جزاء أعداء الله النار ، لهم فيها دار الخلد ، جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون ، وقال الذين كفروا : ربنا ، أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين) .

قال سفيان الثورى ، عن سلَمَة بن كُهَيل ، عن مالك بن الحُصَين الفَزَارى ، عن أبيه ، عن على رضى الله عنه فى قوله : (اللذين أضلانا) ، قال : إبليس وابن آدم الذى قتل أخاه (٤) .

وهكذا روى حَبَّة العُرَنى (٥) عن على ، مثل ذلك .

وقال السدى ، عن على : فإبليس يدعو به كلّ صاحب شرك ، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة ، فإبليس – لعنه الله – هو الداعى إلى كل شر من شرك فما دونه وابن آدم الأول . كما ثبت فى الحديث : « ما قُتلت نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها ، لأنه أول من سن القتل (٦) » .

---

(١) سورة الزخرف ، آية : ٣٦ – ٣٧ .
(٢) تفسير الطبرى : ٧١/٢٤ .
(٣) سورة الأعراف ، آية : ٢٠٤ .
هذا وقد كان للقرآن الكريم تأثير قوى على المشركين ، وكانوا يتوقون هذا التأثير بإحداث الضجيج والصفير عند تلاوة المسلمين له ، فعاب الله تعالى – هذا الصنيع ، وهددهم بالعذاب الشديد عليه .
(٤) تفسير الطبرى : ٧٢/٢٤ .
(٥) فى تفسير الطبرى ٧٢/٢٤ : « العوفى » . وهو خطأ .
(٦) تقدم الحديث عند الآية التاسعة والعشرين من سورة المائدة ، وخرجناه هنالك . انظر : ٨٣/٣ .

وقوله : (نجعلها تحت أقدامنا) ، أى : أسفل منا فى العذاب ليكونا أشد عذاباً منا ، ولهذا قالوا : (ليكونا من الأسفلين) أى : فى الدرك الأسفل من النار ، كما تقدم فى « الأعراف » من سؤال الأتباع من الله أن يعذب قادتهم أضعافَ عذابهم ، قال : (لكل ضعف ولكن لا تعلمون (١)) ، أى : إنه تعالى قد أعطى كلا منهم ما يستحقه من العذاب والنكال ، بحسب عمله وإفساده ، كما قال تعالى : (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون (٢)) .

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢)

يقول تعالى : (إن الذين قالوا : ربنا الله ، ثم استقاموا) ، أى : أخلصوا العمل لله ، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم .

قال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا الجراح ، حدثنا سَلْم بن قتيبة أبو قتيبة الشَّعيرى ، حدثنا سُهَيل بن أبى حَزْم حدثنا ثابت ، عن أنس بن مالك قال : قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : (إن الذين قالوا : ربنا الله ، ثم استقاموا) ، قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم ، فمن قالها حتى يموت فقد استقام عليها .

وكذا رواه النسائى فى تفسيره ، والبزار وابن جرير ، عن عمرو بن على الفلاس ، عن سَلْم (٣) بن قتيبة ، به . وكذا رواه ابن أبى حاتم ، عن أبيه ، عن الفلاس ، به . ثم قال ابن جرير :

حدثنا ابن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان، عن أبى إسحاق، عن عامر بن سعد ، عن سعيد بن نمْران(٤) قال : قرأت عند أبى بكر الصديق هذه الآية : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) ، قال : هم الذين لم يشركوا بالله شيئا .

ثم روى من حديث الأسود بن هلال قال: قال أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ ما تقولون فى هذه الآية : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) ؟ قال: فقالوا (ربنا الله ثم استقاموا) من ذنب . فقال : لقد حملتموها على غير المحمل ، (قالوا : ربنا الله ثم استقاموا) ، فلم يلتفتوا إلى إله غيره (٥) .

(١) سورة الأعراف ، آية : ٣٨ .
(٢) سورة النحل ، آية : ٨٨ .
(٣) فى تفسير الطبرى ٢٤/٧٣ : « سالم » . وهو خطأ .
(٤) فى تفسير الطبرى : « سعيد بن عمران » . وهو خطأ ، انظر ترجمته فى أسد الغابة : ٢/٣٩٩ ــ ٤٠٠ بتحقيقنا .
(٥) تف[illegible] ٢٤/٧٣

وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، والسدى ، وغير واحد .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو عبد الله الظّهرانى ، أخبرنا حفص بن عمر العَدَنىّ ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة قال: سئل ابن عباس — رضى الله عنهما — أىّ آية فى كتاب الله أرخص ؟ قال قوله : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) على شهادة أن لا إله إلا الله .

وقال الزهرى : تلا عمر هذه الآية على المنبر ، ثم قال : استقاموا — والله — لله بطاعته ، ولم يروغوا رَوَغان الثعالب .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (قالوا: ربنا الله ثم استقاموا) على أداء فرائضه (١) . وكذا قال قتادة . قال : وكان الحسن يقول : اللهم ، أنت ربنا ، فارزقنا الاستقامة .

وقال أبو العالية : (ثم استقاموا) : أخلصوا له العمل والدين .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هشيم ، حدثنا يعلى بن عطاء ، عن عبد الله بن سفيان الثقفى ، عن أبيه ، : أن رجلا قال : يا رسول الله ، مرنى بأمر فى الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال : « قل : آمنت بالله ، ثم استقم » . قلت : فما أتقى ؟ فأومأ إلى لسانه (٢) .

ورواه النسائى من حديث شعبة ، عن يعلى بن عطاء ، به .

ثم قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا إبراهيم بن سعد ، حدثنى ابن شهاب ، عن محمد بن عبد الرحمن ابن ماعز الغامدى ، عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت : يا رسول الله ، حدثنى بأمر أعتصم به . قال : « قل : ربى الله ، ثم استقم » . قلت : يا رسول الله ، ما أكثر ما تخاف على ؟ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بطرف لسان نفسه ، ثم قال : « هذا (٣) » .

وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه ، من حديث الزهرى ، به . وقال الترمذى : « حسن صحيح (٤) » . وقد أخرجه مسلم فى صحيحه والنسائى ، من حديث هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت : يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال : « قل : آمنت بالله، ثم استقم (٥) » . وذكر تمام الحديث .

وقوله : (تتنزل عليهم الملائكة) — قال مجاهد(٦) ، والسدى ، وزيد بن أسلم ، وابنه : يعنى عند الموت قائلين (أن لا تخافوا) — قال مجاهد، وعكرمة ، وزيد بن أسلم : أى مما تقدمون عليه من أمر الآخرة ، (ولا تحزنوا) ، على ما خلفتموه من أمر الدنيا ، من ولد وأهل ، ومال أودين، فإنا نَخْلُفكم فيه ، (وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) فيبشرونهم بذهاب الشر [وحصول الخير] .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٤/٧٣ — ٧٤ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٤/٣٨٤ — ٣٨٥ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/٤١٣ .

(٤) تحفة الأحوذى ، أبواب الزهد ، باب « ما جاء فى حفظ اللسان » ، الحديث ٢٥٢٢ : ٧/٩١ . وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب « كف اللسان فى الفتنة » ، الحديث ٣٩٧٢ : ٢/١٣١٤ .

(٥) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « جامع أوصاف الإسلام » : ١/٤٧ .

(٦) انظر تفسير الطبرى : ٢٤/٧٤ .

وهذا كما فى حديث البراء(١) — رضى الله عنه — : « إن الملائكة تقول لروح المؤمن : اخرجى أيتها الروح الطيبة فى الجسد الطيب كنت تعمرينه ، اخرجى إلى رَوح وريحان ، ورب غير غضبان » .

وقيل : إن الملائكة تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم . حكاه ابن جرير(٢) عن ابن عباس ، والسدى .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبد السلام بن مطهر ، حدثنا جعفر بن سليمان : سمعت [ثابتا] قرأ سورة « حم . السجدة » ، حتى بلغ : (إن الذين قالوا : ربنا الله ، ثم استقاموا ، تتنزل عليهم الملائكة) . فوقف فقال : بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله من قبره يتلقاه الملكان اللذان كانا معه فى الدنيا ، فيقولان له : لا تخف ولا تحزن ، (وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) . قال : فيؤمن الله خوفه ، ويُقِرّ عينه ، فما عظيمة يَخْشَى الناس يوم القيامة إلا هى للمؤمن قُرّة عين ، لما هَدَاه الله ، ولما كان يعمل له فى الدنيا .

وقال زيد بن أسلم : يبشرونه عند موته ، وفى قبره ، وحين يبعث . رواه ابن أبى حاتم .

وهذا القول يجمع الأقوال كلها ، وهو حسن جدا ، وهو الواقع .

وقوله : (نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) ، أى : تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار : نحن كنا أولياءكم ، أى : قرناءكم فى الحياة الدنيا ، نُسدّدكم ونوفقكم ، ونحفظكم بأمر الله ، وكذلك نكون معكم فى الآخرة نُؤْنِسُ منكم الوحشة فى القبور ، وعند النفخة فى الصُّور ، ونؤمنكم يوم البعث والنشور ، ونجاوزبكم الصراط المستقيم ، ونوصلكم إلى جنات النعيم . (ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم) ، أى : فى الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس ، وتقر به العيون ، (ولكم فيها ما تدعون) ، [أى : مهما طلبتم وجدتم ، وحضر بين أيديكم كما اخترتم] ، (نزلا من غفور رحيم) ، [أى : ضيافة وعطاء وإنعاما من غفور لذنوبكم ، رحيم بكم رءوف ، حيث غفر ، وستر ، ورحم ولطف] .

وقد ذكر ابن أبى حاتم هاهنا حديث « سُوق الجنة » عند قوله تعالى : (ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم) ، فقال :

حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمّار ، حدثنا عبد الحميد بن حَبِيب بن أبى العشرين أبى سعيد ، حدثنا الأوزاعى ، حدثنى حَسّان بن عطية ، عن سعيد بن المسيب : أنه لقى أبا هريرة ، فقال : أبو هريرة : نسأل الله أن يجمع بينى وبينك فى سُوق الجنة . فقال سعيد : أوَ فيها سوق؟ قال : نعم ، أخبرنى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن أهل الجنة إذا دخلوا فيها ، نزلوا بفضل أعمالهم ، فيؤذن لهم فى مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون الله — عز وجل — ويبرز لهم عرشه ، ويتبدّى لهم فى روضة من رياض الجنة . وتوضع لهم منابر من نور ، ومنابر من لؤلؤ ، ومنابر من ياقوت ، ومنابر من زبرجد ، ومنابر

---

(١) ليس هذا من حديث البراء ، وإنما هو من حديث أبى هريرة ، وقد تقدم تخريجه عند تفسير الآية الثانية والستين من سورة الأنعام ، انظر : ٣/٢٦٢ — ٢٦٣ . وأما حديث البراء بن عازب فلفظه على غير هذا اللفظ ، وقد تقدم عند تفسير الآية الأربعين من سورة الأعراف ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٣/٤٠٨ — ٤٠٩ .

(٢) انظر تفسير الطبرى ٢٤/٧٤ .

من ذهب ، ومنابر من فضة ، ويجلس أدناهم وما فيهم دَنِيء(١) على كُثبان المسك والكافور ، ما يُرَوْنَ بأن أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلسا .

قال أبو هريرة : قلت : يا رسول الله ، وهل نرَى ربنا ؟ قال : « نعم ، [هل تتمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر ؟ » قلنا : لا . قال صلى الله عليه وسلم : « فكذلك لاتتمارون في رؤية ربكم تعالى] ، ولا يبقى في ذلك المجلس أحد إلا حاضره (٢) الله محاضرة ، حتى إنه ليقول للرجل منهم : يا فلان بن فلان ، أتذكر يوم عملت كذا وكذا ؟ — يذكّره ببعض غَدَرَاته في الدنيا — فيقول : أيْ ربِّ ، أفلم تغفر لى ؟ فيقول : بلى ، فبسعة مغفرتى بلغتَ منزلتك هذه . قال : فبينا هم على ذلك ، غشيتهم سحابة من فوقهم ، فأمطرت عليهم طيباً لم يجدوا مثل ريحه شيئاً قط . قال : ثم يقول ربنا — عز وجل — : قوموا إلى ما أعددتُ لكم من الكرامة ، وخذوا ما اشتهيتم . قال : فنأتى سوقا قد حفَّت به الملائكة ، فيها ما لم تنظر العيون إلى مثله ، ولم تسمع الآذانُ ، ولم يخطر على القلوب . قال : فيحمل لنا ما اشتهينا ، ليس يباع فيه شيءٌ ولا يشترى ، وفى ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضُهم بعضاً . قال : فيُقْبِلُ الرجل ذو المنزلة الرفيعة ، فيلقى من هو دونه — وما فيهم دَنِيءٌ فيَرُوعه ما [يرى] عليه من اللباس ، فما ينقضى [آخر] حديثه حتى يتمثّل عليه أحسن منه ، وذلك لأنه لا ينبغى لأحد أن يحزن فيها .

ثم ننصرف إلى منازلنا ، فيتلقانا أزواجنا فيقلن : مرحبا وأهلا بحبيبنا ، لقد جئت وإن بك من الجمال والطيب أفضل مما فارقتنا عليه . فيقول : إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار — عز وجل — ويحقنا أن ننقلب بمثل ما انقلبنا به .

وقد رواه الترمذى فى « صفة الجنة » من جامعه ، عن محمد بن إسماعيل ، عن هشام بن عمار ، ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار ، به نحوه . ثم قال الترمذى : « هذا حديث غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه (٣) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن أبى عدى ، عن حُميد ، عن أنس قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » . قلنا : يا رسول الله ، كلنا نكره الموت؟ قال : « ليس ذلك كراهية الموت ، ولكن المؤمن إذا حُضِر (٤) جاءه البشر من الله بما هو صائر إليه ، فليس شيءٌ أحبّ إليه من أن يكون قد لقى الله فأحب الله لقاءه — قال : وإن الفاجر — أو الكافر — إذا حُضِر جاءه بما هو صائر إليه من الشر — أو : ما يلقى من الشر — فكره لقاء الله ، فكره الله لقاءه (٥) » .

وهذا حديث صحيح ، وقد ورد فى الصحيح من غير هذا الوجه (٦) .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

يقول تعالى : (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله) ، أى : دعا عبادَ الله إليه ، (وعمل صالحا ، وقال : إننى من المسلمين

---

(١) أى : خسيس .

(٢) المراد من المحاضرة : كشف الحجاب والمقاولة مع العبد من غير حجاب ولا ترجمان .

(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب صفة الجنة ، باب « ما جاء فى سوق الجنة » ، الحديث ٢٦٧٣ : ٧/٢٥٩ — ٢٦٣ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « صفة الجنة » ، الحديث ٤٣٣٦ : ٢/١٤٥٠ — ١٤٥٢ .

(٤) أى : حضره الموت .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣/١٠٧ .

(٦) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « من أحب لقاء الله ، أحب الله لقاءه » : ٨/١٣٢ . ومسلم ، كتاب الذكر ، باب « من أحب لقاء الله ، أحب الله لقاءه » : ٨/٦٥ — ٦٦ .

أى : وهو فى نفسه مهتد بما يقوله ، فنفعُه لنفسه ولغيره لازم ومتعد ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه ، وينهون عن المنكر ويأتونه ، بل يأتمر بالخير ويترك الشر ، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى . وهذه عامة فى كل من دعا إلى خير ، وهو فى نفسه مهتد ، ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — أولى الناس بذلك ، كما قال محمد بن سيرين ، والسدى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقيل : المراد بها المؤذنون الصلحاء ، كما ثبت فى صحيح مسلم : « المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة (١) » : وفى السنن مرفوعا : « الإمام ضامن (٢) ، والمؤذن مؤتمن ، فأرشد الله الأئمة ، وغفر للمؤذنين (٣) » :

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا محمد بن عروبة (٤) الهروى ، حدثنا غسان قاضى هراة — وقال أبو زرعة : حدثنا إبراهيم بن طهمان ، عن مطر ، عن الحسن ، عن سعد بن أبى وقاص أنه قال : « سهام المؤذنين عند الله يوم القيامة كسهام المجاهدين ، وهو بين الأذان والإقامة كالمتشحّط(٥) فى سبيل الله فى دمه » :

قال : وقال ابن مسعود : « لو كنت مؤذنا ما باليت أن لا أحج ولا أعتمر ولا أجاهد » :

قال : وقال عمر بن الخطاب : لو كنت مؤذنا لكَمُلَ أمرى ، وما باليت أن لا أنتصب لقيام الليل ولا لصيام النهار ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم اغفر للمؤذنين ثلاثا ، قال : فقلت : يا رسول الله ، تركتنا ونحن نتجتلدُ على الأذان بالسيوف . قال : « كلا يا عمر ، إنه يأتى على الناس زمان يتركون [الأذان] على ضُعَفائهم ، وتلك لحوم حرمها الله على النار ، لحوم المؤذنين » .

قال : وقالت عائشة : ولهم هذه الآية : (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا ، وقال : إننى من المسلمين) ، قالت : فهو المؤذن إذا قال « حى على الصلاة » فقد دعا إلى الله .

وهكذا قال ابن عمر ، وعكرمة : إنها نزلت فى المؤذنين .

وقد ذكر البغوى عن أبى أمامة الباهلى — رضى الله عنه — أنه قال فى قوله : (وعمل صالحا) ، قال : يعنى صلاة ركعتين بين الأذان والإقامة .

---

(١) مسلم ، كتاب الصلاه ، باب « فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه » : ٢/٥ . وابن ماجه ، باب « فضل الأذان وثواب المؤذنين » ، الحديث ٧٢٥ : ١/٢٤٠ . ومسند الإمام أحمد عن أنس بن مالك: ٣/١٦٩ ، ٢٦٤ . وعن معاوية : ٤/٩٥ ، ٩٨ .

(٢) أى : أن صلاة المقتدين به فى عهدته ، وصحتها مقرونة بصحة صلاته ، فهو المتكفل لهم صحة صلاتهم . وأما المؤذن فهو أمين على مواقيت الصلاة . وقيل : أمين على حرم الناس ، لأنه يشرف على المواضع العالية .

(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب الصلاة ، باب « ما جاء أن الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن » ، الحديث ٢٠٧ : ١/٦١٣ — ٦١٥ . ومسند الإمام أحمد عن أبى هريرة : ٢/٢٣٢ ، ٢٨٤ . وعن أبى أمامة : ٥/٢٦٠ . وعن عائشة : ٦/٦٥ .

(٤) كذا فى مخطوطة الأزهر ، ولم تقع لنا ترجمته .

(٥) أى : المتمرغ .

ثم أورد البغوى حديث « عبد الله بن المُغَفَّل » قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « بين كل أذانين صلاة » . ثم قال فى الثالثة : « لمن شاء » – وقد أخرجه الجماعة (١) فى كتبهم ، من حديث عبد الله بن بُرَيدة ، عنه وحديث الثورى ، عن زيد العَمّى ، عن أبى إياس معاوية بن قرة ، عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – قال الثورى : لا أراه إلا وقد رفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم : « الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة » .

ورواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى فى « اليوم والليلة » ، كلهم من حديث الثورى ، به . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن (٢) » . ورواه النسائى أيضا من حديث سليمان التيمى ، عن قتادة ، عن أنس ، به .

والصحيح أن الآية عامة فى المؤذنين وفى غيرهم ، فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعا بالكلية ، لأنها مكية ، والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة ، حين أُرِيَهُ عبد الله بن زيد بن عبد رَبّه الأنصارى فى منامه ، فقصَّه على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأمره أن يلقيه على بلال فإنه أندى صوتا ، كما هو مقرر فى موضعه (٣) فالصحيح إذاً أنها عامة ، كما قال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الحسن البصرى : أنه تلا هذه الآية : (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا ، وقال : إننى من المسلمين) ، فقال : هذا حبيب الله ، هذا ولى الله ، هذا صفوة الله ، هذا خِيَرَةُ الله ، هذا أحبّ أهل الأرض إلى الله ، أجابَ اللهَ فى دعوته ، ودعا الناسَ إلى ما أجاب الله [فيه من] دعوته ، وعمل صالحا فى إجابته ، وقال : إننى من المسلمين ، هذا خليفة الله .

وقوله : (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة) ، أى : فرق عظيم بين هذه وهذه ، (ادفع بالتى هى أحسن) ، أى : من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه ، كما قال عمر : ما عاقبت من عَصَى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه .

وقوله : (فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) ، وهو الصديق ، أى : إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنةُ إليه إلى مصافاتك ومحبتك ، والحنوّ عليك ، حتى يصير كأنه وَلِىّ لك حَميم ، أى : قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك .

ثم قال : (وما يلقاها إلا الذين صبروا) ، أى : وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر [على] ذلك ، فإنه يشق على النفوس ، (وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) ، أى : ذو نصيب وافر من السعادة فى الدنيا والأخرى .

---

(١) البخارى ، كتاب الأذان ، باب « كم بين الأذان والإقامة ، ومن ينتظر الإقامة » : ١٦١/١ ، وباب « بين كل أذانين صلاة لمن شاء » : ١٦١/١ – ١٦٢ . ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب « بين كل أذانين صلاة » : ٢١٢/٢ . وسنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « الصلاة قبل المغرب » . والنسائى ، كتاب الأذان ، باب « الصلاة بين الأذان والإقامة » : ٢٨/٢ . وابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب « ما جاء فى الركعتين قبل المغرب » ، الحديث ١١٦٢ : ٣٦٨/١ . ومسند الإمام أحمد عن عبد الله بن المغفل : ٨٦/٤ ، ٥٤/٥ ، ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) تحفة الأحوذى ، أبواب الصلاة ، باب « ما جاء أن الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة » ، الحديث ٢١٢ : ٦٢٤/١ – ٦٢٥ . وسنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « فى الدعاء بين الأذان والإقامة » . ومسند الإمام أحمد : ١١٩/٣ .

(٣) انظر ترجمة « عبد الله بن زيد الأنصارى » فى أسد الغابة : ٢٤٧/٣ – ٢٤٩ بتحقيقنا . وحديث رؤياه فى تحفة الأحوذى ، كتاب الصلاة ، باب « بدء الأذان » ، الحديث ١٨٩ : ٥٦٣/١ – ٥٦٦ .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم كأنه ولى حميم (١) .

وقوله : (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله) ، أى : إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه ، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذى سلطه عليك ، فاذا استعذت بالله ولجأت إليه ، كفه عنك ورد كيده . وقد كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : إذا قام إلى الصلاة يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه (٢) » .

وقد قدمنا أن هذا المقام لانظير له فى القرآن إلا فى « سورة الأعراف » عند قوله تعالى : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم (٣)) ، وفى سورة المؤمنين عند قوله : (ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون * وقل : رب أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون (٤)) .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ ۩ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى منبها خلقه على قدرته العظيمة ، وأنه الذى لا نظير له ، وأنه على ما يشاء ، قادر ، (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر) ، أى : إنه خلق الليل بظلامه ، والنهار بضيائه ، وهما متعاقبان لا يقران ، والشمس ونورها وإشراقها ، والقمر وضياءه وتقدير منازله فى فلكه ، واختلاف سيره فى سمائه ، ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار ، والجمع والشهور والأعوام ، ويتبين بذلك حلول الحقوق ، وأوقات العبادات والمعاملات .

ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة فى العالم العلوى والسفلى ، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده ، تحت قهره وتسخيره ، فقال : (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) ، أى : ولا تشركوا به ، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره ، فإنه لا يغفر أن يشرك به . ولهذا قال : (فإن استكبروا) ، أى : عن إفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره ، (فالذين عند ربك) ، يعنى الملائكة (يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون) . كقوله : (فإن يكفر بها هؤلاء ، فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٧٦/٢٤ .

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية السابعة والتسعين من سورة « المؤمنون » ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٤٨٥/٥ .

(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٩٩ ــ ٢٠٠ ، وانظر فيما تقدم : ٥٣٤/٣ ــ ٥٣٨ .

(٤) سورة « المؤمنون » ، آية : ٩٧ ــ ٩٨ ، وانظر أيضاً فيما تقدم : ٤٨٥/٥ ــ ٤٥٨٦ .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا سفيان – يعني ابن وكيع – حدثنا أبي ، عن ابن أبي ليلى ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « لا تسبوا الليل ولا النهار ، ولا الشمس ولا القمر ، ولا الرياح فإنها تُرسَل رحمةً لقوم ، وعذابا لقوم » .

وقوله : (ومن آياته) ، أي : على قدرته على إعادة الموتى (أنك ترى الأرض خاشعة) ، أي : هامدة لا نبات فيها ، بل هي ميتة ، (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) ، أي : أخرجت من جميل ألوان الزروع والثمار ، (إن الذى أحياها لمحيي الموتى ، إنه على كل شئ قدير) .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾

قوله : (إن الذين يلحدون فى آياتنا) – قال ابن عباس : الإلحاد : وضع الكلام على غير مواضعه (١) ؛ وقال قتادة ، وغيره : هو الكفر والعناد .

وقوله : (لا يخفون علينا) ، أي : فيه تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، أي : إنه تعالى عالم بمن يلحد فى آياته وأسمائه وصفاته ، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال . ولهذا قال : (أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة ؟) ، أي : أيستوى هذا وهذا ؟ لا يستويان .

[ثم قال – عز وجل – تهديدا للكفرة : (اعملوا ما شئتم) ، قال مجاهد ، والضحاك ، وعطاء الخراسانى : (اعملوا ما شئتم) . وعيد ، أي : من خير أو شر ، إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم . ولهذا قال : (إنه بما تعملون بصير)] .

ثم قال : (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم) – قال الضحاك ، والسدى ، وقتادة : وهو القرآن ، (وإنه لكتاب عزيز) ، أي : منيع الجناب ، لا يُرَام أن يأتي أحد بمثله ، (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) ، أي : ليس للبطلان إليه سبيل ، لأنه منزل من رب العالمين . ولهذا قال : (تنزيل من حكيم حميد) ، أي : حكيم فى أقواله وأفعاله ، حميد بمعنى محمود ، أي : فى جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمودةٌ عواقبه وغاياته .

ثم قال : (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك) – قال قتادة ، والسدى ، وغيرهما : ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك فكما قد كُذِّبتْ فقد كذبوا ، وكما صَبَرُوا على أذى قومهم [لهم] ، فاصبر أنت على أذى قومك لك . وهذا اختيار ابن جرير (٢) ، ولم يحك هو ، ولا ابن أبي حاتم غيره .

---

(١) تفسير الطبرى : ٧٨/٢٤ .
(٢) تفسير الطبرى : ٧٩/٢٤ .

وقوله : (إن ربك لذو مغفرة) ، أى : لمن تاب إليه ، (وذو عقاب أليم) ، أى : لمن استمر على كفره ، وطغيانه، وعناده ، وشقاقه ، ومخالفته .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، عن على بن زيد ، عن سعيد بن المسيب قال : [لما](١) نزلت هذه الآية : (إن ربك لذو مغفرة) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لولا عَفْوُ الله وتجاوزه ما هَنَأَ أحداً العيشُ ، ولولا وعيده وعقابه لا تكل كلّ أحد » .

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته ، وإحكامه فى لفظه ومعناه ، ومع هذا لم يؤمن به المشركون نبّه على أن كفرهم به كُفْرُ عناد وتعنت، كما قال : (ولو نزلناه على بعض الأعجمين . فقرأه عليهم ماكانوا به مؤمنين (٢)) . وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم ، لقالوا على وجه التعنت والعناد : (لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى) ، أى : لقالوا : هلا أنزل مفصلا بلغة العرب ، ولأنكروا ذلك وقالوا : أعجمى وعربى ؟ أى : كيف ينزل كلام أعجمى على مخاطب عربى لا يفهمه .

هكذا رُوى هذا المعنى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والسدى ، وغيرهم ؟

وقيل : المراد بقولهم : (لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى) أى : هَلاَّ أنزل بعضها بالأعجمى ، وبعضها بالعربى ؟

هذا قول الحسن البصرى ، وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام فى قوله (أعجمى (٣)) ، وهو رواية عن سعيد بن جبير : وهو فى العناد أبلغ ؟

ثم قال تعالى : (قل : هو للذين آمنوا هدى وشفاء) ، أى : قل يا محمد : هذا القرآن لمن آمن به هُدًى لقلبه ، وشفاء لما فى الصدور من الشكوك والريب ، (والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر) ، أى : لا يفهمون ما فيه ، (وهو عليهم عمى) ، أى : لا يهتدون إلى ما فيه من البيان . كما قال تعالى : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا (٤)) ؟

(أولئك ينادون من مكان بعيد) قال مجاهد : يعنى بعيد من قلوبهم ؟

قال ابن جرير : معناه كَأَنّ مَن يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد ، لا يفهمون ما يقول (٥) ؟

(١) ما بين القوسين زيادة أثبتناها ليستقيم السياق .
(٢) سورة الشعراء ، آية : ١٩٨ ــ ١٩٩ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٤/٨٠ ، والبحر المحيط لأبى حيان : ٧/٥٠٢ .
(٤) سورة الإسراء ، آية : ٨٢ .
(٥) انظر تفسير الطبرى : ٢٤/٨١ .

قلت : وهذا كقوله تعالى : (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون (١)) .

وقال الضحاك : ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم (٢) ؛

وقال السدى : كان عمر بن الخطاب جالساً عند رجل من المسلمين يقضى ، إذ قال : يالبَيّكاه : فقال عمر : لم تُلَبِّى ؟ هل رأيت أحدا ، أودعاك أحد ؟ قال : دعانى داع من وراء البحر . فقال عمر : أولئك ينادون من مكان بعيد : رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) ، أى : كذّب وأوذىَ ، (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل(٣))، (ولا كلمةٌ سَبَقت من ربك إلى أجل مسمى، (٤)) ، بتأخير الحساب إلى يوم المعاد ، (لقضى بينهم) ، أى : لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا ، (وإنهم لفى شك منه مريب) ، أى : وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا ، بل كانوا شاكين فيما قالوا، غير محققين لشىْ كانوا فيه . هكذا وجهه ابن جرير (٥) ، وهو محتمل . والله أعلم

مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ * إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى : (من عمل صالحا فلنفسه) ، [أى : إنما يعود نفع ذلك على نفسه] ، (ومن أساء فعليها) ، أى : إنما يرجع وبَالُ ذلك عليه ، (وما ربك بظلام للعبيد) ، أى : لا يعاقب أحدا إلا بذنب ، ولا يعذب أحدا إلا بعدقيام الحجة عليه ، وإرسال الرسول إليه .

ثم قال : (إليه يرد علم الساعة) ، أى : لا يعلم ذلك أحدٌ سواه ، كما قال صلى الله عليه وسلم ، وهو سيد البشر لجبريل وهو من سادات الملائكة — حين سأله عن الساعة ، فقال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل (٦) » . وكما قال تعالى : (إلى ربك منتهاها)(٧) . وقال : (لا يجليها لوقتها إلا هو)(٨) .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٧١ .
(٢) تفسير الطبرى : ٨١/٢٤ .
(٣) سورة الأحقاف ، آية : ٣٥ .
(٤) هذه آية الشورى : ١٤ .
(٥) تفسير الطبرى : ٨٢/٢٤ .
(٦) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٨٧ من سورة الأعراف ، وخرجناه هنالك . انظر ٣/٥٢٢ — ٥٢٣ .
(٧) سورة النازعات ، آية : ٤٤ .
(٨) سورة الأعراف ، آية : ١٨٧ .

وقوله : (وما تخرج من ثمرة (١) من أكمامها ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) ، أى : الجميع بعلمه ،لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . وقد قال تعالى : (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها (٢)) ، وقال جلت عظمته : (يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شئ عنده بمقدار (٣)) . وقال : (وما يعمر من معمر ، ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب ، إن ذلك على الله يسير (٤)) :

وقوله : (ويوم يناديهم أين شركائى ؟) ، أى : يوم القيامة ينادى الله المشركين على رءوس الخلائق : أين شركائى الذين عبدتموهم معى ؟ (قالوا : آذناك) ، أى : أعلمناك ، (ما منا من شهيد) ، أى : ليس أحد منا اليوم يشهد أن معك شريكا ، (وضل عنهم ماكانوا يدعون من قبل) ، أى : ذهبوا فلم ينفعوهم ، (وظنوا ما لهم من محيص) [أى : وظن المشركون يوم القيامة ، وهذا بمعنى اليقين] (ما لهم من محيص) ، أى : لا محيد لهم عن عذاب الله ، كقوله تعالى : (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ، ولم يجدوا عنها مصرفا (٥)) :

لَا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾

يقول تعالى : لا يَمَلّ الإنسان من دعائه ربّه بالخير ــ وهو : المال ، وصحة الجسم ، وغير ذلك ــ وإن مسه الشر ــ وهو : البلاء أو الفقر ــ (فيئوس قنوط) ، أى : يقع فى ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير .

(ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ، ليقولن : هذا لى) ، أى : إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان فى شدة ليقولن : هذا لى ، إنى كنت أستحقه عند ربى ، (وما أظن الساعة قائمة) ، أى : يكفر بقيام الساعة ، أى : لأجل أنه خُوّل نعمة يفخر ، ويبطر ، ويكفر ، كما قال تعالى : (كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى (٦)) .

(ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى) ، أى : ولئن كان ثَمّ معاد فليُحسنَنّ إلىّ ربى ، كما أحسن إلىّ فى هذه الدار ، يتمنّى على الله عز وجل مع إساءته العمل وعدم اليقين . قال الله تعالى : (فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ، ولنذيقنهم من عذاب غليظ) يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده ، بالعقاب والنكال .

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر « ثمرة » على الإفراد ، وهى قراءة أهل الكوفة . انظر تفسير الطبرى : ٢٥/٢ . والبحر المحيط لأبى حيان : ٧/٤٥٠ .
(٢) سورة الأنعام ، آية : ٥٩ .
(٣) سورة الرعد ، آية : ٨ .
(٤) سورة فاطر ، آية : ١١ .
(٥) سورة الكهف ، آية : ٥٣ .
(٦) سورة العلق ، آية : ٦ ، ٧ .

ثم قال : (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه) ، أى : أعرض عن الطاعة ، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله عز وجل ، كقوله تعالى : (فتولى بركنه (١)) .

(وإذا مسه الشر)، أى : الشدة، (فذو دعاء عريض)، أى : يطيل المسألة [فى الشئ الواحد] (٢) . فالكلام العريض : ما طال لفظه وقل معناه ، والوجيز : عكسه ، وهو : ما قل ودل . وقد قال تعالى : (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه (٣)) .. الآية .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى : (قل (يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن : (أرأيتم إن كان) هذا القرآن (من عند الله ثم كفرتم به ؟) أى : كيف ترون حالكم عند الذى أنزله على رسوله ؟ ولهذا قال : (من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ؟) ، أى: فى كفر وعناد ومشاقة للحق ، ومسلك بعيد من الهدى .

ثم قال : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) ، أى : سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقا منزلا من عند الله — عز وجل — على رسوله — صلى الله عليه وسلم — بدلائل خارجية (فى الآفاق) ، من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان .

قال مجاهد ، والحسن ، والسدى : ودلائل فى أنفسهم ، قالوا : وقعة بدر ، وفتح مكة ، ونحو ذلك من الوقائع التى حلت بهم ، نصر الله فيها محمدا وصحبه ، وخذل فيها الباطل وحزبه (٤) .

ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة ، كما هو مبسوط فى علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى . وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة ، من حسن وقبيح وبين ذلك ، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التى لا يقدر بحوله ، وقوته ، وحيله ، وحذره أن يجوزها ، ولا يتعداها ، كما أنشده ابن أبى الدنيا فى كتابه « التفكر والاعتبار » ، عن شيخه أبى جعفر القرشى :

وَإِذَا نَظَرْتَ تُرِيدُ مُعْتَبَرا ... فَانظُرْ إِلَيكَ فَفِيكَ مُعْتَبَرُ
أَنتَ الذى يُمْسِى وَيُصْبِحُ فى الـ ... ـدنيا وكُلُّ أُمُورِه عِبَرُ
أَنْتَ المصرَّفُ كانَ فى صِغَرٍ ... ثُمَّ استقَلَّ بِشَخْصِكَ الكِبَرُ

(١) سورة الذاريات ، آية : ٣٩ .
(٢) ما بين القوسين من الطبعات السابقة ، ومكانه فى مخطوطة الأزهر : « الذى يواخذ » .
(٣) سورة يونس ، آية : ١٢ .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٥/٤ .

أنتَ الذى تَنْعَاه خلقته يَنْعَاه منه الشَّعْرُ والبَشَرُ
أنتَ الذى تُعْطَى وتُسْلَبُ لا يُنْجيه منْ أنْ يُسْلَبَ الحَذَرُ
أنْتَ الذى لا شَىْءَ منه لَهُ وأحَقُّ منه بمَالِه القَدَرُ

وقوله تعالى : (حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد) ؟ أى : كفى بالله شهيدا على أفعال عباده وأقوالهم ، وهو يشهد أن محمدا صادق فيما أخبر به عنه ، كما قال : (لكن الله يشهد بما أنزل إليك ، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون (١)) .

وقوله : (ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم) ، أى : فى شك من قيام الساعة ، ولهذا لا يتفكرون فيه ، ولا يعملون له ، ولا يحذرون منه ، بل هو عندهم هَدَرٌ لا يعبأون به وهو واقع لا ريب فيه وكائن لا محالة .

قال ابن أبى الدنيا : حدثنا أحمد بن إبراهيم ، حدثنا خلف بن تميم ، حدثنا عبد الله بن محمد بن سعيد الأنصارى : أن عمر بن عبد العزيز صَعِد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، أيها الناس ، فإنى لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم ، ولكن فكرت فى هذا الأمر الذى أنتم إليه صائرون ، فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحمق ، والمكذب به هالك ثم نزل .

ومعنى قوله رضى الله عنه : « أن المصدق به أحمق » ، أى : لأنه لا يعمل له عمل مثله ، ولا يحذر منه ولا يخاف من هوله ، وهو مع ذلك مصدق به ، موقن بوقوعه ، وهو مع ذلك يتمادى فى لعبه وغفلته وشهواته وذنوبه ، فهو أحمق بهذا الاعتبار ، والأحمق فى اللغة : ضعيف العقل .

وقوله « والمكذب به هالك » : هذا واضح ، والله أعلم .

ثم قال تعالى مقررا على أنه على كل شىء قدير ، وبكل شىء محيط ، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه ـ تبارك وتعالى ـ : (ألا إنه بكل شىء محيط) ، أى : المخلوقات كلها تحت قهره وفى قبضته ، وتحت طى علمه ، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

---

(١) سورة النساء ، آية : ١٦٦ .

تفسير سورة الشورى

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ (١) عٓسٓقٓ (٢) كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٣) لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٥) وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٦)

قد تقدّم الكلام على الحروف [المقطعة (١)] . وقد روى ابن جرير هاهنا أثرا غريبا عجيبا منكرا ، فقال : حدثنا أحمد ابن زُهَير ، حدثنا عبد الوهاب بن نَجدَة الحَوْطى ، حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج ، عن أرطاة بن المنذر قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال له — وعنده حُذَيفة بن اليمان — : أخبرنى عن تفسير قول الله : (حم عسق) ، قال : فأطرق ثم أعرض عنه ، ثم كرر مقالته فأعرض عنه ، فلم يجبه بشىء وكره مقالته ، ثم كررها الثالثة فلم يُحِرْ إليه شيئا . فقال حذيفة : أنا أنبئك بها ، قد عرفت لم كرهها ؟ نزلت فى رجل من أهل بيته يقال له « عبد الإله » — أو : عبد الله — ينزل على نهر من أنهار المشرق تُبْنى عليه مدينتان ، يشق النهر بينهما شقا ، فإذا أذن الله فى زوال ملكهم وانقطاع دولتهم ومدتهم ، بعث الله على إحداهما نارا ليلا ، فتصبح سوداء مظلمة قد احترقت ، كأنها لم تكن مكانها ، وتصبح صاحبتها متعجبة : كيف أفلتت ؟ فما هو إلا بياض يومها ذلك ، حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد منهم ، ثم يخسف الله بها وبهم جميعا ، فذلك قوله : (حم عسق) ، يعنى : عزيمة من الله تعالى وفتنة وقضاء [حُمّ (٢)] : (حم) ، عين ، يعنى عدلا منه ، سين : يعنى سيكون ، ق : يعنى واقع بهاتين المدينتين .

وأغرب منه ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى الجزء الثانى من مسند ابن عباس ، وعن أبى ذر ، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، ولكن إسناده ضعيف جدا ومنقطع ، فإنه قال :

حدثنا أبو طالب عبد الجبار بن عاصم ، حدثنا أبو عبد الملك الحسن بن يحيى الخشنى الدمشقى ، عن أبى معاوية قال : صعد عمر بن الخطاب المنبر فقال : أيها الناس ، هل سمع منكم أحد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يفسر (حم عَسَق) ؟

---

(١) انظر فيما تقدم : ١/٥٦ — ٦٠ .

(٢) ما بين القوسين عن تفسير القرطبى : ١٦/٢ .

فوثب ابن عباس فقال: أنا . قال : (حم) اسم من أسماء الله [تعالى (١) ، قال : فعين ؟ قال : عاين المولون (٢) عذاب يوم بدر . قال : فسين ؟ قال : سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . قال : فقاف ؟ فسكت ، فقام أبو ذر ففسر كما قال ابن عباس رضى الله عنهما ، وقال : قاف : قارعة من السماء تغشى الناس] .

وقوله : (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيزُ الحكيم) ، أى : كما أنزل إليك هذا القرآن ، كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك . وقوله : (الله العزيز) ، أى : فى انتقامه ، (الحكيم) . فى أقواله وأفعاله .

قال الإمام مالك ــ رحمه الله ــ عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة : أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على فيفصِمُ عَنّى (٣) قد وَعَيت ماقال . وأحيانا يأتينى الملك رَجُلا فيكلمنى ، فأعى مايقول .» . قالت عائشة : فلقد رأيتهُ ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيَفصِم عنه ، وإن جَبِينه ليتفَصَّدُ عرَقا .

أخرجاه فى الصحيحين ، ولفظه للبخارى (٤) .

وقد رواه الطبرانى عن عبد الله ابن الإمام أحمد ، عن أبيه ، عن عامر بن صالح ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، عن الحارث بن هشام : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف ينزل عليك الوحى ؟ فقال : « مثل صلصلة الجرس ، فيفصِمُ عنى وقد وَعَيتُ ما قاله ــ قال : وهو أشده على ــ قال : وأحيانا يأتينى الملك فيتمثل لى فيكلمنى ، فأعى ما يقول (٥) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا ابن لَهِيعة ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن عمرو بن الوليد ، عن عبد الله ابن عمرو ــ رضى الله عنهما ــ قال : سألت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقلت : يا رسول الله ، هل تُحس بالوحى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أسمع صلاصل ثم أسكتُ عند ذلك ، فما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسى تُقبَض » . تفرد به أحمد (٦) .

وقد ذكرنا كيفية إتيان الوحى إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى أول شرح البخارى بما أغنى عن إعادته هاهنا ، ولله الحمد والمنة .

---

(١) ما بين القوسين من الطبعات السابقة ، ومكانه بياض بمقدار ثلاثة أسطر .
(٢) كذا فى الطبعات السابقة ، وفى الدر المنثور ٦/٢ : « عاين المذكور » .
(٣) أى : يقلع وينكشف .
(٤) البخارى ، باب بدء الوحى : ١/٣٠٢ . ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب « عرق النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى البرد وحين يأتيه الوحى » : ٧/٨٢ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٦/١٥٨ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٢/٢٢٢ .

وقوله تعالى : (له مافى السموات وما فى الأرض) ، أي : الجميع عبيد له وملك له ، تحت قهره وتصريفه ، (وهو العلى العظيم) ، [كقوله تعالى] : (الكبير المتعال)(١) (وهو العلى الكبير) (٢) ، والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله : (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن) — قال ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة ، والسدى ، وكعب الأحبار : أى فرَقاً من العظمة (٣). (والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن فى الأرض) . كقوله : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً) (٤) .

وقوله : (ألا إن الله هو الغفور الرحيم) ، إعلام بذلك وتنويه به .

وقوله : (والذين اتخذوا من دونه أولياء) ، يعنى المشركين ، (الله حفيظ عليهم) ، أى : شهيد على أعمالهم ، يحصيها ويعدّها عدّاً ، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء . (وما أنت عليهم بوكيل) ، أى : إنما أنت نذير ، والله على كل شىء وكيل :

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

يقول تعالى : وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ، (أوحينا إليك قرآنا عربيا) ، أى : واضحا جليا بينا ، (لتنذر أم القرى)، وهى مكة ، (ومن حولها) ، أى : من سائر البلاد شرقا وغربا . وسمّيت مكة « أمّ القرى » ، لأنها أشرف من سائر البلاد ، لأدلة كثيرة مذكورة فى مواضعها . ومن أوجز ذلك وأدله ما قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو اليمان ، حدثنا شعيب ، عن الزهرى ، أخبرنا أبو سلمة بنُ عبد الرحمن أن عبد الله بن عدىّ بن الحمراء الزهرى أخبره : أنه سمع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول وهو واقف بالحَزْوَرَة (٥) فى سوق مكة : « والله ، إنك لخير أرض الله وأحبّ أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت (٦) » .

وهكذا رواية الترمذى (٧) ، والنسائى ، وابن ماجه ، من حديث الزهرى ، به . وقال الترمذى : « حسن صحيح (٨) » .

---

(١) سورة الرعد ، آية : ٩ .
(٢) سورة سبأ ، آية : ٢٣ .
(٣) انظر تفسير الطبرى : ٢٥/٦ .
(٤) سورة غافر ، آية : ٧ .
(٥) الحزورة : موضع بمكة . والحزورة فى الأصل : بمعنى التل الصغير ، سميت بذلك لأنه كان هناك تل صغير .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٤/٣٠٥ .
(٧) تحفة الأحوذى ، أبواب المناقب ، باب « فى فضل مكة » ، الحديث ٤٠١٨ : ١٠/٤٢٦ — ٤٢٧ . وسنن ابن ماجه ، كتاب المناسك ، باب « فضل مكة » ، الحديث ٣١٠٨ : ٢/١٠٣٧ — ١٠٣٨ .
(٨) الذى فى تحفة الأحوذى ١٠/٤٢٧ : « هذا حديث حسن غريب صحيح » .

وقوله : (وتنذر يوم الجمع) ، وهو يوم القيامة ، يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ؛
وقوله : (لا ريب فيه) ، أى : لا شك فى وقوعه ، وأنه كائن لا محالة .

وقوله : (فريق فى الجنة وفريق فى السعير) ، كقوله : (يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن (١)) ، أى : يَغْبِن أهل الجنة أهل النار (٢) . وكقوله تعالى : (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد (٣)) .

قال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا ليث ، حدثنى أبو قَبِيل المَعَافرى ، عن شُفَىّ الأصبحى ، عن عبد الله بن عمرو ــ رضى الله عنهما ــ قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى يده كتابان ، فقال : « أتدرون ما هذان الكتابان ؟ » قال : قلنا : لا ، إلا أن تخبرنا يا رسول الله . قال للذى فى يده اليُمنى : هذا كتاب من رب العالمين ، بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أُجمِلَ (٤) على آخرهم ــ لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا ــ ثم قال : للذى فى يساره . هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم ــ لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا » . فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلأى شىء [إذاً] نعمل إن كان هذا أمر قد فُرِغ منه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سَدّدوا وقاربوا (٥) ، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل الجنة ، وإن عمل أىّ عمل ، وإن صاحب النار ليختم له بعمل النار ، وإن عمل أىّ عمل » . ثم قال (٦) بيده فقبضها ، ثم قال : « فرغ ربكم ــ عز وجل ــ من العباد . ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال : فريق فى الجنة ، ونبذ باليسرى فقال : فريق فى السعير (٧) » .

وهكذا رواه الترمذى والنسائى جميعا ، عن قتيبة ، عن الليث بن سعد وبكر بن مضر ، كلاهما عن أبى قَبِيل ، عن شُفَىّ بن ماتع الأصبحى ، عن عبد الله بن عمرو ، به .

وقال الترمذى : « حسن صحيح غريب (٨) » .

وساقه البغوى فى تفسيره من طريق بشر بن بكر ، عن سعيد بن عثمان ، عن أبى الزاهرية ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فذكره بنحوه . وعنده زيادات منها ؛ « ثم قال : « فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، عدل من الله عز وجل » .

ورواه ابن أبى حاتم عن أبيه ، عن عبد الله بن صالح ــ كاتب الليث ــ عن الليث ، به .

ورواه ابن جرير عن يونس ، عن ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن أبى قَبِيل ، عن شُفَىّ ، عن رجل من الصحابة ، فذكره (٩) .

---

(١) سورة التغابن ، آية : ٩ .
(٢) أى : يستنقصون عقولهم باختيارهم الكفر على الإيمان .
(٣) سورة هود ، الآيات : ١٠٣ - ١٠٥ .
(٤) أى : جمعوا وأحصوا ، فلا يزاد فيهم ولا ينقص .
(٥) أى اطلبوا بأعمالكم السداد والاستقامة ، وهو القصد فى الأمر والعدل فيه .
(٦) أى : أشار بيده . والعرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال .
(٧) مسند الإمام أحمد : ١٦٧/٢ .
(٨) تحفة الأحوذى ، أبواب القدر ، باب « ما جاء أن الله كتب كتاباً لأهل الجنة وأهل النار » ، الحديث ٢٢٢٧ : ٣٥٠/٦ - ٣٥٢ .

ثم روى عن يونس ، عن ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث وحيوة بن شريح ، عن يحيى بن أبي أسيد : أن أبا فراس حدّثه : أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول : إن الله لما خلق آدم نفضه نفض المِزْوَد(١) ، وأخرج منه كل ذريته، فخرج أمثال النَّغَف (٢) فقبضهم قبضتين ، ثم قال : شقى وسعيد ، ثم ألقاهما ثم قبضهما فقال : فريق فى الجنة وفريق فى السعير (٣) ؛

وهذا الموقوف أشبه بالصواب ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد — رحمه الله — : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا حماد — يعنى ابن سلمة — أخبرنا الجُرَيْرى ، عن أبى نضرة أن رجلا من أصحاب النبى — صلى الله عليه وسلم ، يقال له : أبو عبد الله — دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكى ، فقالوا له : مايُبْكيك ؟ ، ألم يقل لك رسول الله صلى الله عليه وسلم : خذ من شاربك ثم أقره (٤) حتى تلقانى ؟ قال : بلى ، ولكن سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « إن الله قبض بيمينه قبضة ، وأخرى باليد الأخرى ، قال : هذه لهذه ، وهذه لهذه ولا أبالى » فلا أدرى فى أى القبضتين أنا (٥) .

وأحاديث القدر فى الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جدا ، منها حديث على ، وابن مسعود ، وعائشة ، وجماعة جمة .

وقوله : (ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة) ، أى : إما على الهداية أو على الضلالة ، ولكنه تعالى فاوت بينهم ، فهدى من يشاء إلى الحق ، وأضل من يشاء عنه ، وله الحكمة والحجة البالغة ؛ ولهذا قال : (ولكن يدخل من يشاء فى رحمته والظالمون مالهم من ولى ولا نصير) ؛

وقال ابن جرير : حدثنى يونس ، أخبرنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث ، عن أبى سويد « (٦) حدثه عن ابن حُجَيرة : أنه بلغه أن موسى عليه السلام قال : يارب خَلْقُك الذين خلقتهم ، جعلت منهم فريقا فى الجنة وفريقا فى النار ، لوما أدخلتهم كلهم الجنة ؟! فقال : يا موسى ، ارفع ذَرْعك ؛ فرفع ، قال : قد رفعت ؛ قال : ارفع ؛ فرفع ، فلم يترك شيئا ، قال : يارب ، قد رفعت ؛ قال : ارفع ؛ قال : قد رفعت ، إلا ما لا خير فيه ؛ قال : كذلك أدخل خلقى كلهم الجنة ، إلا مالا خير فيه (٧) .

أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله ، ومخبراً أنه الولى الحق الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده ، فإنه القادر على إحياء الموتى وهو على كل شىء قدير ؛

---

(١) المزود : وعاء يجعل فيه الزاد .
(٢) النغف — بفتحتين — : دود يكون فى أنوف الإبل والغنم .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٥/٧ .
(٤) أى : احفئله .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٤/١٧٦ ، وانظر أيضاً : ٥/٦٨ .
(٦) كذا فى المخطوطة . وفى تفسير الطبرى : « أبى شبوية » .
(٧) تفسير الطبرى : ٢٥/٧ .

ثم قال : (وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله) ، أى : مهما اختلفتم فيه من الأمور ، وهذا عام فى جميع الأشياء ، (فحكمه إلى الله) ، أى : هو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . كقوله : (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول (١)) :

ذلكم الله ربى ، أى : الحاكم فى كل شىء ، (عليه توكلت وإليه أنيب) ، أى : أرجع فى جميع الأمور :

وقوله : (فاطر السموات والأرض) ، أى : خالقهما وما بينهما ، (جعل لكم من أنفسكم أزواجا) ، أى : من جنسكم وشكلكم ، منّة عليكم وتفضلا جعل من جنسكم ذكرا وأنثى ، (ومن الأنعام أزواجا) ، أى : وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج :

وقوله : (يذرؤكم فيه) ، أى : يخلقكم فيه ، أى : فى ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال [يذرؤكم] فيه ذكورا وإناثا خلقا من بعد خلق ، وجيلا بعد جيل ، ونسلا بعد نسل ، من الناس والأنعام .

وقال البغوى رحمه الله : يذرؤكم فيه ، أى فى الرحم . وقيل : فى البطن . وقيل : فى هذا الوجه من الخلقة :

قال مجاهد : ونسلا بعد نسل من الناس والأنعام .

وقيل « فى » بمعنى « الباء » ، أى : يذرؤكم به :

(ليس كمثله شىء) ، أى : ليس كخالق الأزواج كلها شىء ، لأنه الفرد الصمد الذى لا نظير له ، (وهو السميع البصير) :

وقوله : (له مقاليد السموات والأرض) تقدم تفسيره فى « سورة الزمر » ، وحاصل ذلك أنه المتصرف الحاكم فيهما ، (يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) ، أى : يوسع على من يشاء ، ويضيق على من يشاء ، وله الحكمة والعدل التام ، (إنه بكل شىء عليم) :

* شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾

يقول تعالى لهذه الأمة : (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك) ، فذكر أول الرسل بعد آدم وهو نوح ــ عليه السلام ــ وآخرهم وهو محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ثم ذكر من بين ذلك من أولى العزم وهم : إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم عليهم السلام . وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة ، كما اشتملت آية « الأحزاب » عليهم فى قوله :

---

(١) سورة النساء ، آية : ٥٩ .

(وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ، ومنك ، ومن نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ابن مريم) (١) ... الآية . والدين الذى جاءت به الرسل كلهم هو : عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يُوحىَ (٢) إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) . وفى الحديث : « نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد (٣) » . أى : القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم ، كقوله تعالى : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا)(٤) ، ولهذا قال هاهنا : (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) ، أى : وصى الله تعالى جميع الأنبياء — عليهم السلام — بالائتلاف والجماعة ، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف .

وقوله : (كبر على المشركين ماتدعوهم إليه) ، أى : شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد .

ثم قال : (الله يجتبى إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب) ، أى : هو الذى يُقدّر الهداية لمن يستحقها ، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد . ولهذا قال : (وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم) ، أى : إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم ، وقيام الحجة عليهم ، وما حملهم على ذلك إلا البغىُ والعنادُ والمشاقة .

ثم قال تعالى : (ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى) ، أى : لولا الكلمة السابقة من الله بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد ، لعجل لهم العقوبة فى الدنيا سريعاً .

وقوله : (وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم) ، يعنى : الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذّب للحق (لفى شك منه مريب) ، أى : ليسوا على يقين من أمرهم ، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم ، بلا دليل ولا برهان ، وهم فى حيرة من أمرهم ، وشك مريب ، وشقاق بعيد .

فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات ، كل منها منفصلة عن التى قبلها ، حكم برأسه — قالوا : ولا نظير لها سوى آية الكرسى ، فإنها أيضا عشرة فصول كهذه .

قوله : (فلذلك فادع) ، أى : فللذى أوحينا إليك من الدين الذى وصّينا به جميعَ المرسلين قبلك أصحابَ الشرائع الكبار المتبعة كأولى العزم وغيرهم ، فادعُ الناس إليه .

وقوله : (واستقم كما أمرت) ، أى : واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله ، كما أمركم الله عز وجل .

وقوله : (ولا تتبع أهواءهم) ، يعنى : المشركين فيما اختلقوه ، وكذبوه ، وافتروه من عبادة الأوثان .

---

(١) سورة الأحزاب ، آية : ٧ .

(٢) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وقد تقدم التعريف بهذه القراءة فى سورة الأنبياء ، آية : ٢٥ ، انظر : ٥/٣٣١ .

(٣) تقدم الحديث فى : ١/٢٧٠ ، ٢/٤٠٨ ، ٥/٣٦٦ ، وشرحنا غريبه ، وخرجناه هنالك .

(٤) سورة المائدة ، آية : ٤٨ .

وقوله : (وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب) ، أى : صدّقتُ بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء ، لا نفرق بين أحد منهم ؛

وقوله : (وأمرت لأعدل بينكم) ، أى : فى الحكم كما أمرنى الله ؛

وقوله : (الله ربنا وربكم) ، أى : هو المعبود ، لا إله غيره ، فنحن نقر بذلك اختيارا ، وأنتم وإن لم تفعلوه اختيارا ، فله يسجد من فى العالمين طوعا واختياراً ؛

وقوله : (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) ، أى : نحن برآء منكم ، كما قال تعالى : (وإن كذبوك فقل : لى عملى ، ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا برىء مما تعملون)(١) ؛

وقوله : (لاحجة بيننا وبينكم) ــ قال مجاهد : أى لا خُصُومة . قال السدى : وذلك قبل نزول آية السيف . وهذا مُتَّجِه ؛ لأن هذه الآية مكية ، وآية السيف بعد الهجرة .

وقوله : (الله يجمع بيننا) ، أى : يوم القيامة ، كقوله : (قل : يجمع بيننا ربنا ، ثم يفتح بيننا بالحق ، وهو الفتاح العليم) ؛

وقوله : (وإليه المصير) ، أى : المرجع والمآب يوم الحساب ؛

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

يقول تعالى متوعدا الذين يَصُدّون عن سبيل الله مَن آمن به : (والذين يحاجون فى الله من بعدما استجيب له) ، أى : يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى ، (حجتهم داحضة عند ربهم) أى : باطلة عند الله ، (وعليهم غضب) ، أى : منه ، (ولهم عذاب شديد) ، أى : يوم القيامة .

قال ابن عباس ، ومجاهد : جادلوا المؤمنين بعدما استجابوا لله ولرسوله ، ليصدوهم عن الهدى ، وطَمِعوا أن تعود الجاهلية ؛

وقال قتادة : هم اليهود والنصارى ، قالوا لهم : ديننا خير من دينكم ، (ونبينا قبل نبيكم ، ونحن خير منكم) ، وأولى بالله منكم (٢) . وقد كذبوا فى ذلك ؛

ثم قال : (الله الذى أنزل الكتاب بالحق) ، يعنى : الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه (والميزان) ، وهو : العدل والإنصاف ، قاله مجاهد ، وقتادة ؛

---

(١) سورة يونس ، آية : ٤١ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٥/١٣ .

وهذه كقوله تعالى : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط (١)) ، وقوله : (والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان (٢)) ؛

وقوله : (وما يدريك لعل الساعة قريب) : فيه ترغيب فيها ، وترهيب منها ، وتزهيد فى الدنيا .

وقوله : (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها) ، أى : يقولون : (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (٣)) ؟ وإنما يقولون ذلك تكذيبا واستبعادا ، وكفرا وعنادا . (والذين آمنوا مشفقون منها) ، أى : خائفون وَجِلُون من وقوعها (ويعلمون أنها الحق) ، أى : كائنة لا محالة ، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها .

وقد رُوى من طرق تبلغ درجة التواتر ، فى الصحاح والحسان ، والسنن والمسانيد ، وفى بعض ألفاظه : أن رجلا سأل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بصوت جَهْوَرِىّ ، وهو فى بعض أسفاره ، فناداه فقال : يا محمد . فقال له النبى — صلى الله عليه وسلم — [نحوا من صوته] — « هاؤم (٤) » . فقال : متى الساعة ؟ فقال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ويحك . إنها كائنة ، فما أعددت لها ؟ » . فقال : حُبَّ الله ورسوله . فقال : « أنت مع من أحببت (٥) » .

فقوله فى الحديث : « المرء مع من أحب » ، هذا متواتر لا محالة ، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة ، بل أمره بالاستعداد لها .

وقوله : (ألا إن الذين يمارون فى الساعة) ، أى : يحاجّون فى وجودها ويدفعون وقوعها ، (لفى ضلال بعيد) ، أى : فى جهل بين ، لأن الذى خلق السموات والأرض قادرٌ على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى ، كما قال : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه) (٦) .

ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى مخبرا عن لطفه بخلقه فى رزْقه إياهم عن آخرهم ، لاينسى أحدا منهم ، سواء فى رزْقه البرّ والفاجر ، كقوله تعالى : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين (٧)) ؛ ولها نظائر كثيرة .

---

(١) سورة الحديد ، آية : ٢٥ .
(٢) سورة الرحمن ، آية : ٧ — ٩ .
(٣) سورة سبأ ، آية : ٢٩ .
(٤) كذا ، وانظر : ٥٢٣/٣ .
(٥) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٨٧ من سورة الأعراف ، وخرجناه هنالك ، واستقصينا فى تخريجه . انظر : ٥٢٣/٣ .
(٦) سورة الروم ، آية : ٢٧ .
(٧) [illegible]

وقوله : (يرزق من يشاء) ، أى : يوسع على من يشاء ، (وهو القوى العزيز) ، أى : لا يعجزه شىء .

ثم قال : (من كان يريد حرث الآخرة) ، أى : عمل الآخرة ، (نزد له فى حرثه) ، أى : نقويه ونعينه على ما هو بصدده ، ونكثر نماءه ، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما يشاء الله . (ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وماله فى الآخرة من نصيب) ، أى : ومن كان إنما سعيه ليحصل له شىء من الدنيا ، وليس له إلى الآخرة همة البتة بالكلية ، حرّمه الله الآخرة ، والدنيا إن شاء أعطاه منها ، وإن لم يشأ لم يحصل له لا هذه ولا هذه ، وفاز هذا الساعى بهذه النية بالصفقة الخاسرة فى الدنيا والآخرة .

والدليل على هذا أن هذه الآية هاهنا مُقَيَّدة بالآية التى فى « سبحان » وهى قوله تعالى : (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر الدرجات وأكبر تفضيلا)(١) .

وقال الثورى ، عن مُغيرةَ ، عن أبى العالية ، عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة ، والنصر والتمكين فى الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ، لم يكن له فى الآخرة من نصيب (٢) » .

وقوله : (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) ، أى : هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم ، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس ، من تحريم ما حرموا عليهم ، من البَحِيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وتحليل الميتة والدم والقمار ، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة . التى كانوا قد اخترعوها فى جاهليتهم ، من التحليل والتحريم ، والعبادات الباطلة ، والأقوال الفاسدة .

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « رأيت عَمرو بن لُحَىّ بن قَمَعَةَ يَجُرّ قُصْبَه فى النار (٣) » . لأنه أول من سيب السوائب . وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة ، وهو أول من فعل هذه الأشياء ، وهو الذى حمل قريشا على عبادة الأصنام ، لعنه الله وقبحه . ولهذا قال الرجل : (ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم) ، أى : لعوجلوا بالعقوبة ، لولا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد ، (وإن الظالمين لهم عذاب أليم) ، أى : شديد موجع فى جهنم وبئس المصير .

ثم قال تعالى : (ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا) ، أى : فى عرصات القيامة ، (وهو واقع بهم) ، أى : الذى يخافون منه واقع بهم لا محالة ، هذا حالهم يوم معادهم ، وهم فى هذا الخوف والوجل ، (والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى

---

(١) سورة الإسراء ، الآيات : ١٨ - ٢١ .

(٢) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد من طريق سفيان ، عن أيوب ، عن أبى العالية ، عن أبى بن كعب ، به نحوه . وأخرجه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدى ، عن عبد العزيز بن مسلم ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أبى بن كعب ، انظر المسند : ١٣٤/٥ .

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٠٣ من سورة المائدة ، وخرجناه هنالك ، وشرحنا غريبه . انظر : ٢٠٣/٣ ، وما بعدها .

روضات الجنات ، لهم ما يشاءون عند ربهم) ، فأين هذا من هذا : أين من هو فى العرَصات فى الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه ، ممن هو فى روضات الجنات ، فيما يشاء من مآكِل ومشاربَ وملابسَ ومساكن ومناظرَ ومناكحَ وملاذ ، فيما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

قال الحسن بن عرفة : حدثنا عُمَر بن عبد الرحمن الأبار ، حدثنا محمد بن سعد الأنصارى ، عن أبى طَيْبَةَ قال : إن الشَّرْبَ(١) من أهل الجنة لتظلهم السحابة فتقول: ما أمطِرُكُم . قال : فما يدعو داع من القوم بشئ إلا أمطرتهم ، حتى إن القائل منهم ليقول : أمطرينا كواعب أترابا .

رواه ابن جرير (٢) ، عن الحسن بن عرفة ، به .

ولهذا قال تعالى : (ذلك هو الفضل الكبير) ، أى : الفوز العظيم ، والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة :

ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنة ، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات : (ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، أى : هذا حاصل لهم ، كائن لا محالة ، ببشارة الله لهم به .

وقوله : (قل : لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) ، أى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش : لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالا تعطونيه ، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عنى ، وتذرونى أبلغ رسالات ربى ، إن لم تنصرونى فلا تؤذونى بما بينى وبينكم من القرابة .

قال البخارى : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عبد الملك بن ميسرة قال : سمعت طاوسا عن ابن عباس : أنه سُئِل عن قوله تعالى : (إلا المودة فى القربى) ، فقال سعيد بن جبير : قربى آل محمد . فقال ابن عباس : عَجِلْتَ ، إن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم [قرابة] ، فقال : إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة ، انفرد به البخارى (٣) .

ورواه الإمام أحمد ، عن يحيى القطان ، عن شعبة به (٤) . وهكذا روى عامر الشعبى ، والضحاك ، وعلى بن أبى طلحة ، والعوفى ، ويوسف بن مهران ، وغير واحد ، عن ابن عباس ، مثله . وبه قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والسدى ، وأبو مالك ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم .

---

(١) أى : الجماعة الذين يجتمعون على الشراب . وفى الدر المنثور ٦/٥ : « السرب » .

(٢) لم نجده فى تفسير الطبرى عند هذه الآية ، على أن السيوطى فى الدر المنثور قال إن ابن جرير أخرجه . ولعل الذى خرجه هو ابن أبى حاتم ، فهو يروى أيضاً عن الحسن بن عرفه ، انظر الجرح والتعديل : ١/٢/٣١ – ٣٢ .

(٣) البخارى ، تفسير سورة (حم . عسق) : ٦/١٦٢ .

(٤) الذى أمامنا فى المسند ، عن محمد بن جعفر ، عن شعبة . انظر : ١/٢٨٦ .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا هاشم بن يزيد (١) الطبرانى وجعفر القلانسى قالا : حدثنا آدم بن أبى إياس ، حدثنا شريك ، عن خُصَيف ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تَوَدّونى فى نفسى لقرابتى منكم ، وتحفظوا القرابة التى بينى وبينكم » .

وروى الإمام أحمد ، عن حسن بن موسى : حدثنا قَزَعة ، يعنى ابن سويد — وابن أبى حاتم — عن أبيه ، عن مسلم بن إبراهيم ، عن قَزَعة بن سويد — عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا أسألكم على ما آتيتكم من البينات والهدى أجرا ، إلا أن تُوَادوا الله ، وأن تَقَرّبوا إليه بطاعته (٢) » .

وهكذا رَوَى قتادة عن الحسن البصرى ، مثله .

وهذا كأنه تفسير بقول ثان ، كأنه يقول : (إلا المودة فى القربى) ، أى : إلا أن تعملوا بالطاعة التى تقربكم عند الله زلفى .

وقول ثالث — وهو ما حكاه البخارى وغيره ، رواية عن سعيد بن جبير ، ما معناه ، أنه قال : معنى ذلك أن تودونى فى قرابتى ، أى : تحسنوا إليهم وتبروهم .

وقال السدى ، عن أبى الديلم قال : لما جئ بعلى بن الحسين أسيرا ، فأقيم على دَرَج دمشق ، قام رجل من أهل الشام فقال : الحمد لله الذى قتلكم واستأصلكم ، وقطع قَرنى (٣) الفتنة . فقال له على بن الحسين : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم . قال : أقرأت آل حم ؟ قال : قرأت القرآن ، ولم أقرأ آل حم . قال : ما قرأت : (قل : لا أسألكم عليه أجرا إلا فى المودة القربى؟) قال : وإنكم أنتم هم ؟ قال : نعم (٤) .

وقال أبو إسحاق السبيعى : سألت عمرو بن شعيب عن قوله تعالى : (قل : لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى) ، فقال : قربى النبى صلى الله عليه وسلم . رواهما ابن جرير (٥) .

ثم قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا مالك بن إسماعيل ، حدثنا عبد السلام ، حدثنى يزيد بن أبى زياد ، عن مقْسم ، عن ابن عباس قال : قالت الأنصار : فعلنا وفعلنا ، وكأنهم فخروا . فقال ابن عباس — أو : العباس ، شك عبد السلام — : لنا الفضل عليكم . فبلغ ذلك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأتاهم فى مجالسهم فقال : « يا معشر الأنصار ، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بى ؟ » قالوا : بلى ، يا رسول الله . قال : [« ألم تكونوا ضلالا فهداكم الله بى » قالوا : بلى يا رسول الله . قال] : « أفلا تجيبونى » ؟ قالوا : ما نقول يا رسول الله ؟ قال : « ألا تقولون : ألَم يخرجك قومك فآويناك ؟ أوَلم يكذبوك فصدقناك ؟ أولم يخذلوك فنصرناك » ؟ قال : فما زال يقول حتى جثوا على الركب ، وقالوا : أموالنا وما فى أيدينا لله ولرسوله . قال : فنزلت : (قل : لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى)(٦) .

(١) كذا فى المخطوطة . وفى المعجم الصغير ٢/١٢٦ : « مزيد » .
(٢) مسند الإمام أحمد : ١/٢٦٨ .
(٣) أى : استأصلها .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٥/١٦ .
(٥) تفسير الطبرى : ٢٥/١٧ .
(٦) تفسير الطبرى : ٢٥/١٦ .

وهكذا رواه ابن أبي حاتم ، عن علي بن الحسين ، عن عبد المؤمن بن علي ، عن عبد السلام ، عن يزيد بن أبي زياد — وهو ضعيف — بإسناده مثله ، أو قريبا منه .

وفي الصحيحين في قسم غنائم حنين قريب من هذا السياق (١) ، ولكن ليس فيه ذكر نزول هذه الآية . وذكرُ نزولها في المدينة فيه نظر ؛ لأن السورة مكية ، وليس يظهر بين هذه الآية الكريمة وبين السياق مناسبة ، والله أعلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا رجل سماه ، حدثنا حسين الأشقر ، عن قيس ، عن الأعمش ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : (قل : لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى) ، قالوا : يا رسول الله ، من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم ؟ قال : « فاطمة وولدها عليهم السلام » .

وهذا إسناد ضعيف ، فيه مبهم لا يعرف ، عن شيخ شيعي مُتَخَرِّق (٢) ، وهو حسين الأشقر ، ولا يقبل خبره في هذا المحل . وذكرُ نزول هذه الآية في المدينة بعيد ، فإنها مكية ولم يكن إذ ذاك لفاطمة أولاد بالكلية ، فإنها لم تتزوج بعلي إلا بعد بدر من السنة الثانية من الهجرة .

والحق تفسير الآية بما فسرها به الإمام حَبْرُ الأمة ، وترجمان القرآن ، عبد الله بن عباس ، كما رواه عنه البخاري ولا تنكر الوَصَاةُ بأهل البيت ، والأمر بالإحسان إليهم ، واحترامهم وإكرامهم ، فإنهم من ذُرِّيَّة طاهرة ، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض ، فخرا وحسباً ونسبا ، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية ، كما كان عليه سلفهم ، كالعباس وبنيه ، وعلي وأهل بيته وذريته ، رضي الله عنهم أجمعين .

وفي الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته بغدير خم : « إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي ، وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض (٣) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن عبد الله بن الحارث ، عن العباس بن عبد المطلب قال : قلت : يا رسول الله ، إن قريشا إذا لقي بعضهم بعضا لَقُوهم ببشر حَسَن ، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها ؟ قال : فغضب النبي صلى الله عليه وسلم غضباً شديدا ، وقال : « والذي نفسي بيده ، لا يدخل قلبَ الرجل الإيمانُ حتى يحبكم لله ولرسوله (٤) » .

ثم قال أحمد : حدثنا جرير ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن عبد الله بن الحارث ، عن عبد المطلب بن ربيعة قال : دخل العباس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنا لنخرج فنرى قريشا تُحدّث ، فإذا رأونا سكتوا . فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ودَرَّ عِرْقٌ (٥) بين عينه ، ثم قال : « والله لا يدخل قلبَ إمرئٍ إيمانٌ حتى يحبكم لله ولقرابتي (٦) » .

---

(١) البخاري ، كتاب المغازي ، باب « غزوة الطائف » : ٥/٢٠٠ ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب « إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه » : ٣/١٠٨ — ١٠٩ .

(٢) في المخطوطة : « مخترق » . والتخرق : اختلاق الكذب .

(٣) مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب « من فضائل علي رضي الله عنه » : ٧/١٢٢ — ١٢٣ . ومسند الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري : ٣/١٤ ، ١٧ ، ٢٦ ، ٥٩ . وعن زيد بن أرقم : ٤/٣٦٧ ، ٣٧١ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١/٢٠٧ .

(٥) أي : امتلأ دماً ، كما يمتلئ الضرع لبناً إذا در .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١/٢٠٧ — ٢٠٨ .

وقال البخارى : حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب ، حدثنا خالد ، حدثنا شعبة ، عن واقد قال : سمعتُ أبى يحدّث عن ابن عمر ، عن أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ قال : ارقبوا محمدا صلى الله عليه وسلم فى أهل بيته (١) .

وفى الصحيح : أن الصديق قال لعلى ـ رضى الله عنهما ـ : والله لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبّ إلى أن أصل من قرابتى (٢) .

وقال عمر بن الخطاب للعباس ـ رضى الله عنهما ـ : والله لإسلامك يوم أسلمتَ كان أحبّ إلى من إسلام الخطاب لو أسلم ، لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب .

فحال الشيخين ـ رضى الله عنهما ـ هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك ، ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين ، رضى الله عنهما ، وعن سائر الصحابة أجمعين .

وقال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، عن أبى حيّان التيمى ، حدثنى يزيد بن حيّان قال : انطلقتُ أنا وحُصَين بن سَبْرة ، وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم ، فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيتَ يا زيدُ خيرا كثيرا ، رأيتَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وسمعت حديثه ، وغزوتَ معه ، وصليتَ معه . لقد رأيتَ يا زيد خيرا كثيرا . حدثنا يا زيدُ ما سمعتَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : يا ابن أخى ، والله كَبُرَت سنّى وقدُم عهدى ، ونسيت بعض الذى كنت أعى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما حدثتكم فاقبلوه ، وما لا فلا تُكلّفونيه . ثم قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً خطيبا فينا ، بماء يدعى خُمًّا ـ بين مكة والمدينة ـ فحمد الله وأثنى عليه ، وذَكّر ووَعَظ ، ثم قال : « أما بعد ، ألا أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسولُ ربى فأجيب . وإنى تارك فيكم الثقلين ، أولهما : كتابُ الله ، فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » ـ فحثّ على كتاب الله ورَغّب فيه ـ وقال : « وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى » . فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : إن نساءه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حُرِم الصدقة بعده . قال : ومن هم ؟ قال : هم آل على ، وآل عَقيل ، وآل جعفر ، وآل العباس قال : أكل هؤلاء حُرِمَ الصدقة ؟ قال : نعم (٣) .

وهكذا رواه مسلم ، والنسائى من طرق عن يزيد بن حيّان به (٤) .

وقال أبو عيسى الترمذى : حدثنا على بن المنذر الكوفى ، حدثنا محمد بن فضيل ، حدثنا الأعمش ، عن عطية ، عن أبى سعيد ـ والأعمش ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن زيد بن أرقم ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى ، أحدهما أعظم من الآخر : كتابُ الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، والآخر عترتى : أهل بيتى ، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض ، فانظروا كيف تخلفونى فيهما (٥) .

---

(١) البخارى ، كتاب فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، باب « مناقب قرابة رسول الله » : ٥/٢٦ .

(٢) البخارى ، فى الكتاب والباب المتقدمين : ٥/٢٥ – ٢٦ . ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة » : ٥/١٥٥ – ١٥٦ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٤/٣٦٦ – ٣٦٧ .

(٤) تقدمت رواية مسلم عند تفسير الآية ٣٣ من سورة الأحزاب ، وخرجناها هنالك ، انظر : ٦/٤١١ .

(٥) تحفة الأحوذى ، أبواب المناقب ، باب « مناقب أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٣٨٧٦ : ١٠/٢٨٩ – ٢٩٠ .

تفرد بروايته الترمذى ، ثم قال : « هذا حديث حسن غريب » .

وقال الترمذى أيضا : حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفى ، حدثنا زيد بن الحسن ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جابر بن عبد الله قال : رأيت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فى حجته يوم عرفة ، وهو على ناقته القصواء يخطب ، فسمعته يقول : « يا أيها الناس ، إنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله وعترتى : أهل بيتى » .

تفرد به الترمذى أيضا ، وقال : « حسن غريب ، وفى الباب عن أبى ذر ، وأبى سعيد ، وزيد بن أرقم ، وحذيفة بن أسيد (١) » .

ثم قال الترمذى : حدثنا أبو داود سليمان بن الأشعث ، حدثنا يحيى بن معين ، حدثنا هشام بن يوسف ، عن عبدالله بن سليمان النوفلى ، عن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، عن أبيه ، عن جده عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه ، وأحبونى بحب الله ، وأحبوا أهل بيتى بحبى » .

ثم قال : « حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه (٢) » .

وقد أوردنا أحاديث أخر عند قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا (٣)) ، بما أغنى عن إعادتها هاهنا ، ولله الحمد والمنة .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا مفضل بن عبد الله ، عن أبى إسحاق ، عن حنش قال : سمعت أبا ذر وهو آخذ بحلقة الباب يقول : يا أيها الناس ، من عرفنى فقد عرفنى ، ومن أنكرنى فأنا أبو ذر ، سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : « إنما مثل أهل بيتى فيكم مثل سفينة نوح ، من دخلها نجا ، ومن تخلف عنها هلك » .

هذا بهذا الإسناد ضعيف .

وقوله : (ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا) ، أى : ومن يعمل حسنة (نزد له فيها حسنا) ، أى : أجرا وثوابا ، كقوله : (إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما (٤)) .

وقال بعض السلف : من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها .

وقوله : (إن الله غفور شكور) ، أى : يغفر الكثير من السيئات ، ويكثر القليل من الحسنات ، فيستر ويغفر ، ويضاعف فيشكر .

وقوله : (أم يقولون : افترى على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك) ، أى : لو افتريت عليه كذبا كما يزعم هؤلاء الجاهلون (يختم على قلبك) ، أى : لطبع على قلبك وسلبك ما كان آتاك من القرآن ، كقوله تعالى : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين (٥)) ، أى : لانتقمنا منه أشد الانتقام ، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه .

---

(١) تحفة الأحوذى ، فى الكتاب والباب المتقدمين ، الحديث ٣٨٧٤ : ١٠/٢٨٧ – ٢٨٨ .

(٢) تحفة الأحوذى فى الكتاب والباب المتقدمين ، الحديث ٣٨٧٨ : ١٠/٢٩٢ .

(٣) سورة الأحزاب ، آية : ٣٣ . وانظر : ٦/٤٠٧ – ٤١٢ .

(٤) سورة النساء ، آية : ٤٠ .

(٥) سورة الحاقة ، الآيات : ٤٤ – ٤٧ .

وقوله : (ويمح الله الباطل) ، ليس معطوفا على قوله [يختم] فيكون مجزوما ، بل هو مرفوع على الابتداء ، قاله ابن جرير ، قال : وحذفت من كتابته « الواو » فى رسم المصحف الإمام ، كما حذفت فى قوله : (سندع الزبانية) ، وقوله : (ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير (١)) :

وقوله : (ويحق الحق بكلماته) : معطوف على (ويمح الله الباطل ويحق الحق) ، أى : يحققه ويثبته ويبينه ويوضحه بكلماته ، أى بحججه وبراهينه ، (إنه عليم بذات الصدور) ، أى : بما تكنه الضمائر ، وتنطوى عليه السرائر .

وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ * وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ممتنا على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه : أنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ويستر ويغفر ، كقوله : (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما(٢)) ، وقد ثبت فى صحيح مسلم رحمه الله حيث قال :

حدثنا محمد بن الصباح وزهير بن حرب قال : حدثنا عمر بن يونس ، حدثنا عكرمة بن عمار ، حدثنا إسحاق بن أبى طلحة ، حدثنى أنس بن مالك ـ وهو عمه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه ، من أحدكم كان راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمةً عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم ، أنت عبدى وأنا ربك ـ أخطأ من شدة الفرح (٣) » :

وقد ثبت أيضا فى الصحيح من رواية عبد الله بن مسعود نحوه (٤) .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهرى فى قوله : (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده) : إن أبا هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لله أشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته فى المكان الذى يخاف أن يقتله العطش فيه » :

وقال همام بن الحارث : سُئِل ابن مسعود عن الرجل يفجر بالمرأة ثم يتزوجها ؟ قال : لا بأس به ، وقرأ : (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده) ... الآية رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم من حديث شَرِيك القاضى ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن إبراهيم النخعى ، عن همام ، فذكره(٥) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٥/١٨ .
(٢) سورة النساء ، آية : ١١٠ .
(٣) مسلم ، كتاب التوبة ، باب « فى الحض على التوبة والفرح بها » : ٨/٩٣ .
(٤) مسلم ، فى الكتاب والباب المتقدمين : ٨/٩٢ .
(٥) تفسير الطبرى : ٢٥/١٨ .

وقوله : (ويعفو عن السيئات) ، أى : يقبل التوبة فى المستقبل ، ويعفو عن السيئات فى الماضى ، (ويعلم ما تفعلون) ، أى : هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم ، ومع هذا يتوب على من تاب إليه .

وقوله : (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، قال السدى : يعنى يستجيب لهم . وكذا قال ابن جرير ؛ معناه يستجيب الدعاء لهم ولأصحابهم وإخوانهم . وحكاه عن بعض النحاة ، وأنه جعلها كقوله : (فاستجاب لهم ربهم (١)) .

ثم روى هو وابن أبى حاتم ، من حديث الأعمش ، عن شقيق بن سلمة ، عن سلمة بن سبرة قال : خطبنا معاذ بالشام فقال : أنتم المؤمنون ، وأنتم أهل الجنة . والله إنى أرجو أن يدخل الله من تَسْبُون من فارس والروم الجنة ، وذلك بأن أحدكم إذا عمل له — يعنى أحدُهم عملا — قال : أحسنت رحمك الله ، أحسنت بارك الله فيك ، ثم قرأ : (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ويزيدهم من فضله(١)) .

وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه جعل قوله [(ويستجيب الذين آمنوا) كقوله(٢)] ، (الذين يستمعون القول(٣)) ، أى : هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه : كقوله تبارك وتعالى : (إنما يستجيب(٤)] الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله(٥)) ، والمعنى الأول أظهر ، لقوله تعالى : (ويزيدهم من فضله) ، أى : يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك ؛ ولهذا قال ابن أبى حاتم :

حدثنا على بن الحسين حدثنا محمد بن المصفى ، حدثنا بقية ، حدثنا إسماعيل بن عبد الله الكِنْدى ، حدثنا الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى قوله : (ويزيدهم من فضله) ، قال : « الشفاعة لمن وجبت له النار ، ممن صنع إليهم معروفا فى الدنيا » .

وقال قتادة عن إبراهيم النَّخَعىّ اللخمى (٦) فى قوله تعالى : (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، قال : يشفعون فى إخوانهم ، (ويزيدهم من فضله) ، قال : يشفعون فى إخوان إخوانهم(٧) .

وقوله : (والكافرون لهم عذاب شديد) ، لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل ، ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم .

وقوله : (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض) ، أى : لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق ، لحملهم ذلك على البغى والطغيان من بعضهم على بعض ، أشراً وبطراً .

وقال قتادة : كان يقال : خير العيش مالا يُلهيك ولا يُطغيك . وذكر قتادة حديث : « إنما أخاف عليكم ما يخرج الله من زهرة الحياة الدنيا » ، وسؤال السائل : أيأتى الخير بالشر ؟ الحديث (٧) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٥/١٩ .

(٢) ما بين القوسين زيادة أضفناها ليستقيم السياق . ولم ينقل ابن كثير لفظ ابن جرير ، وإنما نقل معناه .

(٣) سورة الزمر ، آية : ١٨ .

(٤) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، وهو ساقط من تفسير ابن كثير .

(٥) سورة الأنعام ، آية : ٣٦ .

(٦) كذا فى مخطوطة الأزهر ، والنخع بطن من مذحج ، انظر جمهرة أنساب العرب : ٤٧٧ .

وقوله : ﴿ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير﴾ ، أى : ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم ، وهو أعلم بذلك ، فيغنى من يستحق الغنى ، ويفقر من يستحق الفقر . كما جاء فى الحديث المروى : «إن من عبادى لمَنْ لا يصلحه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادى لمَنْ لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه» .

وقوله : ﴿وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا﴾ ، أى : من بعد إياس الناس من نزول المطر ، ينزله عليهم فى وقت حاجتهم وفقرهم إليه ، كقوله : ﴿وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسون(١)﴾ .

وقوله : ﴿وينشر رحمته﴾ ، أى : يعم بها الوجود على أهل ذلك القُطر وتلك الناحية .

قال قتادة : ذكر لنا أن رجلا قال لعمر بن الخطاب : يا أميرَ المؤمنين ، قُحطَ (٢) المطر وقَنَط الناس ؟ فقال عمر رضى الله عنه : مطرتم ، ثم قرأ : ﴿وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ، وينشر رحمته (٣)﴾ .

﴿وهو الولى الحميد﴾ ، أى : هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم ، وهو المحمود العاقبة فى جميع ما يقدره ويفعله .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

يقول تعالى : ﴿ومن آياته﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿خَلْقُ السموات والأرض وما بث فيهما﴾ ، أى : ذرأ فيهما ، أى : فى السموات والأرض ، ﴿من دابة﴾ ، وهذا يشمل الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات ، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم ، وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم ، وقد فرقهم فى أرجاء أقطار الأرض والسموات ، ﴿وهو﴾ مع هذا كله ﴿على جمعهم إذا يشاء قدير﴾ ، أى : يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى ، وينْفُذهم البصر ، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق .

وقوله : ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ ، أى : مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هو عن سيئات تقدمت لكم ، ﴿ويعفو عن كثير﴾ ، أى : من السيئات ، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها ، ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة (٤)﴾ . وفى الحديث الصحيح : «والذى نفسى بيده ، ما يصيب المؤمن من نَصَب ولا وَصَب ولا هَمّ ولا حُزْن ، إلا كفر الله عنه بها من خطاياه ، حتى الشوكة يشاكها (٥)» .

---

(١) سورة الروم ، آية : ٤٩ .

(٢) أى : احتبس وانقطع .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٥/١٩ .

(٤) سورة فاطر ، آية : ٤٥ .

(٥) البخارى ، كتاب المرضى ، باب «ما جاء فى كفارة المرض» : ٦/١٤٨ – ١٤٩ . ومسلم ، كتاب البر ، باب «ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض» : ٨/١٥ .

وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيّة ، حدثنا أيوب قال : قرأت في كتاب أبي قلابة قال : نزلت: (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)، وأبو بكر يأكل، فأمسك وقال: يا رسول الله إني لَرَاءٍ ما عملت من خير وشر ؟ فقال : « أرأيت ما رأيت مما تكره ، فهو من مثاقيل ذَرّ الشر ، وتَدّخر مثاقيل الخير حتى تعطاه يوم القيامة » قال : قال أبو إدريس : فإني أرى مصداقها في كتاب الله : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ، ويعفو عن كثير [1]) .

ثم رواه من وجه آخر ، عن أبي قلابة ، عن أنس ، قال : والأول أصح .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع ، حدثنا مروان بن معاوية الفَزَاري ، حدثنا الأزهر ابن راشد الكاهلي ، عن الخَضْر بن القَوّاس البجلي ، عن أبي سخيلة ، عن علي — رضي الله عنه — قال : ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله عز وجل ، وحدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : (ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) . وسأفسرها لك يا علي : ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا ، فبما كسبت أيديكم ، والله تعالى أحلم من أن يُثَنّي عليه العقوبة في الآخرة ، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله تعالى أكرم من أن يعود بعد عفوه » .

وكذا رواه الإمام أحمد ، عن مروان بن معاوية وعَبْدة ، عن أبي سُخَيلة قال : قال علي ... فذكر نحوه مرفوعا [2] .

ثم روى ابن أبي حاتم ، من وجه آخر موقوفا فقال : حدثنا أبي ، حدثنا منصور بن أبي مزاحم ، حدثنا أبو سعيد بن أبي الوضاح ، عن أبي الحسن ، عن أبي جُحَيفة قال : دخلت على علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — فقال : ألا أحدثكم بحديث ينبغي لكل مؤمن أن يَعِيَه ؟ قال : فسألناه ، فتلا هذه الآية : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) . قال : ما عاقب الله به في الدنيا فالله أحلم من أن يُثَنّي عليه العقوبة يوم القيامة ، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود في عفوه يوم القيامة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعلى بن عبيد ، حدثنا طلحة — يعني ابن يحيى — عن أبي بردة ، عن معاوية — هو ابن أبي سفيان رضي الله عنهما — قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفر الله عنه به من سيئاته [3] » .

وقال أحمد أيضا : حدثنا حسين ، عن زائدة ، عن ليث ، عن مجاهد ، عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كثرت ذنوب العبد ، ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه الله بالحزن ليكفرها [4] » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي ، حدثنا أبو أسامة ، عن إسماعيل بن مسلم ، عن الحسن — هو البصري — قال في قوله : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) ، قال : لما نزلت قال رسول الله

---

(١) تفسير الطبري : ٢٥/٢٠ – ٢١ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ١/٨٥ .
(٣) مسند الإمام أحمد ٤/٩٨ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٦/١٥٧ .

صلى الله عليه وسلم : « والذى نفس محمد بيده، ما من خدش عود ، ولا اختلاج(١) عرق، ولا عثرة قدم، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر » .

وقال أيضا : حدثنا أبى ، حدثنا عمر بن على ، حدثنا هشيم ، عن منصور ، عن الحسن ، عن عمران بن حصين — رضى الله عنه — قال : دخل عليه بعض أصحابه وقد كان ابتلى فى جسده ، فقال له بعضهم إنا لَنَبْتَئِسُ لك لما نرى فيك . قال : فلا تبتئس بما ترى ، فإن ما ترى بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر ، ثم تلا هذه الآية : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) .

وحدثنا أبى : حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني ، حدثنا جرير ، عن أبى البلاد قال : قلت للعلاء بن بدر : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) ، وقد ذهب بصرى وأنا غلام ؟ قال : فبذنوب والديك .

وحدثنا أبى : حدثنا على بن محمد الطنافسى ، حدثنا وكيع ، عن عبد العزيز بن أبى روّاد ، عن الضحاك قال : ما نعلم أحدا [حفظ] القرآن ثم نسيه إلا بذنب ، ثم قرأ الضحاك : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ، ويعفو عن كثير) ، ثم يقول الضحاك : وأى مصيبة أعظم من نسيان القرآن ؟

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول تعالى : ومن آياته الدالة على قدرته وسلطانه ، تسخيره البحر لتجرى فيه الفلك بأمره ، وهى الجوارى فى البحر كالأعلام ، أى : كالجبال ، قاله مجاهد ، والحسن ، والسدى ، والضحاك ، أى : هى فى البحر كالجبال فى البر ، (إن يشأ يسكن الريح) ، أى : التى تسير بالسفن ، لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن ، بل تظل راكدة لا تجىء ولا تذهب ، بل واقفة على ظهره ، أى : على وجه الماء ، (إن فى ذلك لآيات لكل صبار) ، أى : فى الشدائد ، (شكور) ، أى : إن فى تسخيره البحر وإجرائه الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم ، لدلالات على نعمه تعالى على خلقه (لكل صبار) ، أى : فى الشدائد ، (شكور) فى الرخاء .

وقوله : (أو يوبقهن بما كسبوا) ، أى : ولو شاء لأهلك السفن وغرّقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون عليها ، (ويعف عن كثير) ، أى : من ذنوبهم . ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر .

وقال بعض علماء التفسير : معنى قوله (أو يوبقهن بما كسبوا) ، أى : لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية ، فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم ، فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال ، آبقة لا تسير على طريق ، ولا إلى جهة مقصد ،

---

(١) أى : اضطرابه .

وهذا القول هو يتضمن هلاكها ، وهو مناسب للأول ، وهو أنه تعالى لو شاءلسكن الريح فوقفت ، أو لقواه فشرّدت وأبقت وهلكت . ولكن من لطفه ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة ، كما يرسل المطر بقدر الكفاية ، ولو أنزله كثيرا جدا لهدم البنيان ، أو قليلا لما أنبت الزرع والثمار ، حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سيحا من أرض أخرى غيرها ، لأنهم لا يحتاجون إلى مطر ، ولو أنزل عليهم لهدم بناهم ، وأسقط جدرانهم .

وقوله : (ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من محيص) ، أى : لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا ، فإنهم مقهورون بقدرتنا .

فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى مُحقّراً لشأن الحياة الدنيا وزينتها ، وما فيها من الزهرة والنعيم الفانى ، بقوله : (فما أوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا) ، أى : مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به ، فإنما هو متاع الحياة الدنيا ، وهى دار دنيئة فانية زائلة لا محالة ، (وما عند الله خير وأبقى) ، أى : وثواب الله خيرٌ من الدنيا ، وهو باق سرْمَدىّ ، فلا تُقدّموا الفانى على الباقى . ولهذا قال : (للذين آمنوا) ، أى : للذين صبروا على ترك الملاذ فى الدنيا ، (وعلى ربهم يتوكلون) ، أى : ليعينهم على الصبر فى أداء الواجبات وترك المحرمات .

ثم قال : (والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش) ، وقد قدمنا الكلام على الإثم والفواحش فى « سورة الأعراف (١) » (وإذا ما غضبوا هم يغفرون) ، أى : سجيتهم تقتضى الصفح والعفو عن الناس ، ليس سجيتهم الانتقام من الناس .

وقد ثبت فى الصحيح : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما انتقم لنفسه قط ، إلا أن تنتهك حرمات الله(٢) » . وفى حديث آخر : « كان يقول لأحدنا عند المعتبة : ماله ؟ تَربت جبينه(٣) » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن زائدة ، عن منصور ، عن إبراهيم قال : كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا ، وكانوا إذا قدروا عفوا .

وقوله : (والذين استجابوا لربهم) ، أى : اتبعوا رسله وأطاعوا امره ، واجتنبوا زجره ، (واقاموا الصلاة) ، وهى أعظم العبادات لله عز وجل ، (وأمرهم شورى بينهم) ، أى : لا يبرمون أمرا حتى يتشاوروا فيه ، ليتساعدوا بآرائهم فى مثل الحروب وما جرى مجراها ، كما قال تعالى : (وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله (٤)) ولهذا كان عليه

---

(١) انظر : ٣/٣٥٣ – ٣٥٨ ، ٤٠٤ .

(٢) البخارى ، كتاب الأدب ، باب قول النبى – صلى الله عليه وسلم : « يسروا ولا تعسروا » : ٨/٣٦ – ٣٧ . ومسلم كتاب الفضائل ، باب « مباعدته صلى الله عليه وسلم للآثام . . . » : ٧/٨٠ .

(٣) البخارى ، كتاب الأدب ، باب « لم يكن النبى – صلى الله عليه وسلم – فاحشاً ولا متفحشاً » : ٨/١٥ ، والمسند ٣/١٢٦ ، ١٤٤ ، ١٥٨ .
وفى النهاية لابن الأثير : « ترب جبينه : قيل : أراد به دعاء له بكثرة السجود » .

(٤) سورة آل عمران ، آية : ١٥٩ .

السلام يشاورهم فى الحروب ونحوها ، ليطيب بذلك قلوبهم ؛ وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب الوفاة حين طُعِن جعل الأمر بعده شورى فى ستة نفر ، وهم : عثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن بن عوف ، رضى الله عنهم أجمعين ، فاجتمع رأى الصحابة كلهم على تقديم عثمان عليهم رضى الله عنهم ، (ومما رزقناهم ينفقون) ، وذلك بالإحسان إلى خلق الله ، الأقرب إليهم منهم فالأقرب ؛

وقوله : (والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون) ، أى : فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم ، ليسوا بعاجزين ولا أذلة ، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم ، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا ، كما قال يوسف عليه السلام لإخوته : (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم (١)) ، مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه ، وكما عفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية ، ونزلوا من جبل التنعيم ، فلما قدر عليهم مَنّ عليهم مع قدرته على الانتقام ، وكذلك عفوه عن « غَوْرَث بن الحارث » الذى أراد الفتك به حين اخترط سيفه وهو نائم ، فاستيقظ ــ عليه السلام ــ وهو فى يده صَلْتاً ، فانتهره ، فوضعه من يده ، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف من يده ، ودعا أصحابه ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل ، وعفا عنه(٢) ؛ وكذلك عفا عن لبيد بن الأعصم الذى سحره ــ عليه السلام ــ ومع هذا لم يعرض له ولا عاتبه مع قدرته عليه ، وكذلك عفوه ــ عليه السلام ــ عن المرأة اليهودية ــ وهى زينب أخت مرحب اليهودى الخيبرى الذى قتله محمود بن مسلمة ، التى سمت الذراع يوم خيبر ــ فأخبره الذراع بذلك ، فدعاها فاعترفت ، فقال : « ما حملك على ذلك ؟ » قالت : أردت إن كنت نبيا لم يضرك ، وإن لم تكن نبيا استرحنا منك(٣) ، فأطلقها عليه الصلاة والسلام ، ولكن لما مات منه بشر بن البراء قتلها به ، والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جدا ، والحمد لله ؛

وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ (٤٣)

قوله تعالى : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ، كقوله تعالى : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم(٤)) ، وكقوله : (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين (٥)) ، فشرع العدل وهو القصاص ، وندب إلى الفضل وهو العفو ، كقوله : (والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له) ، ولهذا قال هاهنا : (فمن عفا

(١) سورة يوسف ، آية : ٩٢ .
(٢) أنظر البخارى ، كتاب المغازى ، باب « غزوة ذات الرقاع » : ٥/١٤٧ .
(٣) أنظر سنن أبى داود ، كتاب الديات ، باب « فيمن سقا رجلا سما أو أطعمه فمات منه » .
(٤) سورة البقرة ، آية : ١٩٤ .
(٥) سورة النحل ، آية : ١٢٦ .

وأصلح فأجره على الله) ، أى : لا يضيع ذلك عند الله كما صح فى الحديث : « وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا (١) » .
وقوله : (إنه لا يحب الظالمين) ، أى : المعتدين ، وهو المبتدىء بالسيئة .

ثم قال : (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) ، أى : ليس عليهم جناح فى الانتصار ممن ظلمهم .

قال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الله بن بَزيع ، حدثنا معاذ بن معاذ ، حدثنا ابن عون قال : كنت أسأل عن الانتصار : (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) ، فحدثنى على بن زيد بن جدعان ، عن أم محمد — امرأة أبيه — قال : ابن عون : زعموا أنها كانت تدخل على أم المؤمنين عائشة — قالت : قالت أم المؤمنين : دخل علينا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وعندنا زينب بنت جحش ، فجعل يصنع بيده شيئا فلم يَفْطِن لها ، فقلت(٢) بيده حتى فَطَّنته لها ، فأمسك . وأقبلت زينب تَقَحَّم(٣) لعائشة ، فنهاها ، فأبت أن تنتهى . فقال لعائشة : « سُبِّيها » . فسبَّتها فغلبتها ، وانطلقت زينب فأتت عليا فقالت : إن عائشة تقع بكم ، وتفعل بكم . فجاءت فاطمة فقال لها : « إنها حِبَّة أبيك وربِّ الكعبة » . فانصرفت وقالت لعلى : إنى قلت له كذا وكذا ، فقال لى كذا وكذا . قال : وجاء على إلى النبى صلى الله عليه وسلم فكلمه فى ذلك(٤) .

هكذا ورد هذا السياقُ ، وعلى بن زيد بن جدعان يأتى فى رواياته بالمنكرات غالبا ، وهذا فيه نكارة ، والحديث الصحيح خلاف هذا السياق ، كما رواه النسائى وابن ماجه من حديث خالد بن سلمة الفَأْفاء ، عن عبد الله البَهِىّ ، عن عروة قال : قالت عائشة — رضى الله عنها — : ما علمتُ حتى دخلَت علَىَّ زينبُ بغير إذن وهى غضبى ، ثم قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : حسبك إذا قَلَبَت لك ابنة أبى بكر ذُرَيِّعَتَيها(٥) . ثم أقبلت علىَّ فأعرضت عنها ، حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم : « دونك فانتصرى » . فأقبلت عليها حتى رأيتها وقد يَبِس ريقُها فى فمها ، ماتَرُدّ على شيئا . فرأيت النبىّ صلى الله عليه وسلم يتهلل وجهه(٦) . وهذا لفظ النسائى .

وقال البزار : حدثنا يوسف بن موسى حدثنا أبو غسان ، حدثنا أبو الأحوص ، عن أبى حَمزة ، عن إبراهيم ، عن الأسود ، عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من دعا علَى من ظلمه فقد انتصر » .

---

(١) مسلم ، كتاب البر ، باب « استحباب العفو والتواضع » : ٨/٢١ . وتحفة الأحوذى ، أبواب البر ، باب « ما جاء فى التواضع » ، الحديث ٢٠٩٨ : ٦/١٧٧ ، وقال الترمذى : « حسن صحيح » .

(٢) أى : أمسكت بيده . والعرب — كما تقدم مراراً — تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال .

(٣) أى : تتعرض لشتمها من غير روية ولا تثبت .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٥ / ٢٤ .

(٥) الذريعة : تصغير الذراع ، وأرادت بالذريعتين : الساعدين تقول زينب : يكفيك فعل عائشة ، حين تقلب لك ذراعيها ؟ أى : كأنك لشدة حبك لها لا تنظر إلى أمر آخر .

(٦) سنن ابن ماجه ، كتاب النكاح ، باب « حسن معاشرة النساء » ، الحديث ١٩٨١ : ١/ ٦٣٧ .

ورواه الترمذى من حديث أبي الأحوص ، عن أبي حمزة ــ واسمه ميمون ــ ثم قال : « لانعرفه » إلا من حديثه ، وقد تكلم فيه من قبل حفظه(١) » .

وقوله : (إنما السبيل) ، أى : إنما الحرج والعنت (على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق) ، أى : يبدءون الناس بالظلم . كما جاء فى الحديث الصحيح : « المستبان ماقالا ، فعلى البادىء مالم يعتد المظلوم(٢) » .

(أولئك لهم عذاب أليم) ، أى : شديد موجع .

قال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا سعيد بن زيد ــ أخو حماد بن زيد ــ حدثنا عثمان الشحام ، حدثنا محمد بن واسع قال : قدمت مكة فإذا على الخندق مَنْظَرَة(٣) فأخذت فانطلق بى إلى مروان بن المهلب ، وهو أمير على البصرة ، فقال : حاجتَكَ ياأبا عبد الله . قلت : حاجتى إن استطعت أن تكون كما قال أخو بنى عدى . قال : ومَن أخو بنى عدى ؟ قال : العلاء بن زياد ، استعمل صديقا له مرة على عمل ، فكتب إليه : « أما بعد فإن استطعت أن لاتبيت إلا وظهرك خفيف ، وبطنك خَمِيصُ ، وكَفك نَقِية من دماء المسلمين وأموالهم ، فإنك إذا فعلت ذلك لم يكن عليك سبيل ، (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويبغون فى الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم) . فقال : صدق والله وَنَصح ثم قال : ماحاجتك ياأبا عبد الله ؟ قلت : حاجتى أن تلحقنى بأهلى . قال : نعم . رواه ابن أبي حاتم .

ثم إنه تعالى لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص ، قال نادباً إلى العفو والصفح : (ولمن صبر وغفر) ، أى : صبر على الأذى وستر السيئة ، (إن ذلك لمن عزم الأمور) .

قال سعيد بن جبير : لمن حق الأمور التى أمر الله بها ، أى : لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة التى عليها ثواب جزيل وثناء جميل .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عمران بن موسى الطرسوسى ، حدثنا عبد الصمد بن يزيد ــ خادم الفُضَيل ابن عياض ــ قال : سمعت الفُضَيل بن عياض يقول : إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلا فقل : « يا أخى ، اعف عنه » . فإن العفو أقرب للتقوى ، فإن قال : لا يحتمل قلبى العفو ، ولكن أنتصر كما أمرنى الله عز وجل . فقل له : إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو ، فإنه باب واسع ، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله ، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل ، وصاحب الانتصار يقلب الأمور .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى ــ يعنى ابن سعيد القطان ــ عن ابن عجلان ، حدثنا سعيد بن أبي سعيد ، عن أبي هُرَيرة رضى الله عنه : أن رجلا شتم أبا بكر والنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ جالس ، فجعل النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ

---

(١) تحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٦٢٢ : ٩/٥٤٠ .

(٢) مسلم ، كتاب البر ، باب « النهى عن السباب » : ٨/٢٠ ــ ٢١ . وسنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « المستبان » وتحفة الأحوذى ، أبواب البر ، باب « ما جاء فى الشتم » ، الحديث ٢٠٤٧ : ٦/١١٥ ، وقال الترمذى : « حسن صحيح » . ومسند الإمام أحمد عن أبي هريرة : ٢/٢٣٥ ، ٥١٧ . وعن عياض بن حمار : ٤/١٦٢ ، ٢٦٦ .

(٣) المنظرة : موضع الحرس ، وتكون فى رأس الجبل .

يعجب ويتبسم ، فلما أكثر ردّ عليه بعض قوله ، فغضب النبي — صلى الله عليه وسلم — وقام ، فلحقه أبو بكر فقال : يا رسول الله ، إنه كان يشتمني وأنت جالس ، فلما رددت عليه بعض قوله غضبتَ وقمتَ ! قال : « إنه كان معك ملَك يرد عنك ، فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان ، فلم أكن لأقعد مع الشيطان » ثم قال : يا أبا بكر ، ثلاث كلهن حق ، ما من عبد ظُلِم بمظلمة فيغضى عنها لله ، إلا أعزّ الله بها نَصْرَه ، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة ، إلا زاده الله بها كثرة ، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة ، إلا زاده الله بها قلة (١) » .

وكذا رواه أبو داود ، عن عبد الأعلى بن حماد ، عن سفيان بن عيينة — قال : ورواه صفوان بن عيسى ، كلاهما عن محمد بن عجلان . ورواه من طريق الليث ، عن سعيد المقبرى ، عن بشير بن المحرر ، عن سعيد بن المسيب مرسلا (٢) .
وهذا الحديث فى غاية الحسن فى المعنى ، وهو سبَبُ سبّه للصديق .

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة : إنه ما شاء كان ولا رادّ له ، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له ، وأنه من هداه فلا مُضِلّ له ، ومن يضلل فلا هادى له ، كما قال : (ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا (٣)) .

ثم قال مخبرا عن الظالمين ، وهم المشركون بالله (لما رأوا العذاب) ، أى : يوم القيامة يتمنون الرجعة إلى الدنيا ، (يقولون : هل إلى مَرَدّ من سبيل) ، كما قال : (ولو ترى إذ وقفوا على النار ، فقالوا : ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون (٤)) .

وقوله : (وتراهم يعرضون عليها) ، أى : على النار (خاشعين من الذل) ، أى : الذى قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله ، (ينظرون من طرف خفى) — قال مجاهد : يعنى ذليل . أى ينظرون إليها مُسارَقَةً خوفا منها ، والذى يحذرون منه واقع بهم لا محالة ، وما هو أعظم مما فى نفوسهم ، أجارنا الله من ذلك .

(وقال الذين آمنوا) ، أى : يقولون يوم القيامة : (إن الخاسرين) ، أى : الخَسَارَ الأكبرَ (الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة) ، أى : ذهب بهم إلى النار ، فعَدِموا لذّتهم فى دار الأبد ، وخسروا أنفسهم ، وفُرِّق بينهم وبين

(١) مسند الإمام أحمد : ٢/٤٣٦ .
(٢) سنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « فى الانتصار » ، الحديث ٤٨٩٦ ، ٤٨٩٧ : ٤/٢٧٤ .
(٣) سورة الكهف ، آية : ١٧ .
(٤) سورة الأنعام ، آية : ٢٧ — ٢٨ .

أصحابهم وأحبابهم وأهاليهم وقراباتهم ، فخسروهم ، (ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم) ، أى : دائم سرمدى أبدى ، لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها .

وقوله : (وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله) ، أى : ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال ، (ومن يضلل الله فما له من سبيل) ، أى : ليس له خلاص .

ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

لما ذكر تعالى ما يكون فى يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة ، حذّر منه وأمر بالاستعداد له ، فقال : (استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله) ، أى : إذا أمر بكونه فانه كلمح البصر يكون ، وليس له دافع ولا مانع .

وقوله : (مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير) ، أى : ليس لكم حصن تتحصنون فيه ، ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه ، فتغيبون عن بصره — تبارك وتعالى — بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته ، فلا ملجأ منه إلا إليه ، (يقول الإنسان يومئذ : أين المفر . كلا ، لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر)(١) .

وقوله : (فإن أعرضوا) ، يعنى المشركين : (فما أرسلناك عليهم حفيظا) ، أى : لست عليهم بمصيطر . وقال تعالى : (ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدى من يشاء) (٢) . وقال تعالى : (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب)(٣) . وقال هاهنا : (إن عليك إلا البلاغ) ، أى : إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم .

ثم قال تعالى : (وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها) ، أى : إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك ، (وإن تصبهم) يعنى الناس (سيئة) ، أى : جدب ونقمة وبلاء وشدة ، (فإن الإنسان كفور) ، أى : يجحد ما تقدم من النعمة ولا يعرف إلا الساعة الراهنة ، فان أصابته نعمة أشر وبطر ، وإن أصابته محنة يئس وقنط . كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معشر النساء ، تصدقن فإنى رأيتكن أكثر أهل النار » . فقالت امرأة : ولم يا رسول الله ؟ قال : « لأنكن تُكثرن الشكاية ، وتكفُرن العشير(٤) ، لو أحسنتَ إلى إحداهن الدهر ثم تركت يوما قالت : ما رأيت منك خيرا قط (٥) » . وهذا حال

---

(١) سورة القيامة ، الآيات : ١٠ — ١٢ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٧٢ .

(٣) سورة الرعد ، آية : ٤٠ .

(٤) أى : يجحدن إحسان أزواجهن .

(٥) البخارى ، كتاب الإيمان ، باب « كفران العشير » . : ١/١٤ . وكتاب الكسوف ، باب « صلاة الكسوف جماعة » : ٢/٤٦ . ومسلم ، باب صلاة الكسوف » : ٣/٣٣ — ٣٤ ، ومسند الإمام أحمد عن ابن عباس : ١/٢٩٨ ، ٣٥٨ — ٣٥٩ .

أكثر الناس إلا من هداه الله وألهمه رشده ، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فالمؤمن كما قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن (١) » .

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما ، وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه يعطى من يشاء ، ويمنع من يشاء ، ولا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، وأنه يخلق ما يشاء ، و (يهب لمن يشاء إناثا) ، أى : يرزقه البنات فقط — قال البغوى : ومنهم لوط عليه السلام — (ويهب لمن يشاء الذكور) ، أى : يرزقه البنين فقط . قال البغوى : كابراهيم الخليل — عليه السلام — لم يولد له أنثى ، (أو يزوجهم ذكرانا وإناثا) ، أى : ويعطى من يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى ، أى : من هذا وهذا قال البغوى كمحمد — عليه الصلاة والسلام — (ويجعل من يشاء عقيما) ، أى : لا يولد له . قال البغوى : كيحيى وعيسى عليهما السلام . فجعل الناس أربعة أقسام ، منهم من يعطيه البنات ، ومنهم من يعطيه البنين ، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورا وإناثا ، ومنهم من يمنعه هذا وهذا ، فيجعله عقيما لا نسل له ولا يولد له ، (إنه عليم) ، أى : بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام ، (قدير) ، أى : على من يشاء ، من تفاوت الناس فى ذلك .

وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى : (ولنجعله آية للناس (٢)) ، أى : دلالة لهم على قدرته — تعالى وتقدس — حيث خلق الخلق على أربعة أقسام ، فآدم — عليه السلام — مخلوق من تراب ، لا من ذكر ولا أنثى ، وحواء — عليها السلام — من ذكر بلا أنثى ، وسائر الخلق سوى عيسى من ذكر وأنثى ، وعيسى — عليه السلام — من أنثى بلا ذكر ؛ فتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم عليهما السلام . ولهذا قال : (ولنجعله آية للناس) ، فهذا المقام فى الآباء ، والمقام الأول فى الأبناء ، وكل منهما أربعة أقسام ، فسبحان العليم القدير .

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾

هذه مقامات الوحى بالنسبة إلى جناب الله عز وجل ، وهو أنه تعالى تارة يقذف فى روع النبى — صلى الله عليه وسلم —

---

(١) مسلم ، كتاب الزهد ، باب « المؤمن أمره خير كله » : ٨/٢٢٧ . ومسند الإمام أحمد عن صهيب بن سنان : ٤/٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٦/١٥ .

(٢) سورة مريم ، آية : ٢١ .

شيئا لا يمارى فيه أنه من الله عز وجل ، كما جاء فى صحيح ابن حبان ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « إن روح القدس نفث فى رُوعى : أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » .

وقوله : (أو من وراء حجاب) ، كما كلم موسى عليه السلام ، فانه سأل الرؤية بعد التكليم ، فحُجِب عنها .

وفى الصحيح أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال لجابر بن عبد الله : « ما كلم الله أحدا إلا من وراء حجاب ، وإنه كلم أباك كِفاحا (١) » ... الحديث(٢) ، وكان قد قتل يوم أحد ، ولكن هذا فى عالم البرزخ ، والآية إنما هى فى الدار الدنيا .

وقوله : (أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء) ، كما ينزل جبريل وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم السلام ، (إنه على حكيم) ، فهو على عليم خبير حكيم .

وقوله : (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) ، يعنى القرآن ، (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) ، أى : على التفصيل الذى شرع لك فى القرآن ، (ولكن جعلناه) ، أى : القرآن (نورا نهدى به من نشاء من عبادنا) ، كقوله : (قل : هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقروهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد (٣)) .

وقوله : (وإنك) يا محمد (لتهدى إلى صراط مستقيم) ، وهو الخلق القويم ، ثم فسره بقوله : (صراط الله) ، أى : شرعه الذى أمر به الله ، (الذى له مافى السموات ومافى الأرض) ، أى : ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما ، الحاكم الذى لا معقب لحكمه ، (ألا إلى الله تصير الأمور) ، أى ترجع الأمور ، فيفصلها ويحكم فيها .

آخر تفسير سورة « الشورى » والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) أى : مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول .

(٢) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة آل عمران ، الحديث ٤٠٩٧ : ٣٦٠/٨ . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » . وابن ماجه ، المقدمة ، الحديث ١٩٠ : ١٣/١ . وكتاب الجهاد ، باب « فضل الشهادة فى سبيل الله » . الحديث ٢٨٠٠ : ٩٣٦/٢ . هذا وانظر فيما تقدم تفسير الآية ١٦٩ من سورة آل عمران : ١٤١/٢ . وأسد الغابة ، ترجمة « عبد الله بن عمرو بن حرام » : ٣٤٦/٣ – ٣٤٨ ، بتحقيقنا .

(٣) سورة فصلت ، آية : ٤٤ .

تفسير سورة الزخرف

وهى مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ (١) وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨)

يقول تعالى : (حم والكتاب المبين) ، أى : البين الواضح الجلى المعانى والألفاظ ، لأنه نزل بلغة العرب التى هى أفصح اللغات للتخاطب بين الناس ، ولهذا قال : (إنا جعلناه) أى : أنزلناه (قرآنا عربيا) ، أى : بلغة العرب فصيحا واضحا ، (لعلكم تعقلون) ، أى : تفهمونه وتتدبرونه ، كما قال (بلسان عربى مبين [١]) .

وقوله [تعالى : (وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) ، بيَّن شرفه فى الملأ الأعلى ، ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض ، فقال تعالى] : (وإنه) ، أى : القرآن (فى أم الكتاب) ، أى : اللوح المحفوظ ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، (لدينا) ، أى : عندنا ، قاله قتادة وغيره ، (لعلى) أى : ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل ، قاله قتادة ، (حكيم) ، أى : محكم برىء من اللبس والزيغ .

وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله ، كما قال : (إنه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين [٢]) ، وقال : (كلا إنها تذكرة . فمن شاء ذكره . فى صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدى سفرة . كرام بررة [٣]) ، ولهذا استنبط العلماء – رحمهم الله – من هاتين الآيتين : أن المُحدِث لا يمس المصحف ، كما ورد به الحديث إن صح ، لأن الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن فى الملأ الأعلى ، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى ، لأنه نزل عليهم ، وخطابه متوجه إليهم ، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم ، والانقياد له بالقبول والتسليم ، لقوله : (وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) .

وقوله : (أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين ؟) ، اختلف المفسرون فى معناها ، فقيل : معناها أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به [٤] ؟ قاله ابن عباس ، ومجاهد وأبو صالح ، والسدى ، واختاره ابن جرير .

---

(١) سورة الشعراء ، آية ١٩٥ .

(٢) سورة الواقعة ، الآيات : ٧٧ – ٨٠ .

(٣) سورة عبس ، الآيات : ١١ – ١٦ .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٥/٣٠ .

وقال قتادة فى قوله : (أفنضرب عنكم الذكر صفحا ؟) ، والله لو أن هذا القرآن رفع حين ردّته أوائل هذه الأمة لهلكوا ، ولكن الله عاد بعائدته (١) ورحمته ، وكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة ، أو ما شاء الله من ذلك .

وقول قتادة لطيف المعنى جدا ، وحاصله أنه يقول فى معناه : أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير والذكر الحكيم — وهو القرآن — وإن كانوا مسرفين معرضين عنه ، بل أمر به ليتهدى من قدّر هدايته ، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته .

ثم قال تعالى مسليا لنبيه فى تكذيب من كذبه من قومه ، وآمرا له بالصبر عليهم ، (وكم أرسلنا من نبى فى الأولين) ، أى : فى شيع الأولين ، (وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون) ، أى : يكذبونه ويسخرون به .

وقوله : (فأهلكنا أشد منهم بطشا) ، [أى : فأهلكنا المكذبين بالرسل ، وقد كانوا أشد بطشا] ، من هؤلاء المكذبين لك يا محمد؟ كقوله : (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أكثر منهم وأشد قوة (٢)) ، والآيات فى ذلك كثيرة .

وقوله : (ومضى مثل الأولين) — قال مجاهد : سنتهم . وقال قتادة : عقوبتهم (٣) . وقال غيرهما : عبرتهم . أى : جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم ، كقوله فى آخر هذه السورة : (فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين (٤)) ، وكقوله : (سنة الله التى قد خلت فى عباده (٥)) ، وقال : (ولن تجد لسنة الله تبديلا (٦)) .

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى : ولئن سألت — يا محمد — هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره : (مَن خلق السموات والأرض ؟ ليقولن خلقهن العزيز العليم) ، أى : ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له ، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد .

(١) أى بفضله .
(٢) سورة غافر ، آية : ٨٢ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٥/٣٢ .
(٤) سورة الزخرف ، آية : ٥٦ .
(٥) سورة غافر ، آية : ٨٥ .
(٦) سورة الأحزاب ، آية : ٦٢ .

ثم قال : (الذى جعل لكم الأرض مهاداً)(١)، أى : فراشاً قراراً ثابتة ً يسيرون عليها ويقومون وينامون وينصرفون ، مع أنها مخلوقة على تيار الماء ، لكنه أرساها بالجبال لئلا تميد هكذا ولا هكذا ، (وجعل لكم فيها سبلا) ، أى : طرقا بين الجبال والأودية (لعلكم تهتدون) ، أى : فى سيركم من بلد إلى بلد ، وقطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم .

(والذى نزل من السماء ماء بقدر) ، أى بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم .

وقوله : (فأنشرنا به بلدة ميتا) ، أى : أرضا ميتة ، فلما جاءها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .

ثم نبه بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها ، فقال : (كذلك تخرجون) .

ثم قال : (والذى خلق الأزواج كلها) ، أى: مما تنبت الأرض من سائر الأصناف، من نبات وزروع وثمار وأزاهير ، وغير ذلك من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها ، (وجعل لكم من الفلك) ، أى : السفن (والأنعام ما تركبون) ، أى : ذللها لكم وسخرها ويسَّرها لأكلكم لحومها، وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها ، ولهذا قال : (لتستووا على ظهوره) ، أى : لتستووا متمكنين مرتفقين(٢) (على ظهوره) ، أى : على ظهور هذا الجنس ، (ثم تذكروا نعمة ربكم) ، أى : فيما سخر لكم (إذا استويتم عليه ، وتقولوا: سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) ، أى : مقاومين . ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه .

قال ابن عباس ، وقتادة ، والسدى ، وابن زيد : (مقرنين) ، أى : مطيقين(٣). (وإنا إلى ربنا لمنقلبون)، أى : لصائرون إليه بعد مماتنا ، وإليه سيرنا الأكبر . وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة ، كما نبه بالزاد الدنيوى على الأخروى فى قوله : [(وتزودوا فإن خير الزاد التقوى)(٤) ، وباللباس الدنيوى على الأخروى فى قوله تعالى] : (وريشا ولباس التقوى ذلك خير)(٥) .

ذكر الأحاديث الواردة عند ركوب الدابة

حديث أمير المؤمنين على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا شَريك بن عبد الله ، عن أبى إسحاق ، عن على بن ربيعة قال : رأيت عليا - رضى الله عنه - أتى بدابة(٦) ، فلما وضع رجله فى الركاب قال : باسم الله . فلما استوى عليها قال : الحمد لله ، (سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون) ، ثم حمد الله ثلاثا ، وكبر ثلاثا ، ثم قال : سبحانك ، لا إله إلا أنت ، قد ظلمت نفسى فاغفر لى . ثم ضحك فقلت له : من أى شىء(٧) ضَحِكتَ يا أمير المؤمنين ؟ فقال : رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم صنع كما صنعت(٨) ، ثم ضحك ،

---

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وهى قراءة ثابتة . انظر تفسير القرطبى : ١٦ / ٦٤ .
(٢) ارتفق القوم : صاروا رفقاء، يعنى أنهم يركبونها مترافقين فى سفرهم .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٥/ ٣٤ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ١٩٧ .
(٥) سورة الأعراف ، آية : ٢٦ .
(٦) فى المسند : « أتى بدابة ليركبها » .
(٧) فى المسند : « مم ضحكت » . ولفظ الترمذى يوافق ما هنا .
(٨) فى المسند : « فعل كما فعلت » . ولفظ الترمذى أيضاً يوافق ما هنا .

فقلت : مم ضحكت يا رسول الله ؟ فقال : « يعجب الرب من عبده إذا قال : « رب ، اغفر لى » ؛ ويقول : علم عبدى أنه لا يغفر الذنوب غيرى (١) » .

وهكذا رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، من حديث أبى الأحوص ــ زاد النسائى : ومنصور ــ عن أبى إسحاق السَّبيعى ، عن على بن ربيعة الأسدى الوالبى ، به ؛ وقال الترمذى : « حسن صحيح(٢) » .

وقد قال عبد الرحمن بن مهدى ، عن شعبة قلت لأبى إسحاق السَّبيعى : ممن سمعت هذا الحديث ؟ قال : من يونس بن خبَّاب ؛ فلقيت ، يونس بن خبَّاب فقلت : ممن سمعته ؟ فقال من رجل سمعه من على بن ربيعة ؛ ورواه بعضهم عن يونس ابن خباب ، عن شقيق بن عقبة الأسدى ، عن على بن ربيعة الوالبى ، به .

حديث عبد الله بن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا أبو بكر بن عبد الله ، عن على ابن أبى طلحة ، عن عبد الله بن عباس : إن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أردفه على دابته ، فلما استوى عليها كبر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ثلاثا ، وحمد ثلاثا ، وهلّل الله واحدة ؛ ثم استلقى عليه فضحك ، ثم أقبل عليه فقال : « ما من امرئ مسلم يركب دابة فيصنع كما صنعت ، إلا أقبل الله ــ عز وجل ــ عليه ، فضحك إليه كما ضحكت إليك » .
تفرد به أحمد (٣) .

حديث عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال الإمام أحمد : حدثنا أبو كامل ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن أبى الزبير ، عن على بن عبد الله البارق ، عن عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثا ثم قال : (سبحان الذى سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين ؛ وإنا إلى ربنا لمنقلبون) ؛ ثم يقول : اللهم ، إنى أسألك فى سفرى هذا البرَّ والتقوى ، ومن العمل ما تَرضَى ؛ اللهم ، هوِّن علينا السفر واطْو لنا البعيدَ ؛ اللهم، أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل ؛ اللهم ، اصحبنا فى سفرنا ، واخلفنا فى أهلنا » ؛ وكان إذا رجع إلى أهله قال : « آيبون تائبون إن شاء الله ، عابدون ، لربنا حامدون (٤) » .

وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائى ، من حديث ابن جريج ــ والترمذى من حديث حماد بن سلمة ــ كلاهما عن أبى الزبير ، به (٥) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١/٩٧ .

(٢) سنن أبى داود ، كتاب الجهاد ، باب « ما يقول إذا ركب » ؛ وتحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، باب « ما جاء ما يقول إذا ركب دابة » ، الحديث ٣٥١١ : ٩/٤٠٨ ــ ٤٠٩ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١/٣٣٠ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢/١٤٤ .

(٥) مسلم ، كتاب الحج ، باب « ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره » : ٤ / ١٠٤ . وسنن أبى داود ، كتاب الجهاد باب « ما يقول الرجل إذا سافر » . وتحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، باب « ما يقول إذا ركب دابة » ، الحديث ٣٥١٢ : ٩/٤٠٩ ــ ٤١٠ . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن » .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا محمد بن إسحاق ، عن محمد بن إبراهيم ، عن عمرو بن الحكم بن ثوبان ، عن أبي لاس الخزاعي قال : حملنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على إبل من إبل الصدقة إلى الحج ، فقلنا : يا رسول الله ، ما نرى أن تحملنا هذه ! فقال : « ما من بعير إلا في ذروته شيطان ، فاذكروا اسم الله عليها إذا ركبتموها كما آمركم ، ثم امتهنوها لأنفسكم ، فإنما يحمل الله عز وجل [١] » .

أبو لاس اسمه : محمد بن الأسود بن خلف [٢] :

حديث آخر في معناه ، قال أحمد : حدثنا عتّاب ، أخبرنا عبد الله (ح) وعلي بن إسحاق ، أخبرنا عبد الله — يعني ابن المبارك — أخبرنا أسامة بن زيد أخبرني محمد بن حمزة : أنه سمع أباه يقول : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « على ظهر كل بعير شيطان ، فإذا ركبتموها فسموا الله — عز وجل — ثم لا تقصروا عن حاجاتكم [٣] » .

وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فيما افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله ، كما ذكر الله عنهم في سورة الأنعام ، في قوله : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا : هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون [٤]) . وكذلك جعلوا له من قسمي البنات والبنين أخسّها وأردأهما وهو البنات ، كما قال تعالى : (ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى [٥]) . وقال هاهنا : (وجعلوا له من عباده جزءا ، إن الإنسان لكفور مبين) .

ثم قال : (أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ؟) ، وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار . ثم ذكر تمام الإنكار فقال : (وإذا بُشّر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ، ظل وجهه مسودا وهو كظيم) ، أي : إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة ، وتعلوه كآبة من سوء ما بُشّر به ويتوارى من القوم من خجله من ذلك ، يقول تعالى : فكيف تأنفون أنتم من ذلك ، وتنسبونه إلى الله عز وجل ؟ .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٢١/٤ . هذا وإنما تعجبوا من حملهم على إبل الصدقة لضعفها .

(٢) انظر أسد الغابة : ٨٠/٥ ، ٢٦٥/٦ بتحقيقنا .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٤٩٤/٣ .

(٤) سورة الأنعام ، آية : ١٣٦ .

ثم قال : (أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين) ، أى : المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلى منذ تكون طفلة ، وإذا خاصمت فلا عبارة لها ، بل هى عاجزة عَيِيَّة ، أوَ من يكون هكذا ينسب إلى جناب الله عز وجل ؟ ! ، فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن ، فى الصورة والمعنى ، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلى وما فى معناه ، ليجبر ما فيها من نقص ، كما قال بعض شعراء العرب :

وَمَا الحَلْىُ إلاّ زِينَةٌ مِنْ نَقِيصةٍ ... يُتَمِّمُ مِنْ حُسْنٍ إذا الحُسْنُ قَصَّرا

وَأَمَّا إذَا كَانَ الجَمَالُ مُوَفَّراً ... كَحُسْنِك ، لَمْ يَحْتَجْ إلىَ أنْ يُزَوَّرا

وأما نقص معناها فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار ، لا عبارة لها ولا همة ، كما قال بعض العرب وقد بُشِّر ببنت : «ما هى بنعم الولد : نصرُها بالبكاء ، وبرها سرقة(١) » .

وقوله : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) ، أى : اعتقدوا فيهم ذلك ، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك ، فقال : (أشهدوا خلقهم) ، أى : شاهدوه وقد خلقهم الله إناثاً ، (ستكتب شهادتهم) ، أى : بذلك ، (ويسألون) عن ذلك يوم القيامة . وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد .

(وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم) ، أى : لو أراد الله لحَال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام ، التى هى على صور الملائكة التى هى بنات الله ، فإنه عالم بذلك وهو يقررنا عليه ، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ :

أحدها : جَعْلُهم لله ولدا ، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيرا ؛

الثانى : دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين ، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ؛

الثالث : عبادتهم لهم مع ذلك كله ، بلا دليل ولا برهان ، ولا إذن من الله عز وجل ، بل بمجرد الآراء [والأهواء] ، والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء ، والخبط فى الجاهلية الجهلاء .

الرابع : احتجاجهم بتقريرهم على ذلك قدَرا ، وقد جهلوا فى هذا الاحتجاج جهلا كبيرا ، [فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار ، فانه منذ بعث الرسل] وأنزل الكتبَ يأمرُ بعبادته وحده لا شريك له ، وينهى عن عبادة ما سواه ، قال : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا : أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)(٢) . وقال تعالى : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ، أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون)(٣) .

وقال فى هذه الآية بعد أن ذكر حجتهم هذه : (ما لهم بذلك من علم) ، أى : بصحة ما قالوه واحتجوا به ، (إن هم إلا يخرصون) ، أى : يكذبون ويتقولون .

---

(١) انظر الإنصاف فى مسائل الخلاف لابن الأنبارى : ١/٩٩ .
(٢) سورة النحل ، آية : ٣٦ .
(٣) سورة الزخرف ، آية : ٤٥ .

وقال مجاهد فى قوله : (ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون) ، أى : ما يعلمون قدرة الله على ذلك [١] .

أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ * قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى منكرا على المشركين فى عبادتهم غيرَ الله بلا بُرهان ولا دليل ولا حُجَّة : (أم آتيناهم كتابا من قبله) ؟ [أى : من قبل شركهم] ، (فهم به مستمسكون) ، أى : فيا هم فيه . أى : ليس الأمر كذلك ، كقوله : (أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون [٢]) ، أى : لم يكن ذلك .

ثم قال : (بل قالوا : وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مهتدون)، أى : ليس لهم مستند فيا هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد ، بأنهم كانوا على أمة ، والمراد بها الدين هاهنا ، وفى قوله : (إن هذه أمتكم أمة واحدة [٣]) .

وقولهم : (وإنا على آثارهم) ، أى : وراءهم (مهتدون) ، دعوى منهم بلا دليل .

ثم بين تعالى أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل ، تشابهت قلوبهم ، فقالوا مثل مقالتهم : (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون[٤]) وهكذا قال هاهنا : (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون) .

ثم قال تعالى : (قل) — أى : يا محمد لهؤلاء المشركين — : (أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا : إنا بما أرسلتم به كافرون) ، أى : ولو علموا وتيقنوا صحة ما جئتهم به لما انقادوا لذلك بسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله .

قال الله تعالى : (فانتقمنا منهم) ، أى : من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب ، كما فصله تعالى فى قصصهم ، (فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) ؟ أى : كيف بادوا وهلكوا ، وكيف نجى الله المؤمنين ؟ .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٥/٣٦ .
(٢) سورة الروم ، آية : ٣٥ .
(٣) سورة الأنبياء ، آية : ٩٢ . وانظر تفسير هذه الآية فى : ٥/٣٦٥ – ٣٦٦ .
(٤) سورة الذاريات ، آية : ٥٢ ، ٥٣ .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء ، ووالد من بعث بعده من الأنبياء ، الذى تنتسب إليه قريش فى نسبها ومذهبها : أنه تبرأ من أبيه وقومه فى عبادتهم الأوثان ، فقال : (إننى براء مما تعبدون • إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين • وجعلها كلمة باقية فى عقبه) ، أى : هذه الكلمة ، وهى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وخلع ما سواه من الأوثان ، وهى : « لا إله إلا الله » ، أى : جعلها دائمة فى ذريته يقتدى به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عليه السلام ، (لعلهم يرجعون) ، أى : إليها .

وقال عكرمة ، ومجاهد ، والضحاك وقتادة ، والسدى ، وغيرهم فى قوله تعالى : (وجعلها كلمة باقية فى عقبه) ، يعنى : لا إله إلا الله ، لا يزال فى ذريته من يقولها(١) . ورُوى نحوه عن ابن عباس .

وقال ابن زيد : كلمة الإسلام ، وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة .

ثم قال تعالى : (بل متعت هؤلاء) ، يعنى المشركين ، (وآباءهم) ، أى : فتطاول عليهم العمر فى ضلالهم ، (حتى جاءهم الحق ورسول مبين) ، أى : بيّن الرسالة والنذارة .

(ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر وإنا به كافرون) ، أى : كابروه وعاندوه ودفعوا بالصدور والراح(٢) كفرا وحسدا وبغيا ، (وقالوا) كالمعترضين على الذى أنزله تعالى وتقدس : (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ، أى : هلاّ كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير فى أعينهم من القريتين ؟ يعنون مكة والطائف . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب القُرَظى ، وقتادة ، والسدىّ ، وابن زيد .

وقد ذكر غيرُ واحد منهم : أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفى ؛

(١) تفسير الطبرى : ٢٥/٣٨-٣٩ .
(٢) أى : الأكف .

وقال مالك عن زيد بن أسلم ، والضحاك ، والسدى : يعنون الوليد بن المغيرة ، ومسعود بن عمرو الثقفى ،

وعن مجاهد : عمير بن عمرو بن مسعود الثقفى ، وعنه أيضا : أنهم يعنون عتبة بن ربيعة ،

وعن ابن عباس : جبار من جبابرة قريش ، وعنه : أنهم يعنون الوليد بن المغيرة ، وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفى ،

وعن مجاهد : يعنون عتبة بن ربيعة بمكة ، وابن عبدياليل بالطائف ،

وقال السدى : عنوا الوليد بن المغيرة ، وكنانة بن عبد(١) عمرو بن عمير الثقفى ،

والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أىّ البلدتين كان ،

قال الله تعالى راداً عليهم فى هذا الاعتراض : (أهم يقسمون رحمة ربك ؟) ، أى : ليس الأمر مردودا إليهم ، بل إلى الله عز وجل ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته ، فانه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلبا ونفساً ، وأشرفهم بيتا ، وأطهرهم أصلا ،

ثم قال تعالى مبينا أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم ، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة ، فقال : (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) ،

وقوله : (ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) ، قيل : معناه لِيُسخر بعضهم بعضا فى الأعمال، لاحتياج هذا إلى هذا ، وهذا إلى هذا ، قاله السدى وغيره ،

وقال قتادة ، والضحاك : ليملك بعضهم بعضا ، وهو راجع إلى الأول ،

ثم قال : (ورحمة ربك خير مما يجمعون) ، أى : رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا ،

ثم قال تعالى : (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة) ، أى : لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه ، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال — هذا معنى قول ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم — (لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج) ، أى: سلالم ودَرَجاً من فضة — قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدى : وابن زيد ، وغيرهم — (عليها يظهرون) ، أى : يصعدون ، (ولبيوتهم أبوابا) ، أى : أغلاقا على أبوابهم (وسررا عليها يتكئون) ، أى : جميع ذلك يكون فضة ، (وزخرفاً) ، أى : وذهبا ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والسدى ، وابن زيد ،

ثم قال : (وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا) ، [أى : إنما ذلك من الدنيا] الفانية الزائلة الحقيرة عند الله ، أى : يعجل لهم بحسناتهم التى يعملونها فى الدنيا مآكل ومشاربَ ، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله حسنة يجزيهم بها ، كما ورد به الحديث الصحيح(٢) ، وورد فى حديث آخر : « لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ، ما سقى منها كافراً شَرْبة ماء » ، أسنده

---

(١) فى تفسير الطبرى ٢٥/٤٠ : « عبد بن عمرو » .

(٢) مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب « جزاء المؤمن بحسناته فى الدنيا والآخرة ، وتعجيل حسنات الكافر فى الدنيا » : ٨/١٣٥ ، ومسند الإمام أحمد عن أنس بن مالك : ٣/١٢٣ ، ١٢٥ ، ٢٨٣ .

البغوى من رواية زكريا بن منظور ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكره : ورواه الطبرانى من طريق زمعة بن صالح ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لو عدلت الدنيا جناح بعوضة ، ما أعطى كافرا منها شيئا » .

ثم قال : (والآخرة عند ربك للمتقين) ، أى : هى لهم خاصه لا يشاركهم فيها غيرهم : ولهذا لما قال عمر بن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين صعد إليه فى تلك المَشْرَبه لما آلى من نسائه ، فرآه على رُمَال حَصير قد أثَّر بجنبه ، فابتدرت عيناه بالبكاء ، وقال : يا رسول الله ، هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وأنت صفوة الله من خلقه . وكان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ متكئاً فجلس وقال : « أوَفِى شك أنت يا ابن الخطاب » ؟ ثم قال : « أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا » . وفى رواية : « أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ » (١) .

وفى الصحيحين أيضا وغيرهما أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا فى صحافها ، فانها لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة (٢) » . وإنما خولهم الله تعالى فى الدنيا لحقارتها ، كما روى الترمذى وابن ماجه ، من طريق أبى حازم ، عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كانت الدنيا تزنُ عند الله جناح بعوضة . ما سقى منها كافرا شربة ماء أبدا » ، قال الترمذى : « حسن صحيح (٣) » .

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى : (ومن يعش) ، أى : يتعامى ويتغافل ويعرض (عن ذكر الرحمن) ، والعشا فى العين : ضعف بصرها ، والمراد هاهنا عشا البصيرة ، (نقيض له شيطانا فهو له قرين) ، كقوله (ومن يُشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٣١ من سورة طه ، وخرجناه هنالك ، وشرحنا غريبة . انظر : ٥/٣٢٠ .

(٢) البخارى ، كتاب الأطعمة ، باب « الأكل فى إناء مفضض » : ٧/٩٩ . ومسلم ، كتاب اللباس والزينة ، باب « تحريم استعمال إناء الذهب والفضة » : ٦/١٣٦ .

(٣) أخرجاه فى الزهد . انظر تحفة الأحوذى ، باب « ما جاء فى هوان الدنيا على الله » ، الحديث ٢٤٢٢ : ٦/٦١١ . وابن ماجه باب « مثل الدنيا » ، الحديث ٤١١٠ : ٢/١٣٧٦ ــ ١٣٧٧ .

ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نوله ما تولى ، ونصلة جهنم وساءت مصيرا)(١) ، وكقوله : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم(٢) ، وكقوله : (وقيضنا لهم قرناءفزينوا لهم ما بين أيديهم وماخلفهم وحق عليهم القول فى أمم قدخلت من قبلهم من الجن والإنس، إنهم كانوا خاسرين)(٣) ولهذا قال هاهنا : (وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا) ، أى : هذا الذى تغافل عن الهدى نقيض له من الشياطين من يضله ، ويهديه إلى صراط الجحيم . فإذا وافى الله يوم القيامة يتبرم بالشيطان الذى وكل به ، (قال : يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) ؛ وقرأ بعضهم : (حتى إذا جاءانا)(٤) ، يعنى : القرين والمقارن .

قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن سعيد الجريرى قال : بلغنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيامة سفع (٥) بيده شيطان فلم يفارقه ، حتى يصيرهما الله تعالى إلى النار ، فذلك حين يقول : (ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين)(٦) .

والمراد بالمشرقين هنا هو : ما بين المشرق والمغرب . وإنما استعمل هاهنا تغليبا ، كما يقال : القمران، والعمران ، والأبوان . قاله ابن جرير (٧) وغيره .

ثم قال تعالى : (ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون) ، أى : لا يغنى عنكم اجتماعكم فى النار واشتراككم فى العذاب الأليم .

وقوله : (أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين ؟) ، أى : ليس ذلك إليك ، إنما عليك البلاغ ، وليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وهو الحكم العدل فى ذلك .

ثم قال : (فإما نذهبن بك ، فانا منهم منتقمون) ، أى : لا بد أن ننتقم منهم ونعاقبهم ، ولو ذهبت أنت ، (أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون) ، أى : نحن قادرون على هذا وعلى هذا . ولم يقبض الله رسوله حتى أقر عينه من أعدائه ، وحكمه فى نواصيهم ، وملكه ما تضمنته صياصيهم (٨) . هذا معنى قول السدى ، واختاره ابن جرير .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن معمر قال : تلا قتادة (فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون) فقال : ذهب النبى — صلى الله عليه وسلم — وبقيت النقمة ، ولم يُر الله نبيه — صلى الله عليه وسلم — فى أمته شيئا يكرهه ،

---

(١) سورة النساء ، آية : ١١٥ .
(٢) سورة الصف ، آية : ٥ .
(٣) سورة فصلت ، آية : ٢٥ .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٥ / ٤٤ .
(٥) أى : أخذ بيده .
(٦) أخرجه ابن جرير الطبرى ، عن ابن عبد الأعلى ، عن ابن ثور ، عن معمر ، به . انظر تفسير الطبرى : ٢٥/٤٥ .
(٧) تفسير الطبرى : ٢٥/٤٤ .
(٨) أى : حصونهم .

حتى مضى ولم يكن نبي قط إلا ورأى العقوبة فى أمته، إلا نبيكم صلى الله عليه وسلم . قال: وذُكر لنا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أُرِىَ ما يصيب أمته من بعده، فما رُئِى ضاحكا منبسطا حتى قبضه الله عز وجل (١) .

وذكر من رواية سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة نحوه . ثم روى ابن جرير [عن الحسن] ، نحو ذلك أيضا :

وفى الحديث : « النجوم أمَنَة للسماء، فاذا ذهبت النجوم أتى السماء ما تُوعَدُ(٢) وأنا أمَنَة لأصحابى، فاذا ذهبت أتى أصحابى ما يُوعَدُون (٣) » :

ثم قال تعالى : (فاستمسك بالذى أوحى إليك ، إنك على صراط مستقيم) ، أى : خذ بالقرآن المنزل على قلبك ، فانه هو الحق ، وما يهدى إليه هو الحق المُفضِى إلى صراط الله المستقيم ، الموصل إلى جنات النعيم ، والخير الدائم المقيم .

ثم قال : (وإنه لذكر لك ولقومك) ، قيل : معناه لشرف لك ولقومك ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدى، وابن زيد . واختاره ابن جرير (٤) ، ولم يحك سواه .

وأورد البَغَوىّ هاهنا حديثَ الزهرى ، عن محمد بن جُبير بن مُطعم ، عن معاوية قال : سمعتُ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « إن هذا الأمر فى قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا أكَبَّه الله على وجهه ما أقاموا الدين » . رواه البخارى (٥) .

ومعناه : أنه شرف لهم من حيث إنه أُنزلَ بلغتهم ، فهم أفهم الناس له ، فينبغى أن يكونوا أقوَم الناس به وأعملهم بمقتضاه ، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُلَّص من المهاجرين السابقين الأولين ، ومن شابههم وتابعهم .

وقيل : معناه (وإنه لذكر لك ولقومك) ، أى : لتذكير لك ولقومك ، وتخصيصهم بالذكر لا ينفى من سواهم . كقوله: (لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون (٦)) ، وكقوله : (وأنذر عشيرتك الأقربين (٧)) .

(وسوف تسألون) ، أى : عن هذا القرآن وكيف كنتم فى العمل به والإستجابة له .

وقوله : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ، أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) ؟ أى : جميع الرسل دَعَوا إلى ما دَعَوتَ الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ، ونَهوا عن عبادة الأصنام والأنداد . كقوله : (ولقد بعثنا فى

---

(١) تفسير : ٤٥/٢٥ .

(٢) الأمنة : الأمن والأمان . والمعنى : أن النجوم ما دامت باقية فالسماء باقية ، فإذا انكدرت النجوم وتناثرت ـ وذلك يوم القيامة ـ وهنت السماء فانفطرت وانشقت وذهبت ، وذلك ما توعد . وأراد عليه السلام بوعد أصحابه : ما وقع بينهم من الفتن .

(٣) مسلم ، كتاب فضائل الصحابة، باب « بيان أن بقاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمان لأصحابه ، وبقاء أصحابه أمان للأمة » : ١٨٣/٧ . ومسند الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعرى : ٣٩٨/٤ ـ ٣٩٩ .

(٤) تفسير الطبرى : ٤٦/٢٥ .

(٥) البخارى ، كتاب المناقب ، باب « مناقب قريش » . ٢١٧/١ ـ ٢١٨ . وكتاب الأحكام ، باب « الأمراء من قريش » ٧٧/٩ ـ ٧٨ .

(٦) سورة الأنبياء ، آية : ١٠ .

(٧) سورة الشعراء ، آية : ٢١٤ .

كل أمة رسولا : أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)(١) – قال مجاهد : فى قراءة عبد الله بن مسعود : (واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك رسلنا)(٢) . وهكذا حكاه قتادة والضحاك والسدى ، عن ابن مسعود . وهذا كأنه تفسير لا تلاوة ، والله أعلم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : واسألهم ليلة الإسراء (٣) فإن الأنبياء جُمعوا له : واختار ابن جرير الأول .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله موسى – عليه السلام –: إنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة، والأتباع والرعايا ، من القبط وبنى إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهاهم عن عبادة ما سواه ، وأنه بعث معه آيات عظاماً ، كيَده وعصاه ، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات ، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها ، وكذبوها وسخروا منها ، وضحكوا ممن جاءهم بها (وما تأتيهم من آية إلا هى أكبر من أختها) ، ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم ، وجهلهم وخبالهم . وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى – عليه السلام – ويتلطفون له فى العبارة بقولهم : (يا أيها الساحر) ، أى : العالم ، قاله ابن جرير (٤) . وكان علماء زمانهم هم السحرة . ولم يكن السحر عندهم فى زمانهم مذموما ، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم ، لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك ، وإنما هو تعظيم فى زعمهم ففى كل مرة يعدُون موسى إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا ويرسلوا معه بنى إسرائيل . وفى كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه ، وهذا كقوله : (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمَّل والضفادع والدم آيات مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين . ولما وقع عليهم الرجز قالوا : يا موسى ، ادع لنا ربك بما عهد عندك ، لئن كشفت عنا الرجزَ لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون)(٥) .

---

(١) سورة النحل ، آية : ٣٦ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٥ ⁄ ٤٦ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٥⁄ ٤٧ .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٥⁄ ٤٨ .

(٥) سورة الأعراف ، الآيات : ١٣٣ – ١٣٥ .

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده : أنه جمع قومه ، فنادى فيهم مُتَبَجِّحا مفتخرا بملك مصر وتصرفه فيها : (أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى ؟) — قال قتادة : قد كانت لهم جنانٌ وأنهار ماء (١) ، (أفلا تبصرون) ؟ أى : أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك ، يعنى : وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء . وهذا كقوله تعالى : (فحشر فنادى . فقال : أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى)(٢) .

وقوله : (أم أنا خير من هذا الذى هو مهين) ، قال السدى : يقول بل أنا خير من هذا (٣) الذى هو مهين : وهكذا قال بعض نحاة البصرة : إن « أم » هاهنا بمعنى « بل » . ويؤيد هذا ما حكاه الفراء عن بعض القراء أنه قرأها : (أما أنا خير من هذا الذى هو مهين) : قال ابن جرير : ولو صحت هذه القراءة لكان معناها صحيحا واضحا ، ولكنها خلاف قراءة الأمصار ، فإنهم قرأوا : (أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ؟) على الاستفهام (٢) .

قلت : وعلى كل تقدير فإنما يعنى فرعون عليه اللعنة — أنه خير من موسى — عليه السلام — وقد كذب فى قوله هذا كذبا بينا واضحا ، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة .

ويعنى بقوله (مهين) كما قال سفيان : حقير . وقال قتادة ، والسدى : يعنى ضعيف . وقال ابن جرير : يعنى لا مُلْك له ولا سلطان ولا مال :

(ولا يكاد يبين) ، يعنى : لا يكاد يفصح عن كلامه ، فهو عيىٌ حصر :

قال السدى : (لا يكاد يبين) ، أى : لا يكاد يفهم . وقال قتادة ، والسدى وابن جرير : يعنى عيى اللسان . وقال سفيان : يعنى فى لسانه شئ من الجَمْرَة حين وضعها فى فيه وهو صغير .

وهذا الذى قاله فرعون — لعنه الله — كذب واختلاق ، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد ، وهو ينظر إلى موسى — عليه السلام — بعين كافرة شقية ، وقد كان موسى عليه السلام من الجلالة والعظمة والبهاء فى صورة يبهر أبصار ذوى الألباب. وقوله : (مهين) كذب ، بل هو المهين الحقير خِلْقَةً وخلقا ودينا . وموسى هو الشريف الرئيس الصادق البار الراشد . وقوله : (ولا يكاد يبين) افتراء أيضا ، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه فى حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة ، فقد سأل

(١) تفسير الطبرى : ٢٥/٤٨ .
(٢) سورة النازعات ، الآيات : ٢٣ — ٢٥ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٥ / ٤٩ .

الله عز وجل أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله له فى قوله : (قد أوتيت سؤلك يا موسى) ، وبتقدير أن يكون قد بقى شىء لم يسأل إزالته ، كما قاله الحسن البصرى ، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام ، فالأشياء الخلْقية التى ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها ، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يدرى هذا ، وإنما أراد الترويج على رعيته ، فإنهم كانوا جهلة أغبياء ، وهكذا قوله : (فلولا ألقى عليه أساورة (١) من ذهب) ، أى : وهى ما يجعل فى الأيدى من الحلى ، قاله ابن عباس وقتادة وغير واحد ، (أو جاء معه الملائكة مقترنين) ، أى : يكتنفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه ، نظر إلى الشكل الظاهر ، ولم يفهم السر المعنوى الذى هو أظهر مما نظر إليه ، لو كان يعلم ، ولهذا قال تعالى : (فاستخف قومه فأطاعوه) ، أى : استخف عقولهم ، فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له ، (إنهم كانوا قوما فاسقين) .

قال الله تعالى : (فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين) — قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (آسفونا) : أسخطونا (٢) .

وقال الضحاك ، عنه : أغضبونا . وهكذا قال ابن عباس أيضا ، (٣) ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومحمد ابن كعب القرظى ، وقتادة والسدى ، وغيرهم من المفسرين .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب ، حدثنا عمى ، حدثنا ابن لهيعة ، عن عقبة بن مسلم التجيبى عن عقبة بن عامر أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « إذا رأيت الله عز وجل يعطى العبد ما شاء وهو مقيم على معاصيه ، فإنما ذلك استدراج منه له » ، ثم تلا : (فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين) .

وحدثنا أبى ، حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحمانى ، حدثنا قيس بن الربيع ، عن قيس بن مسلم ، عن طارق بن شهاب قال : كنت عند عبد الله فذكر عنده موت الفجأة ، فقال : تخفيف على المؤمن ، وحسرة على الكافر . ثم قرأ : (فلما آسفونا انتقمنا منهم) .

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : وجدت النقمة مع الغفلة . يعنى قوله : (فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين) .

وقوله : (فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) — قال أبو مجلز : (سلفا) لمثل من عمل بعملهم .

وقال هو ، ومجاهد : (ومثلا) ، أى : عبرة لمن بعدهم .

---

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر . وهى قراءة نسبها الطبرى إلى عامة قراء المدينة والبصرة والكوفة ، وقال : « وذكر عن الحسن البصرى أنه كان يقرؤه : (أسورة من ذهب) . وأولى القراءتين فى ذلك بالصواب ما عليه قراءة الأمصار ، وإن كانت الأخرى صحيحة المعنى » . تفسير الطبرى : ٢٥/٤٩ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٥/٥٠ .

(٣) كذا فى المخطوطة والطبعات السابقة ، ومعلوم أن ما تقدم هو قول ابن عباس ، وانظر تفسير القرطبى : ١٦/١٠١ .

* وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾

يقول تعالى مخبرا عن تعنت قريش فى كفرهم وتعمدهم العناد والجدل : (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون)ـ قال غير واحد ، عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة والضحاك ، والسدى : يضحكون ، [أى : أعجبوا بذلك .

وقال قتادة : يجزعون ويضحكون] وقال إبراهيم النخعى : يعرضون .

وكان السبب فى ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق فى السيرة حيث قال : وجلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما بلغنى يوما مع الوليد بن المغيرة فى المسجد ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم ، وفى المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعرض له النضر بن الحارث ، فكلمه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أفحمه ، ثم تلا عليه وعليهم : (إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم أنتم لها واردون) ... الآيات . ثم قام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقبل عبد الله بن الزِّبعرى التميمى ، حتى جلس فقال الوليد بن المغيرة له : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصبه جهنم ، فقال عبدالله بن الزبعرى : أما والله لو وجدته لخَصَمْتُه ، سلوا محمدا : أكل ما يعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده ، فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيرا ، والنصارى تعبدالمسيح ابن مريم ؟ . فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم ، فَذُكِرَ ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « كل من أَحَبّ(١) أن يعبد من دون الله ، فهو مع مع من عبده ، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته » ، فأنزل الله عز وجل : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) ، أى : عيسى وعزير ومن عُبِد معهما من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله عز وجل ، فاتخذهم [من يعبدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله . ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله ، (وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا ، سبحانه ، بل عباد مكرمون) ... الآيات ، ونَزَل فيما يذكر من أمر عيسى وأنه يعبد من دون الله . وعَجِب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته : (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون) ، أى : يصدون عن أمرك بذلك من قوله . ثم ذكر عيسى فقال : (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل ، ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون ، وإنه لعلم للساعة) ، أى : ماوضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام ، فكفى به دليلا على علم الساعة ، يقول : (فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم)(٢) .

---

(١) فى المخطوطة : « من أراد » . والمثبت عن السيرة ، والسياقة التى قدمها ابن كثير فى سورة الأنبياء .

(٢) تقدم الأثر فى سورة الأنبياء ، عند تفسير الآية ٩٨ . وخرجناه هنالك ، وشرحنا غريبه . انظر ٥/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦ .

وذكر ابن جرير من رواية العوفى، عن ابن عباس قوله: (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون) ، قال: يعنى قريشا ، لما قيل لهم : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) إلى آخر الآيات ، فقالت له قريش : فما ابن مريم ؟ قال : « ذاك عبد الله ورسوله » . فقالوا : والله ما يريد هذا إلا أن نتخذه ربا ، كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم ربا فقال الله تعالى : (ما ضربوه لك إلا جدلا ، بل هم قوم خصمون)(١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا شيبان ، عن عاصم بن أبى النَّجُود ، عن أبى رَزين ، عن أبى يحيى — مولى ابن عقيل الأنصارى — قال : قال ابن عباس : لقد علمت آية من القرآن ما سألنى عنها رجل قط ، فما أدرى أعلمها الناس فلم يسألوا عنها ، أم لم يفطنوا لها فيسألوا عنها . قال ثم طفق يحدثنا ، فلما قام تلاوَمْنا أن لا نكون سألناه عنها . فقلت : أنا لها إذا راح غدا . فلما راح الغدَ قلت : يا ابن عباس ، ذكرتَ أمس أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط ، فلا تدرى أعلمها الناس أم لم يفطنوا لها ؟ فقلت : أخبرنى عنها وعن اللاتى قرأت قبلها . قال : نعم ، إن رسول الله — صلى الله عليه سلم — قال لقريش : « يا معشر قريش ، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خيرٌ » ، وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم وما تقول فى محمد — فقالوا : يا محمد ، ألست تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا من عباد الله صالحا ، فإن كنت صادقا كان آلهتهم كما تقولون(٢) ؟ ، قال : فأنزل الله : (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون) . قلت : ما يَصدّون ؟ قال : يضحكون ، (وإنه لعلم للساعة) ، قال : هو خروج عيسى ابن مريم قبل القيامة(٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن يعقوب الدمشقى ، حدثنا آدم ، حدثنا شيبان ، عن عاصم بن أبى النجود ، عن أبى أحمد مولى الأنصار ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « يا معشر قريش ، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير » . فقالوا له : ألست تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا من عباد الله صالحا ، فقد كان يعبد من دون الله ؟ فأنزل الله عز وجل : (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون) .

وقال مجاهد فى قوله : (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون) ، قالت قريش : إنما يريد محمد أن نعبده كما عبد قوم عيسى [عيسى(٤)] . ونحو هذا قال قتادة .

وقوله : (وقالوا أآلهتنا خير أم هو) — قال قتادة : يقولون : آلهتنا خير منه . وقال قتادة : قرأ ابن مسعود(٥) : (وقالوا أآلهتنا خير أم هذا) ، يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم(٦) .

وقوله : (ما ضربوه لك إلا جدلا) ، أى : مراء ، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية ، لأنها لما لا يعقل ، وهى قوله : (إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم) . ثم هى خطاب لقريش ، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد ، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه ، فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدَلاً ، منهم ليسوا يعتقدون صحتها .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٥/ ٥٢ .

(٢) فى المسند : « فلئن كنت صادقاً ، فإن آلهتهم لكما تقولون » .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١/ ٣١٨ .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٥/ ٥١ .

(٥) كذا ، وفى تفسير الطبرى أن هذه قراءة أبى بن كعب .

(٦) تفسير الطبرى : ٢٥/ ٥٣ .

وقد قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : حدثنا ابن نمير ، حدثنا حجّاج بن دينار ، عن أبي غالب ، عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما ضل قوم بعد هُدى كانوا عليه إلا أورثوا الجدل » ، ثم تلا هذه الآية : (ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون (١)) .

وقد رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن جرير ، من حديث حجاج بن دينار ، به . ثم قال الترمذي : «حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديثه(٢)» . كذا قال ، وقد روى من وجه آخر عن أبي أمامة بزيادة ، فقال ابن أبي حاتم : حدثنا حميد بن عياش الرملي ، حدثنا مؤمّل ، حدثنا حماد ، أخبرنا ابن مخزوم ، عن القاسم أبي عبد الرحمن الشامي ، عن أبي أمامة قال حماد : لا أدرى رفعه أم لا ؟ قال : ما ضلت أمة بعد نبيها إلا كان أول ضلالها التكذيب بالقدر ، وما ضلت أمة بعد نبيها إلا أعطوا الجدل ، ثم قرأ : (ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون) .

وقال ابن جرير أيضا : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، عن عبّاد بن عباد ، عن جعفر (٣) ، عن القاسم ، عن أبي أمامة قال : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن ، فغضب غضبا شديدا حتى كأنما صب على وجهه الخل ، ثم قال : « لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا الجدل » ، ثم تلا : (ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون (٤)) .

وقوله : (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) ، يعني عيسى عليه السلام ما هو إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة ، (وجعلناه مثلا لبني إسرائيل) ، أي : دلالة وحجة وبرهانا على قدرتنا على ما نشاء .

وقوله : (ولو نشاء لجعلنا منكم) ، أي : بدلكم (ملائكة في الأرض يخلفون) ـ قال السدي : يخلفونكم فيها (٥) . وقال ابن عباس ، وقتادة : يخلف بعضهم بعضا ، كما يخلف بعضكم [بعضا] . وهذا القول يستلزم الأول . وقال مجاهد : يعمرون الأرض بدلكم .

وقوله : (وإنه لعلم للساعة) ـ تقدم تفسير ابن إسحاق : أن المراد من ذلك ما بُعث به عيسى ـ عليه السلام ـ من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وغير ذلك من الأسقام . وفي هذا نظر . وأبعد منه ما حكاه قتادة ، عن الحسن البصري [وسعيد بن جبير : أي الضمير في (وإنه) ، عائد على القرآن ، بل الصحيح أنه عائد على عيسى ، فإن السياق في ذكره ، ثم المراد بذلك نزوله قبل [يوم القيامة ، كما قال تبارك وتعالى : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته (٦)) ، أي : قبل موت عيسى عليه الصلاة والسلام ، ثم] (ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا(٦)) ، ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى :

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/٢٥٦ . وانظر أيضاً : ٥/٢٥٢ .

(٢) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة الزخرف ، الحديث ٢٣٠٦ : ٩/١٣٠ – ١٣١ . وابن ماجه ، المقدمة ، الحديث ٤٨ : ١/١٩ . وتفسير الطبري : ٢٥/٥٣ .

(٣) في تفسير الطبري : « جعفر بن القاسم » . وهو خطأ . وجعفر هذا هو جعفر بن الزبير ، يروى عن أبي عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن . انظر التهذيب : ٢/٩٠ .

(٤) تفسير الطبري : ٢٥/٥٣ .

(٥) تفسير الطبري : ٢٥/٥٤ .

(٦) سورة النساء ، آية : ١٥٩ .

(وإنه لعَلَم للساعة)(١) ، أى : [أمارة ودليل على وقوع] الساعة(٢) ، قال مجاهد : (وإنه لعلم للساعة) ، أى : آية للساعة خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة . وهكذا روى عن أبى هريرة ، وابن عباس ، وأبى العالية ، وأبى مالك ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم .

وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه أخبر بنزول عيسى – عليه السلام – قبل يوم القيامة إماما عادلا وحكما مقسطا .

وقوله : (فلا تمترن بها) ، أى : لا تشكوا فيها ، إنها واقعة وكائنة لا محالة ، (واتبعون) ، أى : فيما أخبركم به (هذا صراط مستقيم . ولا يصدنكم الشيطان) ، [أى : عن اتباع الحق] (إنه لكم عدو مبين . ولما جاء عيسى بالبينات قال : قد جئتكم بالحكمة) ، أى : بالنبوة ، (ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه) :

قال ابن جرير : يعنى من الأمور الدينية لا الدنيوية(٣) . وهذا الذى قاله حسن جيد ، ثم رد قول من زعم أن « بعض » هاهنا بمعنى « كل » ، واستشهد بقول لبيد الشاعر (٤) :

تَرَّاكُ أمْكِنَةٍ إذَا لَمْ أرْضَهَا أوْ يَعْتَلِقْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا

وأولوه على أنه أراد جميع [النفوس] . قال ابن جرير : وإنما أراد نفسه فقط ، وعبر بالبعض عنها(٥) : وهذا الذى قاله محتمل .

وقوله : (فاتقوا الله) ، أى : أمركم به ، (وأطيعون) ، فيما جئتكم به ، (إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم)، [أى : أنا وأنتم عبيد له ، فقراء إليه ، مشتركون فى عبادته وحده لا شريك له ، (هذا صراط مستقيم)] ، أى : هذا الذى جئتكم به هو الصراط المستقيم ، وهو عبادة الرب – عز وجل – وحده .

وقوله : (فاختلف الأحزاب من بينهم) ، أى : اختلفت الفرق وصاروا شيعا فيه ، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله – وهو الحق – ومنهم من يدعى أنه ولد الله ، ومنهم من يقول : إنه الله – تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا – ولهذا قال : (فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم) :

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٥/٥٤ – ٥٥ .

(٢) فى المخطوطة : « أى : آية للساعة » . ونحسبه سهو من الناسخ ، أخذه من أثر مجاهد الذى يأتى . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٥/٥٥ .

(٤) شرح ديوان لبيد العامرى : ٣١٣ .

(٥) لفظ الطبرى ٢٥/٥٥ : « وأما قول لبيد (أو يعتلق بعض النفوس) ، فإنه إنما أراد : أو يعتلق نفسه حمامها ، ونفسه من بين النفوس ، لا شك أنها بعض لا كل » .

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣)

يقول تعالى : هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل (إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ، وهم لا يشعرون) ؟ أى : فإنها كائنة لا محالة وواقعة ، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين. فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها ، فحينئذ يندمون كل الندم ، حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم .

وقوله : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) ، أى : كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله عز وجل ــ فإنه دائم بدوامه . وهذا كما قال إبراهيم ــ عليه السلام ــ لقومه : (إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا ، ومأواكم النار ، وما لكم من ناصرين)(١) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن الحارث ، عن على رضى الله عنه : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) ، قال : خليلان مؤمنان ، وخليلان كافران ، فتوفى أحد المؤمنين وبشر بالجنة فذكر خليله ، فقال : اللهم ، إن فلانا خليلى كان يأمرنى بطاعتك وطاعة رسولك ، ويأمرنى بالخير وينهانى عن الشر ، وينبئنى أنى ملاقيك ، اللهم فلا تضله بعدى حتى تريه مثل ما أريتنى ، وترضى عنه كما رضيت عنى . فيقال له : اذهب فلو تعلم ماله عندى لضحكت كثيرا وبكيت قليلا . قال : ثم يموت الآخر ، فتجتمع أرواحهما ، فيقال : ليثن أحدُكما على صاحبه ، فيقول كل واحد منهما لصاحبه : نعم الأخ ، ونعم الصاحب ، ونعم الخليل . وإذا مات أحد الكافرين وبشر بالنار ذَكَر خليله فيقول : اللهم ، إن خليلى فلانا كان يأمرنى بمعصيتك ومعصية رسولك ، ويأمرنى بالشر وينهانى عن الخير ، ويخبرنى أنى غير ملاقيك ، اللهم فلا تَهْده بعدى حتى تريه مثل ما أريتنى ، وتَسخَط عليه كما سَخِطت على . قال : فيموت الكافر الآخر ، فيجمع بين أرواحهما . فيقال : ليُثْنِ كل واحد منكما على صاحبه . فيقول كل واحد منهما لصاحبه : بئس الأخ ، وبئس الصاحب ، وبئس الخليل . رواه ابن أبى حاتم (٢) .

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين .

---

(١) سورة العنكبوت ، آية : ٢٥ .

(٢) ورواه ابن جرير من غير هذه الطريق ، انظر : ٢٥/٥٦ .

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة هشام بن أحمد ، عن هشام بن عبد الله بن كثير : حدثنا أبو جعفر محمد بن الخضر بالرقة ، عن معافى : حدثنا حكيم(١) بن نافع ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « لو أن رجلين تحابا فى الله ، أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب، لجمع الله بينهما يوم القيامة ، يقول : هذا الذى أحببته فىّ » .

وقوله : (يا عباد ، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) ، [ثم بشرهم فقال : (الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) ، أى : آمنت قلوبهم وبواطنهم ، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم .

قال المعتمر بن سليمان ، عن أبيه : إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع ، فينادى مناد : (يا عباد، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون)] فيرجوها الناس كلهم، قال : فيُتْبِعها : (الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) ، قال : فييأس الناس منها غير المؤمنين(٢) .

(ادخلوا الجنة)، أى : يقال لهم : ادخلوا الجنة (أنتم وأزواجكم)، أى : نظراؤكم (تحبرون)، أى تنعمون وتسعدون وقد تقدم تفسيرها فى سورة الروم .

(يطاف عليهم بصحاف من ذهب) ، أى : زبادىّ (٣) آنية الطعام ، (وأكواب) ، وهى : آنية الشراب ، أى : من ذهب لا خراطيم لها ولا عُرَى ، (وفيها ما تشتهى الأنفس) — وقرأ بعضهم : (تشتهيه الأنفس)(٤) — (وتلذ الأعين)، أى : طيب الطعم والريح وحسن المنظر .

قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، أخبرنى إسماعيل بن أبى سعيد ، عن عكرمة — مولى ابن عباس — أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أدنى أهل الجنة منزلة وأسفلهم درجة ، لَرَجُلٌ لا يدخل الجنة [بعده] أحد ، يُفْسَح له فى بصره مسيرة مائة عام فى قصور من ذهب ، وخيام [من] لؤلؤ ، ليس فيها موضع شبر إلا معمور يغدى عليه ويراح بسبعين ألف صحفة من ذهب ، ليس فيها صحفة إلا فيها لون ليس فى الأخرى ، مثله شهوته فى آخرها كشهوته فى أولها ، لو نزل به جميع أهل الأرض لوسع عليهم مما أعطى ، لا ينقص ذلك مما أوتى شيئا(٥) » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين بن الجنيد ، حدثنا عمرو بن سَوَّاد السَّرْحى ، حدثنا عبد الله بن وهب ، عن ابن لَهِيعَة ، عن عُقَيل بن خالد ، عن الحسن ، عن أبى هريرة : أن أبا أمامة — رضى الله عنه — حدث أن رسول الله —

---

(١) فى المخطوطة : « عن معافى بن حكيم » . والمثبت عن الطبعات السابقة . وفى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ١/ ٢/ ٢٠٧ : « حكيم بن نافع الرقى ، روى عن الأعمش ، وعنه معافى بن سليمان » .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٥/ ٥٧ .

(٣) كذا فى مخطوطة الأزهر بالباء . وفى الطبعات السابقة « زيادى » ، بالياء . ولعلها كلمة شامية .

(٤) قال الطبرى ٢٥/ ٥٨ : « واختلفت القراء فى قراءة قوله : (وفيها ما تشتهيه الأنفس) ، فقرأته عامة قراء المدينة والشام : (ما تشتهيه) ، بزيادة هاء . وكذلك ذلك فى مصاحفهم . وقرأ ذلك عامة قراء العراق (تشتهى) بغير هاء . وكذلك هو فى مصاحفهم . والصواب من القول فى ذلك أنهما قراءتان مشهورتان بمعنى واحد ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب » .

(٥) أخرج عبد بن حميد نحوه عن عكرمة . انظر الدر المنثور ٦/ ٢٢ .

صلى الله عليه وسلم ـ حدثهم ـ وذكر الجنة ـ فقال : « والذى نفس محمد بيده ، ليأخُذَنَّ أحدكم اللقمة فيجعلها فى فيه ثم يخطر على باله طعام آخر ، فيتحول الطعام الذى فى فيه على الذى اشتهى » ثم قرأ: (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون) »

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ـ هو ابن موسى ـ حدثنا سُكَيْن بن عبد العزيز ، حدثنا الأشعث الضرير (١) ، عن شهر بن حوشب ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة إن له لسبع درجات ، وهو على السادسة وفوقه السابعة ، وإن له ثلثمائة خادم ، ويُغْدَى عليه ويراح كل يوم بثلاثمائة صحفة ـ ولا أعلمه إلا قال : من ذهب ـ فى كل صحفة لون ليس فى الأخرى ، وإنه لَيَلَذّ أوله كما يلذ أخره ، [ومن الأشربة ثلاثمائة إناء ، فى كل إناء لون ليس فى الآخر ، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره (٢)] وإنه يقول : يا رب ، لو أذنت لى لأطعمت أهل الجنة وسقيتهم ، لم ينقص مما عندى شئ ، وإن له من الحور العين لاثنين (٣) وسبعين زوجة سوى أزواجه من الدنيا ، وإن الواحدة منهن ليأخذ مقعدها قدرَ ميل من الأرض (٤) »

(وأنتم فيها) ، أى : فى الجنة (خالدون) ، أى: لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولا : ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان : (وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون) ، أى : أعمالكم الصالحة كانت سببا لشمول رحمة الله إياكم ، فإنه لا يدخل أحداً عملُه الجنة ، ولكن بفضل من الله ورحمته . وإنما الدرجات تفاوتها بحسب عمل الصالحات .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا الفضل بن شاذان المقرئ ، حدثنا يوسف بن يعقوب ـ يعنى الصفار ـ حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كل أهل النار يرى منزله من الجنة حسرة ، فيقول : (لو أن الله هدانى لكنت من المتقين) . وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول : (وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) ، ليكون له شكرا » . قال : وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما من أحد إلا وله منزل فى الجنة ومنزل فى النار ، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار . والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة » وذلك قوله تعالى : (وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون) .

وقوله : (لكم فيها فاكهة كثيرة) ، أى: من جميع الأنواع ، (منها تأكلون) ، أى : مهما اخترتم وأردتم : ولما ذكر الطعام والشراب ، ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة .

---

(١) فى المخطوطة : « أبو الأشعب » . والصواب عن المسند . وهو الأشعث بن عبد الله بن جابر الحدانى . انظر ترجمته فى الجرح والتعديل : ١/١/٢٧٢ .

(٢) ما بين القوسين غير ثابت فى مخطوطة الأزهر والمسند ، ولعله سقط منهما سقط نظر . وقد أثبتناه عن الطبعات السابقة .

(٣) كذا فى المخطوطة والمسند . وقياس العربية أن يقال : « لاثنتين » .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢/٥٣٧ .

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾

لما ذكر حال السعداء ، ثنّى بذكر الأشقياء ، فقال: (إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون . لا يُفتَّر عنهم) ، أى : ساعة واحدة (وهم فيه مبلسون) ، أى : آيسون من كل خير ، (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) ، أى : بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجج عليهم وإرسال الرسل إليهم ، فكذبوا وعصوا ، فجوزوا بذلك جزاء وفاقا ، وما ربك بظلام للعبيد .

(ونادوا : يا مالك) ، وهو : خازن النار .

قال البخارى : حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن عطاء ، عن صفوان بن يعلى ، عن أبيه قال : سمعت رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم – يقرأ على المنبر : (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك)[1] .

أى : ليَقْبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه ، فإنهم كما قال تعالى: (لا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها)[2]، وقال : (ويتجنبها الأشقى . الذى يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت فيها ولا يحيا)[3] ، فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك ، (قال : إنكم ماكثون) – قال ابن عباس : مكث ألف سنة ، ثم قال : إنكم ماكثون . رواه ابن أبى حاتم .

أى : لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها .

ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال : (لقد جئناكم بالحق) ، أى : بيناه لكم ووضحناه وفسرناه ، (ولكن أكثركم للحق كارهون) ، أى: ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه ، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه، وتَصُدّ عن الحق وتأباه ، وتُبغضُ أهله . فعودوا على أنفسكم بالملامة ، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة .

ثم قال تعالى : (أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون) – قال مجاهد : أرادوا كيد شر فكدناهم[4] .

وهذا الذى قاله مجاهد كما قال تعالى : (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون) ، وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون فى رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه ، فكادهم الله، ورد وبال ذلك عليهم ، ولهذا قال : (أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم) ، أى : سرهم وعلانيتهم ، (بلى ورسلنا لديهم يكتبون) ، أى : نحن نعلم ما هم عليه ، والملائكة أيضا يكتبون أعمالهم ، صغيرَها وكبيرَها .

---

(١) البخارى ، تفسير سورة الزخرف : ٦/١٦٣ .
(٢) سورة فاطر ، آية : ٣٦ .
(٣) سورة الأعلى ، الآيات : ١١ – ١٣ .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٥/٥٩ .

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

يقول تعالى : (قل) يا محمد (إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) ، أى : لو فرض هذا لعبدته على ذلك ، لأنى عبد من عبيده ، مطيع لجميع ما يأمرنى به ، ليس عندى استكبار ولا إباء عن عبادته ، فلو فرض كان هذا ، ولكن هذا ممتنع فى حقه تعالى ، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضا ، كما قال تعالى : (لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء ، سبحانه هو الله الواحد القهار (١)) .

قال بعض المفسرين فى قوله (فأنا أول العابدين) ، أى : الآنفين . ومنهم سفيان الثورى ، والبخارى حكاه فقال : ويقال أول العابدين : الجاحدين من عَبِدَ يَعْبَدُ (٢) .

وذكر ابن جرير لهذا القول من الشواهد مارواه عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وهب : حدثنى ابن أبى ذئب عن أبى قسيط ، عن بعجة بن زيد الجهنى : أن امرأة منهم دخلت على زوجها ـ وهو رجل منهم أيضا ـ فولدت له فى ستة أشهر ، فذكر ذلك زوجُها لعثمانَ بن عفان ـ رضى الله عنه ـ فأمر بها أن ترجم ، فدخل [عليه] على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ فقال : إن الله يقول فى كتابه : (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) ، وقال : (وفصاله فى عامين) ، قال : فو الله ما عَبِد عثمان ـ رضى الله عنه ـ أن بعث إليها : تردّ ـ قال : يونس : قال ابن وهب : عَبِد : استنكف (٣) .

قال الشاعر :

مَتَى مَا يَشَأْ ذُو الوُدِّ يَصْرِمْ خَلِيلَه ... وَيَعْبَدْ عَلَيْه لاَ مَحَالَةَ ظَالِماً (٤)

وهذا القول فيه نظر ، لأنه كيف يلتئم مع الشرط فيكون تقديره : إن كان هذا فأنا ممتنع منه ؟ هذا فيه نظر ، فليتأمل . اللهم إلا أن يقال : إن «إن» ليست شرطا ، وإنما هى نافية ، كما قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : (قل إن كان للرحمن ولد) ، يقول : لم يكن للرحمن [ولد] فأنا أول الشاهدين (٤) .

وقال قتادة : هى كلمة من كلام العرب : (إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) ، أى : إن ذلك لم يكن فلا ينبغى

(١) سورة الزمر ، آية : ٤ وانظر : ٧/٧٥ .
(٢) البخارى ، تفسير سورة الزخرف : ٦/١٦٣
(٣) تفسير الطبرى : ٢٥/٦١ .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٥/٦٠ .

وقال أبو صخر : (قل : إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) ، أى : فأنا أول من عبده بأن لا ولد له ، وأول من وحده . وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقال مجاهد : (فأنا أول العابدين) ، أى : أول من عَبَدَه ووحده وكذبكم .

وقال البخارى : (فأنا أول العابدين) : الآنفين . وهما لغتان [رجل] عابد وعَبِد" (١) .

والأول أقرب على أنه شرط وجزاء ، ولكن هو ممتنع .

وقال السدى : (قل : إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) ، يقول : لو كان له ولد كنت أول من عبده ، بأن له ولدا ، لكن لا ولد له (٢) . وهو اختيار ابن جرير ، ورد قول من زعم أن « إن » نافية .

ولهذا قال : (سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون) ، أى : تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد ، فإنه فرد أحد صمد ، لا نظير له ولا كفء له ، فلا ولد له .

وقوله : (فذرهم يخوضوا) ، أى : فى جهلهم وضلالهم (ويلعبوا) فى دنياهم (حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) ، وهو يوم القيامة ، أى : فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم ، ومآلهم ، وحالهم فى ذلك اليوم .

وقوله : (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) ، أى : هو إله من فى السماء ، وإله من فى الأرض ، يعبده أهلها ، وكلهم خاضعون له ، أذلاء بين يديه ، (وهو الحكيم العليم) .

وهذه الآية كقوله تعالى : (وهو الله فى السموات وفى الأرض ، يعلم سركم وجهركم ، ويعلم ما تكسبون (٣)) ، أى : هو المدعو الله فى السموات والأرض .

(وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما) ، أى : هو خالقها ومالكها والمتصرف فيها ، بلا مدافعة ولا ممانعة ، فسبحانه وتعالى عن الولد ، وتبارك : أى استقر له السلامة من العيوب والنقائص ، لأنه الرب العلى العظيم ، المالك للأشياء ، الذى بيده أزمّة الأمور نقضا وإبراما ، (وعنده علم الساعة) ، أى : لا يجليها لوقتها إلا هو ، (وإليه ترجعون) ، أى : فيجازى كلا بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

ثم قال تعالى : (ولا يملك الذين يدعون من دونه) ، أى : من الأصنام والأوثان (الشفاعة) ، أى : لا يقدرون على الشفاعة لهم ، (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) ، هذا استثناء منقطع ، أى : لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم ، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له .

ثم قال : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ؟ ، أى : ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره (من خلقهم ، ليقولن : الله) ، أى : هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها ، وحده لا شريك له فى ذلك ، ومع هذا

---

(١) البخارى ، تفسير سورة الزخرف : ٦/١٦٣

(٢) تفسير الطبرى ٢٥/٦١

(٣) سورة الأنعام ، آية : ٣ .

يعبدون معه غيره ممن لا يملك شيئا ولا يقدر على شئ ، فهم فى ذلك فى غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل ولهذا قال : (فأنى يؤفكون) ؟

وقوله : (وقيله : يا رب ، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون) ، أى : وقال محمد قيله ، أى : شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه ، فقال : يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، كما أخبر تعالى فى الآية الأخرى : (وقال الرسول : يا رب ، إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً)(١) وهذا الذى قلناه هو قول ابن مسعود ، ومجاهد ، وقتادة ، وعليه فسر ابن جرير (٢) .

قال البخارى : وقرأ عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ (وقال الرسول : يا رب)(٣) .

وقال مجاهد فى قوله : (وقيله : يا رب ، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون) ، قال : فأبر الله قول محمد(٤) .

وقال قتادة : هو قول نبيكم صلى الله عليه وسلم ، يشكو قومه إلى ربه عز وجل .

ثم حكى ابن جرير فى قوله : (وقيله يا رب) قراءتين ، إحداهما النصب ، ولها توجيهان : أحدهما أنه معطوف على قوله : (نسمع سرهم ونجواهم) . والثانى : أن يقدر فعل ، وقال : قيله . والثانية : الخفض ، [وقيله] عطفا على قوله (وعنده علم الساعة) ، تقديره : وعلم قيله (٤) .

وقوله : (فاصفح عنهم) ، أى : المشركين ، (وقل : سلام) ، أى : لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلا وقولا ، (فسوف يعلمون) ، هذا تهديد منه تعالى لهم ، ولهذا أحل بهم بأسه الذى لا يرد ، وأعلى دينه وكلمته ، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد ، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا ، وانتشر الإسلام فى المشارق والمغارب .

[آخر تفسير سورة الزخرف]

---

(١) سورة الفرقان ، آية : ٣٠ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٥/٦٢ .
(٣) البخارى ، تفسير سورة الزخرف : ٦/١٦٣ .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٥/٦٣ .

تفسير سورة الدّخان

وهى مكية

قال الترمذى : حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا زيد بن الحُبَاب ، عن عُمَر بن أبى خثعم ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « من قرأ « حم الدخان » فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك » .

ثم قال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وعُمَر بن أبى خثعم يضعف : قال البخارى منكر الحديث (١) .

ثم قال : حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفى ، حدثنا زيد بن الحباب ، عن هشام أبى المقدام ، عن الحسن ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ « حم الدّخان » فى ليلة الجمعة ، غفر له » .

ثم قال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وهشام أبو المقدام يضعف ، والحسن لم يسمع من أبى هريرة كذا قال أيوب ، ويونس بن عُبَيد ، وعلى بن زيد (٢) .

وفى مسند البزار من رواية أبى الطفيل عامر بن واثلة ، عن زيد بن حارثة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابن صياد : « إنى قد خبأت خبْأً فما هو ؟ » وخبأ له رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الدخان ، فقال : هو الدُّخ(٣) ، فقال « اخسأ ما شاء الله كان » ، ثم انصرف .

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم : أنه أنزله فى ليلة مباركة ، وهى ليلة القدر ، كما قال تعالى : (إنا أنزلناه فى ليلة القدر)(٤) ، وكان ذلك فى شهر رمضان ، كما قال تعالى : (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن)(٥) ، وقد ذكرنا الأحاديث الواردة فى ذلك فى « سورة البقرة(٦) » بما أغنى عن إعادته .

---

(١) تحفة الأحوذى ، أبواب فضائل القرآن ، باب « ما جاء فى حم الدخان » ، الحديث ٣٠٥٠ : ٨/١٩٨ .

(٢) تحفة الأحوذى ، فى الباب المتقدم ، الحديث ٣٠٥١ : ٨/١٩٨ — ١٩٩ .

(٣) الدخ — بضم الدال وفتحها — الدخان .

أما أبى صائد — ويقال : ابن صياد — فقصته مشكلة ، وأمره مشتبه فى أنه هل هو المسيح الدجال أم غيره ، ولا شك فى أنه دجال من الدجاجلة .

(٤) سورة القدر ، آية : ١ .

(٥) سورة البقرة ، آية : ١٨٥ .

(٦) انظر : ١/٢٠٩ — ٢١٠ .

ومن قال : إنها ليلة النصف من شعبان ، كما روى عن عكرمة فقد أبعد النُّجْعَة ، فإن نص القرآن أنها فى رمضان ؛ والحديث الذى رواه عبد الله بن صالح ، عن الليث ، عن عقيل ، عن الزهرى : أخبرنى عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان ، حتى إن الرجل لينكح ويولد له ، وقد أخرج اسمه فى الموتى (١) » فهو حديث مرسل ، ومثله لا يعارض به النصوص .

وقوله : (إنا كنا منذرين) ، أى : معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعا ، لتقوم حُجّة الله على عباده .

وقوله : (فيها يفرق كل أمر حكيم) ، أى : فى ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة ، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق ، وما يكون فيها إلى آخرها . وهكذا رُوى عن ابن عمر ، وأبى مالك ، ومجاهد ، والضحاك ، وغير واحد من السلف .

وقوله : (حكيم) ، أى : محكم ، لا يبدل ولا يغير . ولهذا قال : (أمرا من عندنا) ، أى : جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوحيه فبأمره وإذنه وعلمه ، (إنا كنا مرسلين) ، أى : إلى الناس رسولا يتلو عليهم آيات الله مبينات ، فإن الحاجة كانت ماسة إليه . ولهذا قال : (رحمة من ربك إنه هو السميع العليم * رب السموات والأرض وما بينهما) ، أى : الذى أنزل هذا القرآن هو رب السموات والأرض وخالقها ومالكها وما فيها ، (إن كنتم موقنين) ، أى : إن كنتم متحققين .

ثم قال : (لا إله إلا هو يحيى ويميت ، ربكم ورب آبائكم الأولين) ، وهذه الآية كقوله تعالى : (قل يا أيها الناس ، إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو يحيى ويميت (٢)) الآية .

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى : بل هؤلاء المشركون فى شك يلعبون ، أى : قد جاءهم الحق اليقين ، وهم يشكون فيه ويمترون ، ولا يصدقون به ، ثم قال متوعدا لهم ومتهدداً : (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين) .

قال سليمان بن مِهْرَان الأعمش ، عن أبى الضحى مسلم بن صُبَيح ، عن مسروق قال : دخلنا المسجد ـ يعنى مسجد الكوفة ـ عند أبواب كندة ، فإذا رجل يقص على أصحابه : (يوم تأتى السماء بدخان مبين) ، تدرون ما ذلك الدخان ؟ ذلك دخان يأتى يوم القيامة ، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام . قال : فأتينا ابن مسعود فذكرنا ذلك له ، وكان مضطجعا ففزع فقعد ، وقال : إن الله عز وجل قال لنبيكم صلى الله عليه وسلم : (قل : ما أسألكم عليه من

---

(١) أخرجه الطبرى من حديث عقيل . انظر : ٢٥/٦٥ .

(٢) سورة الأعراف ، آية : ١٥٨ .

أجر وما أنا من المتكلفين) ، إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : « الله أعلم » ، سأحدثكم عن ذلك ، إن قريشا لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله –صلى الله عليه وسلم – ، دعا عليهم بسنين كسِنى يوسف ، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان – وفى رواية : فجعل الرجل ينظر إلى السماء ، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد – قال الله تعالى : (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين . يغشى الناس هذا عذاب أليم) ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم – فقيل : يا رسول الله ، استسق الله لمضر ، فإنها قد هلكت : فاستسقى لهم فَسُقُوا ، فأنزل الله : (إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون) – قال ابن مسعود : فيكشف العذاب عنهم يوم القيامة ، فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم ، فأنزل الله : (يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون) ، قال : يعنى يوم بدر[1] .

قال ابن مسعود : فقد مضى خمسة : الدخان ، والروم ، والقمر ، والبطشة ، واللِّزام . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين[2] ورواه الإمام أحمد فى مسنده[3] ، وهو عند الترمذى[4] والنسائى فى تفسيرهما ، وعند ابن جرير وابن أبى حاتم من طرق متعددة ، عن الأعمش ، به . وقد وافق ابن مسعود على تفسير الآية بهذا ، وأن الدخان مَضَى ، جماعةٌ من السلف كمجاهد ، وأبى العالية ، وإبراهيم النخَعى ، والضحاك ، وعطية العوفى ، وهو اختيار ابن جرير .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا جعفر بن مسافر ، حدثنا يحيى بن حسَّان ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا عبد الرحمن الأعرج فى قوله : (يوم تأتى السماء بدخان مبين) ، قال : كان يوم فتح مكة .

وهذا القول غريب جدا ، بل منكر .

وقال آخرون : لم يمض الدخان بعد ، بل هو من أمارات الساعة ، كما تقدم من حديث أبى سَرِيحة حُذَيفة بن أسيد الغفارى – رضى الله عنه – قال : أشرف علينا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من غرفة ونحن نتذاكر الساعة ، فقال : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس – أو : تحشر الناس – : تبيت معهم حيث باتوا ، وتَقيل معهم حيث قالوا » . تفرد بإخراجه مسلم فى صحيحه[5] .

---

(١) أخرجه الطبرى بنحوه من حديث الأعمش . انظر : ٢٥/٦٦ .

(٢) تقدم تخريجه أول سوره الروم ، وشرحنا هنالك غريبه . أنظر : ٦/٣٠٥ .

(٣) لم يقع لنا الحديث فى المسند إلا من رواية أبى بن كعب . انظر المسند : ٥/١٢٨ .

(٤) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الدخان ، الحديث ٣٣٠٧ : ٩/١٣٢ – ١٣٥ . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٥) تقدم الحديث عند تفسير الآية الثانية والثمانين من سورة النمل ، وخرجناه هنالك . انظر : ٦/٢٢٠ .

وفى الصحيحين أن رسول الله صلى الله ــ عليه وسلم ــ قال لابن الصياد: « إنى خبأت لك خبأ »، قال: هو الدُّخ ؛ فقال له : « اخسأ فلن تعدو قدرك » ، قال: وخبأ له رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين)(١) .

وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب ، وابن صياد كاشف على طريقة الكهان بلسان الجان ، وهم يُقَرطمون (٢) العبارة ، ولهذا قال : « هو الدخ » ، يعنى : الدخان . فعندها عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم مادته وأنها شيطانية ، فقال له : « اخسأ فلن تعدو قدرك » .

ثم قال ابن جرير: وحدثنى عصام بن روّاد بن الجراح ، حدثنا أبى ، حدثنا سفيان بن سعيد الثورى ، حدثنا منصور ابن المعتمر ، عن ربعى بن حِراش قال : سمعت حذيفة بن اليمان يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول الآيات الدجال ، ونزول عيسى ابن مريم ، ونار تخرج من قعر عدن أبين ، تسوق الناس إلى المحشر ، تقيل معهم إذا قالوا ، والدخان ــ قال حذيفة : يا رسول الله ، وما الدخان ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ؛ يغشى الناس هذا عذاب أليم) ــ يملأ ما بين المشرق والمغرب ، يمكث أربعين يوما وليلة ، أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة ، وأما الكافر [فيكون بمنزلة (٣)] السكران ، يخرج من منخريه وأذنيه ودبره » (٣) .

قال ابن جرير : لو صح هذا الحديث لكان فاصلا ، وإنما لم أشهد له بالصحة ، لأن محمد بن خلف العسقلانى حدثنى أنه سأل روادا عن هذا الحديث : هل سمعه من سفيان ؟ فقال له : لا . قال فقلت : أقرأته عليه ؟ قال : لا . قال : فقلت له: فقُرِئ عليه وأنت حاضر فأقرّبه ؟ فقال : لا . فقلت له : فمن أين جئت به ؟ فقال : جاءنى به قوم فعرضوه على ، وقالوا لى اسمعه منا ؛ فقرءوه على ثم ذهبوا به ، فحدثوا به عنى ، أو كما قال (٤) .

وقد أجاد ابن جرير فى هذا الحديث هاهنا ، فإنه موضوع بهذا السند ، وقد أكثر ابن جرير من سياقه فى أماكن من هذا التفسير ، وفيه منكرات كثيرة جدا ، ولا سيما فى أول سورة « بنى إسرائيل » فى ذكر المسجد الأقصى ، والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا خليل ، عن الحسن ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يهيج الدخان بالناس ، فأما المؤمن فيأخذه كالزكمة ، وأما الكافر فينفخه حتى يخرج من كل مسمع منه » .

---

(١) البخارى ، كتاب الجنائز ، باب « إذا أسلم الصبى فمات ، هل يصلى عليه »: ١/١١٧ . وكتاب الجهاد ، باب « كيف يعرض الإسلام على الصبى » : ٤/٨٥ ــ ٨٦ . وكتاب الأدب ، باب « قول الرجل للرجل : اخسأ » : ٨/٤٩ ــ ٥٠ . وكتاب القدر ، باب ما يحول بين المرء وقلبه : « ٨/١٥٧ . ومسلم ، كتاب الفتن ، باب « ذكر ابن صياد » ٨/١٨٩ ــ ١٩٠ .

(٢) أى : يقطعونها .

(٣) ما بين القوسين من الطبرى و الطبعات السابقة . ومكانه فى المخطوطة : « كمنزلة » .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٥/٦٨ .

ورواه سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن أبي سعيد الخدرى موقوفا . ورواه عوف (١) ، عن الحسن قوله .

وقال ابن جرير أيضا : حدثني محمد بن عوف ، حدثنا محمد بن إسماعيل [بن عياش حدثني أبي ، حدثني ضمضم ابن زرعة ، عن شريح بن عُبَيد] ، عن أبي مالك الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن ربكم أنذركم ثلاثا : الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة ، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مِسْمَع منه ، والثانية الدابة ، والثالثة الدجال » .

ورواه الطبرانى عن هاشم بن يزيد (٢) ، عن محمد بن إسماعيل بن عياش ، به . وهذا إسناد جيد .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن صالح بن مسلم ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن الحارث ، عن على رضى الله عنه قال : لم تمض آية الدخان بعد ، يأخذ المؤمن كهيئة الزكام ، وتنفخ الكافر حتى ينفد .

وروى ابن جرير من حديث الوليد بن جميع ، عن عبد الملك بن المغيرة ، عن عبد الرحمن بن البيلمانى ، عن ابن عمر قال : يخرج الدخان فيأخذ المؤمن كهيئة الزكام ، ويدخل فى مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيذ ، أى : المشوى على الرَّضْف (٣) .

ثم قال ابن جرير : حدثني يعقوب ، حدثنا ابن علية ، عن ابن جريج ، عن عبد الله بن أبي مليكة قال : غدوت على ابن عباس — رضى الله عنهما — ذات [يوم] فقال : مانمتُ الليلة حتى أصبحتُ . قلت : لم ؟ قال : قالوا : طلع الكوكب ذو الذنب ، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق ، فما نمت حتى أصبحت (٤) . وهكذا رواه ابن أبي حاتم ، عن أبيه ، عن ابن أبي (٥) عمر ، عن سفيان ، عن عبد [الله] بن أبي يزيد ، عن عبد الله بن أبي مليكة ، عن ابن عباس فذكره . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن . وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين أجمعين ، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما ، التى أوردناها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة ، مع أنه ظاهر القرآن . قال الله تعالى : (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين) ، أى : بين واضح يراه كل أحد ، وعلى ما فسر به ابن مسعود رضى الله عنه : إنما هو خيال رأوه فى أعينهم من شدة الجوع والجهد . وهكذا قوله : (يغشى الناس) ، أى : يتغشاهم ويَعُمّهم ، ولو كان أمراً خياليا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه : (يغشى الناس) .

---

(١) فى المخطوطة : « ورواه سعيد بن أبي عروبة عوف ، عن الحسن » . ثم ضرب على « بن أبي عروبة » . ولعل الصواب ما أثبتناه ، وأن الناسخ سها فأثبت صدر الفقرة المتقدمة ، ثم استدرك فضرب على « ابن أبي عروبة » . وكان عليه أن يضرب على الاسم كله . فأما « عوف » — فهو عوف بن أبي جميلة العبدى الهجرى ، يروى عن الحسن البصرى انظر التهذيب : ٨/١٦٦ ، والجرح والتعديل : ٢/٣/١٥ .

(٢) كذا فى المخطوطة : « يزيد » . دون نقط الياء ، وقد نبهنا مراراً على أنه فى المعجم الصغير : « مزيد » .

(٣) الرضف : الحجارة المحماة على النار .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٥/٦٨ .

(٥) فى المخطوطة : « عن أبي عمر » . ولعل الصواب ما أثبتناه ، وابن أبي عمر هو محمد بن يحيى العدنى المكى ، يروى عن سفيان بن عيينة ، ويروى عنه أبو حاتم ، انظر ترجمته فى الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٤/١/١٢٤ .

وقوله : (هذا عذاب أليم) ، أى : يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا ، كقوله تعالى : (يوم يُدَعّون إلى نار جهنم دعا ، هذه النار التى كنتم بها تكذبون (١)) ، أو يقول بعضهم لبعض ذلك .

وقوله : (ربنا اكشف عنا العذاب ، إنا مؤمنون) ، أى : يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم ، كقوله : (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا : ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين (٢)) ، وكذا قوله : (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب ، فيقول الذين ظلموا : ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ، أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال (٣)) وهكذا قال هاهنا : (أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون) ،

يقول : كيف لهم بالتذكر ، وقد أرسلنا إليهم رسولا بين الرسالة والنذارة ، ومع هذا تولوا عنه وماوافقوه ، بل كذبوه وقالوا : معلم مجنون . وهذا كقوله تعالى : (يوم يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى . يقول : ياليتنى قدمت لحياتى(٤)) وقوله تعالى : (ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب . وقالوا : آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد . وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد . وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل ، إنهم كانوا فى شك مريب (٥)) .

وقوله : (إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون) ، يحتمل معنيين :

أحدهما : أنه يقول تعالى : ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا ، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب، كقوله : (ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر ، للجّوا فى طغيانهم يعمهون(٦)) ، وكقوله : (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون (٧)) .

والثانى : أن يكون المراد : إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم ، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال ، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون [باشرهم] ، كقوله تعالى : (إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين(٨)) ، ولم يكن العذاب [باشرهم واتصل بهم ، بل كان قد انعقد سببه عليهم ، ولا يلزم أيضا أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه ، قال الله تعالى إخبارا عن شعيب أنه قال لقومه حين قالوا : (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال : أولو كنا كارهين ، قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها (٩)) ، وشعيب لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم .

(١) سورة الطور ، آية : ١٣ ، ١٤ .
(٢) سورة الأنعام ، آية : ٢٧ .
(٣) سورة إبراهيم ، آية : ٤٤ .
(٤) سورة الفجر ، آية : ٢٣ - ٢٤ .
(٥) سورة سبأ ، الآيات : ٥١ - ٥٤ .
(٦) سورة « المؤمنون » ، آية : ٧٥ .
(٧) سورة الأنعام ، آية : ٢٨ .
(٨) سورة يونس ، آية : ٩٨ .
(٩) سورة الأعراف ، آية : ٨٨ - ٨٩ .

وقال قتادة : (إنكم عائدون) إلى عذاب الله (١) .

وقوله تعالى : (يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون) — فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر : وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود على تفسيره الدخان بما تقدم ، وروى أيضا عن ابن عباس من رواية العوفى ، عنه . وعن أبى بن كعب وجماعة ، وهو محتمل .

والظاهر أن ذلك يوم القيامة ، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضا .

قال ابن جرير : حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن علية ، حدثنا خالد الحذاء ، عن عكرمة قال : قال ابن عباس : قال ابن مسعود : البطشة الكبرى يوم بدر ، وأنا أقول : هى يوم القيامة (٢) .

وهذا إسناد صحيح عنه ، وبه يقول الحسن البصرى ، وعكرمة فى أصح الروايتين ، عنه .

* وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ (٣٣)

يقول تعالى : ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون ، وهم قبط مصر ، (وجاءهم رسول كريم) ، يعنى موسى كليمه عليه السلام : (أن أدوا إلى عباد الله) ، كقوله : (فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك ، والسلام على من اتبع الهدى(٣)) .

وقوله : (إنى لكم رسول أمين) ، أى : مأمون على ما أبلغكموه .

وقوله : (وأن لا تعلوا على الله) ، أى : لا تستكبروا عن اتباع آياته ، والانقياد لحججه والإيمان ببراهينه ، كقوله : (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين(٤)) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٥/٦٩ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٥/٧٠ .
(٣) سورة طه ، آية : ٤٧ .
(٤) سورة غافر ، آية : ٦٠ .

(إنى آتيكم بسلطان) ، أى : بحجة ظاهرة واضحة ، وهى ما أرسله الله به من الآيات البينات والأدلة القاطعة .

(وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون) ــ قال ابن عباس ، وأبو صالح : هو الرجم باللسان، وهو الشتم(١) .

وقال قتادة : الرجم بالحجارة .

أى: أعوذ بالله الذى خلقنى وخلقكم أن تصلوا إلى بسوء من قول أو فعل .

(وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون) ، أى: فلا تتعرضوا إلى ودعوا الأمر بينى وبينكم مسالمة إلى أن يقضى الله بيننا ــ فلما طال مقامه بين أظهرهم ، وأقام حججَ الله عليهم ، كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفراً وعناداً ، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم ، كما قال تعالى : (وقال موسى : ربنا ، إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال: قد أجيبت دعوتكما فاستقيما(٢)) . وهكذا قال هاهنا : (فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون) ، فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج ببنى إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه ، ولهذا قال : (فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون) ، كما قال : (ولقد أوحينا إلى موسى : أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى(٣)) .

وقوله هاهنا: (واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون) ، وذلك أن موسى عليه السلام لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان ، ليصير حائلا بينهم وبين فرعون ، فلا يصل إليهم . فأمره الله أن يتركه على حاله ساكناً ، وبَشَّره بأنهم جند مغرقون فيه ، وأنه لا يخاف دركاً ولا يخشى .

قال ابن عباس : (واترك البحر رهوا) كهيئته وامضه(٤). وقال مجاهد: (رهوا) طريقاً يبساً كهيئته، يقول: لا تأمره يرجع ، اتركه حتى يرجع آخرهم . وكذا قال عكرمة ، والربيع بن أنس، والضحاك ، وقتادة ، وابن زيد ، وكعب الأحبار ، وسماك بن حرب ، وغير واحد .

ثم قال تعالى : (كم تركوا من جنات) ــ وهى البساتين ــ (وعيون . وزروع) ، والمراد بها الأنهار والآبار ، (ومقام كريم) ، وهى المساكن الأنيقة والأماكن الحسنة .

وقال مجاهد ، وسعيد بن جبير : (ومقام كريم) : المنابر .

وقال ابن لهيعة ، عن وهب بن عبد الله المعافرى ، عن عبد الله بن عمرو قال : نيل مصر سيد الأنهار، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب ، وذلَّله له، فإذا أراد الله أن يُجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يَمُدَّه، فأمدته الأنهار بمائها ، وفجر الله له الأرض عيوناً ، فإذا انتهى جريه إلى ما أراد الله، أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٥/٧٢ .
(٢) سورة يونس ، آية : ٨٨ – ٨٩ .
(٣) سورة طه ، آية : ٧٧ .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٥/٧٣ .

وقال فى قول الله تعالى : (كم تركوا(١) من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين) ، قال : كانت الجنان بحافتى هذا النيل من أوله إلى آخره فى الشقين جميعاً ، ما بين أسوان إلى رشيد ، وكان له تسعة خلج(٢) : خليج الاسكندرية ، وخليج دمياط ، وخليج سَرْدُوس ، وخليج منف ، وخليج الفيوم، وخليج المَنْهَى، متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء ، وزروع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء ، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعاً ، لما قدروا ودبروا من قناطرها وجسورها وخلجها ، (ونعمة كانوا فيها فاكهين) ، أى : عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاءوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم فى البلاد ، فسلبوا ذلك جميعه فى صبيحة واحدة ، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير ، واستولى على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل ، كما قال تعالى:(كذلك وأورثناها بنى إسرائيل(٣)) . وقال فى موضع آخر : (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون(٤)) . وقال ها هنا : (كذلك وأورثناها قوماً آخرين) ، وهم بنو إسرائيل كما تقدم .

وقوله : (فما بكت عليهم السماء والأرض) ، أى : لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد فى أبواب السماء فتبكى على فقدهم ، ولا لهم فى الأرض بقاع عبدوا الله فيها فقدتهم ، فلهذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم ، وعتوهم وعنادهم .

قال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده : حدثنا أحمد بن إسحاق البصرى ، حدثنا مكى بن إبراهيم ، حدثنا موسى بن عُبَيدة ، حدثنى يزيد الرقاشى ، حدثنى أنس بن مالك عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « ما من عبد إلا وله فى السماء بابان : باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل منه عمله وكلامه ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه » ، وتلا هذه الآية : (فما بكت عليهم السماء والأرض) ، وذُكر أنهم لم يكونوا عملوا على الأرض عملا صالحاً يبكى عليهم ، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ، ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكى عليهم .

ورواه ابن أبى حاتم من حديث موسى بن عُبَيدة وهو الرَّبَذى .

وقال ابن جرير : حدثنى يحيى بن طلحة ، حدثنا عيسى بن يونس، عن صفوان بن عمرو ، عن شريح بن عُبَيد الحضرمى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً . ألا لا غربة على مؤمن ، ما مات مؤمن فى غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض » . [ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فما بكت عليهم السماء والأرض)] . ثم قال : « إنهما لا يبكيان على الكافر(٥) » .

---

(١) فى المخطوطة و الطبعات السابقة : « فأخرجناهم من جنات » . و تلك آية الشعراء .

(٢) كذا فى المخطوطة و الطبعات السابقة ، فإذا عددناها وجدناها ستة . و فى معجم البلدان لياقوت أنها سبعة ، وعدها كما هنا و أضاف : « خليج مرشى » انظر « النيل » : ٥/٣٣٥ .

(٣) سورة الشعراء ، آية : ٥٩ .

(٤) سورة الأعراف ، آية : ١٣٧ .

(٥) تفسير الطبرى : ٢٥/٧٥ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن عصام ، حدثنا أبو أحمد ــ يعني الزبيرى ــ حدثنا العلاء بن صالح ، عن المنهال ابن عمرو ، عن عباد بن عبد الله قال : سأل رجل علياً ــ رضى الله عنه ــ : هل تبكى السماء والأرض على أحد ؟ فقال له : لقد سألتنى عن شيء ما سألنى عنه أحد قبلك ، إنه ليس عبد إلا له مُصَلًّى فى الأرض ، ومصعد عمله من السماء ؛ وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض ، ولا عمل يصعد فى السماء ، ثم قرأ على رضى الله عنه : (فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) ؛

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا طلق بن غَنَّام ، عن زائدة ، عن منصور ، عن منهال ، عن سعيد بن جُبَيْر قال : أتى ابن عباس رجل فقال : ياأبا عباس ، أرأيت قول الله : (فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) ، فهل تبكى السماء والأرض على أحد ؟ قال : نعم ، إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب فى السماء منه ينزل رزقه ، وفيه يصعد عمله ، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذى كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه بكى عليه ، وإذا فقده مصلاه من الأرض التى كان يصلى فيها ويذكر الله فيها بكت عليه ، وإن قوم فرعون لم تكن لهم فى الأرض آثار صالحة ، ولم يكن يصعد إلى الله منهم خير ، فلم تبك عليهم السماء والأرض(١) ؛

وروى العَوْفى ، عن ابن عباس ، نحو هذا ؛

وقال سفيان الثورى ، عن أبى يحيى القَتَّات ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : كان يُقال : تبكى الأرض على المؤمن أربعين صباحاً (٢) . [وكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وغير واحد .

وقال مجاهد أيضاً : ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً] ، قال : فقلت له : أتبكى الأرض؟ فقال : أتعجب ؟ وما للأرض لا تبكى على عبد ، كان يعمرها بالركوع والسجود ؟ . وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوى كدوى النحل ؟ .

وقال قتادة : كانوا أهون على الله من أن تبكى عليهم السماء والأرض .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا عبد السلام بن عاصم ، حدثنا إسحاق بن إسماعيل ، حدثنا المستورد ابن سابق ، عن عبيد المُكْتِب ، عن إبراهيم قال : ما بكت السماء منذ كانت الدنيا إلا على اثنين . قلت لعبيد : أليس السماء والأرض تبكى على المؤمن ؟ قال : ذاك مقامه حيث يصعد عمله . قال : وتدرى ما بكاء السماء . قلت : لا ؛ قال : تحمر وتصير وردة كالدّهان ، إن يحيى بن زكريا لما قتل احمرت السماء وقطرت دماً . وإن حسين بن على لما قتل احمرت السماء .

وحدثنا على بن الحسين ، حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو ، ــ زُنَيْج ــ حدثنا جرير ، عن يزيد بن أبى زياد قال : لما قتل حسين بن على رضى الله عنهما احمرت آفاق السماء أربعة أشهر ــ قال يزيد : واحمرارها بكاؤها . وهكذا قال السدى الكبير ؛

(١) تفسير الطبرى : ٢٥/٧٤ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٥/٧٤ ــ ٧٥ .

وقال عطاء الخراساني : بكاؤها : أن تحمر أطرافها ،

وذكروا أيضاً في مقتل الحسين أنه ماقلب حجر يومئذ إلا وجد تحته دم عبيط ، وأنه كسفت الشمس واحمر الأفق وسقطت حجارة . وفي كل ذلك نظر ، والظاهر أنه من سخف الشيعة وكذبهم ، ليعظموا الأمر – ولا شك أنه عظيم – ولكن لم يقع هذا الذي اختلقوه وكذبوه ، وقد وقع ماهو أعظم من قتل الحسين – رضي الله عنه – ولم يقع شيء مما ذكروه ، فإنه قد قتل أبوه علي بن أبي طالب ، وهو أفضل منه بالإجماع ولم يقع ذلك ، وعثمان بن عفان قتل محصورا مظلوما ، ولم يكن شيء من ذلك . وعمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قتل في المحراب في صلاة الصبح ، وكأن المسلمين لم تطرقهم مصيبة قبل ذلك ، ولم يكن شيء من ذلك . وهذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو سيد البشر في الدنيا والآخرة يوم مات لم يكن شيء مما ذكروه . ويوم مات إبراهيم بن النبي – صلى الله عليه وسلم – خسفت الشمس فقال الناس : خسفت لموت إبراهيم ، فصلى بهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – صلاة الكسوف ، وخطبهم وبين لهم أن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته (١) .

وقوله : (ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين ، من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين) : يمتن عليهم تعالى بذلك ؛ حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم ، وتسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة .

وقوله : (من فرعون إنه كان عاليا) ، أي : مستكبرا جبارا عنيدا – كقوله : (إن فرعون علا في الأرض(٢)) ،

وقوله : (فاستكبروا وكانوا قوما عالين(٣)) – مسرفاً في أمره ، سخيف الرأي على نفسه ،

وقوله : (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) – قال مجاهد : (اخترناهم على علم على العالمين) ، على من هم بين ظهريه . وقال قتادة : اختيروا على أهل زمانهم ذلك . وكان يقال : إن لكل زمان عالما (٤) . وهذه كقوله تعالى : (قال : ياموسى ، إني اصطفيتك على الناس(٥)) ، أي: أهل زمانه ، وكقوله لمريم : (واصطفاك على نساء العالمين) ، أي : في زمانها ؛ فإن خديجة أفضل منها وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، أو مساوية لها في الفضل ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام (٦) .

وقوله : (وآتيناهم من الآيات) ، أي : الحجج والبراهين وخوارق العادات (مافيه بلاء مبين) ، أي : اختبار ظاهر جلي لمن اهتدى به .

---

(١) البخاري ، كتاب الكسوف ، باب « الدعاء في الخسوف » : ٢/٤٨ – ٤٩ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « ما عرض على النبي – صلى الله عليه وسلم – من أمر الجنة والنار » : ٣/٣١ . ومسند الإمام أحمد عن المغيرة بن شعبة : ٤/٢٤٩ ، ٢٥٣ .

(٢) سورة القصص ، آية : ٤ .

(٣) سورة المؤمنون ، آية : ٤٦ .

(٤) تفسير الطبري : ٢٥/٧٦ .

(٥) سورة الأعراف ، آية : ١٤٤ .

(٦) البخاري ، كتاب فضائل الصحابة ، باب « فضل عائشة رضي الله عنها » : ٥/٣٦ . ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب « فضل عائشة رضي الله عنها » : ٧/١٢٥ .

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين فى إنكارهم البعث والمعاد ، وأنه ماثَمَّ إلا هذه الحياة الدنيا ، ولا حياة بعد الممات ، ولا بعث ولا نشور . ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا ، فإن كان البعث حقا (فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين) : وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة ، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لافى هذه الدار ، بعد انقضائها وذهابها وفراغها يعيد الله العالمين خلقا جديدا ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً ، يوم تكون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا .

ثم قال تعالى متهددا لهم، ومتوعداومنذرا لهم بأسه الذى لايُرَد، كما حل بأشباههم ونظرائهم من المشركين والمنكرين للبعث وكقوم تبع ــ وهم سبأ ــ حيث أهلكم الله وخَرَّب بلادهم ، وشرّدهم فى البلاد ، وفرقهم شَذَرَ مَذَرَ ، كما تقدم ذلك فى سورة سبأ ، وهى مُصَدَّرة بإنكار المشركين للمعاد . وكذلك هاهنا شَبَّههم بأولئك ، وقد كانوا عرباً من قحطان كما أن هؤلاء عرب من عدنان ، وقد كانت حمير ــ وهم سبأ ــ كلما مَلَكَ فيهم رجل سموه تُبَّعا ، كما يقال : كسرى لمن ملك الفرس ، وقيصر لمن ملك الروم ، وفرعون لمن ملك مصر كافرا ، والنجاشى لمن ملك الحبشة ، وغير ذلك من أعلام الأجناس . ولكن اتفق أن بعض تبابعتهم خرج من اليمن وسار فى البلاد حتى وصل إلى سمرقند ، واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه ، واتسعت مملكته وبلاده ، وكثرت رعاياه وهو الذى مَصَّر الحيرة فاتفق أنه مَرّ بالمدينة النبوية وذلك فى أيام الجاهلية ، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتلوه بالنهار ، وجعلوا يَقْرُونه (١) بالليل ، فاستحيا منهم وكَفَّ عنهم ، واستصحب معه حَبْرين من أحبار يهود كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لاسبيل له على هذه البلدة ، فإنها مُهَاجَرُ نَبِىّ يكون فى آخر الزمان، فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن ، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة فنهياه أيضا ، وأخبراه بعظمة هذا البيت ، وأنه من بناية إبراهيم الخليل وأنه سيكون له شأن عظيم على يدى ذلك النبى المبعوث فى آخر الزمان ، فعظمها وطاف بها ، وكساها المُلاء (٢) والوصائل والحَبِير . ثم كرّ راجعا إلى اليمن ودعا أهلها إلى التهود معه ، وكان إذ ذاك دين موسى ــ عليه السلام ــ فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح ــ عليه السلام ــ فتهود معه عامة أهل اليمن . وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق فى كتابه السيرة(٣) . وقد ترجمه الحافظ [ابن عساكر (٤)] فى تاريخه ترجمة حافلة ، أورد فيها أشياء كثيرة مما ذكرنا ومالم نذكر : وذكر أنه ملك دمشق ، وأنه كان إذا استعرض الخيل صُفَّت له من دمشق إلى اليمن . ثم ساق من طريق عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن أبى ذئب ، عن المَقبُرى ، عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « ما أدرى الحدُود طهارة لأهلها أم لا؟ ولاأدرى تُبَّع لَعِيناً كان أم لا ؟ ولا أدرى ذو القرنين نبيا كان أم ملكا ؟ (٥) وقال غيره : « أعزيراً كان نبيا أم لا ؟» . وكذا رواه ابن أبى حاتم ، عن محمد بن حماد الظّهرانى ، عن عبد الرزاق .

---

(١) أى : يضيفونه .

(٢) الملاء ــ بضم الميم ــ واحدة ملاءة ، وهى : الملحفة . والوصائل : ثياب يمنية ، يوصل بعضها ببعض . والحبير من الثياب : ما كان موشيا مخططاً .

(٣) سيرة ابن هشام : ١/١٩ ــ ٢٨ .

(٤) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة . وفى هامش المخطوطة : « لعله ابن عساكر » .

(٥) أخرجه أبو داود من حديث عبد الرزاق بنحوه . انظر كتاب السنة ، باب « فى التخيير بين الأنبياء عليهم السلام » ، الحديث ٤٦٧٤ : ٤/٢١٨ .

قال الدارقطني : تفرد به عبد الرزاق ، ثم روى ابن عساكر من طريق محمد بن كريب ، عن أبيه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا : « عُزَيرُ لا أدرى أنبيا كان أم لا ؟ ولا أدرى ألعين تُبّع أم لا ؟ » .

ثم أورد ما جاء في النهي عن سبه ولعنته كما سيأتي . وكأنه — والله أعلم — كان كافرا ثم أسلم ، وتابع دينَ الكليم على يَدَيْ مَن كان من أحبار اليهود في ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح عليه السلام ، وحج البيت في زمن الجُرهُميّين ، [وكساه الملاء والوصائل من الحرير والحِبَرَ ونحر عنده ستة آلاف بدنة وعظمه وأكرمه . ثم عاد إلى (١)] اليمن . وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر من طرق متعددة مطولة مبسوطة عن أبي بن كعب ، وعبد الله بن سَلاَم ، وعبد الله بن عباس وكعب الأحبار . وإليه المرجع في ذلك كله ، وإلى عبد الله بن سلام أيضا ، وهو أثبت وأكبر وأعلم ؛ وكذا روى قصته وهب بن مُنَبّه ، ومحمد بن إسحاق في السيرة كما هو مشهور فيها . وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر في بعض السياقات ترجمة تُبّع [هذا] بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل ، فإن تُبّعاً هذا المشار إليه في القرآن أسلم قومه على يديه ، ثم لما مات عادوا بعده إلى عبادة الأصنام والنيران ، فعاقبهم الله تعالى كما ذكره في سورة سبأ ، وقد بسطنا قصتهم هنالك ، ولله الحمد والمنة .

وقال سعيد بن جبير : كسا تبع الكعبة ، وكان سعيد ينهى عن سبه (٢) .

وتبع هذا هو تُبّع الأوسط ، واسمه أسعد أبو كُرَيب بن مَلْكيكَرِب (٣) اليماني ، ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وستا وعشرين سنة ، ولم يكن في حمير أطول مُدّةً منه ، وتوفى قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو من سبعمائة عام . وذكروا أنه لما ذكر له الحَبْران من يهود المدينة أن هذه البلدة مُهاجَرُ نبيّ آخر في الزمان ، اسمه أحمد ، قال في ذلك شعرا واستودعه عند أهل المدينة . وكانوا يتوارثونه ويَرْوُونه خلفا عن سلف ؛ وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الذي نزل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في داره ، وهو :

شَهِدْتُ عَلَى أحْمَدَ أنّه رَسُولٌ مِنَ الله بَارِى النَّسَمْ
فَلَو مُدَّ عُمْرِى إلَى عُمْرِه لَكُنْتُ وَزِيراً لَه وابنَ عَمْ
وَجَاهَدْتُ بالسَّيف أعْدَاءَهُ وَفَرّجتُ عَنْ صَدْرِهِ كُلَّ غَمْ

وذكر ابن أبي الدنيا أنه حُفر قبر بصنعاء في الإسلام ، فوجدوا فيه امرأتين صحيحتين ، وعند رءوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب : « هذا قبر حبي ولميس — ورُوِى: حُبي وتماضر — ابنتي تبع ، ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلا الله ولا تشركان به شيئا ، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما .

وقد ذكرنا في « سورة سبأ (٤) » شعر سبأ في ذلك أيضا .

---

(١) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة .

(٢) تفسير الطبري : ٢٥/٧٧ .

(٣) كذا في مخطوطة الأزهر ، ومثله في جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ٤٣٨ . وفي سيرة ابن هشام ١/١٩ : « كلى كرب » .

(٤) انظر : ٦/٤٩٣ .

قال قتادة : ذكر لنا أن كعباً كان يقول فى تبع : نُعِتَ نَعْتَ الرجل الصالح ، ذم الله تعالى قومه ولم يذمه ، قال : وكانت عائشة تقول : لا تسبوا تُبَّعًا فإنه قد كان رجلا صالحا (١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الله بن لَهِيعة ، عن أبي زُرْعَة ــ يعنى عمرو بن جابر الحضرمى ــ قال : سمعت سهل بن سعد الساعدى يقول : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « لا تسبوا تبعا فإنه قد كان أسلم »

ورواه الإمام أحمد فى مسنده عن حسن بن موسى ، عن ابن لهيعة ، به (٢) .

وقال الطبرانى : حدثنا أحمد بن على الأبار ، حدثنا أحمد بن محمد بن أبي بَزّة ، حدثنا مؤمل بن إسماعيل ، حدثنا سفيان ، عن سماك بن حرب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تسبوا تبعا فإنه قد أسلم » .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن ابن أبي ذئب ، عن المقبرى ، عن أبي هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أدرى تبع نبيا كان أم غير نبى ؟ » .

وتقدم بهذا السند من رواية ابن أبي حاتم كما أورده ابن عساكر : « لا أدرى تبع كان لعينا أم لا ؟ » . فالله أعلم .

ورواه ابن عساكر من طريق زكريا بن يحيى البَدِّيّ (٣) عن عكرمة ، عن ابن عباس موقوفا .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا عمران أبو الهذيل ، أخبرنى تميم بن عبد الرحمن قال : قال عطاء بن أبي رباح : « لا تسبوا تبعا ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن سبه » .

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى مخبرا عن عدله وتنزيهه [نفسه] عن اللعب والعبث والباطل ، كقوله : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار(٤)) . وقال : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون ؟ * فتعالى الله الملك الحق ، لاإله إلا هو ، رب العرش الكريم(٥))

ثم قال : (إن يوم الفصل) وهو يوم القيامة ، يفصل الله فيه بين الخلائق ، فيعذب الكافرين ويثيب المؤمنين ،

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٥/٧٧ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/٣٤٠ .

(٣) فى المخطوطة « المدنى » والمثبت عن ترجمته فى الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ١/٢/٦٠٢ . واللباب لابن الأثير : ١/١٠٤ .

(٤) سورة « ص » ، آية : ٢٧ .

(٥) سورة « المؤمنون » ، آية : ١١٥ ــ ١١٦ .

وقوله (ميقاتهم أجمعين) ، أى : يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم ، (يوم لايغنى مولى عن مولى شيئا) أى : لاينفع قريب قريبا . كقوله : (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون[1]) ، وكقوله : (ولا يسأل حميم حميما ، يبصرونهم [2]) أى : لايسأل أخا له عن حاله وهو يراه عياناً .

وقوله : (ولا هم ينصرون) ، أى : لاينصر القريب قريبه ، ولا يأتيه نصره من خارج .

ثم قال : (إلا من رحم الله) ، أى : لاينفع يومئذ إلا مَن رَحمَهُ الله — عز وجل — لخلقه (إنه هو العزيز الرحيم) ، أى : هو عزيز ذو رحمة واسعة .

إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى مخبرا عما يعذّب به الكافرين الجاحدين للقائه : (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم) ، والأثيم : أى فى قوله وفعله ، وهو الكافر — وذكر غير واحد أنه أبو جهل ، ولا شك فى دخوله فى هذه الآية، ولكن ليست خاصة به

قال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن إبراهيم، عن همَّام ابن الحارث : أن أبا الدرداء كان يقرىء رجلا : (إن شجرة الزقوم [طعام الأثيم) ، فقال : طعام اليتيم . فقال أبو الدرداء قل : إن شجرة الزقوم طعام][3] الفاجر .

أى : ليس له طعام من غيرها .

قال مجاهد : ولو وقعت منها قطرة فى الأرض لأفسدت على أهل الأرض معايشهم . وقد تقدم نحوه مرفوعا

وقوله : (كالمهل) ، قالوا : كعكَر الزيت (تَغْلِى [4]) فى البطون . كغلى الحميم) ، أى : من حرارتها ورداءتها ،

وقوله (خذوه) ، أى : الكافر ، وقدورد أنه تعالى إذا قال للزبانية : ، (خذوه) ابتدره سبعون ألفا منهم .

(فاعتلوه) ، أى : سوقوه سحبا ودفعا فى ظهره

قال مجاهد : (خذوه فاعتلوه) ، أى : خذوه فادفعوه [5] .

وقال الفرزدق :

لَيسَ الكِرَامُ بِنَاحِلِيكَ أَبَاهُمُ   حَتَّى تُرَدَّ إِلَى عَطِيَّةَ تُعْتَلُ [6]

---

(١) سورة « المؤمنون » ، آية : ١٠١ .

(٢) سورة المعارج ، آية : ١٠ — ١١ .

(٣) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى : ٢٥/ ٧٨ .

(٤) كذا فى مخطوطة الأزهر بالتاء ، وهى قراءة ثابتة فى السبعة . انظر البحر المحيط : ٨/ ٤٠ .

(٥) تفسير الطبرى : ٢٥/ ٨٠ .

(٦) ديوانه ، ط بيروت : ٢/ ١٦٠ . وتفسير الطبرى : ٢٥/ ٨٠ . وقال الطبرى : « أى : تساق دفعاً وسحباً » .

(إلى سواء الجحيم) ، أى : وسطها ، (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) ، كقوله : (يصب من فوق رءوسهم الحميم ، يصهر به مافى بطونهم والجلود[1])

وقد تقدم أن الملك يضربه بمقمعة من حديد ، تفتح دماغه ثم يصب الحميم على رأسه فينزل فى بدنه ، فيسلت مافى بطنه من أمعائه ، حتى تمرق من كعبيه ــ أعاذنا الله تعالى من ذلك .

وقوله : (ذق إنك أنت العزيز الكريم) ، أى : قولوا له ذلك على وجهه التهكم والتوبيخ .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : أى لست بعزيز ولا كريم

وقد قال الأموى فى مغازيه : حدثنا أسباط ، حدثنا أبو بكر الهذلى ، عن عكرمة قال : لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا جهل ــ لعنه الله ــ فقال : « إن الله تعالى أمرنى أن أقول لك :(أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى[2]) » قال : فنزع ثوبه من يده وقال : ماتستطيع لى أنت ولا صاحبك من شىء . ولقد علمت أنى أمنع أهل البطحاء ، وأنا العزيز الكريم ، قال : فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله وعيّره بكلمته ، وأنزل : (ذق إنك أنت العزيز الكريم) .

وقوله : (إن هذا ماكنتم به تمترون) ، كقوله : (يوم يدعّون إلى نار جهنم دعّا ، هذه النار التى كنتم بها تكذبون . أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون[3]) ، ولهذا قال هاهنا : (إن هذا ماكنتم به تمترون) .

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء ــ ولهذا سمّى القرآن مثانى ــ فقال : (إن المتقين) ، أى : لله فى الدنيا (فى مقام أمين) . أى : فى الآخرة وهو الجنة ، قد أمنوا فيها من الموت والخروج ، ومن كل همّ وحزن وجزع وتعب ونصب ، ومن الشيطان وكيده ، وسائر الآفات والمصائب (فى جنات وعيون) . وهذا فى مقابلة ما أولئك فيه من شجر الزقوم ، وشرب الحميم .

وقوله تعالى : (يلبسون من سندس) ، وهو : رفيع الحرير ، كالقمصان ونحوها ، (وإستبرق) ، وهو : مافيه بريق ولمعان وذلك كالرياش ، وما يلبس على أعالى القماش ، (متقابلين) ، أى : على السرر ، لايجلس أحد منهم وظهره إلى غيره .

---

(١) سورة الحج ، آية : ١٩ ــ ٢٠ .
(٢) سورة القيامة ، آية : ٣٤ ــ ٣٥ .
(٣) سورة الطور ، الآيات : ١٣ ــ ١٥ .

وقوله : (كذلك وزوجناهم بحور عين) ، أى : هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحور العين الحسان اللاتى (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) ، (كأنهن الياقوت والمرجان) ، (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان (١)) ؟ .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا نوح بن حبيب ، حدثنا نَصر بن مُزَاحم العَطّار ، حدثنا عمر بن سعد ، عن رجل ، عن أنس — رفعه نوح — قال : لو أن حوراء بزقت فى بحر لُجِىّ ، لعذب ذلك الماء لعذوبة ريقها .

وقوله : (يدعون فيها بكل فاكهة آمنين) ، أى : مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم ، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه ، بل يحضر إليهم كلما أرادوا .

وقوله : (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) ، هذا الاستثناء يؤكد النفى ، فإنه استثناء منقطع ، ومعناه : أنهم لا يذوقون فيها الموت أبدا . كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح ، ثم يقال يا أهل الجنة : خلود فلا موت ، ويا أهل النار ، خلود فلا موت »

وقد تقدم الحديث فى سورة مريم (٢) .

وقال عبد الرزاق : حدثنا سفيان الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن أبى مسلم الأغر ، عن أبى سعيد وأبى هريرة — رضى الله عنهما — قالا : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « يقال لأهل الجنة ، إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا [أبدا] ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبْأسوا أبدا ، وإن لكم أن تَشِبّوا فلا تهرموا أبدا » . رواه مسلم ، عن إسحاق بن راهويه وعبد بن حُمَيد ، كلاهما عن عبد الرزاق(٣) به .

هكذا يقول أبو إسحاق وأهل العراق « أبو مسلم الأغر » ، وأهل المدينة يقولون : « أبو عبد الله الأغر » .

وقال أبو بكر بن أبى داود السجستانى : حدثنا أحمد بن حفص ، عن أبيه ، عن إبراهيم بن طَهْمَان ، عن الحجاج — هو ابن حجاج — عن عبادة ، عن عبيد الله بن عمرو ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « من اتقى الله دخل الجنة ، ينعم فيها ولا يبأس ، ويحيا فيها فلا يموت ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه (٤) » .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أحمد بن يحيى ، حدثنا عمرو بن [محمد] الناقد ، حدثنا سليمان بن عبد الله الرقى ، حدثنا مصعب بن إبراهيم ، حدثنا عمران بن الربيع الكوفى ، عن يحيى بن سعيد الأنصارى ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر — رضى الله عنه — قال : سُئل نبىّ الله — صلى الله عليه وسلم — : أينام أهل الجنة ؟ فقال : « النوم أخو الموت ، وأهل الجنة لا ينامون » .

---

(١) سورة الرحمن ، الآيات : ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٠ .
(٢) تقدم الحديث عند الآية التاسعة والثلاثين من سورة مريم ، وخرجناه هنالك . انظر : ٥/٢٢٧ — ٢٢٨ .
(٣) مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب « فى دوام نعيم أهل الجنة » : ٨/١٤٨ .
(٤) انظر مسند الإمام أحمد : ٢/٣٠٥ ، ٣٧٠ ، ٤٠٧ ، ٤١٦ ، ٤٤٥ ، ٤٦٢ .

وهكذا رواه أبو بكر بن مَرْدُويه فى تفسيره : حدثنا أحمد بن القاسم بن صدقة المصرى، حدثنا المقدام بن داود، حدثنا عبد الله بن المغيرة ، حدثنا سفيان الثورى ، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « النوم أخو الموت ، وأهل الجنة لا ينامون » .

وقال أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا الفضل بن يعقوب، حدثنا محمد بن يوسف الفريابى ، عن سفيان ، عن محمد ابن المنكدر ، عن جابر قال : قيل : يا رسول الله ، هل ينام أهل الجنة ؟ قال : « لا ، النوم أخو الموت » . ثم قال : « لا نعلم أحداً أسنده عن ابن المنكدر، عن جابر إلا الثورى ، ولا عن الثورى، إلا الفريابى » . هكذا قال، وقد تقدم خلاف ذلك ، والله أعلم .

وقوله: (ووقاهم عذاب الجحيم)، أى : مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم، وسلمهم ونجاهم وزحزحهم من العذاب الأليم فى دركات الجحيم ، فحصل لهم المطلوب ، ونجاهم من المرهوب . ولهذا قال : (فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم)، أى : إنما كان هذا بفضله عليهم وإحسانه إليهم ، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اعملوا وسددوا وقاربوا، واعلموا أن أحداً لن يُدخِلَه عملُه الجنة» . قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل (١) » .

وقوله : (فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون)، أى : إنما يسرنا هذا القرآن الذى أنزلناه سهلا واضحا بينا جليا بلسانك الذى هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها (لعلهم يتذكرون)، أى : يتفهمون ويعملون . ثم لما كان مع هذا البيان والوضوح من الناس مَنْ كفر وخالف وعاند، قال الله تعالى لرسوله [مسليا له] وواعدا له بالنصر ، ومتوعدا لمن كذبه بالعطب والهلاك : (فارتقب) ، أى : انتظر (إنهم مرتقبون) ، أى : فسيعلمون لمن يكون النصر والظفر وعلو الكلمة فى الدنيا والآخرة ، فإنها لك يا محمد ولأخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين ، كما قال تعالى : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز (٢)) ، وقال تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوءُ الدار (٣)) .

آخر تفسير سورة الدخان ، ولله الحمد والمنة ، وبه التوفيق والعصمة

---

(١) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « القصد والمداومة على العمل » : ٨/١٢٢ . ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، « لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله تعالى » : ٨/١٤٠ .

(٢) سورة المجادلة ، آية ٢١ .

(٣) سورة غافر ، آية ٥١ ــ ٥٢ .

تفسير سورة الجاثية

وهى مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥)

يرشد تعالى خلقه إلى التفكر فى آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التى خلق بها السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع ، من الملائكة والجن والإنس ، والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات ، وما فى البحر من الأصناف المتنوعة ، واختلاف الليل والنهار ، فى تعاقبهما دائبين لا يفتران ، هذا بظلامه وهذا بضيائه ، وما أنزل الله تعالى من السحاب من المطر فى وقت الحاجة إليه . وسماه رزقا لأن به يحصل الرزق ، (فأحيا به الأرض بعد موتها) ، أى : بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شىء .

وقوله : (وتصريف الرياح) ، أى : جنوبا وشآماً، ودبوراً وصبا(١)، بحرية وبرية ، ليلية ونهارية ، ومنها ما هو للمطر ، ومنها ما هو للقاح ، ومنها ما هو غذاء الأرواح ، ومنها ما هو عقيم .

وقال أولا : (لآيات للمؤمنين) ،ثم (يوقنون) ثم (يعقلون) ، وهو ترق من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى . وهذه الآيات شبيهة بآية « البقرة » وهى قوله : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون (٢)) . وقد أورد ابن أبى حاتم هاهنا عن وهب بن منبه أثراً طويلا غريبا فى خلق الإنسان من الأخلاط الأربعة .

---

(١) أى : قادمة من الشام . والدبور : الريح التى تقابل الصبا . وكانوا يقولون : إنها تأتى من دبر الكعبة ، وإن الصبا تستقبلها .

(٢) سورة البقرة ، آية : ١٦٤ .

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى : هذه آياتُ الله ــ يعني القرآن بما فيه من الحجج والبينات ــ (نتلوها عليك بالحق)،أى: متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها، فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟! ثم قال : (ويل لكل أفاك أثيم)، أى: أفاك فى قوله كذاب ، حلاّف مهين أثيم فى فعله وقيله كافر بآيات الله، ولهذا قال: (يسمع آيات الله تتلى عليه) ، أى : تقرأ عليه (ثم يصر) ، أى : على كفره وجحوده استكباراً وعنادا (كأن لم يسمعها) ، أى : كأنه ما سمعها ، (فبشره بعذاب أليم)، فأخبره أن له عند الله يوم القيامة عذابا أليما موجعا .

(وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزوا) ، أى : إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذه سخريا وهزوا، (أولئك لهم عذاب مهين) ، أى : فى مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به : ولهذا روى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُسافَرَ بالقرآن إلى أرض العدو مخافةَ أن يناله العدو (١) .

ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال : (من ورائهم جهنم) ، أى : كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة ، (ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئاً) ، أى : لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ، (ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء) ، أى : ولا تغنى عنهم الآلهة التى عبدوها من دون لله شيئاً ، (ولهم عذاب عظيم) .

ثم قال تعالى : (هذا هدى) ، يعنى القرآن ، (والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم) ، وهو المؤلم الموجع .

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخر لهم من البحر (لتجرى الفلك) ، وهى السفن فيه بأمره تعالى ، فإنه هو الذى أمر البحر أن يحملها (ولتبتغوا من فضله) ، أى : فى المتاجر والمكاسب ، (ولعلكم تشكرون) ، أى: على حصول المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائية والآفاق القاصية .

(١) مسلم ، كتاب الإمارة ، باب « النهى أن يسافر بالمصحف إلى أرض الكفار إذا خيف وقوعه فى أيديهم » : ٣٠/٦ . وقد أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد ، باب « السفر بالمصاحف إلى أرض العدو » : ٦٨/٤ .

ثم قال تعالى: (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض) ، أى : من الكواكب والجبال ، والبحار والأنهار ، وجميع ما تنتفعون به ، أى : الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه . ولهذا قال : (جميعا منه) ، أى : من عنده وحده لا شريك له فى ذلك ، كما قال تعالى : (وما بكم من نعمة فمن الله ، ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون (١)) .

وروى ابن جرير من طريق العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه) : كلّ شىء هو من الله ، وذلك الاسم فيه اسم من أسمائه ، فذلك جميعاً منه ، ولا ينازعه فيه المنازعون ، واستيقن (٢) أنه كذلك

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن خلف العسقلانى ، حدثنا الفريابى ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن أبى أراكة قال : سأل رجل عبد الله بن عمرو قال : مم خُلق الخلق ؟ قال : من النور والنار ، والظلمة والثرى . قال : وائت ابن عباس فاسأله . فأتاه فقال له مثل ذلك ، فقال : ارجع إليه فسله : مم خلق ذلك كله ؟ فرجع إليه فسأله ، فتلا : (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه) . هذا أثر غريب ، وفيه نكارة .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

وقوله : (قل للذين آمنوا : يغفروا للذين لا يرجون أيام الله) ، أى : يصفحوا عنهم ويحملوا الأذى منهم . وهذا كان فى ابتداء الإسلام ، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ، ليكون ذلك لتأليف قلوبهم ، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد . هكذا رُوى عن ابن عباس ، وقتادة .

وقال مجاهد : (لا يرجون أيام الله) : لا يبالون (٣) نعم الله .

وقوله : (ليجزى قوما بما كانوا يكسبون) ، أى : إذا صفحوا عنهم فى الدنيا فإن الله مجازيهم بأعمالهم السيئة فى الآخرة . ولهذا قال : (من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، ثم إلى ربكم ترجعون) ، أى : تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم ، فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على بنى إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم ، وجعله الملك فيهم ، ولهذا قال : (ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ، ورزقناهم من الطيبات) ، أى : من المآكل والمشارب ، (وفضلناهم على العالمين) ، أى : فى زمانهم ، (وآتيناهم بينات من الأمر) ، أى : حججاً وبراهين وأدلة قاطعات ، فقامت عليهم الحجج ،

---

(١) سورة النحل ، آية : ٥٣ .

(٢) فى المخطوطة : « واستبين » . والمثبت من تفسير الطبرى : ٢٥/٨٦ .

(٣) فى المخطوطة : « ينالون » ، بالنون . والمثبت من تفسير الطبرى .

ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة ، وإنما كان ذلك بغياً منهم على بعضهم بعضا ، (إن ربك) يا محمد (يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) ، أى : سيفصل بينهم بحكمه العدل . وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم ، وأن تقصد منهجهم . ولهذا قال : (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها) ، أى : اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو ، وأعرض عن المشركين . وقال هاهنا : (ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون . إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض) ، أى : وماذا تغنى عنهم ولايتهم لبعضهم بعضا، فإنهم لا يزيدونهم إلا خسارا ودمارا وهلاكا ، (والله ولى المتقين) ، وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات .

ثم قال : (هذا بصائر للناس) ، يعنى القرآن ، (وهدى ورحمة لقوم يوقنون) :

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)

يقول تعالى : لا يستوى المؤمنون والكافرون ، كما قال : (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون) (١) ، وقال هاهنا : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات) ، أى : عملوها وكسبوها (أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟) ، أى : نساويهم بهم فى الدنيا والآخرة ! (ساء ما يحكمون) ، أى : ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نُساوىَ بين الأبرار والفجار فى الدار الآخرة ، وفى هذه الدار .

قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا مؤمّل بن إهاب ، حدثنا بكير بن عثمان التنوخى ، حدثنا الوضين بن عطاء ، عن يزيد ابن مرثد الباجى (٢) ، عن أبى ذر رضى الله عنه قال ؟ إن الله بنى دينه على أربعة أركان ، فمن صبر (٣) عليهن ولم يعمل بهن لقى الله من الفاسقين . قيل : وما هن يا أبا ذر؟ قال : يسلم حلال الله لله ، وحرام الله لله ، وأمر الله لله ، ونهى الله لله، لا يؤتمن عليهن إلا الله . قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : « كما أنه لا يجتنى من الشوك العنب، كذلك لا ينال الفجار منازل الأبرار » .

هذا حديث غريب من هذا الوجه . وقد ذكر محمد بن إسحاق فى كتاب «السيرة» أنهم وجدوا حجرا بمكة فى أس الكعبة مكتوب عليه : تعملون السيئات وترجون الحسنات ؟ أجل كما يجتنى من الشوك العنب (٤) ! .

---

(١) سورة الحشر ، آية : ٢٠ .

(٢) كذا فى المخطوطة . وفى الجرح والتعديل ٤/٢/٢٨٨ : « يزيد بن مرثد الهمدانى » .

(٣) كذا ، ولعل فى النص سقطا .

(٤) تقدم الأثر فى سورة النحل ، عند تفسير الآية الثانية والستين ، وخرجناه هنالك . انظر : ٤/٤٩٨ .

وقد روى الطبراني من حديث شعبة ، عن عمرو بن مُرّة ، عن أبي الضُّحَى ، عن مَسْرُوق : أن تميما الداريّ قام ليلة حتى أصبح يُرَدّد هذه الآية : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) . ولهذا قال تعالى : [ساء ما يحكمون) ، وقال] : (وخلق الله السموات والأرض بالحق) ، أي : بالعدل ، (ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) .

ثم قال : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) ، أي : إنما يأتمر بهواه ، فهما رآه حسنا فعله ، ومهما رآه قبيحا تركه ؛ وهذا قد يستدل به على المعتزلة في قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين .

وعن مالك فيما رُوى عنه من التفسير : لا يهوى شيئا إلا عَبَده .

وقوله : (وأضله الله على علم) ، يحتمل قولين :

أحدهما : وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك . [والآخر :] وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه ، وقيام الحجة عليه . والثاني يستلزم الأول ، ولا ينعكس .

(وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة) ، أي : فلا يسمع ما ينفعه ، ولا يعي شيئا يهتدى به ، ولا يرى حجة يستضيء بها . ولهذا قال : (فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) ، كقوله : (من يضلل الله فلا هادى له ، ويذرهم في طغيانهم يعمهون (١)) .

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

يخبر تعالى عن قول الدّهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد : (وقالوا : ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا) ، أي : ماثَمّ إلا هذه الدار ، يموت قوم ويعيش آخرون ، وماثَمّ معاد ولا قيامة . وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد ، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم ، وهم ينكرون البدَاءة والرجعة ، ويقوله الفلاسفة الدهرية الدّورية المنكرون للصانع المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه : وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى ، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول ، ولهذا قالوا : (وما يهلكنا إلا الدهر) ، قال الله تعالى : (وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) ، أي : يتوهمون ويتخيلون .

فأما الحديث الذى أخرجه صاحبا الصحيح ، وأبو داود ، والنسائى ، من رواية سفيان بن عُيَيْنة ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هُرَيرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « يقول الله

(١) سورة الأعراف ، آية : ١٨٦ .

تعالى : يؤذيني ابن آدم ؛ يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلب ليله ونهاره(١) » ــ وفى رواية : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر (٢) » .

وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جدا فقال : حدثنا أبو كريب ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن الزهرى ، عن سعيد ابن المسيب ، عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كان أهل الجاهلية يقولون : إنما يهلكنا الليل والنهار ، وهو الذى يهلكنا ، يميتنا ويحيينا ، فقال الله فى كتابه : (وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر) ، [قال(٣)] ويسبون الدهر، فقال الله عز وجل : يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدى الأمر أقلب الليل والنهار (٤) » .

وكذا رواه ابن أبى حاتم، عن أحمد بن منصور، عن شريح بن النعمان ، عن ابن عيينة ، مثله : ثم روى عن يونس، عن بن وهب ، عن الزهرى ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالى : يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر ، بيدى الليل والنهار »

وأخرجه صاحبا الصحيح والنسائى ، من حديث يونس بن زيد ، به .

وقال محمد بن إسحاق ، عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « [يقول الله(٣)] : استقرضت عبدى فلم يعطنى ، وسبنى عبدى ، يقول : وادهراه : وأنا الدهر (٤) » .

قال الشافعى وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة فى تفسير قوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » كانت العرب فى جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة ، قالوا : ياخيبة الدهر ؛ فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله ، فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل ؛ لأنه فاعل ذلك فى الحقيقة ، فلهذا نُهِيَ عن سب الدهر بهذا الاعتبار، لأن الله هو الدهر الذى يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال .

هذا أحسن ما قيل فى تفسيره ، وهو المراد، والله أعلم ؛ وقد غلط ابنُ حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية فى عدِّهم الدهر من الأسماء الحسنى ، أخذا من هذا الحديث !

وقوله تعالى : (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) ، أى : إذا استُدِلَّ عليهم وبُيِّنَ لهم الحق، وأن الله قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها، (ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين)، أى : أحيوهم إن كان ما تقولونه حقا : قال الله تعالى: (قل الله يحييكم)، أى : كما تشاهدون ذلك ، يخرجكم من العدم إلى الوجود، (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم(٥))، أى : الذى قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأوْلَى والأحْرَى ، (وهو

(١) البخارى ، تفسير سورة الجاثية : ٦/١٦٦ . وكتاب التوحيد : ٩/١٧٥ . ومسلم ، كتاب الألفاظ من الأدب ، باب « النهى عن سب الدهر » : ٧/٤٥ . وسنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « فى الرجل يسب الدهر » ، الحديث ٥٢٧٤ : ٤/٣٦٩ .

(٢) مسند الإمام أحمد عن أبى قتادة : ٥/٢٩٩ ، ٣١١ .

(٣) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٥/٩٢ .

(٥) سورة البقرة ، آية : ٢٨ .

الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه[١]) ، (ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه) ، أى : إنما يجمعكم ليوم القيامة لايعيدكم فى الدنيا حتى تقولوا : (ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين) ، (يوم يجمعكم ليوم الجمع[٢]) ، (لأى يوم أجلت ، ليوم الفصل[٣]) ، (وما نؤخره إلا لأجل معدود[٤]) . وقال هاهنا : (ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه) ، أى : لاشك فيه ، (ولكن أكثر الناس لايعلمون) ، أى : فلهذا ينكرون المعاد ، ويستبعدون قيام الأجساد . قال الله تعالى : (إنهم يرونه بعيدا . ونراه قريبا [٥]) ، أى : يرون وقوعه بعيدا ، والمؤمنون يرون ذلك سهلا قريبا .

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، الحاكم فيهما فى الدنيا والآخرة . ولهذا قال : (ويوم تقوم الساعة) ، أى : يوم القيامة (يخسر المبطلون) ، وهم الكافرون بالله الجاحدون ما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات .

وقال ابن أبى حاتم : قدم سفيان الثورى المدينة ، فسمع المعَافرى يتكلم ببعض مايضحك به الناس . فقال له : ياشيخ ، أما علمتَ أن لله يوماً يخسر فيه المبطلون ؟ قال : فما زالت تعرف فى المعافرى حتى لحق بالله عز وجل . ذكره ابن أبى حاتم .

ثم قال : (وترى كل أمة جاثية) ، أى : على ركبها من الشدة والعظمة ، ويقال : إن هذا إذا جىء بجهنم فإنها تزفر زفرة لايبقى أحد إلا جثا لركبتيه ، حتى إبراهيم الخليل ، ويقول : نفسى ، نفسى ، نفسى ، لاأسألك اليوم إلا نفسى . وحتى إن عيسى ليقول : لاأسألك اليوم إلا نفسى ، لاأسألك مريم التى ولدتنى .

قال مجاهد ، وكعب الأحبار ، والحسن البصرى : (كل أمة جاثية) ، أى : على الركب [٦] .

وقال عكرمة : جاثية متميزة على ناحيتها ، وليس على الركب . والأول أولى .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرىء ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن عمرو ، عن عبد الله بن باباه : أن رسول الله قال : « كأنى أراكم جاثين بالكَوْم[٧] دون جهنم » .

وقال إسماعيل بن رافع المدينى ، عن محمد بن كعب [٨] ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — مرفوعا فى حديث الصورة : فيتميز الناس ، وتجثو الأمم ، وهى التى يقول الله : (وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها)

---

(١) سورة الروم ، آية : ٢٧ .
(٢) سورة التغابن ، آية : ٩ .
(٣) سورة المرسلات ، آية : ١٢ — ١٣ .
(٤) سورة هود ، آية : ١٠٤ .
(٥) سورة المعارج ، آية : ٦ — ٧ .
(٦) تفسير الطبرى : ٢٥/٩٣ .
(٧) أى : المواضع العالية .
(٨) كذا فى المخطوطة ، وقد تقدم فى سورة الأنعام ٣/٢٧٦ : « عن إسماعيل بن رافع ، عن محمد بن زياد ، عن محمد بن كعب » . وفى أول سورة الحج ٥/٣٨٤ رواه الطبرى من حديث إسماعيل بن رافع ، عن يزيد بن أبى زياد ، عن رجل من الأنصار ، عن محمد بن كعب .

وهذا فيه جمعٌ بين القولين ، ولا منافاة ، والله أعلم .

وقوله : (كل أمة تدعى إلى كتابها) ، يعني كتاب أعمالها . كقوله : (ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء[١]) ؛ ولهذا قال : (اليوم تجزون ماكنتم تعملون) أي : تجازون بأعمالكم خيرها وشرها ، كقوله تعالى : (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ٭ بل الإنسان على نفسه بصيرةٌ ٭ ولو ألقى معاذيرهُ)[٢] .

ثم قال : (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق) ، أي : يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص ، كقوله تعالى : (ووضع الكتاب ، فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون ، ياويلتنا . مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا[٣])

وقوله : (إناكنا نستنسخ ماكنتم تعملون) ، أي : إناكنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم ؛

قال ابن عباس وغيره : تكتب الملائكة أعمال العباد ، ثم تصعد بها إلى السماء ، فيقابلون الملائكة الذين في ديوان الأعمال على مابأيديهم مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر ، مماكتبه الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم ، فلا يزيد حرفا ولا ينقص حرفا . ثم قرأ : (إناكنا نستنسخ ماكنتم تعملون) .

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

يخبر تعالى عن حكمه في خلقه يوم القيامة ، فقال : (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، أي : آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحات ، وهي الخالصة الموافقة للشرع . (فيدخلهم ربهم في رحمته) ، وهي الجنة . كما ثبت في الصحيح أن الله قال للجنة : « أنت رحمتي ، أرحم بك من أشاء »[٤]

---

(١) سورة الزمر ، آية : ٦٩ .
(٢) سورة القيامة ، الآيات : ١٣ – ١٥ .
(٣) سورة الكهف ، آية : ٤٩ .
(٤) البخاري ، تفسير سورة « ق » : ٦/١٧٣ .

(ذلك هو الفوز المبين) ، أى : البين الواضح .

ثم قال : (وأما الذين كفروا : أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم ؟) ، أى : يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا : أما قرئت عليكم آيات الرحمن فاستكبرتم عن اتباعها ، وأعرضتم عند سماعها ، (وكنتم قوما مجرمين)، أى : فى أفعالكم، مع مااشتملت عليه قلوبكم من التكذيب ؟

(وإذا قيل : إن وعد الله حق والساعة لاريب فيها) ، أى : إذا قال لكم المؤمنون ذلك ، (قلتم : ماندرى ماالساعة) ؟ أى : لانعرفها، (إن نظن إلا ظنا) ، أى : إن نتوهم وقوعها إلا توهما ، أى مرجوحا . ولهذا قال : (وما نحن بمستيقنين)، أى : بمتحققين ، قال الله تعالى : (وبدا لهم سيئات ماعملوا) أى : وظهر [لهم] عقوبة أعمالهم السيئة ، (وحاق بهم) ، أى: أحاط بهم (ماكانوا به يستهزئون) ، أى: من العذاب والنكال،(وقيل : اليوم ننساكم)، أى : نعاملكم معاملة الناسى لكم فى نار جهنم ، (كما نسيتم لقاء يومكم هذا) ، أى : فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به ، (ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) .

وقد ثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة : « ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل،وأذرك ترأس وتربع[1] ؟ فيقول : بلى ، يارب . فيقول: أفظننت أنك ملاقى ؟ فيقول : لا . فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتنى »[2] .

قال الله تعالى : (ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً) ، أى : إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخريا ، تسخرون وتستهزئون بها ، (وغرتكم الحياة الدنيا) ، أى : خدعتكم فاطمأننتم إليها ، فأصبحتم من الخاسرين . ولهذا قال : (فاليوم لايخرجون منها) ، أى : من النار (ولاهم يستعتبون) ، أى : لايطلب منهم العتبى ، بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب ، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب .

ثم لما ذكر حكمه فى المؤمنين والكافرين قال : (فلله الحمد ، رب السموات ورب الأرض) ، أى : المالك لهما وما فيهما، ولهذا قال : (رب العالمين)

ثم قال : (وله الكبرياء فى السموات والأرض) — قال مجاهد : يعنى السلطان . أى : هو العظيم الممجد ، الذى كل شيء خاضع لديه فقير إليه . وقد ورد فى الحديث الصحيح : « يقول الله تعالى : العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحداً منهما أسكنته نارى » . ورواه مسلم [3] من حديث الأعمش ، عن أبى إسحاق ، عن الأغر أبى مسلم ، عن أبى هريرة وأبى سعيد — رضى الله عنهما — عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بنحوه .

وقوله (وهو العزيز) ، أى : الذى لايغالب ولا يمانع ،(الحكيم) فى أقواله وأفعاله ، وشرعه وقدره ، تعالى وتقدس، لاإله إلا هو .

آخر تفسير سورة الجاثية

---

(١) ترأس : تكون رئيساً . وتربع : تأخذ ربع الغنيمة ، أى : ألم أجعلك رئيساً مطاعاً ؟

(٢) تقدم الحديث فى سورة الأعراف ، عند تفسير الآية ٥١ منها ، وخرجناه هنالك . انظر : ٣/٤٢٠ .

(٣) مسلم ، كتاب البر ، باب « تحريم الكبر » : ٨/٣٥ — ٣٦ . وانظر مسند الإمام أحمد : ٢/٢٤٨ ، ٣٧٦ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٢ ، ٦/١٩ . وسنن أبى داود ، كتاب اللباس ، باب « ما جاء فى الكبر » ، الحديث ٤٠٩٠ : ٤/٥٩ . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « البراءة من الكبر ، والتواضع » ، الحديث ٤١٧٤ : ٢/١٣٩٧ .

تفسير سورة الأحقاف

وهى مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)

يخبر تعالى أنه نزّل الكتاب على عبده ورسوله محمد — صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين — ووصف نفسه بالعزة التى لا ترام ، والحكمة فى الأقوال والأفعال ، ثم قال : (ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) ، أى : لا على وجه العبث والباطل ، (وأجل مسمى) ، أى : وإلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص .

وقوله : (والذين كفروا عما أنذروا معرضون) ، أى : لا هون عما يراد بهم ، وقد أنزل إليهم كتابٌ وأرسلَ إليهم رسول ، وهم معرضون عن ذلك كله ، أى : وسيعلمون غبَّ ذلك .

ثم قال : (قل) ، أى : لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره : (أرأيتم ماتدعون من دون الله ، أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟) أى : أرشدونى إلى المكان الذى استقلوا بخلقه من الأرض ، (أم لهم شرك فى السموات ؟) ، أى : ولاشرك لهم فى السموات ولا فى الأرض ، وما يملكون من قطمير ، إن المُلْكُ والتصرّفُ كلّه إلا لله — عز وجل — فكيف تعبدون معه غيره ، وتشركون به ؟ مَن أرشدكم إلى هذا ؟ مَن دعاكم إليه ؟ أهو أمركم به ؟ أم هو شىء اقترحتموه من عند أنفسكم؟

ولهذا قال : (ائتونى بكتاب من قبل هذا) ، أى : هاتوا كتابا من كتب الله المنزلة على الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — يأمركم بعبادة هذه الأصنام ، (أو أثارة من علم) ، أى : دليل بيِّن على هذا المسلك الذى سلكتموه (إن كنتم صادقين) ، أى : لا دليل لكم نقلياً ولا عقليا على ذلك . ولهذا قرأ آخرون : (أو أثَرَة من علم [١]) ، أى : أو علم صحيح يأثُرونه عن أحد ممن قبلهم ، كما قال مجاهد فى قوله : (أو أثارة من علم) : أو أحد يأثُر علما [٢] .

وقال العَوفى ، عن ابن عباس : أو بينة من الأمر .

---

(١) البحر المحيط لأبى حيان : ٨/٥٥ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٦/٣ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى ، عن سفيان ، حدثنا صفوان بن سُلَيم ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن ابن عباس قال سفيان : لا أعلم إلا عن النبي صلى الله عليه وسلم — : (أو أثَرَة من علم) ، قال : الخط (١) .

وقال أبو بكر بن عياش : أو بقية من علم . وقال الحسن البصري : أو أثارة شيء يستخرجه فيثيره .

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وأبو بكر بن عياش أيضا : (أو أثارة من علم) ، يعني : الخط .

وقال قتادة : (أو أثارة من علم) : خاصة من علم .

وكل هذه الأقوال متقاربة ، وهي راجعة إلى ما قلناه ، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله وأكرمه ، وأحسن مثواه .

وقوله : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ؟) ، أي : لا أضل ممن يدعو أصناما ، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة ، وهي غافلة عما [يقول] ، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش ، لأنها جماد ، حجارة ، صُمٌّ .

وقوله : (وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) ، كقوله تعالى : (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا(٢)) ، أي : سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم . وقال الخليل : (إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مَوَدّة بينكم في الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ، ومأواكم النار وما لكم من ناصرين (٣)) .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩

يقول تعالى مخبرا عن المشركين في كفرهم وعنادهم : أنهم إذا تتلى عليهم آيات الله بينات ، أي : في حال بيانها ووضوحها وجلائها ، يقولون : (هذا سحر مبين) ، أي : سحر واضح ، وقد كذّبوا وافتروا وضلّوا وكفروا . (أم يقولون افتراه) ، يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم . قال الله : (قل : إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا) ، أي : لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني — وليس كذلك — لعاقبني أشد العقوبة ، ولم يَقْدِرْ أحد من أهل الأرض ، لا أنتم ولا غيركم ، أن يجيرني منه ، كقوله : (قل : إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه مُلْتَحَدا . إلا بلاغا من الله ورسالاته(٤)) وقال تعالى : (ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين(٥))

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١/٢٢٦ .
(٢) سورة مريم ، الآية : ٨١ – ٨٢ .
(٣) سورة العنكبوت ، آية : ٢٥ .
(٤) سورة الجن ، آية : ٢٢–٢٣ .
(٥) سورة الحاقة ، الآيات : ٤٤ – ٤٧ .

ولهذا قال هاهنا : (قل : إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا ، هو أعلم بما تفيضون فيه ، كفى به شهيدا بينى وبينكم) : هذا تهديد لهم ، ووعيد أكيد ، وترهيب شديد.

وقوله : (وهو الغفور الرحيم) : ترغيب لهم إلى التوبة و الإنابة ، أى : ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم ، تاب عليكم وعفا عنكم ، وغفر ورحم . وهذه الآية كقوله فى سورة الفرقان : (وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا : قل : أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما (١)) .

وقوله : (قل : ما كنت بدعا من الرسل) ، أى : لست بأول رسول طرق العالم ، بل قد جاءت الرسل من قبلى ، فما أنا بالأمر الذى لا نظير له حتى تستنكرونى وتستبعدوا بعثى إليكم ، فإنه قد أرسل الله قبلى جميع الأنبياء إلى الأمم .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : (قل : ما كنت بدعا من الرسل) : ما أنا بأول رسول . ولم يحك ابن جرير (٢) ولا ابن أبى حاتم غير ذلك :

وقوله : (وما أدرى مايفعل بى ولا بكم) – قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى هذه الآية : نزل بعدها (ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر) : وهكذا قال عكرمة ، والحسن ، وقتادة : إنها منسوخة بقوله : (ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر) ، قالوا : ولما نزلت هذه الآية قال رجل من المسلمين : هذا قد بين الله ماهو فاعل بك يارسول الله ، فما هو فاعل بنا ؟ فأنزل الله : (ليدخل المؤمنين و المؤمنات جنات) .

هكذا قال ، والذى هو ثابت فى الصحيح أن المؤمنين قالوا : هنيئا لك يارسول الله ، فما لنا ؟ فأنزل الله هذه الآية :

وقال الضحاك : (وما أدرى مايفعل بى ولا بكم) : ماأدرى بماذا أومر ، وبماذا أنهى بعد هذا ؟

وقال أبو بكر الهذلى ، عن الحسن البصرى فى قوله : (وما أدرى مايفعل بى ولا بكم) ، قال : أما فى الآخرة فمعاذ الله قد علم أنه فى الجنة ، ولكن قال : لاأدرى مايفعل بى ولا بكم فى الدنيا ، أخرج كما أخرجت الأنبياء قبلى ؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلى ؟ ولا أدرى أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة (٣) ؟

وهذا القول هو الذى عول عليه ابن جرير ، وأنه لايجوز غيره ، ولا شك أن هذا هو اللائق به – صلوات الله وسلامه عليه – فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه ، وأما فى الدنيا فلم يدر ماكان يؤول إليه أمره وأمر مشركى قريش إلى ماذا : أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم ؟ فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا يعقوب ، حدثنا أبى ، عن ابن شهاب ، عن خارجة بن زيد بن ثابت ، عن أم العلاء – وهى امرأة من نسائهم – أخبرته (٤) – وكانت بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم – قالت : طار (٥) لهم فى السكنى حين اقترعت الأنصار

---

(١) سورة الفرقان ، آية : ٥ – ٦ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٦/٥ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٦/٦ .
(٤) لفظ المسند : « قال يعقوب : أخبرته أنها بايعت » .
(٥) أى : حصل نصيبنا من المهاجرين عثمان .

على سكنى المهاجرين عثمانُ بن مظعون فاشتكى عثمان عندنا فمرضناه ، حتى إذا توفى أدرجناه فى أثوابه ، فدخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : رحمةُ الله عليك أبا السائب ، شهادتى عليك ، لقد أكرمك الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك أن الله أكرمه ؟ » . فقلت : لاأدرى بأبى أنت وأمى ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وإنى لأرجو له الخير ، والله ماأدرى وأنا رسول الله مايفعل بى » ! قالت : فقلت : والله لاأزكى أحدا بعده أبدا . وأحزننى ذلك ، فنمت فرأيت لعثمان عينا تجرى ، فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذاك عمله (١) »

فقد انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم(٢) ، وفى لفظ له : « ماأدرى وأنا رسول الله مايفعل به » (٢) . وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ ، بدليل قولها : « فأحزننى ذلك » . وفى هذا وأمثاله دلالة على أنه لايقطع لمعين بالجنة إلا الذى نص الشارع على تعيينهم ، كالعشرة ، وابن سلام ، والغُميصاء (٣) ، وبلال ، وسراقة ، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر ، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة ، وزيد بن حارثة ، وجعفر ، وابن رواحة ، وما أشبه هؤلاء .

وقوله : (إن أتبع إلا مايوحى إلى) ، أى : إنما أتبع ماينزله الله على من الوحى ، (وما أنا إلا نذير مبين) ، أى : بين النذارة ، وأمرى ظاهر لكل ذى لب وعقل .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى : (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن : (أرأيتم إن كان هذا القرآن من عند الله وكفرتم به) أى : ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذى جئتكم به قد أنزله على لأبلغكموه وقد كفرتم به وكذبتموه ، (وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله) ، أى : وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء قبلى ، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به .

وقوله : (فآمن) ، أى : هذا الذى شهد بصدقه من بنى إسرائيل لمعرفته بحقيته (واستكبرتم) أنتم : عن اتباعه ،

---

(١) مسلم الإمام أحمد ٤٣٦/٦ .

(٢) البخارى ، كتاب مناقب الأنصار ، باب « مقدم النبى وأصحابه المدينة » : ٨٥/٤ – ٨٦ . وكتاب التعبير ، باب « رؤيا النساء » : ٤٤/٩ . وباب « العين الجارية فى المنام » : ٤٨/٩ . وكتاب الجنائز ، باب « الدخول » على الميت بعد الموت إذا أدرج فى كفنه » : ٩١/٢ .

(٣) يقال أيضاً فيها « الرميصاء » ، وهى أم أنس بن مالك . روى أبو يعلى عن جابر قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : أريت أنى دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبى طلحة » . انظر أسد الغابة ، ط الوهبية : ٤٦٠/٥ .

وقال مسروق : فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه ، وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم (إن الله لا يهدى القوم الظالمين (١)) .

وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام وغيره ، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام . وهذه كقوله : (وإذا يتلى عليهم قالوا : آمنا به ، إنه الحق من ربنا ، إنا كنا من قبله مسلمين (٢)) . وقال : (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا . ويقولون : سبحان ربنا ، إن كان وعد ربنا لمفعولا (٣)) .

قال مسروق ، والشعبي : ليس بعبد الله بن سلام ، هذه الآية مكية ، وإسلام عبد الله بن سلام كان بالمدينة . رواه عنهما ابن جرير (١) وابن أبي حاتم ، واختاره ابن جرير .

وقال مالك ، عن أبي النضر ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه قال : ما سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض : « إنه من أهل الجنة » ، إلا لعبد الله بن سلام ، قال : وفيه نزلت : (وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله) .

رواه البخاري ومسلم والنسائي(٤) ، من حديث مالك ، به . وكذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وعكرمة ، ويوسف بن عبد الله بن سلام ، وهلال بن يَسَاف ، والسدي ، والثوري ، ومالك بن أنس وابن زيد أنهم كلهم قالوا : إنه عبد الله بن سلام .

وقوله تعالى : (وقال الذين كفروا للذين آمنوا : لو كان خيرا ما سبقونا إليه) ، أي : قالوا عن المؤمنين بالقرآن : لو كان القرآن خيرا ماسبقنا هؤلاء إليه . يعنون بلالا وعمارا وصُهَيبا وخبابا وأشباههم وأقرانهم من المستضعفين والعبيد والإماء ، وماذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية . وقد غلطوا في ذلك غلطا فاحشا ، وأخطئوا خطأ بينا ، كما قال تعالى : (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ، ليقولوا : أهؤلاء من الله عليهم من بيننا (٥) ؟) أي : يتعجبون : كيف اهتدى هؤلاء دوننا ؟ ولهذا قالوا : (لو كان خيرا ما سبقونا إليه) ، وأما أهل السنة والجماعة [فيقولون] في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة : هو بدعة ، لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه ، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها .

وقوله : (وإذ لم يهتدوا به) ، أي : بالقرآن (فسيقولون هذا إفك) ، أي : كذب (قديم) ، أي : مأثور عن الأقدمين ، فينتقصون القرآن وأهله ، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بَطَر الحق ، وغَمط الناس (٦) » .

---

(١) تفسير الطبري : ٢٦/٧ .
(٢) سورة القصص ، آية : ٥٣ .
(٣) سورة الإسراء ، آية : ١٠٧ ــ ١٠٨ .
(٤) البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، باب « مناقب عبد الله بن سلام » : ٥/٤٦ . ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب « من فضائل عبد الله بن سلام » : ٧/١٦٠ .
(٥) سورة الأنعام ، آية : ٥٣ .
(٦) سنن أبي داود ، كتاب اللباس ، باب « ما جاء في الكبر » ، الحديث ٤٠٩٢ : ٤/٥٩ . وتحفة الأحوذي ، أبواب البر ، باب « ما جاء في الكبر » ، الحديث ٢٠٦٧ : ٦/١٣٧ ــ ١٣٨ ، ومسند الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود : ١/٣٨٥ ، ٤٢٧ .

ثم قال : (ومن قبله كتاب موسى) ، وهو التوراة (إماما ورحمة وهذا كتاب) ، يعنى القرآن (مصدق) ، أى : لما قبله من الكتب (لسانا عربيا) ، أى : فصيحا بينا واضحا ، (لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) ، أى : مشتمل على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين .

وقوله : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) ، تقدم تفسيرها فى سورة « حم السجدة [1] » .

وقوله : (فلا خوف عليهم) ، أى : فيا يستقبلون ، (ولاهم يحزنون) ، على ماخلفوا ، (أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) ، أى : الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسبوغها عليهم .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)

لما ذكر تعالى فى الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه ، عطف بالوصية بالوالدين ، كما هو مقرون فى غير ما آية من القرآن ، كقوله : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا)[2] وقال : (أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير)[3] ، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة ، وقال هاهنا : (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا)[4] ، أى : أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا شعبة ، أخبرنى سماك بن حرب قال : سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال : قالت أم سعد لسعد : أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين ، فلا آكل طعاما ، ولا أشرب شرابا حتى تكفر بالله . فامتنعت من الطعام والشراب ، حتى جعلوا يفتحون [5] فاها بالعصا ، ونزلت هذه الآية : (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا) ... الآية [6] .

ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه ، من حديث شعبة بإسناده ، نحوه وأطول منه [7] .

(حملته أمه كرها) ، أى : قاست بسببه فى حال حمله مشقة وتعبا ، من وحام وغشيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة ، (ووضعته كرها) ، أى : بمشقة أيضا من الطلق وشدته ، (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) .

---

(١) سورة فصلت ، آية : ٣٠ ، انظر : ٧/١٦٤ — ١٦٥ .
(٢) سورة الإسراء ، آية : ٢٣ .
(٣) سورة لقمان ، آية : ١٤ .
(٤) كذا فى مخطوطة الأزهر « حسنا » ، وهى قراءة الجمهور ، انظر البحر المحيط : ٨ : ٦٠ .
(٥) فى منحة المعبود : « يشجرون فاها » ، أى : يفتحونه .
(٦) منحة المعبود ، تفسير سورة الأنفال : ٢/١٨ .
(٧) تقدم تخريج الحديث فى سورة العنكبوت ، عند تفسير الآية الثامنة منها ، انظر : ٦/٢٧٥ .

وقد استدل على رضي الله عنه بهذه الآية مع التي في لقمان : (وفصاله في عامين (١)) ، وقوله : (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة (٢)) ، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قوى صحيح ، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم .

قال محمد بن إسحاق بن يسار ، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط ، عن بَعجة بن عبد الله الجهني قال : تزوج رجل منا امرأة من جُهَينة ، فولدت له لتمام ستة أشهر ، فانطلق زوجها إلى عثمان فذكر ذلك له ، فبعث إليها ، فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها ، فقالت : ما يبكيك ؟! فوالله ما التبس بي أحد من خلق الله غيره قط ، فيقضي الله فيّ ماشاء . فلما أُتيَ بها عثمانَ أمر برجمها ، فبلغ ذلك عليا فأتاه ، فقال له : ما تصنع ؟ قال : ولدت تماما لستة أشهر ، وهل يكون ذلك ؟ فقال له أما تقرأ القرآن ؟ قال : بلى ، قال : أما سمعت الله يقول : (وحمله وفصله ثلاثون شهرا) ، وقال : (حولين كاملين) ، فلم نجده بقي إلا ستة أشهر ، قال : فقال عثمان : والله مافطنت لهذا ، عليّ بالمرأة . فوجدوها قد فُرِغَ منها ، قال : فقال بَعْجة : فوالله ما الغراب بالغراب ، ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه . فلما رآه أبوه قال : ابني ، والله لا أشك فيه ، قال : وأبلاه الله بهذه القرحة قرحة (٣) الأكلة ، فما زالت تأكله حتى مات .

رواه ابن أبي حاتم ، وقد أوردناه من وجه آخر عند قوله : (فأنا أول العابدين) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا فروة بن أبي المَغْراء ، حدثنا علي بن مسهر ، عن داود بن أبي هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر ، كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهرا ، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً ، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين ، لأن الله تعالى يقول : (وحمله وفصاله ثلاثون شهراً) .

(حتى إذا بلغ أشده) ، أي : قوي وشب وارتجل (وبلغ أربعين سنة) ، أي : تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه . ويقال : إنه لا يتغير غالبا عما يكون عليه ابن الأربعين .

قال أبو بكر بن عياش ، عن الأعمش ، عن القاسم بن عبد الرحمن قال : قلت لمسروق : متى يؤخذ الرجل بذنوبه ؟ قال : إذا بلَغْتَ الأربعين ، فخُذْ حذرك .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا عُبَيد الله القواريري ، حدثنا عروة بن قيس الأزدي ــ وكان قد بلغ مائة سنة ــ حدثنا أبو الحسن السلولي (٤) عنه وزادني قال : قال محمد بن عمرو بن عثمان ، عن عثمان ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة ، خفف الله حسابه ، وإذا بلغ ستين سنة رزقه الله الإنابة إليه ، وإذا بلغ سبعين سنة أحبه أهل السماء ، وإذا بلغ ثمانين سنة ثبت الله حسناته ومحا سيئاته ، وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، وشفّعه الله في أهل بيته ، وكتب في السماء : أسيرُ الله في أرضه » .

---

(١) سورة لقمان ، آية : ١٤ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٣٣ .

(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور عن ابن المنذر وابن أبي حاتم ، انظر : ٦/٤٠ ، وفي الدر : « فرأيت الرجل بعد يتساقط عضواً عضواً على فراشه » .

(٤) كذا في المخطوطة ، وفي الطبعات السابقة : « حدثنا أبو الحسن الكوفي عمر بن أوس قال » ، ولم يتهيأ لنا ضبط هذا السند .

وقد روى هذا من [غير] هذا الوجه ، وهو في مسند الإمام أحمد (١)

وقد قال الحجاج بن عبد الله الحكمي (٢) أحد أمراء بني أمية بدمشق : تركت المعاصي والذنوب أربعين سنة حياء من الناس ، ثم تركتها حياء من الله عز وجل .

وما أحسن قول الشاعر :

صَبَا ما صَبَا حتى عَلاَ الشَّيبُ رَأسَهُ فلمَّا عَلاه قال للباطِلِ : ابطُلِ

(قال : رب ، أوزعني) ، أي : ألهمني (أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي ، وأن أعمل صالحا ترضاه) ، أي : في المستقبل ، (وأصلح لي في ذريتي) ، أي : نسلي وعَقِبي ، (إني تبت إليك ، وإني من المسلمين) . وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله — عز وجل — ويعزم عليها .

وقد روى أبو داود في سننه ، عن ابن مسعود — رضي الله عنه — : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد : « اللهم ، ألِّف بين قلوبنا ، وأصلح ذات بيننا ، واهدنا سُبُل السلام ، ونجنا من الظلمات إلى النور ، وجنِّبنا الفواحش ماظهر منها وما بطن ، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا ، وأزواجنا وذرياتنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . واجعلنا شاكرين لنعمتك ، مثنين بها قابليها ، وأتممها علينا (٣) » .

قال الله تعالى : (أولئك الذين يُتَقَبل (٤) عنهم أحسن ما عملوا ويُتَجَاوز (٤) عن سيئاتهم) [أي : هؤلاء المتصفون بما ذكرنا ، التائبون إلى الله المنيبون إليه ، المستدركون مافات بالتوبة والاستغفار ، هم الذين يتقبل عنهم أحسن ماعملوا ، ويتجاوز عن سيئاتهم] فيغفر لهم الكثير من الزلل ، ويتقبل منهم اليسير من العمل ، (في أصحاب الجنة) ، أي : هم في جملة أصحاب الجنة ، وهذا حكمهم عند الله كما وَعَدَ الله : من تاب إليه وأناب ، ولهذا قال : (وعد الصدق الذي كانوا يوعدون) .

قال ابن جرير : حدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، عن الحكم بن أبان ، عن الغطريف ، عن جابر ابن زيد ، عن ابن عباس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن الروح الأمين — عليه السلام — قال : « يؤتى بحسنات العبد وسيئاته ، فيقتص بعضها ببعض ، فإن بقيت حسنة وسع الله له في الجنة » . قال : فدخلتُ على يزداد فحَدَّثَ بمثل هذا [الحديث (٥)] قال : قلت : فإن ذهبت الحسنة ؟ قال : (أولئك الذين يتقبل (٤) عنهم أحسن ما عملوا ، ويتَجَاوزُ (٤) عن سيئاتهم في أصحاب الجنة ، وعد الصدق الذي كانوا يوعدون (٦)) .

وهكذا رواه ابن أبي حاتم [عن أبيه (٧)] ، عن محمد بن عبد الأعلى الصنعاني ، عن المعتمر بن سليمان ، بإسناده

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن أنس ، انظر المسند : ٣/٢١٨ .

(٢) في المخطوطة : « الحليمي » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « التشهد » : الحديث ٩٦٩ : ١/٢٥٤ .

(٤) كذا في مخطوطة الأزهر ، وهي قراءة الجمهور ، انظر البحر المحيط : ٨/٦١ .

(٥) ما بين القوسين عن تفسير الطبري .

(٦) تفسير الطبري : ٢٦/١٢ — ١٣ .

(٧) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة . وفي المخطوطة مكانه : « عن عبد الله » .

مثله ـ وزاد : عن الروح الأمين ؛ قال : قال الرب جل جلاله : يؤتى بحسنات العبد وسيئاته ... فذكره ، وهو حديث غريب ، وإسنادُ جيد لا بأس به .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا سليمان بن معبد ، حدثنا عمرو بن عاصم الكلائي ، حدثنا أبو عوانة ، عن أبي بشر جعفر بن أبي وَحْشية،عن يوسف بن سعد،عن محمد بن حاطب قال : ونزل في داري حيث ظهر علي على أهل البصرة، فقال لي يوما : لقد شهدتُ أمير المؤمنين عليا وعنده عمار وصعصعة والأشتر ومحمد بن أبي بكر ، فذكروا عثمان فنالوا منه ، وكان علي رضي الله عنه على السرير ، ومعه عود في يده ، فقال قائل منهم : إن عندكم من يفصل بينكم . فسألوه، فقال علي : كان عثمان من الذين قال الله : (أولئك الذين يُتَقَبّل عنهم أحسن ما عملوا ويُتَجَاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة ، وعد الصدق الذي كانوا يوعدون) ؛ قال : والله عثمان وأصحاب عثمان ـ قالها ثلاثا ـ قال يوسف : فقلت لمحمد ابن حاطب : آلله لسمعت هذا من علي ؟ قال : آلله لسمعت هذا من علي رضي الله عنه .

وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ .

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارّين بهما وما لهم عنده من الفوز والنجاة ، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال : (والذي قال لوالديه : أف لكما) ـ وهذا عام في كل من قال هذا ، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر فقوله ضعيف ، لأن عبد الرحمن بن أبي بكر أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه ، وكان من خيار أهل زمانه .

وروى العَوفي ، عن ابن عباس : أنها نزلت في ابن لأبي بكر الصديق . وفي صحة هذا نظر ، والله أعلم .

وقال ابن جريج ، عن مجاهد : نزلت في عبد الله بن أبي بكر . وهذا أيضا قاله ابن جريج (١) .

وقال آخرون : عبد الرحمن بن أبي بكر ؛ وقاله السدي . وإنما هذا عام في كل من عق والديه وكذب بالحق ، فقال لوالديه : « أف لكما » ، عقهما .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عليّ بن الحسين ، حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا يحيى بن أبي زائدة ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، أخبرني عبد [الله (٢) بن] المديني قال : إني لفي المسجد حين خطب مرْوان ، فقال : إن الله أرى أمير المؤمنين في يزيد رأيا حسنا ، وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر وعُمر ؛ فقال عبد الرحمن بن أبي بكر : أهرقلية ؟! إن أبا بكر

---

(١) في المخطوطة : « نزلت في عبد الله بن أبي بكر ، قاله ابن جريج » . ولا يستقيم عليه السياق . وقد نقلنا : « وهذا أيضاً » مما بعد ، فقد كان النص : « وقال آخرون : عبد الرحمن بن أبي بكر ، وهذا أيضاً ، وقال السدي » فنقلناها من هذا السياق إلى هنا ، واستبدلنا بـ « وقال السدي » : « وقاله السدي » . وانظر الدر المنثور : ٦/٤٢ .

(٢) ما بين القوسين من الطبعات السابقة ، ومكانه بياض في المخطوطة .

والله ما جعلها فى أحد من ولده ، ولا أحد من أهل بيته ، ولا جعلها معاوية فى ولده إلا رحمة وكرامة لولده : فقال مروان : ألست الذى قال لوالديه : أف لكما ؟ فقال عبد الرحمن : ألست ابن اللعين الذى لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أباك . قال : وسمعتهما عائشة فقالت : يا مروان ، أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا ؟ كذبتَ ، ما فيه نزلت ، ولكن نزلت فى فلان بن فلان . ثم انتحب مروان ، ثم نزل عن المنبر حتى أتى باب حجرتها ، فجعل يكلمها حتى انصرف .

وقد رواه البخارى باسناد آخرَ ولفظ آخر ، فقال: حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا أبو عوانة ، عن أبى بِشْر ، عن يوسف بن مَاهَكَ قال : كان مَرْوانُ على الحجاز ، استعمله معاوية بن أبى سفيان ، فخطب وجعل يذكر يزيدَ ابن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه ، فقال له عبد الرحمن بن أبى بكر شيئا : فقال : خذوه : فدخل بيت عائشة رضى الله عنها فلم يقدروا عليه (١) ، فقال مروان : إن هذا الذى أنزل فيه : (والذى قال لوالديه : أف لكما أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى) . فقالت عائشة مِنْ وراء الحجاب : ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن ، إلا أن الله أنزل عُذْرى (٢) .

طريق أخرى، قال النسائى: حدثنا على بن الحسين، حدثنا أمية بن خالد، حدثنا شعبة، عن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية لابنه ، قال مروان : سنة أبى بكر وعمر . فقال عبد الرحمن بن أبى بكر : سنة هرقل وقيصر. فقال مروان: هذا الذى أنزل الله فيه : (والذى قال لوالديه : أف لكما) ... الآية ، فبلغ ذلك عائشة فقالت : كذب مروان ، والله ما هو به ، ولو شئت أن أسمى الذى أنزلت فيه لسميته ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أبا مروان ومروانُ فى صلبه ، فمروان فَضَضٌ (٣) من لعنة الله .

وقوله : (أتعداننى أن أخرج ؟) ، أي : أبعث (وقد خلت القرون من قبلى) ، أن : قد مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر ، (وهما يستغيثان الله) ، أى : : يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما : (ويلك آمن ، إن وعد الله حق ، فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين) . قال الله : (أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ، إنهم كانوا خاسرين) ، أى : دخلوا فى زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ،

وقوله : (أولئك) بعد قوله : (والذى قال) دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك،

وقال الحسن ، وقتادة : هو الكافر الفاجر العاق لوالديه ، المكذب بالبعث (٤) .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة سهل بن داود، من طريق هشام بن عمار : حدثنا حماد بن عبد الرحمن ، حدثنا خالد بن الزبرقان الحلبى (٥) ، عن سليمان بن حبيب المحاربى ، عن أبى أمامة الباهلى ، عن النبى — صلى الله عليه وسلم —

---

(١) كلمة « عليه » غير ثابتة فى الصحيح .

(٢) البخارى ، تفسير سورة الأحقاف : ٦/١٦٦ — ١٦٧ .

(٣) أى : قطعة منها .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٦/١٣ .

(٥) فى المخطوطة : « العدنى » . والمثبت من الجرح والتعديل لابن أبى حاتم: ١/٢/٣٣٢ .

قال : « أربعة لعنهم الله من فوق عرشه ، وأمنت عليهم الملائكة : مضل المساكين ـ قال خالد : الذى يهوى بيده إلى المسكين فيقول : هلم أعطيك ، فاذا جاءه قال : ليس معى شىء ـ « والذى يقول للمكفوف : اتق الدابة(١)] وليس بين يديه شىء ، والرجل يسأل عن دار القوم فيدلونه على غيرها ، والذى يضرب الوالدين حتى يستغيثا » غريب جدا.

وقوله : (ولكل درجات مما عملوا) ، أى : لكل عذاب بحسب عمله ، (وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون) ، أى : لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها :

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : درجات النار تذهب سفالا ، ودرجات الجنة تذهب علوا (٢) .

وقوله : (ويوم يعرض الذين كفروا على النار : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) ، أى : يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا : وقد تورّع عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عن كثير من طيبات المآكل والمشارب ، وتنزه عنها ، ويقول : أخاف أن أكون كالذين قال الله تعالى لهم وقرّعهم : (أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) .

وقال أبو مِجْلَز : ليتفقدنّ أقوامٌ حسناتٍ كانت لهم فى الدنيا ، فيقال لهم : (أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا) :

وقوله : (فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون) ، فجوزوا من جنس عملهم ، فكما نعّموا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق ، وتعاطوا الفسق والمعاصى ، جازاهم الله بعذاب الهون ، وهو الإهانة والخزى والآلام الموجعة ، والحسرات المتتابعة ، والمنازل فى الدركات المفظعة ، أجارنا الله من ذلك كله .

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ

يقول تعالى مسليا لنبيه فى تكذيب من كذبه من قومه : (واذكر أخا عاد) ـ وهو هود عليه السلام ـ بعثه الله إلى عاد الأولى ، وكانوا يسكنون الأحقاف ـ جمع حِقْف وهو : الجبل من الرمل ـ قاله ابن زيد . وقال عكرمة : الأحقاف : الجبل والغار . وقال على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ : الأحقاف : واد بحضرموت ، يدعى بُرْهوت ، تلقى فيه أرواح الكفار . وقال قتادة : ذُكر لنا أن عادا كانوا حيا باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها : الشِّحْر (٣) :

قال ابن ماجه : « باب إذا دعا فليبدأ بنفسه » : حدثنا الحسين بن على [الخلاّل(٤)] ، حدثنا زيد بن الحباب ،

(١) فى المخطوطة : « الملهوف : ابن » وبعد كلمة « ابن » بياض . والمثبت من تاريخ دمشق لابن عساكر ، مصورة فى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، وفى المصورة : « المكفوف : أبو » ثم بياض بعده : « ابق الدابة » بالباء ، ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٦/١٤ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٦/١٦ .

(٤) ما بين القوسين من الطبعات السابقة .

حدثنا سفيان ، عن أبي إسحاق (١) ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يرحمنا الله ، وأخا عاد (٢) » .

وقوله : (وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه) : يعني وقد أرسل الله إلى مَن حَوْل بلادهم من القرى مرسلين ومنذرين ، كقوله : (فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها (٣)) ، وكقوله : (فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (٤)) ، أي : قال لهم هود ذلك ، فأجابه قومه قائلين : (أجئتنا لتأفكنا) ، أي : لتصدنا (عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) ، استعجلوا عذاب الله وعقوبته ، استبعاداً منهم وقوعه ، كقوله : (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها (٥))

(قال : إنما العلم عند الله) ، أي : الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فيفعل ذلك بكم ، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به ، (ولكني أراكم قوما تجهلون) ، أي : لا تعقلون ولا تفهمون ؛

قال الله تعالى : (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم) ، أي : لما رأوا العذاب مستقبلهم ، اعتقدوا أنه عارض ممطر ، ففرحوا واستبشروا ، وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر ، قال الله تعالى : (بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم) ، أي : هو العذاب الذي قلتم : (فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين)

(تُدَمِّر) ، أي : تخرِّب (كل شيء) من بلادهم مما [من شأنه الخراب] (٦) (بأمر ربها) ، أي : بإذن الله لها في ذلك ، كقوله : (ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) ، أي : كالشيء البالي . ولهذا قال : (فأصبحوا لا تُرَى (٧) إلا مساكنهم) ، أي : قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية ، (كذلك نجزي القوم المجرمين) ، أي : هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا ، وخالف أمرنا

وقد ورد حديث في قصتهم وهو غريب جداً من غرائب الحديث وأفراده ، قال الإمام أحمد :

حدثنا زيد بن الحباب ، حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي قال : حدثنا عاصم بن أبي النَّجُود ، عن أبي وائل ، عن الحارث البكري قال : خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمررت بالرَّبَذَة ، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها ، فقالت لي : يا عبد الله ، إن لي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة ، فهل أنت مبلغي إليه ؟

---

(١) في المخطوطة : « حدثنا سفيان ، حدثنا علي بن إسحاق » . والمثبت عن سنن ابن ماجه .
(٢) سنن ابن ماجه ، كتاب الدعاء ، الحديث ٣٨٥٢ : ٢/١٢٦٦ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٦٦ .
(٤) سورة فصلت ، آية : ١٣ - ١٤ .
(٥) سورة الشورى ، آية : ١٨ .
(٦) في المخطوطة : « مما مرت به الخراب » . والمثبت عن الطبعات السابقة .
(٧) كذا في مخطوطة الأزهر « ترى » بالتاء ، وهي قراءة الجمهور . انظر البحر المحيط لأبي حيان : ٨/٦٥ .

قال : فحملتها فأتيت بها المدينة ، فإذا المسجد غاصّ بأهله ، وإذا راية سوداء تخفق ، وإذا بلال مُتَقَلِّدٌ السيف بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : ماشأن الناس ؟ قالوا : يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجْهًا . قال : فجلست ، فدخل منزله ــ أو قال : رحله ــ فاستأذنت عليه ، فأذن لى ، [فدخلت فسلمت ، فقال : « هل كان بينكم وبين تميم شىء ؟ » قلت : نعم،وكانت لنا الدَّبَرَة عليهم ، ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها ، فسألتنى أن أحملها إليك ، وهاهى بالباب . فأذن لها] فدخلَت ، فقلت : يارسول الله ، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزا فاجعل الدهناء . فحَمِيت العجوز واستوفزت ، وقالت : يارسول الله ، فإلى أين يضطرُ مُضَرُك ؟ قال : قلت : إن مثلى ماقال الأول : « معْزَى حَمَلَت حتْفها » ، حَمَلْتُ هذه ولا أشعر أنها كانت لى خصما ، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد . قال : « هيه ، وما وافد عاد ؟ » ــ وهو أعلم بالحديث منه ، ولكن يستطعمه ــ قلت : إن عاداً قُحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له : قَيل ، فمر بمعاوية ابن بكر ، فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان ــ يقال لهما « الجرادتان » ــ فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مَهْرة فقال : اللهم ، إنك تعلم أنى لم أجىء إلى مريض فأداويَه ، ولا إلى أسير فأفاديه ، اللهم اسق عادا ماكنت تسقيه . فمرت به سحابات سود ، فنودى منها : « اختر » ، فأومأ إلى سحابة منها سوداء ، فنُودى منها : « خذها رماداً رِمْدَداً ، لاتبقى من عاد أحداً ». قال : فما بلغنى أنه أرسل عليهم من الريح إلا كقدر مايجرى فى خاتمى هذا ، حتى هلكوا ــ قال أبو وائل : وصدق ــ وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا : « لاتكن كوافد عاد » .

رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه ، كما تقدم فى « سورة الأعراف(١) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هارون بن معروف ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنا عمرو : أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يَسَار ، عن عائشة أنها قالت : مارأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعاً ضاحكا حتى أرى منه لَهَوَاته(٢) ، إنما كان يتبسم . قالت : وكان إذا رأى غيما ــ أو ريحا ــ عُرِف ذلك فى وجهه ، قالت : يارسول الله ، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاءَ أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عُرِفَت فى وجهك الكراهية ؟ فقال : « ياعائشة ، مايُؤْمِنُنى أن يكون فيه عذاب ، قد عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا (٣) » . وأخرجاه من حديث ابن وهب (٤)

طريق أخرى ، قال أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، عن سفيان ، عن المقدام بن شريح ، عن أبيه ، عن عائشة أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان إذا رأى ناشئا فى أفق من آفاق السماء ، ترك عمله وإن كان فى صلاته ، ثم يقول : « اللهم ، إنى أعوذ بك من شر مافيه . فإن كشفه الله حمد الله ، وإن أمطرت قال : « اللهم ، صَيِّبا نافعا (٥) »

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية الثانية والسبعين من سورة الأعراف ، وخرجناه هنالك ، وشرحنا غريبه . انظر : ٤٢٩/٣ .

(٢) اللهوات : جمع لهاة وهى : اللحمة فى سقف أقصى الفم .

(٣) مسند الامام أحمد : ٦٦/٦ .

(٤) البخارى ، تفسير سورة الأحقاف : ١٦٧/٦ . ومسلم ، كتاب صلاة الاستسقاء ، باب « التعوذ عند رؤية الريح والغيم والفرح بالمطر » : ٢٦/٣ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١٩٠/٦ .

طريق أخرى ، قال مسلم فى صحيحه : حدثنا أبو الطاهر ، أخبرنا ابن وهب ، سمعت ابن جريج يُحدّث عن عطاء ابن أبى رباح ، عن عائشة قالت : كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا عصَفَت الريح قال : « اللهم ، إنى أسألك خيرها ، وخير مافيها ، وخير ما أرسِلَتْ به ، وأعوذ بك من شرها ، وشر مافيها ، وشر ماأرسِلَتْ به » . قالت: وإذا تخيّلت [1] السماء تغيّر لونه ، وخرج ودخل ، وأقبل وأدبر ، فإذا مطرت سُرّى عنه ، فعرفت ذلك عائشة [2] فسألته فقال : « لعله ياعائشة كما قال قوم عاد : (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا : هذا عارض [3] ممطرنا) » .

وقد ذكرنا قصة هلاك عاد فى سورتى « الأعراف وهود » [4] بما أغنى عن إعادته هاهنا ، ولله الحمد والمنة .

وقال الطبرانى : حدثنا عبدان بن أحمد ، حدثنا إسماعيل بن زكريا الكوفى ، حدثنا أبو مالك بن مسلم الملائى ، عن مجاهد وسعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مافتح على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم ، ثم أرسلت [5] عليهم البَدْو إلى الحضر فلما رآها أهل الحضر قالوا : هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا . وكان أهل البوادى فيها ، فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا . قال : عتت على خزانها حتى خرجت من خلال الأبواب » .

وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى : ولقد مكنا الأمم السالفة فى الدنيا من الأموال والأولاد ، وأعطيناهم منها مالم نعطكم مثله ولا قريبا منه ، (وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء ، إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون) ، أى : وأحاط بهم العذاب والنكال الذى كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه ، أى : فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم ، فيصيبكم مثلُ ماأصابهم من العذاب فى الدنيا والآخرة .

وقوله : (ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى) ، يعنى أهل مكة ، قد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها كعاد ، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن ، [وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام ، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن] ، ومدين وكانت فى طريقهم وممرهم إلى غزة ، وكذلك بحيرة قوم لوط ، كانوا يمرون بها أيضا .

---

(١) أى : تغيمت وتهيأت للمطر .

(٢) لفظ مسلم : « فعرفت ذلك فى وجهه قالت عائشة : فسألته » .

(٣) مسلم ، كتاب صلاة الاستسقاء ، باب « التعوذ عند رؤية الريح والغيم والفرح بالمطر » : ٢٦/٣ .

(٤) انظر : ٤٣١/٣ — ٤٣٤ ، ٢٦٢/٤ — ٢٦٣ .

(٥) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن الطبرانى ، وأبى الشيخ ، وابن مردويه . ولفظه : « فمرت بأهل البادية ، فحملتهم وأموالهم ، فجعلتهم بين السماء والأرض ، فلما ... » .

وقوله : (وصرفنا الآيات) ، أى : بيناها ووضحناها (لعلهم يرجعون • فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة) ، أى : فهلا نصروهم عند احتياجهم إليهم ، (بل ضلوا عنهم) ، أى : بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم ، (وذلك إفكهم) ، أى : كذبهم ، (وما كانوا يفترون) ، أى : وافتراؤهم فى اتخاذهم إياهم آلهة ، وقد خابوا وخسروا فى عبادتهم لها ، واعتمادهم عليها .

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو : سمعت عكرمة ، عن الزبير : (وإذا صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن) ، قال : بنخلة ، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم يصلى العشاء الآخرة ، (كادوا يكونون عليه لبدا) ، قال سفيان : اللِّبَد : بعضهم على بعض ، كاللبد بعضه على بعض (١) .

تفرد به أحمد ، وسيأتى من رواية ابن جرير ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أنهم سبعة من جن نصيبين :

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ،حدثنا أبوعوانة (ح) ــ وقال الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتابه دلائل النبوة : أخبرنا أبو الحسن على بن أحمد بن عبدان ، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار ، حدثنا إسماعيل القاضى ، أخبرنا مسدد ، حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : ماقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم ، انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : مالكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب . قالوا : ماحال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها [وانظروا ماهذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء . فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها] يبتغون ماهذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو بنخلة عامدا إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، فقالوا : هذا ــ والله ــ الذى حال بينكم وبين خبر السماء . فهنالك حين رجعُوا إلى قومهم (قالوا : ياقومنا ، إنا سمعنا قرآنا عجَباً . يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا). وأنزل الله على نبيه : (قل : أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن) . وإنما أوحى إليه قول الجن (٢) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١٦٧/١ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢٥٢/١ . ودلائل النبوة البيهقى ، مخطوط بدار الكتب ، برقم ٧٠١ حديث ، الجزء الثانى ، ورقة : ٤٥ - ٤٦ .

رواه البخاري عن مُسَدَّد بنحوه، وأخرجه مسلم عن شيبان بن فَرّوخ ، عن أبي عوانة، به : ورواه الترمذي والنسائي في التفسير ، من حديث أبي عوانة (١) .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا أبو أحمد ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان الجنّ يستمعون الوحي ، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرا ، فيكون ماسمعوا حقاً وما زادوا باطلا ، وكانت النجوم لايُرمَى بها قبل ذلك ، فلما بُعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان أحدهم لايأتي مقعده إلا رُمِيَ بشهاب يُحرِقُ ماأصاب ، فشكَوا ذلك إلى إبليس فقال : ماهذا إلا من أمر قد حدَث . فبث جنوده ، فإذا بالنبي صلى الله عليه وسلم يصلي بين جبلي نخلة ، فأتوه فأخبروه ، فقال : هذا الحدث الذي حدث في الأرض (٢) .

رواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سننيهما ، من حديث إسرائيل ، به . وقال الترمذي : « حسن (٣) صحيح » .

وهكذا رواه أيوب عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس . وكذا رواه العوفي، عن ابن عباس أيضا بمثل هذا السياق بطوله ، وهكذا قال الحسن البصري : إنه — عليه السلام — ماشعر بأمرهم حتى أنزل الله عليه بخبرهم (٤) .

وذكر محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رُومان (٥) ، عن محمد بن كعب القُرَظيّ قصةَ خروج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى الطائف ودعائه إياهم إلى الله عز وجل ، وإبائهم عليه . فذكر القصة بطولها ، وأورد ذلك الدعاء الحسن : « اللهم ، إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي » ، إلى آخره . قال : فلما انصرف عنهم بات بنخلة ، فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجن من أهل نَصيبين (٦) .

وهذا صحيح ،ولكن « قوله إن الجن كان استماعهم تلك الليلة » فيه نظر ،لأن الجن كان استماعهم في ابتداء الإيحاء ، كما دل عليه حديث ابن عباس المذكور ، وخروجه — عليه السلام — إلى الطائف كان بعد موت عمه ، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين ، كما قرره ابن إسحاق وغيره .

وقال أبو بكر بن أبي شَيْبَةَ : حدثنا أبو أحمد الزّبيريّ ، حدثنا سفيان ، عن عاصم، عن زِرّ ، عن عبد الله بن مسعود قال : هبطوا على النبي — صلى الله عليه وسلم — وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه قالوا : أنصتوا . قال : صه ، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة ، فأنزل الله عز وجل : (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا : أنصتوا ، فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين) إلى : (ضلال مبين) .

---

(١) البخاري ، كتاب الأذان ، باب « الجهر بقراءة صلاة الفجر » . ١/١٩٥ — ١٩٦ . ومسلم ، كتاب الصلاة — باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن ، : ٢/٣٥ — ٣٦ . وتحفة الأحوذي ، تفسير سورة الجن ، الحديث ٣٣٧٩ : ٩/٢٣٩ — ٢٤٣ ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١/٢٧٤ .

(٣) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة الجن ، الحديث ٣٣٨٠ : ٩/٢٤٣ — ٢٤٤ .

(٤) تفسير الطبري : ٢٦/٢٠ .

(٥) كذا في المخطوطة : « يزيد بن رومان » . وفي سيرة ابن هشام : « يزيد بن زياد » ، وكلاهما يروى عنه ابن إسحاق ، ولعل الصواب « بن زياد » ، انظر التهذيب : ١١/٣٢٥ ، ٣٢٨ .

(٦) سيرة ابن هشام : ١/٤١٩ — ٤٢٢ .

فهذا مع الأول من رواية ابن عباس يقتضى أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يشعر بحضورهم فى هذه المرة، وإنما استمعوا قراءته ، ثم رجعوا إلى قومهم ، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالا قوما بعد قوم، وفوجا بعد فوج ، كما سيأتى بذلك الأخبار فى موضعها والآثار ، مما سنوردها هاهنا إن شاء الله تعالى وبه الثقة :

فأما ما رواه البخارى ومسلم جميعا ، عن أبى قدامة عبيد الله بن سعيد السَّرَخْسى ، عن أبى أسامة حماد بن أسامة ، عن مسعر بن كدام ، عن مَعن بن عبد الرحمن قال : سمعت أبى قال : سألت مسروقا : من آذَنَ النبىَّ صلى الله عليه وسلم ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدثنى أبوك ــ يعنى ابن مسعود ــ أنه آذنته بهم شجرة [1] ــ فيحتمل أن يكون هذا فى المرة الأولى ، ويكون إثباتا مقدما على نفى ابن عباس ويحتمل أن يكون هذا فى بعض المرات المتأخرات ، والله أعلم . ويحتمل أن يكون فى الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم [الشجرة] ، أى : أعلمته باستماعهم ، والله أعلم .

قال الحافظ البيهقى : وهذا الذى حكاه ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ إنما هو [فى] [2] أول ماسمعت الجن قراءة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وعلمت حاله ، وفى ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم، ثم بعد ذلك أتاه داعى الجن فقرأ عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله عز وجل ، كما رواه عبد الله بن مسعود رضى الله عنه [3].

[ذكر الرواية عنه بذلك]

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ،حدثنا داود، عن الشعبى ــ وابن أبى زائدة ، أخبرنا داود ، عن الشعبى ــ عن علقمة قال : قلت لعبد الله بن مسعود : هل صَحِبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن منكم أحد ؟ فقال : ما صحبه منا أحد ، ولكنا فقدناه ذات ليلة بمكة ، فقلنا : اغتيل ؟ استُطير [4] ؟ ما فعل ؟ قال : فبتنا بشرِّ ليلة بات بها قوم ، فلما كان فى وجه الصبح ــ أو قال : فى السحر ــ إذا نحن به يجىء من قِبَل حراء ، فقلنا : يا رسول الله ــ فذكروا له الذى كانوا فيه ــ فقال : « إنه أتانى داعى [الجن] فأتيتهم فقرأت عليهم » . قال : فانطلق ، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ــ قال : وقال الشعبى : سألوه الزاد ــ قال عامر [5] سألوه بمكة ، وكانوا من جن الجزيرة ، فقال : « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما كان [عليه] لحما ، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم ــ قال : فلا تستنجوا بهما ، فإنهما زادُ إخوانكم من الجن [6] » .

---

(١) البخارى ، كتاب مناقب الأنصار ، باب « ذكر الجن » : ٥/٥٨ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « الجهر بالقراءة فى الصبح والقراءة على الجن » : ٢/٣٧ .

(٢) ما بين القوسين من دلائل النبوة .

(٣) دلائل النبوة للبيهقى ، مخطوط بدار الكتب برقم ٧٠١ حديث ، الجزء الثانى ، ورقة : ٤٦ .

(٤) أى : ذهب به بسرعة ، كأن الطير حملته ، أو اغتاله أحد .

(٥) فى المسند : « قال ابن أبى زائدة : قال عامر : فسألوه ليلتئذ الزاد وكانوا من جن الجزيرة » .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١/٤٣٦ .

وهكذا رواه مسلم فى صحيحه ، عن على بن حُجْر ، عن إسماعيل ابن عُلَيّة ، به نحوه (١) .

وقال مسلم أيضا : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا داود - وهو ابن أبى هند - عن عامر قال : سألتُ علقمةَ : هل كان ابن مسعود رضى الله عنه شَهِدَ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ؟ قال : فقال علقمة : أنا سألتُ ابنَ مسعود؛ فقلت : هل شهد أحدٌ منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن؟ قال : لا ، ولكنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، ففقدناه فالتمسناه فى الأودية والشعاب ، فقلنا استطير ؟ اغتيل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء قال : فقلنا : يا رسول الله ، فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فقال : « أتانى داعى الجن ، فذهبت معهم ، فقرأت عليهم القرآن » . قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد فقال: « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحما ، وكل بَعْرَة أو روثة علف لدوابكم » . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « فلا تستنجوا بهما ، فإنهما طعام إخوانكم » (١) .

طريق أخرى عن ابن مسعود ، قال أبو جعفر بن جرير : حدثنى أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنى عمى ، حدثنى يونس عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله أن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بت الليلة أقرأ على الجن رُبعاً (٢) بالحجون » .

طريق أخرى فيها أنه كان معه ليلة الجن ، قال ابن جرير رحمه الله : حدثنى أحمد بن عبد الرحمن بن وهب ، حدثنا عمى عبد الله بن وهب ، أخبرنى يونس ، عن ابن شهاب ، عن أبى عثمان بن سَنَّةَ (٣) الخزاعى - وكان من أهل الشام - أن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه وهو بمكة : « من أحب منكم أن يحضر أمر الجن الليلة فليفعل » . فلم يحضر منهم أحد غيرى ، قال : فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لى برجله خطا ، ثم أمرنى أن أجلس فيه ، ثم انطلق حتى قام ، فافتتح القرآن فغشيته أسودةٌ كثيرة حالت بينى وبينه ، حتى ما أسمع صوته ، ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين ، حتى بقى منهم رهط ، ففرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الفجر ، فانطلق فتبرز ، ثم أتانى فقال : « ما فعل الرهط ؟ » فقلت : هم أولئك يا رسول الله ، فأعطاهم عظما وروثا زادا ، ثم نهى أن يستطيب أحد بروث أو عظم (٤) .

ورواه ابن جرير عن [محمد بن] عبد الله بن عبد الحكم ، عن أبى زرعة وهب الله بن راشد ، عن يونس بن يزيد الأيلى ، به (٤) .

ورواه البيهقى فى الدلائل ، من حديث عبد الله بن صالح - كاتب الليث ، عن الليث ، عن يونس ، به (٥) .

---

(١) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب « الجهر بالقراءة فى الصبح والقراءة على الجن » : ٢ / ٣٦ .

(٢) فى المخطوطة « رفعا » . والمثبت عن تفسير الطبرى : ٢٦ / ٢١ .

(٣) فى المخطوطة : « شبة » ومثله فى تفسير الطبرى . والصواب عن دلائل النبوة للبيهقى ، والمشتبه للذهبى : ٣٨٩ .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٦ / ٢١ .

(٥) دلائل النبوة مخطوط بدار الكتب برقم ٧٠١ حديث ، الجزء الثانى ، ورقة : ٤٧ . هذا وسند الحديث كما فى الدلائل « عبد الله بن صالح كاتب الليث ، عن يونس » ، دون ذكر « الليث » .

وقد روى إسحاق بن راهويه ، عن جرير ، عن قابوس بن أبى ظبيان ، عن أبيه ، عن ابن مسعود ، فذكر نحو ما تقدم .

ورواه الحافظ أبو نعيم ، من طريق موسى بن عبيدة ، عن سعيد بن الحارث ، عن أبى المعلى ، عن ابن مسعود ، فذكر نحوه أيضا .

[طريق(١) أخرى، قال أبو نعيم : حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنى أبى قال: حدثنا عفان وعكرمة قالا : حدثنا معتمر قال : قال أبى : حدثنى أبو تميمة ، عن عمرو ـ ولعله قد يكون قال : البكالى ـ يحدثه عمرو ، عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : استتبعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلقنا حتى أتينا مكان كذا وكذا ، فخط لى خطاً فقال : « كن بين ظهر هذه لا تخرج منها ؛ فإنك إن خرجت منها هلكت » ... فذكر الحديث بطوله وفيه غرابة شديدة (١)]

طريق أخرى ، قال ابن جرير : وحدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفى : أنه قال لابن مسعود : حُدِّثتُ أنك كنت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة وفد الجن ؟ قال : أجل . قال : فكيف كان ؟ فذكر الحديث كله ، وذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم خط عليه خطا ، وقال : « لا تبرح منها » ... فذكر مثل العَجَاجة (٢) السوداء غشيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فذُعر ثلاث مرات ، حتى إذا كان قريبا من الصبح ، أتانى النبى صلى الله عليه وسلم [فقال : « أنمت ؟ »] فقلت : لا والله ، ولقد هممت مرارا أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك ، تقول : « اجلسوا » فقال : « لو خرجت لم آمن أن يختطفك بعضهم » . ثم قال : « هل رأيت شيئا ؟ » فقلت: نعم ، رأيت رجالا سُوداً مستشعرين (٣) ثيابا بياضا . قال : « أولئك جن نَصيبين ، سألونى المتاع ـ والمتاع : الزاد ـ فمتعتهم بكل عظم حائل ، أو بعرَة ، أو روثة (٤) ـ فقلت : يا رسول الله ، وما يغنى ذلك عنهم ؟ فقال: إنهم لا يجدون عظما إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل، ولا روثا إلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت، فلايستنقين(٥) أحد منكم إذا خرج من الخلاء بعظم ولا بعرة ولا روثة (٦) » .

طريق أخرى ، قال الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمى وأبو نصر بن قتادة قالا : أخبرنا أبو محمد(٧) يحيى بن منصور القاضى ، حدثنا أبو عبدالله محمد بن إبراهيم البُوشَنْجى، حدثنا روح بن صلاح ، حدثنا موسى بن عُلَىّ ابن رباح ، عن أبيه ، عن عبد الله بن مسعود قال : استتبعنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن نفرا من الجن ـ خمسةَ عشرَ بنى إخوة وبنى عم ـ يأتوننى الليلة ، فأقرأ عليهم القرآن » ، فانطلقتُ معه إلى المكان الذى أراد ، فخط لى خطاً وأجلسنى فيه ، وقال لى : « لا تخرج من هذا » . فبتّ فيه حتى أتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع السحر فى يده عظم

(١) أثر أبى نعيم بتمامه غير ثابت فى المخطوطة ، و لعله سقط منها سقط نظر ، و لم نجده فى دلائل أبى نعيم .

(٢) العجاج : الغبار ، و احدة عجاجة .

(٣) فى المخطوطة : « مستنفرين » . و المثبت عن تفسير الطبرى ، و لفظه « مستشعرى ثياب بياض » . و استشعر الثوب : لبسه .

(٤) العظم الحائل : المتغير ، قد غيره البلى . و البعرة : عذرة الناس و البعر .

(٥) أى : لاينظفن .

(٦) تفسير الطبرى : ٢٦/٢١ .

(٧) فى الدلائل : « أبو محمد بن يحيى » . و الصواب ماهنا . انظر العبر للذهبى : ٣٢/٢٩ .

حائل وروثة [حُمَمَة](١) فقال لي: « إذا ذهبت إلى الخلاء فلا تستنج بشيء من هؤلاء ». قال: فلما أصبحت قلت: لأعلمن [علمي] حيث كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال ، فذهبت فرأيت موضع مبرك ستين بعيرا (٢) .

طريق أخرى ، قال البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو العباس الأصم ، حدثنا العباس بن محمد الدوري ، حدثنا عثمان بن عمر ، عن المستمر بن الريان ، عن أبي الجوزاء ، عن عبد الله بن مسعود قال : انطلقت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ، حتى أتى الحجون ، فخط لي خطاً ، ثم تقدم إليهم فازدحموا عليه ، فقال سيد لهم ، يقال له « وَرْدان » ، : أنا أرَحِّلُهم عنك . فقال : إني لن يجيرني من الله أحد (٢) .

طريق أخرى ، قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا سفيان ، عن أبي فزارة العبسي ، حدثنا أبو زيد — مولى عمرو بن حريث — عن ابن مسعود قال : لما كان ليلة الجن (٣) قال لي النبي — صلى الله عليه وسلم — : « أمعك ماء ؟ » ؛ قلت : ليس معي ماء ، ولكن معي إداوة فيها نبيذ . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « تمرة طيبة ، وماء طهور [فتوضأ](٤)

ورواه أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، من حديث أبي زيد ، به (٥) .

طريق أخرى ، قال أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق ، أخبرنا ابن لَهِيعة ، عن قيس بن الحجاج ، عن حَنَش الصَّنْعاني ، عن ابن عباس ، عن عبد الله بن مسعود أنه كان مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليلة الجن ، فقال رسول الله : « يا عبد الله ، أمعك ماء ؟ » قال : معي نبيذ في إداوة فقال : « اصبب علي » . فتوضأ ، فقال النبي — صلى الله عليه وسلم — « يا عبد الله ، شراب وطهور (٦) » .

تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وقد أورده الدار قطني من طريق آخر ، عن ابن مسعود(٧) ؛

طريق أخرى ، قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرني أبي عن ميناء ، عن عبد الله قال . كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة وفد الجن ، فلما انصرف تنفس ، فقلت : ماشأنك ؟ فقال : « نُعِيَتْ إلى نفسي ياابن مسعود(٨) » .

هكذا رأيته في المسند [مختصرا] ، وقد رواه الحافظ أبو نعيم في كتابه « دلائل النبوة (٩) » فقال : حدثنا سليمان بن أحمد

---

(١) في المخطوطة : « وحمة » ، وفي الدلائل : « وحممة » . وقد حذفنا الواو . والمعنى : وروثة سوداء .

(٢) الدلائل للبيهقي ، مخطوط بدار الكتب ، رقم ٧٠١ حديث ، الجزء الثاني ، ورقة : ٤٨ .

(٣) في المسند بعده : « تخلف منهم رجلان وقالا : نشهد الفجر معك يارسول الله ، فقال لي النبي . . . » .

(٤) مابين القوسين عن المسند : ١/٤٤٩ .

(٥) أخرجوه في كتاب الطهارة ؛ انظر سنن أبي داود ، باب « الوضوء بالنبيذ » ، الحديث ٨٤ : ١/٢١ ، وتحفة الأحوذي باب « ماجاء في الوضوء الحديث ٨٨ : ١/٣٩٢ — ٣٩٥ وقال الترمذي : « وأبو زيد رجل مجهول عند أهل الحديث ، لاتعرف له رواية غير هذا الحديث . وقد روى بعض أهل العلم الوضوء بالنبيذ ، منهم سفيان الثوري وغيره . . . وقول من يقول « لايتوضأ بالنبيذ » أقرب إلى الكتاب وأشبه ، لأن الله تعالى قال : (فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا » . وابن ماجه ، باب « الوضوء بالنبيذ » ، الحديث ٣٨٤ : ١/١٣٥ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١/٣٩٨ .

(٧) سنن الدار قطني ، كتاب الطهارة ، باب « الوضوء بالنبيذ » ، الحديث ١٠ : ١/٧٦

(٨) مسند الإمام أحمد : ١/٤٤٩ .

(٩) لم نجد هذا الأثر في الدلائل ، وقد نبهنا في مناسبات سابقة على مثل هذا ، ورجحنا أن في طبعة حيدر أباد سقطاً .

ابن أيوب ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ــ وحدثنا أبو بكر بن مالك ، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنا أبي قالا : حدثنا عبد الرزاق ، عن أبيه ، عن ميناء عن ابن مسعود قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة وفد الجن ، فتنفس ، فقلت: مالك يارسول الله ؟ قال: نُعيت إلى نفسي ياابن مسعود » . قلت: استخلف . قال : «مَن؟» قلت: أبو بكر، فسكت ثم مضى ساعة فتنفس ، فقلت : ماشأنك بأبي أنت وأمي يارسول الله ؟ قال: «نُعيتْ إلَيَّ نفسي يا ابن مسعود» ، قلت استخلف . قال : « من ؟ » قلت : عمر . فسكت ثم مضى ساعة ، ثم تنفس فقلت : ماشأنك ؟ قال: « نُعيتْ إليَّ نفسي» قلت : فاستخلف . قال صلى الله عليه وسلم : من ؟ قلت : على بن أبي طالب قال صلى الله عليه وسلم : « « أما والذى نفسي بيده ، لئن أطاعوه ليدخلن الجنة أجمعين أكتعين » .

وهو حديث غريب جدا وأحْرِ به أن لا يكون محفوظا ، وبتقدير صحته فالظاهر أن هذا بعد وفودهم إليه بالمدينة على ما سنورده ، فإن فى ذلك الوقت فى آخر الأمر لما فتحت مكة ، ودخل الناس والجان أيضا فى دين الله أفواجا ، نزلت سورة : (إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) ، وهى السورة التى نُعيت نفسه الكريمة فيها إليه كما قد نص على ذلك ابن عباس ، ووافقه عمر بن الخطاب عليه ، وقد ورد فى ذلك حديث سنورده عند تفسيرها ، والله أعلم . وقد رواه أبو نعيم أيضا [عن الطبرانى] عن محمد بن عبد الله الحضرمى ، عن على ابن الحسين بن أبي بردة ، عن يحيى بن [سعيد (١)] الأسلمى ، عن حرب بن صبيح ، عن سعيد بن مسلمه ، عن أبى مُرّةَ الصنعانى ، عن أبي عبد الله الجدَلى ، عن ابن مسعود ، فذكره وذكر فيه قصة الاستخلاف ، وهذا إسناد غريب ، وسياق عجيب .

طريق أخرى ، قال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن أبي رافع ، عن ابن مسعود : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خط حوله ، فكان أحدهم مثل سواد النَّخل ، وقال [لى] : « لا تبرح مكانك فأقرأهم كتاب الله » فلما رأى الزُّطّ (٢) قال : كأنهم هؤلاء . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أمعك ماء ؟ » قلت : لا . قال : « أمعك نبيذ ؟ » قلت : نعم . فتوضأ به (٣) .

طريق أخرى مرسلة ، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبدالله الظهرانى ، أخبرنا حفص بن عمر العدَنى ، حدثنا الحكم ابن أبان ، عن عكرمة فى قوله تعالى : (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن) ، قال : هم اثنا عشر ألفا جاءوا من جزيرة الموصل ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لابن مسعود : « أنظرنى حتى آتيك » ، وخط عليه خطا ، وقال : « لاتبرح حتى آتيك » . فلما خشيهم ابنُ مسعود كاد أن يذهب ، فذكر قولَ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلم يبرح ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « لو ذهبتَ ما التقينا إلى يوم القيامة » .

---

(١) مابين القوسين عن الطبعات السابقة ، ومكانه بياض فى المخطوطة .
(٢) فى المخطوطة : « رأى المزعا » . والمثبت عن المسند . والزط : جنس من السودان والهنود .
(٣) مسند الإمام أحمد : ١/٤٥٥ .

طريق أخرى مرسلة أيضا ، قال سعيد بن أبي عَرُوبة ، عن قتادة فى قوله تعالى : (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن) ، قال : ذُكر لنا أنهم صَرَفوا إليه من نينَوَى ، وأن نبى الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « إنى أمرت أن أقرأ على الجن ، فأيكم يتبعنى ؟ » فأطرقوا ، ثم استتبعهم فأطرقوا ، ثم استتبعهم الثالثة فقال رجل : يا رسول الله ، إن ذاك للدو لدبة (١) فأتبعه ابن مسعود أخو هذيل ، قال : فدخل النبى صلى الله عليه وسلم شعبا يقال له « شعب الحَجُون » ، وخط عليه ، وخط على ابن مسعود ليثبته بذلك ، قال : فجعلت (٢) أهال وأرى أمثال النسور تمشى فى دُفُوفها (٣) ، وسمعت لغطا شديدا حتى خفت على نبى الله — صلى الله عليه وسلم — ثم تلا القرآن ، فلما رجع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قلت : يا رسول الله ، ما اللغط الذى سمعت ؟ قال : « اختصموا فى قتيل ، فقضى بينهم بالحق » . رواه ابن جرير (٤) ، وابن أبى حاتم .

فهذه الطرق كلها تدل على أنه — صلى الله عليه وسلم — ذهب إلى الجن قصدا ، فتلا عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله — عز وجل — وشرع الله لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه فى ذلك الوقت . وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم ، كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما . ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود ، وأما ابن مسعود فانه لم يكن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم ، وإنما كان بعيدا منه ولم يخرج مع النبى صلى الله عليه وسلم أحد سواه ، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة ، هذه طريقة البيهقى . وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ابن مسعود ولا غيره ، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام أحمد ، وهى عند مسلم . ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى والله أعلم ، كما روى ابن أبى حاتم فى تفسير (قل أوحى) من حديث ابن جريج قال : قال عبد العزيز بن عُمَر : أما الجن الذين لقوه بنخلة فجن نينوى ، وأما الجن الذين لقوه بمكة فجن نصيبين ، وتأوله البيهقى على أنه يقول : « فبتنا بشر ليلة بات بها قوم » ، على غير ابن مسعود ممن لم يعلم بخروجه صلى الله عليه وسلم إلى الجن ، وهو محتمل على بعد ، والله أعلم .

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو عمرو محمد بن عبد الله الأديب ، أخبرنا أبو بكر الإسماعيلى ، أخبرنا الحسن بن سفيان ، حدثنى سُوَيد بن سعيد ، حدثنا عمرو بن يحيى ، عن جده سعيد بن عمرو قال : كان أبو هريرة يَتْبَع رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — بإداوة لوضوئه وحاجته ، فأدركه يوما فقال : « من هذا ؟ » قال : أنا أبو هريرة . قال : « ائتنى بأحجار أستنج بها ، ولا تأتنى بعظم ولا رَوْثة » . فأتيته بأحجار فى ثوبى ، فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فرغ وقام اتبعته ، فقلت : يا رسول الله ، ما بال العظم والروثة ؟ قال : « أتانى وَفدُ جِنِّ نصيبين ، فسألونى الزاد ، فدعوت الله لهم أن لا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا طعاما (٥) » .

---

(١) فى المخطوطة : « بدأة » . والمثبت عن تفسير الطبرى . والبداة : فعل الشىء أول الأمر .
(٢) فى تفسير الطبرى : « فجعلت تهوى بى » . ومعنى « أهال » : يدخل على الخوف .
(٣) دف النسر : دنا من الأرض فى طيرانه .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٦/٢٠ – ٢١ .
(٥) دلائل النبوة للبيهقى ، مخطوط بدار الكتب برقم ٧٠١ حديث ، الجزء الثانى ، ورقة : ٤٩ .

أخرجه البخارى فى صحيحه ، عن موسى بن إسماعيل ، عن عمرو بن يحيى ، بإسناده قريبا (١) منه . فهذا يدل مع ما تقدم على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك . وسنذكر ما يدل على تكرار ذلك .

وقد روى عن ابن عباس غير ما ذكر عنه أولا من وجه جيد ، فقال ابن جرير :

حدثنا أبو كريب ، حدثنا عبد الحميد الحمَّانى ، حدثنا النضر بن عربى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله : (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن ... الآية) ، كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين ، فجعلهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رُسُلا إلى قومهم (٢) .

فهذا يدل على أنه قد روى القصتين :

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا سويد بن عبد العزيز ، حدثنا رجل سماه ، عن ابن جريج ، عن مجاهد : (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن) ... الآية ، قال : كانوا سبعة نفر ، ثلاثة من أهل حران ، وأربعة من أهل نصيبين وكانت أسماؤهم حيى وحسى ومسى ، وشاصر وناصر ، والأرد وإبيان (٣) والأحقم (٤) .

وذكر أبو حَمْزَة الثمالى أن هذا الحى من الجن كان يقال لهم : بنو الشيصبان ، وكانوا أكثر الجن عددا وأشرفهم نسبا ، وهم كانوا عامة جنود إبليس :

وقال سفيان الثورى ، عن عاصم ، عن ذِرّ ، عن ابن مسعود : كانوا تسعة ، أحدهم زوبعة ، أتوه من أصل نخلة :

وتقدم عنه أنهم كانوا خمسة عشر ، وفى رواية : أنهم كانوا على ستين راحلة . وتقدم عنه أن اسم سيدهم وردان : وقيل : كانوا ثلاثمائة ، وتقدم عن عكرمة أنهم كانوا اثنى عشر ألفا ، فلعل هذا الاختلاف دليل على تكرر وفادتهم عليه صلوات الله وسلامه عليه ، ومما يدل على ذلك ما قاله البخارى فى صحيحه :

حدثنا يحيى بن سليمان ، حدثنى ابن وهب ، حدثنى عمر ـ هو ابن محمد ـ أن سالما حدثه ، عن عبد الله بن عُمَر قال : ما سمعت عمر يقول لشىء قط : « إنى لأظنه كذا » إلا كان كما يظن ، بينما عمر بن الخطاب جالس ، إذ مرّ به رجل جميل ، فقال : لقد أخطأ ظنى ـ أو : إن هذا على دينه فى الجاهلية ـ أو : لقد كان كاهنهم ـ علىّ بالرجل ، فدُعى له ، فقال له ذلك ، فقال : ما رأيت كاليوم استُقبِلَ به رجل مسلم . قال : فإنى أعزم عليك إلا ما أخبرتنى . قال : كنت كاهنهم فى الجاهلية . قال : فما أعجب ما جاءتك به جنيّتك . قال : بينما أنا يوما فى السوق جاءتنى أعرف فيها الفزع ، فقالت :

أَلَمْ تَرَ الجِنَّ وَإِبْلاسَهَا (٥) وَيَأْسَهَا مِنْ بَعْدِ إِنْكَاسِهَا
وَلُحُوقَهَا بالقِلاصِ (٦) وَأَحْلاسِهَا

(١) البخارى ، كتاب مناقب الأنصار ، باب « ذكر الجن » ٥/٥٨ – ٥٩ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٦/٢٢ .
(٣) فى الدر : « والأردوانيات »
(٤) بعده فى الدر : « وسرق » .
(٥) أى : تحيرها ودهشتها .
(٦) القلاص : جمع قلوص ، وهى الناقة الشابة . والأحلاس : جمع حلس ـ بكسر فسكون ـ وهو الكساء الذى يلى ظهر البعير تحت القتب .

قال عمر : صدق ، بينا أنا نائم عند آلهتهم ، إذ جاء رجل بعجل فذبحه ، فصرخ به صارخ ، لم أسمع صارخا قط أشد صوتا منه ، يقول : ياجليح[١] ، أمر نجيح ، رجل فصيح يقول : « لا إله إلا الله » فوثب القوم فقلت: لا أبرح حتى أعلم ماوراء هذا ؟ ثم نادى ياجليح ، أمر نجيح ، رجل فصيح يقول : « لا إله إلا الله » . فقمت ، فما نشبنا أن[٢] قيل : هذا نبي[٣] .

هذا سياق البخارى ، وقد رواه البيهقى من حديث ابن وهب ، بنحوه ، ثم قال : « وظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذى ذبح ، وكذلك هو صريح فى رواية ضعيفة عن عمر [فى إسلامه[٤]] ، وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذى أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه[٥] ، والله أعلم » :

وهذا الذى قاله البيهقى هو المتجه ، وهذا الرجل هو سواد بن قارب ، وقد ذكرت هذا مستقصى فى سيرة عمر رضى الله عنه ، فمن أراده فليأخذه من ثم ، ولله الحمد .

قال البيهقى : « حديث سواد بن قارب ويشبه أن يكون هذا هو الكاهن الذى لم يذكر اسمه فى الحديث الصحيح » :

أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب المفسر من أصل سماعه ، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار الأصبهانى قراءة عليه ، حدثنا أبو جعفر أحمد بن موسى الحمار الكوفى [بالكوفة] ، حدثنا زياد بن يزيد بن بادوية[٦] أبو بكر القصرى ، حدثنا محمد بن النواس[٧] الكوفى ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن أبى إسحاق ، عن البراء قال : بينا عمر ابن الخطاب يخطب الناس على منبر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذ قال : أيها الناس ، أفيكم سواد بن قارب ؟ قال : فلم يجبه أحد تلك السنة ، فلما كانت السنة المقبلة قال : أيها الناس ، أفيكم سواد بن قارب ؟ قال : فقلت : يا أمير المؤمنين ، وما سواد بن قارب ؟ قال : فقال له عمر : إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئا عجيبا[٨] ، قال : فبينا نحن كذلك إذ طلع سواد بن قارب ، قال : فقال له عمر : يا سواد ، حدثنا ببدء إسلامك ، كيف كان ؟ قال سواد : فانى كنت نازلا بالهند ، وكان لى رئى من الجن ، قال : فبينا أنا ذات ليلة نائم ، إذ جاءنى فى منامى ذلك قال : قم فافهم واعقل إن كنت تعقل ، قد بعث رسول من لؤى بن غالب ، ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وأنجاسها[٩] وشدها العيس[١٠] بأحلاسها

---

(١) الجليح : اسم رجل ناداه .

(٢) أى : مالبثنا .

(٣) البخارى ، باب « إسلام عمر بن الخطاب » : ٥/٦١ .

(٤) مابين القوسين عن الدلائل .

(٥) دلائل النبوة ، مخطوط بدار الكتب برقم ٧٠١ حديث ، الجزء الثانى ، ورقة : ٥٤ .

(٦) كذا فى المخطوطة . وفى الدلائل : « بارويه » .

(٧) فى الدلائل : « محمد بن تراس » .

(٨) فى الدلائل : « عجبا » .

(٩) فى المخطوطة : « وإحساسها » . والمثبت عن عن الدلائل » . وأسد الغابة : ٢/٤٨٥ .

(١٠) العيس : الإبل البيض مع شقرة يسيرة ، الواحد : أعيس ، وعيساء .

تَهْوِى إلَى مَكَّةَ تَبْغِى الهُدَى ... مَا مُؤْمِنو الجِنّ كَأَرْجَاسِهَا(١)
فَانْهَضْ إلى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ ... وَاسْمُ بِعَيْنَيْكَ إلى رَاسِهَا

قال : ثم أنبهنى فأفزعنى ، وقال : يا سواد بن قارب ، إن الله بعث نبياً فانهض إليه تَهْتَدِ وتَرْشُدْ . فلما كان من الليلة الثانية أتانى فأنبهنى ، ثم أنشأ يقول كذلك :

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَتَطْلَابِها ... وَشَدِّهَا العِيسَ بِأَقْتَابِهَا (٢)
تَهْوِى إلى مَكَّةَ تَبْغِى الهُدَى ... لَيس قُدَامَاها كَأَذْنَابِها
فَانْهَضْ إلى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ ... واسم بعينيك إلى نَابِها

فلما كان فى الليلة الثالثة أتانى فأنبهنى ، ثم قال :

عَجِبْتُ لِلجِنِّ وَتَخْبَارِها ... وَشَدِّها العيس بِأَكْوَارِهَا (٣)
تَهْوِى إلى مَكَّةَ تَبْغِى الهُدَى ... لَيْس ذَوُو الشرِّ كأخيارِهَا
فَانْهَضْ إلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ ... مامُؤْمِنُو الجِنِّ كَكُفَّارِها

قال : فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة ، وقع فى قلبى حب الإسلام من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله ، قال : فانطلقت إلى رحلى فشددته على راحلتى ، فما حللت نِسْعَةً ولا عقدت أخرى حتى أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو بالمدينة ــ يعنى مكة ــ والناس عليه كَعُرْفِ الفرس ، فلما رآنى النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مرحبا بك يا سواد ابن قارب ، قد علمنا ما جاء بك » . قال : قلت : يا رسول الله ، قد قلت شعرا ، فاسمعه منى . قال سواد : فقلت :

أَتَانِى رَئِيِّى بعد لَيْلٍ وهَجْعَةٍ ... وَلَمْ يَكُ فيما قَدْ بَلَوْتُ بِكَاذِبِ
ثَلاثُ لَيَالٍ قَوْلُه كُلَّ لَيْلَةٍ : ... أتاك رسولٌ من لُؤَىِّ بن غالِبِ
فَشَمَّرْتُ عَنْ سَاقِى الإزارَ ووسطت ... بِى الدِّعلب الوَجْنَاءُ عند السَّبَاسِبِ(٤)
فَأَشْهَدُ أنَّ اللهَ لا شَىءَ غيرُه ... وَأَنَّكَ مَأْمُونٌ عَلَى كُلِّ غَائِبِ
وأنك أدنى المرسلين شفاعةً ... إلى الله يا ابنَ الأكرمِينَ الأطَايِبِ
فَمُرْنَا بِمَا يَأْتِيكَ يا خيرَ مُرْسَلٍ(٥) ... وَإنْ كَانَ فيما جاء شَيْبُ الذَّوَائِبِ
وَكُنْ لى شَفِيعاً يَومَ لاذُو شَفَاعَةٍ ... سِوَاكَ بِمغنٍ عن سَوَادِ بن قَارِبِ

---

(١) فى الدلائل : « مامؤمنوها مثل أرجاسها » .

(٢) الأقتاب : جمع قتب ــ بفتحتين ــ ، وهو للجمل كالبرذعة لغيره .

(٣) الأكوار : جمع كور ، وهو رحل الناقة .

(٤) الدعلب : الناقة الفتية الشابة . والوجناء : العظيمة الوجنتين . والسباسب : القفار . وكان فى المخطوطة : « غير السباسب » . والمثبت عن الدلائل .

(٥) فى الدلائل : « ياخير من مشى » .

قال : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه وقال لى : « أفلحت يا سواد » . فقال له عمر : هل يأتيك رئيك الآن ؟ فقال : منذ قرأت القرآن لم يأتنى ، ونعم العوض كتاب الله من الجن (١) .

ثم أسنده البيهقى من وجهين آخرين (٢) . ومما يدل على وفادتهم إليه عليه السلام بعد ما هاجر إلى المدينة الحديث الذى رواه الحافظ أبو نعيم فى كتاب « دلائل النبوة » :

حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا محمد بن عبدة المصيصى ، حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع ، حدثنا معاوية بن سلام ، عن زيد بن أسلم : أنه سمع أبا سلام يقول : حدثنى من حدثه عمرو بن غيلان الثقفى قال : أتيت عبد الله بن مسعود فقلت له : حُدثت أنك كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة وفد الجن؟ قال : أجل . قلت : حدثنى كيف كان شأنه ؟ فقال : إن أهل الصفة أخذ كل رجل منهم رجل يُعَشّيه ، وتُركت فلم يأخذنى أحد منهم ، فمر بى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من هذا فقلت : أنا ابن مسعود . فقال : ما أخذك أحد يعشيك ؟ فقلت : لا قال : فانطلق لعلى أجد لك شيئاً . قال : فانطلقنا حتى أتى حجرة أم سلمة فتركنى ودخل إلى أهله ، ثم خرجت الجارية فقالت : يا ابن مسعود ، إن رسول الله لم يجد لك عشاء ، فارجع إلى مضجعك . قال : فرجعت إلى المسجد، فجمعت حصباء المسجد فتوسدته ، والتففت بثوبى ، فلم ألبث إلا قليلا حتى جاءت الجارية ، فقالت: أجب رسول الله . فاتبعتها وأنا أرجو العشاء ، حتى [إذا] بلغت مقامى، خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وفى يده عَسيب (٣) من نخل فعرض (٤) به على صدرى [فقال] :اتنطلق أنت معى حيث انطلقت ؟ قلت : ما شاء الله . فأعادها على ثلاث مرات ، كل ذلك أقول : ما شاء الله . فانطلق وانطلقت معه ، حتى أتينا بقيع الغرقد ، فخط بعصاه خطا ، ثم قال : « اجلس فيها ، ولا تبرح حتى آتيك » . ثم انطلق يمشى وأنا أنظر إليه خلال النخل ، حتى إذا كان من حيث لا أراه ثارت العجاجة (٥) السوداء ، فَفَرِقْتُ فقلت : ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنى أظن أن هوازن مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتلوه ، فأسعى إلى البيوت ، فأستغيث الناس . فذكرت أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أوصانى : أن لا أبرح مكانى الذى أنا فيه ، فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرعهم بعصاه ويقول : « اجلسوا » . فجلسوا حتى كاد ينشق عمود الصبح، ثم ثاروا وذهبوا، فأتانى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : أنمت بعدى؟ فقلت : لا ، ولقد فزعت الفزعة الأولى ، حتى رأيت أن آتى البيوت فأستغيث الناس حتى سمعتُك تقرعهم بعصاك ، وكنت أظنها هوازن ، مكروا برسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليقتلوه . فقال: لو أنك خرجت من هذه الحلقة ما آمنهم عليك أن يختطفك بعضهم ، فهل رأيت من شئ منهم ؟ فقلت : رأيت رجالا سودا مستشعرين (٦)

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ، مخطوط بدار الكتب برقم ٧٠١ حديث ، الجزء الثانى ، ورقة : ٥٦ — ٥٧ .

(٢) المرجع السابق ، ورقة : ٥٧ — ٥٨ .

(٣) العسيب : جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها .

(٤) فى المخطوطة : « فقبض » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٥) مضى من قريب تفسير العجاجة .

(٦) أى : لابسيها .

بثياب بيض . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أولئك وفد جن نصيبين ، [اتونى] فسألونى الزاد والمتاع ، فمتعتهم بكل عظم حائل أوروثة أو بعرة » قلت : وما يغنى عنهم ذلك ؟ قال : « إنهم لا يجدون عظما إلا وجدوا عليه لحمه الذى كان عليه يوم أكل ، ولا روثة إلا وجدوا فيها حبها الذى كان فيها يوم أكلت ، فلا يستنقى أحد منكم بعظم ولا بعرة » .

وهذا إسناد غريب جداً ، ولكن فيه رجل مبهم لم يسم وقد روى الحافظ أبو نعيم من حديث بقية بن الوليد ، حدثنى [نمير ابن زيد القنبر ، حدثنا أبى ، حدثنا قحافة بن ربيعة ، حدثنى] الزبير بن العوام قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح فى مسجد المدينة فلما انصرف ، قال : « أيكم يتبعنى إلى وفد الجن الليلة ؟ » فأسكت القوم ثلاثا ، فمر بى فأخذ بيدى ، فجعلت أمشى معه حتى حبست عنا جبال المدينة كلها ، وأفضينا إلى أرض براز فإذا برجال طوال كأنهم الرماح ، [مستشعرين بثيابهم من بين أرجلهم ، فلما رأيتهم غشيتنى رعدة شديدة] ، ثم ذكر نحو حديث ابن مسعود المتقدم ، وهذا حديث غريب ، والله أعلم .

ومما يتعلق بوفود الجن ما رواه الحافظ أبو نعيم : حدثنا أبو محمد بن حيان ، حدثنا أبو الطيب أحمد بن روح ، حدثنا يعقوب الدورقى ، حدثنا الوليد بن بكير التميمى ، حدثنا حصين بن عمر ، أخبرنى عبيد المكتب ، عن إبراهيم قال : خرج نفر من أصحاب عبد الله يريدون الحج ، حتى إذا كانوا فى بعض الطريق إذا هم بحية تنثنى على الطريق أبيض ، ينفخ منه ريح المسك ، فقلت لأصحابى : امضوا ، فلست ببارح حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمر هذه الحية . قال : فما لبثت أن ماتت ، فعمدت إلى خرقة بيضاء فلففتها فيها ثم نحيتها عن الطريق فدفنتها ، وأدركت أصحابى فى المتعشى . قال : فو الله إنا لقعود إذ أقبل أربع نسوة من قبل المغرب ، فقالت واحدة منهن : أيكم دفن عمراً ؟ قلنا : ومن عمرو ، قالت : أيكم دفن الحية ؟ قال : قلت : أنا . قالت : أما والله لقد دفنت صوّاما قواما ، يأمر بما أنزل الله ، ولقد آمن بنبيكم ، وسمع صفته من السماء قبل أن يبعث بأربعمائة عام . قال الرجل فحمدنا الله ثم قضينا حجتنا ثم مررت بعمر بن الخطاب فى المدينة فأنبأته بأمر الحية ، فقال : صدقت ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لقد آمن بى قبل أن أبعث بأربعمائة سنة » .

وهذا حديث غريب جدا ، والله أعلم .

قال أبو نعيم : وقد روى الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن الشعبى ، عن رجل من ثقيف ، بنحوه . وروى عبد الله بن أحمد والطبرانى ، عن صفوان بن المعطل — هو الذى نزل ودفن تلك الحية من بين الصحابة — وأنهم قالوا : أما إنه آخر التسعة موتا الذين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمعون القرآن .

وروى أبو نعيم من حديث الليث بن سعد ، عن عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون ، عن عمه ، عن معاذ بن عبيد (١) الله ابن معمر قال : كنت جالسا عند عثمان بن عفان فجاء رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى كنت بفلاة من الأرض ، فذكر انه رأى ثعبانين اقتتلا ثم قتل أحدهما الآخر ، قال : فذهبت إلى المعترك ، فوجدت حيات كثيرة مقتولة ، وإذا ينفح من بعضها ريح المسك ، فجعلت أشمها واحدة واحدة ، حتى وجدت ذلك من حية صفراء رقيقة ، فلففتها فى عمامتى ودفنتها . فبينا أنا أمشى إذ نادانى مناد : يا عبد الله ، لقد هديت ! هذان حيان من الجن بنو أشعيبان وبنو اقيش التقوا ، فكان من القتلى

(١) فى المخطوطة : « عبد الله » والمثبت عن الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ٤/١/٢٤٧ .

ما رأيت، واستشهد الذى دفنته ، وكان من الذين سمعوا الوحى من رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال: فقال عثمان لذلك الرجل : إن كنت صادقا فقد رأيت عجبا ، وإن كنت كاذبا فعليك كذبك .

فقوله تعالى : (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن) ، أى: طائفة من الجن (يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا: أنصتوا)، أى : استمعوا وهذا أدب منهم .

وقد قال الحافظ البيهقى : حدثنا الإمام أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان ، أخبرنا أبو الحسن محمد بن عبد الله الدقاق ، حدثنا محمد بن إبراهيم البُوشَنْجِى ، حدثنا هشام بن عمار الدمشقى ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن زهير بن محمد ، عن محمد ابن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « سورة الرحمن » حتى ختمها ، ثم قال : « مالى أراكم سكوتا للجن كانوا أحسن منكم رداً ، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) ، إلا قالوا : ولا بشىء من [آلائك (١) أو] نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد » (٢) .

ورواه الترمذى فى التفسير ، عن أبى مسلم عبد الرحمن بن واقد ، عن الوليد ابن مسلم ، به : قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه ، فقرأ عليهم سورة الرحمن ... » فذكره ، ثم قال : الترمذى : « غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد ، عن زهير (٣) » . كذا قال . وقد رواه البيهقى من حديث مروان بن محمد الطاطرى ، عن زهير بن محمد ، به مثله (٤).

وقوله : (فلما قضى) ، أى : فرغ . كقوله : (فإذا قضيت الصلاة)(٥) ، (فقضاهن سبع سموات فى يومين) (٦) ، (فإذا قضيتم مناسككم)(٧) .

(ولوا إلى قومهم منذرين) ، أى : رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كقوله : (ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم اذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) (٨) .

وقد استدل بهذه الآية على أنه فى الجن نُذُرٌ ، وليس فيهم رسل . ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولا ، لقوله : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا يوحَى إليهم من أهل القرى) (٩) . وقال : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق)(١٠) . وقال عن إبراهيم الخليل : (وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب)(١١) ،

---

(١) مابين القوسين غير ثابت فى الدلائل .
(٢) دلائل النبوة للبيهقى ، مخطوط بدار الكتب ؛ برقم ٧٠١ حديث ، الجزء الثانى ، ورقة : ٤٩ .
(٣) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الرحمن ، الحديث ٣٣٤٥ : ٩/ ١٧٧ – ١٧٩ .
(٤) دلائل النبوة ، الجزء الثانى ، ورقة : ٤٨ .
(٥) سورة الجمعة ، آية : ١٠ .
(٦) سورة فصلت ، آية : ١٢ .
(٧) سورة البقرة ، آية : ٢٠٠ .
(٨) سورة التوبة ، آية : ١٢٢ .
(٩) سورة يوسف ، آية : ١٠٩ . وفى المخطوطة : « يوحى » بالبناء المجهول . وهى قراءة الجمهور .
(١٠) سورة الفرقان ، آية : ٢٠ .
(١١) سورة العنكبوت ، آية : ٢٧ .

فكل نبي بعثه الله بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته ، فأما قوله تعالى فى الأنعام : (يا معشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم [١]) ، فالمراد من مجموع الجنسين ، فيصدق على أحدهما وهو الإنس ، كقوله : (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان [٢]) ، أى : أحدهما . ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبراً عنهم : (قالوا : يا قومنا ، إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى) ، ولم يذكروا عيسى لأن عيسى ــ عليه السلام ــ أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم ، وهو فى الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة ، فالعمدة هو التوراة ، فلهذا قالوا : أنزل من بعد موسى . وهكذا قال ورقة بن نوفل ، حين أخبره النبي صلى الله عليه وسلم بقصة نزول جبريل عليه أول مرة ، فقال : بَخ بَخ [٣] ، هذا الناموس الذى كان يأتى موسى ، يا ليتنى أكون فيها جذعاً [٤] .

(مصدقا لما بين يديه) ، أى : من الكتب المنزلة قبله على الأنبياء . وقولهم : (يهدى إلى الحق) ، أى : فى الاعتقاد والإخبار ، (وإلى طريق مستقيم) ، فى الأعمال ، فإن القرآن يشتمل على شيئين ، خبر وطلب ، فخبره صدق ، وطلبه عدل ، كما قال : (وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا)[٥] وقال : (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) [٦] . فالهدى هو : العلم النافع ، ودين الحق : هو العمل الصالح . وهكذا قالت الجن : (يهدى إلى الحق) فى الاعتقادات ، (وإلى طريق مستقيم) ، أى : فى العمليات .

(يا قومنا ، أجيبوا داعى الله) ، فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ــ صلوات الله وسلامه عليه إلى الثقلين الإنس والجن حيث دعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم السورة التى فيها خطاب الفريقين ، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم ، وهى سورة الرحمن ، ولهذا قال : (أجيبوا داعى الله وآمنوا به) .

وقوله : (يغفر لكم من ذنوبكم) ، قيل : إن « من » هاهنا زائدة ، وفيه نظر ، لأن زيادتها فى الإثبات قليل . وقيل : إنها على بابها للتبعيض ، (ويجركم من عذاب أليم) ، أى : ويقيكم من عذابه الأليم .

وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة ، وإنما جزاء صالحيهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة ، ولهذا قالوا هذا فى هذا المقام ، وهو مقام تبجح ومبالغة ، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى قال : حُدِّثت عن جرير ، عن ليث ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : لايدخل مؤمنو الجن الجنة ، لأنهم من ذرية إبليس ، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة .

والحق أن مؤمنيهم كمؤمنى الإنس يدخلون الجنة ، كما هو مذهب جماعة من السلف ، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله : (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا [٧] جان) . وفى هذا الاستدلال نظر ، وأحسن منه قوله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ١٣٠ .
(٢) سورة الرحمن ، آية : ٢٢ .
(٣) بخ بخ : كلمة تقال للاستحسان .
(٤) أى : شاباً عند ظهورها .
(٥) سورة الأنعام ، آية : ١١٥ . وفى المخطوطة « كلمات » وهى قراءة ثابتة ، انظر القرطبى : ٧/٧١ .
(٦) سورة التوبة ، آية : ٣٣ .
(٧) سورة الرحمن ، آية : ٧٤ .

فبأى آلاء ربكما تكذبان)(١) ، فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة ، وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر [القولى] أبلغ من الإنس ، فقالوا : « ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد » فلم يكن تعالى ليمتن عليهم بجزاء لايحصل لهم ، وأيضا فانه إذا كان يجازى كافرهم بالنار — وهو مقام عدل — فلأن يجازى مؤمنهم بالجنة — وهو مقام فضل — بطريق الأولى والأحرى . ومما يدل أيضا على ذلك عموم قوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس (٢) نزلا) ، وما أشبه ذلك من الآيات . وقد أفردت هذه المسألة فى جزء على حدة ، ولله الحمد والمنة : وهذه الجنة لايزال فيها فضل حتى ينشىء الله لها خلقا ، أفلا يسكنها من آمن به وعمل له صالحا ؟ . وما ذكروه هاهنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الأليم ، هو يستلزم دخول الجنة ، لأنه ليس فى الآخرة إلا الجنة أو النار ، فمن أجير من النار دخل الجنة لامحالة . ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع أن مؤمنى الجن لايدخلون الجنة وإن أجيروا من النار ، ولو صح لقلنا به ، والله أعلم . وهذا نوح — عليه السلام — يقول لقومه : (يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى)(٣) ، ولا خلاف أن مؤمنى قومه فى الجنة ، فكذلك هؤلاء : وقد حكى فيهم أقوال غريبة فعن عمر بن عبد العزيز : أنهم لايدخلون بحبوحة (٤) الجنة ، وإنما يكونون فى ربضها وحولها وفى أرجائها(٥) . ومن الناس من زعم أنهم فى الجنة يراهم بنو آدم ولا يرونهم بنى آدم عكس ماكانوا عليه فى الدار الدنيا : ومن الناس من قال : لايأكلون فى الجنة ولا يشربون ، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس ، عوضاً عن الطعام والشراب كالملائكة ، لأنهم من جنسهم : وكل هذه الأقوال فيها نظر ، ولا دليل عليها

ثم قال مخبرا عنهم : (ومن لايجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض) ، أى : بل قدرة الله شاملة له ومحيطة به ، وليس لهم من دونه أولياء) أى لا يجيرهم منه أحد (أولئك فى ضلال مبين) وهذا مقام تهديد وترهيب ، فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب ، ولهذا نجع فى كثير منهم ، وجاءوا إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وفودا وفودا ، كما تقدم بيانه :

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى : (أو لم يروا) أى : هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة ، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد (أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن) ، أى : ولم يكرثه(٦) خلقهن ، بل قال لها « كونى » فكانت ، بلا ممانعة ولا مخالفة ،

(١) سورة الرحمن ، آية : ٤٦ — ٤٧ .

(٢) سورة الكهف ، آية : ١٠٧ .

(٣) سورة نوح ، آية : ٤ .

(٤) بحبوحة الدار : وسطها .

(٥) فى المخطوطة : « وفى رحابها » . والمثبت عن الطبعات السابقة . والأرجاء : جمع رجا ، وهو : ناحية الموضع .

(٦) كرثة الأمر : اشتد عليه وبلغ منه المشقة .

بل طائعة مجيبة خائفة وجلة ، أفليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ كما قال فى الآية الأخرى : (لَخَلْقُ السموات والأرض أكبرُ من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لايعلمون (١)) . ولهذا قال : (بلى إنه على كل شيء قدير) .

ثم قال متهددا ومتوعدا لمن كفر به : (ويوم يعرض الذين كفروا على النار : أليس هذا بالحق)، أى : يقال لهم : أما هذا حق ؟ أفسحر هذا ؟ أم أنتم لا تبصرون ؟(قالوا : بلى وربنا)، أى : لايسعهم إلا الاعتراف ، (قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) .

ثم قال تعالى آمراً رسوله بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه ، (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) ، أى : على تكذيب قومهم لهم . وقد اختلفوا فى تعداد أولى العزم على أقوال ، وأشهرها أنهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد - صلى الله عليه وسلم ، قد نص الله على أسمائهم من بين الأنبياء فى آيتين من سورتى « الأحزاب » و« الشورى(٢) » وقد يحتمل أن يكون المراد بأولى العزم جميعَ الرسل ، وتكون (مِن) فى قوله : (من الرسل) لبيان الجنس ، والله أعلم . وقد قال ابن أبى حاتم :

حدثنا محمد بن الحجاج الحضرمى ، حدثنا السرى بن حيَّان ، حدثنا عباد بن عباد ، حدثنا مجالد بن سعيد ، عن الشعبى ، عن مسروق قال : قالت لى عائشة : ظل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — صائما ثم طواه ، ثم ظل صائما ثم طواه ، ثم ظل صائما — قال : « يا عائشة ، إن الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ما كلفهم ، فقال : (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) . وإنى — والله — لأصبرَنَّ كما صبروا جهدى ، ولا قوة إلا بالله (٣) » .

(ولا تستعجل لهم) ، أى : لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم . كقوله : (وذرنى والمكذبين أولى النَّعمة ومهلهم قليلا (٤)) ، وكقوله : (فمهل الكافرين أمهلهم رويدا (٥)) .

(كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) كقوله : (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها (٦)) ، وكقوله : (ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ، قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين (٧)) .

وقوله : (بلاغ) — قال ابن جرير : يحتمل معنيين ، أحدهما : أن يكون تقديره : وذلك لبثٌ بلاغ . والآخر : أن يكون تقديره : هذا القرآن بلاغ (٨) .

وقوله : (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) ، أى : لا يهلك على الله إلا هالك ، وهذا من عدله تعالى أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب .

[آخر تفسير سورة الأحقاف]

(١) سورة غافر ، آية : ٥٧ .

(٢) انظر : ٧/١٨١ - ١٨٢ .

(٣) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن أبى حاتم والديلمى . انظر : ٦/٤٥ . ومعنى « طواه » : طوى هذا اليوم . فوصله بالذى يليه بالصوم .

(٤) سورة المزمل ، آية : ١١ .

(٥) سورة الطارق ، آية : ١٧ .

(٦) سورة النازعات ، آية : ٤٦ .

(٧) سورة يونس ، آية : ٤٥

(٨) تفسير الطبرى ، ٢٦/٢٤ .

تفسير سورة القتال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾

يقول تعالى : (الذين كفروا) ، اى : بآيات الله ، (وصدوا) غيرهم (عن سبيل الله ، أضل أعمالهم) ، أى : أبطلها وأذهبها ولم يجعل لها جزاء ولا ثوابا ، كقوله تعالى : (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا)(١) .

ثم قال : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، أى : آمنت قلوبهم وسرائرهم ، وانقادت جوارحهم [وبواطنهم] وظواهرهم ، (وآمنوا بما نزل على محمد) ، عطف خاص على عام ، وهو دليل على أنه شرط فى صحة الإيمان بعد بعثته — صلوات الله وسلامه عليه — .

وقوله : (وهو الحق من ربهم) جملة معترضة حسنة ، ولهذا قال : (كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم) — قال ابن عباس : أى أمرهم (٢) . وقال مجاهد : شأنهم . وقال قتادة وابن زيد : حالهم . والكل متقارب وقد جاء فى حديث تشميت العاطس : « يهديكم الله ، ويصلح بالكم (٣) » .

ثم قال تعالى : (ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل) ، [أى : إنما أبطلنا أعمال الكفار . وتجاوزنا عن سيئات الأبرار ، وأصلحنا شئونهم ، لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل] ، أى : اختاروا الباطل على الحق ، (وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ، كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) ، أى : يبين لهم مآل أعمالهم ، وما يصيرون إليه فى معادهم .

فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾

يقول تعالى مرشدا للمؤمنين إلى ما يعتمدونه فى حروبهم مع المشركين ، (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب) ، أى : إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدا بالسيوف ، (حتى إذا أثخنتموهم) ، أى : أهلكتموهم قتلا (فشدوا) الأسارى الذين

---

(١) سورة الفرقان ، آية : ٢٣ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٦/٢٥ .

(٣) أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه فى كتاب الأدب ، انظر سنن أبى داود ، باب « ماجاء فى تشميت العاطس » ، الحديث ٥٠٣٣ : ٤/٣٠٧ – ٣٠٨ . وتحفة الأحوذى ، باب « كيف يشمت العاطس » ، الحديث ٢٨٨٣ : ٨/١١ – ١٢ ، وابن ماجه ، باب « تشميت العاطس » ، الحديث ٣٧١٥ : ٢/١٢٢٤ .

تأسرونهم ، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون فى أمرهم ، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجانا ، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه . والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر ، فإن الله سبحانه عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء ، والتقلل من القتل يومئذ فقال : (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم)(١) .

ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه ــ منسوخة بقوله تعالى : (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم)(٢) ... الآية ، رواه العوفى عن ابن عباس(٣) . وقاله قتادة ، والضحاك ، والسدى ، وابن جريج .

وقال الآخرون ــ وهم الأكثرون ــ : ليست منسوخة .

ثم قال بعضهم : إنما الإمام مخير بين المن على الأسير ومفاداته فقط ، ولا يجوز له قتله .

وقال آخرون منهم : بل له أن يقتله إن شاء ، لحديث قتل النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط من أسارى بدر . وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حين قال له : « ماعندك يا ثمامة ؟ » ؟ فقال : إن تقتُلْ تقتُلْ ذا دم ، وإن تمنن تمنن على شاكر ، وإن كنت تريد المال فَسَلْ تعطَ منه ماشئت(٤) .

وزاد الشافعى رحمه الله فقال : الإمام مخير بين قتله أو المن عليه ، أو مفاداته أو استرقاقه أيضا . وهذه المسألة مُحَرَّرة فى علم الفروع ، وقد دللنا على ذلك فى كتابنا « الأحكام » ، ولله الحمد والمنة .

وقوله : (حتى تضع الحرب أوزارها) ــ قال مجاهد : حتى ينزل عيسى ابن مريم(٥) . وكأنه أخذه من قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال [طائفة من] أمتى ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال(٦) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن إبراهيم بن سليمان ، عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشى ، عن جُبَير بن نُفَير أن سلمة بن نُفَيل أخبرهم : أنه أتى رسولَ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : إنى سَيَّبْتُ(٧) الخيل ، وألقيت السلاح ، ووضعت الحرب أوزارها ، وقلت : « لا قتال » . فقال له النبى ــ صلى الله عليه وسلم : « الآن

---

(١) سورة الأنفال ، آية : ٦٧ ــ ٦٨ .
(٢) سورة التوبة ، آية : ٥ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٦/٢٦ .
(٤) سيرة ابن هشام : ٢/٦٣٨ . وأسد الغابة : ١/٢٩٤ ، بتحقيقنا .
(٥) تفسير الطبرى : ٢٦/٢٧ .
(٦) سنن أبى داود ، كتاب الجهاد ، باب « فى دوام الجهاد » ، الحديث ٢٤٨٤ : ٣/٤ .
(٧) كذا فى المخطوطة . وفى المسند : « سئمت » . ومعنى سيبت الخيل : تركتها تسرح ، تذهب وتجىء كما تشاء . وفى النسائى : « أذال الناس الخيل » . والإذالة : الإهانة والاستخفاف بالشىء .

جاء القتال(١) ، لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس يُزيغ(٢) الله قلوب أقوام فيقاتلونهم ، ويرزقهم الله منهم ، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك . ألا إن عُقْرَ دار المؤمنين(٣) الشام ، والخيلُ معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة(٤) » .

وهكذا رواه النسائي من طريقين ، عن جبير بن نُفَير ، عن سلمة بن نُفَيل السكوني ، به(٥) .

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا داود بن رشَيد ، حدثنا الوليد [بن مسلم ، عن(٦)] محمد بن مهاجر عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشي ، عن جبير بن نُفَير ، عن النواس بن سمعان قال: لما فتح على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فَتْحٌ فقالوا يا رسول الله : سيبت الخيل ، ووضعت السلاح ، ووضعت الحرب أوزارها ، قالوا : لا قتال ، قال : « كذبوا الآن ، جاء القتال ، لا يزال الله يُرَفِّع(٧) قلوب قوم يقاتلونهم ، فيرزقهم منهم ، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك وعُقْر دار المسلمين بالشام » .

وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن داود بن رُشَيد ، به . والمحفوظ أنه من رواية سلمة بن نُفَيل كما تقدم . وهذا يقوي القول بعدم النسخ ، كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى أن لا يبقى حرب .

وقال قتادة : (حتى تضع الحرب أوزارها) ، حتى لا يبقى شرك . وهذا كقوله تعالى : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) . ثم قال بعضهم : (حتى تضع الحرب أوزارها) ، أي : أوزار المحاربين ، وهم المشركون ، بأن يتوبوا إلى الله عز وجل . وقيل : أوزار أهلها بأن يبذلوا الوسع في طاعة الله عز وجل .

وقوله : (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم) ، أي : هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونَكال من عنده ، (ولكن ليبلو بعضكم ببعض) ، أي : ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم ، ويبلو أخباركم . كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي « آل عمران » و « براءة » في قوله : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين(٨)) .

وقال في سورة براءة : (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم(٩)) .

---

(١) لفظ النسائي : « كذبوا ، الآن » .
(٢) لفظ المسند : « يرفع الله » . وسيأتي في رواية البغوي : « يرفع قلوب » . على أن في النسائي « يزيغ » .
(٣) أي : أصل دارهم .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٤/١٠٤ .
(٥) النسائي ، كتاب الخيل : ٦/٢١٤ - ٢١٥ .
(٦) مابين القوسين عن سند ورد في مسند الإمام أحمد ، أنظر : ٤/١٨٣ . وكان في المخطوطة : « حدثنا الوليد بن محمد ابن مهاجر » . وهو خطأ ، وانظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ، ترجمة « محمد بن مهاجر الشامي » : ٤/١/٩١ .
(٧) كذا في المخطوطة ، وقد نبهنا أنه ورد في رواية الإمام أحمد : « يرفع » . ولعل المعنى : يقدم قلوب هؤلاء القوم ويدفعهم إلى قتالهم .
(٨) سورة آل عمران ، آية : ١٤٢ .
(٩) سورة التوبة ، آية : ١٤ - ١٥ .

ثم لما كان من شأن القتال أن يُقتل كثيرٌ من المؤمنين ، قال : (والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم) ، أى : لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها . ومنهم من يجرى عليه عمله فى طول برْزَخه ، كما ورد بذلك الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده ، حيث قال :

حدثنا زيد بن يحيى الدمشقى ، حدثنا ابن ثوبان ، عن أبيه ، عن مكحول ، عن كثير بن مُرّة ، عن قيس الجذامى ــ رجل كانت له صحبة ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يعطى الشهيد ست خصال : عند أول قطرة من دمه يُكَفّر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من الحور العين ، ويُؤمَّن من الفزع الأكبر ، ومن عذاب القبر ، ويحلى حُلَّة الإيمان (١) » . تفرد به أحمد رحمه الله .

حديث آخر ، قال أحمد أيضا : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن بَحِير (٢) بن سعيد ، عن خالد بن معدان ، عن المقدام بن معد يكرب الكندى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن للشهيد عند الله ست خصال : أن يغفر له فى أول دَفْعَة (٣) من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويحلى حُلَّة الإيمان ، ويزوج من الحور العين ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمَن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويُشَفَّع فى سبعين إنسانا من أقاربه (٤) » .

وقد أخرجه الترمذى ، وصححه ابن ماجه (٥) .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عَمْرو ، وعن أبى قتادة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يُغفَر للشهيد كل شئ إلا الدَّين (٦) » ورُوى من حديث جماعة من الصحابة ، وقال أبو الدرداء : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته (٧) » . ورواه أبو داود . والأحاديث فى فضل الشهيد كثيرة جدا .

وقوله : (سيهديهم) ، أى : إلى الجنة ، كقوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم) (٨) .

وقوله : (ويصلح بالهم) ، أى : أمرهم وحالهم ، (ويدخلهم الجنة عرفها لهم) ، أى : عرفهم بها وهداهم إليها .

قال مجاهد : يهتدى أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم ، وحيث قسم الله لهم منها ، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا ، لا يستدلون عليها أحدا (٩) . وروى مالك عن ابن زيد بن أسلم نحو هذا .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٤/٢٠٠ . وانظر أسد الغابة ، ترجمة قيس الجذامى : ٤/٤١٥ ، بتحقيقنا .

(٢) فى المخطوطة « يحيى بن سعيد » . وهو خطأ ، والصواب عن المسند وكتب الرجال .

(٣) فى المخطوطة : « خفقة » . والمثبت عن المسند والترمذى .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٤/١٣١ .

(٥) تحفة الأحوذى ، أبواب فضائل الجهاد ، الحديث ١٧١٢ : ٥/٣٠٢ - ٣٠٤ ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح غريب » . وسنن ابن ماجه ، كتاب الجهاد ، باب « فضل الشهادة فى سبيل الله » ، الحديث ٢٧٩٩ : ٢/٩٣٥ - ٩٣٦ .

(٦) مسلم ، كتاب الإمارة ، باب « من قتل فى سبيل الله ، كفرت خطاياه إلا الدين » : ٦/٣٨ .

(٧) سنن أبى داود ، كتاب الجهاد ، باب « فى الشهيد يشفع » ، الحديث ٢٥٢٢ : ٣/١٥ .

(٨) سورة يونس ، آية : ٩ .

(٩) تفسير الطبرى : ٢٦/٢٩ .

وقال محمد بن كعب : يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة ، كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة .

وقال مقاتل بن حيان : بلغنا أن الملك الذى كان وُكِلَ بحفظ عمله فى الدنيا يمشى بين يديه فى الجنة، ويتبعه ابن آدم حتى يأتى أقصى منزل هو له ، فيعرّفه كلّ شىء أعطاه الله فى الجنة ، فإذا انتهى إلى أقصى منزله فى الجنة دخل منزله وأزواجه، وانصرف الملك عنه ، ذكرهن ابن أبى حاتم رحمه الله .

وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أيضا ، رواه البخارى من حديث قتادة ، عن أبى المتوكل الناجى ، عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار يتقاصّون مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هُذّبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة ، والذى نفسى بيده إن أحدهم بمنزله فى الجنة أهدى منه بمنزله كان فى الدنيا (١) » .

ثم قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ، كقوله : (ولينصرن الله من ينصره)(٢) ، فإن الجزاء من جنس العمل ، ولهذا قال : (ويثبت أقدامكم) ، كما جاء فى الحديث : « من بلّغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها ، ثبت الله قدمه على الصراط يوم القيامة » .

ثم قال تعالى : (والذين كفروا فتعسا لهم) ، عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد ثبت فى الحديث عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « تعس عبد الدينار ، [تعس عبد الدرهم] ، تعس عبد القطيفة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك (٣) فلا انتقش (٤) » ، أى : فلا شفاه الله .

وقوله : (وأضل أعمالهم) ، أى : أحبطها وأبطلها . ولهذا قال : (ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله) ، أى : لا يريدونه ولا يحبونه ، (فأحبط أعمالهم) .

* أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾

يقول تعالى : (أفلم يسيروا) — يعنى المشركين بالله المكذبين لرسوله — (فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، دمر الله عليهم) ، أى : عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم ، أى : ونجى المؤمنين من بين أظهرهم . ولهذا قال : (وللكافرين

---

(١) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « القصاص يوم القيامة » : ٨/١٣٨ — ١٣٩ .

(٢) سورة الحج ، آية : ٤٠ .

(٣) أى : إذا دخل فى جسمه شوكه ، فلا انتقش : فلا أخرجها من موضعها .

(٤) سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « فى المكثرين » ، الحديث ٤١٣٦ : ٢/١٣٨٦ .

أمثالها) : ثم قال : (ذٰلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) ولهذا قال أبو سفيان صخرُ بن حرب رئيسُ المشركين يوم أحد حين سأل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن أبي بكر وعمر فلم يجب ، وقال : أما هؤلاء فقد هلكوا . وأجابه عمرُ بن الخطاب فقال : كذبت يا عدو الله ، بل أبقى الله لك ما يسوؤك ، وإن الذين عدّدت لأحياء . فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، أما إنكم ستجدون مُثْلَةً(١) لم آمر بها ولم تسؤني ، ثم ذهب يرتجز ويقول : « اعل هُبَل ، اعل هُبَل » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا تجيبوه ؟ » قالوا : يا رسول الله ، وما نقول ؟ قال قولوا : « الله أعلى وأجلّ » . ثم قال أبو سفيان : لنا العزى ، ولا عُزّى لكم . فقال : « ألا تجيبوه ؟ » قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ قال قولوا : « الله مولانا ولا مولى لكم (٢) » .

ثم قال : (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار) ، أى : يوم القيامة ، (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام) ، أى : فى دنياهم ، يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام ، خَضْمًا وقضمًا ، ليس لهم همة إلا فى ذلك . ولهذا ثبت فى الصحيح : « المؤمن يأكل فى مِعًى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء (٣) » .

ثم قال : (والنار مثوى لهم) ، أى : يوم جزائهم .

وقوله : (وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك) ، يعنى مكة ، (أهلكناهم فلا ناصر لهم) ، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة ، فى تكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو سيد المرسلين وخاتم الأنبياء ، فإذا كان الله ــ عز وجل ــ قد أهلك الأمم ــ الذين كذبوا الرسل قبله ، بسببهم ، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء ، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم فى الدنيا والأخرى ؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة فى الدنيا لبركة وجود الرسول نبى الرحمة ، فإن العذاب يوفر على الكافرين به فى معادهم ، (يضاعف لهم العذاب ، ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون (٤)) .

وقوله : (من قريتك التى أخرجتك) ، أى : الذين أخرجوك من بين أظهرهم .

وقال ابن أبى حاتم : ذكر أبى ، عن محمد بن عبد الأعلى ، عن المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن حَنَش ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما خرج من مكة إلى الغار ــ [أراه قال : التفت](٥) إلى مكة ــ وقال : « أنت أحب بلاد الله إلى الله ، وأنت أحبّ بلاد الله إلىّ ، ولو أن المشركين لم يخرجونى لم أخرج منك » . فأعدى الأعداء من عدَا على الله فى حرمه ، أو قتل غير قاتله ، أو قتل بذُحُول(٦) الجاهلية ، فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم : (وكأين من قرية هى أشدّ قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم ، فلا ناصر لهم) .

---

(١) يقال : « مثلت ــ بفتح الثاء ــ بالقتيل » : إذا جدعت أنفه ، أو أذنه ، أو مذاكيره ، أو شيئا من أطرافه » .

(٢) تقدم الحديث فى سورة آل عمران عند تفسير الآية ١٥٢ منها ، وخرجناه هنالك . انظر : ١١٥/٢ .

(٣) البخارى ، كتاب الأطعمة ، باب « المؤمن يأكل فى معى واحد . . » : ٩٢/٧ . ومسلم ، كتاب الأشربة ، باب « المؤمن يأكل فى معى واحد . . . » : ١٣٢/٦ ــ ١٣٣ .

(٤) سورة هود ، آية : ٢٠ .

(٥) مابين القوسين عن تفسير الطبرى : ٣١/٢٦ . فقد أخرجه ابن جرير ، عن محمد بن عبد الأعلى بإسناده . وكان فى المخطوطة مكانه : « ودا راه فالتفت » .

(٦) الذحول : الأحقاد والعداوات ، جمع ذحل ، بفتح فسكون .

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

يقول : (أفمن كان على بينة من ربه) ، أى : على بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه ، بما أنزل الله فى كتابه من الهدى والعلم ، وبما جَبَلَه الله عليه من الفطرة المستقيمة ، (كمن زين له سوء عمله ، واتبعوا أهواءهم ؟) ، أى : ليس هذا كهذا ؛ كقوله : (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟)(١) ، وكقوله : (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون)(٢) .

ثم قال : (مثل الجنة التى وعد المتقون) — قال عكرمة : (مثل الجنة) ، أى : نعتها : (فيها أنهار من ماء غير آسن) — قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة : يعنى غير متغير(٣) . وقال قتادة ، والضحاك ، وعطاء الخراسانى : غير منتن . والعرب تقول : أسِنَ الماء إذا تَغَيَّر ريحه .

وفى حديث مرفوع أورده ابن أبى حاتم : (غير آسن) : يعنى الصافى الذى لا كَدَر فيه ؛

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا وكيع ، عن الأعمش ، عن عبد الله بن مرة ، عن مسروق قال : قال عبد الله : أنهار الجنة تَفَجَّر من جبل من مسك .

(وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) ، أى : بل فى غاية البياض والحلاوة والدسومة . وفى حديث مرفوع : « لم يخرج من ضُرُوع الماشية » .

(وأنهار من خمر لذة للشاربين) ، أى : ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا ، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل ، (لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) ، (لا يصدعون عنها ولا ينزفون) ، (بيضاء لذة للشاربين) ، وفى حديث مرفوع : « لم تعصرها الرجال بأقدامها » .

(وأنهار من عسل مصفى) ، أى : وهو فى غاية الصفاء ، وحسن اللون والطعم والريح ، وفى حديث مرفوع : « لم يخرج من بطون النحل » .

---

(١) سورة الرعد ، آية : ١٩ .
(٢) سورة الحشر ، آية : ٢٠ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٦/٣١ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا الجريري ، عن حكيم [بن معاوية] ، عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « فى الجنة بحر اللبن ، وبحر الماء ، وبحر العسل ، وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار منها بعد (١) » .

ورواه الترمذى فى « صفة الجنة » ، عن محمد بن بشار ، عن يزيد بن هارون ، عن سعيد بن إياس الجريرى ، به ؛ وقال : « حسن صحيح (٢) » .

وقال أبو بكر بن مردويه : حدثنا أحمد بن محمد بن عاصم ، حدثنا عبد الله بن محمد [بن] النعمان ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا الحارث بن عبيد أبو قدامة الإيادى ، حدثنا أبو عمران الجونى ، عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذه الأنهار تَشْخُبُ (٣) من جنة عدن فى جَوْبَة (٤) ، ثم تصدع بعد أنهارا (٥) » .

وفى الصحيح : « إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، ومنه تَفَجَّر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن (٦) » .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة الزبيرى ، وعبد الله بن الصقر السكرى قالا : حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى ، حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة ، حدثنى عبد الرحمن بن عياش ، عن دلهم بن الأسود [بن عبد الله بن حاجب بن عامر بن المنتفق العقيلى ، عن أبيه ، عن عمه لقيط بن عامر (٧)] ـ قال دلهم : وحدثنيه أيضا أبى الأسود ، عن عاصم بن لقيط أن لقيط بن عامر : خرج وافدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت : يا رسول الله ، فعلام نطلع من الجنة ؟ قال : « على أنهار عسل مصفى ، وأنهار من خمر ما بها صداع ولا ندامة ، وأنهار من لبن لم يتغير [طعمه] ، وماء غير آسن ، وفاكهة لعمر إلهك ما تعلمون وخير من مثله ، وأزواج مطهرة » . قلت : يا رسول الله ، أو لنا فيها أزواج مصلحات ؟ قال : « الصالحات للصالحين ، تلذونهن . مثل لذاتكم فى الدنيا ويلذونكم ، غير أن لا توالد (٨) » .

وقال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا : حدثنا يعقوب بن عبيدة ، عن يزيد بن هارون ، أخبرنى الجريرى ، عن معاوية بن قرة ، [عن أبيه] ، عن أنس بن مالك قال : لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجرى فى أخدود فى الأرض ، والله إنها لتجرى سائحة على وجه الأرض ، حافاتها قباب اللؤلؤ ، وطينها المسك الأذفر (٩) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/٥ .

(٢) تحفة الأحوذى . أبواب صفة الجنة ، باب « ماجاء فى صفة أنهار الجنة » ، الحديث ٢٦٩٠ : ٧/٢٨٧ – ٢٨٨ .

(٣) أى : تسيل .

(٤) الجوبة : الحفرة المستديرة الواسعة .

(٥) أخرجه الإمام أحمد من حديث أبى قدامة . انظر المسند : ٤/٤١٦ . وأخرجه الدارمى فى كتابه الرقائق ، باب « فى جنات الفردوس » ، الحديث ٢٨٢٥ : ٢/٤٤٠ ، عن أبى نعيم ، عن أبى قدامة بإسناده .

(٦) البخارى ، كتاب الجهاد ، باب « درجات المجاهدين فى سبيل الله » : ٤/١٩ – ٢٠ . وتحفة الأحوذى ، أبواب صفة الجنة ، باب « ماجاء فى صفة درجات الجنة » ، الحديث ٢٦٥٠ ، ٢٦٥١ : ٧/٢٣٥ – ٢٣٧ . ومسند الإمام أحمد عن أبى هريرة : ٢/٣٣٥ .

(٧) مابين القوسين من مسند الإمام أحمد : ٤/١٣ .

(٨) مسند الإمام أحمد من حديث طويل : ٤/١٤ .

(٩) أى : الجيد إلى الغاية .

وقد رواه أبو بكر ابن مَرْدُويه ، من حديث مهدى بن حكيم ، عن يزيد بن هارون ، به مرفوعا .

وقوله : (ولهم فيها من كل الثمرات) ، كقوله : (يدعون فيها بكل فاكهة آمنين(١)) . وقوله : (فيهما من كل فاكهة زوجان(٢)) .

وقوله : (ومغفرة من ربهم) ، أى : مع ذلك كله .

وقوله : (كمن هو خالد فى النار) ، [أى : أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد فى النار] ؟ ليس هؤلاء كهؤلاء أى : ليس من هو فى الدرجات كمن هو فى الدركات ، (وسقوا ماءً حميما) ، أى : حارا شديد الحر ، لا يستطاع ، (فقطع أمعاءهم) ، أى : قطع ما فى بطونهم من الأمعاء والأحشاء ، عياذا بالله من ذلك

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

يقول تعالى مخبرا عن المنافقين فى بلادتهم وقلة فهمهم ، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ويستمعون كلامه ولا يفهمون منه شيئا ، فاذا خرجوا من عنده (قالوا للذين أوتوا العلم) من الصحابة : (ماذا قال آنفا) ، أى : الساعة ، لا يعقلون ما يقال ، ولا يكترثون له .

قال الله تعالى : (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) ، أى : فلا فهم صحيح ، ولا قصد صحيح .

ثم قال : (والذين اهتدوا زادهم هُدًى) ، أى : والذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم إليها ، وثبتهم عليها وزادهم منها ، (وآتاهم تقواهم) ، أى : ألهمهم رُشْدَهم .

وقوله : (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة) ، أى : وهم غافلون عنها ، (فقد جاء أشراطها) ، أى : أمارات اقترابها ، كقوله تعالى : (هذا نذير من النذر الأولى . أزفت الآزفة(٣)) ، وكقوله : (اقتربت الساعة وانشق القمر(٤)) ، وقوله : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه(٥)) ، وقوله : (اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون(٦)) ، فبعثة

---

(١) سورة الدخان ، آية : ٥٥ .
(٢) سورة الرحمن آية : ٥٢ .
(٣) سورة النجم ، آية : ٥٦ — ٥٧ .
(٤) سورة القمر ، آية : ١ .
(٥) سورة النحل ، آية ، ١ .
(٦) سورة الأنبياء ، آية : ١ .

رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من أشراط الساعة ، لأنه خاتم الرسل الذى أكمل الله به الدين ، وأقام به الحجة على العالمين . وقد أخبر ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ بأمارات الساعة وأشراطها ، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبى قبله ، كما هو مبسوط فى موضعه .

وقال الحسن البصرى : بعثة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ من أشراط الساعة . وهو كما قال ، ولهذا جاء فى أسمائه ــ عليه السلام ــ أنه نبى التوبة ، ونبى الملحمة ، والحاشر الذى يُحشَر الناس على قدميه ، والعاقب الذى ليس بعده نبى (١) .

وقال البخارى : حدثنا أحمد بن المقدام ، حدثنا فضيل بن سليمان ، حدثنا أبو [حازم(٢)] ، حدثنا سهل بن سعد قال : رأيتُ رسولَ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال بأصبعيه هكذا ، بالوسطى والتى تليها : « بعثت أنا والساعة كهاتين (٣) »

ثم قال تعالى : (فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) ، أى : فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة ، حيث لا ينفعهم ذلك ، كقوله تعالى : (يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى)(٤) ، (وقالوا : آمنا به ، وأنى لهم التناوش من مكان بعيد)(٥) .

وقوله : (فاعلم أنه لا إله إلا الله) : هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله ، ولا يتأتى كونه آمرا بعلم ذلك ، ولهذا عطف عليه بقوله : (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) . وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى ، وإسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى . اللهم اغفر لى هَزْلى وجدّى ، وخَطَئى وعَمْدى ، وكلّ ذلك عندى)(٦) » . وفى الصحيح أنه كان يقول فى آخر الصلاة : « اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت إلهى لا إله إلا أنت (٧) » . وفى الصحيح أنه قال : « يا أيها الناس ، توبوا إلى ربكم فإنى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة (٨) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عاصم الأحول قال : سمعت عبد الله بن سَرْجس قال : أتيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأكلت معه من طعامه فقلت : غفر الله لك يا رسول الله(٩) فقلت : أستغفر لك ؟(١٠)

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن أبى موسى ، المسند : ٤/٣٩٥ ، ٤٠٤ ، ٤٠٧ . وعن حذيفة : ٥/٤٠٥ . وانظر البخارى ، تفسير سورة الصف : ٦/١٨٨ . ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب « فى أسمائه صلى الله عليه وسلم » : ٧/٨٩ - ٩٠

(٢) فى المخطوطة : « أبو رجاء » . والمثبت عن الصحيح ، وهو أبو حازم الأعرج سلمة بن دينار ، يروى عن سهل بن سعد ، انظر التهذيب : ٤/١٤٣ .

(٣) البخارى ، تفسير سورة « والنازعات » : ٦/٢٠٦ .

(٤) سورة الفجر ، آية : ٢٣ .

(٥) سورة سبأ ، آية : ٥٢ .

(٦) البخارى ، كتاب الدعوات ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : « اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت » : ٨/١٠٥ .

(٧) البخارى ، كتاب التوحيد : ٩/١٧٦ . ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب « الدعاء فى صلاة الليل وقيامه » : ٢/١٨٤ ، ١٨٥ .

(٨) البخارى ، كتاب الدعوات ، باب « استغفار النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى اليوم والليلة » : ٨/٨٣ .

(٩) فى المخطوطة بعده : « فقال صلى الله عليه وسلم : ولك » ، وهو غير ثابت فى المسند .

(١٠) فى مسلم : « استغفر لك النبى صلى الله عليه وسلم ؟ » .

فقال(١)) : « نعم ، ولكم » ، وقرأ : (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) ثم نظرت إلى نُغْض(٢) كتفه الأيمن – أو : كتفه الأيسر ، شعبة الذى شك – فإذا هو كهيئة الجُمْع (٣) عليه الثآليل .

رواه مسلم ، والترمذى ، والنسائى ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم ، من طرق ، عن عاصم الأحول . به .

وفى الحديث الآخر الذى رواه أبو يعلى : حدثنا محمد بن عون ، حدثنا عثمان بن مطر ، حدثنا عبد الغفور ، عن أبى نَصيرة ، عن أبى رجاء ، عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه – عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار ، فأكثروا منهما ، فإن إبليس قال : أهلكتُ الناس بالذنوب ، وأهلكونى بـ « لا إله إلا الله » ، والاستغفار . فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء ، فهم يحسبون أنهم مهتدون » .

وفى الأثر المروى : « قال إبليس : وعزتك [وجلالك] لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم فى أجسادهم . فقال الله عز وجل : وعزتى وجلالى ولا أزال أغفر لهم ما استغفرونى(٤) » .

والأحاديث فى فضل الاستغفار كثيرة جدا .

وقوله : (والله يعلم متقلبكم ومثواكم) ، أى : يعلم تصرفكم فى نهاركم ومستقركم فى ليلكم ، كقوله : (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار)(٥) . وكقوله : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين)(٦) . وهذا القول ذهب إليه ابن جُرَيج ، وهو اختيار ابن جرير(٧). وعن ابن عباس: متقلبكم فى الدنيا ، ومثواكم فى الآخرة .

وقال السدى : متقلبكم فى الدنيا ، ومثواكم فى قبوركم .

والأول أولى وأظهر ، والله أعلم .

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبرا عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد ، فلما فرضه الله – عز وجل – وأمر به نكل عنه كثير من الناس ، كقوله تعالى : (ألم تر إلى الذين قيل لهم : كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كُتِبَ عليهم القتال إذا

---

(١) فى المخطوطة : «فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم» . والمثبت عن المسند .

(٢) النغض – بضم النون وفتحها ، وسكون الغين – : أعلى الكتف . وقيل : العظم الرقيق الذى على طرفه .

(٣) يريد مثل جمع الكف – بضم فسكون – وهو : أن يجمع الأصابع ويضمها .

(٤) مسند الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى : ٢٩/٣ ، ٤١ ، ٧٦ .

(٥) سورة الأنعام ، آية : ٦٠ .

(٦) سورة هود ، آية : ٦ .

(٧) تفسير الطبرى : ٣٤/٢٦ .

فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ، لولا أخرتنا إلى أجل قريب ؟ قل : متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلا(١)) .

وقال هاهنا : (ويقول الذين آمنوا : لولا نزلت سورة) ، أى : مشتملة على حكم القتال ، ولهذا قال : (فإذا أنزلت سورة محكمة وذُكرَ فيها القتال ، رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت) ، أى : من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء . ثم قال مشجعا لهم : (فأولى لهم.طاعة وقول معروف) ، أى : وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا ، أى : فى الحالة الراهنة ، (فإذا عزم الأمر) ، أى : جد الحال، وحضر القتال، (فلو صدقوا الله)، أى : أخلصوا له النية ، (لكان خيرا لهم) .

وقوله : (فهل عَسَيتم إن توليتم) ، أى : عن الجهاد ونكلتم عنه ، (أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟) ، أى : تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء ، تسفكون الدماء ، وتقطعون الأرحام . ولهذا قال : (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) ، وهذا نهى عن الإفساد فى الأرض عموما ، وعن قطع الأرحام خصوصا ، بل قد أمر تعالى بالإصلاح فى الأرض وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى الأقارب فى المقال والفعال وبذل الأموال . وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من طرق عديدة ، ووجوه كثيرة .

قال البخارى : حدثنا خالد بن مَخْلَد ، حدثنا سليمان ، حدثنى معاوية بن أبى مُزَرِّد ، عن سعيد بن يَسَار ، عن أبى هريرة، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « خلق الله الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت [بحَقْو] (٢) الرحمن عز وجل ، فقال : مه ! فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة . فقال : ألا ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى . قال : فذاك . قال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم : (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) .

ثم رواه البخارى من طريقين آخرين ، عن معاوية بن أبى مُزَرِّد ، به قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرءوا إن شئتم : (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم(٣) » . ورواه مسلم من حديث معاوية بن أبى مُزَرِّد ، به(٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، [أخبرنا] عُيَيْنة بن عبد الرحمن بن جَوْشَن ، عن أبيه ، عن أبى بَكْرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مامن ذنب أحرى أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا ، مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة ، من البغى وقطيعة الرحم(٥) » .

---

(١) سورة النساء ، آية : ٧٧ .

(٢) ما بين القوسين عن البخارى . والحقو – بفتح فسكون – : معقد الإزار . والعرب تقول : « عذت بحقو فلان » : إذا استجرت به واعتصمت .

(٣) البخارى ، تفسير سورة محمد صلى الله عليه وسلم : ٦/١٦٧ – ١٦٨ .

(٤) مسلم ، كتاب البر ، باب « صلة الرحم وتحريم قطيعتها » : ٨/٧ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٥/٣٨ .

رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه ، من حديث إسماعيل — هو ابن عُلَيّة — به . وقال الترمذى : هذا حديث صحيح (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا ميمون أبو محمد المَرَئي(٢) ، حدثنا محمد بنُ عَبَّاد المخزوميّ ، عن ثوبان ، عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « من سره النَّساء(٣) فى الأجل ، والزيادة فى الرزق ، فليصل رحمه(٤) » . تفرد به أحمد ، وله شاهد فى الصحيح .

وقال أحمد أيضا : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا حَجَّاج بن أرطاة ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : جاء رجل إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : يا رسول الله ، إن لى ذوى أرحام ، أصل ويقطعون ، وأعفو ويظلمون ، وأحسن ويسيئون ، أفأكافئهم ؟ قال : « لا ، إذن تتركون جميعا ، ولكن جُدْ(٥) بالفضل وصلهم ؛ فإنه لن يزال معك ظهير من الله — عز وجل — ما كنت على ذلك(٦) » .

تفرد به من هذا الوجه ، وله شاهد من وجه آخر .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعلى ، حدثنا فطرٌ ، عن مجاهد ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إن الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل الذى إذا قُطعت رَحمه وصلها(٧) » ، رواه البخارى(٨) .

وقال أحمد : حدثنا بهز ، حدثنا حَمَّاد بن سلمة ، أخبرنا قتادة ، عن أبى ثُمَامَة الثقفى ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تُوضَعُ الرَّحِمُ يوم القيامة لها حُجْنَة كحُجْنَة(٩) المغزل ، تتكلم بلسان(١٠) طُلَقٍ ذُلَقٍ ، فتصل من وصلها وتقطع من قطعها(١١) » .

---

(١) سنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « فى النهى عن البغى » ، الحديث ٤٩٠٢ : ٤ / ٢٧٦ ، وتحفة الأحوذى ، أبواب صفة القيامة ، الحديث ٢٦٢٩ : ٧/٢١٣ — ٢١٤ ، وقال الترمذى : « هذا حديث صحيح » . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « البغى » ، الحديث ٤٢١١ : ٢/١٤٠٨ .

(٢) كذا فى المخطوطة . وفى المسند : « المزنى » . ولعله ميمون بن موسى المرئى ، المترجم فى الجرح لابن أبى حاتم : ٤/٢٣٦ ، والتهذيب : ١٠/٣٩٢ .

(٣) أى : التأخير .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٥/٢٧٩ .

(٥) فى المسند : « خذ بالفضل » .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٢/١٨١ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٢/١٦٣ .

(٨) البخارى ، كتاب الأدب ، باب « ليس الواصل بالمكافئ » : ٨/٧ .

(٩) حجنة المغزل — بضم فسكون — : صنارته ، وهى المعوجة التى فى رأسه .

(١٠) أى : فصيح بليغ . يقول ابن الأثير فى النهاية : « هكذا جاء فى الحديث على فعل بوزن صرد [يعنى بضم ففتح] ، ويقال : طلق ذلق [يعنى بفتح فكسر] ، وطلق ذلق [يعنى بضمتين] ، وطليق ذليق ، ويراد بالجميع المضاء والنفاذ » .

(١١) مسند الإمام أحمد : ٢/١٨٩ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو ، عن أبي قابوس ، عن عبد الله بن عمرو — يبلغُ به النبي صلى الله عليه وسلم — قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء ، والرحم شُجْنَةٌ[1] من الرحمن ، من وصلها وصلته ، ومن قطعها بتته[2] » .

وقد رواه أبو داود والترمذي ، من حديث سفيان بن عُيَينة ، عن عمرو بن دينار ، به . وهذا هو الذي يروى بتسلسل الأولية[3] ، وقال الترمذي : « حسن صحيح[4] » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا هشام الدستوائي ، عن يحيي بن أبي كثير ، عن إبراهيم بن عبد الله ابن قارظ : أن أباه حدثه : أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف وهو مريض ، فقال له [عبد الرحمن] : وصلتك رَحِمٌ ، إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « قال الله عز وجل : أنا الرحمن ، خلقت الرحم وشققت لها من اسمى ، فمن يصلها أصله ، ومن يقطعها أقطعه فأبته — أو قال : من يبتها أبته[5] » .

تفرد به من هذا الوجه . ورواه أحمد أيضا من حديث الزهري ، عن أبي سلمة ، عن الرداد — أو أبي الرّدّاد[6] — عن عبد الرحمن بن عوف[7] ، به . ورواه أبو داود والترمذي ، من رواية أبي سلمة ، عن أبيه . والأحاديث في هذا كثيرة[8] .

وقال الطبراني[9] : حدثنا علي بن عبد العزيز ، حدثنا محمد بن عمار الموصلي ، حدثنا عيسى بن يونس ، عن الحجاج بن يونس ، [عن] الحجاج بن الفُرَافِصَة ، عن أبي عمر البصري ، عن سلمان قال : قال رسول الله صلى الله

---

(١) أي : قرابة مشتبكة كاشتباك العروق . وأصل الشجنة : شعبة في غصن من غصون الشجرة .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/١٦٠ .

(٣) المسلسل من الحديث : ما تتابع رجال إسناده على حالة واحدة ، وهو أنواع ، منها مسلسل الأولية ، وهو ما تتابعت فيه الرواية على الكيفية التالية ، وهي أن يقول كل راو لتلميذه : حدثني فلان ، وهو أول حديث سمعته منه . ولا يشترط أن يستمر التسلسل في وسط السند ، كحديث الرحمة الذي معنا ، فقد انتهى التسلسل فيه إلى عمرو بن دينار ، وانقطعت الأولية في سماع عمرو بن دينار من أبي قابوس ، وكذلك في سماع أبي قابوس من عبد الله بن عمرو ، وسماع عبد الله بن عمرو من النبي صلى الله عليه وسلم . وعلى هذا فيكون هذا الحديث أول حديث سمعه سفيان بن عيينة من عمرو بن دينار . انظر تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي للسيوطي : ٣٨١ . وقواعد التحديث للقاسمي : ١٢٦ — ١٢٧ .

(٤) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « في الرحمة » ، الحديث ٤٩٤١ : ٤/٢٨٥ . وتحفة الأحوذي ، أبواب البر ، باب « ما جاء في رحمة الناس » ، الحديث ١٩٨٩ : ٦/٥١ — ٥٢ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١/١٩١ .

(٦) لم يرد في المسند غير « أبي الرداد » . وانظر المسند ، بتحقيق الشيخ أحمد شاكر ، الحديث ١٦٨٠ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ١/١٩٤ .

(٨) سنن أبي داود ، كتاب الزكاة ، باب « في صلة الرحم » ، الحديث ١٦٩٤ : ٢/١٣٢ . وتحفة الأحوذي ، أبواب البر ، باب « ما جاء في قطيعة الرحم » ، الحديث ١٩٧٢ : ٦/٣٣ — ٣٤ ، وقال الترمذي : « حديث سفيان عن الزهري حديث صحيح . وروى معمر عن الزهري هذا الحديث من أبي سلمة ، من رداد الليثي ، عن عبد الرحمن بن عوف — قال محمد [يعني البخاري] : وحديث معمر خطأ » .

(٩) في المخطوطة : « وقال الظهراني » . والصواب ما أثبتناه ، انظر المعجم الصغير : ٢/١٩٢ .

عليه وسلم : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف(١) » ؛

وبه قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « إذا ظهر القول ، وخزن العمل ، وائتلفت الألسنة ، وتباغضت القلوب ، وقطع كل ذى رحم رحمه ، فعند ذلك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم »

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه ، وناهيا عن الإعراض عنه ، فقال : (أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها) ؟ ، أى : بل على قلوب أقفالها ، فهى مُطْبَقَة(٢) لا يخلص إليها شيء من معانيه .

قال ابن جرير : حدثنا بشر ، [قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد قال](٣) : حدثنا حماد بن زيد، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) ؟ فقال شاب من أهل اليمن : بل عليها أقفالها حتى [يكون الله عز وجل](٤) يفتحها أو يفرجها . فما زال الشاب فى نفس عمر رضى الله عنه حتى ولى ، فاستعان به(٥) .

ثم قال تعالى : (إن الذين ارتدوا على أدبارهم) ، أى : فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر ، (من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم) ، أى : زين لهم ذلك وحسّنه ، (وأملى لهم) ، أى : غرّهم وخدعهم ، (ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله : سنطيعكم فى بعض الأمر) ، أى : مالئوهم وناصحوهم فى الباطن على الباطل ، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون ، ولهذا قال الله عز وجل : (والله يعلم إسرارهم) ، أى : ما يسرون وما يخفون ، الله مطلع عليه وعالم به ، كقوله : (والله يكتب ما يبيتون)(٥) .

ثم قال : (فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) ، أى : كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعصّت الأرواح فى أجسادهم ، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب ، كما قال : (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم)(٦) .. الآية ، وقال : (ولو ترى اذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن أبى هريرة . المسند : ٢/٢٩٥ ، ٥٢٧ .
(٢) أى : مغطاة مغشاة .
(٣) ما بين القوسين من تفسير الطبرى .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٦/٣٧ .
(٥) سورة النساء ، آية : ٨١ .
(٦) سورة الأنفال ، آية : ٥٠ .

باسطو أيديهم) ، أى : بالضرب (أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون (١)) . ولهذا قال هاهنا : (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ، فأحبط أعمالهم) .

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

يقول تعالى : (أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ؟) ، أى : اعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ؟ ! بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر ، وقد أنزل تعالى فى ذلك سورة « براءة » ، فبين فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم ، ولهذا إنما كانت تسمى الفاضحة . والأضغان : جمع ضغن ، وهو ما فى النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره .

وقوله : (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم) يقول تعالى : ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم ، فعرفتهم عيانا ، ولكن لم يفعل تعالى [ذلك] فى جميع المنافقين سترا منه على خلقه ، وحملا للأمور على ظاهر السلامة ، ورد السرائر إلى عالمها ، (ولتعرفنهم فى لحن القول) ، أى : فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم ، يفهم المتكلم من أى الحزبين هو بمعانى كلامه وفحواه ، وهو المراد من لحن القول ، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه : « ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه » . وفى الحديث : « ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر » . وقد ذكرنا ما يستدل به على نفاق الرجل ، وتكلمنا على نفاق العمل والاعتقاد فى أول « شرح البخارى » ، بما أغنى عن إعادته هاهنا . [وقد ورد فى الحديث تعيين جماعة من المنافقين] . قال الإمام أحمد :

حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن سلمة ، عن عياض بن عياض ، عن أبيه ، عن أبى مسعود عقبة بن عمرو ــ رضى الله عنه ــ قال : خطبنا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن منكم منافقين ، فمن سميت فليقم . ثم قال : قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان ــ حتى سمى ستة وثلاثين رجلا ــ ثم قال : إن فيكم ــ أو : منكم ــ فاتقوا الله » . قال : فمر عمر برجل ممن سمى مقنع قد كان يعرفه ، فقال : مالك ؟ فحدثه بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : بعداً لك سائر اليوم (٢) .

وقوله : (ولنبلونكم) ، أى : ولنختبرنكم بالأوامر والنواهى ، (حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) ، وليس فى تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب ، فالمراد : حتى نعلم وقوعه ، ولهذا يقول ابن عباس فى مثل هذا : إلا لنعلم ، أى : لنرى .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ٩٣ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/٢٧٣ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾

يخبر تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله ، وخالف الرسول وشاقه ، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى : أنه لن يضر الله شيئاً ، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها ، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذى عقّبه بردّته مثقال بعوضة من خير ، بل يحبطه ويمحقه بالكلية ، كما أن الحسنات يذهبن السيئات .

وقد قال الإمام محمد بن نصر المروزى(١) فى كتاب الصلاة : حدثنا أبو قدامة ، حدثنا وكيع ، حدثنا أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يظنون أنه لا يضر مع « لا إله إلا الله » ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل ، فنزلت : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) ، فخافوا أن يبطل الذنبُ العمل .

ثم روى من طريق عبد الله بن المبارك : أخبرنى بُكَيْر بن معروف ، عن مقاتل بن حيان ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : كنا معشر أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — نرى أنه ليس شئ من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، ولا تبطلوا أعمالكم) . فقلنا : ما هذا الذى يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش ، حتى نزلت : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ، فلما نزلت كففنا عن القول فى ذلك ، فكنا نخاف على مَنْ أصاب الكبائر والفواحش ، ونرجو لمن لم يصبها(٢) .

ثم أمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التى هى سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، ونهاهم عن الارتداد الذى هو مبطل للأعمال ، ولهذا قال : (ولا تبطلوا أعمالكم) ، أى : بالردة . ولهذا قال بعدها : (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم) ، كقوله : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء(٣)) . . . الآية .

ثم قال لعباده المؤمنين : (فلا تهنوا) ، أى : لا تضعفوا عن الأعداء ، (وتدعوا إلى السلم) ، أى : المهادنة والمسالمة ووضع القتال بينكم وبين الكفار فى حال قوتكم وكثرة عَدَدِكم وعُدَدِكُمْ ، ولهذا قال : (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون) ،

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن نصر المروزى ، كان رأساً فى الحديث والفقه والعبادة . قيل : لم يكن للشافعية فى وقته مثله ، سمع من يحيى بن يحيى ، وشيبان بن فروخ وطبقتهما . توفى فى المحرم سنة ٢٩٤ وهو فى عمر التسعين . انظر العبر للذهبى : ٢/٩٩ .

(٢) انظر الآثار الواردة فى الآية الثامنة والأربعين من سورة النساء : ٢/٢٩٠ .

(٣) سورة النساء ، آية : ٤٨ .

أى : فى حال علوكم على عدوكم ، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين ، ورأى الإمام فى المعاهدة والمهادنة مصلحة ، فله أن يفعل ذلك ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صدّه كفار قريش عن مكة ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين فأجابهم إلى ذلك .

وقوله : (والله معكم) : فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء ، (ولن يتركم أعمالكم) ، أى : ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها ، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئاً .

إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهوينا لشأنها : (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) ، أى : حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عز وجل ، ولهذا قال : (وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم) ، أى : هو غنى عنكم لا يطلب منكم شيئا ، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء ، ليعود نفع ذلك عليكم ، ويرجع ثوابه إليكم .

ثم قال : (إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا) ، أى : يحرجكم (١) تبخلوا : (ويخرج أضغانكم) .

قال قتادة : « قد علم الله أن فى إخراج الأموال إخراج الأضغان » . وصدق قتادة فإن المال محبوب ، ولا يصرفه إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه .

وقوله : (ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل) ، أى : لا يجيب إلى ذلك ، (ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه) ، أى : إنما نقص نفسه من الأجر ، وإنما يعود وبال ذلك عليه ، (والله الغنى) ، أى : عن كل ما سواه ، وكل شئ فقير [إليه] دائما . ولهذا قال : (وأنتم الفقراء) ، أى : بالذات إليه . فوصفه بالغنى وصف لازم له ، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم ، لا ينفكون عنه

وقوله : (وإن تتولوا) ، أى : عن طاعته واتباع شرعه (يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) ، أى : ولكن [يكونون] سامعين مطيعين له ولأوامره .

وقال ابن أبى حاتم ، وابن جرير : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى مسلم بن خالد ، عن العلاء ابن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية : (وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) ، قالوا : يا رسول الله ، من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ قال : فضرب بيده على كتف سلمان الفارسى ثم قال : « هذا وقومه ، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس » .

تفرد به مسلم بن خالد الزنجى ، ورواه عنه غير واحد ، وقد تكلم فيه بعض الأئمة(٢) ، والله أعلم .

آخر تفسير سورة القتال

(١) فى المخطوطة : « يحوجكم » . والمثبت عن الطبعات السابقة . ولعل الصواب : « يجهدكم » . انظر اللسان ، مادة : حفا .

(٢) قال عنه ابن معين : « ليس به بأس » ، وقال مرة : ثقة . وقال مرة : « ضعيف » . وقال الساجى : « كثير الغلط » . وقال البخارى : « منكر الحديث » . وقال أبو حاتم : « لا يحتج به » . انظر ميزان الاعتدال : ١٠٢/٤ .

تفسير سورة الفتح

وهى مدنية

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا شعبة ، عن معاوية بن قرة قال : سمعت عبد الله بن مغفل يقول : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح [فى مسيره] سورة الفتح على راحلته فرجّع (١) فيها — قال معاوية : لولا أنى أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت [لكم] قراءته (٢) ، أخرجاه من حديث شعبة به (٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من الحديبية فى ذى القعدة من سنة ست من الهجرة ، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليقضى عمرته فيه ، وحالوا بينه وبين ذلك ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتى من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكرّه من جماعة من الصحابة ، منهم عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — كما سيأتى تفصيله فى موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله : فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع ، أنزل الله عز وجل هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة ، وما آل الأمر إليه ، كما رُوى عن ابن مسعود — رضى الله عنه — وغيره أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتحَ مكة ، ونحن نعد الفتحَ صلحَ الحديبية .

وقال الأعمش ، عن أبى سفيان ، عن جابر قال : ماكنا نعدّ الفتحَ إلا يوم الحديبية (٤) .

وقال البخارى : حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن البراء قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعدّ الفتحَ بيعةَ الرضوان يوم الحديبية ، كنا معَ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أربع عشرةَ مائة ، والحديبيةُ بئر ، فنزحناها فلم نترُكْ فيها قطرة ، فبلغ ذلك رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — فأتاها فجلس على شفيرها ، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ، ثم تمضمض ودعا ، ثم صبّه فيها ، فتركناها غير بعيد ، ثم إنها أصدرَتْنَا (٥) ما شئنا نحن وركائبنا (٦) .

---

(١) الترجيع : ترديد القراءة .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/ ٢٤ . وقد أخرجه الإمام أحمد من وجه آخر عن عبد الله بن المغفل ، وفيه : « لحكيت لكم ما قال عبد الله ، يعنى ابن مغفل كيف قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، المسند : ٤/ ٨٥ — ٨٦ .

(٣) البخارى ، تفسير سورة الفتح : ٦/ ١٦٩ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « ذكر قراءة النبى صلى الله عليه وسلم سورة الفتح يوم فتح مكة » : ٢/ ١٩٣ .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٦/ ٤٤ .

(٥) أى : صرفتنا وقد روينا .

(٦) البخارى ، كتاب المغازى ، باب « غزوة الحديبية » : ٥/ ١٥٦ .

وقال الإمام أحمد: حدثنا [أبو] (١) نوح، حدثنا مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب قال: كنا مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى سفر، قال: فسألته عن شىء ــ ثلاث مرات ــ فلم يرد على، قال فقلت لنفسى: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب نَزَرْتَ (٢) رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فلم يرد عليك؟ قال: فركبت راحلتى فتقدمت مخافة أن يكون [نزل] فىّ شىء، قال: فإذا أنا بمناد [ينادى (٣)]: ياعمر، [أين عمر؟]. قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل فى شىء، قال: فقال النبى صلى الله عليه وسلم: « نزلت » علىّ الليلة سورة هى أحب إلى من الدنيا وما فيها: (إنا فتحنا لك فتحاً مبينا • ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) »(٤).

ورواه البخارى والترمذى والنسائى من طرق، عن مالك رحمه الله (٥). وقال على بن المدينى: هذا إسناد مدنى لم نجده إلا عندهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة، عن أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ قال: نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم: (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) مَرْجِعَه (٦) من الحديبية، قال النبى صلى الله عليه وسلم « لقد أنزلت على آية أحب إلى مما على الأرض »، ثم قرأها عليهم النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا: [هنيئا] مريئا يانبى الله [لقد] بين الله ــ عز وجل ــ ما [ذا] يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه (٧): (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات) حتى بلغ: (فوزا عظيما (٨)). أخرجاه فى الصحيحين من رواية قتادة به (٩).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا مجمع بن يعقوب قال: سمعت أبى يحدث عن عمه عبد الرحمن ابن يزيد الأنصارى، عن عمه مجمع بن جارية الأنصارى ــ وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن ــ قال: شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها إذا الناس يَنْفِرُونَ (١٠) الأباعر، فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ قالوا: أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرجنا مع الناس نوجِفُ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته عند كراع الغَمِيم، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم: (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً)، قال: فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أىْ رسولَ الله، وَفَتحٌ هو؟ « قال: إى والذى نفس محمد بيده، إنه لفتح ». فقسمت خيبر على أهل الحديبية

(١) ما بين القوسين من المسند. ووقع فى المسند فى سند حديث آخر: « أبو نوح قراد ».
(٢) أى: ألححت عليه فى المسألة إلحاحاً أدبك بسكوته عن جوابك؛ يقال: « فلان لا يعطى حتى ينزر »، أى: حتى يلح عليه.
(٣) ما بين القوسين عن المسند.
(٤) مسند الإمام أحمد: ١/٣١.
(٥) البخارى، كتاب فضائل القرآن، باب « فضل سورة الفتح »: ٦/٢٣٢. وتحفة الأحوذى، تفسير سورة الفتح، الحديث ٣٣١٥: ٩/١٤٧ ــ ١٤٨. وقال الترمذى: « هذا حديث حسن غريب صحيح ».
(٦) فى المسند: « مرجعنا ».
(٧) فى المسند: « عليهم ».
(٨) مسند الإمام أحمد: ٣/١٩٧.
(٩) البخارى، كتاب المغازى، باب « غزوة الحديبية »: ٥/١٦٠، ومسلم، كتاب الجهاد، باب « صلح الحديبية »: ٥/١٧٦.
(١٠) أى: يزجرون إبلهم ويدفعونها.

لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية ؛ فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم [على] ثمانية عشر سهما ، وكان الجيش ألفا وخمسمائة فارس ، فأعطى الفارس سهمين ، وأعطى الراجل سهما . (١) .

رواه أبو داود [فى الجهاد] عن محمد بن عيسى ، عن مُجَمِّع بن يعقوب ، به (٢) :

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع ، حدثنا أبو [بحر] حدثنا [شعبة] ، حدثنا جامع بن شداد ، عن عبد الرحمن بن أبي علقمة قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقول : لما أقبلنا من الحديبية أعرسنا فنمنا ، فلم نستيقظ إلا بالشمس قد طلعت ، فاستيقظنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم نائم — قال: فقلنا : « امضوا(٣) » . فاستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقال « افعلوا كما كنتم تفعلون وكذلك من(٤)نام أونسي» .قال : وفقدنا ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطلبناها فوجدناها قد تعلق خطامُها (٥) بشجرة ، فأتيته بها فركبها ، فبينا [نحن] نسير إذ أتاه الوحي ، قال : وكان إذا أتاه اشتد عليه ، فلما سرى عنه أخبرنا أنه أنزل عليه : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً (٦)) .

وقد رواه أحمد ، وأبو داود ، والنَّسائي ، من غير وجه ، عن جامع بن شداد (٧) ، به :

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان عن زياد بن علاقة قال : سمعتُ المغيرةَ بن شعبة يقول : كان النبي — صلى الله عليه وسلم — يصلي حتى تَرِمَ قدماه ، فقيل له : أليس قد غَفَرَ الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : « أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ »(٨) .

أخرجاه وبقيةُ الجماعة إلا أبا داود ،من حديث زياد ، به (٩).

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٤٢٠/٣ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الجهاد ، باب « فيمن أسهم له سهما » .

(٣) كذا فى مخطوطة الأزهر وفى تفسير الطبرى : « أيقظوه » . وفى الطبعات السابقة من تفسير ابن كثير مثله ، ويبدو أنه أخذ منه . وفى مسند الإمام أحمد : « أهضبوا ، يعنى : تكلموا » . ويقول ابن الأثير فى النهاية : « اهضبوا لكى يتنبه رسول الله ، أى : تكلموا وامضوا ، يقال : هضب فى الحديث ، وأهضب . إذا اندفع فيه : كرهوا أن يوقظوه ، فأرادوا أن يستيقظ بكلامهم » .

(٤) فى المخطوطة : « وكذلك يفعل من نام » . والمثبت عن تفسير الطبرى . ولفظ المسند : « فقال : افعلوا كما كنتم تفعلون . قال : ففعلنا . قال وقال : كذلك فافعلوا لمن نام أو نسى » .

(٥) الخطام : الزمام .

(٦) تفسير الطبرى : ٤٣/٢٦ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٤٦٤/١ . وسنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « فيمن نام عن الصلاة أو نسيها » .

(٨) مسند الإمام أحمد : ٢٥٥/٤ .

(٩) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « الصبر على محارم الله » : ١٢٤/٨ . وتفسير سورة الفتح : ١٦٩/٦ . ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب « إكثار الأعمال والاجتهاد فى العبادة » : ١٤١/٨ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الصلاة ، باب « ما جاء فى الاجتهاد فى الصلاة » ، الحديث ٤١٠ : ٢/٤٦٠ — ٤٦١ ، وقال الترمذى : « حديث المغيرة بن شعبة حديث حسن صحيح » . والنسائى ، كتاب قيام الليل : ٢١٩/٣ ، وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب « ما جاء فى طول القيام فى الصلوات » ، الحديث ١٤١٩ : ٤٥٦/١ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هارون بن معروف ، حدثنا ابن وهب ، حدثني أبو صخر ، عن ابن قُسَيط ؟ (١) ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى قام حتى تَتَفطر (٢) رجلاه ، فقالت له عائشة : يارسول الله ، أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : « يا عائشة ، أفلا أكون عبدا شكوراً (٣) ؟ » .

أخرجه مسلم فى الصحيح من رواية عبد الله بن وهب ، به (٤) .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا عبد الله بن عون الخراز ــ وكان ثقة بمكة ــ حدثنا [محمد] بن بشر حدثنا مسعر ، عن قتادة ، عن أنس، قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه ــ أو قال : ساقاه ــ فقيل له : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال : « أفلا أكون عبدا شكوراً » . غريب من هذا الوجه .

فقوله : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) ، أى: بيّناً ظاهراً ، والمراد به صلح الحديبية ، فإنه حصل بسببه خير جزيل ، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض ، وتكلم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلم النافع والإيمان .

وقوله: (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر): هذا من خصائصه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ التى لا يشاركه فيها غيره : وليس فى حديث صحيح فى ثواب الأعمال لغيره غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،وهو ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ فى جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التى لم ينلها بَشَر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين ، وهو أكمل البشر على الإطلاق ، وسيدهم فى الدنيا والآخرة . ولما كان أطوع خلق الله لله ، وأكثرهم تعظيما لأوامره ونواهيه قال حين بركت به الناقة : « حبسها حابس الفيل »، ثم قال : « والذى نفسى بيده ، لا يسألونى اليوم شيئاً يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم (٥) إليها » . فلما أطاع الله فى ذلك وأجاب إلى الصلح ، قال الله له : (إنا فتحنا لك مبينا . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك) أى فى الدنيا والآخرة (ويهديك صراطاً مستقيما) ، أى : بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم ، (وينصرك الله نصرا عزيزاً) ، أى : بسبب خضوعك لأمر الله يرفعك الله وينصرك على أعدائك ، كما جاء فى الحديث الصحيح : « وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله(٦) » . وعن عمر بن الخطاب أنه قال : « ما عاقبت ــ أى في الدنيا والآخرة ، أحداً عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيعَ الله فيه .

---

(١) فى المسند : « أبى قسيط » . والصواب ما هنا ، وهو يزيد بن عبد الله بن قسيط . انظر الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٤/٢/٢٧٣ ــ ٢٧٤ .

(٢) أى : تنشقق .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٦/١١٥ .

(٤) مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب « إكثار الأعمال والاجتهاد فى العبادة » : ٨/١٤١ ــ ١٤٢ .

(٥) البخارى ، كتاب الشروط ، باب « الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ، وكتابة الشروط » : ٣/٢٥٣ . وسنن أبى داود ، كتاب الجهاد ، باب « فى صلح العدو » . ومسند الإمام أحمد عن المسور بن مخرمة : ٤/٣٢٣ ، ٣٢٩ .

هذا والفيل هو فيل أبرهة الحبشى الذى جاء يقصد خراب الكعبة ، فحبس الله الفيل فلم يدخل الحرم ، ورد رأسه راجعاً من حيث جاء . يعنى أن الله حبس ناقة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما وصل إلى الحديبية ، فلم تتقدم ولم تدخل الحرم ، لأنه أراد أن يدخل مكة بالمسلمين .

(٦) تقدم الحديث عند تفسير الآية الأربعين من سورة الشورى ، وخرجناه هنالك . انظر : ٧/١٩٩ .

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى : (هو الذى أنزل السكينة) ، أى : جعل الطمأنينة . قاله ابن عباس ، وعنه : الرحمة(١) .

وقال قتادة : الوقار فى قلوب المؤمنين . وهم الصحابة يوم الحديبية ، الذين استجابوا لله ولرسوله ، وانقادوا لحكم الله ورسوله ، فلما أطمأنت قلوبهم بذلك ، واستقرت ، زادهم إيماناً مع إيمانهم .

وقد استدل بها البخارى وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان فى القلوب .

ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين فقال : (ولله جنود السموات والأرض)، أى : ولو أرسل عليهم ملكا واحداً لأباد خضراءهم ، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال ، لما له فى ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة ، والبراهين الدامغة ، ولهذا قال : (وكان الله عليما حكيما) ثم قال تعالى : (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها)، قد تقدم حديث أنس : « قالوا : هنيئا لك يا رسول الله ، هذا لك فما لنا ؟ فأنزل الله : (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) ، أى : ماكثين فيها أبداً ، (ويكفر عنهم سيئاتهم) أى : خطاياهم وذنوبهم ، فلا يعاقبهم عليها ، بل يعفو ويصفح ويغفر ، ويستر ويرحم ويشكر ، (وكان ذلك عند الله فوزاً عظيما) . كقوله : فمن زحزح عن النار ، وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور (٢) .

وقوله : (ويعذب المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات ، الظانين بالله ظن السوء) ، أى : يتهمون الله فى حكمه ، ويظنون بالرسول وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية ، ولهذا قال : (عليهم دائرة السوء ، وغضب الله عليهم ولعنهم) ، أى : أبعدهم من رحمته ، (وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً) .

ثم قال مؤكدا لقدرته على الانتقام من الأعداء أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين : (ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيما) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٦/٤٥ .
(٢) سورة آل عمران ، آية : ١٨٥ .

إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ : (إنا أرسلناك شاهداً) ، أى : على الخلق ، (ومبشراً) ، أى للمؤمنين ، (ونذيراً) ، أى : للكافرين . وقد تقدم تفسيرها فى « سورة الأحزاب[١] » (ليؤمنوا [٢] بالله ورسوله ويعزّرُوه) قال ابن عباس وغير واحد : يعظموه [٣] ــ (ويوقروه) ، من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام (ويسبحوه) ، أى يسبحون الله (بكرة وأصيلا) ، أى : أول النهار وآخره .

ثم قال تعالى لرسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ تشريفاً له وتعظيما وتكريماً : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) ، كقوله : (من يطع الرسول فقد أطاع الله [٤]) ، (يد الله فوق أيديهم) ، أى : هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم ، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله صلى الله عليه وسلم ، كقوله : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم) [٥] .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا الفضل [٦] بن يحيى الأنبارى ، حدثنا على بن بكار ، عن محمد ابن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سلّ سيفه فى سبيل الله ، فقد بايعَ الله » .

وحدثنا أبى ، حدثنا يحيى بن المغيرة ، أخبرنا جرير ، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيم ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحَجَر : « والله ليبعثه الله يوم القيامة له عينان ينظر بهما ، ولسان ينطق به ، ويشهد على من استلمه بالحق ، فمن استلمه فقد بايع الله » ، ثم قرأ : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم) ؛

ولهذا قال هاهنا : (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) ، أى : إنما يعود وَبَالُ ذلك على الناكث ، والله غنى عنه ؛ (ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما) ، أى : ثواباً جزيلا . وهذه البيعة هى بيعة الرضوان ، وكانت تحت شجرة سَمُر [٧]

---

(١) انظر تفسير الآية الخامسة والأربعين من سورة الأحزاب : ٦/٤٢٩ ــ ٤٣٠ .

(٢) كذا فى مخطوطة الأزهر : (ليؤمنوا) ، بالياء ، وما عطف عليه من الأفعال . ويقول أبو حيان فى البحر المحيط ٨/٩١ : «وقرأ الجمهور (لتؤمنوا) وما عطف عليه بتاء الخطاب . وأبو جعفر ، وأبو حيوة ، وابن كثير ، وأبو عمرو بياء الغيبة » .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٦/٤٧ .

(٤) سورة النساء ، آية : ٨٠ .

(٥) سورة التوبة ، آية : ١١١ .

(٦) كذا فى المخطوطة : « الفضل » . ولم نجده فى الجرح لابن أبى حاتم ، ولعله الفضيل بن يحيى ، انظر الجرح : ٣/٢/٧٦ .

(٧) السمر : شجر الطلح ، وهو شجر طوال عظام ، والواحدة سمرة ــ بفتح فضم ــ ولذلك كان يقال للمبايعين تحت الشجرة : أصحاب السمرة .

بالحديبية ، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ قيل ألف وثلثمائة . وقيل : أربعمائة . وقيل : وخمسمائة . والأوسط أصح .

ذكر الأحاديث الواردة فى ذلك

قال البخارى : حدثنا قتيبة ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن جابر قال : كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة (١) .

ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة ، به (٢) . وأخرجاه أيضاً من حديث الأعمش ، عن سالم بن أبى الجعد ، عن جابر قال : كنا يومئذ ألفا وأربعمائة ، ووضع يده فى ذلك الماء فنبع الماء من بين أصابعه ، حتى رَوَوا كلهم .

وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم — أعطاهم سهماً من كنانته فوضعوه فى بئر الحديبية ، فجاشت(٣) بالماء ، حتى كفتهم ، فقيل لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : كنا ألفا وأربعمائة ، ولو كنا مائة ألف لكفانا (٤) . وفى رواية الصحيحين عن جابر أنهم كانوا خمس عشرة مائة (٥) .

وروى البخارى من حديث قتادة قلت لسعيد بن المسيب : كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان ؟ قال : خمس عشرة مائة ؛

[قلت : فإن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : كانوا أربع عشرة مائة . قال رحمه الله : وهم ، هو حدثنى أنهم كانوا خمس عشرة مائة(٥)] .

قال البيهقى : هذه الرواية تدل على أنه كان فى القديم يقول : خمس عشرة مائة ، ثم ذكر الوهم فقال : أربع عشرة مائة ؛

وروى [العوفى] عن ابن عباس : أنهم كانوا ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين . والمشهور الذى رواه غير واحد عنه أربع عشرة مائة ، وهذا هو الذى رواه البيهقى ، عن الحاكم ، عن الأصم ، عن العباس الدورى ، عن يحيى بن معين ، عن شَبَابة ابن سوار ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبيه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ألفا وأربعمائة . وكذلك هو فى رواية سلمة بن الأكوع ومعقل بن يسار ، والبراء بن عازب . وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازى والسير . وقد أخرج صاحبا الصحيح من حديث شعبة ، عن عمرو بن مرة قال : سمعت عبد الله بن أبى أوفى يقول : كان أصحاب الشجرة ألفا وأربعمائة ، وكانت أسْلَمُ يومئذ ثُمْنَ المهاجرين(٥) .

وروى محمد بن إسحاق فى السيرة ، عن الزهرى ، عن عروة بن الزبير ، عن المسْوَر [بن مخرمة] ومَرْوان بن الحكم أنهما حدثاه قالا : خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عام الحديبية يريد زيارة البيت ، لا يريد قتالا ، وساق معه الهدى

---

(١) البخارى ، تفسير سورة الفتح : ٦/١٧٠ .

(٢) مسلم ، كتاب الإمارة ، باب « استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال ، وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة : ٦/٢٥ - ٢٦ .

(٣) أى : فارت .

(٤) البخارى ، كتاب المغازى ، باب « غزوة الحديبية » : ٥/١٥٦ - ١٥٧ ، ومسلم فى الكتاب والباب المتقدمين : ٦/٢٦ .

(٥) البخارى ، كتاب المغازى ، باب « غزوة الحديبية » : ٥/١٥٧ . ومسلم فى الكتاب والباب المتقدمين : ٦/٢٦ .

سبعين بدنة ، وكان الناس سبعمائة رجل ، كل بدنة عن عشرة نفر ، وكان جابر بن عبد الله فيما بلغني عنه يقول : كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة (١).

كذا قال ابن اسحاق وهو معدود من أوهامه ، فإن المحفوظ فى الصحيحين أنهم كانوا بضع عشرة مائة .

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة

قال محمد بن إسحاق بن يسار فى السيرة : ثم دعا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة ، ليبلغ عنه أشراف قريش ماجاء له ، فقال : يارسول الله ، إنى أخاف قريشا على نفسى ، وليس بمكة من بنى عدىّ بن كعب من يمنعنى ، وقد عرفت قريش عداوتى إياها ، وغلظتى (٢) عليها ، ولكنى أدلك على رجل أعزّ بها منى ، عثمان بن عفان ، فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش ، يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ، ومعظماً لحرمته .

فخرج عثمان إلى مكة ، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة ، أو قبل أن يدخلها ، فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى بلّغ رسالة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلغهم عن رسول الله ماأرسله به ، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطُفْ . فقال : ماكنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم . واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن عثمان قد قُتِل

قال ابن إسحاق : فحدثنى عبد الله بن أبى بكر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين بلغه أن عثمان قد قتل : « لانبرح حتى نناجز القوم » ؛ ودعا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الناسَ إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت . وكان جابر بن عبد الله يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبايعهم على الموت ، ولكن بايعنا على أن لانفر .

فبايع الناس ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجدّ بن قيس أخو بنى سلمة ، فكان جابر يقول : والله لكأنى أنظر إليه لاصقا بإبط ناقته ، قد ضبأ (٣) إليها يستتر بها من الناس ، ثم أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن الذى كان من أمر عثمان باطل (٤) .

وذكر ابن لهيعة ، عن الأسود ، عن عروة بن الزبير قريبا من هذا السياق ، وزاد فى سياقه : أن قريشا بعثوا وعندهم عثمان سهيلَ بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزّى ، ومكرز بن حفص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينا هم عندهم إذ وقع كلام بين بعض المسلمين وبعض المشركين ، وتراموا بالنّبْل والحجارة ، وصاح الفريقان كلاهما ، وارتهن كل من الفريقين مَنْ عنده من الرسل ، ونادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [وأمر] بالبيعة ، فاخرجوا على اسم الله فبايعوا . فسار المسلمون إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو تحت الشجرة ، فبايعوه على أن لايفروا أبدا ، فأرعب ذلك المشركين ، وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين ، ودعوا إلى الموادعة والصلح

---

(١) سيرة ابن هشام : ٢/٣٠٨ ــ ٣٠٩ .
(٢) فى السيرة : « وغلظتى » .
(٣) أى : لزق بالأرض يستتر بها .
(٤) سيرة ابن هشام : ٢/٣١٥ ــ ٣١٦ .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان ، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار ، حدثنا تمتام(١)، حدثنا الحسن بن بشر ، حدثنا الحكم بن عبد الملك ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك قال : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رسولَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة ، فبايع الناس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله » . فضرب بإحدى يديه على الأخرى ، فكانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان خيرا من أيديهم لأنفسهم .

قال ابن هشام : وحدثني من أثق به عمن حدثه بإسناد له ، عن ابن أبي مليكة ، عن ابن عمر [قال] : بايع [رسول الله صلى الله عليه وسلم] لعثمان ، فضرب بإحدى يديه على الأخرى

وقال عبد الملك بن هشام النحوي : فذكر وكيع ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن الشعبي : أن أول من بايع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بيعة الرضوان أبو سنَان الأسدي (٢) .

وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي : حدثنا سفيان ، حدثنا ابن أبي خالد ، عن الشعبي قال : لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة ، كان أول من انتهى إليه أبو سنان ، فقال : ابسط يدك أبايعك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « علام تبايعني ؟ » . فقال أبو سنان : على ما في نفسك . هذا أبو سنان وَهبُ الأسدي .

وقال البخاري : حدثنا شجاع بن الوليد سمع النضر بن محمد : حدثنا صخر (٣) ، عن نافع قال : إن الناس يتحدثونَ أن ابن عُمَر أسلم قبل عُمَر ، وليس كذلك ، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبدَ الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار أن يأتي (٤) به ليقاتل عليه ، ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — يبايع عند الشجرة ، وعمر لايدري بذلك ، فبايعه عبد الله ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر ، وعمر يستلئم(٥) للقتال ، فأخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يُبَايع تحت الشجرة ، فانطلق فذهب معه حتى بايع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وهي التي يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر (٦) :

ثم قال البخاري : وقال هشام بن عمار : حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا عُمَر بن محمد العُمَري ، أخبرني نافع ، عن ابن عمر : أن الناس كانوا مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — [يوم (٧) الحديبية] قد تفرقوا في ظلال الشجر ، فاذا الناس مُحدقونَ بالنبي — صلى الله عليه وسلم — فقال — يعني عمر — : ياعبد الله ، انظر ماشأن الناس قد أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم . فوجدهم يبايعون ، فبايع ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع (٦) .

وقد أسنده البيهقي عن أبي عمرو (٨) الأديب ، عن أبي بكر الإسماعيلي ، عن الحسن بن سفيان ، عن دحيم : حدثني الوليد بن مسلم ، فذكره .

---

(١) في المخطوطة : « تمام » . وتمتام هو أبو جعفر محمد بن غالب الضبي البصري . وانظر تذكرة الحفاظ : ٦١٥/٢ ، ٨٧٦/٢ .

(٢) سيرة ابن هشام : ٣١٦/٢ .

(٣) في المخطوطة « صخر بن الربيع » . و « بن الربيع » غير ثابت في الصحيح . ولم نجد في الرجال من يدعى « صخر ابن الربيع » .

(٤) كلمة « أن » غير ثابتة في الصحيح .

(٥) أي : يلبس ما عنده من عدة الحرب .

(٦) البخاري ، كتاب المغازي ، باب « غزوة الحديبية » : ٥/ ١٦٣ .

(٧) ما بين القوسين عن البخاري .

(٨) في المخطوطة : « عن ابن عمرو » . وفي الطبعات السابقة : « عن أبي عمرو » . وقد ورد هذا السند في دلائل النبوة ، تحقيق الأستاذ سيد صقر ١/ ١٩٠ ، وفيه : « أبو عمر محمد بن عبد الله الأديب » .

وقال الليث ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة فبايعناه ، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سَمُرة ، وقال : بايعناه على أن لا نفر ، ولم نبايعه على الموت . رواه مسلم ، عن قتيبة ، عنه (١) .

وروى مسلم عن يحيى بن يحيى ، عن يزيد بن زُرَيع ، عن خالد ، عن الحكم بن عبد الله [بن] الأعرج ، عن معقل ابن يَسَار قال : لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبايع الناس ، وأنا رافع غصنا من أغصانها عن رأسه ، ونحن أربع عشرة مائة ، قال : ولم نبايعه على الموت ، ولكن بايعناه على أن لا نفر (٢) .

وقال البخاري : حدثنا المكي بن إبراهيم ، عن يزيد بن أبي عبيد ، عن سلمة بن الأكوع قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ـ قال يزيد : قلت : ياأبا مسلم ، على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال : على الموت (٣) .

وقال البخاري أيضا : حدثنا أبو عاصم ، حدثنا يزيد بن أبي عُبَيد ، عن سَلَمة قال : بايعت رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم الحديبية ثم تنحيت ، فقال : « ياسلمة ألا تبايع ؟ » قلت : قد بايعت . قال : « أقبل فبايع » . فدنوت فبايعته ، قلت : علام بايعته ياسلمة ؟ قال : على الموت (٤) .

وأخرجه مسلم من وجه آخر عن يزيد بن أبي عبيد (٥) . وكذا روى البخاري عن عباد بن تميم : أنهم بايعوه على الموت .

وقال البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو الفضل بن إبراهيم ، حدثنا أحمد بن سلمة ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا أبو عامر العَقَدي عبد الملك بن عمرو ، حدثنا عكرمة بن عمار اليمامي ، عن إياس بن سلمة ، عن أبيه سلمة ابن الأكوع قال : قدمنا الحديبية مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونحن أربعَ عشرةَ مائة ، وعليها خمسون شاة لاتُرْوِيها ، فقعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على جَبَاها ـ يعني الرَّكِي ـ (٦) فإما دعا وإما بَصَق فيها ، فجاشت فسقينا واستقينا ، قال : ثم إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعا إلى البيعة في أصل الشجرة ، فبايعتُه أول الناس ، ثم بايع وبايع ، حتى إذا كان في وسط الناس [قال صلى الله عليه وسلم : « بايعني ياسلمة » . قال : قلت : يارسول الله ، قد بايعتك في أول الناس] . قال : « وأيضا » . قال : ورآني رسول الله صلى الله عليه وسلم عَزِلا (٧) فأعطاني حَجَفَة (٨) ـ أو دَرَقَة ـ ثم بايع حتى إذا كان في آخر الناس قال صلى الله عليه وسلم : « ألا تبايع ياسلمة ؟ » . قال : قلت : يارسول الله ، قد بايعتك في أول الناس وأوسطهم . قال : « وأيضا » . فبايعته الثالثة ، فقال : « ياسلمة ، أين حَجَفَتك أو دَرَقتك التي أعطيتك ؟ » . قال : قلت : يارسول الله ، لقيني عامر عَزِلا فأعطيتها إياه : فضحك رسول الله ـ صلى الله

(١) مسلم ، كتاب الإمارة ، باب « استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال ... » : ٦/٢٥ .
(٢) مسلم ، في الكتاب والباب المتقدمين : ٦/٢٦ .
(٣) البخاري ، كتاب الجهاد ، باب « البيعة في الحرب أن لا يفروا » : ٤/٦١ .
(٤) انظر البخاري ، كتاب الأحكام ، باب « من بايع مرتين » : ٩/٩٨ .
(٥) مسلم ، كتاب الإمارة ، باب « استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال ... » : ٦/٢٧ .
(٦) الركي : البئر ، وجباها : ما حولها .
(٧) أي : ليس معه سلاح .
(٨) الحجفة : الترس الصغير يطارق بين جلدين . والدرقة : نوع من التروس .

عليه وسلم — ثم قال : « إنك كالذى قال الأول : اللهم أبغنى حبيبا هو أحب (١) إلى من نفسى » . قال : ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا فى الصلح حتى مشى بعضنا فى بعض فاصطلحنا . قال : وكنت خادما لطلحة بن عُبَيد الله — رضى الله عنه — أسقى فرسه وأَحُسُّهُ (٢) وآكل من طعامه ، وتركت أهلى ومالى مُهَاجِراً إلى الله ورسوله . فلما اصطلحنا نحن وأهلُ مكة ، واختلط بعضنا ببعض ، أتيت شجرة فَكَسَحْتُ (٣) شوكها ، ثم اضطجعت فى أصلها فى ظلها ، فأتانى أربعة من مشركى أهل مكة ، فجعلوا يقعون فى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأبغضتهم ، وتحولت إلى شجرة أخرى فَعلَّقوا سلاحهم واضطجعوا ، فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل الوادى : ياللمهاجرين ، قُتل ابن زُنَيم . فاخترطت سيفى (٤) فشددت على أولئك الأربعة وهم رقود ، فأخذت سلاحهم وجعلته ضِغْثاً (٥) فى يدى ، ثم قلت : والذى كرّم وجهَ محمد — صلى الله عليه وسلم — لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذى فيه عيناه . قال : ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وجاء عمى عامر برجُل من العَبَلات (٦) يقال له « مِكْرَز » من المشركين يقوده ، حتى وقفنا بهم على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى سبعين من المشركين ، فنظر إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « دعوهم يكن لهم بَدْءُ الفجور وثِنَاه (٧) » . فعفا عنهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأنزل الله : (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) . . . الآية .

وهكذا رواه مسلم عن إسحاق بن ابراهيم بن راهَوَيه بسنده نحوه ، أو قريبا منه (٨) .

وثبت فى الصحيحين من حديث أبى عوانة ، عن طارق ، عن سعيد بن المسيّب قال : كان أبى ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة — قال : فانطلقنا من قابل حاجين ، فخفى علينا مكانها ، فإن كان تَبَيَّنَتْ (٩) لكم فأنتم أعلم (١٠) .

وقال أبو بكر الحميدى : حدثنا سفيان ، حدثنا أبو الزبير ، حدثنا جابر قال : لما دعا رسول الله صلى — الله عليه وسلم — الناس إلى البيعة ، وجدنا رجلا منا يقال له « الجَدّ بن قيس » مختبئاً تحت إبط بعيره .

رواه مسلم من حديث ابن جُرَيج ، عن ابن الزبير ، به (١١) .

---

(١) أى : أعنى على طلب حبيب . يشير رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن سلمة رجح عمه على نفسه ، حيث أعطاه سلاحه مع احتياجه إليه ، وفيه من مدح سلمة ونعته بالإيثار ما لا يخفى .

(٢) فى المخطوطة : « وأجنبه » . والمثبت عن مسلم ، ومعنى « أحسه » : أزيل عنه التراب بالمحسة .

(٣) أى : كنسته .

(٤) أى : سللته .

(٥) الضغث : الحزمة ، يريد أنه أخذ سلاحهم وجمع بعضه إلى بعض ، حتى جعله فى يده حزمة .

(٦) العبلات : بطن من قريش ، من بنى عبد شمس بن عبد مناف .

(٧) أى : أوله وآخره . والثنى — بكسر الثاء والقصر — : الأمر يعاد مرتين .

(٨) مسلم ، كتاب الجهاد ، باب « غزوة ذى قرد وغيرها » : ٥/١٨٩ — ١٩١ .

(٩) فى المخطوطة : « كان ثبت » . والمثبت عن مسلم .

(١٠) مسلم ، كتاب الإمارة ، باب « استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال ... » : ٦/٢٧ . والبخارى كتاب المغازى ، باب « غزوة الحديبية » : ٥/١٥٩ .

(١١) مسلم فى الكتاب والباب المتقدمين : ٦/ ٢٥ .

وقال الحميدى أيضاً : حدثنا سفيان ، عن عمرو سمع جابراً قال : كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . « أنتم خير أهل الأرض اليوم » . قال جابر : لو كنت أبصرُ لأريتكم موضع الشجرة . قال سفيان : إنهم اختلفوا فى موضعها . أخرجاه من حديث سفيان (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس ، حدثنا الليث ، عن أبى الزبير ، عن جابر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة »(٢) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن هارون الفلاس المخرمى ، حدثنا سَعيدُ بن عمرو الأشعثى ، حدثنا محمد بن ثابت العبدى ،عن خداش بن عياش ، عن أبى الزبير ، عن جابر قال: قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: « يدخل من بايع تحت الشجرة كلهم الجنة إلا صاحبُ الجمل الأحمر » . قال : فانطلقنا نبتدره فإذا رجل قد أضل بعيره ، فقلنا : تعال فبايع . فقال : أصيبُ بعيرى أحبّ إلى من أن أبايع .

وقال عبد الله بن أحمد : حدثنا عبيدالله بن معاذ ، حدثنا أبى ، حدثنا قُرّة ، عن أبى الزبير ، عن جابر ، عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه قال : « من يصعد الثنية ثَنيّة المُرَار (٣) فإنه يُحَطّ عنه ماحُطّ عن بنى إسرائيل » . فكان أول من صَعدخيل بنى الخزرج ، ثم تبادر الناس بعد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر » . فقلنا : تعال يستغفر لك رسول الله . فقال : والله لأن أجد ضالّتى أحبّ إلى من أن يستغفر لى صاحبكم . فإذا هو رجل يَنْشُدُ ضالة . رواه مسلم عن عُبَيد الله ، به (٤) .

وقال ابن جُرَيج : أخبرنى أبو الزبير ، أنه سمع جابراً يقول : أخبرتنى أم مبشر أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند حفصة : « لا يدخل النار ــ إن شاء الله ــ من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد » : قالت : بلى يارسول الله . فانتهرها فقالت لحفصة : (وإن منكم إلا واردها) ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : قد قال الله : (ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) . رواه مسلم (٥) . .

وفيه أيضاً عن قتيبة ، عن الليث ، عن أبى الزبير ، عن جابر : أن عبداً لحاطب بن أبى بلتعة جاء يشكو حاطبا ، فقال : يارسول الله ، ليدخلن حاطب النار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كذبت : لا يدخلها ، فإنه قد شهد بدرا والحديبية (٦) » .

ولهذا قال تعالى فى الثناء عليهم : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما) ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم مافى قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحاً قريباً) (٧) .

---

(١) مسلم والبخارى فى الكتاب والباب المتقدمين ، انظر مسلم : ٦/٢٦ . والبخارى : ٥/١٥٧ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٣/٣٥٠ .
(٣) ثنية المرار : موضع بين مكة والمدينة .
(٤) مسلم ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم : ٨/١٢٣ .
(٥) مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب « من فضائل أصحاب الشجرة » : ٧/١٦٩ .
(٦) مسلم ، فى الكتاب السابق ، باب من فضائل أهل بدر ــ رضى الله عنهم ــ وقصة حاطب بن أبى بلتعة : « ٧/١٦٩ » .
(٧) آية : ١٨ من هذه السورة .

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى مخبرا رسوله – صلوات الله وسلامه عليه – بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المُقام فى أهليهم وشغلهم ، وتركوا المسير مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فاعتذروا بشغلهم بذلك ، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد ، بل على وجه التقية والمصانعة ، ولهذا قال تعالى : (يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، قل : فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا) ، أى : لا يقدر أحد أن يرد ما أراده فيكم تعالى وتقدس ، وهو العليم بسرائركم وضمائركم ، وإن صانعتمونا وتابعتمونا . ولهذا قال : (بل كان الله بما تعملون خبيرا) .

ثم قال : (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا) ، أى : لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص ، بل تخلف نفاق ، (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا) ، أى : اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم ، وتستباد خضراؤهم ، ولا يرجع منهم مخبر ، (وظننتم ظن السوء ، وكنتم قوما بورا) ، أى : هلكى . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد . وقال قتادة : فاسدين (١) . وقيل : هى بلغة عمان .

ثم قال : (ومن لم يؤمن بالله ورسوله) ، أى : من لم يخلص العمل فى الظاهر والباطن لله فإن الله تعالى سيعذبه فى السعير ، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه فى نفس الأمر .

ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف فى أهل السموات والأرض : (يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ، وكان الله غفورا رحيما) ، أى : لمن تاب إليه وأناب ، وخضع لديه .

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عن الأعراب الذين تخلفوا عن النبى – صلى الله عليه وسلم – فى غزوة الحديبية ، إذ ذهب النبى – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه إلى خيبر يفتتحونها : أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم ، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم ، فأمر الله رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن لا يأذن لهم فى ذلك ، معاقبة لهم من جنس ذنبهم ، فإن الله

(١) تفسير الطبرى : ٢٦/٤٩ .

تعالى وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين ، فلا يقع غير ذلك شرعا وقدرا ، ولهذا قال : (يريدون أن يبدلوا كلام الله) – قال مجاهد ، وقتادة ، وجويبر : وهو الوعد الذى وعد به أهل الحديبية . واختاره ابن جرير (١) .

وقال ابن زيد : هو قوله : (فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج ، فقل : لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين(٢)) .

وهذا الذى قاله ابن زيد فيه نظر ؛ لأن هذه الآية التى فى « براءة » نزلت فى غزوة تبوك ، وهى متأخرة عن غزوة الحديبية .

وقال ابن جريج : (يريدون أن يبدلوا كلام الله) ، يعنى بتثبيطهم المسلمين عن الجهاد .

(قل : لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل) ، أى : وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم ، (فسيقولون : بل تحسدوننا) ، أى : أن نشركهم فى المغانم ، (بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا) ، أى : ليس الأمر كما زعموا ، ولكن لا فهم لهم .

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

اختلف المفسرون فى هؤلاء القوم الذين يُدْعَون إليهم ، الذين هم أولو بأس شديد ، على أقوال :

أحدها : أنهم هَوَازِن . رواه شعبة عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير – أو عكرمة ، أو جميعا – ورواه هشيم عن أبى بشر ، عنهما . وبه يقول قتادة فى رواية عنه .

الثانى : ثقيف ، قاله الضحاك .

الثالث : بنو حنيفة ، قاله جويبر . ورواه محمد بن إسحاق ، عن الزهرى . ورُوى مثله عن سعيد وعكرمة .

الرابع : هم أهل فارس . رواه على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، وبه يقول عطاء ، ومجاهد ، وعكرمة – فى إحدى الروايات عنه .

وقال كعب الأحبار : هم الروم . وعن ابن أبى ليلى ، وعطاء ، والحسن ، وقتادة : هم فارس والروم . وعن مجاهد : هم اهل الأوثان . وعنه أيضا : هم رجال أولو بأس شديد ، ولم يعين فرقة . وبه يقول ابن جريج ، وهو اختيار ابن جرير .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الأشج ، حدثنا عبد الرحمن بن الحسن القواريرى ، عن معمر ، عن الزهرى فى قوله : (ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد) ، قال : لم يأت أولئك بعد .

(١) تفسير الطبرى : ٢٦/ ٥٠ – ٥١ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٦/ ٥٢ .

وحدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان ، عن ابن أبي خالد ، عن أبيه ، عن أبي هريرة في قوله : (ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد) ، قال : هم البارزون .

قال : وحدثنا سفيان ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما صغار الأعين ذُلْفَ الآنفُ (١) ، كأن وجوههم المجان المطرقة (٢) » . قال سفيان : هم الترك .

قال ابن أبي عمر : وجدت في مكان آخر : ابن أبي خالد عن أبيه قال : نزل علينا أبو هريرة ففسر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تقاتلون قوماً نعالهم الشعر » ، قال : هم البارزون ، يعني : الأكراد .

وقوله : (تقاتلونهم أو يسلمون) ، يعني يشرع لكم جهادهم وقتالهم ، فلا يزال ذلك مستمرا عليهم ، ولكم النصرة عليهم ، أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار .

ثم قال : (فإن تطيعوا) ، أي : تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه ، (يؤتكم الله أجرا حسنا ، وإن تتولوا كما توليتم من قبل) ، يعني زمن الحديبية حيث دعيتم فتخلفتم ، (يعذبكم عذابا أليما) .

ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد ، فمنها لازم كالعمى والعرَج المستمر ، وعارض كالمرض الذي يطرأ أياما ثم يزول ، فهو في حال مرضه مُلحَقٌ بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ .

ثم قال تعالى مرغبا في الجهاد وطاعة الله ورسوله : (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومن يتول) ، أي : ينكلُ عن الجهاد ، ويُقبِل على المعاش (يعذبه عذابا أليما) ، في الدنيا بالمذلة ، وفي الآخرة بالنار .

* لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تحت الشجرة ، وقد تقدم ذكر عدتهم وأنهم كانوا ألفا وأربعمائة ، وأن الشجرة كانت سَمُرةً بأرض الحديبية .

قال البخاري : حدثنا محمود ، حدثنا عبيد الله ، عن إسرائيل ، عن طارق بن (٣) عبد الرحمن قال : انطلقت حاجا فمررت بقوم يصلون ، فقلت : ما هذا المسجد ؟ قالوا : هذه الشجرة ، حيث بايع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بيعة الرضوان . فأتيتُ سعيدَ بن المسيب فأخبرته ، فقال سعيد : حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تحت الشجرة . قال : فلما خرجنا من العام المقبل نَسيناها فلم نَقدِرْ عليها ، فقال سعيد : إن أصحاب محمد – صلى الله عليه وسلم – لم يعلموها وَعَلِمتموها أنتم ، فأنتم أعلم (٤) .

---

(١) الذلف – بفتحتين – : قصر الأنف وانبطاحه ، وقيل : ارتفاع طرفه مع صغر أرنبته . والذلف – بضم فسكون – : جمع أذلف ، كأحمر وحمر . والآنف : جمع قلة للأنف ، وضع موضع جمع الكثرة .

(٢) تقدم تفسير هذه الكلمة في : ٥/٣٧٠ .

(٣) في المخطوطة : «طارق أبي عبد الرحمن» . والمثبت عن البخاري .

(٤) البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية : ٦/١٥٨ – ١٥٩ .

وقوله : (فعلم مافى قلوبهم) ، أى : من الصدق والوفاء ، والسمع والطاعة ، (فأنزل السكينة) ، وهى الطمأنينة ، (عليهم وأثابهم فتحا قريبا) ، وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم ، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة ، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم ، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة فى الدنيا والآخرة ، ولهذا قال : (ومغانم كثيرة يأخذونها ، وكان الله عزيزا حكيما) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، أخبرنا موسى – يعنى ابن عبيدة – حدثنى إياس بن سلمة ، عن أبيه قال : بينما نحن قائلون (١) إذ نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيها الناس ، البيعةَ البيعةَ ، نزل روح القدس ، قال : فثُرنا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو تحت شجرة سَمُرة فبايعناه ، فذلك قول الله تعالى : (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) ، فبايع لعثمان بإحدى يديه على الأخرى ، فقال الناس : هنيئا لابن عفان ، يطوف بالبيت ونحن هاهنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو مكث كذا كذا سنةً ما طاف حتى أطوف » .

وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

قال مجاهد فى قوله : (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها) ، هى جميع المغانم إلى اليوم ، (فعجل لكم هذه) ، يعنى فتح خيبر .

وروى العوفى عن ابن عباس : (فعَجَّل لكم هذه) ، يعنى صلح الحديبية (٢) .

(وكف أيدى الناس عنكم) ، أى : لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال : وكذلك كف أيدى الناس الذين خلفتموهم وراء أظهركم عن عيالكم وحريمكم ، (ولتكون آية للمؤمنين) ، أى : يعتبرون بذلك ، فإن الله حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء ، مع قلة عددهم ، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور ، وأن الخِيرةَ فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه فى الظاهر ، كما قال : (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم (٣)) .

(ويهديكم صراطا مستقيما) ، أى : بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته ، وموافقتكم رسوله .

---

(١) القيلولة : الاستراحة فى وسط النهار .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٦/٥٦ .

(٣) سورة البقرة ، آية ٢١٦ .

وقوله : (وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها ، وكان الله على كل شيء قديرا) ، أي : وغنيمة أخرى وفتحا آخر معينا لم تكونوا تقدرون عليها ، قد يسَّرها الله عليكم ، وأحاط بها لكم ، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون .

وقد اختلف المفسرون فى هذه الغنيمة ، ما المراد بها ؟ فقال العوفى عن ابن عباس : هى خيبر . وهذا على قوله فى قوله تعالى : (فعجل لكم هذه) : إنها صلح الحديبية . وقاله الضحاك ، وابن إسحاق ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقال قتادة : هى مكة . واختاره ابن جرير (١) .

وقال ابن أبى ليلى ، والحسن البصرى : هى فارس والروم .

وقال مجاهد : هى كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا شعبة ، عن سماك الحنفى ، عن ابن عباس : (وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها) ، قال : هذه الفتوح التى تفتح إلى اليوم .

وقوله : (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ، ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا) يقول تعالى : مبشرا لعباده المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم ، ولانهزم جيش الكفار فارا مدبرا لا يجدون وليا ولا نصيرا ، لأنهم محاربون لله و لرسوله ولحزبه المؤمنين .

ثم قال : (سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) ، أى : هذه سنة الله وعادته فى خلقه ، ما تقابل الكفر والإيمان فى موطن فيصل إلا نصر الله الإيمان على الكفر ، فرفع الحق ووضع الباطل ، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين ، مع قلة عدد المسلمين وعُدَدهم ، وكثرة المشركين وعُدَدهم .

وقوله : (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ، وكان الله بما تعملون بصيرا) : هذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كف أيدى المشركين عنهم ، فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكفّ أيدى المؤمنين من المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، بل صان كلاً من الفريقين ، وأوجد بينهم صلحا فيه خِيَرَةٌ للمؤمنين ، وعاقبة لهم فى الدنيا والآخرة . وقد تقدم فى حديث سلمة بن الأكوع حين جاءوا بأولئك السبعين الأسارى فأوثقوهم بين يدى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فنظر إليهم وقال : « أرسلوهم يكن لهم بدء الفجور وثِنَاه (٢) » . قال : وفى ذلك أنزل الله : (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم) ... الآية .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا حماد ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك قال : لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة فى السلاح من قبل جبل التنعيم يريدون غِرّة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فدعا عليهم فأخذوا — قال عفان : فعفا عنهم — ونزلت هذه الآية : (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة ، من بعد أن أظفركم عليهم(٣)) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٦/٥٨ .
(٢) انظر : ٧/٣١٧ .
(٣) انظر مسند الإمام أحمد : ٣/١٢٢ ، ١٢٤ — ١٢٥ ، ٢٩٠ .

ورواه مسلم وأبو داود فى سننه ، والترمذى والنسائى فى التفسير من سننيهما ، من طرق ، عن حماد بن سلمة ، به (١) .

وقال أحمد أيضا : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا الحسين بن واقد ، حدثنا ثابت البُنَانى ، عن عبد الله بن مغفل المزنى قال : كنا مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى أصل الشجرة التى قال الله تعالى فى القرآن ، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى بن أبى طالب ، وسهيل بن عمرو بين يديه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى : « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم » . فأخذ سهيل بيده وقال : ما نعرف الرحمن الرحيم (٢) . اكتب فى قضيتنا ما نعرف . قال : « اكتب باسمك اللهم » . وكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة » . فأمسك سهيل ابن عمرو بيده وقال : لقد ظلمناك إن كنت رسوله ، اكتب فى قضيتنا ما نعرف . فقال : « اكتب هذا ما صالح عليه محمد ابن عبد الله » . فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح ، فثاروا فى وجوهنا ، فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ الله بأسماعهم(٣) ، فقمنا إليهم فأخذناهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل جئتم فى عهد أحد ؟ أو : هل جعل لكم أحد أمانا ؟ » . فقالوا : لا . فخلى سبيلهم ، فأنزل الله : (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا (٤)) . رواه النسائى من حديث حسين بن واقد ، به .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب القُمّى ، حدثنا جعفر ، عن ابن أبزى قال : لما خرج النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالهدى وانتهى إلى ذى الحليفة قال له عمر : يا نبى الله ، تدخل على قوم لك حَرْب بغير سلاح ولا كُرَاع (٥) ؟ قال : فبعث إلى المدينة ، فلم يدع فيها كُرَاعا ولا سلاحا إلا حمله ، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل ، فسار حتى أتى منى ، فنزل بمنى [فأتاه عينه (٦)] أن عكرمة بن أبى جهل قد خرج عليك فى خمسمائة ، فقال لخالد بن الوليد : « يا خالد ، هذا ابن عمك أتاك فى الخيل » . فقال خالد : أنا سيف الله ، وسيف رسوله ــ فيومئذ سمى سيف الله ــ يا رسول الله ، ارم بى أين شئت . فبعثه على خيل ، فلقى عكرمة فى الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، ثم عاد فى الثانية فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، ثم عاد فى الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، ، فأنزل الله : (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة) [إلى] (عذابا أليما) . قال : فكف الله النبى عنهم من بعد أن أظفره عليهم [لبقايا] من المسلمين كانوا [بقوا] فيها كراهية أن تطأهم الخيل (٧) .

ورواه ابن أبى حاتم عن ابن أبزى بنحوه . وهذا السياق فيه نظر ؛ فإنه لا يجوز أن يكون عام الحديبية ، لأن خالداً لم يكن أسلم ، بل قد كان طليعة المشركين يومئذ ، كما ثبت فى الصحيح . ولا يجوز أن يكون [فى عمرة القضاء] لأنهم قاضوه على ان

---

(١) مسلم ، كتاب الجهاد ، باب قول الله تعالى : (وهو الذى كف أيديهم عنكم) : ٥/١٩٥ - ١٩٦ . وسنن أبى داود ، كتاب الجهاد ، باب « فى المن على الأسير بغير فداء » . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة الفتح ، الحديث ٣٣١٧ : ٩/١٤٩ - ١٥٠ . وقال الترمذى : « حسن صحيح » .

(٢) فى المسند : « ما نعرف بسم الله الرحمن الرحيم » .

(٣) فى المسند : « بأبصارهم » .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٤/٨٦ - ٨٧ .

(٥) الكراع : الخيل .

(٦) العين هنا : من يتتبع أخبار العدو .

(٧) تفسير الطبرى : ٢٦/٥٩ - ٦٠ .

يأتى من العام المقبل فيعتمر ويقيم بمكة ثلاثة أيام ، فلما قدم لم يمانعوه ولا حاربوه ولا قاتلوه . فإن قيل : فيكون يوم الفتح ؟ فالجواب : ولا يجوز أن يكون يوم الفتح ، لأنه لم يسق عام الفتح هَدياً وإنما جاء محاربا مقاتلا فى جيش عَرَمْرَم ، فهذا السياق فيه خلل ، وقد وقع فيه شئ فليتأمل ، والله أعلم .

وقال ابن إسحاق : حدثنى من لا أتهم ، عن عكرمة مولى ابن عباس : أن قريشا بعثوا أربعين رجلا منهم أو خمسين ، وأمروهم أن يُطيفوا بعسكر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليصيبوا من أصحابه أحداً ، فأخِذُوا أخذاً ، فَأُتى بهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فعفا عنهم وخلى سبيلهم ، وقد كانوا رَمَوْا إلى عسكر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالحجارة والنبل . قال ابن إسحاق : وفى ذلك أنزل الله : (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم) ... الآية (١) ؛

وقال قتادة : ذُكِرَ لنا أن رجلا يقال له : « ابن زُنَيم » اطلع على الثنية من الحديبية ، فرماه المشركون بسهم فقتلوه ، فبعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خيلا فأتوه باثنى عشر فارسا من الكفار ، فقال لهم : « هل لكم على عهد ؟ هل لكم على ذمة ؟ » قالوا : لا . فأرسلهم ، وأنزل الله فى ذلك : (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم) ... الآية (١) .

هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مخبرا عن الكفار من مشركى العرب من قريش ومن مالأهم على نصرتهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هم الذين كفروا) ، أى : هم الكفار دون غيرهم ، (وصدوكم عن المسجد الحرام) ، أى : وأنتم أحق به ، وأنتم أهله فى نفس الأمر ، (والهدى معكوفا أن يبلغ محله) ، أى : وصدوا الهدى أن يصل إلى محله ، وهذا من [بغيهم] وعنادهم ، وكان الهدىُ سبعين بدنة كما سيأتى بيانه .

وقوله : (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات) ، أى : بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم ، لكنا سلَّطناكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضْراءهم ، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل ، ولهذا قال : (لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرة) ، أى : إثم وغرامة (بغير علم ، ليدخل الله فى رحمته من يشاء) ، أى : يؤخر عقوبتهم ليخلِّص من بين أظهرهم المؤمنين ، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام .

ثم قال : (لو تزيلوا) ، أى : لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم (لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) ، أى : لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلا ذريعا .

---

(١) تفسير الطبرى : ٥٩/٢٦ . وسيرة ابن هشام : ٣١٤/٢ .

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا أبو الزنباع — روح بن الفرج ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي عباد المكي ، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله أبو سعيد(١) — مولى بني هاشم — حدثنا حجر بن خلف : سمعت عبدالله بن عوف(٢) يقول : سمعت جُنَيْدَ بن سَبُع يقول : قاتلت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أول النهار كافرا وقاتلت معه آخر النهار مسلما ، وفينا نزلت : (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات) . قال : كنا تسعة نفر : سبعة رجال وامرأتين .

ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن عباد المكي به ، وقال فيه : عن أبي جمعة جُنَيد بن سبع :.. فذكره ، والصواب أبو جعفر : حبيب بن سباع (٣) : ورواه ابن أبي حاتم من حديث حجر بن خلف ، به . وقال : كنا ثلاثة رجال وتسع نسوة ، وفينا نزلت : (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات)

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن جَبَلَة ، عن أبي حمزة ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) ، يقول : لو تزيل الكفار من المؤمنين ، لعذبهم الله عذابا أليما بقتلهم إياهم .

وقوله : (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) ، وذلك حين أبوا أن يكتبوا « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وأبوا أن يكتبوا : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » ، (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى) ، وهي قول « لا إله إلا الله » ، كما قال ابن جرير ، وعبد الله بن الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن قَزَعة أبو علي البصري ، حدثنا سفيان بن حبيب ، حدثنا شعبة ، عن ثُوَيْر (٤) ، عن أبيه ، عن الطفيل — يعني ابن أُبَيّ بن كعب — عن أبيه : سمع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : (وألزمهم كلمة التقوى) ، قال : « لا إله إلا الله (٥) » .

وكذا رواه الترمذي عن الحسن بن قزعة ، وقال : « غريب لا نعرفه إلا من حديثه ، وسألت أبا زرعة عنه فلم يعرفه إلا من هذا الوجه (٦) » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن منصور الرمادي ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثني الليث ، حدثني عبد الرحمن ابن خالد ، عن ابن شهاب ، عن سعيد بن المسيب : أن أبا هريرة أخبره : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا « لا إله إلا الله » ، فمن قال « لا إله إلا الله » فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه ، وحسابه على الله » ، وأنزل الله في كتابه ، وذكر قوما فقال : (إنهم كانوا إذا قيل لهم : لا إله إلا الله ، يستكبرون) . وقال الله جل ثناؤه : (وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها) ، وهي : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ، فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية ، وكاتبهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على قضية المدة .

---

(١) في المخطوطة : « بن سعيد » . والمثبت عن الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٢/٢/٢٥٤ ، وأسد الغابة : ١/٣٥٧ .
(٢) في المخطوطة : « عبد الله بن عمر » . والمثبت عن الجرح والتعديل ، ترجمة حبيب بن سباع : ١/٢/١٠٢ ، وأسد الغابة لابن الأثير : ١/٣٥٧ ، بتحقيقنا ، ومسند الإمام أحمد : ٤/١٠٦ .
(٣) أنظر أسد الغابة : ١/٣٥٦ — ٣٥٧ ، ٣٦٥ ، ٤٤٤ .
(٤) في تفسير الطبري : « عن ثور » . وهو خطأ ، والصواب ما هنا ، انظر الخلاصة .
(٥) تفسير الطبري : ٢٦/٦٦ . ومسند الإمام أحمد : ٥/١٣٨ .
(٦) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة الفتح ، الحديث ٣٣١٨ : ٩/١٥٠ — ١٥١ .

وكذا رواه بهذه الزيادات ابن جرير(١) من حديث الزهرى) . والظاهر أنها مُدرَجة من كلام الزهرى ، والله أعلم .

وقال مجاهد : (كلمة التقوى) : الإخلاص . وقال عطاء بن أبى رباح : هى لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شئ قدير .

وقال يونس بن بكير ، عن ابن إسحاق ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن المسور : (وألزمهم كلمة التقوى) ، قال : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له .

وقال الثورى ، عن سلمة بن كهيل ، عن عبَايَة بن ربعى ، عن على : (وألزمهم كلمة التقوى) ، قال : لا إله إلا الله، والله أكبر . وكذا قال : [ابن عمر رضى الله عنهما .

وقال] على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله : (وألزمهم كلمة التقوى) ، قال : يقول : شهادة أن لا إله إلا الله ، وهى رأس كل تقوى .

وقال سعيد بن جبير : (وألزمهم كلمة التقوى) ، قال : لا إله إلا الله ، والجهاد فى سبيله .

وقال عطاء الخراسانى : هى لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن معمر ، عن الزهرى : (وألزمهم كلمة التقوى) ، قال : بسم الله الرحمن الرحيم .

وقال قتادة : (وألزمهم كلمة التقوى) ، قال : لا إله إلا الله .

(وكانوا أحق بها وأهلها) ، كان المسلمون أحق بها [وكانوا] أهلها .

[(وكان الله بكل شئ عليما) ، أى : هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر] (٢) .

وقد قال النسائى : حدثنا إبراهيم بن سعيد ، حدثنا شبابة بن سوار ، عن أبى رَزين ، عن عبد الله بن العلاء بن زَبْر ، عن بُسْر بن عُبَيد الله ، عن أبى إدريس ، عن أبىّ بن كعب أنه كان يقرأ : (إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) ، ولو حميتم كما حموا لفسد المسجد الحرام . فبلغ ذلك عمر فأغلظ له ، فقال : إنك لتعلم أنى كنت أدخل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيعلمنى مما علمه الله . فقال عمر : بل أنت رجل عندك علم وقرآن ، فاقرأ وعلم مما علمك الله ورسوله .

(وهذا ذكر الأحاديث الواردة فى قصة الحديبية وقضية الصلح)

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا محمد بن إسحاق بن يسَار ، عن الزهرى ، عن عروة بن الزبير ، عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومَرْوان بن الحكم قالا : خرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – [عام الحديبية](٣) يريد زيارة البيت لا يريد قتالا ، وساق معه الهَدْى سبعين بَدَنة ، وكان الناسُ سبعمائة رجل ، فكانت كل بَدَنة عن عشرة ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بعُسْفان لقيه بشر بن سفيان الكعبى ، فقال : يارسول الله ، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العوذ المطافيل(٤) ، قد لبست جلود النمور ، يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم عَنوة(٥) أبداً ، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٦/٦٦ .

(٢) ما بين القوسين وقع فى مخطوطة الأزهر بعد حديث النسائى الآتى .

(٣) ما بين القوسين عن المسند .

(٤) أى : الإبل معها أولادها . والعوذ فى الأصل : جمع عائذ ، وهى الناقة إذا وضعت ، وبعد ما تضع حتى يقوى أولادها . والمطفل : الناقة القريبة العهد بالنتاج معها طفلها ، يريد أنهم جاءوا بأجمعهم ، كبارهم وصغارهم .

(٥) أى : قهرا وغلبة .

قد قدّموه إلى كُرَاع الغَمِيم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « ياويح قريش ! قد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر الناس ؟ فإن أصابوني كان الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله دخلوا فى الإسلام وهم وافرون ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فماذا تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذى بعثنى الله به حتى يظهرنى الله أو تنفرد هذه السالفة » . ثم أمر الناس فسلكوا ذات اليمين بين ظهرى الحمض على طريق تخرجه على ثنية المرار والحديبية من أسفل مكة — قال : فسلك بالجيش تلك الطريق ، فلما رأت خيل قريش قَتَرَة الجيش قد خالفوا عن طريقهم ، ركضوا راجعين إلى قريش فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم — حتى إذا سلك ثنية المرار ، بركت ناقته ، فقال الناس : خلأت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما خلأت ، وما ذلك(١) لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، والله لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم ، إلا أعطيتهم إياها » . قال للناس : « انزلوا » . قالوا : يارسول الله ، ما بالوادى من ماء ينزل عليه الناس . فأخرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سهماً من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه ، فنزل فى قَلِيب من تلك القُلُب ، فغرزه فيه فجاش بالماء (٢) حتى ضرب الناس عنه بعَطَن . فلما اطمأن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا بُدَيل بن ورقاء فى رجال من خزاعة ، فقال لهم كقوله لبشر بن سفيان ، فرجعوا إلى قريش فقالوا : يامعشر قريش ، إنكم تعجلون على محمد ، وإن محمداً لم يأت لقتال ، إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه ، فاتهموهم .

قال محمد بن إسحاق : قال الزهرى : كانت خزاعة فى عَيْبة فى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مشركها ومسلمها ، لا يخفون على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — شيئاً كان بمكة ، فقالوا : وإن كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلها (٣) أبداً علينا عَنوة ، ولا يتحدث بذلك العرب . ثم بعثوا إليه مكْرَز بن حفص (٤) أحد بنى عامر بن لؤى ، فلما رآه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « هذا رجل غادر » . فلما انتهى إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كلمه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بنحو مما كلّم به أصحابه ، ثم رجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ؛ فبعثوا إليه الحليس بن علقمة الكنانى ، وهو يومئذ سيد الأحابيش ، فلما رآه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « هذا من قوم يتألهون(٥) ، فابعثوا الهَدْى [فى وجهه ، فبعثوا الهدى(٦)] فلما رأى الهدى يسيل عليه من عُرْض الوادى فى قلائده قد أكل أوتاره (٧) من طول الحبس عن محله ، رجع ولم يصل إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إعظاماً لما رأى ، فقال : يامعشر قريش ، قد رأيت مالا يحل صَدّه ، الهدى فى قلائده قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله . قالوا : اجلس ، إنما أنت أعرابى لا علم لك . فبعثوا [إليه] عروة بن مسعود الثقفى ، فقال : يامعشر قريش ، إنى قد رأيت ما يلقى منكم من تبعثون إلى محمد إذا جاءكم ، من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد ، وقد سمعت بالذى نابكم ، فجمعت من أطاعنى من قومى ، ثم جئت حتى

---

(١) فى المسند : « وما هو لها » .
(٢) فى المسند : « فجاش الماء بالرواء » . وجاش : فار .
(٣) فى المسند : « فلا والله لا يدخلها » .
(٤) فى المسند : « حفص بن الأخيف » .
(٥) فى المخطوطة : « قوم يباهلون » . والمثبت عن المسند .
(٦) ما بين القوسين عن المسند .
(٧) الأوتار : جمع وتر — بفتحتين — وهو وتر القوس .

آسيتكم بنفسي . قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم . فخرج حتى أتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فجلس بين يديه ، فقال : يامحمد ، جمعت أوباش الناس ، ثم جئت بهم لبيضتك لتفضَّها (١) ، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله أن لاتدخلها عليهم عنوة أبدا ، وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا . قال : وأبو بكر قاعد خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : امصص بَظْر اللات (٢) ! أنحن لنكشف عنه ؟ ! قال : من هذا يامحمد ؟ قال : « هذا ابن أبي قُحافة » . قال : أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها ، ولكن هذه بها . ثم تناول لحية رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في الحديد (٣) ، قال : فقرع يده(٤) . ثم قال : أمسك يدك عن لحية رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قبل — والله — لاتصل إليك(٥) . قال : ويحك ! ما أفظعك وأغلظك ! فتبسم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : من هذا يامحمد ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة » . قال : أغُدَرُ ، وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس ؟ ! قال : فكلمه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بمثل ماكلم به أصحابه ، وأخبره أنه لم يأت يريد حربا . قال : فقام من عند رسول الله وقد رأى مايصنع به أصحابه ، لايتوضأ وضوءا إلا ابتدروه ، ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه . فرجع إلى قريش فقال : يامعشر قريش ، إني جئت كسرى في ملكه ، وجئت قيصر والنجاشي في ملكهما ، والله مارأيت ملكا قط مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوما لايسلمونه لشيء أبدا ، فَرَوا رأيكم . قال : وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك قد بعث خراش بن أمية الخزاعي إلى مكة ، وحمله على جمل له يقال له « الثعلب » ، فلما دخل مكة عقرت به قريش ، وأرادوا قتل خراش ، فمنعتهم الأحابيش حتى أتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فدعا عمر ليبعثه إلى مكة ، فقال : يارسول الله ، إني أخاف قريشا على نفسي ، وليس بها من بني عدي أحد يمنعني . وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها ، ولكن أدلك على رجل هو أعز مني : عثمان بن عفان. قال : فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم [فبعثه إلى قريش] يخبرهم أنه لم يأت لحرب أحد(٦) ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت ، معظما لحرمته . فخرج عثمان حتى أتى مكة ، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص ، فنزل عن دابته وحمله بين يديه وردف خلفه ، وأجاره حتى بلّغ رسالة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلّغهم عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ماأرسله به ، فقالوا لعثمان : إن شئت أن تطوف بالبيت فطُفْ به . فقال : ماكنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله قال : واحتبسته قريش عندها ، قال : وبلغ رسول الله أن عثمان قد قتل .

قال محمد : فحدثني الزهري : أن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو (٧) وقالوا : ائت محمداً فصالحه ولايكون في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تتحدثُ العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً . فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) أي : تكسرها . والمراد بالبيضة هنا : الأهل والعشيرة ، والكلام على سبيل التمثيل .
(٢) البظر : ما تقطعه القابلة من فرج المرأة عند الختان .
(٣) في المخطوطة : « بالحديد » . والمثبت عن المسند .
(٤) في المسند : « يقرع يده » . وقرع يده : ضربها .
(٥) في المخطوطة : « إليه » . والمثبت عن المسند .
(٦) كلمة « أحد » غير ثابتة في المسند .
(٧) بعده في المسند : « أحد بني عامر بن لؤي » .

قال : « قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل » . فلما انتهى إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ تكلما وأطالا الكلام، وتراجعا حتى جرى بينهما الصلح ، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب ، وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال : ياأبا بكر ، أوليس برسول الله ؟ أولسنا بالمسلمين؟ أوليسوا بالمشركين؟ قال : بلى . قال: فعلام نعطى الذلة فى ديننا ؟ فقال أبو بكر : [ياعمر] (١) ، الزم غرزه (٢) حيث كان فإنى أشهد أنه رسول الله . قال عمر : وأنا أشهد . ثم أتى رسول الله فقال : يارسول الله ، أولسنا بالمسلمين أوليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى» . قال: فعلام نعطى الذلة فى ديننا؟ فقال: «أنا عبدالله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعنى » . ثم قال عمر : مازلت أصوم وأصلى وأتصدق وأعتق من الذى صنعت مخافة كلامى الذى تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرا . قال : ثم دعا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على بن أبى طالب فقال: اكتب: « بسم الله الرحمن الرحيم». [فقال سهيل بن عمرو] : ولا أعرف هذا ، ولكن اكتب : « باسمك اللهم . فقال رسول الله: « اكتب باسمك اللهم ، هذا ما صلح عليه محمد رسول الله [سهيل بن عمرو] » ، فقال سهيل بن عمرو: ولو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب هذا ما اصطلح(٣) عليه محمد بن عبد الله، وسهيل بن عمرو ، على وضع الحرب عشر سنين ، يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى رسول الله من أصحابه بغير إذن وليه ، رده عليهم ، ومن أتى قريشاً ممن مع رسول الله لم يردوه عليه ، وأن بيننا عيبة مكفوفة(٤) ، وأنه لا أسلال ولا أغلال ، وكان فى شرطهم حين كتبوا الكتاب: أنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده ، دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم . دخل فيه . فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن فى عقد رسول الله وعهده . وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن فى عقد قريش وعهدهم . وأنك ترجع عنا عامنا هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك ، وأقمت بها(٥) ثلاثاً معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف فى القرب ، فبينا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يكتب الكتاب ، إذ جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو فى الحديد قد انفلت إلى رسول الله ، قال: وقد كان أصحاب رسول الله خرجوا وهم لا يشكون فى الفتح ، لرؤيا رآها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع ، وما تحمل رسول الله على نفسه ، دخل الناس من ذلك أمر عظيم ، حتى كادوا أن يهلكوا . فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وقال: يامحمد ، قد لجت(٦) القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال: « صدقت» . فقام إليه فأخذ بتلابيبه ــ قال: وصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يامعاشر المسلمين ، أتردوننى إلى أهل الشرك فيفتنونى فى دينى؟ قال: فزاد الناس شرا إلى ما بهم ، فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « يا أبا جندل [اصبر] واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا فأعطيناهم على ذلك وأعطونا [عليه] عهدا ، وإنا لن نغدر

---

(١) ما بين القوسين عن المسند .

(٢) الغرز ــ بفتح فسكون ــ : ركاب كور الجمل إذا كان من جلد أو خشب . والمعنى : اعتلق به وأمسكه ، واتبع قوله وفعله ، ولا تخالفه ، فاستعار له الغرز ، كالذى يمسك بركاب الراكب . ويسير بسيره .

(٣) فى المخطوطة : «صالح» . والمثبت عن المسند .

(٤) العيبة فى الأصل : مستودع الثياب . والمكفوفة : المشدودة على ما فيها . أى : بينهم صدر نقى من الغل والخداع ، مطوى على الوفاء بالصلح .

(٥) فى المسند : « وأقمت فيهم » .

(٦) فى المخطوطة : « تمت القضية » . والمثبت عن المسند ، وفى النهاية لابن الأثير : « أى : وجبت » .

بهم » . قال : فوثب إليه عمر بن الخطاب فجعل يمشى مع جندل إلى جنبه و [هو] يقول : اصبر أبا جندل ، فانما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب . قال : ويدنى قائم السيف منه ، قال : يقول : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه قال : فضن الرجل بأبيه . قال : ونفذت القضية ، فلما فرغا من الكتاب ، وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يصلى فى الحرم ، وهو مضطرب فى الحل ، قال : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يأيها الناس ، انحروا واحلقوا » ، قال : فما قام أحد . قال : ثم عاد بمثلها ، فما قام رجل [حتى عاد صلى الله عليه وسلم بمثلها ، فما قام رجل] .

فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على أم سلمة فقال : « يا أم سلمة ، ما شأن الناس ؟ » : قالت : يارسول الله قد دخلهم ما رأيت ، فلا تُكَلِّمَنَّ منهم إنساناً ، واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك فخرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لايكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره ، ثم جلس فحلق ، قال : فقام الناس ينحرون ويحلقون . قال : حتى إذا كان بين مكة والمدينة فى وسط الطريق نزلت سورة الفتح .

هكذا ساقه أحمد(١) من هذا الوجه،وهكذا رواه يونس بن بكير وزياد البكائى عن ابن إسحاق بنحوه(٢) وفيه إغراب وقد رواه أيضاً عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهرى ، به نحوه(٣) وخالفه فى أشياء وقد رواه البخارى رحمه الله فى صحيحه ، فساقه سياقة حسنة مطولة بزيادات جيدة ، فقال فى كتاب الشروط من صحيحه :

حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر : أخبرنى الزهرى : أخبرنى عروة بن الزبير ، عن المِسْوَر بن مخرمة ومَرْوان بن الحكم ، يصدّق كل واحد منهما حديث صاحبه ، قالا : خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — زَمَنَ الحديبية [فى بضع(٤) عشرة مائة من أصحابه ، فلما أتى ذا الحليفة قلّدالهدى وأشعره(٥) ، وأحرم منها بعُمْرة وبعث عيناً له من خزاعة ، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط (٦) أتاه عينه فقال : إن قريشاً قد جَمّعوا لك جموعاً ، وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك . فقال : « أشيروا أيها الناس علىّ ، أترون أن نميل على عيالهم . وذرارىّ هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ؟ » — وفى لفظ : « أترون أن نميل على ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم . [فان يأتونا كان الله قد قطع عُنُقًا من المشركين وإلا تركناهم محزونين » : وفى لفظ] (٧) « فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محرُوبين (٨) وإن [نجوا] (٧) يكن عُنُقًا قطعها الله،أم تَرَون أن نَؤمّ البيت فمن صدّنا عنه قاتلناه ؟ » . فقال أبو بكر : يارسول الله ، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرباً ، فتوجه له، فمن

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٢٣/٤ — ٣٢٦ .

(٢) انظر سيرة ابن هشام : ٣١٦/٢ — ٣١٩ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣٢٨/٤ — ٣٣١ .

(٤) من هنا غير ثابت فى صحيح البخارى ، وهو فى مسند الإمام أحمد : ٣٢٨/٤ . مع خلاف غير يسير .

(٥) أشعار الهدى : أن يشق أحد جانبى سنام البدنة حتى يسيل دمها ، ويجعل ذلك لها علامة يعرف بها أنها هدى . وتقليد الهدى : أن يجعل فى عنقها ما يعلم به أنها هدى .

(٦) غدير الأشطاط : موضع قريب من عسفان . وعسفان على مرحلتين من مكة .

(٧) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة .

(٨) أى : مسلوبين منهوبين .

صدنا عنه قاتلناه ــ وفى لفظ فقال أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ: الله ورسوله علم إنما جئنا معتمرين ، ولم نجيء لقتال أحد، ولكن مَن حال بيننا وبين البيت قاتلناه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « فروحوا إذن » ــ وفى لفظ : « فامضوا على اسم الله(١) »] .

حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن خالد بن الوليد فى خيل لقريش طليعة ، فخذوا ذات اليمين». فوالله ماشعر بهم خالد حتى إذا هم بقتَرَة(٢) الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى إذا كان بالثنية التى يُهبَطُ عليهم منها، بَرَكت به راحلته، فقال الناس: « حَلْ حَلْ »(٣)، « فَألَحَّت، فقالوا: «خلأت(٤) القصواء ، خلأت القصواء » فقال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « ما خلأت القصواء ، وماذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل». ثم قال: « والذى نفسى بيده، لايسألونى خُطَّة يعظمون فيها حرمات الله ، إلا أعطيتهم إياها » . ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحُدَيبية على ثَمَدٍ (٥) قليل الماء يتبرّضه(٦) الناس تَبَرُّضاً ، فلم يلبث الناس حتى نزحوه، وشُكى إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ العطش، فانتزع من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش . لهم بالرّى حتى صدروا عنه . فبينما هم كذلك إذ جاء بُدَيْل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من قومه من خزاعة ، وكانوا عَيْبَة نصح رسول الله من أهل تهامة ، فقال : إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى ، نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العُوذ المطافيل ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنا لم نجيء لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشا قد نَهِكَتْهُم الحرب فأضرت بهم ، فإن شاءوا ماددتهم مُدَّة ويُخَلُّوا بينى وبين الناس ، فإن أظهر ، فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد جَمُّوا (٧) ، وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ، ولينفذن الله أمره » . قال بُدَيل : سأبلغهم ما تقول . فانطلق حتى أتى قريشا فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل ، وسمعناه يقول قولا ، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا . فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشئ . وقال : ذوو الرأى منهم : هات ما سمعته يقول . قال : سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، فقام عروة بن مسعود فقال : أىْ قوم ، ألستم بالوالد ؟ قالوا : بلى . قال : أولست بالولد ؟ قالوا : بلى . قال : فهل تتهمونى ؟ قالوا : لا . قال: ألستم تعلمون أنى استَنْفَرْتُ أهل عكاظ ، فلما بَلَّحوا(٨) علىّ جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى ؟ قالوا : بلى . قال : فإن هذا قد عَرَض عليكم خُطَّة رُشْد فاقبلوها ودعونى آته. قالوا : ائته . فأتاه فجعل يكلم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، فقال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ له : نحوا من قوله لبُدَيل بن ورقاء . فقال عروة عند ذلك : أىْ محمد ، أرأيت إن استأصلت أمر قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك ؟ وإن تك الأخرى فإنى والله لأرى وجوها ، وإنى لأرى أشوابا(٩) من

---

(١) إلى هنا ينتهى ما أثبت عن مسند الإمام أحمد .
(٢) القترة ــ بحركات ــ : غبرة الجيش .
(٣) حل حل : زجر للإبل .
(٤) الخلاء للنوق : مثل الحران للدواب ، والمعنى أنها امتنعت على صاحبها .
(٥) الثمد ــ بفتحتين ــ : الماء القليل .
(٦) أى : يأخذونه قليلا قليلا . والبرض ــ بفتح فسكون ــ : الشيء القليل .
(٧) أى : استراحوا من جهد الحرب .
(٨) أى : عجزوا .
(٩) أى : أخلاطا وأنواعا .

الناس خليقا أن يفروا ويدعوك . فقال له أبو بكر رضى الله عنه : امصص بظر اللات ! أنحن نفر وندعه ؟! قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر . قال : أما والذى نفسى بيده لولا يد [كانت] لك عندى لم أجزك بها ، لأجبتك . قال : وجعل يكلم النبى — صلى الله عليه وسلم — فكلما كلمه أخذ بلحيته ، والمغيرة بن شعبة رضى الله عنه قائم على رأس النبى — صلى الله عليه وسلم — ومعه السيف وعليه المغفر (١) فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبى — صلى الله عليه وسلم — ضرب يده بنعل السيف ، وقال له : أخر يدك عن لحية النبى صلى الله عليه وسلم . فرفع عروة رأسه وقال : من هذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة . فقال : أى غدر ، ألست أسعى فى غدرتك ؟ ! وكان المغيرة بن شعبة صحب قوما فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم . فقال : النبى — صلى الله عليه وسلم — : « أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه فى شئ » . ثم إن عروة جعل يرمق [أصحاب] النبى — صلى الله عليه وسلم — بعينيه ، قال : فوالله ما تنخم رسول الله نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم ، فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم (٢) خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون النظر إليه ، تعظيا له صلى الله عليه وسلم . فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أى قوم ، والله لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشى ، والله إن رأيت (٣) ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً ، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم ، فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون النظر إليه تعظيا له . وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها . فقال رجل منهم من بنى كنانة : دعونى آته . فقالوا : ائته . فلما أشرف على النبى — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه قال النبى — صلى الله عليه وسلم — : « هذا فلان ، وهو من قوم يعظمون البدن ، فابعثوها له » . فبعثت له ، واستقبله الناس يلبون ، فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ! ماينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت . فلما رجع إلى أصحابه قال : رأيت البدن قد قلدت وأشعرت (٤) ، فما أرى أن يصدوا عن البيت . فقال رجل منهم يقال له : « مكرز بن حفص » ، فقال : دعونى آته . فقالوا : ائته . فلما أشرف عليهم قال النبى — صلى الله عليه وسلم — : « هذا مكرز ، وهو رجل فاجر » . فجعل يكلم النبى — صلى الله عليه وسلم — فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو .

وقال معمر : أخبرنى أيوب ، عن عكرمة أنه قال : لما جاء سهيل بن عمرو قال النبى — صلى الله عليه وسلم — : « قد سهل لكم من أمركم » .

قال معمر : قال الزهرى فى حديثه : فجاء سهيل بن عمرو فقال : هات اكتب بيننا وبينك كتابا . فدعا النبى — صلى الله عليه وسلم — الكاتب ، فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — : بسم الله الرحمن الرحيم » . فقال سهيل : أما « الرحمن » فوالله ما أدرى ما هو ، ولكن اكتب : « باسمك اللهم » ، كما كنت تكتب . فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا : « بسم الله الرحمن الرحيم » . فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — : « اكتب : « باسمك اللهم » . ثم قال : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » . فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : « محمد بن عبد الله » . فقال النبى — صلى

---

(١) المغفر : ما يلبسه الدارع على رأسه من الزرد .

(٢) فى إحدى نسخ الصحيح : « تكلموا » .

(٣) أى : ما رأيت .

(٤) مضى تفسير هذه الكلمة من قريب .

الله عليه وسلم ـ : « والله إنى لرسول الله وإن كذبتمونى . اكتب محمد بن عبد الله » . قال الزهرى : وذلك لقوله : « والله لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها». فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به . فقال : سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضُغْطَةً(١) ، ولكن ذلك من العام المقبل . فكتب ، فقال سهيل : وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا . فقال المسلمون : سبحان الله ! كيف يُرَدّ إلى المشركين وقد جاء مسلما؟! فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسُفُ(٢) فى قيوده ، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فقال سهيل: هذا يامحمد أول من أقاضيك عليه أن تَرُدّه إلىّ . فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إنا لم نَقْضِ الكتاب بعد » . قال : فوالله إذاً لا أصالحك على شىء أبدا . فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « فأجِزْه(٣) لى » . فقال : ما أنا بمجيز ذلك لك : قال : « بلى فافعل » . قال : ما أنا بفاعل . قال مكْرَز : بلى قد أجزناه لك . قال أبو جندل : أى معشر المسلمين ، أُرَدّ إلى المشركين وقد جئت مسلما ؟ ألا ترون ما قد لقيت ؟ ! وكان قد عُذِّب عذابا شديدا فى الله عز وجل . قال عمر رضى الله عنه : فأتيت نبى ـ الله صلى الله عليه وسلم ـ فقلتُ: ألستَ نبى الله حقا ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « بلى » . قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : « بلى » . قلت : فلم نعطى الدنية فى ديننا إذاً ؟ قال : إنى رسول الله ، ولستُ أعصيه ، وهو ناصرىّ . قلت : أولست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : « بلى ، أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟ » . قلت : لا . قال : فإنك آتيه ومُطَّوِّف به . قال : فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر ، أليس هذا نبىّ الله حقا؟ قال : بلى . قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطى الدنية فى ديننا إذا؟ قال : أيها الرجل ، إنه رسول الله ، وليس يعصى ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بغَرْزه ، فوالله إنه على الحق . قلت : أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : بلى . قال: أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قلت: لا . قال : فإنك تأتيه وتطوف به .

قال الزهرى : قال عمر : فعملت لذلك أعمالا . قال : فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه : « قوموا فانحروا ثم احلقوا » . قال : فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات ! ! فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة ، فذكر لها مالقى من الناس ، قالت له أم سلمة : يا نبى الله ، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعوَ حالقك فيحلقك . فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك ، نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يَحلقُ بعضا ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما ، ثم جاءه نسوة مؤمنات ، فأنزل الله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا ، إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات) حتى بلغ : (بعِصَمِ الكوافر) . فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك ، فتزوج إحداهما معاوية بن أبى سفيان ، والأخرى صفوان بن أمية . ثم رجع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة فجاءه أبو بصير ـ رجل من قريش ـ وهو مسلم ، فأرسلوا فى طلبه رجلين ، فقالوا : العهدَ الذى جعلت لنا ، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة ، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إنى لأرى

---

(١) أى : قهراً .
(٢) أى : يمشى مشى المقيد .
(٣) أى : أعطه لى .

سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستلّه الآخر، فقال: أجل! والله إنه لجيد، لقد جرّبت منه ثم جربت. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه. فأمكنه منه فضربه حتى برَد[١] وفرّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين رآه: « لقد رأى هذا ذُعْراً ». فلما انتهى إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: قُتِل والله صاحبي، وإني لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يارسول الله، قد ـ والله ـ أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم نجاني الله منهم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: « ويل أمّه مِسْعَرُ حَرْب[٢]! لو كان له أحد ». فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سِيْفَ[٣] البحر، قال: وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بَصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بِعِيرٍ خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم، وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تناشده الله والرحِمَ لمّا أرسل إليهم[٤]: « فمن أتاه منهم فهو آمن »؛ فأرسل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليهم وأنزل الله عز وجل: (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة) حتى بلغ: (حمية الجاهلية)، وكانت حميتهم أنهم لم يُقرّوا أنه رسول الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت.

هكذا ساقه البخارى هاهنا[٥]، وقد أخرجه فى التفسير، وفى عُمْرة الحديبية، وفى الحج، وغير ذلك من حديث معمر وسفيان بن عيينة، كلاهما عن الزهرى، به. ووقع فى بعض الأماكن عن الزهرى، عن عروة، عن مروان والمسور، عن رجال من أصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك. وهذا أشبه والله أعلم، ولم يسقه أبسط من هنا، وبينه وبين سياق ابن إسحاق تباين فى مواضع، وهناك فوائد ينبغى إضافتها إلى ما هاهنا، ولذلك سقنا تلك الرواية وهذه، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وقال البخارى فى التفسير: حدثنا أحمد بن إسحاق السُّلَمى، حدثنا يعلى، حدثنا عبد العزيز بن سِيَاه، عن حبيب بن أبى ثابت قال: أتيت أبا وائل أسأله فقال: كنا بصفين فقال رجل: ألم تر إلى الذين يُدْعَون إلى كتاب الله؟ فقال على ابن أبى طالب: نعم. فقال سهل بن حُنَيف: اتّهِموا أنفسكم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية ـ يعنى الصلح الذى كان بين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمشركين، ولو نرى قتالا لقاتلنا، فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار؟ فقال: بلى. قال: ففيم نُعطى الدنية فى ديننا ونرجعُ ولَمّا يحكم الله بيننا؟ فقال: « يا ابن الخطاب، إنى رسول الله، ولن يضيعنى الله أبدا ». فرجع مُتَغَيِّظا فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على الحق وهم على الباطل، فقال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبدا. فنزلت سورة الفتح[٦].

---

(١) أى: مات.

(٢) يقال: سعرت النار والحرب: إذا أوقدتهما. والمسعر ـ بكسر الميم ـ: ما تحرك به النار من آلة الحديد. يصفه بالمبالغة فى الحرب والنجدة.

(٣) سيف البحر: شاطئه.

(٤) كلمة « إليهم » غير ثابتة فى الصحيح.

(٥) البخارى، كتاب الشروط، باب « الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط »: ٣/٢٥٢ ـ ٢٥٨.

(٦) البخارى، تفسير سورة الفتح: ٦/١٧٠ ـ ١٧١.

وقد رواه البخارى أيضا فى مواضع أخر ومسلم والنسائى من طرق أخر عن أبى وائل سفيان بن سلمة، عن سهيل بن حنيف، به . وفى بعض ألفاظه : « يا أيها الناس ، اتهموا الرأى ، فلقد رأيتنى يوم أبى جندل ولو أقدر على أن أرد على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أمره لرددته » . وفى رواية : « فنزلت سورة الفتح ، فدعا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عمر بن الخطاب فقرأها عليه (١) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، عن ثابت ، عن أنس أن قريشا صالحوا النبى — صلى الله عليه وسلم — فيهم سهيل بن عمرو ، فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — لعلى : « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال سهيل: لا ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم ، ولكن اكتب ما نعرف : « باسمك اللهم » . فقال : « اكتب من محمد رسول الله » . قال : لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال النبى صلى الله عليه وسلم: «اكتب من محمد بن عبد الله» ، واشترطوا على النبى — صلى الله عليه وسلم — أن من جاء منكم لا نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا. فقال: يارسول الله، أتكتب هذا ؟ قال : « نعم ، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله (٢) » . رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة ، به (٣) .

وقال أحمد أيضا : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، حدثنا عكرمة بن عمار قال : حدثنى سماك ، عن عبد الله بن عباس قال : لما خرجت الحرورية اعتزلوا، فقلت لهم: إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلى: « اكتب يا على : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » . قالوا : لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك . فقال رسول الله : « امح يا على ، اللهم إنك تعلم أنى رسولك ، امح يا على واكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله » . والله لرسول الله خير من على ، وقد محا نفسه ، ولم يكن محوه ذلك يمحاه من النبوة ، أخرجت من هذه ؟ قالوا : نعم(٤) .

ورواه أبو داود من حديث عكرمة بن عمار اليامى ، بنحوه .

وروى الإمام أحمد، عن يحيى بن آدم : حدثنا زهير، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن الحكم ، عن مقسم ، عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : نحر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يوم الحديبية سبعين بدنة فيها جمل لأبى جهل ، فلما صدت عن البيت حنت كما تحن إلى أولادها (٥) .

---

(١) انظر البخارى ، كتاب الجزية : ٤/ ١٢٥ — ١٢٦. ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب « صلح الحديبية » : ٥/ ١٧٥ — ١٧٦ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٣/ ٢٦٨ .
(٣) مسلم ، كتاب الجهاد ، باب «صلح الحديبية» : ٥/ ١٧٤ — ١٧٥ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ١/ ٣٤٢ .
هذا وإنما كان هذا النقاش بين هذا الراوى وبين الحرورية لأن وفد الشام قد اعترض عند كتابة وثيقة التحكيم على وصف على بأنه « أمير المؤمنين » . فأمر على بمحوها وقال : هذا ما اتفق عليه على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان .
(٥) مسند الإمام أحمد : ١/ ٣١٤ — ٣١٥ .

لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد أرِىَ فى المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت ، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة ، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام ، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل ، وقع فى نفوس بعض الصحابة من ذلك شىء ، حتى سأل عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فى ذلك ، فقال له فيا قال : أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : « بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا » قال : لا ، قال : « فإنك آتيه ومُطَّوِّفٌ به » . وبهذا أجاب الصديق رضى الله عنه أيضا حَذْو القُذَّة بالقُذَّة(١) . ولهذا قال تعالى:(لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله): هذا لتحقيق الخبر وتوكيده ، وليس هذا من الاستثناء فى شىء ، (آمنين) ، أى : فى حال دخولكم . وقوله : (محلقين رءوسكم ومقصرين) ، حال مقدرة ، لأنهم فى حال حرمهم لم يكونوا محلقين ومقصرين ، وإنما كان هذا فى ثانى الحال ، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره . وثبت فى الصحيحين أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « رحم الله المحلقين » : قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : « رحم الله المحلقين » . قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : « رحم الله المحلقين » : قالوا :والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : « والمقصرين » فى الثالثة أو الرابعة (٢) .

وقوله : (لا تخافون) : حال مؤكدة فى المعنى ، فأثبت لهم الأمن حال الدخول ، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم فى البلد لا يخافون من أحد . وهذا كان فى عمرة القضاء فى ذى القعدة سنة سبع ؛ فإن النبى — صلى الله عليه وسلم — لما رجع من الحديبية فى ذى القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم ، وخرج فى صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبعضها صلحا ، وهى إقليم عظيم كثير النخل والزروع ، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر ، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم ، ولم يشهدها أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة ، جعفر بن أبى طالب وأصحابه ، وأبو موسى الأشعرى وأصحابه ، ولم يغب منهم أحد ، قال ابن زيد : إلا أبا دجانة سماك بن خرشة ، كما هو مقرر فى موضعه ثم رجع إلى المدينة . فلما كان فى ذى القعدة سنة سبع خرج إلى مكة معتمرا هو وأهل الحديبية ، فأحرم من ذى الحُلَيفة ، وساق معه الهَدْى ، قيل : كان ستين بدنة . فلبَّى وسار وأصحابه يُلَبُّون . فلما كان قريبا من مَرّ الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه . فلما رآه المشركون رُعبوا رعبا شديدا وظنوا أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يغزوهم ، وأنه قد نكث العهد الذى بينه وبينهم من وضع القتال عشر سنين ، وذهبوا فأخبروا أهل مكة ، فلما جاء رسول الله —صلى الله

---

(١) القذة : واحدة القذذ — بضم ففتح — وهى : ريش السهم ، وكل واحدة من ريش السهم تقدر على قدر صاحبتها .

(٢) أخرجاه فى كتاب الحج ، انظر البخارى ، باب « الحلق والتقصير » : ٢/٢١٣ . ومسلم ، باب « تفضيل الحلق على التقصير ، وجواز التقصير » : ٤/٨٠ — ٨١ .

عليه وسلم ــ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب[١] الحرم بعث السلاح من القسى والنبل والرماح إلى بطن يأجج[٢]، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة فى قربها ، كما شارطهم عليه . فلما كان فى أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص فقال : يا مُحمد ، ما عرفناك تنقض العهد . قال : « وما ذاك ؟ . قال : دخلت علينا بالسلاح والقسى والرماح . فقال : « لم [يكن] ذلك ، وقد بعثنا به إلى يأجج » . فقال : بهذا عرفناك ، بالبر والوفاء . وخرجت رءوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وإلى أصحابه غيظا وحنقا . وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا فى الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأصحابه ، فدخلها عليه الصلاة والسلام وبين يديه أصحابه يُلبّون ، والهدى قد بعثه إلى ذى طُوًى[٣] وهو راكب ناقته القصواء التى كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله بن رَوَاحة الأنصارى آخذ بزمام ناقة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقودها ، وهو يقول :

باسْمِ الذى لا دينَ إلا دينُهُ باسْمِ الذى محمدٌ رَسُولُه
خلّوا بَنِى الكُفّار عَنْ سَبِيله اليومَ نَضْرِبْكم عَلَى تأويله
كَمَا ضرَبْنَاكُم عَلَى تَنْزِيله[٤] ضرْباً يُزِيلُ الهَامَ عَنْ مَقِيله[٥]
وَيُذْهِلُ الخَلِيلَ عَنْ خليله قَدْ أنزَلَ الرّحمَنُ فى تَنْزِيله
فى صُحُف تُتْلَى عَلَى رَسُوله بأنّ خيْرَ القَتْل فى سَبِيله
يارَبّ إنى مُؤمِن بِقِيله

فهذا مجموع من روايات متفرقة :

قال يونس بن بكير ، عن محمد بن إسحاق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر بن حزم قال : لما دخل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مكة فى عُمرة القضاء ، دخلها وعبد الله بن رواحة آخذ بخطام ناقته صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول :

خلّوا بَنِى الكُفّار عَنْ سبيله إنّى شَهيدٌ أنه رَسُولُهُ
خلّوا فكُلّ الخَيْر فى رَسُوله يارَبّ إنّى مُؤمنٌ بقيله
نَحْنُ قتَلْنَاكم عَلَى تأويله كَمَا قتَلْنَاكُمْ عَلَى تنْزِيله
ضرْباً يُزِيلُ الهَام عَنْ مَقِيله وَيُذْهِلُ الخَلِيلَ عَنْ خَلِيله[٦]

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن الزهرى ، عن أنس بن مالك قال : لما دخل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مكة فى عمرة القضاء ، مشى عبد الله بن رواحة بين يديه ، وفى رواية . وابن رواحة آخذ بغَرْزه ، وهو يقول :

خلّوا بَنِى الكُفّار عَنْ سَبِيله قَدْ نَزّلَ الرّحمَنُ فى تَنْزِيله

---

(١) أنصاب الحرم : علاماته التى تحدده وتميزه من الحل .
(٢) يأجج : على ثمانية أميال من مكة .
(٣) ذو طوى : موضع عند مكة .
(٤) أى : نحن قتلناكم على تأويله ، كما قتلناكم على إنكار تنزيله .
(٥) الهام : أعلى الرأس . ومقيله : موضعه .
(٦) انظر سيرة ابن هشام : ٢/٣٧١ .

بأنّ خيرَ القتْل فى سبيله   يارَبّ إنّى مُؤمِنٌ بقيله

نحنُ قتَلْناكُمْ على تأويله   كما قتَلْناكُمْ على تنزيله

ضَرباً يُزيلُ الهامَ عنْ مَقيله   ويُذْهِلُ الخليلَ عنْ خليله

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن الصباح ، حدثنا إسماعيل — يعنى ابن زكريا — عن عبد الله — يعنى ابن عثمان — عن أبى الطفيل ، عن ابن عباس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل مَرّ الظهران فى عمرته ، بلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قريشا مايتباعثون من العَجَف (١) . فقال أصحابه : لو انتحرنا (٢) من ظهرنا فأكلنا من لحمه ، وحَسَوْنا من مَرَقه ، أصبحنا غدا حين ندخل على القوم وبنا جَمَامَة (٣) . قال : لاتفعلوا ولكن اجمعوا لى من أزوادكم ، فجمعوا له وبسطوا الأنطاع (٤) ، فأكلوا حتى تركوا (٥) وحثا كل واحد منهم فى جرابه ، ثم أقبل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى دخل المسجد وقعدت قريش نحو الحجر ، فاضطبع بردائه ، ثم قال : « لايرى القوم فيكم غميرة (٦) » ، فاستلم الركن ثم رمل (٧) حتى إذا تغيب بالركن اليمانى مشى إلى الركن الأسود ، فقالت قريش : ماترضون بالمشى أما إنكم لتنقزُون (٨) نَقْزَ الظباء ، ففعل ذلك ثلاثة أشواط (٩) ، فكانتْ سُنّة . قال أبو الطفيل : فأخبرنى ابن عباس أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فعل ذلك فى حجة الوداع (١٠) .

وقال أحمد أيضا : حدثنا يونس ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا أيوب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكة وقد وَهَنتهم حُمّى يثرب ، ولقوا منها سوءا ، فقال المشركون : إنه يقدَم عليكم قوم قد وَهنتهم حمى يثرب ولقوا منها شرا . وجلس المشركون من الناحية التى تلى الحجر ، فأطلع الله نبيه — صلى الله عليه وسلم — على ماقالوا ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يَرمُلوا (١١) الأشواط الثلاثة ليرى المشركون جَلَدهم ، قال : فرملوا ثلاثة أشواط ، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم المشركون ، ولم يمنع النبى — صلى الله عليه وسلم — أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاء عليهم ، فقال المشركون : أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى [قد] وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا (١٢) .

---

(١) أى : لا يستطيعون التصرف من الهزال .
(٢) أى : ذبحنا . والظهر : الإبل .
(٣) أى : راحة وشبع ورى .
(٤) الأنطاع : الجلود .
(٥) فى المسند : « حتى تولوا » .
(٦) أى : عيبا .
(٧) فى المسند : « ثم دخل » .
(٨) فى المسند : « ما يرضون بالمشى ، إنهم لينقزون ... » . وينقزون : يثبون ويقفزون .
(٩) فى المسند : « أطواف » .
(١٠) مسند الإمام أحمد : ١/٣٠٥ .
(١١) الرمل — بفتحتين — : الإسراع فى المشى مع هز المنكبين .
(١٢) مسند الإمام أحمد : ١/٢٩٥ .

أخرجاه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد ، به(١) . وفي لفظ : قدم النبي ــصلى الله عليه وسلمــ وأصحابه صبيحة رابعة ، أي من ذي القعدة ، فقال المشركون : إنه يقدم عليكم وفد قد وهنتهم حمى يثرب . فأمرهم النبي ــصلى الله عليه وسلمــ أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، ولم يمنعهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم .

قال البخاري(١) : وزاد ابن سلمة ــ يعني حماد بن سلمة ــ عن أيوب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : لما قدم النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ لعامه الذي استأمن قال : ارملوا . ليُرىَ المشركين قوتهم ، والمشركون من قبل قُعَيقِعَان(٢) .

وحدثنا محمد ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن عطاء ، عن ابن عباس قال : إنما سعى النبي صلى الله عليه وسلم بالبيت وبالصفا والمروة ، ليرى المشركون قوته (١) .

ورواه في مواضع أخر(٣) ، ومسلم والنسائي ، من طرق ، عن سفيان بن عيينة ، به .

وقال أيضا : حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد سمع ابن أبي أوفى يقول : لما اعتمر رسول الله ــصلى الله عليه وسلمــ سترناه من غلمان المشركين . ومنهم ؛ أن يؤذوا رسول الله ــصلى الله عليه وسلم ــ انفرد به البخاري (١) دون مسلم .

وقال البخاري أيضا : حدثنا محمد بن رافع ، حدثنا سُرَيج بن النعمان ، حدثنا فُلَيح ــ (ح) ــ وحدثني محمد بن الحسين بن إبراهيم ، حدثنا أبي ، حدثنا فُلَيح بن سليمان ــ عن نافع ، عن ابن عمر أن رسول الله ــصلى الله عليه وسلمــ خرج معتمرا ، فحال كفار قريش بينه وبين البيت ، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية ، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل ، ولا يحمل سلاحا عليهم إلا سيوفا ، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا . فاعتمر من العام المقبل ، فدخلها كما كان صالحهم ، فلما أن أقام بها [ثلاثا] أمروه أن يخرج ، فخرج (٤) .

وهو في صحيح مسلم أيضا .

وقال البخاري أيضا : حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن البراء قال : اعتمر النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ في ذي القعدة ، فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام ، فلما كتبوا الكتاب كتبوا : « هذا ما قاضانا عليه محمد رسول الله » . قالوا : لا نقر بهذا ، ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً ، ولكن أنت محمد بن عبد الله . قال : « أنا رسول الله ، وأنا محمد بن عبد الله » . ثم قال لعلي بن أبي طالب : « امح رسول الله » . قال :

---

(١) البخاري ، كتاب المغازي ، باب « عمرة القضاء » : ٥/١٨١ . ومسلم ، كتاب الحج ، باب « استحباب الرمل في الطواف ... » : ٤/٦٥ .

(٢) قعيقعان : جبل بمكة .

(٣) البخاري ، كتاب الحج ، باب « ما جاء في السعي بين الصفا والمروة » : ٢/١٩٥ . ومسلم ، كتاب الحج ، باب « استحباب الرمل في الطواف ... » : ٤/٦٥ . والنسائي ، كتاب المناسك ، باب « السعي بين الصفا والمروة » : ٥/٢٤٢ .

(٤) البخاري ، كتاب المغازي ، باب « عمرة القضاء » : ٥/١٨٠ .

لا ، والله لا أمحوك أبدا . فأخذ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الكتاب ، وليس يحسن يكتبُ ، فكتب : « هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله : لا يُدْخِلُ مكة السلاحَ إلا السيفَ فى القِراب ، وأن لا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتبعه ، وأن لا يمنع من أصحابه أحدا إن أراد أن يقيم بها » . فلما دخلها ومضى الأجل ، أتوا عليا فقالوا : قل لصاحبك : اخرج عنا فقد مضى الأجل . فخرج النبى – صلى الله عليه وسلم – فتبعته ابنة حمزة تنادى : يا عمّ يا عمّ . فتناولها على فأخذ بيدها ، وقال لفاطمة : دونك ابنةَ عمك . فحملتها(١) ، فاختصم فيها على وزيد وجعفر ، فقال علىّ : أنا أخذتها وهى ابنة عمى . وقال جعفر : ابنة عمى وخالتها تحتى . وقال زيد : ابنة أخى . فقضى بها النبى صلى الله عليه وسلم لخالتها ، وقال : « الخالة بمنزلة الأم » . وقال لعلى : « أنت منى وأنا منك » . وقال لجعفر : « أشبهت خَلقى وخُلُقى » . وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » . قال على : ألا تتزوج ابنة حمزة ؟ قال : « إنها ابنة أخى من الرضاعة » . انفرد به من هذا الوجه(٢) .

وقوله : (فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحا قريبا) ، أى فعلم الله تعالى من الخيرة والمصلحة فى صرْفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموه أنتم ، (فجعل من دون ذلك) ، أى : قبل دخولكم الذى وعدتم به فى رؤيا النبى – صلى الله عليه وسلم – فتحا قريبا ، وهو الصلح الذى كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين .

ثم قال تعالى مبشرا للمؤمنين بنصرة الرسول – صلوات الله عليه – على عدوه وعلى سائر أهل الأرض : (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) ، أى : بالعلم النافع والعمل الصالح ، فان الشريعة تشتمل على شيئين : علم وعمل ، فالعلم الشرعى صحيح ، والعمل الشرعى مقبول ، فاخبارها حق وانشاءاتها عدل ، (ليظهره على الدين كله) ، أى : على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض ، من عرب وعجم ، ومليين ومشركين ، (وكفى بالله شهيدا) ، أى : أنه رسوله ، وهو ناصره :

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن محمد – صلوات الله عليه – أنه رسوله حقا بلا شك ولا ريب ، فقال : (محمد رسول الله) ، وهذا مبتدأ وخبر ، وهو مشتمل على كل وصف جميل . ثم ثنى بالثناء على أصحابه فقال : (والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم) ، كما قال تعالى : (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المومنين اعزة على الكافرين)(٣) . وهذه صفة المؤمنين أن

---

(١) كذا فى المخطوطة : « فحملتها » وفى الصحيح : « حملتها » فعلا ماضيا ، وفى نسخة منه : « حمليها » بتشديد الميم فعل أمر ، وفى أخرى : « احمليها » فعل أمر كذلك .

(٢) البخارى ، كتاب المغازى ، باب « عمرة القضاء » : ١٧٩/٥ – ١٨٠ .

(٣) سورة المائدة ، آية : ٥٤ .

يكون أحدهم شديدا عنيفاً على الكفار ، رحيما براً بالأخيار ، غضوباً عبوساً فى وجه الكافر ، ضحوكا بشوشاً فى وجه أخيه المؤمن ، كما قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ، قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة(١)) وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر (٢) » . وقال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا (٣) . وشبك بين أصابعه » . كلا الحديثين فى الصحيح .

وقوله : (تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا) ، وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة ، وهى خير الأعمال ، ووصفهم بالإخلاص فيها لله ـ عز وجل ـ والاحتساب عند الله جزيل الثواب ، وهو الجنة المشتملة على فضل الله ، وهو سعة الرزق عليهم ، ورضاه تعالى عنهم وهو أكبر من الأول ، كما قال : (ورضوان من الله أكبر (٤)) .

وقوله : (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) ـ قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : سيماهم فى وجوهم ، يعنى : السمت الحسن (٥) .

وقال مجاهد وغير واحد : يعنى الخشوع والتواضع .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطنافسى ، حدثنا حسين الجعفى ، عن زائدة ، عن منصور ، عن مجاهد : (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) ، قال : الخشوع . قلت : ما كنت أراه إلا هذا الأثر فى الوجه ، فقال : ربما كان بين عينى من هو أقسى قلبا من فرعون .

وقال السدى : الصلاة تحسن وجوههم .

وقال بعض السلف : من كثرت صلاته بالليل حَسُنَ وجهه بالنهار .

وقد أسنده ابن ماجه فى سننه ، عن إسماعيل بن محمد الطَّلْحى ، عن ثابت بن موسى ، عن شريك ، عن الأعمش ، عن أبى سفيان ، عن جابر قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار (٦) » ، والصحيح أنه موقوف .

---

(١) سورة التوبة ، آية : ١٢٣ .

(٢) البخارى ، كتاب الأدب ، باب « رحمة الناس والبهائم » : ٨/١١ ـ ١٢ . ومسلم ، كتاب البر ، باب « تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم » : ٨/٢٠ .

(٣) البخارى ، كتاب المظالم ، باب « نصر المظلوم » : ٣/١٦٩ . ومسلم ، كتاب البر ، باب « تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم » : ٨/٢٠ .

(٤) سورة التوبة ، آية : ٧٢ .

(٥) تفسير الطبرى : ٢٦/٧٠ .

(٦) سنن ابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب « ما جاء فى قيام الليل » ، الحديث ١٣٣٣ : ١/٤٢٢ .

وقال بعضهم : إن للحسنة نورا فى القلب ، وضياء فى الوجه ، وسعة فى الرزق ، ومحبة فى قلوب الناس .

وقال أمير المؤمنين عثمان : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه .

والغرض أن الشيء الكامن فى النفس يظهر على صفحات الوجه ، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله ظاهره للناس ، كما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : من أصلح سريرته أصلح الله علانيته .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا محمود بن محمد المروزى ، حدثنا حامد بن آدم المروزى ، حدثنا الفضل بن موسى ، عن محمد بن عبيد الله العَرْزَمى ، عن سلمة بن كُهَيل ، عن جندَب بن سفيان البجلى قال : قال النبى — صلى الله عليه وسلم — : « ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر » . العرزمى متروك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا دراج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة ، لخرج عمله للناس كائنا ما كان[1] » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا زُهير ، حدثنا قابوس بن أبى ظبيان : أن أباه حدثه عن ابن عباس ، عن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : « إن الهدى الصالح ، والسمت الصالح ، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة[2] » ورواه أبو داود عن عبد الله بن محمد النفيلى ، عن زهير ، به[3] .

فالصحابة خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم ، فكل من نظر إليهم أعجبوه فى سمتهم وهديهم .

وقال مالك رحمه الله : بلغنى أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون : « والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا » . وصدقوا فى ذلك ، فان هذه الأمة معظمة فى الكتب المتقدمة ، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم — وقد نوه الله بذكرهم فى الكتب المنزلة والأخبار المتداولة ، ولهذا قال هاهنا : (ذلك مثلهم فى التوراة) ، ثم قال : (ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه) ، أى : فراخه[4] ، (فآزره) ، أى : شده (فاستغلظ) ، أى : شب وطال (فاستوى على سوقه يعجب الزراع) ، أى : فكذلك أصحاب محمد — صلى الله عليه وسلم — آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع ، (ليغيظ بهم الكفار) .

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك — رحمه الله فى رواية عنه — بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة ، قال : لأنهم يغيظونهم ، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية . ووافقه طائفة من العلماء على ذلك . والأحاديث فى فضائل الصحابة والنهى عن التعرض لهم بمساءة كثيرة ، ويكفيهم ثناء الله عليهم ، ورضاه عنهم .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٨/٣ . وانظره فيما تقدم عند سورة تفسير الآية السادسة عشرة من سورة لقمان : ٦/٣٤١ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢٩٦/١ .

(٣) سنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « فى الوقار » .

(٤) فى لسان العرب : الشطء : فرخ الزرع والنخل . وقيل : هو ورق الزرع . وفى التنزيل : (كزرع أخرج شطأه) ، أى : طرفه . وقال الفراء : شطؤه : السنبل ... » .
هذا وفى اللسان أيضاً : الفرخ : الزرع إذا تهيأ للانشقاق . وقيل : هو إذا صارت له أغصان . وعن الليث : « الزرع ما دام فى البذر فهو الحب ، فإذا انشق الحب عن الورقة فهو الفرخ ، فإذا طلع رأسه فهو الحقل » .

ثم قال : (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم) ، من هذه لبيان الجنس (مغفرةً) ، أي : لذنوبهم ، (وأجرا عظيما) ، أي : ثوابا جزيلا ورزقا كريما ، ووعد الله حق وصدق ، لا يُخْلَف ولا يبدل ، وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو فى حكمهم (١) ، ولهم الفضل والسبق والكمال الذى لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة ، رضى الله عنهم وأرضاهم ، وجعل جنات الفردوس مأواهم ، وقد فعل .

قال مسلم فى صحيحه : حدثنا يحيى بن يحيى ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ، ما أدرك مُدّ (٢) أحدهم ولا نَصيفه (٣) » .

[آخر تفسير سورة الفتح ، ولله الحمد والمنة]

---

(١) فى المخطوطة : « فى جملتهم » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٢) المد ــ بضم الميم ــ : ربع الصاع . والنصيف : النصف . والمراد بالمد : المد المذكور فى الصدقة ، وهذا لأن نفقتهم كانت فى وقت الحاجة وإقامة الدين ، ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحمايته ، وذلك معدوم بعده .

(٣) مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب « تحريم سب الصحابة رضى الله عنهم » : ٧/١٨٨ .

تفسير سورة الحجرات
وهى مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (2) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3)

هذه آدابُ أدّب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول — صلى الله عليه وسلم — من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام ، فقال : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) ، أى : لا تسرعوا فى الأشياء بين يديه ، أى قبله ، بل كونوا تبعا له فى جميع الأمور حتى يدخل فى عموم هذا الأدب الشرعى حديثُ معاذ ، قال له النبى صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن : « بم تحكم ؟ » قال : بكتاب الله ، قال : « فان لم تجد ؟ » . قال : بسنة رسول الله . قال : « فإن لم تجد ؟ » . قال : أجتهد رأيى . فضرب فى صدره وقال : « الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ، لما يرضى رسول الله » .

وقد رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه . فالغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدى الله ورسوله .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) ، لا تقولوا خلاف الكتاب والسنه ؛

وقال العوفى عنه : نهى أن يتكلموا بين يدى كلامه .

وقال مجاهد : لا تفتاتوا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بشىء حتى يقضى الله على لسانه ؛

وقال الضحاك : لا تقضوا أمرا دون الله ورسوله من شرائع دينكم .

وقال سفيان الثورى : (لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) بقول ولا فعل ؛

وقال الحسن البصرى : (لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) ، قال : لا تدعوا قبل الإمام ؛

وقال قتادة : ذكر لنا أن ناسا كانوا يقولون : لو أنزل فى كذا كذا . وكذا لو صنع كذا ، فكره الله ذلك وتقدم فيه ؛

(واتقوا الله) ، أى : فيما أمركم به ، (إن الله سميع) ، أى : لأقوالكم ، (عليم) بنياتكم .

وقوله : (يا أيها الذين آمنوا ، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) : هذا أدب ثان أدب الله به المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدى النبى — صلى الله عليه وسلم — وقد روى أنها نزلت فى الشيخين أبى بكر وعمر — رضى الله عنهما — ؛

وقال البخارى: حدثنا بَسْرَة بن صفوان اللخمى ، حدثنا نافع بن عمر ، عن ابن أبى مليكة قال: كاد الخَيِّران أن يَهْلِكَا ، أبو بكر وعمر ــرضى الله عنهماــ رفعا أصواتهما عند النبى ــصلى الله عليه وسلمــ حين قدم عليه ركب بنى تميم ، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخى بنى مجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر ــ قال نافع : لا أحفظ اسمه ــ فقال أبو بكر لعمر : ما أردتَ إلا خلافى . قال : ما أردت [خلافك] . فارتفعت أصواتهما فى ذلك ، فأنزل الله : (يا أيها الذين آمنوا ، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) ، الآية قال ابن الزبير : فما كان عمر يُسمِعُ رسولَ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعد هذه الآية [حتى يستفهمه] ، ولم يذكر ذلك عن أبيه يعنى أبا بكر رضى الله عنه . انفرد به دون مسلم(١) .

ثم قال البخارى : حدثنا الحسن بن محمد ، حدثنا حجاج ، عن ابن جُرَيج ، حدثنى ابن أبى مليكة : أن عبد الله بن الزبير أخبره : أنه قدم ركب من بنى تميم على النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال أبو بكر : أمِّر القعقاعَ بن معبد . وقال عمر بل أمِّر الأقرع بن حابس . فقال أبو بكر : ما أردت إلى ــ أو : إلا ــ خلافى . فقال عمر : ما أردتُ خلافَكَ . فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، فنزلت فى ذلك : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) ، حتى انقضت الآية ، (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم(٢)) الآية .

وهكذا رواه هاهنا منفردا به أيضا .

وقال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا الفضل بن سهل ، حدثنا إسحاق بن منصور ، حدثنا حصين بن عُمَر ، عن مُخَارق ، عن طارق بن شهاب ، عن أبى بكر الصديق قال : لما نزلت هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا ، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) ، قلت : يا رسول الله ، والله لا أكلمك إلا كأخى السِّرار(٣) .

حصين بن عمر هذا ــ وإن كان ضعيفاً ــ لكن قد رويناه من حديث عبد الرحمن بن عوف ، وأبى هريرة ، بنحو ذلك ، والله أعلم .

وقال البخارى : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا أزهر بن سعد ، أخبرنا ابن عون ، أنبأنى موسى بن أنس ، عن أنس ابن مالك ــ رضى الله عنه ــ أن النبى ــصلى الله عليه وسلمــ افتقد ثابت بن قيس فقال رجل : يارسول الله، أنا أعلم لك علمه. فأتاه فوجده فى بيته مُنَكِّساً رأسه ، فقال له: ما شأنك ؟ فقال : شر ، كان يَرْفَعُ صوته فوق صوت النبى صلى الله عليه وسلم، فقد حبط عمله، فهو من أهل النار. فأتى الرجل النبىَّ ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأخبره أنه قال كذا وكذا ــ قال موسى : فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال : « اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار ، ولكنك من أهل الجنة(٤) » تفرد به البخارى من هذا الوجه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس قال : لما نزلت هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا ، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) إلى : (وأنتم لا تشعرون) ــ وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال: أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله ــصلى الله عليه وسلمــ [حبط عملى أنا من أهل النار، وجلس فى أهله

(١) البخارى ، تفسير سورة الحجرات : ٦/١٧١ .
(٢) البخارى ، تفسير سورة الحجرات : ٦/١٧٢ .
(٣) السرار ــ بكسر السين ــ : المسارة ، أى : كصاحب السرار ، أو : كمثل المسارة لخفض صوته .
(٤) البخارى ، تفسير سورة الحجرات : ٦/١٧١ ــ ١٧٢ .

حزينا ، ففقده رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له : تفقدك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مالك ؟ قال : أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبى صلى الله عليه وسلم وأجهر له بالقول ، حبط عملى ، أنا من أهل النار . فأتوا النبى — صلى الله عليه وسلم — فأخبروه بما قال . فقال : لا ، بل هو من أهل الجنة » . قال أنس : فكنا نراه يمشى بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة . فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف ، فجاء ثابت بن قيس بن شماس وقد تحنط ولبس كفنه ، فقال : بئسما تعوّدون أقرانكم . فقاتلهم حتى قُتل (١) .

وقال مسلم : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت البُنانى ، عن أنس ابن مالك قال : لما نزلت هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا ، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) ، إلى آخر الآية جلس ثابت فى بيته ، قال : أنا من أهل النار . واحتبس عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم لسعد بن معاذ : « يا أباعمرو ، ما شأن ثابت ؟ أشتكى ؟ » فقال سعد : إنه لجارى ، وما علمت له بشكوى . قال : فأتاه لسعد فذكر له قولَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ثابت : أُنزلت هذه الآية ، ولقد علمتم أنى من أرفعكم صوتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنا من أهل النار . فذكر ذلك سعد للنبى — صلى الله عليه وسلم — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «بل [هو] من أهل الجنة (٢) » .

ثم رواه مسلم عن أحمد بن سعيد الدارمى ، عن حَبَّان بن هلال ، عن سليمان بن المغيرة ، به قال : ولم يذكر سعدَ بن معاذ . وعن قطن بن نُسَير عن جعفر بن سليمان ، عن ثابت ، عن أنس ، بنحوه . وقال : ليس فيه ذكر سعد بن معاذ .

حدثنا هُرَيم بن عبد الأعلى الأسدى ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، سمعت أبى يذكر [عن ثابت (٣)] عن أنس قال : لما نزلت هذه الآية ... واقتص الحديث ، ولم يذكر سعدَ بن معاذ وزاد : فكنا نراه يمشى بين أظهرنا رَجلٌ من أهل الجنة(٤) .

فهذه الطرق الثلاث مُعَلّلة لرواية حماد بن سلمة فيما تفرد به من ذكر سعد بن معاذ . والصحيح أن حال نزول هذه الآية لم يكن سعد بن معاذ موجوداً ، لأنه كان قد مات بعد بنى قريظة بأيام قلائل [سنة خمس] ، وهذه الآية نزلت فى وفد بنى تميم ، والوفود إنما تواتروا فى سنة تسع من الهجرة ، والله أعلم .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا أبو ثابت بن ثابت بن قيس بن شَمَّاس ، حدثنى عمى إسماعيل بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس ، عن أبيه قال : لما نزلت هذه الآية : (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول) ، قال : قعد ثابت بن قيس فى الطريق يبكى ، قال : فمر به عاصم بن عدى من بنى العَجلان قال : ما يبكيك يا ثابت ؟ قال : هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت فىّ وأنا صيِّتٌ : رفيع الصوت . قال : فمضى عاصم ابن عدى إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : وغلبه البكاء ، فأتى امرأته جميلة ابنة عبد الله بن أُبَىّ بن سلول فقال لها :

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣/١٣٧ .
(٢) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « مخافة المؤمن أن يحبط عمله » : ١/٧٧ .
(٣) ما بين القوسين عن مسلم .
(٤) مسلم ، فى الكتاب والباب المتقدمين .

إذا دخلت بيت فَرَسِي فشدّي علَيّ الضَبّة بمسار ، فضربته بمسمار حتى إذا خرج عطفه ، وقال : لا أخرج حتى يتوفاني الله ــ عز وجل ــ أو يرضى عني رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : وأتى عاصم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأخبره خبره ، فقال : « اذهب فادعه لي » . فجاء عاصم إلى المكان فلم يجده ، فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفَرَس ، فقال له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ يدعوك . فقال : اكسر الضبة . قال : فخرجا فأتيا النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال له رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم : « ما يبكيك يا ثابت ؟ » فقال : أنا صيّت وأتخوف [أن] تكون هذه الآية نزلت فيَّ : (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول) . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أما ترضى أن تَعيش حَميداً ، وتقتلَ شهيدا وتدخل الجنة ؟ » . فقال رضيت ببشرى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا أرفع صوتي أبدا على صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : وأنزل الله : (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) الآية (١) .

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين كذلك ، فقد نهى الله عز وجل عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه سمع صَوتَ رجلين في مسجد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد ارتفعت أصواتهما ، فجاء فقال : أتدريان أين أنتما ؟ ثم قال : مِن أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف . فقال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا .

وقال العلماء يكره رفع الصوت عنده قبره ، كما كان يكره في حياته ، لأنه محترم حيا وفي قبره ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ دائما ؛ ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه ، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم ، ولهذا قال : (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) ، كما قال : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا (٢)) .

وقوله : (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) ، أي : إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشيةَ أن يغضب من ذلك ، فيغضبَ الله لغضبه ، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدرى ، كما جاء في الصحيح : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقى لها بالا يكتب له بها الجنة . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يُلقى لها بالا يهوي بها في النار أبعد ما بين السموات الأرض (٣) » .

ثم ندب الله عز وجل إلى خفض الصوت عنده ، وحثّ على ذلك وأرشد إليه ورغّب فيه ، فقال : (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) ، أي : أخلصها لها وجَعَلها أهلاً ومحلا ، (لهم مغفرة وأجر عظيم) .

وقد قال الإمام أحمد في كتاب الزهد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد قال : كُتب إلى عمر : يا أمير المؤمنين ، رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل ، أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها ؟ فكتب عمر رضي الله عنه : إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم) .

---

(١) تفسير الطبري : ٢٦/٧٥ .

(٢) سورة النور ، آية : ٦٣ .

(٣) البخاري ، كتاب الرقاق ، باب « حفظ اللسان: ٨/١٢٥ . وتحفة الأحوذي ، كتاب الزهد ، باب « ما جاء في قلة الكلام » ، الحديث ٢٤٢١ : ٦/٦٠٩ – ٦١٠ ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح » . وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب « كف اللسان » ، الحديث ٣٩٦٩ : ٢/١٣١٢–١٣١٣ . ومسند الإمام أحمد عن بلال بن الحارث المزني : ٣/٤٦٩ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

ثم إنه تعالى ذَمّ الذين ينادونه من وراء الحجرات ، وهى بيوت نسائه ، كما يصنع أجلاف الأعراب ، فقال : (أكثرهم لا يعقلون) .

ثم أرشد إلى الأدب فى ذلك فقال : (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم) ، أى : لكان لهم فى ذلك الخيرةُ والمصلحة فى الدنيا والآخرة .

ثم قال داعيا لهم إلى التوبة والإنابة : (والله غفور رحيم) .

وقد ذُكر أنها نزلت فى الأقرع بن حابس التميمى فيما أورده غير واحد ، قال الإمام أحمد :

حدثنا عفان ، حدثنا وُهَيب ، حدثنا موسى بن عقبة ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن الأقرع بن حابس : أنه نادى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — [من وراء الحجرات](١) فقال : يا محمد ، يا محمد — وفى رواية : يا رسول الله — فلم يجبه ، فقال : يا رسول الله إن حمدى لزين ، وإن ذمى لشين فقال : « ذاك الله عز وجل » .

وقال ابن جرير : حدثنا ابو عمار الحسين بن حريث المروزى ، حدثنا الفضل بن موسى ، عن الحسين بن واقد ، عن أبى إسحاق ، عن البراء فى قوله : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) قال : جاء رجل إلى رسول الله فقال : يا محمد ، إن حمدى زين وذمى شين . فقال : « ذاك (٢) الله عز وجل(٣) » .

وهكذا ذكره الحسن البصرى ، وقتادة مرسلا .

وقال سفيان الثورى ، عن حبيب بن أبى عَمْرَة قال : كان بِشْر بن غالب ولَبيد بن عطارد — أو بشر بن عطارد ولبيد ابن غالب — وهما عند الحجاج جالسان — فقال بشر بن غالب للبيد بن عُطارد : نزلت فى قومك بنى تميم : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) ، قال : فذكرت ذلك لسعيد بن جبير فقال : أما إنه لو علم بآخر الآية أجابه : (يمنون عليك أن أسلموا) ، قالوا : أسلمنا ، ولم يقاتلك بنو أسد (٤) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عَمْرو بن على الباهلى ، حدثنا المعتمر بن سليمان : سمعت داود الطفاوى يحدث عن أبى مسلم البجلى ، عن زيد بن أرقم قال : اجتمع أناس من العرب فقالوا : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل ، فإن يك نبيا فنحن أسعد [الناس به] ، وإن يك ملكا نَعِشْ بجناحه . قال : فأتيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأخبرته بما قالوا ، فجاءوا إلى حجرته فجعلوا ينادونه وهو فى حجرته : يا محمد ، يا محمد . فأنزل الله : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) . قال : فأخذ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — [بأذنى فَمدّها فجعل] يقول : « لقد صدق الله قولك يا زيد ، لقد صدق الله قولك يا زيد » .

ورواه ابن جرير ، عن الحسن بن عرفة ، عن المعتمر بن سليمان ، به (٤) .

---

(١) ما بين القوسين عن المسند .
(٢) فى المسند : « ذاكم » .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/٤٨٨ ، ٦/٣٩٤ .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٦/٧٧ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ (٦) وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)

يأمر تعالى بالتثبت فى خبر الفاسق ليُحتاطَ له، لئلا يحكم بقوله فيكون ــ فى نفس الأمر ــ كاذبا أو مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه ؛ وقد نهى الله عن اتباع سبيل المفسدين ، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه فى نفس الأمر ، وقبلها آخرون لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق ، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال ؛ وقد قررنا هذه المسألة فى كتاب العلم من شرح البخارى ، ولله الحمد والمنة .

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيط ، حين بعثه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على صدقات بنى المصطلق ؛ وقد رُوى ذلك من طرق ، ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد فى مسنده من رواية ملك بنى المصطلق ، وهو الحارث بن ضِرَار ، والد جُوَيرية بنت الحارث أم المؤمنين رضى الله عنها ، قال الإمام أحمد :

حدثنا محمد بن سابق ، حدثنا عيسى بن دينار ، حدثنى أبى أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعى يقول : قدمت على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فدعانى إلى الإسلام ، فدخلت فيه وأقررت به ؛ ودعانى إلى الزكاة فأقررت بها ، وقلت : يا رسول الله ، أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة ، فمن استجاب لى جمعت زكاته ؛ ويُرسل إلىَّ رسولُ الله رسولا لإبَّان كذا وكذا ليأتيك ما جمعتُ من الزكاة ؛ فلما جمعَ الحارث الزكاةَ ممن استجاب له ، وبلغ الإبَّان الذى أراد رسولُ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يبعث إليه ، احتبس عليه الرسول فلم يأته ، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سَخْطَةٌ من الله ورسوله ، فدعا بسَرَاوات قومه(١) فقال لهم : إن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان وَقَّت لى وقتا يرسل إلىَّ رسوله ليقبض ما كان عندى من الزكاة ، وليس من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الخُلْفُ ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سَخطة [كانت] فانطلقوا فنأتى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وبعث رسولُ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرِق ــ أى : خاف ــ فرجع فأتى رسولَ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : يا رسول الله ، إن الحارث منعنى الزكاة وأراد قتلى . فضَرَب (٢) رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ البعث إلى الحارث ، وأقبل الحارث بأصحابه حتى (٣) إذا استقبل البعث وفَصَل عن المدينة لقيهم الحارث ، فقالوا : هذا الحارث . فلما غشيهم قال لهم : إلى من بُعثتم ؟ قالوا : إليك. قال : ولم ؟ قالوا : إن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ [كان] بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله . قال : لا ، والذى بعث محمدا بالحق ما رأيته بَتَّةً ولا أتانى . فلما دخل الحارث على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « مَنعتَ الزكاة وأردت قتلَ

---

(١) أى : أشرافهم .

(٢) أى : أرسل بعثاً إليه .

(٣) فى المسند : « فأقبل الحارث بأصحابه إذ استقبل البعث وفصل من المدينة لقيهم ... » .

رسولى ؟ : ؛ قال : لا ، والذى بعثك بالحق مارأيته ولا أتانى ، وما أقبلت إلا حين احتبس علىّ رسولُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، خشيت أن يكون كانت سخطة من الله ورسوله . قال : فنزلت الحجرات : (يا أيها الذين آمنوا ، إن جاءكم فاسق بنبأ) إلى قوله : (حكيم (١)) .

ورواه ابن أبى حاتم عن المنذر بن شاذان التمار ، عن محمد بن سابق ، به : ورواه الطبرانى من حديث محمد بن سابق ، به ، غير أنه سماه الحارث بن سرار ، والصواب : الحارث بن ضرار ، كما تقدم .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا جعفر بن عون ، عن موسى بن عُبَيدة ، عن ثابت مولى أم سلمة ، عن أم سلمة قالت : بعث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – رجلا فى صدقات بنى المصطلق بعد الوقيعة (٢) فسمع بذلك القوم ، فتلقوه يعظمون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله ، قالت : فرجع إلى رسول الله فقال : إن بنى المصطلق قد منعونى صدقاتهم . فغَضِب رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، قالت : فبلغ القومَ رجوعُهُ فأتوا رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم – فصفوا له حين صلى الظهر ، فقالوا : نعوذ بالله من سَخَط الله وسَخَط رسوله ، بعثت إلينا رجلا مُصَدِّقاً (٣) فسررنا بذلك ، وقرّت به أعيننا . ثم إنه رجع من بعض الطريق ، فخشينا أن يكون ذلك غضبا من الله ومن رسوله ، فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال فأذن بصلاة العصر ، قالت : ونزلت : (يا أيها الذين آمنوا ، إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين (٤)) .

وروى ابن جرير أيضا من طريق العَوفى ، عن ابن عباس فى هذه الآية قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيط إلى بنى المصطلق ليأخذ منهم الصدقات ، وإنهم لما أتاهم الخبر فَرِحُوا وخرجوا يتلقون رسولَ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وإنه لما حُدِّث (٥) الوليد أنهم خرجوا يتلقونه ، رجع الوليد إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : يا رسول الله ، إن بنى المصطلق قد منعوا الصدقة : فغضب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من ذلك غضبا شديدا ، فبينا هو يحدث نفسه أن يغزوهم إذ أتاه الوفد فقالوا : يا رسول الله ، إنا حُدِّثنا أن رسولك رجع من نصف الطريق وإنا خشينا أن ما رَدّه كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا ، وإنا نعوذ بالله من غَضَبه وغضب رسوله : وإن النبى صلى الله عليه وسلم – استغشهم وهَمّ (٦) بهم ، فأنزل الله عذرهم فى الكتاب ، فقال : (يا أيها الذين آمنوا ، إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) ... إلى آخر الآية (٧) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٤/٢٧٩ .

(٢) فى تفسير الطبرى : « الوقعة » . يعنى : بعدما أنزله خالد ببنى المصطلق عندما بعثه إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى الإسلام ، انظر خبر هذه الغزوة فى سيرة ابن هشام : ٢/٢٨٩ وما بعدها .

(٣) المصدق : جامع الزكاة .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٦/٧٨ .

(٥) كذا فى المخطوطة وتفسير الطبرى . على أن المحدث فى اللغة هو الصادق الظن . ولعل الصواب : « حدس » ، بالسين أى ظن .

(٦) هذه الفقرة وهى : « وإن النبى . . وهم بهم » – غير ثابتة فى الطبرى .

(٧) تفسير الطبرى : ٢٦/٧٨ .

وقال مجاهد وقتادة : أرسل رسول الله الوليد بن عقبة إلى بنى المصطلق ليصدّقهم (١) ، فتلقوه بالصدقة ، فرجع فقال : إن بنى المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك ــ زاد قتادة : وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام ــ فبعث رسول الله خالد بن الوليد إليهم ، وأمره أن يتثبت ولا يعجل . فانطلق حتى أتاهم ليلا ، فبعث عيونه ، فلما جاءوا أخبروا خالدا أنهم مستمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى الذى يعجبه ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فأنزل الله هذه الآية . قال قتادة : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « التبيّن من الله ، والعجلة من الشيطان » (٢) .

وكذا ذكر غير واحد من السلف ، منهم : ابن أبى ليلى ، ويزيد بن رومان ، والضحاك ، ومقاتل بن حيّان ، وغيرهم فى هذه الآية : أنها نزلت فى الوليد بن عقبة ، والله أعلم .

وقوله : (واعلموا أن فيكم رسول الله) ، أى : اعلموا أن بين أظهركم رسولَ الله فعظّموه ووقروه ، وتأدبوا معه ، وانقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم ، وأشفق عليكم منكم ، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم ، كما قال تعالى : (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) (٣) .

ثم بيّن أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال : (لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم) ، أى : لو أطاعكم فى جميع ما تختارونه لأدّى ذلك إلى عنتكم وحرَجكم ، كما قال تعالى : (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن ، بل أتيناهم بذكرهم ، فهم عن ذكرهم معرضون) (٤) .

وقوله : (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم) ، أى : حببه إلى نفوسكم وحسّنه فى قلوبكم .

قال الإمام أحمد : حدثنا بهز ، حدثنا على بن مسعدة ، حدثنا قتادة ، عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الإسلام علانية ، والإيمان فى القلب ــ قال : ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات ، ثم يقول ــ : التقوى هاهنا التقوى هاهنا (٥) » .

(وكره إليكم الكفر والسفوق [والعصيان) ، أى : وبغّض إليكم الكفر والفسوق] ــ وهى : الذنوب الكبار والعصيان وهى جميع المعاصى . وهذا تدريج لكمال النعمة .

وقوله : (أولئك هم الراشدون) ، أى : المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد آتاهم الله رشدهم .

قال الإمام أحمد : حدثنا مروان بن معاوية الفزّارى ، حدثنا عبد الواحد بن أيمن المكى ، عن ابن رفاعة (٦) الزّرَقى ، عن أبيه قال : لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون ، قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « استووا حتى أثنى على ربى عز

---

(١) أى : ليجمع الزكاة .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٦ / ٧٨ ــ ٧٩ .
(٣) سورة الأحزاب ، آية : ٦ .
(٤) سورة « المؤمنون » ، آية : ٧١ .
(٥) مسند الأمام أحمد : ٣/١٣٤ ــ ١٣٥ .
(٦) فى المخطوطة : « أبى رفاعة » . والمثبت عن المسند ، وانظر أسد الغابة ، ترجمة عبد الله بن رفاعة : ٣/٢٣٤ ، بتحقيقنا .

وجل » : فصاروا خلفه صفوفاً ، فقال : « اللهم ، لك[ا]لحمد [ ]كله . اللهم ، لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادىَ لمن أضللتَ ، ولا مُضِلَّ لمن هَدَيتَ . ولا مُعطىَ لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت . ولا مقرب لما باعدت ، ولا مباعد لما قربت . اللهم ، ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك . اللهم ، إنى أسألك النعيم المقيم الذى لا يَحول ولا يزُول ، اللهم ، إنى أسألك النعيم يوم العَيلة(١) ، والأمن يوم الخوف . اللهم ، [إنى] عائذ بك من شر ما أعطيتنا ، ومن شر ما منعتنا ، اللهم ، حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين . اللهم ، توفنا مسلمين ، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين . اللهم ، قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك . اللهم ، قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب ، إلهَ الحق(٢) » .

ورواه النسائى فى اليوم والليلة عن زياد بن أيوب ، عن مَروان ، بن معاوية ، عن عبد الواحد بن أيمن ، عن عُبَيد بن رفاعة ، عن أبيه ، به .

وفى الحديث المرفوع : « من سرته حسنته وساءته سيئته ، فهو مؤمن (٣) » .

ثم قال : (فضلا من الله ونعمة) ، أى : هذا العطاء الذى منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه ، (والله عليم حكيم) ، أى : عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية ، حكيم فى أقواله وأفعاله ، وشرعه وقدره .

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى آمرا بالإصلاح بين المسلمين الباغين بعضهم على بعض : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) ، فسماهم مؤمنين مع الاقتتال . وبهذا استدل البخارى وغيره على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت ، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم . وهكذا ثبت فى صحيح البخارى من حديث الحسن ، عن أبى بكرة أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خطب يوما ومعه على المنبر الحسن بن على ، فجعل ينظر إليه مرةً وإلى الناس أخرى ويقول : « إن ابنى هذا سيّد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين(٤) » . فكان كما قال صلوات الله وسلامه عليه ، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة .

---

(١) العيلة : الافتقار .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣/٤٢٤ .

(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب الفتن ، باب « فى لزوم الجماعة » ، الحديث ٢٢٥٤ : ٦/٣٨٣ — ٣٨٥ . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح غريب . . » ومسند الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب : ١/١٨ ، ٢٦ . وعن عامر بن ربيعة : ٣/٤٤٦ .

(٤) البخارى ، كتاب الصلح ، باب « قول النبى — صلى الله عليه وسلم — للحسن ... » : ٣/٢٤٣ — ٢٤٤ .

وقوله : (فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله) ، أى : حتى ترجع إلى أمر الله وتسمع للحق وتطيعه ، كما ثبت فى الصحيح عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » . قلت : يا رسول الله ، هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره ظالما ؟ قال : « تمنعه من الظلم ، فذاك نصرك إياه (١) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عارم ، حدثنا معتمر قال : سمعت أبى يحدث أن أنساً قال : قيل للنبى صلى الله عليه وسلم : لو أتيت عبد الله بن أبى ؟ فانطلق إليه نبى الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وركب حماراً ، وانطلق المسلمون يمشون ، وهى أرض سَبِخَة ، فلما انطلق إليه النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « إليك عنى ، فوالله لقد آذانى ريح حمارك » . فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله أطيب ريحا منك . قال : فغضب لعبد الله رجال من قومه ، فغضب لكل واحد منهما أصحابه ، قال : فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدى والنعال ، فبلغنا أنه أنزلت فيهم : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما (٢)) .

ورواه البخارى فى « الصلح » عن مسدد ، ومسلم فى المغازى عن محمد بن عبد الأعلى ، كلاهما عن المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، به نحوه (٣) .

وذكر سعيد بن جبير : أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال ، فأنزل الله هذه الآية ، فأمر بالصلح بينهما .

وقال السدى : كان رجل من الأنصار يقال له « عمران » ، كانت له امرأة تدعى أم زيد ، وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها فى عُلِّيَّة (٤) له لا يدخل عليها أحد من أهلها . وإن المرأة بعثت إلى أهلها ، فجاء قومها [وأنزلوها لينطلقوا(٥)] بها وإن الرجل قد كان خرج ، فاستعان أهل الرجل ، فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها ، فتدافعوا واجتلدوا بالنعال ، فنزلت فيهم هذه الآية : فبعث إليهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأصلح بينهم ، وفاءوا إلى أمر الله .

وقوله : (فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين) ، أى : اعدلوا بينهم فيما كان أصاب بعضهم لبعض ، بالقسط ، وهو العدل ، (إن الله يحب المقسطين) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى ، حدثنا عبد الأعلى ، عن معمر ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن المقسطين فى الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدى الرحمن ، بما أقسطوا فى الدنيا » .

ورواه النسائى عن محمد بن المثنى ، عن عبد الأعلى ، به . وهذا إسناد جيد قوى ، رجاله على شرط الصحيح .

---

(١) البخارى ، كتاب المظالم ، باب « أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً » : ٣/١٦٨ . ومسلم ، كتاب البر ، باب « نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً » : ٨/١٩ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣/١٥٧ ، ٢١٩ .

(٣) البخارى ، كتاب الصلح : ٣/٢٣٩ ــ ٢٤٠ . ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب « فى دعاء النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى الله ، وصبره على أذى المنافقين » : ٥/١٨٣ .

(٤) العلية : الغرفة .

(٥) فى المخطوطة : « وأهلوها يتطلبوا » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

وحدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن عمرو بن أوس ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهاليهم وما وَلُوا » .

ورواه مسلم والنسائى ، من حديث سفيان بن عيينة ، به [1] :

وقوله : (إنما المؤمنون إخوة) ، أى : الجميع إخوة فى الدين ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه [2] » . وفى الصحيح : « والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه [3] » . وفى الصحيح أيضاً : « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك : آمين ، ولك بمثله [4] » . والأحاديث فى هذا كثيرة ، وفى الصحيح : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر »[5] وفى الصحيح أيضا : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . وشبك بين أصابعه » [6] .

وقال أحمد : حدثنا أحمد بن الحجاج ، حدثنا عبد الله ، أخبرنا مصعب بن ثابت ، حدثنى أبو حازم قال : سمعت سهل ابن سعد الساعدى يُحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما فى الرأس » [7] . تفرد به ولا بأس بإسناده .

وقوله : (فأصلحوا بين أخويكم) ، يعنى الفئتين المقتتلتين ، (واتقوا الله) ، أى : فى جميع أموركم (لعلكم ترحمون) ، وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه .

---

(١) مسلم ، كتاب الإمارة ، باب « فضيلة الإمام العادل . . » ٧/٦ . والنسائى ، كتاب آداب القضاة ، باب « فضل الحاكم العادل فى حكمه » : ٨/٣٢١ – ٣٢٢ .

(٢) البخارى ، كتاب المظالم ، باب « لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه » : ٣/١٦٨ ، ومسلم ، كتاب البر ، باب تحريم الظلم ٨/١٨ . وسنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « فى الستر على المسلم » . وتحفة الأحوذى ، أبواب الحدود ، باب « ما جاء فى الستر على المسلم » ، الحديث ١٤٤٨ : ٤/٦٩١ – ٦٩٢ . ومسند الإمام أحمد عن ابن عمر : ٢/٩١ .

(٣) مسلم ، كتاب الذكر ، باب « فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر » : ٨/٧١ . وسنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « فى المعونة للمسلم » . وتحفة الأحوذى ، أبواب الحدود ، باب « ما جاء فى الستر على المسلم » ، الحديث ١٤٤٦ : ٤/٦٩٠ – ٦٩١ . وابن ماجة ، المقدمة ، باب « فضل العلماء والحث على طلب العلم » ، الحديث ٢٢٥ : ١/٨٢ . ومسند الإمام أحمد عن أبى هريرة : ٢/٢٥٢ ، ٢٧٤ ، ٢٩٦ ، ٥٠٠ ، ٥١٤ .

(٤) مسلم ، كتاب البر ، باب « فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب » : ٨/٨٦ . وسنن أبى داود ، كتاب الوتر ، باب « الدعاء بظهر الغيب » . هذا وفى مسلم وسنن أبى داود : « ولك بمثل » ، دون هاء .

(٥) البخارى ، كتاب الأدب ، باب « رحمة الناس والبهائم » : ٨/١١ – ١٢ . ومسلم ، كتاب البر ، باب « تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم » » : ٨/٢٠ ، ومسند الإمام أحمد عن النعمان بن بشير : ٤/٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٣٧٥ .

(٦) البخارى ، كتاب الصلاة ، باب « تشبيك الأصابع فى المسجد وغيره » : ١/١٢٩ . ومسلم ، كتاب البر ، باب « تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم » : ٨/٢٠ . وتحفة الأحوذى ، أبواب البر ، باب ما جاء فى شفقة المسلم على المسلم » ، الحديث ١٩٩٣ : ٦/٥٥ . وقال الترمذى : « حسن صحيح » . والنسائى ، كتاب الزكاة ، باب « أجر الخازن إذا تصدق بإذن مولاه » : ٥/٧٩ . ومسند الإمام أحمد عن أبى موسى الأشعرى : ٤/٤٠٤ – ٤٠٥ ، ٤٠٩ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٥/٣٤٠ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (١١) ﴾

ينهى تعالى عن السخرية بالناس ، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم ، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الكبر بَطَر الحق وغمص الناس — ويروى : وغمط الناس(١) » . والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم ، وهذا حرام ، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرا عند الله وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له ، ولهذا قال : (يا أيها الذين آمنوا ، لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن) ، فنص على نهي الرجال وعطف بنهي النساء .

وقوله : (ولا تلمزوا أنفسكم) ، أي : لا تلمزوا الناس . والهماز اللماز من الرجال مذموم ملعون ، كما قال : (ويل لكل همزة لمزة) (٢) ، فالهمز بالفعل ، واللمز بالقول ، كما قال : (هماز مشاء بنميم) (٣) ، أي : يحتقر الناس ويهمزهم طاعناً عليهم ، ويمشي بينهم بالنميمة وهي : اللمز بالمقال ، ولهذا قال هاهنا : (ولا تلمزوا أنفسكم) ، كما قال : (ولا تقتلوا أنفسكم)(٤) ، أي : لا يقتل بعضكم بعضا .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جُبَير ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان : (ولا تلمزوا أنفسكم) ، أي : لا يطعُن بعضكم على بعض (٥) .

وقوله : (ولا تنابزوا بالألقاب) ، أي : لا تتداعوا بالألقاب ، وهي التي يسوء الشخصَ سماعُها :

قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا داودُ بن أبي هند ، عن الشعبي قال : حدثني أبو جُبيرةَ بن الضحاك قال : فينا نزلت في بني سَلِمة : (ولا تنابزوا بالألقاب) ، قال : قدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دُعِيَ أحدٌ منهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يارسول الله ، إنه يغضب من هذا . فنزلت : (ولا تنابزوا بالألقاب) (٦) .

ورواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل ، عن وُهَيب ، عن داود ، به (٧) .

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية الحادية عشرة من سورة الأحقاف ، وخرجناه هنالك . انظر : ٧/٢٦٢ .
(٢) سورة الهمزة ، آية : ١ .
(٣) سورة القلم ، آية : ١١ .
(٤) سورة النساء ، آية ٢٩ .
(٥) تفسير الطبري : ٢٦/٨٣ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٤/٢٦٠ .
(٧) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « في الألقاب » .

وقوله : (بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان) ، أى : بئس الصفةُ والإسم الفسوقُ وهو : التنابز بالألقاب ، كما كان أهل الجاهلية يتناعتون – بعد ما دخلتم فى الإسلام وعقلتموه . (ومن لم يتب) ، أى : من هذا (فأولئك هم الظالمون) .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن كثير من الظن ، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس فى غير محله ، لأن بعض ذلك يكون إثما محضا ، فليجتنب كثير منه احتياطا ، وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – أنه قال : ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيرا ، وأنت تجد لها فى الخير محملا .

وقال أبو عبدالله بن ماجه : حدثنا أبو القاسم بن أبى ضَمْرة نصر بن محمد بن سليمان الحمصى ، حدثنا أبى ، حدثنا عبدالله بن أبى قيس النَّصْرى ، حدثنا عبد الله بن عمر قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول : « ما أطيبك وأطيب ريحك ! ما أعظمك وأعظم حرمتك . والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمةً منك ، ماله ودمه ، وأن يظن به إلا خيرً (١) » . تفرد به ابن ماجه من هذا الوجه .

وقال مالك ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والظنّ ؛ فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا [ولا تحسسوا] ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا » .

رواه البخارى (٢) عن عبد الله بن يوسف ، ومسلم عن يحيى بن يحيى ، وأبو داود عن العتبى ، عن مالك ، به .

وقال سفيان بن عُيَيْنَة ، عن الزهرى ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ، وكونوا عباد الله إخوانا . ولا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام » .

رواه مسلم والترمذى – وصححه – من حديث سفيان بن عيينة ، به (٣) .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن عبد الله القرمطى العدوى ، حدثنا بكر بن عبد الوهاب المدنى ، حدثنا إسماعيل بن قيس الأنصارى حدثنى عبد الرحمن بن محمد بن أبى الرجال ، عن أبيه ، عن جده حارثة بن النعمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث لازمات لأمتى : الطِّيَرة ، والحسد ، وسوء الظن » . فقال رجل : ما يذهبهن يا رسول الله ممن هُنَّ فيه ؟ قال : « إذا حَسَدت فاستغفر الله ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تَطَيَّرت فَأَمض » .

---

(١) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب « حرمة دم المؤمن وماله » ، الحديث ٣٩١٢ : ٢/١٢٩٧ .

(٢) البخارى ، كتاب الأدب ، باب (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن . .) : ٨/٢٣ . ومسلم ، كتاب البر ، باب « تحريم الظن والتجسس . . » ٨/١٠ .

(٣) مسلم فى الكتاب والباب المتقدمين : ٨/٩ . وتحفة الأحوذى ، أبواب البر ، باب « ما جاء فى الحسد » ، الحديث ٢٠٠٠ : ٦/٦٤ – ٦٥ .

وقال أبو داود : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش ، عن زيد قال : أُتي ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ برجل ، فقيل له: هذا فلان تقطرُ لحيته خمرا . فقال عبد الله : إنا قد نُهينا عن التجسس،ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به.(١) .

سماه ابن أبي حاتم في روايته الوليد بن عقبة بن أبي معيط .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم ، حدثنا ليث ، عن إبراهيم بن نشيط الخَوْلاني ، عن كعب بن علقمة ، عن أبي الهيثم ، عن دُخَين كاتب عقبة قال : قلت لعقبة : إن لنا جيرانا يشربون الخمر ، وأنا داع لهم الشُّرَطَ فيأخذونهم . قال : لا تفعل ، ولكن عظهم وتهدّدهم . قال : ففعل فلم ينتهوا . قال : فجاءه دُخَين فقال : إني قد نهيتهم فلم ينتهوا ، وإني داع لهم الشُّرَط فتأخذهم . فقال له عقبة : ويحك لا تفعل ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها (٢) » .

ورواه أبو داود والنسائي من حديث الليث بن سعد ، به نحوه (٣) .

وقال سفيان الثوري ، عن ثور ، عن راشد بن سعد ، عن معاوية قال : سمعت النبي ــ صلى الله عليه وسلم يقول: « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم ، أو : كدت أن تفسدهم » . فقال أبو الدرداء : كلمة سمعها معاوية من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعه الله بها . رواه أبو داود منفردا به من حديث الثوري ، به (٤) .

وقال أبو داود أيضا : حدثنا سعيد بن عَمْرو الحضرمي ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، حدثنا ضمضم بن زرعة ، عن شريح ابن عبيد ، عن جبير بن نفير ، وكثير بن مرة ، وعمرو بن الأسود، والمقدام بن معد يكرب ، وأبي أمامة ، عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس ، أفسدهم (٤) » .

(ولا تجسسوا)، أي : على بعضكم بعضا . والتجسس غالبا يطلق في الشر ، ومنه الجاسوس . وأما التحسس فيكون غالبا في الخير ، كما قال تعالى إخبارا عن يعقوب أنه قال : (يا بني ، اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله) (٦) ، وقد يستعمل كل منهما في الشر ، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم قال : « لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا (٧) » .

وقال الأوزاعي : التجسس: البحث عن الشيء . والتحسس: الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون ، أو يتسمع على أبوابهم . والتدابر : الصَّرْم (٨) . رواه ابن أبي حاتم .

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « في النهي عن التجسس » .
(٢) مسند الإمام أحمد : ١٥٣/٤ . وانظر أيضاً : ١٥٨/٤ .
(٣) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « في الستر على المسلم » .
(٤) سنن أبي داود في الكتاب السابق ، باب « في النهي عن التجسس » .
هذا وفي هذه الأحاديث والأقوال المأثورة عن السلف ، دليل على أن الإسلام كان يقدر الحرية الشخصية على شريطة أن لا تخدش الحياء العام ، أو تمس حرية الآخرين ، على أن الإسلام ــ مع ذلك ــ لم يعف هذه المسلك الخاص من المسئولية ، بل رتب عليه الجزاء .
(٦) سورة يوسف ، آية : ٨٧ .
(٧) قدمْ تخريجه من قريب .
(٨) أي : أن يهجر كل واحد صديقه أو أخاه .

وقوله : (ولا يغتب بعضكم بعضا) : فيه نهى عن الغيبة ، وقد فسرها الشارع كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود : حدثنا القعنبى ، حدثنا عبد العزيز بن محمد ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبى هريرة قال : قيل : يا رسول الله، ما الغيبة ؟ قال: « ذكرك أخاك بما يكره » : قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه (١) » .

ورواه الترمذى عن قتيبة ، عن الدراوردى ، به : وقال : « حسن صحيح (٢) » : ورواه ابن جرير عن بندار ، عن غندر ، عن شعبة ، عن العلاء (٣) : وهكذا قال ابن عمر ، ومسروق ، وقتادة ، وأبو إسحاق ، ومعاوية بن قرة .

وقال أبو داود : حدثنا مسدد ، حدثنا يحيى ، عن [سفيان] حدثنى على بن الأقمر ، عن أبى حذيفة، عن عائشة قالت : [قلت] للنبى صلى الله عليه وسلم : حسبك من صفية كذا وكذا ! — قال غير مسدد: تعنى قصيرة — فقال: « لقد قلتِ كلمة لو مُزجت بماء البحر لَمَزَجَتْه (٤) » : قالت : وحكيتُ له(٥) إنسانا فقال صلى الله عليه وسلم : « ما أحب أنى حكيت إنسانا وإنّ لى كذا وكذا (٦) » .

ورواه الترمذى من حديث يحيى القطان ، وعبد الرحمن بن مهدى ، ووكيع ، ثلاثتهم عن سفيان الثورى، عن على بن الأقمر ، عن أبى حذيفة سلمة بن صُهَيبة الأرحبى ، عن عائشة ، به : وقال : « حسن صحيح (٧) » .

وقال ابن جرير : حدثنى ابن أبى الشوارب : حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا سليمان الشيبانى ، حدثنا حسان بن المخارق أن امرأة دخلت على عائشة فلما قامت لتخرج أشارت عائشة بيدها إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — أى : إنها قصيرة — فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « اغتبتيها (٨) » .

والغيبة محرمة بالإجماع ، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجّحت مصلحته ، كما فى الجرح والتعديل والنصيحة ، كقوله صلى الله عليه وسلم لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر : « ائذنوا له ، بئس أخو العشيرة (٩) » . وكقوله لفاطمة بنت قيس وقد خطبها معاوية وأبو الجهم : « أما معاوية فصعلوك (١٠)، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه (١١) عن عاتقه(١٢) » . وكذا

(١) سنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « فى الغيبة » .
(٢) تحفة الأحوذى ، أبواب البر ، باب « ما جاء فى الغيبة » ، الحديث ١٩٩٩ : ٦/٦٣ — ٦٤ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٦ / ٨٦ .
(٤) أى غيرته عن حاله .
(٥) أى عملت مثل فعله .
(٦) سنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « فى الغيبة » .
(٧) تحفة الأحوذى ، أبواب صفة القيامة ، الحديث ٢٦٢٣ ، ٢٦٢٤ : ٧/٢٠٨ — ٢٠٩ .
(٨) تفسير الطبرى : ٢٦/٨٧ .
(٩) البخارى، كتاب الأدب، باب «لم يكن النبى —صلى الله عليه وسلم— فاحشا ولا متفحشا»: ٨/١٥ — ١٦ . وسنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « فى حسن العشرة » .
(١٠) أى : فقير .
(١١) أى : إنه كثير الضرب .
(١٢) مسلم ، كتاب الطلاق، باب « المطلقة ثلاثا لا نفقة لها »: ٤/١٩٥. وسنن أبى داود ، كتاب الطلاق، باب « فى نفقة المبتوتة » . وتحفة الأحوذى ، أبواب النكاح، باب « ما جاء أن لا يخطب الرجل على خطبة أخيه » ، الحديث ١١٤٣ : ٤/٢٨٤ — ٢٨٥ . والنسائى ، كتاب النكاح ، باب « إذا استشارت المرأة رجلا فيمن يخطبها ، هل يخبرها بما يعلم ؟ » : ٦/٧٥ — ٧٧ .

ماجرَى مجرى ذلك ؛ ثم بقيتها على التحريم الشديد ، وقد ورد فيها الزجر الأكيد ، ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت ، كما قال تعالى : (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه(١)) ؟ أى : كما تكرهون هذا [طبعا] ، فاكرهوا ذاك شرعا ؛ فإن عقوبته أشد من هذا . وهذا من التنفير عنها والتحذير منها ، كما قال ـــ عليه السلام ـــ فى العائد فى هبته : «كالكلب يقىء ثم يرجع فى قيئه » ، وقد قال : « ليس لنا مثلُ السوء(٢) » . وثبت فى الصحاح والحسان والمسانيد من غير وجه أنه ـــ عليه السلام ـــ قال فى خطبة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » (٣) .

وقال أبو داود : حدثنا واصل بن عبد الأعلى ، حدثنا أسباط بن محمد ، عن هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كل المسلم على المسلم حرام : ماله وعرضه ودمه ، حسب امرئ من الشر أن يحقرَ أخاه المسلم (٤) » .

ورواه الترمذى عن عُبَيد بن أسباط بن محمد ، عن أبيه ، به . وقال : « حسن غريب (٥) » .

وحدثنا عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا الأسود بن عامر ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن الأعمش ، عن سعيد بن عبد الله بن جُرَيج ، عن أبى بَرْزَةَ الأسلمى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته (٤) » .

تفرد به أبو داود(٦) ، وقد روى من حديث البراء بن عازب ، فقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده : حدثنا إبراهيم بن دينار ، حدثنا مصعب بن سلام ، عن حمزة بن حبيب الزيات ، عن أبى إسحاق السبيعى ، عن البراء بن عازب قال : خطبنا رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ حتى أسمع العواتق فى بيوتها ـــ أو قال : فى خدورها ـــ فقال : « يا معشر من آمن بلسانه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ؛ فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه فى جوف بيته » .

---

(١) سورة الحجرات ، آية : ١٢ .

(٢) البخارى ، كتاب الهبة ، باب « لا يحل لأحد أن يرجع فى هبته وصدقته » : ٣/٢١٥ . وتحفة الأحوذى أبواب البيوع ، باب « ما جاء فى كراهية الرجوع فى الهبة » ، الحديث ١٣١٦ : ٤/٥٢٢ – ٥٢٣ .

(٣) البخارى ، كتاب العلم ، باب « ليبلغ العلم الشاهد الغائب » : ١/٣٧ – ٣٨ . ومسلم ، كتاب الحج ، باب « حجة النبى صلى الله عليه وسلم » : ٤/٤١ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة التوبة ، الحديث ٥٠٨٢ : ٨/٤٨١ . وابن ماجه ، كتاب الفتن، باب « حرمة دم المؤمن وماله » ، الحديث ٣٩٣١ : ٤/١٢٩٧ . ومسند الإمام أحمد عن ابن عباس : ١/٢٣٠ . وعن جابر ابن عبد الله : ٣/٣١٣ ، ٣٧١ ، وعن الحارث بن عمرو : ٣/٤٨٥ . وعن أبى الغادية : ٤/٧٦ ، ٥/٦٨ ، وعن نبيط ابن شريط : ٤/٣٠٥ – ٣٠٦ ، وعن خريم بن عمرو السعدى : ٤/٣٣٧ ، وعن العداء بن خالد بن هوذة : ٥/٣٠ ، وعن أبى بكرة : ٥/٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٩ ، وعن أبى مرة الرقاشى ، عن عمه : ٥/٧٢ ، وعن رجل من أصحاب النبى : ٥/٤١١ ، ٤١٢ .

(٤) سنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « فى الغيبة » .

(٥) تحفة الأحوذى ، أبواب البر ، باب « ما جاء فى شفقة المسلم على المسلم » ، الحديث ١٩٩٢ : ٦/٥٤ – ٥٥ .

(٦) أخرجه الترمذى فى أبواب البر ، باب « ما جاء فى تعظيم المؤمن » عن ابن عمر ، وقال : « هذا حديث حسن غريب » ثم قال : « وقد روى عن أبى برزة الأسلمى ، عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نحو هذا » . انظر تحفة الأحوذى ، الحديث ٢١٠١ : ٦/١٨٠ – ١٨٢ .

طريق أخرى عن ابن عمر، قال أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي: أخبرنا عبد الله بن ناجية، حدثنا يحيى بن أكثم، حدثنا الفضل بن موسى الشيباني، عن الحسين بن واقد، عن أوفى بن دلهم، عن نافع، عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يُفْضِ الإيمانُ إلى قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورات المسلمين يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله». قال: ونظر ابن عمر يوما إلى الكعبة فقال: ما أعظمكِ وأعظم حرمتك، ولَلْمؤمن أعظمُ حرمة عند الله منك (١).

قال أبو داود: وحدثنا حيوة بن شريح، حدثنا بقية، عن ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن وقاص بن ربيعة، عن المستورد أنه حدثه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها فى جهنم، ومن كُسِيَ ثوبا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله فى جهنم. ومن قام برجل مقام سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة». تفرد به أبو داود (٢).

وحدثنا ابن مصفى، حدثنا بقية وأبو المغيرة [قالا]: حدثنا صفوان، حدثنى راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبير، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لما عُرِج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، قلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون فى أعراضهم (٢)».

تفرد به أبو داود، وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبى المغيرة عبد القدوس بن الحجاج الشامى، به (٣).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا أبو عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد العمى، حدثنا أبو هارون العَبْدِىّ، عن أبى سعيد الخدرى قال: قلنا يا رسول الله، حَدِّثنا ما رأيت ليلةَ أسرىَ بك؟ ... قال: ثم انطلق بى إلى خلق من خلق الله كثير، رجال ونساء مُوَكَّل بهم رجال يعمدون إلى عُرْض جَنْب أحدهم فيَحْذُون منه الحُذْوَةَ (٤) من مثل النعل ثم يضعونه فى فِى أحدهم، فيقال له: «كل كما أكلت»، وهو يجد من أكله الموت — يا محمد — لو يجد (٥) الموت وهو يكره عليه. فقلت: يا جبرائيل، من هؤلاء: قال: هؤلاء الهمازون اللمازون أصحاب النميمة. فيقال: (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه) وهو يكره على أكل لحمه ...

هكذا أورد هذا الحديث، وقد سقناه بطوله فى أول تفسير «سورة سبحان» ولله الحمد (٦).

وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده: حدثنا الربيع، عن يزيد، عن أنس: أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أمر الناس أن يصوموا يوما ولا يُفطِرَنّ أحدٌ حتى آذن له. فصام الناس فلما أمسوا جعل الرجل يجىء إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيقول: [ظللت] منذ اليوم صائما، فائذن لى فأُفطرَ. فيأذن له، ويجىء الرجل فيقول ذلك، فيأذن له، حتى جاء رجل فقال: يا رسول [الله]، إن فتاتين من أهلك ظلتا منذ اليوم صائمتين، فائذن لهما فلْيُفطرا. فأعرض عنه، ثم أعاد، فقال رسول

---

(١) أخرجه الترمذى من حديث الفضل بن موسى بإسناده. وهو الحديث الذى خرجناه فى التعليق السابق.
(٢) سنن أبى داود، كتاب الأدب، باب «فى الغيبة».
(٣) مسند الإمام أحمد: ٣/٢٢٤.
(٤) الحذو: القطع والتقدير، أى: يقطعون منه القطعة.
(٥) فى المخطوطة: «وهو يجد». والمثبت عن الطبعات السابقة.
(٦) انظر: ٥/٢٠ – ٢٣.

الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « ما صامتا ، وكيف صام من ظل يأكل لحوم الناس ؟ اذهب فمرهما إن كانتا صائمتين أن يستقيئا . ففعلتا ، فقاءت كل واحدة منهما عَلَقَةً [علقةً] (١) فأتى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأخبره ، فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « لو ماتتا وهما فيهما لأكلتهما النار(٢)» .

إسناد ضعيف ، ومتن غريب . وقد رواه الحافظ البيهقي من حديث يزيد بن هارون : حدثنا سليمان التيمي قال : سمعت رجلا يحدث فى مجلس أبى عثمان النهدى عن عبيد ــ مولى رسول الله ــ أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن رجلا أتى رسول الله فقال : يا رسول الله ، إن هاهنا امرأتين صامتا . وإنهما كادتا تموتان من العطش ــ أراهُ قال : بالهاجرة ــ فأعرض عنه ــ أو : سكت عنه ــ فقال : يا نبى الله ، إنهما ــ والله ــ قد ماتتا أو كادتا تموتان . فقال : ادعهما ، فجاءتا ، قال : فجئ بقدح ــ أو عُسٍّ ــ فقال لإحداهما : قيئى . فقاءت من قيح ودم وصديد ، حتى قاءت نصف القدح . ثم قال للأخرى : قيئى . فقاءت قيحا ودما وصديدا ولحما ودما عَبِيطا (٣) وغيره حتى ملأت القدح . فقال : إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما ، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما ، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس .

وهكذا قد رواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون وابن أبى عدى ، كلاهما عن سليمان بن طرخان التيمى ، به مثله أو نحوه (٤) . ثم رواه أيضا من حديث مسدد ، عن يحيى القطان ، عن عثمان بن غياث ، حدثنى رجل أظنه فى حلقة أبى عثمان ، عن سعد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنهم أمروا بصيام ، فجاء رجل فى نصف النهار فقال يارسول الله: فلانة وفلانة قد بلغتا الجهد . فأعرض عنه مرتين أو ثلاثا ، ثم قال: «ادعهما». فجاء بعُسٍّ ــ أو: قَدَحٍ ــ فقال لإحداهما : «قيئى» فقاءت لحماً ودَماً عبيطا وقيحا ، وقال للأخرى مثل ذلك، فقال : إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما ، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما ، أتت إحداهما للأخرى فلم تزالا تأكلان لحوم الناس حتى امتلأت أجوافهما قيحا .

قال البيهقى : كذا قال «عن سعد» ، والأول ــ وهو عبيد ــ أصح(٥) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا عمرو بن الضحاك بن مخلد ، حدثنا أبى أبو عاصم ، حدثنا ابن جريج ، أخبرنى أبو الزبير عن ابن عمٍّ (٦) لأبى هريرة أنا ماعزاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، إنى قد زنيت. فأعرض عنه ــ قالها أربعا ــ فلما كان فى الخامسة قال : زنيت ؟ قال : نعم . قال : وتدرى ما الزنا ؟ قال : نعم ، أتيت منها حراما ما يأتى الرجل من امرأته حلالا . قال : ما تريد إلى هذا القول ؟ قال : أريد أن تطهرنى . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أدخلتَ ذلك منك فى ذلك منها كما يغيب الميل (٦) فى المكحلة والرشاء فى البئر ؟ قال : نعم ، يا رسول الله . قال : فأمر برجمه فرُجِم ، فسمع النبى صلى الله عليه وسلم رجلين يقول أحدهما [لصاحبه] : ألم تر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه

---

(١) العلقة : قطعة من الدم .

(٢) منحة المعبود ، كتاب الصيام ، باب « التغليظ فى الغيبة من الصائم ، وما يفعل إذا سبه إنسان أو شتمه » : ١/١٨٨ .

(٣) العبيط : اللحم الطرى غير النضيج .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٥/٤٣١ .

(٥) انظر أسد الغابة ، الترجمة ١٩٩٥ : ٢/٣٤٩ ــ ٣٥٠ ، والترجمة ٣٤٨٩ : ٣/٥٣٨ ــ ٥٣٩ ، بتحقيقنا .

(٦) الحديث أخرجه أبو داود فى كتاب الحدود ، باب « فى الرجم » ، من طريق ابن جريج ، عن أبى الزبير ، عن عبد الرحمن ابن الصامت ابن عم أبى هريرة ، بنحوه .

(٧) الميل : ما يكتحل به .

لفسه حتى رُجِمَ رجم الكلب (١) . ثم سار النبي – صلى الله عليه وسلم – حتى مَرّ بجيفة حمار فقال : أين فلان وفلان ؟ انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار . قالا : غفر الله لك يا رسول الله ، وهل يُؤكل هذا ؟ قال : فما نلتما من أخيكما آنفا أشد أكلا منه ، والذى نفسى بيده إنه الآن لفى أنهار الجنة ينغمس فيها .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنى أبى ، حدثنا واصل – مولى ابن عيينة – حدثنى خالد بن عرفطة ، عن طلحة بن نافع ، عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع النبي – صلى الله عليه وسلم – فارتفعت ريح جيفة منتنة ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « أتدرون ما هذه الريح ؟ هذه ريح الذين يغتابون [المؤمنين] (٢) .

طريق أخرى ، قال عَبد بن حُمَيد فى مسنده : حدثنا إبراهيم بن الأشعث ، حدثنا الفُضَيل بن عياض ، عن سليمان ، عن أبى سفيان – وهو طلحة بن نافع – عن جابر قال : كنا مع النبي – صلى الله عليه وسلم – فى سفر فهاجت ريح منتنة ، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : « إن نفراً من المنافقين اغتابوا ناسا من المسلمين ، فلذلك بعثت هذه الريح » . وربما قال : « فلذلك هاجت هذه الريح » .

وقال السدى فى قوله : (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ؟) : زعم أن سلمان الفارسى كان مع رجلين من أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – فى سفر يخدمهما ويخفّ لهما ، وينال من طعامهما ، وأن سلمان لما سار الناس ذات يوم وبقى سلمان نائما ، لم يسر معهم ، فجعل صاحباه يكلمانه فلم يجداه ، فضربا الخباء فقالا : ما يريد سلمان – أو : هذا العبد – شيئا غير هذا : أن يجيء إلى طعام مقدور(٣) ، وخباء مضروب ! فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يطلب لهما إداما ، فانطلق فأتى رسول الله ومعه قدَح له ، فقال : يا رسول الله ، بعثنى أصحابى لتؤدمهم (٤) إن كان عندك ؟ قال : « مايصنع أصحابك بالأدم ؟ قد ائتدموا » . فرجع سلمان يخبرهما بقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فانطلقا حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : لا ، والذى بعثك بالحق ما أصبنا طعاما منذ نزلنا . قال : « إنكما قد ائتدمتما بسلمان بقولكما » ، قال : ونزلت : (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا) ، إنه كان نائما (٥) .

وروى الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه « المختارة »(٦) من طريق حَبّان بن هلال ، عن [حماد] بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك قال : كانت العرب تخدم بعضها بعضا فى الأسفار ، وكان مع أبى بكر وعمر رجل يخدمهما ، فناما فاستيقظا ولم يهيئ لهما طعاما ، فقالا : إن هذا [لنؤوم](٧) فأيقظاه فقالا له : ائت رسول الله فقل له : إن أبا بكر وعمر يقرئانك السلام ، ويستأدمانك ؛ فقال : « إنهما قد ائتدما » . فجاءا فقالا : يا رسول الله ، بأى شيء ائتدمنا ؟ فقال : « بلحم أخيكما ، والذى نفسى بيده إنى لأرى لحمه بين ثناياكما » . فقالا : استغفرْ لنا يا رسول الله . فقال : « مُرَاه فليستغفر لكما (٨) » .

---

(١) بعده فى سنن أبى داود : « فسكت عنهما ، ثم سار . . . » .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٥١/٣ .
(٣) أى : مطبوخ .
(٤) الأدم – بضم فسكون : ما يؤكل به مع الخبز ، أى شيء كان . وتؤدمهم : تعطيهم الأدم .
(٥) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن ابن أبى حاتم . انظر : ٩٤/٦ .
(٦) انظر : ١٨٧/٥ .
(٧) فى المخطوطة : « وإن هذا ليوائم بيوم يتم ، فأيقظاه » . والمثبت من الطبعات السابقة ، والدر المنثور .
(٨) أخرجه السيوطى فى الدر عن الضياء . انظر : ٩٥/٦ .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا الحكم بن موسى ، حدثنا محمد بن مسلم ، عن محمد بن إسحاق عن عمه موسى بن يسار ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أكل من لحم أخيه فى الدنيا ، قُرب له لحمه فى الآخرة ، فيقال له : كله ميتا كما أكلته حيا ، قال : فيأكله ويكْلَح (١) ويصيح » غريب جدا .

وقوله : (واتقوا الله) ، أى : فيما أمركم به ونهاكم عنه ، فراقبوه فى ذلك واخشوا منه ، (إن الله تواب رحيم) ، أى : تواب على من تاب إليه ، رحيم بمن رجع إليه ، واعتمد عليه .

قال الجمهور من العلماء : طريق المغتاب للناس فى توبته أن يُقلع عن ذلك ، ويعزم على ان لا يعود . وهل يشترط الندم على ما فات ؟ فيه نزاع ، وأن يتحلل من الذى اغتابه ، وقال آخرون : لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه ، فطريقه إذاً أن يثنى عليه بما فيه فى المجالس التى كان يذمه فيها ، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته ، فتكون تلك بتلك ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا أحمد بن الحجاج ، أخبرنا عبد الله ، أخبرنا يحيى بن أيوب ، عن عبدالله بن سليمان : ان إسماعيل بن يحيى المعافرى أخبره أن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى أخبره ، عن أبيه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من حمى مؤمنا من منافق يعيبه بعث الله إليه ملكا يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مؤمنا بشىء يريد شينه حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال (٢) » . وكذا رواه أبو داود من حديث عبد الله ــ وهو ابن المبارك ــ به بنحوه (٣) .

وقال أبو داود أيضا : حدثنا إسحاق بن الصباح ، حدثنا ابن أبى مريم ، أخبرنا الليث : حدثنى يحيى بن سليم أنه سمع إسماعيل بن بَشير يقول : سمعت جابر بن عبد الله ، وأبا طلحة بن سهل الأنصارى يقولان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من امرئ يخذل امرأ مسلما فى موضع تُنتهك فيه حُرمته ويُنتقَص فيه من عرْضه ، إلا خذله الله فى مواطن يحب فيها نصرته ، وما من امرئ ينصر امرأ مسلما فى موضع يُنتقص فيه من عرضه ، [وينتهك فيه من حرمته] ، إلا نصره الله فى مواطن يحب فيها نصرته » ، تفرد به أبو داود (٣) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾

يقول تعالى مخبرا للناس أنه خلقهم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ، وهما آدم وحواء ، وجعلهم شعوبا وهى أعم من القبائل ، وبعد القبائل مراتب أخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك .

وقيل : المراد بالشعوب بطون العجم ، وبالقبائل بطون العرب ، كما أن الأسباط بطون بنى إسرائيل . وقد لخصت هذا فى مقدمة مفردة جمعتها من كتاب « الإنباه (٤) » لأبى عمر بن عبد البر ، ومن كتاب « القَصْدُ والأمم ، فى معرفة أنساب العرب

---

(١) الكلوح والكلاح ــ بضم الكاف ــ بدو الأسنان عند العبوس .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣/٤٤١ .

(٣) سنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « من رد عن مسلم غيبة » .

(٤) فى المخطوطة : « الأسباء » ، والمثبت من فهرسة ابن خير : ٢١٤ ، وهو كتاب « الإنباه على القبائل الرواه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم » .

والعجم » . فجميع الناس فى الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية ، وهى طاعة الله ومتابعة رسوله — صلى الله عليه وسلم — ولهذا قال تعالى بعد النهى عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً ، منبها على تساويهم فى البشرية : (يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) . أى : ليحصلَ التعارفُ بينهم، كلٌ يرجع إلى قبيلته .

وقال مجاهد فى قوله : (لتعارفوا) ، كما يقال : فلان بن فلان من كذا وكذا (١) . أى : من قبيلة كذا وكذا .

وقال سفيان الثورى : كانت حمير ينتسبون إلى مَخَاليفها(٢) ، وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلى قبائلها .

وقد قال أبو عيسى الترمذى : حدثنا أحمد بن محمد ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن عبد الملك بن عيسى الثقفى ، عن يزيد — مولى المنبعث — عن أبى هُرَيرة ،عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تَعَلَّموا من أنسابكم ما تصلون [به] أرحامكم ؛ فإن صلة الرحم مَحَبَّةٌ فى الأهل ، مَثْرَاةٌ فى المال ، مَنْسَأةٌ(٣) فى الأثر » . ثم قال : « غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه (٤) » .

وقوله : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، أى : إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب . وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قال البخارى رحمه الله : حدثنا محمد بن سَلاَم ، حدثنا عبدة ، عن عبيد الله ، عن سعيد بن أبى سعيد ، عن أبى هريرة قال : سُئِل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : أىّ الناس أكرم ؟ قال : « أكرمهم عند الله أتقاهم » . قالوا : ليس عن هذا نسألك . [قال : « فأكرم الناس يوسف نبى الله، ابن نبى الله ، ابن خليل الله » . قالوا: ليس عن هذا نسألك !] . قال: « فعن معادن العرب تسألونى » ؟ قالوا : نعم ! قال : « فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فَقِهُوا (٥) » .

وقد رواه البخارى فى غير موضع من طرق عن عَبْدَة بن سليمان . ورواه النسائى فى التفسير من حديث عُبَيد الله — وهو ابن عُمَر العُمَرى — به :

حديث آخر ، قال مسلم رحمه الله : حدثنا عَمْرو الناقد،حدثنا كَثير بن هشام ، حدثنا جعفر بن بُرقان ، عن يزيد بن الأصَمّ ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم (٦) » .

ورواه ابن ماجه عن أحمد بن سنان ، عن كَثير بن هشام ، به (٧) .

حديث آخر ، وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن أبى هلال ، عن بكر ، عن أبى ذر قال : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : « انظر ، فإنك لست بخير من أحمر و لا أسود إلا أن تفضله بتقوى » . تفرد به أحمد (٨) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٨٩/٢٦ .

(٢) المخاليف : القرى .

(٣) أى : سبب لكثرة المال ، ومنساة فى الأثر : يعنى به الزيادة فى العمر .

(٤) تحفة الأحوذى ، أبواب البر ، باب « ما جاء فى تعليم النسب ، الحديث ٢٠٤٥ : ١١٣/٦ — ١١٤ .

(٥) البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب « لقد كان فى يوسف وإخوته آيات السائلين » : ١٨٢/٤ . وتفسير سورة يوسف : ٩٥/٦

(٦) مسلم ، كتاب البر ، باب « تحريم ظلم المسلم وخذله . . . » : ١١/٨ .

(٧) سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « القناعة » ، الحديث ٤١٤٣ : ١٣٨٨/٢ .

(٨) مسند الإمام أحمد : ١٥٨/٥ .

حديث آخر ، وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أبو عُبَيدة عبد الوارث بن إبراهيم العسكرى ، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو بن جَبَلة ، حدثنا عُبيد بن حُنَين الطائى ، سمعت محمد بن حَبيب بن خِراش العَصَرىّ يحدّث عن أبيه : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « المسلمون إخوة ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى» (١) .

حديث آخر ، قال أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا أحمد بن يحيى الكوفى ، حدثنا الحسن بن الحسين ، حدثنا قيس ، يعنى ابن الربيع ــ عن شبيب بن غرقدة ، عن المستظل بن حُصَين ، عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولَيَنْتَهِيَنّ قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونُنّ أهونَ على الله من الجِعْلان (٢) » .

ثم قال : لا نعرفه عن حُذَيفة إلا من هذا الوَجه .

حديث آخر ، قال ابن أبى حاتم : حدثنا الربيع بن سليمان ، حدثنا أسد بن موسى ، حدثنا يحيى بن زكريا القطان ، حدثنا موسى بن عُبَيدة ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر قال : طاف رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يوم فتح مكة على ناقته القَصْواء يستلم الأركان بمِحْجَن (٣) فى يده ، فما وجد لها مُنَاخاً فى المسجد حتى نزل ــ صلى الله عليه وسلم ــ على أيدى الرجال ، فخرج بها إلى بطن المسيل فأنيخت . ثم إن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ خَطَبهم على راحلته ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال : « ياأيها الناس ، إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة (٤) الجاهلية وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل برّ تقى كريم على الله . وفاجر شقى هين على الله ، إن الله يقول : (ياأيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) ثم قال : أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

هكذا رواه عبد بن حميد ، عن أبى عاصم الضحاك بن مخلد ، عن موسى بن عبيدة ، به .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق ، حدثنا ابن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد ، عن على بن رَبَاح عن عقبة بن عامر أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « إن أنسابكم هذه ليست بمَسَبَّة على أحد ، كلكم بنو آدم . طَفُّ الصاع (٥) لم يملؤه ، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى ، وكفى بالرجل أن يكون بَذِيًّا (٦) بخيلا فاحشاً» . (٧)

وقد رواه ابن جرير ، عن يونس ، عن ابن وهب ، عن ابن لهيعة ، به . ولفظه : « الناس لآدم وحواء ، طَفُّ الصاع لم يملؤه ، إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم (٨) » .

---

(١) انظر أسد الغابة ، الترجمة ١٠٤٥ : ٢/٤٤٢ ــ ٤٤٣ ، بتحقيقنا .

(٢) الجعلان : جمع جعل ــ بضم ففتح ــ وهى دويبة .

(٣) المحجن : عصا معقفة الرأس .

(٤) أى : كبرها .

(٥) أى : قريب بعضكم من بعض ، يقال : هذا طف المكيال وطفافه ــ بكسر الطاء وفتحها ــ : اى قرب من ملئه . وقيل : هو ما علا فوق رأسه . والمعنى : كلكم فى الانتساب إلى أب واحد بمنزلة واحدة فى النقص والتقاصر عن غاية التمام ، وشبههم فى نقصانهم بالمكيل الذى لم يبلغ أن يملأ المكيال ، ثم أعلمهم أن التفاضل ليس بالنسب ، ولكن بالتقوى .

(٦) البذاء : الفحش فى القول .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٤/١٥٨ .

(٨) تفسير الطبرى : ٢٦ / ٨٩ .

وليس هو فى شىء من الكتب الستة من هذا الوجه .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا أحمد بن عبد الملك ، حدثنا شريك ، عن سماك ، عن عبد الله بن عميرة زوج دُرّة ابنة أبى لهب ، عن درة بنت أبى لهب قالت : قام رجل إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — وهو على المنبر فقال : يارسول الله ، أى الناس خير ؟ فقال — صلى الله عليه وسلم — : « خير الناس أقرؤهم ، وأتقاهم لله عز وجل ، وآمرهم بالمعروف ، وأنهاهم عن المنكر ، وأوصلهم للرحم(١) » .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا أبو الأسود ، عن القاسم بن محمد ، عن عائشة قالت : ما أعجب رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — شىء من الدنيا ، ولا أعجبه أحد قط ، إلا ذو تقى(٢) ؛ تفرد به أحمد رحمه الله .

وقوله : (إن الله عليم خبير) أى : عليم بكم ، خبير بأموركم ، فيهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، ويرحم من يشاء ، ويعذب من يشاء ، ويفضل من يشاء على من يشاء ، وهو الحكيم العليم الخبير فى ذلك كله . وقد استدل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة ، من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة فى النكاح لا تشترط ، ولا يشترط سوى الدين ، لقوله : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مذكورة فى كتب الفقه و[قد ذكرنا] طرفا من ذلك فى « كتاب الأحكام » ، ولله الحمد والمنة . وقد روى الطبرانى عن عبد الرحمن أنه سمع رجلا من بنى هاشم يقول : أنا أولى الناس برسول الله . فقال : غيرك أولى به منك ، ولك منه [نسبه] .

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تعالى منكراً على الأعراب الذين أول ما دخلوا فى الإسلام ادّعوا لأنفسهم مقامَ الإيمان ، ولم يتمكن الإيمان فى قلوبهم بعد : (قالت الأعراب : آمنا ، قل : لم تؤمنوا ولكن قولوا : أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) ؛ وقد استفيد من هذه الآية الكريمة : أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، ويدل عليه حديث جبريل — عليه السلام — حين سأل عن الإسلام ، ثم عن الإيمان ، ثم عن الإحسان ، فترقى من الأعم إلى الأخص ، ثم للأخص منه ؛

(١) مسند الإمام أحمد : ٦/٤٣٢ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٦/٦٩ .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهرى ، عن عامر بن سعد بن أبى وقاص ، عن أبيه قال : أعطى رسولُ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ رجالا ولم يُعْطِ رَجلا منهم شيئاً ، فقال سعد : يارسول الله ، أعطيت فلاناً وفلانا ولم تُعط فلاناً شيئاً ، وهو مؤمن ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أوْمسلم ــ حتى أعادها سعد ثلاثا ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : أوْ مسلم ــ ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنى لأعطى رجالا وأدع من هو أحب إلىّ منهم فلا أعطيه شيئاً مخافة أن يُكَبُّوا فى النار على وجوههم (١) »

أخرجاه فى الصحيحين من حديث الزهرى ، به (٢) .

فقد فرق النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بين المسلم والمؤمن فدَلّ على أن الإيمان أخص من الإسلام . وقد قررنا ذلك بأدلته فى أول شرح كتاب الإيمان من « صحيح البخارى » والله الحمد والمنة . ودَلّ ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلما ليس منافقاً ، لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام ، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين فى هذه الآية ليسوا بمنافقين ، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان فى قلوبهم ، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه ، فأدبوا فى ذلك ؛ وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخعى ، وقتادة ، واختاره ابن جرير (٣). وإنما قلناهذا لأن البخارى ــ رحمه الله ــ ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يُظهرونَ الإيمان وليسوا كذلك . وقد رُوى عن سعيد بن جُبَير ، ومجاهد ، وابن زيد أنهم قالوا فى قوله : (ولكن قولوا أسلمنا) ، أى : استسلمنا خوف القتل والسِّباء . قال مجاهد : نزلت فى بنى أسد بن خزيمة . وقال قتادة : نزلت فى قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله (٣) صلى الله عليه وسلم .

والصحيح الأول : أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ، ولم يحصُلْ لهم بعد ، فأدّبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد ، ولو كانوا منافقين لعنّفوا وفُضِحوا ، كما ذكر المنافقون فى سورة براءة . وإنما قيل لهؤلاء تأديباً : (قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) ، أى : لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد .

ثم قال : (وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم) ، أى : لا ينقصكم من أجوركم (شيئاً) ، كقوله : (وما ألتناهم من عملهم من شىء (٤)) .

وقوله : (إن الله غفور رحيم) ، أى : لمن تاب إليه وأناب .

وقوله : (إنما المؤمنون) أى : إنما المؤمنون الكُمّل (الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) ، أى : لم يشكوا ولا تزلزلوا بل ثبتوا على حال واحدة ، وهى التصديق المحض ، (وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) ، أى : وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم فى طاعة الله ورضوانه ، (أولئك هم الصادقون) ، أى : فى قولهم إذا قالوا : « إنهم مؤمنون » ، لا كبعض الأعراب الذين ليس معهم من الدين إلا الكلمة الظاهرة .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١/١٧٦ .

(٢) البخارى ، كتاب الإيمان ، باب « إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل ... » : ١/١٣ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه » : ١/٩١ – ٩٢ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٦/٩٠ .

(٤) سورة الطور ، آية : ٢١ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن غيلان ، حدثنا رشدين ، حدثني عمرو بن الحارث ، عن أبي السمح ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد قال : إن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : « المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء : آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله . والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم . ثم الذي إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل » (١) .

وقوله : (قل أتعلمون الله بدينكم) ، أي أتخبرونه بما في ضمائركم ، (والله يعلم ما في السموات وما في الأرض) ، أي : لا يخفى عليه من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، (والله بكل شيء عليم) .

ثم قال : (يمنون عليك أن أسلموا) ، يعني الأعراب يمنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول ، يقول الله ردا عليهم : (قل : لا تمنوا على إسلامكم) ، فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم ، ولله المنة عليكم فيه ، (بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين) ، أي : في دعواكم ذلك ، كما قال النبي — صلى الله عليه وسلم — للأنصار يوم حنين : « يامعشر الأنصار ، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ » . كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمن (٢) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري ، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي ، عن محمد بن قيس ، عن أبي عون ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : جاءت بنو أسد إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقالوا : يارسول الله ، أسلمنا وقاتلتك العرب ، ولم نقاتلك ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : إن فقههم قليل ، وإن الشيطان ينطلق على ألسنتهم . ونزلت هذه الآية : (يمنون عليك أن أسلموا ، قل : لا تمنوا على إسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين) .

ثم قال : لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه ، ولا نعلم روى أبو عون محمد بن عبيد الله ، عن سعيد بن جبير ، غير هذا الحديث .

ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات ، وبصره بأعمال المخلوقات فقال : (إن الله يعلم غيب السموات والأرض ، والله بصير بما تعملون) .

آخر تفسير الحجرات ، ولله الحمد والمنة .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٨/٣ .

(٢) البخاري ، كتاب المغازي ، « باب غزوة الطائف » : ٥/ ٢٠٠ . ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب « إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه » : ١٠٨/٣ — ١٠٩ . ومسند الإمام أحمد من عبد الله بن زيد بن عاصم : ٤٢/٤ .

تفسير سورة ق

وهي مكية

وهذه السورة هي أول الحزب المُفصَّل على الصحيح ، وقيل: من الحجرات . وأما ما يقوله العامة : إنه من (عمّ) فلا أصل له ، ولم يقله أحد من العلماء المعتبرين فيما نعلم . والدليل على أن هذه السورة هي أول المفصَّل مارواه أبو داود في سُنَنه ، باب « تحزيب القرآن » ثم قال .

حدثنا مسدد ، حدثنا قُرّان (١) بن تمام (ح) — وحدثنا عبدالله بن سعيد أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد سليمان بن حيّان — وهذا لفظه — عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى ، عن عثمان بن عبد الله بن أوس ، عن جده — قال عبدالله بن سعيد [في حديثه] (٢) أوس بن حذيفة — ثم اتفقا قال : قَدِمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد ثقيف ، قال : فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة ، وأنزل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بني مالك في قُبَّة له — قال مسدد : وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثقيف ، قال : كان رسول الله كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا — قال أبو سعيد : قائما على رجليه حتى يُراوح (٣) بين رجليه من طول القيام ، فأكثر ما يحدثنا ما لقي من قومه قريش ، ثم يقول : « لا [سواء] (٤) ، وكنا مستضعفين مستذلين — قال مسدد : بمكة — فلما خرجنا إلى المدينة كانت سِجَال (٥) الحرب بيننا وبينهم ، نُدَال عليهم ويدالون علينا » . فلما كانت ليلة أبطأ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه ، فقلنا : لقد أبطأت عنا الليلة ! قال : « إنه طَرَأ على حزبي من القرآن ، فكرهت أنْ أجيء حتى أتمه » . قال أوس : سألتُ أصحابَ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : كيف تحزبون القرآن ؟ فقالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل وحده (٦) .

ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن أبي خالد الأحمر ، به . ورواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي ، عن عبد الله بن عبد الرحمن ، هو ابن يعلى الطائفي به (٧) .

إذا علم هذا فإذا عَدَدتَ ثمانيا وأربعين سورة فالتي بعدهن سورة « ق » : بيانه ثلاث : البقرة ، وآل عمران ، والنساء وخمس : المائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، وبراءة . وسبع : يونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم ،

---

(١) في المخطوطة : « فرات » . والصواب من سنن أبي داود ، والخلاصة .

(٢) ما بين القوسين من سنن أبي داود ، ومكانه في المخطوطة : « حدثنيه » .

(٣) أي : يعتمد على إحدى الرجلين مرة ، وعلى الأخرى مرة ، ليوصل الراحة إلى كل منهما .

(٤) في المخطوطة : « لا أساء » . وفي سنن أبي داود : « الاسوأ » . والمثبت عن سنن ابن ماجه ومسند الإمام أحمد .

(٥) يقال : « الحرب بيننا سجال » ، أي : مرة لنا ومرة علينا . وأصله أن المستقين بالسجل — بفتح فسكون ، وهو : الدلو — يكون لكل واحد منهم سجل .

(٦) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « تحزيب القرآن » .

(٧) سنن ابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب « في كم يستحب يختم القرآن » ، الحديث ١٣٤٥ : ١/٤٢٧ — ٤٢٨ . ومسند الإمام أحمد : ٤/٩ .

والحجر ، والنحل : وتسع : سبحان ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء ، والحج ، والمؤمنون ، والنور ، والفرقان ؛ وإحدى عشرة : الشعراء ، والنمل ، والقصص ، والعنكبوت ، والروم ، ولقمان ، والم السجدة ، والأحزاب ، وسبأ ، وفاطر ، ويس . وثلاث عشرة : الصافات ، وص ، والزمر ، وغافر ، وحم السجدة ، وحم عسق ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والأحقاف ، والقتال ، والفتح ، والحجرات : ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله الصحابة رضى الله عنهم ؛ فتعين أن أوله سورة « ق » وهو الذى قلناه ، ولله الحمد والمنة .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا مالك، عن ضَمْرَة بن سعيد، عن عُبَيد الله بن عبد الله : أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثى : ماكان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقرأ فى العيد ؟ قال : بقاف ، واقتربت[(1)] .

ورواه مسلم وأهل السنن الأربعة، من حديث مالك ، به وفى رواية لمسلم عن فُلَيح[(2)] عن ضمرة، عن عُبَيدالله، عن أبى واقد قال : سألنى عمر ، فذكره[(3)] .

حديث آخر ، وقال أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن ابن إسحاق: حدثنى عبدالله بن محمد بن أبى بكر بن عمرو بن حزم، عن يحيى بن عبدالله بن عبدالرحمن بن سعد بن زرارة ، عن أم هشام بنت حارثة قالت : لقد كان تَنُّورُنا[(4)] وتَنُّورُ النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ واحداً سنتين ، أو سنة وبعض سنة ، وما أخذت (ق والقرآن المجيد) إلا على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس[(5)] .

رواه مسلم [من حديث ابن إسحاق ، به[(6)] .]

وقال أبو داود : حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة، عن خُبَيب[(7)] ، عن عبد الله بن محمد ابن مَعْن ، عن ابنة الحارث بن النعمان قالت : ما حفظت « ق » إلا من فى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يخطب بها كل جمعة . قالت : وكان تَنُّورنا وتنور رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ واحداً .

وكذا رواه مسلم ، والنسائى ، وابن ماجه ، من حديث شعبة ، به .

والقصد أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان يقرأ بهذه السورة فى المجامع الكبار، كالعيد والجمع ، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور ، والمعاد والقيام ، والحساب ، والجنة والنار ، والثواب والعقاب ، والترغيب والترهيب .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/٢١٧ – ٢١٨ .

(٢) فى المخطوطة : « لمسلم عن مالك » . والمثبت من مسلم .

(٣) مسلم ، كتاب صلاة العيدين ، باب « ما يقرأ به فى صلاة العيدين » : ٣/٢١ . وسنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « ما يقرأ فى الأضحى والفطر » . وتحفة الأحوذى ، أبواب العيدين ، باب « القراءة فى العيدين » ، الحديث ٥٣٢ : ٣/٧٩ ، وقال الترمذى : « حسن صحيح » . والنسائى ، كتاب العيدين ، باب « القراءة فى العيدين بقاف واقتربت » : ٣/١٨٣ – ١٨٤ . وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب « ما جاء فى القراءة فى صلاة العيدين » ، الحديث ١٢٨٢ : ١/٤٠٨ .

(٤) التنور : الموقد . وهى تشير بذلك إلى حفظها ومعرفتها بأحوال النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقربها من منزله .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٦/٤٣٥ – ٤٣٦ .

(٦) مسلم ، كتاب الجمعة ، باب « تخفيف الصلاة والخطبة » : ٣/١٣ .

(٧) فى المخطوطة : « عن حبيب بن عبد الله » . والمثبت من سنن أبى داود . وخبيب هو ابن عبد الرحمن ، يروى عن عبدالله ابن محمد بن معن . انظر التهذيب : ٣/١٣٦ .

(٨) سنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « الرجل يخطب على قوس » .

(٩) مسلم ، كتاب الجمعة ، باب « تخفيف الصلاة والخطبة » : ٣/١٣ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ (٥)

(ق) : حرف من حروف الهجاء المذكورة فى أوائل السور ، كقوله : (ص ــ ن ــ الم ــ حم ــ طس) ونحو ذلك ، قاله مجاهد وغيره . وقد أسلفنا الكلام عليها ، فى أول « سورة البقرة » بما أغنى عن إعادته(١) .

وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا (ق): جبل محيط بجميع الأرض ، يقال له جبل قاف . وكأن هذا ــ والله أعلم من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم بعض الناس ، لما رأى من جواز الرواية عنهم فيما لا يصدق ولا يكذب . وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم ، يُلبسون به على الناس أمر دينهم ، كما افترى فى هذه الأمة ــ مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها ــ أحاديث، عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وما بالعهد من قدم ، فكيف بأمة بنى إسرائيل مع طول المدى ، وقلة الحفاظ النقاد فيهم ، وشربهم الخمور ، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل كتب الله وآياته ! وإنما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله : « وحدّثوا عن بنى إسرائيل ، ولا حرَج(٢) » فيما قد يجوزه العقل ، فأما فيما تُحيله العقول ويُحكم عليه بالبطلان ، ويغلب على الظنون كذبه ، فليس من هذا القبيل ، والله أعلم .

وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين ، وكذا طائفة كثيرة من الخلف ، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب فى تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم ، ولله الحمد والمنة ، حتى إن الإمام أبا محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى ــ رحمه الله ــ أورد هاهنا أثراً غريباً لا يصح سنده عن ابن عباس فقال :

حدثنا أبى قال: حُدثت عن محمد بن إسماعيل المخزومى(٣) : حدثنا ليث بن أبى سليم ،عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : خلق الله من وراء هذه الأرض بحراً محيطاً ، ثم خلق من وراء ذلك جبلا يقال له « ق » السماء الدنيا مرفوفة عليه (٤) . ثم خلق الله من وراء ذلك الجبل أرضاً مثل تلك الأرض سبع مرات . ثم خلق من وراء ذلك بحراً محيطاً بها ، ثم خلق [من] وراء ذلك جبلا يقال له « ق » السماء الثانية مرْفوفة عليه(٩) ، حتى عد سبع أرضين ، [وسبعة أبحر] ، وسبعة أجبل ، وسبع سموات . قال : وذلك قوله : (والبحر يمده من بعده سبعة أبحر) .

---

(١) انظر : ١/٥٦ ــ ٦٠ .

(٢) البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب « ما ذكر عن بنى إسرائيل » : ٤/٢٠٧ . وتحفة الأحوذى ، أبواب العلم ، باب « ما جاء فى الحديث عن بنى إسرائيل » ، الحديث ٢٨٠٦ : ٧/٤٣١ ــ ٤٣٢ ، وقال الترمذى : « حسن صحيح » ومسند الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى : ٣/٤٦ .

(٣) كذا ، ولعله الزبيدى . انظر الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٣/٢/١٨٨ . والتهذيب : ٩/٥٧ .

(٤) أى : مسقوفة عليه .

فإسناد هذا الأثر فيه انقطاع ، والذى رواه ابن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : (ق) قال : هو اسم من أسماء الله ، عز وجل(١)
والذى ثبت من مجاهد : أنه حرف من حروف الهجاء ، كقوله : (ص — ن — حم — طس — الم) ونحو ذلك . فهذه تبعد ما تقدم عن ابن عباس . .

وقيل : المراد « قُضِىَ الأمر والله » ، وأن قوله (ق) دلت على المحذوف من بقية الكلم كقول الشاعر : قُلْتُ لها : قِفِى فقالت قافْ (٢) .

وفى هذا التفسير نظر ؛ لأن الحذف فى الكلام إنما يكون إذا دل دليل عليه ، ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف ؟
وقوله : (والقرآن المجيد) ، أى : الكريم العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .
واختلفوا فى جواب القسم ما هو ؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه قوله : (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ) .

وفى هذا نظر ؛ بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم ، وهو إثبات النبوة ، وإثبات المعاد ، وتقريره وتحقيقه وإن لم يكن القسم مُتَلَقَّى لفظاً ، وهذا كثير فى أقسام القرآن كما تقدم فى قوله : (ص والقرآن ذى الذكر . بل الذين كفروا فى عزة وشقاق)(٣)
وهكذا قال هاهنا : (ق والقران المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب) أى : تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر كقوله تعالى : (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس)(٤) ، أى : وليس هذا بعجيب ، فإن الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس .

ثم قال مخبراً عنهم فى تعجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه : (أئذامتنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد) ؟ أى يقولون : أئذا متنا وبَلِينا ، وتقطعت الأوصال منا ، وصرنا تراباً كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب ؟ (ذلك رجع بعيد) أى : بعيد الوقوع ومعنى هذا أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه ، قال الله تعالى راداً عليهم : (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) ، أى : ما تأكل من أجسادهم فى البلى ، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان ، وأين ذهبت ، وإلى أين صارت ؟ (وعندنا كتاب حفيظ) ، أى : حافظ لذلك ، فالعلم شامل ، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة .

قال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) ، أى : ما تأكل من لحومهم وأبشارهم ، وعظامهم وأشعارهم (٥) . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم .

ثم بين تعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال : (بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج) ، أى : وهذا حال كل من خرج عن الحق ، مهما قال بعد ذلك فهو باطل — والمريج : المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلاله ، كقوله (إنكم لفى قول مختلف . يُؤْفَكُ عنه من أُفِكَ) (٦) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٦/٩٣ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٦/٩٣ ، وانظره أيضاً فى سورة البقرة : ١/٥٨ .
(٣) انظر : ٧/٤٤ .
(٤) سورة يونس ، آية : ٢ .
(٥) تفسير الطبرى : ٢٦/٩٤ .
(٦) سورة الذاريات ، آية : ٨ ، ٩ .

أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾

يقول تعالى منبها للعباد على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه : (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها) ؟ أى : بالمصابيح ، (ومالها من فروج) ــ قال مجاهد : يعنى من شقوق . وقال غيره : فتوق . وقال غيره : من صدوع . والمعنى متقارب ــ كقوله تعالى : (الذى خلق سبع سموات طباقاً ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ، ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير (١)) ، أى : كليل ، أى : عن أن يرى عيباً أو نقصاً .

وقوله : (والأرض مددناها) ، أى : وسعناها وفرشناها ، (وألقينا فيها رواسى) ، وهى : الجبال ، لئلا تميد بأهلها وتضطرب ، فإنها مُقَرة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها ، (وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) أى : من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع ، (ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون (٢)) ــ وقوله (بهيج) أى : حسن نَضِر (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) ، أى : ومشاهدة خلق السموات وما جُعل فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب ، أى : خاضع خائف وَجِل رَجَّاع إلى الله عز وجل .

وقوله تعالى : (ونزلنا من السماء ماء مباركا) ، أى : نافعاً (فأنبتنا به جنات) ، أى : حدائق من بساتين ونحوها (وحب الحصيد) ، وهو : الزرع الذى يُرادُ لحبه وادخاره .

(والنخل باسقات) ، أى : طوالا شاهقات . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم : الباسقات الطوال (٣) . (لها طلع نضيد) ، أى : منضود (رزقا للعباد) ، أى : للخلق ، (وأحيينا به بلدة ميتاً) ، وهى الأرض التى كانت هامدة ، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، من أزاهير وغير ذلك ، مما يحار الطَّرْفُ فى حسنها ، وذلك بعد ما كانت لا نباتَ [بها] فأصبحت تهتز خضراء ، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك ، كذلك يحيى الله الموتى . وهذا المُشاهَدُ من عظيم قدرته بالحس أعظمُ مما أنكره الجاحدون للبعث ، كقوله تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس (٤)) . وقوله : (أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض [و لم يعى بخلقهن]

(١) سورة الملك ، آية : ٣ ، ٤ .
(٢) سورة الذاريات ، آية : ٤٩ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٦/٩٦ .
(٤) سورة غافر ، آية : ٥٧ .

بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى ، إنه على كل شيء قدير) (١) . وقال تعالى : (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيي الموتى ، إنه على كل شيء قدير) (٢) .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

يقول تعالى متهددا لكفار قريش بما أحله بأشباههم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم ، من النقمات والعذاب الأليم فى الدنيا ، كقوم نوح وما عذبهم الله [به] من الغرق العام لجميع أهل الأرض ، وأصحاب الرس وقد تقدمت قصتهم فى « سورة الفرقان (٣) » (وثمود . وعاد وفرعون وإخوان لوط) ، وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور ، وكيف خسف الله بهم الأرض ، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة ؛ بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق ، (وأصحاب الأيكة) ، وهم قوم شعيب عليه السلام ، (وقوم تبع) ، وهو اليماني . وقد ذكرنا من شأنه فى « سورة الدخان (٤) » بما أغنى عن إعادته هاهنا ولله الحمد .

(كل كذب الرسل) ، أى : كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسوله ، ومن كذب رسولا فكأنما كذب جميع الرسل ، كقوله (كذبت قوم نوح المرسلين) ، وإنما جاءهم رسول واحد ، فهم فى نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم ، (فحق وعيد) ، أى : فحق عليهم ما أوعدهم الله ، على التكذيب من العذاب والنكال . فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك .

وقوله : (أفعيينا بالخلق الأول) ، أى : أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى هم فى شك من الإعادة ، (بل هم فى لبس من خلق جديد) : والمعنى أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه ، كما قال تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) (٥) وقال الله تعالى (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال : من يحيي العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم (٦)) . وقد تقدم فى الصحيح : « يقول الله تعالى : يؤذيني ابن آدم ، يقول : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته » (٧) .

---

(١) سورة الأحقاف ، آية : ٣٣ .
(٢) سورة فصلت ، آية : ٣٩ .
(٣) انظر : ٦/١١٩ — ١٢١ .
(٤) انظر : ٧/٢٤٢ — ٢٤٤ .
(٥) سورة الروم ، آية : ٢٧ .
(٦) سورة يس ، آية : ٧٨ ، ٧٩ .
(٧) انظر : ٦/٣١٨ .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه، وعِلْمُهُ محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل(١)».

وقوله: (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد)، يعني ملائكته تعالى أقربُ إلى الإنسان من حبل وريده إليه. ومن تأوله على العلم فإنما فرّ لئلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد)، كما قال في المُحْتَضِر: (ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون) (٢)، يعني ملائكته. وكما قال: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون (٣)). فالملائكة نزلت بالذكر ـ وهو القرآن ـ بإذن الله ـ عز وجل. وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار الله لهم على ذلك فللملك لَمَّةٌ في الإنسان كما أن للشيطان لَمَّة(٤) وكذلك: «الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم(٥)»، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق. ولهذا قال هاهنا: (إذ يتلقى المتلقيان)، يعني الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان. (عن اليمين وعن الشمال قعيد)، أي مترصد (ما يلفظ)، أي: ابن آدم (من قول)، أي: ما يتكلم بكلمة (إلا لديه رقيب عتيد)، أي: إلا ولها من يراقبها مُعْتَدّ لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: (وإن عليكم لحافظين ۝ كراما كاتبين ۝ يعلمون ما تفعلون)(٦)

---

(١) البخاري، كتاب الأيمان، باب «إذا حنث ناسيا في الأيمان»: ١٦٨/٨. ومسلم، كتاب الإيمان، باب «تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر»: ٨١/١ ـ ٨٢. وسنن أبي داود، كتاب الطلاق، باب «في الوسوسة بالطلاق». وتحفة الأحوذي، أبواب الطلاق، باب «ما جاء فيمن يحدث نفسه بطلاق امرأته»، الحديث ١١٩٣: ٣٦١/٤، وقال: «حسن صحيح». وابن ماجه، كتاب الطلاق، باب «من طلق في نفسه ولم يتكلم به»، الحديث ٢٠٤٠: ٦٥٨/١. ومسند الإمام أحمد: ٢٥٥/٢، ٣٩٣، ٤٢٥، ٤٧٤، ٤٨١، ٤٩١.

(٢) سورة الواقعة، آية: ٨٥.

(٣) سورة الحجر، آية: ٩.

(٤) تحفة الأحوذي، تفسير سورة البقرة، الحديث ٤٠٧٣: ٣٣٢/٨ ـ ٣٣٣. وقال الترمذي: «هذا حديث غريب».

(٥) البخاري، كتاب الأحكام، باب «الشهادة تكون عند الحاكم في ولاية القضاء، أو قبل ذلك للخصم»: ٨٧/٩. وسنن أبي داود، كتاب الصوم، باب «المعتكف يدخل البيت لحاجته». وابن ماجه، كتاب الصيام، باب «في المعتكف يزور أهله في المسجد»، الحديث ١٧٧٩: ٥٦٥/١ ـ ٥٦٦. ومسند الإمام أحمد عن أنس بن مالك: ١٥٦/٣، ٢٨٥. وعن صفية أم المؤمنين: ٣٣٧/٦.

(٦) سورة الانفطار، الآيات: ١٠ ـ ١٢.

وقد اختلف العلماء : هل يكتب الملك كل شيء من الكلام ؟ وهو قول الحسن وقتادة ، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب كما هو قول ابن عباس ، على قولين . وظاهر الآية الأول ، لعموم قوله (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة الليثى ، عن أبيه ، عن جده علقمة ، عن بلال بن الحارث المزنى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه » . قال : فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث (١) .

ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه ، من حديث محمد بن عمرو ، به ; وقال الترمذى : « حسن صحيح » (٢) . وله شاهد فى الصحيح (٣) .

وقال الأحنف بن قيس : صاحب اليمين يكتب الخير ، وهو أمير على صاحب الشمال ، فإن أصاب العبد خطيئة قال له : أمسك فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها وإن أبى كتبها . رواه ابن أبى حاتم .

وقال الحسن البصرى وتلا هذه الآية : (عن اليمين وعن الشمال قعيد) : يا ابن آدم ، بُسطت لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر حتى إذا مت طُويت صحيفتك ، وجُعلت فى عنقك معك فى قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة فعند ذلك يقول : (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) . ثم يقول : عدل – والله – فيك مَنْ جعلك حسيب نفسك (٤) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) ، قال : يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر ، حتى إنه ليكتب قوله « أكلت ، شربت ، ذهبت ، جئت ، رأيت » ، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله ، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر ، وألقى سائره ، وذلك قوله : (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب(٥)) وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن فى مرضه ، فبلغه عن طاوس أنه قال : يكتب الملك كل شيء حتى الأنين . فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله .

وقوله (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) ، يقول تعالى وجاءت – أيها الإنسان – سكرة الموت بالحق ، أى : كشفت لك عن اليقين الذى كنت تمترى فيه (ذلك ما كنت منه تحيد) ، أى : هذا هو الذى كنت تفر منه قد جاءك ، فلا محيد ولا مناص ، ولا فكاك ولا خلاص .

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣ : ٤٦٩ .

(٢) تحفة الأحوذى ، أبواب الزهد ، باب « ما جاء فى قلة الكلام » ، الحديث ٢٤٢١ ، ٦ : ٦٠٩ – ٦١٠ . وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب « كف اللسان فى الفتنة » ، الحديث ٣٩٧٠ : ٢ : ١٣١٣ .

(٣) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « حفظ اللسان » : ٨ : ١٢٥ .

(٤) تقدم الأثر عند تفسير الآية الثالثة عشرة من سورة الإسراء ، وخرجناه هنالك . انظر ٥ : ٤٩ . وانظر أيضا تفسير الطبرى ٢٦ : ١٠٠ .

(٥) سورة الرعد ، آية ٣٩ .

وقد اختلف المفسرون فى المخاطب بقوله : (وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد) ، فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو : وقيل : الكافر ، وقيل غير ذلك .

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا إبراهيم بن زياد ــ سَبَلان ــ أخبرنا عَبَّاد بن عَبَّاد عن محمد بن عمرو بن علقمة ، عن أبيه ، عن جده علقمة بن وقاص أن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : حضرت أبى وهو يموت ، وأنا جالسة عند رأسه ، فأخذته غشية فتمثلت ببيت من الشعر :

مَنْ لا يزَالُ دَمْعُهُ مُقَنَّعًا(١) فإنَّهُ لابُدَّ مرَّة مَدْفُوقُ(٢)

قالت : فرفع رأسه فقال : يابنية ، ليس كذلك ولكن كما قال الله تعالى : (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) ؛

وحدثنا خَلَف بن هشام ؛ حدثنا أبو شهاب، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن البَهِىّ قال : لما آن ثقل أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بهذا البيت : (٣) .

لَعَمْرُكَ ما يُغْنِى الثَّرَاءُ عَنِ الفَتَى إذا حَشْرَجَتْ (٤) يوما وضَاقَ بها الصَّدرُ

فكشف عن وجهه وقال : ليس كذلك ، ولكن قولى : (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) . وقد أوردت لهذا الأثر طُرُقا فى سيرة الصديق عند ذكر وفاته ، رضى الله عنه .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : « سبحان الله ! إن للموت لسكَرَات(٥) » . وفى قوله : (ذلك ما كنت منه تحيد) قولان :

أحدهما : أن « ما » هاهنا موصولة ، أى : الذى كنت منه تحيد ــ بمعنى : تبتعد وتنأى وتفر ــ قد حَلَّ بك ونزل بساحتك ؛

والقول الثانى : أن « ما » نافية بمعنى : ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه ولا الحَيْد عنه . .

وقد قال الطبرانى فى المعجم الكبير : حدثنا محمد بن على الصائغ المكى ، حدثنا حفص (٦) بن عُمَر الحدى ، حدثنا معاذ بن محمد الهذلى ، عن يونس بن عبيد عن الحسن ، عن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل الذى يفر من الموت مثل

---

(١) أى : محبوساً فى جوفه .

(٢) كذا هنا . وفى النهاية لابن الأثير :

« لا بد يوماً أنه يهراق »

وقال : « وهو من الضرب الثانى من بحر الرجز ، ورواه بعضهم :

ومن لا يزال الدمع فيه مقنعا فلا بد يوما أنه مهراق

وهو من الضرب الثالث من الطويل » .

(٣) البيت لحاتم الطائى ، ديوانه ط بيروت : ٥٠ . وانظره فى النهاية لابن الأثير ، واللسان ، مادة : حشرج .

(٤) الحشرجة : الغرغرة عند الموت وتردد النفس .

(٥) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « سكرات الموت » : ٨/١٣٣ . وانظر ابن ماجه، كتاب الجنائز ، أبواب « ما جاء فى ذكر مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ١٦٢٣ : ١/٥١٨ ــ ٥١٩ . وتحفة الأحوذى ، باب الجنائز ، باب « ما جاء فى التشديد عند الموت » ، الحديث ٩٨٥ : ٤/٥٥ ــ ٥٦ . ومسند الإمام أحمد عن عائشة : ٦/٦٤ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ١٥١ .

(٦) فى المخطوطة : « حفص من ابن عمر » . والمثبت من الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ١/٢/١٨٣ .

الثعلب ، تطلبه الأرض بدين ، فجاء يسعى حتى إذا أعيى وأسهر دخل جُحْره، فقالت له الأرض : ياثعلب ، ديْنى : فخرج وله حُصَاص(١) ، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنُقه ومات » .

ومضمون هذا المثل : كما لا انفكاك له ولا محيد عن الأرض كذلك الإنسان لا محيد له عن الموت .

وقوله : (ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد) . قد تقدم الكلام على حديث النفخ فى الصور والفَزَع والصعق والبعث ، وذلك يوم القيامة . وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «كيف أنعم وصاحب القَرْن قد التقم القرن وحنى جبهته ، وانتظر أن يؤذن له » . قالوا : يارسول الله ، كيف نقول ؟ قال : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » . فقال القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل(٢) .

(وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) ، أى : ملك يسوقه إلى المحشر ، وملك يشهد عليه بأعماله. هذا هو الظاهر من الآية الكريمة . وهو اختيار ابن جرير (٣) ثم روى من حديث إسماعيل بن أبى خالد عن يحيى بن رافع — مولى لثقيف — قال : سمعت عثمان بن عفان يخطب ، فقرأ هذه الآية (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) ، فقال : سائق يسوقها إلى الله وشاهد يشهد عليها بما عملت (٣) : وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد .

وقال مُطَرِّفُ ، عن أبى جعفر — مولى أشجع — عن أبى هُرَيرة : السائق الملك ، والشهيد العمل . وكذا قال الضحاك والسدى .

وقال العَوفىّ عن ابن عباس : السائق من الملائكة ، والشهيد الإنسان نفسُه ، يشهد على نفسه(٣) . وبه قال الضحاك بن مزاحم أيضاً .

وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال فى المراد بهذا الخطاب فى قوله : (لقد كنت فى غفلة من هذا ، فكشفنا عنك غطاءك ، فبصرك اليوم حديد) ، أحدها أن المراد بذلك الكافر . رواه على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس . وبه يقول الضحاك بن مُزَاحم وصالح بن كيسان .

والثانى : [أن] المراد بذلك كل أحد من برّ وفاجر ؛ لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة والدنيا كالمنام . وهذا اختيار ابن جرير ، ونقله عن حُسَين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس .

والثالث : أن المخاطب بذلك النبى صلى الله عليه وسلم . وبه يقول زيد بن أسلم ، وابنه . والمعنى على قولهما لقد كنت فى غفلة من هذا الشأن قبل أن يُوحى إليك ، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك ، فبصرك اليوم حديد .

والظاهر من السياق خلاف هذا بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو ، والمراد بقوله : (لقد كنت فى غفلة من هذا) ، يعنى من هذا اليوم ، (فكشفنا عنك ، غطاءك ، فبصرك اليوم حديد) ، أى : قوى ، لأن كل واحد يوم القيامة يكون مستبصرا ، حتى الكفار فى الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة ، لكن لا ينفعهم ذلك . قال الله تعالى : (أسمع بهم وأبصر

---

(١) الحصاص — بضم الحاء — : سرعة العدو .

(٢) انظر : ٣/٢٧٦ — ٢٨٢ ، ٥/١٩٦ ، ٣٠٨ — ٣٠٩ ، ٦/٢٢٥ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٦/١٠١ .

يوم يأتوننا) (١) . وقال تعالى : ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم : ربنا أبصرنا وسمعنا ، فأرجعنا نعمل صالحاً ، إنا موقنون) (٢) .

وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ * قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى [مخبرا] عن الملك الموكل بعمل ابن آدم : أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل ، ويقول : (هذا ما لدى عتيد) ، أى : مُعتَدّ محضر بلا زيادة ولا نقصان .

وقال مجاهد . هذا كلام الملك السائق يقول . هذا ابنُ آدم الذى وكلتنى به ، قد أحضرته .

وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد ، وله اتجاه وقوة .

فعند ذلك يحكم الله — سبحانه وتعالى — فى الخليقة بالعدل فيقول : (ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد) ،

وقد اختلف النحاة فى قوله : (ألقيا) ، فقال بعضهم : هى لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالتثنية ، كما روى عن الحجاج أنه كان يقول : يا حرسى ، اضربا عنقه ومما أنشد ابن جرير على هذه اللغة قول الشاعر :

فإن تَزْجُرَانِى — يا ابنَ عفّان — أنْزَجِرْ • وإنْ تَتْرُكَانِى أحْمِ عِرْضًا مُمَنَّعَا(٣)

وقيل : بل هى نون التوكيد ، سهلت إلى الألف . وهذا بعيد ، لأن هذا إنما يكون فى الوقف والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد ، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب ، فلما أدى الشهيد عليه ، أمرهما الله تعالى بإلقائه فى نار جهنم وبئس المصير .

(ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد) ، أى : كثير الكفر والتكذيب بالحق ، (عنيد) : معاند للحق ، معارض له بالباطل مع علمه بذلك . (مناع للخير) ، أى : لايؤدى ما عليه من الحقوق ، ولا بر فيه ولاإصلةَ ولاصدقة ، (معتد) ، أى فيما ينفقه ويصرفه ، يتجاوز فيه الحد .

وقال قتادة : معتد فى منطقه وسيرته وأمره (٤) .

(مريب) ، أى : شاك فى أمره ، مريب لمن نظر فى أمره . (الذى جعل مع الله إلها آخر) ، أى: أشرك بالله فعبد معه غيره ، (فألقياه فى العذاب الشديد) . وقد تقدم فى الحديث أن عُنُقاً (٥)من النار يبرز للخلائق فينادى بصوت يسمع الخلائق: إنى وكلت بثلاثة ، بكل جبار عنيد ! ومن جعل مع الله إلها آخر ، وبالمصورين (٦) . ثم تَلْوَى عليهم .

قال الإمام أحمد : حدثنا معاوية — هو ابن هشام — حدثنا شيبان ، عن فراس ، عن عطية ، عن أبى سعيد الخدرى عن

(١) سورة مريم ، آية : ٣٨ .

(٢) سورة السجدة ، آية : ١٢ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٠٣/٢٦ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٠٤/٢٦ .

(٥) أى : طائفة وجانب من النار .

(٦) تقدم الحديث عند تفسير الآية الخامسة عشرة من سورة إبراهيم ، وخرجناه هنالك . انظر : ٤٠٥/٤ .

نبي الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « يخرج عُنُق من النار يتكلم ، يقول : وكلت اليوم بثلاثة : بكل جبار ، ومن جعل مع الله إلها آخر ، ومن قتل نفسا بغير نفس . فتنطوى عليهم ، فتقذفهم فى غَمَرات جهنم (١) » .

(قال قرينه) — قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم : هو الشيطان الذى وُكِّل به — : (ربنا ما أطغيته) ، أى : يقول عن الإنسان الذى قد وافى القيامة كافراً ، يتبرأ منه شيطانه ، فيقول : (ربنا ما أطغيته) ، أى : ما أضللته ، (ولكن كان فى ضلال بعيد) ، أى : بل كان هو فى نفسه ضالا قابلا للباطل معاندا للحق : كما أخبر تعالى فى الآية الأخرى فى قوله : (وقال الشيطان لما قضى الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخىّ ، إنى كفرت بما أشركتمون من قبل ، إن الظالمين لهم عذاب أليم (٢)) .

وقوله : (قال : لا تختصموا لدىّ) ، يقول الرب عز وجل للإنسى وقرينه من الجن ، وذلك أنهما يختصمان بين يدى الحق فيقول الإنسى : يا رب ، هذا أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى . ويقوم الشيطان : (ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد) ، أى : عن منهج الحق . فيقول الرب عز وجل لهما : (لا تختصموا لدىّ) ، أى : عندى (وقد قدمت إليكم بالوعيد) ، أى : قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل ، وأنزلت الكتب ، وقامت عليكم الحُجَج والبينات والبراهين .

(ما يبدل القول لدى) — قال مجاهد : يعنى قد قضيتُ ما أنا قاض ، (وما أنا بظلام للعبيد) ، أى : لست أعذب أحدا بذنب أحد ، ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه ، بعد قيام الحجة عليه .

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة : هل امتلأت ؟ وذلك أنه وعدها أن سيملؤها من الجِنَّة والناس أجمعين ، فهو سبحانه يأمر بمن يأمر به إليها ، ويلقى وهى تقول : (هل من مزيد) ، أى : هل بقى شئ تزيدونى ؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية ، وعليه تدل الأحاديث :

قال البخارى عند التفسير هذه الآية : حدثنا عبد الله بن أبى الأسود ، حدثنا حَرَمى بن عُمَارة حدثنا شعبة ، عن قتادة عن أنس بن مالك ، عن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : « يُلقَى فى النار وتقول : هل من مزيد ، حتى يضع قدمه فيها ، فتقول : قَطْ قَطْ (٣) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الوهاب ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه ، فينزوى بعضها إلى بعض ، وتقول : قَطْ قَطْ ، وعزتك وكَرَمك . ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشىء الله لها خلقا آخر (٤) فيسكنهم فى فضول الجنة (٥) » .

(١) مسند الإمام أحمد : ٣/٤٠ .
(٢) سورة إبراهيم ، آية : ٢٢ .
(٣) البخارى ، تفسير سورة « ق » : ٦/١٧٣ .
(٤) كلمة « آخر » غير ثابتة فى المسند .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٣/٢٣٤ .

ثم رواه مسلم من حديث قتادة ، بنحوه (١) . ورواه أبان العطار وسليمان التيمي ، عن قتادة ، بنحوه (٢) :

حديث آخر ، قال البخاري : حدثنا محمد بن موسى القطان ، حدثنا أبو سفيان الحميري سعيد بن يحيى بن مهدي ، حدثنا عوف ، عن محمد ، عن أبي هريرة — رفعه ، وأكثر ما كان يوقفه أبو سفيان — : « يقال لجهنم : هل امتلأت ، وتقول : هل من مزيد ، فيضع الرب — عز وجل — قدمه عليها ، فتقول : قَطْ قَطْ (٣) » .

رواه أبو أيوب وهشام (٤) بن حسان . عن محمد بن سيرين ، به .

طريق أخرى ، قال البخاري : وحدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر عن همّام ، عن أبي هريرة قال : قال النبي — صلى الله عليه وسلم — : « تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثِرْت بالمتكبرين والمتجبرين . وقالت الجنة : مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسَقَطهم . قال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتي ، أرحم بك من أشاء من عبادي . وقال للنار : إنما أنت عذابي ، أعذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منكما ملؤها ، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله ، فتقول . قَطْ قَطْ ، فهنالك تمتلئ [ويُزْوَى بعضها إلى بعض] ولا يظلم الله من خلقه أحدا ، وأما الجنة فان الله ينشئُ لها خلقا آخر (٣) » .

حديث آخر ، قال مسلم في صحيحه : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « احتجت الجنة والنار ، فقالت النار : فيّ الجبارون والمتكبرون . وقالت الجنة : فيّ ضعفاء الناس ومساكينهم . فقضى بينهما ، فقال للجنة [إنما] : أنت رحمتي ، أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي ، أعذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منكما ملؤها » انفرد به مسلم دون البخاري (٥) ، من هذا الوجه ، والله سبحانه وتعالى أعلم . وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى ، عن أبي سعيد بأبسط من هذا السياق فقال :

حدثنا حسن وروح قالا : حدثنا حماد بن سلمة ، عن عطاء بن السائب ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبَةَ ، عن أبي سعيد الخُدْري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « افتخرت الجنة والنار ، فقالت النار : يا رب ، يدخلني الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف . وقالت الجنة : أيْ رب ، يدخلني الضعفاء والفقراء والمساكين . فيقول الله عز وجل للنار : أنت عذابي ، أصيب بك من أشاء . وقال للجنة : أنت رحمتي ، وسعت كلَّ شيْ ، ولكل واحدة منكما ملؤها ، فيلقى في النار أهلها فتقول : هل من مزيد ؟ قال : ويلقى فيها وتقول : هل من مزيد ؟ ويلقى فيها وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يأتيها عز وجل ، فيضع قدمه عليها ، فتُزْوَى وتقول : قَدْني ، قدني (٦) . وأما الجنة فيبقى فيها ما شاء الله أن يبقى ، فينشئُ الله لها خلقا ما يشاء (٧) » .

حديث آخر ، وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده : حدثنا عقبة بن مُكْرَم ، حدثنا يونس ، حدثنا عبد الغفار بن القاسم ، عن عدي بن ثابت ، عن زرّ بن حُبَيْش ، عن أبي بن كعب أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « يعرفني الله — عز

(١) مسلم ، كتاب الجنة ، باب « النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء » : ١٥٢/٨ .
(٢) تفسير الطبري : ١٠٦/٢٦ — ١٠٧ .
(٣) البخاري ، تفسير سورة « ق » : ١٧٣/٦ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٥٠٧/٢ . وتفسير الطبري : ١٠٧/٢٦ .
(٥) مسلم ، كتاب الجنة ، باب « النار يدخلها الجبارون ... » : ١٥١/٨ — ١٥٢ .
(٦) أي : حسبي ، حسبي ! .
(٧) مسند الإمام أحمد : ١٣/٣ .

وجل ـــ نفسه يوم القيامة ، فأسجد سجدة يرضى بها عنى ، ثم أمدحه مدْحَةً يرضى بها عنّى ، ثم يؤذن لى فى الكلام ، ثم تمر أمتى على الصراط ـــ مضروب بين ظهرانى جهنم ـــ فيمرون أسرع من الطرف والسهم ، وأسرع من أجود الخيل ، حتى يخرج الرجل منها يحبو ، وهى الأعمال . وجهنم تسأل المزيد ، حتى يضع فيها قدمه ، فينزوى بعضها إلى بعض وتقول : قَطْ قَطْ ! وأنا على الحوض » . قيل : وما الحوض يا رسول الله ؟ قال : « والذى نفسى بيده ، إن شرابه أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأبرد من الثلج ، وأطيب ريحا من المسك . وآنيته أكثر من عدد النجوم ، لا يشرب منه إنسان فيظمأ أبدا ، ولا يصرف فَيَرْوىَ أبدا (١) » . وهذا القول هو اختيار ابن جرير .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو يحيى الحمانى عن نَضْر الخزّاز ، عن عكرمة ، عن ابن عباس (يوم نقول لجهنم : هل امتلأت ؟ وتقول : هل من مزيد ؟) ، قال ما امتلأت ، قال تقول : وهل فىّ من مكان يزاد فى .

وكذا روى الحكم بن أبان عن عكرمة : (وتقول : هل من مزيد ؟) : وهل فىّ مدخل واحد ، قد امتلأت .

قال الوليد بن مسلم ، عن يزيد بن أبى مريم أنه سمع مجاهداً يقول : لا يزال يُقذف فيها حتى تقولَ : قد امتلأتْ فتقول هل من مزيد (٢) ؟ وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو هذا .

فعند هؤلاء أن قوله تعالى : (هل امتلأت) إنما هو بعد ما يضع عليها قدمه ، فتنزوى وتقول حينئذ : هل بقى فىّ [مزيد] (٣) يسع شيئاً ؟ .

قال العوفى ، عن ابن عباس : وذلك حين لا يبقى فيها موضع إبرة . فالله أعلم .

وقوله : (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) ، قال قتادة ، وأبو مالك ، والسدى : (أزلفت) أدنيت وقُرِّبت من المتقين (غير بعيد) ، وذلك يوم القيامة ، وليس ببعيد لأنه واقع لا محالة ، وكل ما هو آت آت .

(هذا ما توعدون لكل أواب) ، أى : رجاع تائب مقلع ، (حفيظ) ، أى : يحفظ العهد فلا ينقضه وينكُثُه .

وقال عبيد بن عمير : الأواب الحفيظ الذى لا يجلس مجلساً حتى يستغفر الله عز وجل .

(من خشى الرحمن بالغيب) ، أى : من خاف الله فى سره حيث لا يراه أحد إلا الله ، كقوله « ورجل ذكر الله خاليا ، ففاضت عيناه (٤) » .

(وجاء بقلب منيب) ، أى : ولقى الله يوم القيامة بقلب سليم منيب إليه خاضع لديه .

(أدخلوها) ، أى : الجنة (بسلام) ـــ قال قتادة : سَلِموا من عذاب الله ، وسلم عليهم ملائكة الله .

وقوله : (ذلك يوم الخلود) ، أى : يخلدون فى الجنة فلا يموتون ابداً ، ولا يظعنون أبداً ، ولا يبغون عنها حولا .

وقوله : (لهم ما يشاءون فيها) ، أى : مهما اختاروا وجدوا ، من أىّ أصناف الملاذ طَلَبوا أحضِرَ لهم .

---

(١) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن أبى يعلى وابن مردويه مختصراً . انظر : ١٠٧/٦ .

(٢) أثر مجاهد كما فى الدر المنثور ١٠٧/٦ – ١٠٨ : « حتى تقول : فهل من مزيد ؟ » .

(٣) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، ومكانه فى المخطوطة : « من ولع » .

(٤) البخارى ، كتاب الأذان ، باب « من جلس فى المسجد ينتظر الصلاة ، وفضل المساجد » : ١٦٨/١ ، ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب « فضل إخفاء الصدقة » : ٩٣/٣ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عَمْرو بن عثمان ، حدثنا بقية : عن بَحير بن سعد ، عن خالد بن معدان ، عن كثير بن مرة قال : من المزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول : ماذا تريدون فأمطره لكم ؟ فلا يدعون بشيء إلا أمطرتهم. قال كثير : لئن أشهدني الله ذلك لأقولن : أمطرينا جواري مزينات .

وفي الحديث عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « إنك لتشتهي الطير في الجنة ، فيخر بين يديك مشوياً » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثني أبي ، عن عامر الأحول ، عن أبي الصديق ، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة ، كان حمله ووضعه وسنّه (١) في ساعة واحدة (٢) » .

ورواه الترمذي وابن ماجه عن بندار ، عن معاذ بن هشام ، به . وقال الترمذي : « حسن غريب » ، وزاد « كما يشتهي (٣) » .

وقوله : ﴿ ولدينا مزيد ﴾ كقوله تعالى ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ (٤) . وقد تقدم في صحيح مسلم عن صُهَيب ابن سنان الرومي : أنها النظر إلى وجه الله الكريم (٥) . وقد روى البزار وابن أبي حاتم ، من حديث شريك القاضي ، عن عثمان بن عمَير أبي اليقظان ، عن أنس بن مالك في قوله عز وجل : ﴿ ولدينا مزيد ﴾ ، قال : يظهر لهم الرب عز وجل في كل جمعة .

وقد رواه الإمام أبو عبد الله الشافعي مرفوعاً فقال في مسنده : أخبرنا إبراهيم بن محمد ، حدثني موسى بن عبيدة ، حدثني أبو الأزهر معاوية بن إسحاق بن طلحة ، عن عبد الله [عبيد بن (٦)] عُمير أنه سمع أنس بن مالك يقول : أتى جبرائيل بمرآة بيضاء فيها نُكتة(٧) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي — صلى الله عليه وسلم : « ما هذه ؟ » . فقال : هذه الجمعة ، فُضِّلت بها أنت وأمتك ، فالناس لكم فيها تبع ، اليهود والنصارى ، ولكم فيها خير ، ولكم فيها ساعة لا يوافقها مؤمن يدعو الله بخير إلا استجيب له ، وهو عندنا يوم المزيد . قال النبي — صلى الله عليه وسلم — : ياجبريل ، وما يوم المزيد ؟ » . قال إن ربك اتخذ في الفردوس وادياً أفيح(٨) فيه كُثُب المسك ، فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله ما شاء من ملائكته ، وحوله

---

(١) أي : كمال سنه ، وهو ثلاثون سنة .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٣/ ٩ .
(٣) تحفة الأحوذي ، أبواب الجنة ، باب « ما جاء لأدنى أهل الجنة من الكرامة » ، الحديث ٢٦٨٨ : ٧/ ٢٨٥ — ٢٨٦ . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « صفة الجنة » ، الحديث ٤٣٣٨ : ٢/ ١٤٥٢ .
(٤) سورة يونس ، آية : ٢٦ .
(٥) انظر : ٤/ ١٩٩ .
(٦) في المخطوطة : « عن عبيد الله بن عمير » . والمثبت من الأم ، كتاب الجمعة . وفي المسند : « عن عبيد بن عمير » .
(٧) في مسند الشافعي : « وكتة » ، وكلاهما بمعنى ، وهي : الأثر في الشيء كالنقطة من غير لونه .
(٨) أي : واسعاً .

منابر من نور ؛ عليها مقاعد النبيين ، وحفّ تلك المنابر بمنابر من ذهب ، مكللة بالياقوت والزبرجد ؛ عليها الشهداء والصديقون فجلسوا من ورائهم على تلك الكثب . فيقول الله عز وجل : أنا ربكم ، قد صدقتكم وعدى ، فسلونى أعطكم . فيقولون : ربنا . نسألك رضوانك ، فيقول : قد رضيت عنكم ، ولكم علىّ ما تمنيتم ، ولدىّ مزيد . فهم يحبّون يوم الجمعة لما يعطيهم [فيه] ربهم من الخير ، وهو اليوم الذى استوى فيه ربكم على العرش ، وفيه خلق آدم ، وفيه تقوم الساعة (١) ؛

هكذا أورده الإمام الشافعى فى كتاب « الجمعة(٢) » من الأم. وله طرق على أنس بن مالك رضى الله عنه . وقد أورد ابن جرير هذا من رواية عثمان بن عمير ، عن أنس بأبسط من هذا ، وذكر هاهنا أثراً مطولاعن أنس بن مالك موقوفاً ، وفيه غرائب كثيرة (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا درّاج عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إن الرجل فى الجنة ليتكىء فى الجنة سبعين سنة [قبل أن يتحول] ثم تأتيه امرأة فتضرب على منكبه ، فينظر وجهه فى خدّها أصفى من المرآة ، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضىء ما بين المشرق والمغرب . فتسلم عليه ، فيرد السلام ، فيسألها : من أنت ؟ فتقول : أنا من المزيد . وإنه ليكون عليها سبعون حلة ، أدناها مثل النعمان من طوبى ، فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك ، وإن عليها من التيجان إن أدنى لؤلؤة منها لتضىء ما بين المشرق والمغرب (٤) » ؛

وهكذا رواه عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث ، عن دراج ، به (٥) .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠)

يقول تعالى : وكم أهلكنا قبل هؤلاء المنكرين : (من قرن هم أشد منهم بطشاً) ، أى: كانوا أكثر منهم وأشد قوة ، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها . ولهذا قال هاهنا : (فنقبوا فى البلاد) — قال ابن عباس : أثّروا فيها . وقال مجاهد : (فنقبوا فى البلاد) : ضربوا فى الأرض : وقال قتادة : فساروا فى البلاد : أى ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم انتم فيها ويقال لمن طوف فى البلاد : نقب فيها . قال امرؤ القيس : (٦) .

لقد نقّبت فى الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

---

(١) مسند الشافعى على الأم : ١٠٤/٦ — ١٠٥ .

(٢) الأم ، كتاب الجمعة ، باب « ما جاء فى فضل الجمعة » : ١٨٥/١ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٠٩/٢٦ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٧٥/٣ . وانظر تحفة الأحوذى ، أبواب الجنة ، باب « ما جاء لأدنى أهل الجنة ؛ من الكرامة » ، الحديث ٢٦٨٧ : ٢٨٤/٧ — ٢٨٥ .

(٥) تفسير الطبرى : ١١٠/٢٦ .

(٦) ديوانه ، ط بيروت : ٧٣ . والرواية فيه : « وقد طوفت » . وتفسير الطبرى : ١١٠/٢٦ .

وقوله : (هل من محيص) أى : هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره ؟ وهل نفعهم ما جمعوه ورَدّ عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل ؟ فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص .

وقوله : (إن فى ذلك لذكرى) ، أى : لعبرة (لمن كان له قلب) ، أى : لب يعى به . وقال مجاهد : عقل : (أو ألقى السمع وهو شهيد) ، أى استمع الكلام فوعاه ، وتعقله بقلبه وتفهمه بلبه .

وقال مجاهد : (أو ألقى السمع) ، يعنى : لا يحدث نفسه بغيره ، (وهو شهيد) ، وقال شاهد بالقلب (١) .

وقال الضحاك : العرب تقول : ألقى فلان سمعه : إذا استمع بأذنيه وهو شاهد يقول غير غائب (٢) . وهكذا قال الثورى وغير واحد .

وقوله : (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب) : فيه تقرير المعاد ؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن ، قادر على أن يحيى الموتى بطريق الأولى والأحرى .

وقال قتادة : قالت اليهود ــ عليهم لعائن الله ــ خلق الله السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استراح فى اليوم السابع ، وهو يوم السبت ، وهم يسمونه يوم الراحة ، فأنزل الله تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه : (وما مسنا من لغوب (٣)) أى : من اعياء ولا نصب ولا تعب ، كما قال فى الآية الأخرى : (أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ؟ بلى ، إنه على كل شىء قدير) (٤) ، وكما قال : (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) (٥) وقال : (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ؟) (٦) .

وقوله : (فاصبر على ما يقولون) يعنى المكذبين ، اصبر عليهم واهجرهم هجراً جميلا ، (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) ، وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ، ثنتان قبل طلوع الشمس [فى وقت الفجر ، وقبل الغروب فى وقت العصر ، وقيام الليل كان واجباً على النبى صلى الله عليه وسلم [وعلى أمته] حولا ، ثم نسخ فى حق الأمة وجوبه . ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات ، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر ، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا إسماعيل بن أبى خالد ، عن قيس بن أبى حازم ، عن جرير بن عبد الله قال : كنا جلوساً عند النبى صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة [البدر] فقال : « أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون

---

(١) فى المخطوطة : « لا يحدث نفسه فى هذا بقلب » . والمثبت من الدر المنثور ، فقد أخرجه السيوطى عن الفريابى وابن جرير . انظر : ٦/١١٠ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٦/١١١ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٦/١١٢ .

(٤) سورة الأحقاف ، آية : ٣٣ .

(٥) سورة غافر ، آية : ٥٧ .

(٦) سورة النازعات ، آية : ٢٧ .

هذا القمر ، لا تُضَامون[١] فيه، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، فافعلوا » . ثم قرأ : (وسبح[٢] بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) [٣] .

ورواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة ، من حديث إسماعيل ، به [٤] .

وقوله : (ومن الليل فسبحه) ، أي : فصل له ، كقوله : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً [٥]) .

(وأدبار السجود) قال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : هو التسبيح بعد الصلاة

ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أنه قال : جاء فقراء المهاجرين فقالوا : يارسول الله ، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم . فقال : « وما ذاك؟ » قالوا : يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نعتق ! قال « أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم ؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين » . قال : فقالوا : يارسول الله ، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ، ففعلوا مثله . قال : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء[٦] » .

والقول الثاني : أن المراد بقوله : (وأدبار السجود) ، هما الركعتان بعد المغرب ، روى ذلك عن عمر وعلي ، وابنه الحسن وابن عباس ، وأبي هريرة ، وأبي أمامة وبه يقول مجاهد ، وعكرمة ، والشعبي ، والنخعي والحسن وقتادة ، وغيرهم .

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع وعبد الرحمن ، عن سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن عاصم بن ضمرة ، عن علي قال : كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يصلي على أثر كل صلاة مكتوبة ركعتين إلا الفجر والعصر . وقال عبد الرحمن : دبر كل صلاة[٧] .

ورواه أبو داود [٨] والنسائي ، من حديث سفيان الثوري ، به زاد النسائي : ومطرف ، عن أبي إسحاق ، به .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا هارون بن إسحاق الهمداني ، حدثنا [ابن] فضيل ، عن رشيدين بن كريب ، عن أبيه عن [ابن] عباس قال : بت ليلة عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فصلى ركعتين خفيفتين ، اللتين قبل الفجر . ثم خرج إلى الصلاة فقال : « ياابن عباس ، ركعتين قبل صلاة الفجر إدبار النجوم ، وركعتين بعد المغرب إدبار السجود » .

---

(١) أي : لا يلحقكم ضيم ولا مشقة .

(٢) في المسند والمخطوطة : « فسبح » .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣٦٥/٤ – ٣٦٦ .

(٤) البخاري ، تفسير سورة « ق » : ١٧٣/٦ ، ومسلم ، كتاب المساجد ، باب « فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما » : ١١٣/٢ – ١١٤ . وتحفة الأحوذي ، ابواب صفة الجنة ، باب « ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى » ، الحديث ٢٦٧٥ : ٢٦٥/٧ – ٢٦٦ ، وقال الترمذي : « هذا حديث صحيح » . وسنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب « في الرؤية » . وابن ماجه ، المقدمة ، باب « فيما أنكرت الجهمية » ، الحديث ١٧٧ : ٦٣/١ .

(٥) سورة الإسراء ، آية : ٧٩ .

(٦) البخاري ، كتاب الأذان ، باب « الذكر بعد الصلاة » : ٢١٣/١ – ٢١٤ . وكتاب الدعوات ، باب « الدعاء بعد الصلاة » : ٨٩٨ . ومسلم ، كتاب المساجد ، باب « استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته » : ٩٧/٢ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ١٢٤/١ .

(٨) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « من رخص فيهما (أي : الركعتين) إذا كانت الشمس مرتفعة » .

ورواه الترمذى عن [أبى](١) هشام الرفاعى ، عن محمد بن فضيل ، به . وقال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ».

وحديث ابن عباس وأنه بات فى بيت خالته ميمونة وصلى تلك الليلة مع النبى — صلى الله عليه وسلم — ثلاث عشرة ركعة ، ثابت فى الصحيحين (٢) وغيرهما . فأما هذه الزيادة فغريبة لا تعرف إلا من هذا الوجه ، ورشدين بن كريب ضعيف ، ولعله من كلام ابن عباس موقوفا عليه ، والله أعلم .

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى : (واستمع) يامحمد (يوم يناد المناد من مكان قريب) قال قتادة : قال كعب الأحبار : يأمر الله ملكاً أن ينادى على صخرة بيت المقدس : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء(٣) .

(يوم يسمعون الصيحة بالحق) ، يعنى النفخة فى الصور التى تأتى بالحق الذى كان أكثرهم فيه يمترون . (ذلك يوم الخروج) أى : من الأجداث ، (إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير) ، أى : هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وإليه مصير الخلائق كلهم ، فيجازى كلا بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وقوله : (يوم تشقق الأرض عنهم سراعا) ، وذلك أن الله تعالى ينزل مطراً من السماء تنبت به أجساد الخلائق فى قبورها ، كما ينبت الحب فى الثرى بالماء ، فاذا تكاملت الأجساد أمر الله [إسرافيل فينفخ فى الصور، وقد أودعت الأرواح فى ثقب فى الصور، فاذا نفخ] إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض، فيقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى ، لترجعن كل روح إلى الجسد الذى كانت تعمره ، فترجع كل روح إلى جسدها ، فتدب فيه كما يدب السم فى اللديغ(٤) [وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب سراعا مبادرين إلى أمر الله عز وجل ، (مهطعين إلى الداع] يقول الكافرون: هذا يوم عسر)(٥)، وقال الله تعالى (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا(٦)) . وفى صحيح مسلم عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا أول من تنشق عنه الأرض(٧) » .

---

(١) فى المخطوطة : «عن هشام» . وصوابه : «عن أبى هشام» . انظر التهذيب ، ترجمة محمد بن يزيد بن محمد بن كثير بن رفاعة بن سماعة العجلى ، أبى هشام الرفاعى : ٥٢٦/٩ . على أنه لم يقع لنا حديث الترمذى ، ولعلنا نستدركه فيما بعد .

(٢) البخارى ، كتاب الأذان ، باب «إذا قام الرجل عن يسار الإمام فحوله الإمام إلى يمينه ، لم تفسد صلاتهما» : ١٧٩/١ . ومسلم ، كتاب المساجد ، باب «الدعاء فى صلاة الليل وقيامه» : ١٧٨/٢ — ١٧٩ .

(٣) تفسير الطبرى : ١١٤/٢٦ .

(٤) انظر : ٢٧٨/٣ ، ٢٢٦/٦ .

(٥) سورة القمر ، آية ٨ .

(٦) سورة الإسراء ، آية : ٥٢ .

(٧) الذى وقع لنا فى مسلم من رواية أبى هريرة ، انظر كتاب الفضائل ، باب «تفضيل نبينا — صلى الله عليه وسلم — على جميع الخلائق» : ٥٩/٧ .

وقوله : (ذلك حشر علينا يسير) ، أي : تلك إعادة سهلة علينا ، يسيرة لدينا ، كما قال تعالى : (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر (١)) . وقال تعالى : (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ، إن الله سميع بصير (٢)) .

وقوله : (نحن أعلم بما يقولون) ، أي : نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يَهيدنَّك(٣) ذلك ، كقوله (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) (٤) .

وقوله : (وما أنت عليهم بجبار) ، أي : ولست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى ، وليس ذلك مما كلفت به .

وقال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك : (وما أنت عليهم بجبار) ، أي : لا تَتَجبَّر عليهم(٥) .

والقول الأول أولى ، ولو أراد ما قالوه لقال : ولا تكن جباراً عليهم ، وإنما قال : (وما أنت عليهم بجبار) ، بمعنى : وما أنت بمجبرهم على الإيمان إنما أنت مبلغ .

قال الفراء : سمعت العرب تقول : جبر فلان فلانا على كذا ، بمعنى أجبره (٥) .

ثم قال تعالى (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) ، أي : بلغ أنت رسالة ربك ، فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده ، كقوله : (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) (٦) ، وقوله : (فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر) (٧) ، (ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدى من يشاء) (٨) ، (إنك لا تَهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) (٩) ولهذا قال هاهنا (وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) . كان قتادة يقول : اللهم ، اجعلنا ممن يخاف وعيدك ، ويرجو موعودك ، يابار يارحيم .

آخر تفسير سورة (ق) ، والحمد لله وحده ، وحسبنا الله ونعم الوكيل

---

(١) سورة القمر ، آية : ٥٠ .
(٢) سورة لقمان ، آية : ٢٨ .
(٣) انظر تفسير هذه الكلمة فى : ١٥٤/٢ .
(٤) سورة الحجر ، الآيات : ٩٧ – ٩٩ .
(٥) تفسير الطبرى : ١١٥/٢٦ .
(٦) سورة الرعد ، آية : ٤٠ .
(٧) سورة الغاشية ، آية : ٢١ – ٢٢ .
(٨) سورة البقرة ، آية : ٢٧٢ .
(٩) سورة القصص ، آية : ٥٦ .

تفسير سورة الذاريات

وهى مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)

قال شعبة بن الحجاج ، عن سماك ، عن خالد بن عَرْعَرَة أنه سمع عليا وشعبة أيضاً ، عن القاسم بن أبى بَزَّة ، عن أبى الطفيل ، سمع علياً . وثبت أيضاً من غير وجه ، عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب : أنه صعد منبر الكوفة فقال : لا تسألونى عن آية فى كتاب الله ، ولا عن سنة عن رسول الله ، إلا أنبأتكم بذلك . فقام إليه ابن الكواء فقال : يا أمير المؤمنين ، ما معنى قوله تعالى : (والذاريات ذروا) ؟ قال : الريح . (فالحاملات وقرا) ؟ قال : السحاب . (فالجاريات يسرا) ، قال : السفن (فالمقسمات أمرا) ؟ قال : الملائكة (١) .

وقد رُوى فى ذلك حديث مرفوع ، فقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا إبراهيم بن هانىء ، حدثنا سعيد بن سلام العطار ، حدثنا أبو بكر بن أبى سبرة ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال : جاء صَبِيغ التميمى إلى عمر ابن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ، أخبرنى عن الذاريات ذروا ؟ فقال : هى الرياح ، ولولا أنى سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقوله ماقلته . قال : فأخبرنى عن المقسمات أمرا . قال : هى الملائكة ، ولولا أنى سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقوله ماقلته . قال : فأخبرنى عن الجاريات يسرا . قال : هى السفن ، ولولا أنى سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقوله ما قلته . ثم أمر به فضرب مائة ، وجُعِل فى بيت ، فلما بَرَأ ضربه مائة أخرى ، وحمله على قَتَب (٢) وكتب إلى أبى موسى الأشعرى : امنع الناس من مجالسته . فلم يزل كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف بالأيمان الغليظة ما يجد فى نفسه مما كان يجد شيئا . فكتب فى ذلك إلى عمر ، فكتب عمر : ما إخاله إلا صدق ، فخل بينه وبين مجالسة الناس (٣) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٦/١١٥ — ١١٦ .

(٢) القتب : البرذعة .

(٣) انظر الإصابة ، ترجمة صبيغ بن عسل : ٢/١٩١ .

قال أبو بكر البزار : فأبو بكر بن أبي سبرة لين ، وسعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث .

قلت : فهذا الحديث ضعيف رفعه ، وأقرب ما فيه أنه موقوف على عمر ، فإن قصة صَبِيغ بن عسل مشهورة مع عمر ، وإنما ضربه لأنه ظهر له من أمره فيما يسأل تعنتا وعنادا ، والله أعلم .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر هذه القصة فى ترجمة صبيغ مطولة ، وهكذا فسرها ابن عباس ، وابن عمر ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، وغير واحد . ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم غير ذلك .

وقد قيل : إن المراد بالذاريات: الريح كما تقدم ، وبالحاملات وقراً : السحاب كما تقدم ، لأنها تحمل الماء ، كما قال زيد بن عمرو بن نُفَيل (١) :

وَأَسْلَمْتُ نَفْسى لِمَنْ أَسْلَمَتْ   لَهُ المُزْنُ تَحْمِلُ عَذْباً زُلالا

فأما الجاريات يسراً [فالمشهور عن الجمهور — كما تقدم — أنها السفن تجرى ميسرة فى الماء جريا سهلا . وقال بعضهم : هى النجوم تجرى يسرا] فى أفلاكها ، ليكون ذلك ترقيا من الأدنى إلى الأعلى ، إلى ما هو أعلى منه ، فالرياح فوقها السحاب ، والنجوم فوق ذلك ، والمقسمات أمرا الملائكة فوق ذلك ، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية . وهذا قسم من الله عز وجل على وقوع المعاد ، ولهذا قال : (إنما توعدون لصادق) ، أى : لخبر صدق ، (وإن الدين) ، وهو : الحساب (لواقع) ، أى : لكائن لا محالة .

ثم قال : (والسماء ذات الحبك) — قال ابن عباس ذات البهاء والجمال والحسن والاستواء . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جُبَير ، وأبو مالك ، وأبو صالح ، والسدى ، وقتادة ، وعطية العوفى ، والربيع بن أنس ، وغيرهم .

وقال الضحاك ، والمنهال بن عمرو ، وغيرهما : مثل تجعد الماء والرمل والزرع إذا ضربته الريح ، فينسج بعضه بعضا طرائق ، فذلك الحبك .

قال ابن جرير : حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، [حدثنا ابن علية] ، حدثنا أيوب ، عن أبي قلابة ، عن رجل من أصحاب النبي — صلى الله عليه وسلم — عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « إن من ورائكم الكذاب المضل ، وإن رأسه من ورائه حُبُكٌ حُبُكٌ » . يعنى بالحبك : الجعودة (٢) .

وعن أبي صالح (ذات الحبك) : الشدة . وقال خُصَيف : (ذات الحبك) : ذات الصفاقة . وقال الحسن بن أبي الحسن البصرى : (ذات الحبك) : حبكت بالنجوم .

وقال قتادة : عن سالم بن أبي الجعد ، عن معدان بن أبي طلحة ، عن عمرو البِكَالى ، عن عبد الله بن عمرو : (والسماء ذات الحبك) ، يعنى : السماء السابعة (٢) .

---

(١) البيت فى سيرة ابن هشام : ١/٢٣١ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٦/١١٨ .

وكأنه ـ والله أعلم ـ أراد بذلك السماء التي فيها الكواكب الثابتة ، وهي عند كثير من علماء الهيئة في الفلك الثامن الذي فوق السابع ، والله أعلم . وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد . وهو الحسن والبهاء . كما قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فإنها من حسنها مرتفعة شفافة صفيقة ، شديدة البناء ، متسعة الأرجاء ، أنيقة البهاء ، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات ، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات .

وقوله : (إنكم لفي قول مختلف) ، أي : إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل لفي قول مختلف مضطرب ، لايلتئم ولا يجتمع .

وقال قتادة : إنكم لفي قول مختلف ، مابين مصدق بالقرآن ومكذب به .

(يؤفك عنه من أفك) ، أي : إنما يروج على من هو ضال في نفسه ؛ لأنه قول باطل إنما ينقاد له ويضل بسببه ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال غمْر ، لافهم له ، كما قال تعالى : (فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بفاتنين . إلا من هو صال الجحيم) (١) .

قال ابن عباس ، والسدي : (يؤفك عنه من أفك) : يضل عنه من ضل . وقال مجاهد : (يؤفك عنه من أفك) : يُؤفَن عنه من أُفِنَ (٢) . وقال الحسن البصري : يصرف عن هذا القرآن من كذب به (٣) .

وقوله : (قتل الخراصون) ـ قال مجاهد : الكذابون . قال : وهي مثل التي في عبس : (قتل الإنسان ما أكفره) (٤) ، والخراصون الذين يقولون لا نبعث ولا يوقنون (٣) .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (قتل الخراصون) ، أي : لعن المرتابون .

وهكذا كان معاذ رضي الله عنه يقول في خُطَبه : هلك المرتابون . وقال قتادة : الخراصون أهل [الغرة] (٥) والظنون .

وقوله : (الذين هم في غمرة ساهون) ـ قال ابن عباس وغير واحد : في الكفر والشك غافلون لاهون .

(يسألون أيان يوم الدين) : وإنما يقولون هذا تكذيبا وعنادا وشكا واستبعادا . قال الله تعالى : (يوم هم على النار يفتنون) .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وغير واحد (يفتنون) : يعذبون كما يفتن الذهب على النار .

وقال جماعة آخرون كمجاهد أيضا ، وعكرمة ، وإبراهيم النخعي ، وزيد بن أسلم ، وسفيان الثوري : يفتنون يحرقون .

---

(١) سورة الصافات ، الآيات : ١٦١ ـ ١٦٣ .

(٢) في اللسان : « وقوله تعالى : (يؤفك عنه من أفك) ، قال مجاهد : يؤفن عنه من أفن . وأفن الرجل : ضعف رأيه ، وأفنه الله ، وأفك الرجل : ضعف عقله ورأيه . قال : ولم يستعمل « أفكه الله » بمعنى أضعف عقله ، وإنما أتى « أفكه » بمعنى « صرفه » ، فيكون المعنى في الآية : يصرف عن الحق من صرفه الله » .

(٣) تفسير الطبري : ٢٦/١١٩ .

(٤) سورة عبس ، الآية : ١٧ .

(٥) ما بين القوسين عن الدر المنثور ٦/١١٢ ، والطبعات السابقة ، ومكانه بياض في المخطوطة .

(ذوقوا فتنتكم) ، قال مجاهد : حريقكم . وقال غيره : عذابكم . (هذا الذى كنتم به تستعجلون) ، أى : يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا وتحقيرا وتصغيرا .

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبرا عن المتقين لله عز وجل : إنهم يوم معادهم يكونون فى جنات وعيون ، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال ، والحريق والأغلال .

وقوله : (آخذين ما آتاهم ربهم) — قال ابن جرير : أى عاملين بما آتاهم الله من الفرائض : (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) ، أى : قبل أن يفرض عليهم الفرائض كانوا محسنين فى الأعمال أيضا (١) : ثم روى عن ابن حميد ، حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن أبى عمر ، عن مسلم البطين ، عن ابن عباس فى قوله : (آخذين ما آتاهم ربهم) ، قال : من الفرائض ، (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) : قبل الفرائض يعملون (١) . وهذا الإسناد ضعيف ، ولايصح عن ابن عباس ، وقد رواه عثمان بن أبى شيبة ، عن معاوية بن هشام ، عن سفيان ، عن أبى عمر البزار ، عن مسلم البطين ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس ، فذكره . والذى فسر به ابن جرير فيه نظر ؛ لأن قوله : (آخذين) حال من قوله : (فى جنات وعيون) ، فالمتقون فى حال كونهم فى الجنات والعيون آخذون ما آتاهم ربهم ، أى : من النعيم والسرور والغبطة .

وقوله : (إنهم كانوا قبل ذلك) ، أى : فى الدار الدنيا (محسنين) ، كقوله : (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية) . ثم إنه تعالى بيّن إحسانهم فى العمل فقال : (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) ، اختلف المفسرون فى ذلك على قولين :

أحدهما : أن « ما » نافية ، تقديره : كانوا قليلا من الليل لا يهجعونه . قال ابن عباس : لم تكن تمضى عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئا (٢) . وقال قتادة ، عن مطرف بن عبد الله : قلّ ليلة تأتى عليهم لا يصلون فيها لله عز وجل ، إما من أولها وإما من أوسطها . وقال مجاهد : قلّ ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون . وكذا قال قتادة . وقال أنس ابن مالك ، وأبو العالية : كانوا يصلون بين المغرب والعشاء . وقال أبو جعفر الباقر : كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٢١/٢٦ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٢٢/٢٦ .

والقول الثاني : أن « ما » مصدرية ، تقديره : كانوا قليلا من الليل هجوعهم ونومهم . واختاره ابن جرير . وقال الحسن البصرى : (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) ، كابدوا قيام الليل ، فلا ينامون من الليل إلا أقله ، ونشطوا فمدّوا إلى السحر ، حتى كان الاستغفار بسحر . وقال قتادة : قال الأحنف بن قيس : (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) ، كانوا لا ينامون إلا قليلا ، ثم يقول : لست من أهل هذه الآية . وقال الحسن البصرى : كان الأحنف بن قيس يقول : عرضت عملى على عمل أهل الجنة ، [فاذا قوم] قد باينونا بوناً بعيدا ، إذا قوم لا نبلغ أعمالهم ، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وعرضت عملى على عمل أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم يكذبون بكتاب الله وبرسل الله ، يكذبون بالبعث بعد الموت ، فوجدتُ من خيرنا منزلة قوماً خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : قال رجل من بنى تميم لأبى : يا أبا أسامة ، صفة لا أجدها فينا ، ذكر الله قوما فقال : (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) ، ونحن والله قليلا من الليل ما نقوم . فقال له أبى : طوبى لمن رقد إذا نعس ، واتقى الله إذا استيقظ (١) .

وقال عبد الله بن سلام : لما قدم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ المدينة ، انجفل(٢) الناس إليه ، فكنت فيمن انجفل . فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب ، فكان أول ما سمعته يقول : « يا أيها الناس أطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وأفشوا السلام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام (٣) »

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنى حُيَيّ بن عبد الله ، عن أبى عبد الرحمن الحُبُلى ، عن عبد الله بن عَمْرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها » . فقال أبو موسى الأشعرى : لمن هى يا رسول الله ؟ قال : « لمن ألان الكلام ، وأطعم الطعام ، وبات لله قائما ، والناس نيام » (٤) .

وقال معمر فى قوله : (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) : كان الزهرى والحسن يقولان : كانوا كثيرا من الليل ما يصلون .

وقال ابن عباس ، وإبراهيم النخعى : (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) : ما ينامون .

وقال الضحاك : (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا) . ثم ابتدأ فقال : (من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون (٥)) .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٢٣/٢٦ .
(٢) أى : أسرعوا إليه .
(٣) أخرجه الإمام أحمد ، انظر المسند : ٤٥١/٥ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ١٧٣/٢ .
(٥) تفسير الطبرى : ١٢٣/٢٦ . ولفظ الطبرى : « يقول : المحسنون كانوا قليلا ، هذه مفصولة ، ثم استأنف فقال : (من الليل ما يهجعون) .

[وقوله عز وجل : (وبالأسحار هم يستغفرون)] ، قال مجاهد ، وغير واحد : يصلون . وقال آخرون : قاموا الليل ، وأخروا الاستغفار إلى الأسحار . كما قال تعالى : (والمستغفرين بالأسحار) ، فإن كان الاستغفار فى صلاة فهو أحسن .

وقد ثبت فى الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فيقول : هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من مستغفر فأغفرَ له ؟ هل من سائل فَيُعطَى سؤله ؟ حتى يطلعَ الفجر (١) » .

وقال كثير من المفسرين فى قوله تعالى إخبارا عن يعقوب : أنه قال لبنيه : (سوف أستغفر لكم ربى) ، قالوا : أخَّرَهُم إلى وقت السحَر (٢) .

وقوله : (وفى أموالهم حق للسائل والمحروم) : لما وصفهم بالصلاة ثَنّى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة ، فقال : (وفى أموالهم حق) ، أى : جزء مقسوم قد أفرزوه للسائل والمحروم ، أما السائل فمعروف ، وهو الذى يبتدىء بالسؤال ، وله حق ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا وكيعُ وعبد الرحمن قالا : حدثنا سفيان ، عن مصعب بن محمد ، عن يعلى بن أبى يحيى ، عن فاطمة بنت الحسين ، عن أبيها الحسين بن على قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « للسائل حق وإن جاء على فرس (٣) » .

ورواه أبو داود من حديث سفيان الثورى ، به . ثم أسنده من وجه آخر عن على بن أبى طالب (٤) ، ورُوِى من حديث الهرماس بن زياد مرفوعا .

وأما المحروم فقال ابن عباس ، ومجاهد : هو المحارف الذى ليس له فى الإسلام سهم . يعنى لاسهم له فى بيت المال ، ولا كسب له ، ولا حرفة يتقوت منها .

وقالت أم المؤمنين عائشة : هو المحارَف (٥) الذى لا يكاد يتيسر له مكسبه .

وقال الضحاك : هو الذى لا يكون له مال إلا ذهب ، قضى الله له ذلك .

وقال أبو قلابة : جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل ، فقال رجل من الصحابة : هذا المحروم .

وقال ابن عباس أيضاً ، وسعيد بن المسيب ، وإبراهيم النخعى ، ونافع — مولى ابن عمر وعطاء بن أبى رباح : المحروم المحارَف .

وقال قتادة ، والزهرى ، المحروم الذى لا يسأل الناس شيئاً ، قال الزهرى وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس المسكين بالطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يُفطَن له فَيتصدّقَ عليه »(٦) .

---

(١) مسند الإمام احمد عن ابن مسعود : ١/٣٨٨ . ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب « الترغيب فى الدعاء والذكر فى آخر الليل والإجابة فيه » : ٢/١٧٥ — ١٧٦ .
(٢) انظر تفسير الآية ٩٨ من سورة يوسف : ٤/٣٣٤ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ١/٢٠١ .
(٤) سنن أبى داود ، كتاب الزكاة ، باب « حق السائل » .
(٥) المحارف — بفتح الراء — : المحروم .
(٦) تفسير الطبرى : ٢٦/١٢٥ .

وهذا الحديث قد أسنده الشيخان في صحيحهما من وجه آخر(١).

وقال سعيد بن جبير : هو الذي يجيء وقد قسم المغنم ، فيرضخ له (٢).

وقال محمد بن إسحاق : حدثني بعض أصحابنا قال : كنا مع عمر بن عبد العزيز في طريق مكة [فجاء كلب] فانتزع عمر كتف شاة فرمى بها إليه ، وقال : يقولون : إنه المحروم .

وقال الشعبي : أعياني أن أعلم ما المحروم ؟.

واختار ابن جرير أن المحروم الذي لا مال له بأي سبب كان ، قد ذهب ماله ، سواء كان لا يقدر على الكسب ، أو قد هلك ماله أو نحوه بآفة أو نحوها(٣).

وقال الثوري ، عن قيس بن مسلم ، عن الحسن بن محمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية فغنموا ، فجاء قوم لم يشهدوا الغنيمة فنزلت هذه الآية : (وفي أموالهم حق للسائل والمحروم (٤)).

وهذا يقتضي أن هذه مدنية ، وليس كذلك ، بل هي مكية شاملة لما بعدها .

وقوله : (وفي الأرض آيات للموقنين) ، أي : فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة ، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات ، والمهاد والجبال ، [والقفار] والأنهار والبحار ، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم ، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى ، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات ، والسعادة والشقاوة ، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه ، ولهذا قال : (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) ـ قال قتادة : من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة .

ثم قال : (وفي السماء رزقكم) ، يعني المطر ، (وما توعدون) ، يعني الجنة . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد.

وقال سفيان الثوري : قرأ واصل الأحدب هذه الآية : (وفي السماء رزقكم وما توعدون) ، فقال : ألا [إني] أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض ؟ فدخل خربة فمكث ثلاثا لا يصيب شيئا ، فلما أن كان في اليوم الثالث إذا هو بدوخلة (٥) من رطب ـ وكان له أخ أحسن نية منه ، [فدخل معه] فصارتا دوخلتين ، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق الموت بينهما (٦).

---

(١) أخرجاه في كتاب الزكاة ، انظر البخاري ، باب قول الله تعالى : (لا يسألون الناس إلحافا) : ٢/١٥٤ . ومسلم ، باب « المسكين الذي لا يجد غنى ولا يفطن له فيتصدق عليه » : ٣/٩٥ - ٩٦ . وانظر أيضاً : ٤/١٠٧ .

(٢) أي : فيعطى عطاء قليلا . والرضخ - بفتح فسكون - : العطية القليلة .

(٣) انظر تفسير الطبري : ٢٦/١٢٦ .

(٤) تفسير الطبري : ٢٦/١٢٥ .

(٥) الدوخلة : النسيجة من خوص .

(٦) تفسير الطبري : ٢٦/١٢٧ .

هذا ، وإن ما حدث لواصل الأحدب وأخيه من البراهين التي يبرزها الله ـ سبحانه وتعالى ـ لبعض عباده ، لما تطمئن به قلوبهم ، وليست قاعدة مطردة ، ولا هي مسلك يوصي الإسلام به ، فإن القرآن والسنة يحضان على العمل والسعي من أجل القوت .

وقوله : (فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) ، يقسم تعالى بنفسه الكريمة أنّ ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء ، كائن لا محالة ، وهو حق لا مرية فيه ، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا فى نطقكم حين تنطقون . وكان معاذ — رضى الله عنه — إذا حدّث بالشيء يقول لصاحبه : إن هذا لحق كما أنك هاهنا .

قال مسدد ، عن ابن أبى عدى ، عن عوف ، عن الحسن البصرى قال : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا » .

ورواه ابن جرير ، عن بندار ، عن ابن أبى عدى ، عن عوف ، عن الحسن ، فذكره مرسلا (١) .

هَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

هذه القصة قد تقدمت فى سورة « هود » ، « والحجر »(٢) أيضا . وقوله : (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين) ، أى : الذين أرصد لهم الكرامة . وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل ، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل .

وقوله : (قالوا : سلاما ، قال : سلام) ، الرفع أقوى وأثبت من النصب ، فردّه أفضل من التسليم ، ولهذا قال تعالى : (وإذا حُيّيتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) (٣) ، فالخليل اختار الأفضل .

وقوله : (قوم منكرون) ، وذلك أن الملائكة وهم : جبريل وإسرافيل وميكائيل قدموا عليه فى صُور شباب حسان ، عليهم مهابة عظيمة ، ولهذا قال : (قوم منكرون) .

وقوله : (فراغ إلى أهله) ، أى : انسل خفية فى سرعة ، (فجاء بعجل سمين) ، أى : من خيار ماله . وفى الآية الأخرى (فما لبث أن جاء بعجل حَنِيذ) (٤) ، أى : مشوى على الرَّضْف ، (فقربه إليهم) ، أى : أدناه منهم ، (قال : ألا تأكلون ؟) : تَلَطّفٌ فى العبارة وعَرْضٌ حسن .

وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة ، فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة ، ولم يمتن عليهم أولا فقال : « نأتيكم بطعام ؟ » بل جاء به بسرعة وخفاء ، وأتى بأفضل ما وجد من ماله ، وهو عجل فتىّ سمين مشوى ، فقربه إليهم ، لم يضعه ،

(١) تفسير الطبرى ٢٧ / ١٢٧ .
(٢) انظر : ٤/٢٦٤ — ٢٦٧ ، ٤٥٨ .
(٣) سورة النساء ، آية : ٨٦ .
(٤) سورة هود ، آية : ٦٩ .

وقال : اقتربوا ، بل وضعه بين أيديهم ، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم ، بل قال : (ألا تأكلون ؟) ، على سبيل العرض والتلطف ، كما يقول القائل اليوم : إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق ، فافعل .

وقوله : (فأوجس منهم خيفة) ، هذا محال على ماتقدم فى القصة فى السورة الأخرى ، وهو قوله : (فلما رأى أيديهم لاتصل إليه ، نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا : لاتخف ، إنا أرسلنا إلى قوم لوط . وامرأته قائمة فضحكت) (١) ، أى : استبشرت بهلاكهم ، لتمردهم وعتوهم على الله . فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب . (قالت : ياويلتا ، أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ؟ إن هذا لشيء عجيب . قالوا : أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، إنه حميد مجيد) (٢) . ولهذا قال هاهنا : (وبشروه بغلام عليم) ، فالبشارة له هى بشارة لها ؛ لأن الولد منها ، فكل منهما بُشّر به .

وقوله : (فأقبلت امرأته فى صَرّة) ، أى : فى صرخة عظيمة ورَنّة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وأبو صالح ، والضحاك ، وزيد بن أسلم ، والثورى ، والسّدّى ، وهى قولها : (ياويلتا) . (فصكت وجهها) ، أى : ضربت بيدها على جبينها ، قاله مجاهد وابن سابط (٣) .

وقال ابن عباس : لطمت ، أى تعجبا كما تتعجب النساء من الأمر الغريب ، (وقالت : عجوز عقيم) ، أى : كيف ألد وأنا عجوز ، وقد كنت فى حال الصبا عقيما لاأحبل ؟ (قالوا : كذلك قال ربك ، إنه هو الحكيم العليم) ، أى : عليم بما تستحقون من الكرامة ، حكيم فى أقواله وأفعاله .

* قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

قال الله مخبرا عن إبراهيم ــ عليه السلام ــ : (فلما ذهب عن إبراهيم الروع ، وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط . إن إبراهيم لحليم أواه منيب . ياإبراهيم أعرض عن هذا ، إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) (٤) . وقال هاهنا : (قال : فما خطبكم أيها المرسلون ؟) ، أى : ماشأنكم وفيم جئتم ؟ (قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) ، يعنون قوم لوط ، (لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة) ، أى : مُعْلَمَة (عند ربك للمسرفين) ، أى : مكتتبة عنده بأسمائهم ، كل حجر عليه اسم صاحبه ، فقال فى سورة العنكبوت : (قال : إن فيها لوطا ، قالوا : نحن أعلم بمن

---

(١) سورة هود ، آية : ٧٠ — ٧١ .

(٢) سورة هود ، آية : ٧٢ — ٧٣ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٦/١٢٩ .

(٤) سورة هود ، الآيات : ٧٤ — ٧٦ .

فيها ، لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) (١) . وقال هاهنا : (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين) ، وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته ، (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) . احتج بهذه من ذهب إلى رأى المعتزلة ، ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام ، لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين . وهذا الاستدلال ضعيف ؛ لأن هؤلاء كانوا قوما مؤمنين ، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس ، فاتفق الإسمان هاهنا لخصوصية الحال ، ولا يلزم ذلك فى كل حال .

وقوله : (وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم) ، أى : جعلناها عبرة ، لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل ، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة ، ففى ذلك عبرة للمؤمنين ، (الذين يخافون العذاب الأليم)

وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى : (وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين) ، أى : بدليل باهر وحجة قاطعة ، (فتولى بركنه) ، أى : فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين استكبارا وعنادا .

وقال مجاهد : تعزز بأصحابه . وقال قتادة : غلب عدو الله على قومه . وقال ابن زيد : (فتولى بركنه) ، أى : بجموعه التى معه ، ثم قرأ : (لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) (٢)

والمعنى الأول قوى كقوله : (ثانى عطفه ليضل عن سبيل) الله (٣) ، أى : معرض عن الحق مستكبر : (وقال ساحر أو مجنون) ، أى : لا تخلو أمرك فيما جئتنى به من أن تكون ساحرا أو مجنونا ، قال الله تعالى : (فأخذناه وجنوده فنبذناهم) ، أى : ألقيناهم فى اليم ، وهو البحر ، (وهو مليم) ، أى : وهو ملوم كافر [جاحد] فاجر معاند .

ثم قال : (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) ، أى : المفسدة التى لا تنتج شيئا . قاله الضحاك ، وقتادة ، وغيرهما ؛ ولهذا قال : (ما تذر من شىء أتت عليه) ، أى : مما تفسده الريح (إلا جعلته كالرميم) ، أى : كالشىء الهالك البالى ؛

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو عبيد الله [ابن أخى ابن وهب ، حدثنا عمى عبد الله بن وهب ، حدثنى عبد الله] يعنى ابن عياش القتبانى ، حدثنى عبد الله بن سليمان ، عن دراج ، عن عيسى بن هلال الصدفى ، عن عبد الله بن عمرو

---

(١) سورة العنكبوت ، آية : ٣٢ .
(٢) تفسير الطبرى : ٣/٢٨ .
(٣) سورة الحج ، آية : ٩ .

قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « الريح مسخرة من الثانية ــ يعنى من الأرض الثانية ــ فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا تهلك عادا ، قال : أىْ ربِّ ، أرسل عليهم الريح قدر منخر الثور ؟ قال له الجبار : لا ، إذاً تكفأ الأرض ومن عليها ، ولكن أرسل بقدر خاتم . فهى التى يقول الله فى كتابه : (ماتذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) » .

هذا الحديث رفعه منكر ، والأقرب أن يكون موقوفا على عبد الله بن عمرو ، من زاملتيه (١) اللتين أصابهما يوم اليرموك . والله أعلم .

قال سعيد بن المسيب وغيره فى قوله : (إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) ، قالوا : هى الجَنُوب(٢) . وقد ثبت فى الصحيح من رواية شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نصرت بالصَّبا ، وأهلكت عاد بالدَّبُور (٣) » .

(وفى ثمود إذ قيل لهم : تمتعوا حتى حين) ، قال ابن جرير : يعنى إلى وقت فناء آجالكم (٤) .

والظاهر أن هذه كقوله : (وأما ثمود فهديناهم ، فاستحبوا العمى على الهدى ، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون) (٥) . وهكذا قال هاهنا : (وفى ثمود إذ قيل لهم : تمتعوا حتى حين . فعتوا عن أمر ربهم ، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون) . وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم فى صبيحة اليوم الرابع بُكرةَ النهار ، (فما استطاعوا من قيام) ، أى : من هَرَبٍ ولا نهوض ، (وما كانوا منتصرين) ، أى : ولا يقدرون على أن ينتصروا مما هم فيه .

وقوله : (وقوم نوح من قبل) ، أى : وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ، (إنهم كانوا قوما فاسقين) . وكل هذه القصص قد تقدمت مبسوطة فى أماكن كثيرة ، من سور متعددة .

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾

يقول تعالى منبها على خلق العالم العلوى والسفلى : (والسماء بنيناها) ، أى : جعلناها سقفا رفيعا (بأيد) ، أى : بقوة ؛ قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والثورى ، وغير وحد . (وإنا لموسعون) ، أى : قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عَمَد ، حتى استقلت كما هى ، (والأرض فرشناها) ، أى : جعلناها فراشاً للمخلوقات ، (فنعم الماهدون) ، أى :

---

(١) الزاملة : البعير الذى يحمل عليه الطعام والمتاع . وانظر : ٥/١٨٨ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٨/٤ .

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية التاسعة من سورة الأحزاب ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٦/٣٨٥ .

(٤) لم أجد هذا القول فى تفسير الطبرى ، ويبدو أنه قد وقع فيه سقط .

(٥) سورة فصلت ، آية : ١٧ .

وجعلناها مهداً لأهلها ، (ومن كل شيء خلقنا زوجين) ، أي : جميع المخلوقات أزواجٌ : سماء وأرض ، وليل ونهار ، وشمس وقمر ، وبر وبحر ، وضياء وظلام ، وإيمان وكفر ، وموت وحياة ، وشقاء وسعادة ، وجنة ونار ، حتى الحيوانات والنباتات . ولهذا قال : (لعلكم تذكرون) ، أي : لتعلموا أن الخالق واحدٌ لا شريك له ، (ففروا إلى الله) ، أي : الجأوا إليه ، واعتمدوا في أموركم عليه ، (إني لكم منه نذير مبين) ، (ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر) ، أي : لا تشركوا به شيئاً ، (إني لكم منه نذير مبين) .

كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى مسليا نبيه — صلى الله عليه وسلم — : وكما قال لك هؤلاء المشركون ، قال المكذبون الأولون لرسلهم : (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا : ساحر أو مجنون) ! . قال الله تعالى : (أتواصوا به ؟) ، أي: أوصَى بعضهم بعضا بهذه المقالة ؟ (بل هم قوم طاغون) ، أي : لكن هم قوم طغاة ، تشابهت قلوبهم ، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم . قال الله تعالى : (فتول عنهم) ، أي : فأعرض عنهم يا محمد ، (فما أنت بملوم) ، يعني فما نلومك على ذلك ، (وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) ، أي : إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة .

ثم قال : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ، أي : إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي ، لا لاحتياجي إليهم :

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (إلا ليعبدون) ، أي : إلا ليقروا بعبادتي طوعا أو كرها . وهذا اختيار ابن جرير (١) .

وقال ابن جريج : إلا ليعرفون . وقال الربيع بن أنس : (إلا ليعبدون) ، أي : إلا للعبادة . وقال السدي : من العبادة ما ينفع ومنها مالا ينفع ، (ولئن سألتهم : من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن : الله)، هذا منهم عبادة ، وليس ينفعهم مع الشرك . وقال الضحاك : المراد بذلك المؤمنون .

وقوله : (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) — قال الإمام أحمد :

حدثنا يحيى بن آدم وأبو سعيد قالا : حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن عبد الله بن مسعود قال : أقرأني رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : (إني لأنا الرزاق ذو القوة المتين) (٢) .

---

(١) تفسير الطبري : ٢٧/٨ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ١/٣٩٤ .

ورواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، من حديث إسرائيل ، وقال الترمذى : « حسن صحيح (١) » .

ومعنى الآية أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له ، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ، ومن عصاه عذبه أشد العذاب . وأخبر أنه غير محتاج إليهم ، بل هم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم . فهو خالقهم ورازقهم .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبد الله ، حدثنا عمران ــ يعنى ابن زائدة بن نشيط ــ عن أبيه ، عن أبى خالد ــ هو الوالبى ــ عن أبى هُرَيرة قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : قال الله : « يابن آدم ، تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى ، وأسدّ فقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك (٢) »

ورواه الترمذى وابن ماجه ، من حديث عمران بن زائدة ، وقال الترمذى : « حسن غريب (٣) » .

وقد روى الإمام أحمد عن وكيع وأبى معاوية ، عن الأعمش ، عن سلام أبى شرحبيل ، سمعت حَبّة وسواء ابنى خالد يقولان : أتينا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو يعمل عملا ــ : أو يبنى بناء ــ وقال أبو معاوية : يصلح شيئا ــ فأعنّاه عليه ، فلما فرغ دعا لنا وقال : « لاتيأسا من الرزق ماتهزّزت رءوسكما ، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قِشْرة ، ثم يعطيه الله ويرزقه » (٤) . وفى بعض الكتب [الإلهية] (٥) : يقول الله تعالى : « ابن آدم ، خلقتك لعبادتى فلا تلعب . وتكفلت برزقك فلا تتعب . فاطلبنى تجدنى ؛ فإن وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فُتّك فاتك كل شىء ، وأنا أحب إليك من كل شىء » .

وقوله : (فإن للذين ظلموا ذنوبا) ، أى : نصيبا من العذاب ، (مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون) ، أى : فلا يستعجلوا ذلك ، فإنه واقع لامحالة (فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون) ، يعنى يوم القيامة .

آخر تفسير سورة الذاريات

(١) تحفة الأحوذى ، أبواب القراءات ، الحديث ٤٠١٠ : ٨/٢٦١ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٥٨ .

(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب صفة القيامة ، الحديث ٢٠٨٤ : ٧/١٦٦ ــ ١٦٧ . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « الهم بالدنيا » ، الحديث ٤١٠٧ : ٢/١٣٧٦ .

(٤) تقدم الحديث عند تفسير الآية الأربعين من سورة الروم ، وخرجناه هنالك ، وشرحنا غريبه ، انظر : ٦/٣٢٥ .

(٥) ما بين القوسين من الطبعات السابقة ، ومكانه بياض فى المخطوطة .

تفسير سورة الطور

وهى مكية

قال مالك عن الزهرى، عن محمد بن جُبَيْر بن مطعم، عن أبيه : سمعت النبى – صلى الله عليه وسلم – يقرأ فى المغرب بالطور ، فما سمعت أحدا أحسن صوتا – أو : قراءة – منه[1] .

أخرجاه من طريق مالك . وقال البخارى :

حدثنا عبد الله بن يوسف ، أخبرنا مالك ، عن محمد بن عبد الرحمن بن نوفل ، عن عروة ، عن زينب بنت أبى سلمة ، عن أم سلمة قالت : شكوت إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنى أشتكى ، فقال : « طوفى من وراء الناس وأنت راكبة » . فطفت ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – يصلى إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور[2] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة : أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم . فالطور هو : الجبل الذى يكون فيه أشجار ، مثل الذى كلم الله عليه موسى ، وأرسل منه عيسى . وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورا ، إنما يقال له : جبل (وكتاب مسطور) ، قيل : هو اللوح المحفوظ . وقيل : الكتب المنزلة المكتوبة التى تقرأ على الناس جهارا ، ولهذا قال : (فى رق منشور . والبيت المعمور) – ثبت فى الصحيحين[3] أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال فى حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة : « ثم رفع بى إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم » . يعنى يتعبدون فيه ويطوفون به ، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم . كذلك ذاك البيت ، هو كعبة أهل السماء السابعة . ولهذا وجد إبراهيم الخليل – عليه السلام – مسندا ظهره إلى البيت المعمور ، لأنه بانى الكعبة الأرضية ، والجزاء

---

(١) البخارى ، كتاب الأذان ، باب « الجهر فى المغرب » : ١/١٩٤ ، وتفسير سورة والطور : ٦/١٧٥ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « القراءة فى الصبح » : ٢/٤١ .

(٢) البخارى ، تفسير سورة والطور : ٦/١٧٤ – ١٧٥ .

(٣) تقدمت أحاديث الإسراء أول سورة الإسراء ، وخرجناها هنالك ، انظر : ٥/٢ – ٤٢ .

من جنس العمل ، وهو بحيال الكعبة ، وفى كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ، ويصلون إليه ، والذى فى السماء الدنيا يقال له : بيت العزة . والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا الوليد [بن مسلم] ، حدثنا روح بن جَنَاح ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة ، عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « فى السماء [السابعة] بيت يقال له « المعمور » بحيال الكعبة ، وفى السماء الرابعة نهر يقال له : « الحيوان » يدخله جبريل كل يوم ، فينغمس فيه انغماسة ، ثم يخرج فينتفض انتفاضة يخرّ(١) عنه سبعون ألف قطرة ، يخلق الله من كل قطرة ملكا يؤمرون أن يأتوا البيت المعمور ، فيصلوا فيه فيفعلون ، ثم يخرجون فلا يعودون إليه أبدا ، ويولى عليهم أحدهم ، يؤمر أن يقف بهم من السماء موقفا يسبحون الله فيه إلى أن تقوم الساعة » .

هذا حديث غريب جدا ، تفرد به رَوحُ بن جَنَاح هذا ، وهو القرشى الأموى مولاهم أبو سعد (٢) الدمشقى ، وقد أنكر هذا الحديث عليه جماعة من الحفاظ منهم : الجوزجانى ، والعقيلى ، والحاكم أبو عبد الله النيسابورى ، وغيرهم ــ قال الحاكم : لا أصل له من حديث أبى هريرة ، ولا سعيد ، ولا الزهرى .

وقال ابن جرير : حدثنا هناد بن السرى ، حدثنا أبو الأحوص ، عن سماك بن حرب ، عن خالد بن عَرْعَرَة : أن رجلا قال لعلى : ما البيت المعمور ؟ قال : بيت فى السماء يقال له « الضُّراح » ، وهو بحيال الكعبة من فوقها ، حرمته فى السماء كحرمة البيت فى الأرض ، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ، لا يعودون فيه أبدا (٣) .

وكذا رواه شعبة وسفيان الثورى ، عن سماك . وعندهما أن ابن الكواء هو السائل عن ذلك . ثم رواه ابن جرير عن أبى كريب ، عن طلق بن غنام ، عن زائدة ، عن عاصم ، عن على بن ربيعة قال : سأل ابن الكواء عليا عن البيت المعمور ، قال : مسجد فى السماء يقال له « الضُّراح » ، يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ، ثم لا يعودون فيه أبدا . ورواه من حديث أبى الطفيل ، عن على بمثله .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : هو بيت حذاء العرش ، تعمره الملائكة ، يصلى فيه كل [يوم] (٤) سبعون ألفا من الملائكة ثم لا يعودون إليه . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد والربيع بن أنس ، والسدى ، وغير واحد من السلف .

وقال قتادة : ذكر لنا أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال يوما لأصحابه : « هل تدرون ما البيت المعمور ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنه مسجد فى السماء بحيال [الكعبة] (٥) ، لو خرّ لخر عليها ، يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك ، إذا خرجوا منه لم يعودوا آخرَ ما عليهم » .

---

(١) كذا ، وفى ميزان الاعتدال ٢/٥٧ : « يخرج منها سبعون ... » .
(٢) فى المخطوطة : « أبو سعيد » . والمثبت عن ترجمته فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ١/٢/٤٩٤ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٨/١٠ .
(٤) فى المخطوطة : « كل ليلة » . والمثبت عن تفسير الطبرى ، والطبعات السابقة .
(٥) فى المخطوطة : « بحيال البيت » . وفى تفسير الطبرى : « تحت الكعبة » .

وزعم الضحاك أنه يعمره طائفة من الملائكة يقال لهم الحن (١) ، من قبيلة إبليس (٢) ، فالله أعلم .

وقوله : (والسقف المرفوع) — قال سفيان الثورى ، وشعبة ، وأبو الأحوص ، عن سماك ، عن خالد بن عرعرة ، عن على : (والسقف المرفوع) ، يعنى : السماء . قال سفيان : ثم تلا : (وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) ، وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والسدى ، وابن جريج ، وابن زيد ، واختاره ابن جرير .

وقال الربيع بن أنس : هو العرش . يعنى أنه سقف لجميع المخلوقات ، وله اتجاه ، وهو يُراد مع غيره كما قاله الجمهور .

وقوله : (والبحر المسجور) — قال الربيع بن أنس : هو الماء الذى تحت العرش ، الذى ينزل منه المطر الذى يحيى به الأجساد فى قبورها يوم معادها . وقال الجمهور : هو هذا البحر . واختلف فى معنى قوله المسجور ، فقال بعضهم : المراد أنه يوقد يوم القيامة نارا كقوله : (وإذا البحار سجّرت)(٣) ، أى : أضرمت فتصير نارا تتأجج ، محيطة بأهل الموقف . رواه سعيد بن المسيب ، عن على بن أبى طالب ، ورُوى عن ابن عباس . وبه يقول سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعبد الله بن عُبَيد ابن عُمَير ، وغيرهم .

وقال العلاء بن بدر : إنما سمى البحر المسجور لأنه لا يُشرب منه ماء ، ولا يسقى به زرع ، وكذلك البحار يوم القيامة ، كذا رواه عنه ابن أبى حاتم .

وعن سعيد بن جُبير : (والبحر المسجور) ، يعنى : المرسل . وقال قتادة : المسجور : المملوء . واختاره ابن جرير(٤) ، ووجّهه بأنه ليس موقدا اليوم فهو مملوء .

وقيل : المراد به الفارغ ، قال الأصمعى ، عن أبى عمرو بن العلاء ، عن ذى الرمة ، عن ابن عباس فى قوله : (والبحر المسجور) ، قال : الفارغ ، خرجت أمَة تستسقى فرجعت فقالت : « إن الحوض مسجور » ، تعنى : فارغا . رواه ابن مردويه فى مسانيد الشعراء .

وقيل : المراد بالمسجور الممنوع المكفوف عن الأرض لئلا يغمرها فيغرق أهلها . قاله على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، وبه يقول السدى وغيره ، وعليه يدل الحديث الذى رواه الإمام أحمد رحمه الله فى مسنده فإنه قال :

حدثنا يزيد ، حدثنا العوام ، حدثنى شيخ كان مرابطا بالساحل قال : لقيت أبا صالح مولى عمر بن الخطاب فقال : حدثنا عمر بن الخطاب ، عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات ، يستأذن الله أن ينفضخ(٥) عليهم ، فيكفه الله عز وجل (٦) » .

وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلى : حدثنا الحسن بن سفيان ، عن إسحاق بن راهويه ، عن يزيد — وهو ابن هارون — عن العوام ابن حوشب ، حدثنى شيخ مرابط قال : خرجت ليلة لحرسى لم يخرج أحد من الحرس غيرى ، فأتيت الميناء فصعدت ، فجعل

---

(١) فى المخطوطة : « الجن » ، بالجيم . وقد ارتضينا إثباته بالحاء . انظر : ١/١٠٧ ، وتعليقنا هنالك .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٧/١١ .

(٣) سورة التكوير ، آية : ٦ .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٧/١٢ .

(٥) أى : يتدفق عليهم ويسيل .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١/٤٣ .

يخيل إلى أن البحر يشرف يحاذى رءوس الجبال ، فعل ذلك مرارا وأنا مستيقظ ، فلقيت أبا صالح فقال : حدثنا عمر بن الخطاب أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « ما من ليلة إلا والبحر يشرف ثلاث مرات يستأذن الله أن ينفضخ عليهم ، فيكفه الله عز وجل » . فيه رجل مُبهم لم يسم .

وقوله : (إن عذاب ربك لواقع) ، هذا هو المقسم عليه ، أى : الواقع بالكافرين ، كما قال فى الآية الأخرى : (ماله من دافع) ، أى : ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك .

قال الحافظ أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا أبى ، حدثنا موسى بن داود ، عن صالح المُرّى ، عن جعفر بن زيد العبدى قال : خرج عمر يعس المدينة ذات ليلة ، فمر بدار رجل من المسلمين ، فوافقه قائما يصلى ، فوقف يستمع قراءته فقرأ : (والطور) حتى بلغ : (إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع) ، قال : قَسَمٌ ــ وربِّ الكعبة ــ حقٌّ . فنزل عن حماره واستند إلى حائط ، فمكث مليا ثم رجع إلى منزله ، فمكث شهرا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه ، رضى الله عنه .

وقال الإمام أبو عُبَيد فى « فضائل القرآن » : حدثنا محمد بن صالح ، حدثنا هشام بن حسان ، عن الحسن : أن عمر قرأ : (إن عذاب ربك لواقع) ، فرتا لها رتوة (١) ، عِيدَ منها عشرين يوما (٢) .

وقوله : (يوم تمور السماء مورا) ــ قال ابن عباس وقتادة : تتحرك تحريكا . وعن ابن عباس : هو تشققها ، وقال مجاهد : تدور دورا . وقال الضحاك : استدارتها وتحريكها لأمر الله ، وموج بعضها فى بعض . وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك فى استدارة . قال وأنشد أبو عبيدة معمر بن المثنى بيت الأعشى :

كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِها مَوْرُ السَّحَابَةِ ، لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ (٣)

(وتسير الجبال سيرا) ، أى : تذهب فتصير هباء منبثا ، وتنسف نسفا ، (فويل يومئذ للمكذبين) ، أى : ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم ، وعقابه لهم ، (الذين هم فى خوض يلعبون) ، أى : هم فى الدنيا يخوضون فى الباطل ، ويتخذون دينهم هزوا ولعبا ، (يوم يُدَعّون) ، أى : يدفعون ويساقون (إلى نار جهنم دَعّا) . وقال مجاهد ، والشعبى ، ومحمد بن كعب ، والضحاك ، والسدى ، والثورى : يدفعون فيها دفعا : (هذه النار التى كنتم بها تكذبون) ، أى : تقول لهم الزبانية ذلك تقريعا وتوبيخا ، (أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ، اصلوها) ، أى : ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته ، (فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم) ، أى : سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا ، لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها ، (إنما تجزون ما كنتم تعملون) ، أى : ولا يظلم الله أحدا ، بل يجازى كلا بعمله .

---

(١) فى الأصل : ربا لها ربوة : بالباء ، ولعل الصواب ما ذكرناه ، ورتا : أى خطا ، وقفز .

(٢) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن أبى عبيد : ١١٨/٦ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٣/٢٧ ، ومجاز القرآن لأبى عبيدة : ٢٣١/٢ ، وديوان الأعشى ، ط بيروت : ١٤٤ ، على ن فى الديوان : « مر السحابة » . ومثله فى مخطوطة الأزهر ، ولا يقوم عليه الاستشهاد .

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)﴾

يخبر تعالى عن حال السعداء فقال : (إن المتقين فى جنات ونعيم) ، وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال ، (فاكهين بما آتاهم ربهم) ، أى : يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم ، من أصناف الملاذ ، من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك ، (ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) ، أى : وقد نجاهم من عذاب النار ، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة ، التى فيها من السرور مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر .

وقوله : (كلو واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون) ، كقوله : (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية) ، أى : هذا بذاك ، تفضلا منه وإحسانا .

وقوله : (متكئين على سرر مصفوفة) ، قال الثورى ، عن حصين ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : السرر فى الحجال .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو اليمان ، حدثنا صفوان بن عمرو : أنه سمع الهيثم بن مالك الطائى يقول : إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « إن الرجل ليتكىء المُتكَأَ مقدار أربعين سنة ما يتحول عنه ولا يَملّه ، يأتيه ما اشتهت نفسه ولذت عينه » .

وحدثنا أبى ، حدثنا هُدْبَةُ بن خالد ، عن سليمان بن المثيرة ، عن ثابت قال: بلغنا أن الرجل ليتكىء فى الجنة سبعين سنة ، عنده من أزواجه وخدَمه وما أعطاه الله من الكرامة والنعيم ، فإذا حانت منه نظرة فإذا أزاوج له لم يكن رآهنّ قبل ذلك ، فيقلن : قد آن لك أن تجعل لنا منك نصيبا .

ومعنى (مصفوفة) ، أى : وجوه بعضهم إلى بعض ، كقوله :(على سرر متقابلين) (١) : (وزوجناهم بحور عين) ، أى : وجعلناهم قرينات صالحات ، وزوجات حسانا من الحور العين .

وقال مجاهد : (وزوجناهم) : أنكحناهم بحور عين ، وقد تقدَّم وصفهُن فى غير موضع بما أغنى عن إعادته .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)﴾

يخبر تعالى عن فضله وكرمه ، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه : أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم فى الإيمان يُلحقهم بآبائهم فى المنزلة وإن لم يبلغوا عَمَلهم ، لتقرَّ أعينَ الآباء بالأبناء عندهم فى منازلهم ، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه ، بأن يرفع

(١) سورة الصافات ، آية : ٤٤ .

الناقص العمل بكامل العمل ، ولا ينقص ذاك من عمله ومنزلته ، للتساوى بينه وبين ذاك ، ولهذا قال : (ألحقنا بهم ذريابهم (١) وما ألتناهم من عملهم من شيء) .

قال الثورى ، عن عمرو بن مرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : إن الله ليرفع ذرية المؤمن فى درجته ، وإن كانوا دونه فى العمل ، لتقر بهم عينه ثم قرأ : (والذين آمنوا وأتبعناهم ذريابهم (١) بإيمان ، ألحقنا بهم ذريابهم (١) وما ألتناهم من عملهم من شيء) .

رواه ابن جرير (٢) وابن أبى حاتم من حديث سفيان الثورى ، به ; وكذا رواه ابن جرير من حديث شعبة عن عمرو ابن مرّة به . ورواه البزار ، عن سهل بن بحر ، عن الحسن بن حماد الوراق ، عن قيس بن الربيع ، عن عمرو بن مرّة ، عن سعيد ، عن ابن عباس مرفوعا ، فذكره ، ثم قال : وقد رواه الثورى ، عن عمرو بن مرّة ، عن سعيد ، عن ابن عباس موقوفا .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا العباس بن الوليد بن مَزْيَد (٣) البيروتى ، أخبرنى محمد بن شعيب (٤) أخبرنى شيبان ، أخبرنى ليث ، عن حبيب بن أبى ثابت الأسدى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قول الله عز وجل : (والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم) ، قال : هم ذرية المؤمن ، يموتون على الإيمان : فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم ، ولم ينقصوا من أعمالهم التى عملوا شيئا .

وقال الحافظ الطبرانى : حدثنا الحسين بن إسحاق التسترى ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن غزوان ، حدثنا شريك ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ــ أظنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ــ قال : « إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده ، فيقال : إنهم لم يبلغوا درجتك . فيقول : يا رب ، قد عملتُ لى ولهم . فيؤمر بإلحاقهم به » . وقرأ ابن عباس : (والذين آمنوا واتبعناهم ذرياتهم بإيمان) ... الآية .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى هذه الآية : يقول : والذين أدرك ذريتهم الإيمان فعملوا بطاعتى ، ألحقتهم بإيمانهم إلى الجنة ، وأولادهم الصغار تلحق بهم (٥) .

وهذا راجع إلى التفسير الأول ، فإن ذاك مفسر أصرح من هذا . وهكذا يقول الشعبى ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم ، وقتادة ، وأبو صالح ، والربيع بن أنس ، والضحاك ، وابن زيد . وهو اختيار ابن جرير . وقد قال عبد الله بن الإمام أحمد :

---

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وهى قراءة أبى عمرو ، انظر البحر المحيط : ١٤٩/٨ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٥/٢٧ .

(٣) فى المخطوطة : « بن يزيد » . والمثبت عن ترجمة العباس فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢١٤/١/٣ ــ ٢١٥ ، وترجمة أبيه الوليد فى : ١٨/٢/٤ .

(٤) فى المخطوطة : « محمد بن شعبة » . والمثبت عن ترجمة العباس بن الوليد فى الجرح والتعديل : ٢١٥/١/٣ ، وترجمة شيبان بن عبد الرحمن النحوى : ٣٥٥/١/٢ ــ ٣٥٦ . وهو محمد بن شعيب بن شابور ، انظر ترجمته فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢٨٦/٢/٣ .

(٥) تفسير الطبرى : ١٥/٢٧ .

حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا محمد بن فضيل ، عن محمد بن عثمان ، عن زاذان ، عن علي قال : سألت خديجة النبي – صلى الله عليه وسلم – عن ولدين ماتا لها في الجاهلية ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «هما في النار» . فلما رأى الكراهة في وجهها قال : « لو رأيت مكانهما لأبغضتهما » . قالت : يا رسول الله ، فولدي منك . قال : « في الجنة » ؛ قال : ثم قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة ، وإن المشركين وأولادهم في النار» . ثم قرأ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (والذين آمنوا وأتبعناهم ذريانهم بإيمان ألحقنا بهم ذريانهم (١)) .

هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء ، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء ، فقد قال الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن عاصم بن أبي النجود ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول : يا رب ، أنى لي هذه ؟ فيقول : باستغفار ولدك لك(٢) » .

إسناده صحيح ، ولم يخرجوه(٣) من هذا الوجه ، ولكن له شاهد في صحيح مسلم ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له (٤) » .

وقوله : (كل امرئ بما كسب رهين) ، لما أخبر عن مقام الفضل ، وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك ، أخبر عن مقام العدل ، وهو أنه لا يؤاخذ أحدا بذنب أحد ، بل (كل امرئ بما كسب رهين) ، أي : مرتهن بعمله ، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء كان أبا أو ابنا ، كما قال: (كل نفس بما كسبت رهينة . إلا أصحاب اليمين ، في جنات يتساءلون عن المجرمين (٥)) .

وقوله : (وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) ، أي : وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى ، مما يستطاب ويشتهى .

وقوله : (يتنازعون فيها كأسا) ، أي : يتعاطون فيها كأسا ، أي : من الخمر . قاله الضحاك :

(لا لغو فيها ولا تأثيم) ، أي : لا يتكلمون عنها بكلام لاغ ، أي : هذيان و إثم أي فحش، كما تتكلم به الشربة من أهل الدنيا .

وقال ابن عباس : اللغو : الباطل . والتأثيم : الكذب.

وقال مجاهد : لا يستبّون ولا يؤثمون .

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية الخامسة عشرة من سورة الإسراء ، وخرجناه هنالك . انظر : ٥/٩٦ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/٥٠٩ .

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأدب من طريق حماد . انظر كتاب الأدب ، باب « بر الوالدين » ، الحديث ٣٦٦٠ : ٢/١٢٠٧ .

(٤) مسلم ، كتاب الوصية ، باب « ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته » : ٥/٧٣ .

(٥) سورة المدثر ، الآيات : ٣٨ – ٤٠ .

وقال قتادة : كان ذلك في الدنيا مع الشيطان (١) .

فنزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها ، فنفى عنها ـ كما تقدم ـ صداع الرأس ، ووجع البطن ، وإزالة العقل بالكلية . وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيء الفارغ عن الفائدة المتضمن هذيانا وفحشا ، وأخبر بحسن منظرها ، وطيب طعمها ومخبرها فقال : (بيضاء لذة للشاربين ه لا فيها غول و، هم عنها ينزفون) (٢) ، وقال : (لا يصدعون عنها ولا ينزفون) (٣) ، وقال هاهنا : (يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم) .

وقوله : (ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون) : إخبار عن خدمهم وحشمهم في الجنة كأنهم اللؤلؤ الرطب المكنون في حسنهم وبهائهم ونظافتهم (٤) وحسن ملابسهم، كما قال : (يطوف عليهم ولدان مخلدون ه بأكواب وأباريق وكأس من معين)(٥) .

وقوله : (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) ، أي : أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا ، وهذا كما يتحادث أهل الشراب على شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم ، (قالوا : إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين) ، أي: قد كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه ، (فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم) ، أي : فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف ، (إنا كنا من قبل ندعوه) ، أي : نتضرع إليه ، فاستجاب لنا وأعطانا سؤلنا ، (إنه هو البر الرحيم) .

وقد ورد في هذا المقام حديث ، رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده فقال : حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا سعيد بن دينار ، حدثنا الربيع بن صبيح ، عن الحسن ، عن أنس قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان ، فيجيء سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا ، فيتحدثان ، فيتكئ هذا ويتكئ هذا ، فيتحدثان بما كان في الدنيا ، فيقول أحدهما لصاحبه : يا فلان ، تدري أي يوم غفر الله لنا ؟ يوم كنا في موضع كذا وكذا ، فدعونا الله ـ عز وجل ـ فغفر لنا» .

ثم قال البزار : لا نعرفه يروى إلا بهذا الإسناد :

قلت : وسعيد بن دينار الدمشقي قال أبو حاتم : هو مجهول(٦) ، وشيخه الربيع بن صبيح قد تكلم فيه غير واحد من جهة حفظه ، وهو رجل صالح ثقة في نفسه (٧) .

---

(١) تفسير الطبري : ١٧/٢٧ .
(٢) سورة الصافات ، آية : ٤٦ ـ ٤٧ .
(٣) سورة الواقعة ، آية : ١٩ .
(٤) في المخطوطة : «وبهائهم وتصافيهم» . والمثبت من الطبعات السابقة .
(٥) سورة الواقعة ، آية : ١٧ ـ ١٨ .
(٦) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ١٨/١/٢ .
(٧) انظر الجرح والتعديل أيضا : ٤٦٤/٢/١ ـ ٤٦٥ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عمرو بن عبد الله الأودى ، حدثنا وكيع ، عن الأعمش ، عن أبي الضحى ، عن مسروق ، عن عائشة : أنها قرأت هذه الآية (فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم) ، فقالت : اللهم مُنّ علينا وقنا عذاب السموم ، إنك أنت البر الرحيم . قيل للأعمش : في الصلاة ؟ قال : نعم .

فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى آمراً رسوله — صلوات الله وسلامه عليه — بأن يبلغ رسالته إلى عباده ، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه : ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال : (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) ، أى : لست بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش . والكاهن : الذى يأتيه الرَّئيّ من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء . (ولا مجنون) ، وهو الذى يتخبطه الشيطان من المس .

ثم قال تعالى منكرا عليهم فى قولهم فى الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — : (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ؟) ، أى : قوارع الدهر . والمنون : الموت : يقولون : ننظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه ، قال الله تعالى : (قل : تربصوا فإنى معكم من المتربصين) ، أى: انتظروا فإنى منتظر معكم ، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنّصرة فى الدنيا والآخرة .

قال محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن أبي نَجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : إن قريشا لما اجتمعوا فى دار الندوة فى أمر النبى — صلى الله عليه وسلم — قال قائل منهم : احتبسوه فى وثاق ، [ثم] تربصوا به ريب المنون حتى يهلك ، كما هلك من هلك قبله من الشعراء : زهير والنابغة ، إنما هو كأحدهم . فأنزل الله [فى] ذلك من قولهم :(أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ؟)(1) .

ثم قال تعالى : (أم تأمرهم أحلامهم بهذا) ، أى : عقولهم تأمرهم بهذا الذى يقولونه فيك من الأقوال الباطلة التى يعلمون فى أنفسهم أنها كذب وزور ؟ (أم هم قوم طاغون) ، أى : ولكن هم قوم ضلال معاندون ، فهذا هو الذى يحملهم على ما قالوه فيك .

وقوله : (أم يقولون تقوله ؟) ، أى : اختلقه وافتراه من عند نفسه ، يعنون القرآن . قال الله : (بل لا يؤمنون) ، أى : كفرهم هو الذى يحملهم على هذه المقالة . (فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) ، أى : إن كانوا صادقين فى قولهم

---

(1) تفسير الطبرى : ٢٧/ ١٩ ، وما بين القوسين منه .

« تقوّله وافتراه » فليأتوا بمثل ما جاء به محمد من هذا القرآن ، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس ، ما جاءوا بمثله ، ولا بعشر سور مثله ، ولا بسورة من مثله .

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾

هذا المقام فى إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية ، فقال تعالى : (أم خلقوا من غير شىء ؟ أم هم الخالقون ؟) ، أى : أوجدوا من غير موجد ؟ أم هم أوجدوا أنفسهم ؟ أى : لا هذا ولا هذا ، بل الله هو الذى خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا .

قال البخارى : حدثنا الحُمَيدىّ ، حدثنا سفيان قال : حدثونى عن الزهرى ، عن محمد بن جبير بن مُطعم ، عن أبيه قال : سمعت النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقرأ فى المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية : (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السموات والأرض ؟ بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المسيطرون (١)) كاد قلبى أن يطير (٢) .

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين (٣) من طرق ، عن الزهرى ، به . وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعد وقعة بدر فى فداء الأسارى ، وكان إذ ذاك مشركا ، وكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول فى الإسلام بعد ذلك .

ثم قال تعالى : (أم خلقوا السموات والأرض ؟ بل لا يوقنون) ، أى : أهم خلقوا السموات والأرض ؟ . وهذا إنكار عليهم فى شركهم بالله ، وهم يعلمون أنه الخالق وحده ، لا شريك له . ولكن عدم إيقانهم هو [الذى] يحملهم على ذلك ، (أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون ؟) (١) ، أى : أهم يتصرفون فى الملك وبيدهم مفاتيح الخزائن ، (أم هم المسيطرون ؟) ، أى : المحاسبون للخلائق ، ليس الأمر كذلك ، بل الله ــ عز وجل ــ هو المالك المتصرف الفعال لما يريد .

وقوله : (أم لهم سلم يستمعون فيه) ، أى : مرقاة إلى الملأ الأعلى ، (فليأت مستمعهم بسلطان مبين) ، أى : فليأت الذى يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ماهم فيه من الفعال والمقال ، أى : وليس لهم سبيل إلى ذلك ، فليسوا على شىء ، ولا لهم دليل .

---

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر ، ومثله فى البخارى . وهى قراءة نسبت فى البحر المحيط إلى هشام وقنبل وحفص ــ بخلاف عنه ــ وقرأ الجمهور : (المصيطرون) ، بالصاد . وقال أبو حيان : إن قراءة السين هى الأصل ، ومن أبدلها صاداً فلأجل حرف الاستعلاء ، وهو الطاء . انظر البحر المحيط : ١٥٢/٨ .

(٢) البخارى ، تفسير سورة الطور : ١٧٥/٦ .

(٣) تقدم تخريج الحديث من الصحيحين أول السورة .

ثم قال منكرا عليهم فيما نسبوه إليه من البنات ، وجعلهم الملائكة إناثا ، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث ، بحيث إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . هذا وقد جعلوا الملائكة بنات الله ، وعبدوهم مع الله . فقال : (أم له البنات ولكم البنون ؟) . وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، (أم تسألهم أجرا ؟) أى : أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله ؟ أى : لستَ تسألهم على ذلك شيئا ، (فهم من مغرم مثقلون) ، أى : فهم من أدنى شىء يتبرمون منه ، ويثقلهم ويشق عليهم ، (أم عندهم الغيب فهم يكتبون) ، أى : ليس الأمر كذلك ، فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيبَ إلا الله ، (أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون) ، يقول تعالى : أم يريد هؤلاء بقولهم هذا فى الرسول وفى الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه ، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم ، فالذين كفروا هم المكيدون ، (أم لهم إله غير الله سبحانَ الله عما يشركون) . وهذا إنكار شديد على المشركين فى عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله . ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون ، فقال : (سبحان الله عما يشركون) .

وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس : (وإن يروا كسفا من السماء ساقطا) : أى : عليهم يعذبون به ، لما صدقوا ولما أيقنوا ، بل يقولون : هذا (سحاب مركوم) أى : متراكم . وهذه كقوله تعالى : (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا : إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون(١)) . قال الله تعالى : (فذرهم) ، أى : دعهم — يا محمد — (حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون) ، وذلك يوم القيامة ، (يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا) ، أى : لا ينفعهم كيدهم ومكرهم الذى استعملوه فى الدنيا ، لا يجدى عنهم يوم القيامة شيئا ، (ولا هم ينصرون) .

ثم قال : (وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك) ، أى : قبل ذلك فى الدار الدنيا ، كقوله : (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ، لعلهم يرجعون(٢)) . ولهذا قال : (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ، أى : نعذبهم فى الدنيا ، ونبتليهم فيها بالمصائب ، لعلهم يرجعون وينيبون ، فلا يفهمون ما يراد بهم ، بل إذا جلّى عنهم مما كانوا فيه ، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه ، كما جاء فى بعض الأحاديث : « إن المنافق إذا مرض وعوفىَ مثَلُه فى ذلك كمثل البعير ، لا يدرى فيما عقلوه ولا فيما أرسلوه(٣) » . وفى الأثر الإلهى : كم أعصيك ولا تعاقبنى ؟ قال الله : يا عبدى ، كم أعافيك وأنت لا تدرى ؟ .

---

(١) سورة الحجر ، آية : ١٤ — ١٥ .

(٢) سورة السجدة ، آية : ٢١ .

(٣) سنن أبى داود ، كتاب الجنائز ، الحديث ٣٠٨٩ : ١٨٢/٣ .

وقوله : (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) ، أى : اصبر على أذاهم ولا تبالهم ؛ فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا ، والله يعصمك من الناس .

وقوله : (وسبح بحمد ربك حين تقوم) — قال الضحاك : أىْ إلى الصلاة : سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك (١) .

وقد رُوى مثله عن الربيع بن أنس ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهما .

وروى مسلم فى صحيحه ، عن عمر أنه كان يقول هذا فى ابتداء الصلاة (٢) . ورواه أحمد وأهل السنن ، عن أبى سعيد وغيره ، عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه كان يقول ذلك (٣) .

وقال أبو الجوزاء : (وسبِّح بحمد ربك حين تقوم) ، أى : من نومك من فراشك . واختاره ابنُ جرير . ويتأيد هذا القولُ بما رواه الإمام أحمد :

حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا الأوزاعى ، حدثنى عُمَير بن هانىء ، حدثنى جنادة بن أبى أمية ، حدثنا عبادة بن الصامت عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « من تَعَارَّ (٤) من الليل فقال : لا إله إلا الله ، وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير . سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال : ربِّ اغفر لى — أو قال : ثم دعا — استُجيب له ، فإن عزم فتوضأ ثم صلى تُقُبِّلت صلاته (٥) » .

وأخرجه البخارى فى صحيحه ، وأهل السنن ، من حديث الوليد بن مسلم ، به (٦) .

وقال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : (وسبح بحمد ربك حين تقوم) ، قال : من كل مجلس .

وقال الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص : (وسبح بحمد ربك حين تقوم) ، قال : إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال : سبحانك اللهم وبحمدك (٧) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الدمشقى ، حدثنا محمد بن شعيب ، أخبرنى طلحة ابن عمرو الحضرمى ، عن عطاء بن أبى رباح : أنه حدثه عن قول الله : (وسبح بحمد ربك حين تقوم) ، يقول : حين تقوم من كل مجلس ، إن كنت أحسنت ازددت خيرا ، وإن كان غير ذلك كان هذا كفارة له .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٣/٢٧ .

(٢) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب « حجة من قال : لا يجهر بالبسملة » : ١٢/٢ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٥٠/٣ ، ٦٩ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الصلاة ، باب « ما يقول عند افتتاح الصلاة » ، الحديث ٢٤٢ : ٤٧/٢ — ٥٠ . والنسائى ، كتاب الافتتاح ، باب « نوع آخر من الذكر بين افتتاح الصلاة وبين القراءة » : ١٣٢/٢ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب « افتتاح الصلاة » ، الحديث ٨٠٤ : ٢٦٤/١ .

(٤) أى : استيقظ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣١٣/٥ .

(٦) البخارى ، كتاب التهجد ، باب « فضل من تعار من الليل فصلى » : ٦٨/٢ ، وتحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، باب « ما جاء فى الدعاء إذا انتبه من الليل » ، الحديث ٣٤٧٤ : ٣٥٩/٩ — ٣٦٠ ، وقال الترمذى : « حسن صحيح غريب » . وابن ماجه ، كتاب الدعاء ، باب « ما يدعو به إذا انتبه من الليل » ، الحديث ٣٨٧٨ : ١٢٧٦/٢ .

(٧) تفسير الطبرى : ٢٢/٢٧ — ٢٣ .

وقد قال عبد الرزاق فى جامعه : أخبرنا معمر ، عن عبد الكريم الجزرى ، عن أبى عثمان الفقير : أن جبريل علم النبى — صلى الله عليه وسلم — إذا قام من مجلسه أن يقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك . قال معمر : وسمعت غيره يقول : هذا القول كفارة المجالس .

وهذا مرسل ، وقد وردت أحاديث مسندة من طرق — يقوى بعضها بعضا — بذلك ، فمن ذلك حديث ابن جريج ، عن سهيل بن أبى صالح ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لاإله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ماكان فى مجلسه ذلك »

رواه الترمذى — وهذا لفظه — والنسائى فى اليوم والليلة، من حديث ابن جريج . وقال الترمذى: «حسن صحيح» (١) ؛ وأخرجه الحاكم فى مستدركه وقال : « إسناد على شرط مسلم ، إلا أن البخارى علله » (٢) .

قلت : علله الإمام أحمد ، والبخارى ، ومسلم ، وأبو حاتم ، وأبو زرعة ، والدارقطنى ، وغيرهم . ونسبوا الوهم فيه إلى ابن جريج . على أن أباداود قد رواه فى سننه من طريق غير ابن جريج إلى أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — صلى الله عليه وسلم — بنحوه (٣) . ورواه أبو داود — واللفظ له — والنسائى ، والحاكم فى المستدرك ، من طريق الحجاج بن دينار ، عن هاشم ، عن أبى العالية ، عن أبى برزة الأسلمى قال : كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لاإله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك » . فقال رجل : يارسول الله ، إنك لتقول قولا ماكنت تقوله فيما مضى ؟! قال: «كفارة لما يكون فى المجلس » (٤) .

وقد روى مرسلا عن أبى العالية ، والله أعلم . وهكذا رواه النسائى والحاكم ، من حديث الربيع بن أنس ، عن أبى العالية عن رافع بن خديج ، عن النبى — صلى الله عليه وسلم — مثله سواء (٤) . وروى مرسلا أيضا ، والله أعلم . وكذا رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو أنه قال : «كلمات لايتكلم بهن أحد فى مجلسه عند قيامه ثلاث مرات إلا كفر بهن عنه ، ولا يقولهن فى مجلس خير ومجلس ذكر إلا ختم له بهن كما يختم بالخاتم [على الصحيفة] (٥) : سبحانك اللهم وبحمدك ، لاإله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك (١) » . وأخرجه الحاكم من حديث أم المؤمنين عائشة ، وصححه، ومن رواية جبير ابن مطعم (٦) . ورواه أبو بكر الإسماعيلى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، كلهم عن النبى — صلى الله عليه وسلم — ، وقد أفردت لذلك جزءا على حدة بذكر طرقه وألفاظه وعلله ، وما يتعلق به ، ولله الحمد والمنة .

---

(١) تحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، باب « ما يقول إذا قام من مجلسه » ، الحديث ٣٤٩٤ : ٩/٣٤٣ — ٣٩٣ .

(٢) المستدرك ، كتاب الدعاء ، باب « الاستغفار عند القيام عن المجلس » : ١/٥٣٦ — ٥٣٧ .

(٣) سنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « فى كفارة المجلس » .

(٤) سنن أبى داود ، فى الكتاب والباب المتقدمين . والمستدرك ، فى الكتاب والباب المتقدمين أيضا ، ١/٥٣٧ .

(٥) ما بين القوسين من سنن أبى داود .

(٦) المستدرك ، كتاب الدعاء ، باب « الاستغفار عند القيام من المجلس » ، ١/٥٣٧ .

وقوله : (ومن الليل فسبحه) ، أي : اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة في الليل ، كما قال : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا (١)) .

وقوله : (وإدبار النجوم) ــ قد تقدم في حديث ابن عباس (٢) أنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر ، فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم ، أي : عند جنوحها للغيبوبة . وقد روى ابن سيلان ، عن أبي هريرة مرفوعا : « لا تدعوها ، وإن طردتكم الخيل » . يعني ركعتي الفجر (٣) ، رواه أبو داود . ومن هذا الحديث حكى عن بعض أصحاب الإمام أحمد القولُ بوجوبهما ، وهو ضعيف لحديث : « خمس صلوات في اليوم والليلة » . قال : هل على غيرها ؟ قال : « لا إلا أن تطوع (٤) » . وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ أنها قالت : لم يكن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر (٥) . وفي لفظ لمسلم : « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها (٦) » .

آخر تفسير سورة الطور

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ٧٩ .

(٢) انظر تفسير الآية الأربعين من سورة « ق » .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، أبواب التطوع ، باب « تخفيف ركعتي الفجر » .

(٤) البخاري ، كتاب الإيمان ، باب « الزكاة من الإسلام » : ١/١٨ ، وكتاب الصوم ، باب « وجوب صوم رمضان » : ٣/٣١ . وكتاب الحيل ، باب « في الزكاة وأن لا يفرق بين مجتمع ... » : ٩/٢٩ ــ ٣٠ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام » : ١/٣١ ــ ٣٢ . وسنن أبي داود ، أول كتاب الصلاة . والنسائي ، كتاب الصلاة ، باب « كم فرضت في اليوم والليلة » : ١/٢٢٦ ــ ٢٢٨ .

(٥) البخاري ، كتاب التهجد ، باب « تعاهد ركعتي الفجر ، ومن سماهما تطوعا » : ٢/٧١ ــ ٧٢ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « استحباب ركعتي الفجر ... » : ٢/١٦٠ .

(٦) مسلم ، في الكتاب والباب المتقدمين .

تفسير سورة النجم

وهى مكية

قال البخارى : حدثنا نصر بن علي ، أخبرنى أبو أحمد ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن الأسود بن يزيد ، عن عبد الله قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة (والنجم)، قال : فسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسجد من خلفه، إلا رجلا رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قُتِل كافراً ، وهو أمية بن خلف (١) .

وقد رواه البخارى أيضا فى مواضع ، ومسلم وأبو داود والنسائى ، من طرق ، عن أبي إسحاق ، به (٢) . وقوله فى الممتنع : إنه أمية بن خلف فى هذه الرواية مشكل ، فإنه قد جاء من غير هذه الطريق أنه عتبة بن ربيعة (٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)

قال الشعبي وغيره : الخالق يقسم بما شاء من خلقه ، والمخلوق لا ينبغى له أن يقسم إلا بالخالق . رواه ابن أبى حاتم .

واختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى : (والنجم إذا هوى) فقال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : يعنى بالنجم : الثريا إذا سقطت مع الفجر . وكذا رُوى عن ابن عباس ، وسفيان الثورى . واختاره ابن جرير . وزعم السدى أنها الزهرة .

وقال الضحاك : (والنجم إذا هوى) : إذا رُمى به الشياطين . وهذا القول له اتجاه .

وروى الأعمش ، عن مجاهد فى قوله : (والنجم إذا هوى) ، يعنى : القرآن إذا نزل (٤) . وهذه الآية كقوله تعالى : (فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين (٥)) .

وقوله : (ما ضل صاحبكم وما غوى) : هذا هو المقسم عليه ، وهو الشهادة للرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بأنه بارّ راشد تابع للحق ليس بضال ، وهو : الجاهل الذى يسلك على غير طريق بغير علم . والغاوى : هو العالم بالحق العادل

---

(١) البخارى ، تفسير سورة «والنجم» : ٦/١٧٧ .

(٢) البخارى ، كتاب مناقب الأنصارى ، باب «ما لقى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه من المشركين بمكة» : ٥/٥٧ . وكتاب المغازى ، باب «قتل أبي جهل» : ٥/٩٦ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب «سجود التلاوة» : ٢/٨٨ . وسنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، أبواب السجود ، باب «من رأى فيها [أى فى المفصل] السجود» . ومسند الإمام أحمد : ١/٣٨٨ ، ٤٣٧ ، ٤٤٣ .

(٣) فى المخطوطة : «عتبة بن شيبة» . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٤) انظر تفسير الطبرى : ٢٧/٢٤ .

(٥) سورة الواقعة ، الآيات : ٧٥ ـ ٨٠ .

عنه قصداً إلى غيره ، فنزه الله رسوله وشرْعَه عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود ، وعن علم الشيء وكتمانه والعمل بخلافه ، بل هو - صلوات الله وسلامه عليه - وما بعثه الله به من الشرع العظيم فى غاية الاستقامة والاعتدال والسداد ، ولهذا قال : (وما ينطق عن الهوى) ، أى : مايقول قولا عن هوى وغرض ، (إن هو إلا وحى يوحى) ، أى : إنما يقول ما أمر به ، يبلغه إلى الناس كاملا موفّراً من غير زيادة ولا نقصان ، كما رواه الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ، حدثنا حَريز بن عثمان ، عن عبد الرحمن بن ميسرة ، عن أبى أمامة أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « ليدخلنّ الجنةَ بشفاعة رجل ليس بنبى مثلُ الحيين - أو : مثل أحد الحيين - : ربيعة ومضر » . فقال رجل : يارسول الله ، أوَمَا ربيعة من مضر ؟ قال : « إنما أقول ماأقول (١) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، عن عُبَيد الله بن الأخنس ، أخبرنا الوليد بن عبد الله ، عن يوسف ابن ماهك ، عن عبد الله بن عمرو قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أريد حفظه ، فنهتنى قريش فقالوا : إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - [بشر] ، يتكلم فى الغضب . فأمسكتُ عن الكتاب (٢) ، فذكرت ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : « اكتب ، فو الذى نفسى بيده ماخرج منى إلا حق (٣) » .

ورواه أبو داود عن مسدد وأبى بكر بن أبى شيبة ، كلاهما عن يحيى بن سعيد القطان ، به (٤) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنا الليث ، عن ابن عجلان ، عن زيد بن أسلم ، عن أبى صالح ، عن أبى هُرَيرة ، عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « ماأخبرتكم أنه الذى من عند الله ، فهو الذى لاشكّ فيه » . ثم قال : لانعلمه يُروَى إلا بهذا الإسناد .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس ، حدثنا ليث ، عن محمد ، عن سعيد بن أبى سعيد ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « لاأقول إلا حقا » . قال بعض أصحابه : فانك تداعبنا يارسول الله ؟ قال : « إنى لا أقول إلا حقا (٥) » .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/٢٥٧ . وانظر أيضاً المسند : ٥/٢٦١ ، ٢٦٧ .

(٢) أى : عن الكتابة .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢/١٦٢ ، ١٩٢ .

(٤) سنن أبى داود ، كتاب العلم ، باب « فى كتاب العلم » .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٤٠ ، وانظر أيضاً المسند : ٢/٣٦٠ . وأخرجه الترمذى من طريق سعيد المقبرى . انظر تحفة الأحوذى ، أبواب البر ، باب « ما جاء فى المزاح » ، الحديث ٢٠٥٨ : ٦/١٢٦ - ١٢٧ .

عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله محمد — صلى الله عليه وسلم — أنه علّمه الذى جاء به إلى الناس (شديد القوى) ، وهو جبريل — عليه السلام — كما قال : (إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثَمّ أمين(١)) ، وقال هاهنا : (ذو مرة) ، أى : ذو قوة . قاله مجاهد ، والحسن ، وابن زيد . وقال ابن عباس : ذو منظر حسن (٢) ؛ [وقال قتادة : ذو خلْق طويل حسن .

ولا منافاة بين القولين ، فانه عليه السلام ذو منظر حسن] ، وقوة شديدة . وقد ورد الحديث الصحيح من رواية أبى هريرة وابن عمر أن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : « لا تحل الصدقة لغنى ، ولا لذى مرّة سوى (٣) » .

وقوله : (فاستوى) يعنى : جبريل عليه السلام . قاله مجاهد والحسن وقتادة ، والربيع بن أنس . (وهو بالأفق الأعلى) ، يعنى : جبريل ، استوى فى الأفق الأعلى . قاله عكرمة وغير واحد . قال عكرمة : والأفق الأعلى الذى يأتى منه : الصبح ؛ وقال مجاهد : هو مطلع الشمس . وقال قتادة : هو الذى يأتى منه النهار . وكذا قال ابن زيد ، وغيرهم

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا مصَرّف بن عمرو اليامى أبو القاسم ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن طلحة ابن مصرف ، حدثنى أبى ، عن الوليد — هو ابن قيس — عن إسحاق بن أبى الكَهْتَلَة (٤) — أظنه ذكره عن عبد الله بن مسعود — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لم ير جبريل فى صورته إلا مرتين ، أما واحدة فانه سأله أن يراه فى صورته فسد الأفق . وأما الثانية فانه كان معه حيث صعد ، فذلك قوله : (وهو بالأفق الأعلى)

وقد قال ابن جرير هاهنا قولا لم أره لغيره ، ولا حكاه هو عن أحد ، وحاصله : أنه ذهب إلى أن المعنى : (فاستوى) ، أى : هذا الشديد القوى ذو المرة هو ومحمد — صلى الله عليهما وسلم — بالأفق الأعلى ، أى : استويا جميعا بالأفق ، وذلك ليلة الإسراء . كذا قال ، ولم يوافقه أحد على ذلك . ثم شرع يوجه ماقال من حيث العربية فقال : وهذا كقوله تعالى : (أئذا

---

(١) سورة التكوير ، الآيات : ١٩ — ٢١ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٥/٢٧ .

(٣) أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه والنسائى فى كتاب الزكاة . انظر سنن أبى داود ، باب « من يعطى الصدقة وحد الغنى » . وتحفة الأحوذى ، باب « من لا تحل له الصدقة » الحديث ٦٤٧ : ٣١٦/٣ — ٣١٧ . وابن ماجه ، باب « من سأل عن ظهر غنى » ، الحديث ١٨٣٩ ، : ٥٨٩/١ . والنسائى ، باب « إذا لم يكن له دراهم وكان له عدلها » : ٩٩/٥ . وأخرجه الإمام أحمد عن رجل من بنى هلال : ٦٢/٤ ، ٣٧٥/٥ .

(٤) إسحاق هذا مترجم فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢٣٢/١/١ .

كنا ترابا وآباؤنا) ، فعطف بالآباء على المكنى فى (كنا) من غير إظهار « نحن » ، فكذلك قوله : (فاستوى وهو) ، قال : وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده (١) :

ألم تَرَ أنَّ النبعَ يَصْلُبُ عُودُهُ ولا يَسْتَوِى والخِرْوَعُ المُتَقَصِّفُ (٢)

وهذا الذى قاله من جهة العربية متجه ، ولكن لايساعده المعنى على ذلك ؛ فان هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الاسراء ، بل قبلها ورسولُ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى الأرض ، فهبط عليه جبريل ــ عليه السلام ــ وتدلى إليه ، فاقترب منه وهو على الصورة التى خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح ، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، يعنى ليلة الإسراء ، وكانت هذه الرؤية الأولى فى أوائل البعثة بعد ماجاءه جبريل ــ عليه السلام ــ أول مرة ، فأوحى الله إليه صدر « سورة اقرأ » ، ثم فتر الوحى فترة ذهب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيها مرارا ليتردى من رؤوس الجبال ، فكلما همَّ بذلك ناداه جبريل من الهواء : « يامحمد ، أنت رسول الله حقا ، وأنا جبريل » . فيسكن لذلك جأشه ، وتقر عينه ، وكلما طال عليه الأمر عاد لمثلها ، حتى تَبَدَّى له جبريل ورسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى الأبطح فى صورته التى خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح قد سد [عُظْم] خالقه الأفق ، فاقترب منه ، وأوحى إليه عن الله ــ عز وجل ــ ماأمره به ، فعرف عند ذلك عظمة المَلَك الذى جاءه بالرسالة ، وجلالة قَدْره وعلوّ مكانته عند خالقه الذى بعثه إليه . فأما الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده حيث قال :

حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا سعيد بن منصور ، حدثنا الحارث بن عبيد ، عن أبى عمران الجَوْنى ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « بينا أنا قاعد (٣) إذ جاء جبريل ــ عليه السلام ــ فوكز بين كتفى ، فقمت إلى شجرة فيها كَوَكْرَى الطير ، فقعد فى أحدها وقعدت فى الآخر ، [فَسَمَتْ] وارتفعت حتى سَدَّت الخافقين وأنا أقلب طرفى ، ولو شئت أن أمس السماء لمسست ، فالتفت إلىَّ جبريل كأنه حلْس لاطٍ (٤) فعرفتُ فضلَ علمه بالله علىَّ ، وفُتح لى بابُ من أبواب السماء ورأيت النور الأعظم ، وإذا دون الحجاب رفرفة الدر والياقوت . وأوحى إلى ماشاء الله أن يوحى »

ثم قال البزار : لايرويه إلا الحارث بن عبيد ، وكان رجلا مشهورا من أهل البصرة (٥) .

قلت : الحارث بن عُبَيد هذا هو أبو قدامة الإيادى ، أخرج له مسلم فى صحيحه إلا أن ابن معين ضعفه ، وقال : ليس هو بشىء . وقال الإمام أحمد : مضطرب الحديث . وقال أبو حاتم الرازى : يكتب حديثه ولا يحتج به . وقال ابن حبان : كثُر وَهَمه فلا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد (٦) . فهذا الحديث من غرائب رواياته ، فان فيه نكارة وغرابة ألفاظ وسياقاً عجيبا ، ولعله منام ، والله أعلم .

---

(١) البيت لجرير ، انظر ديوانه : ٢٩٨ ، والنقائض : ٢/٩٦٥ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٧/٢٥ ــ ٢٦ .
(٣) تقدم فى سورة الإسراء : « بينا أنا نائم » .
(٤) فى المخطوطة : « لاطى » . والمثبت من السياقة التى تقدمت فى سورة الإسراء .
(٥) تقدم الحديث عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء ، وشرحنا هنالك غريبه . انظر : ٥/٨ ــ ٩ .
(٦) انظر ترجمة « الحارث بن عبيد » فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ١/٢/٨١ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا شريك ،عن عاصم، عن أبي وائل ، عن عبد الله قال : رأى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جبريلَ في صورته وله ستمائة جناح ، كلّ جناح منها قد سدّ الأفق ، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ماالله به عليم . انفرد به أحمد (١) .

وقال أحمد : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن إدريس بن مُنَبّه ، عن(٢) وهب بن منبه ، عن ابن عباس قال : سأل النبي — صلى الله عليه وسلم — جبريل أن يراه في صورته ، فقال : ادع ربك . فدعا ربه — عز وجل — فطلع عليه سواد من قبل المشرق ، فجعل يرتفع وينتشر ، فلما رآه النبي — صلى الله عليه وسلم — صعق ، فأتاه فنَعَشَهَ(٣) ومسح البزاق عن شدقه (٤) .

انفرد به أحمد . وقد رواه ابن عساكر في ترجمة « عتبة بن أبي لهب (٥) » ، من طريق محمد بن إسحاق ، عن عثمان ابن عروة بن الزبير ، عن أبيه ، عن هبّار(٦) بن الأسود قال : كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام، فتجهزت معهما ، فقال ابنه عتبة : والله لأنطلقن إلى محمد ولأوذينّه في ربه — سبحانه — فانطلق حتى أتى النبي — صلى الله عليه وسلم — فقال : يامحمد ، هو يكفر بالذى دنى فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى . فقال النبي — صلى الله عليه وسلم — : « اللهم ابعث إليه كلبا من كلابك » . ثم انصرف عنه فرجع إلى أبيه فقال : يابني ، ماقلت له ؟ فذكر له ماقال له ، قال : فما قال لك ؟ قال : قال : «اللهم سلط عليه كلبا من كلابك» . قال: يابني ، والله ماآمنُ عليك دُعاءَه . فسرنا حتى نزلنا الشراة(٧) ، وهي مأسدة(٨) ، ونزلنا إلى صومعة راهب ، فقال الراهب : يامعشر العرب ، ماأنزلكم هذه البلاد، فانها تسرح الأسدُ فيها كما تسرح الغنم ؟ فقال لنا أبو لهب : إنكم قد عرفتم كبر سني وحقي ، وإن هذا الرجل قد دعا على ابني دعوةً — والله — ماآمنها عليه ، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة ، وافرشوا لابني عليها ثم افرشوا حولها. ففعلنا، فجاء الأسد فَشَمَّ وجوهنا ، فلما لم يجد مايريد تَقَبّض ، فوثب ، فاذا هو فوق المتاع ، فشم وجهه ثم هزمه هَزْمَة(٩) فَفَضَخ(١٠) رأسه . فقال أبو لهب : قد عرفتُ أنه لاينفلت عن دعوة محمد .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١/ ٣٩٥ . وانظر المسند أيضاً في : ١/ ٣٩٨ ، ٤٠٧ .

(٢) في المسند : « عن أبيه وهب بن منبه » .

(٣) أي : رفعه .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١/ ٣٢٢ .

(٥) لم نجد ترجمة « عتبة بن أبي لهب » ولا ترجمة « هبار » في مصورات« تاريخ دمشق »بمعهد المخطوطات ،جامعة الدول العربية . وقد أخرج أبو نعيم في الدلائل هذا الحديث من طريق محمد بن إسحاق ، به ، انظر : ١٦٢ — ١٦٣ .

(٦) في مخطوطة الأزهر : « هناد بن الأسود » . وهو خطأ ، والصواب ، عن ترجمة « هبار بن الأسود » في الإصابة : ٤/ ٥٦٥ . ودلائل النبوة لأبي نعيم .

(٧) في المخطوطة : « نزلنا أبراه » . والمثبت عن الدلائل . وفي مراصد الاطلاع — ٧٨٨ : « الشراة : جبل شامخ مرتفع من دون عسفان تأويه القرود . والشراة أيضاً : صقع بالشام ، بين دمشق ومدينة الرسول» . وفي اللسان : «والشراه: موضع تنسب إليه الأسد ، يقال للشجعان : ما هم إلا أسودالشرى . وقيل : هو شرى الفرات وناحيته ، وبه غياض وآجام ومأسدة ... والشرى : طريق في سلمى كثير الأسد» .

(٨) في المخطوطة : « وهي بامسك » . والمثبت عن الدلائل . والمأسدة : الأرض كثيرة الأسود .

(٩) أي : ضربه ضربة .

(١٠) في المخطوطة : « ففسخ » . والمثبت عن الدلائل . وهو المناسب هنا ، وفي اللسان: « الفضخ : كسر كل شيء أجوف ، نحو الرأس والبطيخ ، فضخه يفضخه فضخاً وافتضخه ، وفضخ رأسه : شدخه » .

وقوله : (فكان قاب قوسين أو أدنى) ، أى : فاقترب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض ، حتى كان بينه وبين محمد – صلى الله عليه وسلم – قاب قوسين ، أى : بقدرهما إذا مُدّا . قاله مجاهد ، وقتادة .

وقد قيل : إن المراد بذلك بُعدُ ما بين وتر القوس إلى كَبِدها (١) .

وقوله : (أو أدنى) ، قد تقدم أن هذه الصيغة تستعمل فى اللغة لإثبات المخبر عنه ونفى ما زاد عليه ، كقوله : (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة) (٢) ، أى : ماهى بألين من الحجارة ، بل هى مثلها أو تزيد عليها فى الشدة والقسوة . وكذا قوله : (يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) (٣) ، وقوله : (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) (٤) ، أى : ليسوا أقل منها بل هم مائة ألف حقيقة ، أو يزيدون عليها . فهذا تحقيق للمخبر به لا شك ولا تردد ، فان هذا ممتنع هاهنا ، وهكذا هذه الآية : (فكان قاب قوسين أو أدنى) .

وهذا الذى قلناه من أن هذا المقترب الدانى الذى صار بينه وبين محمد – صلى الله عليه وسلم – إنما هو جبريل عليه السلام ، هو قول أم المؤمنين عائشة ، وابن مسعود ، وأبى ذر ، وأبى هريرة ، كما سنورد أحاديثهم قريبا إن شاء الله . وروى مسلم فى صحيحه ، عن ابن عباس أنه قال : « رأى محمد ربه بفؤاده مرتين » (٥) . فجعل هذه إحداهما . وجاء فى حديث شريك بن أبى نمر ، عن أنس فى حديث الإسراء : « ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى » (٦) . ولهذا تكلم كثير من الناس فى متن هذه الرواية ، وذكروا أشياء فيها من الغرابة ، فان صح فهو محمول على وقت آخر وقصة أخرى ، لا أنها تفسير لهذه الآية ، فان هذه كانت ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى الأرض لا ليلة الإسراء ، ولهذا قال بعده : (ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى) ، فهذه هى ليلة الإسراء ، والأولى كانت فى الأرض .

وقد قال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا سليمان الشيبانى ، حدثنا زر بن حبيش قال : قال عبد الله بن مسعود فى هذه الآية : (فكان قاب قوسين أو أدنى) ، قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « رأيت جبريل له ستمائة جناح (٧) » .

وقال ابن وهب : حدثنا ابن لهيعة ، عن أبى الأسود ، عن عروة ، عن عائشة قالت : كان أول شأن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه رأى فى منامه جبريل بأجياد ، (٨) ثم إنه خرج ليقضى حاجته فصرخ به جبريل : يا محمد ،

---

(١) كبد كل شىء : وسطه . وكبد القوس : ما بين طرفى العلاقة . وقيل : قدر ذراع من مقبضها .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٧٤ . وانظر ما قيل فى هذه الآية فى : ١/١٦٣ .
(٣) سورة النساء ، آية : ٧٧ .
(٤) سورة الصافات ، آية : ١٤٧ . وانظر كذلك : ٧/٣٥ – ٣٦ .
(٥) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب معنى قول الله عز وجل : (ولقد رآه نزلة أخرى) : ١/١٠٩ – ١١٠ .
(٦) تقدم الحديث عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء ، وخرجناه هنالك . انظر : ٥/٥ .
(٧) تفسير الطبرى : ٢٧/٢٧ .
(٨) أجياد : موضع بأسفل مكة .

يا محمد . فنظر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يمينا وشمالا فلم ير شيئاً – ثلاثاً – ثم رفع بصره فإذا هو ثان إحدى رجليه مع الأخرى على أفق السماء فقال : يا محمد ، جبريل جبريلُ – يُسَكِّنه – فهرب النبي – صلى الله عليه وسلم – حتى دخل فى الناس ، فنظر فلم ير شيئا . ثم خرج من الناس ، ثم نظر فرآه ، فدخل فى الناس فلم ير شيئاً ، ثم خرج فنظر فرآه ، فذلك قول الله عز وجل : (والنجم إذا هوى) . إلى قوله : (ثم دنا فتدلى) ، يعنى جبريل إلى محمد ، (فكان قاب قوسين أو أدنى) . ويقولون : القاب نصف الإصبع . وقال بعضهم : ذراعين كان بينهما .

رواه ابن جرير (١) وابن أبي حاتم ، من حديث ابن وهب . وفى حديث الزهرى عن أبي سلمة ، عن جابر شاهد لهذا .

[وروى (٢) البخارى عن طلق بن غنام ، عن زائدة ، عن الشيبانى قال : سألت زراً عن قوله : (فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى) ، قال : حدثنا عبد الله أن محمداً – صلى الله عليه وسلم – رأى جبريل له ستمائة جناح (٣) .

وقال ابن جرير : حدثنى ابن بزيع البغدادى ، حدثنا إسحاق بن منصور ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن عبد الله : (ما كذب الفؤاد ما رأى) ، قال : رأى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جبريل عليه حلتا (٤) رفرف ، قد ملأ ما بين السماء والأرض] (٥) .

فعلى ما ذكرناه يكون قوله : (فأوحى إلى عبده [ما أوحى) ، معناه : فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى ، أو : فأوحى الله إلى عبده] (٦) محمد ما أوحى بواسطة جبريل . وكلا المعنيين صحيح . وقد ذُكر عن سعيد بن جبير فى قوله : (فأوحى إلى عبده ما أوحى) ، قال : أوحى إليه : « ألم أجدك يتيما » ، (ورفعنا لك ذكرك) .

وقال غيره : أوحى إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها ، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك .

وقوله : (ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى) – قال مسلم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا وكيع ، حدثنا الأعمش ، عن زياد بن حُصَين ، عن أبي العالية ، عن ابن عباس : (ما كذب الفؤاد ما رأى) ، (ولقد رآه نزلة أخرى) ، قال : رآه بفؤاده مرتين (٧) .

وكذا رواه سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، مثله (٨) . وكذا قال أبو صالح والسدّى وغيرهما : إنه رآه بفؤاده مرتين . [وقد خالفه ابن مسعود وغيره] (٩) ، وفى رواية عنه أنه أطلق الرؤية ، وهى محمولة على المقيدة بالفؤاد .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٧/٢٧ .
(٢) من هنا ساقط من مخطوطة الأزهر ، وقد أثبتناه من الطبعات السابقة .
(٣) البخارى ، تفسير سورة (والنجم) : ٦/١٧٦ .
(٤) أى : حلتان من ديباج .
(٥) إلى هنا ينتهى السقط الذى أثبتناه من الطبعات السابقة ، وانظر تفسير الطبرى : ٢٧/٢٩ .
(٦) ما بين القوسين أيضاً عن الطبعات السابقة .
(٧) تقدم تخريج الحديث من قريب .
(٨) تفسير الطبرى : ٢٧ – ٢٨ .
(٩) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، ومكانه فى المخطوطة بياض بقدر كلمتين .

ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب ، فإنه لا يصح فى ذلك شىء عن الصحابة –رضى الله عنهم – وقولُ البغوى فى تفسيره: وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه ، وهو قول أنس والحسن وعكرمة – فيه نظر ، والله أعلم .

وقال الترمذى : حدثنا محمد بن عمرو بن نَبْهان بن صفوان ، حدثنا يحيى بن كثير العنبرى ، عن سَلْم بن جعفر ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : رأى محمد ربه . قلت : أليس الله يقول : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) ؟ قال : ويحك ! ذاك إذا تَجَلّى بنوره الذى هو (١) نوره ، وقد رأى ربه مرتين .

ثم قال : «حسن غريب (٢) » .

وقال أيضا : حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن مجالد ، عن الشعبى قال : لقى ابن عباس كعباً بعرفة ، فسأله عن شىء فكَبّر حتى جاوبته الجبال (٣) ، فقال ابن عباس : إنا بنو هاشم . فقال كعب : إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى ، فكلم موسى مرتين ورآه محمد مرتين . وقال مسروق : دخلت على عائشة فقلت : هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : لقد تكلمت بشىء قَفّ (٤) له شعرى . فقلت : رُوَيداً ، ثم قرأتُ : (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) ، فقالت : أين يُذهَبُ بك ؟ إنما هو جبريل ، من أخبرك أن محمدا رأى ربه أو كتم شيئا مما أمرَ به ، [أو يعلم الخمس (٥) التى] قال الله تعالى : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث) ، فقد أعظم الفرية ، [ولكنه (٦) رأى] جبريل ، لم يره فى صورته إلا مرتين ، مرةً عند سدرة المنتهى ومرة فى جِيَاد ، وله سمائة جناح قد سد الأفق (٧) .

وقال النسائى : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنى أبى ، عن قتادة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : أتعجبون أن تكون الخُلّة لإبراهيم ، والكلام لموسى ، والرؤية لمحمد عليهم السلام ؟ !

وفى صحيح مسلم ، عن أبى ذر قال : سألت رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– : هل رأيتَ ربك ؟ فقال : «نور أنّى أراه» . وفى رواية : «رأيت نورا (٨) » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد ، عن موسى بن عبيدة ، عن محمد بن كعب قال : قالوا : يا رسول الله ، رأيت ربك ؟ قال : «رأيته بفؤادى مرتين» ثم قرأ : (ما كذب الفؤاد ما رأى) .

---

(١) يقول ابن عباس : إن المراد بالآية نفى الإحاطة به عند رؤياه ، لا نفى الرؤية أصلا .

(٢) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة النجم ، الحديث ٣٣٣٤ : ٩ / ١٦٩ ، والذى فى تحفة الأحوذى : « هذا حديث حسن » .

(٣) أى : كبر تكبيرة مرتفعا بها صوته ، حتى جاوبته الجبال بالصدى ، كأنه استعظم ما سأل عنه فكبر لذلك ، ولعل ذلك السؤال هو رؤية الله تعالى .

(٤) أى : وقف من الفزع .

(٥) فى المخطوطة : « مما أمره لكن قال .. » . والمثبت عن الترمذى والطبعات السابقة .

(٦) ما بين القوسين عن الترمذى والطبعات السابقة ، ومكانه فى المخطوطة : « الى » .

(٧) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الفتح ، الحديث ٣٣٣٢ : ٩ / ١٦٦ – ١٦٨ .

(٨) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب فى قوله عليه السلام « نور أنى أراه » : ١ / ١١١

ورواه ابنُ جرير ، عن ابن حُميد ، عن مِهْرَان ، عن موسى بن عبيدة (١) ، عن محمد بن كعب ، عن بعض أصحاب النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : قلنا : يا رسول الله ، هل رأيت ربك ؟ قال : « لم أره بعيني ، ورأيته بفؤادي مرتين » . ثم تلا : (ثم دنا فتدلى (٢)) .

ثم قال ابن أبي حاتم : وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري ، أخبرني عبّاد بن منصور قال : سألت عكرمة : (ما كذب الفؤاد ما رأى) ، فقال عكرمة : تريد أن أخبرك أنه قد رآه ؟ قلت : نعم . قال : قد رآه ، ثم قد رآه . قال : فسألت عنه الحسن فقال : رأى جَلاَله وعَظَمته ورِداءَه .

وحدثنا أبي ، حدثنا محمد بن مجاهد ، حدثنا أبو عامر العَقَدى ، أخبرنا أبو خلدة ، عن أبي العالية قال : سُئِل رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — : هل رأيت ربك ؟ قال : « رأيت نهرا ، ورأيت وراء النهر حجابا ، ورأيت وراء الحجاب نورا لم أر غَيْرَه »

وذلك غريب جدا ، فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن قتادة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « رأيت ربي عز وجل (٣) » .

فإنه حديث إسناده على شرط الصحيح ، لكنه مختصر من حديث المنام كما رواه الإمام أحمد أيضا :

حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن أيوب ، عن أبي قلابة عن ابن عباس : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « أتانى ربي الليلة فى أحسن صورة — أحسبه يعنى فى النوم — فقال : يا محمد ، أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قال : قلت : لا . فوضع يده بين كتفى حتى وجدت بَرْدَها بين ثديىّ — أو قال : نحرى — فعلمت ما فى السموات وما فى الأرض ، ثم قال : يا محمد ، هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قال : قلت : نعم ، يختصمون فى الكفارات والدرجات ، قال : وما الكفارات [والدرجات ؟] : قال : قلت : المكث فى المساجد بعد الصلوات ، والمشى على الأقدام إلى الجُمُعات (٤) وإبلاغ الوضوء فى المكاره (٥) . من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير ، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه . وقال : قل يا محمد إذا صليت : اللهم ، إنى أسألك الخيرات وترك المنكرات ، وحبَّ المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة أن تقبضنى إليك غير مفتون . قال : والدرجات بذلُ الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام (٦) »

---

(١) فى تفسير الطبرى : « موسى بن عبيد الحميرى » . ولم نجده ، وفى الجرح والتعديل ٤ / ١ / ١٥١ : « موسى بن عبيدة الربذى » . وفى ترجمته أنه يروى عن محمد بن كعب .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٧ / ٢٧ .

(٣) وقع لنا الحديث فى المسند من رواية الإمام أحمد عن عفان ، عن عبد الصمد بن كيسان ، عن حماد ، به . انظر المسند : ١ / ٢٩٠ .

(٤) فى المخطوطة : « الجماعات » . والمثبت عن المسند ، وانظر فيما تقدم : ٧ / ٧١ .

(٥) المكاره : جمع مكره ، وهو ما يكرهه الإنسان ويشق عليه . والمعنى : أن يتوضأ مع البرد الشديد والعلل التى يتأذى معها بمس الماء ، ومع إعوازه والحاجة إلى طلبه ، والسعى فى تحصيله ، أو ابتياعه بالثمن الغالى ، وما أشبه ذلك من الأسباب الشاقة .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١ / ٣٦٨ .

وقد تقدم فى آخر سورة « ص » ، عن معاذ ، نحوه (١) . وقد رواه ابن جرّير من وجه آخر عن ابن عباس ، وفيه سياق آخر وزيادة غريبة فقال :

حدثنى أحمد بن عيسى التيمى ، حدثنى سليمان بن عُمَر (٢) بن سيار ، حدثنى أبى ، عن سعيد بن زربى ، عن عمر ابن سليمان ، عن عطاء ، عن ابن عباس قال : قال النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « رأيت ربى فى أحسن صورة فقال لى : يا محمد ، هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ فقلت : لا ، يا رب . فوضع يده بين كتفى فوجدت بَرْدَها بين ثدىّ ، فعلمت مافى السموات والأرض ، فقلت : يا رب ، فى الدرجات والكفارات ، ونقل الأقدام إلى الجُمُعات (٣) ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة . فقلت : يا رب ، إنك اتخذت إبراهيم خليلا ، وكلمتَ موسى تكليما ، وفعلت وفعلت . فقال : ألم أشرح لك صدرك ؟ ألم أضع عنك وزرك ؟ ألم أفعل بك ؟ ألم أفعل ؟ قال : فأفضى إلىّ بأشياء لم يؤذن لى أن أحدثكموها . قال : فذاك قوله فى كتابه : (ثم دنا فتدلى • فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى • ماكذب الفؤاد ما رأى) ، فجُعِل نور بصرى فى فؤادى ، فنظرت إليه بفؤادى (٤) » . إسناده ضعيف .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر بسنده إلى هَبَّار (٥) ــ بن الأسود ــ رضى الله عنه ــ : أن عتبة بن أبى لهب لما خرج فى تجارة إلى الشام قال لأهل مكة : اعلموا أنى كافر بالذى دنافتدلى . فبلغ قولهُ رسولَ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : سلَّطَ الله عليه كلبا من كلابه . قال هبار : فكنت معهم ، فنزلنا بأرض كثيرة الأسد ، قال : فلقد رأيت الأسد جاء فجعل يتشمّ رءوس القوم واحدا واحدا ، حتى تخطى إلى عتبة فاقتطع رأسه من بينهم .

وذكر ابن إسحاق وغيره فى السيرة : أن ذلك كان بأرض الزرقاء ، وقيل بالسراة ، وأنه خاف ليلتئذ ، وأنهم جعلوه بينهم وناموا من حوله ، فجاء الأسد فجعل يزأر ، ثم تخطاهم إليه فضغم (٦) رأسه لعنه الله .

وقوله : (ولقد رآه نزلة أخرى • عند سدرة المنتهى • عندها جنة المأوى) ، هذه هى المرة الثانية التى رأى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيها جبريل على صورته التى خلقه الله عليها ، وكانت ليلة الإسراء . وقد قدمنا الأحاديث الواردة فى الإسراء بطرقها وألفاظها فى أول سورة « سبحان » بما أغنى عن إعادته هاهنا ، وتقدم أن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ كان يثبت الرؤية ليلة الإسراء ، ويستشهد بهذه الآية . وتابعه جماعة من السلف والخلف ، وقد خالفه جماعات من الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ والتابعين وغيرهم .

---

(١) انظر تفسير الآية التاسعة والستين من سورة ص : ٧ / ٧١

(٢) كذا فى المخطوطة : « عمر » ، دون واو . وفى تفسير الطبرى : « عمرو » . ولم تقع لنا ترجمته .

(٣) فى المخطوطة : « الجماعات » . والمثبت عن تفسير الطبرى .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٧ / ٢٨ ــ ٢٩ .

(٥) لم تقع لنا ترجمة هبار ، ولا ترجمة « عتبة » فى مصورات تاريخ دمشق التى بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، وقد فيهنا من قريب على ذلك .

(٦) أى : عضها .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن عاصم بن بهدلة ، عن زرّ بن حُبَيْش ، عن ابن مسعود فى هذه الآية : (ولقد رآه نزلة أخرى • عند سدرة المنتهى) ، قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « رأيت جبريل وله ستمائة جناح ، ينتثر من ريشه التهاويل (١) : الدرّ والياقوت (٢) » . وهذا إسناد جيد قوى .

وقال أحمد أيضا : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا شريك ، عن جامع بن أبى راشد ، عن أبى وائل ، عن عبد الله قال : رأى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — جبريل فى صورته وله ستمائة جناح ، كل جناح منها قد سد الأفق : يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم (٣) . إسناده حسن أيضا .

وقال أحمد أيضا : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنى حسين ، حدثنى عاصم بن بهدلة قال : سمعت [شقيق] (٤) بن سلمة يقول : سمعت ابن مسعود يقول قال : رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « رأيت جبريل على سدرة المنتهى ، وله ستمائة جناح » . سألت عاصما عن الأجنحة ، فأبى أن يخبرنى ، قال : فأخبرنى بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب (٥) وهذا أيضا إسناد جيد .

وقال أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنى حسين ، حدثنى [عاصم بن بهدلة (٦)] حدثنى [شقيق (٧)] قال : سمعت ابن مسعود يقول : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أتانى جبريل — عليه السلام — فى خُضُر (٨) معلق به الدر (٩) » . إسناد جيد أيضا .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى ، عن إسماعيل ، حدثنا عامر قال : أتى مسروقٌ عائشةَ فقال : يا أم المؤمنين ، هل رأى محمد — صلى الله عليه وسلم — ربه عزوجل ؟ قالت : سبحان الله . لقد قَفَّ (١٠) شعرى لما قلت ، أين أنت من ثلاث من حدّثكهن فقد كذب : من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) ، (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب) ، ومن أخبرك أنه يعلم ما (١١) فى غد فقد كذب ، ثم قرأت : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام) .. الآية ، ومن أخبرك أن محمدا قد كتم ، فقد كذب ، ثم قرأت : (يا أيها الرسول ، بلغ ما أنزل إليك من ربك) . ولكنه رأى جبريل فى صورته مرتين (١٢) .

---

(١) التهاويل : الأشياء المختلفة الألوان .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١ / ٤٦٠ .

(٣) وقع لنا هذا الحديث فى المسند من رواية حجاج ، عن شريك ، عن عاصم ، عن أبى وائل . انظر : ١ / ٣٩٥ .

(٤) فى المخطوطة : « منصور بن سلمة » . والمثبت عن المسند . والطبعات السابقة من هذا التفسير .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١ / ٤٠٧ .

(٦) ما بين القوسين عن المسند ، ومكانه فى المخطوطة : « حصين » .

(٧) ما بين القوسين أيضا عن المسند ، ومكانه فى المخطوطة : « سفيان » .

(٨) فى المسند : ٦ / ١٢٠ عن عائشة : « وعليه ثياب سندس .... » .

(٩) مسند الإمام أحمد : ١ / ٤٠٧ .

(١٠) أى : وقف .

(١١) فى المسند : « أخبرك بما فى غد » . ونحسب أن فيه سقطا

(١٢) مسند الإمام أحمد : ٦ / ٤٩ — ٥٠

وقال أحمد أيضا : حدثنا محمد بن أبى عدى ، عن داود ، عن الشعبى ، عن مسروق قال : كنت عند عائشة فقلت : أليس الله يقول : (ولقد رآه بالأفق المبين) ، (ولقد رآه نزلة أخرى) ؟ فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عنها ، فقال : « إنما ذاك جبريل » . لم يره فى صورته التى خلق عليها إلا مرتين ، رآه منهبطا من السماء إلى الأرض ، سادا عِظَمُ خلقه ما بين السماء والأرض(١) » .

أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث الشعبى ، به(٢) » .

رواية أبى ذر ، قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا همام ، حدثنا قتادة ، عن عبد الله بن شقيق قال : قلت لأبى ذر : لو رأيتُ رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — لسألته . قال : وما كنتَ تسأله ؟ قال : كنت أسأله : هل رأى ربه عز وجل ؟ فقال : إنى قد سألته فقال : « قد رأيته نورا أنى أراه(٣) » .

هكذا وقع فى رواية الإمام أحمد ، وقد أخرجه مسلم من طريقين بلفظين فقال : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا وكيع ، عن يزيد بن إبراهيم ، عن قتادة ، عن عبد الله بن شقيق ، عن أبى ذر قال : سألت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : هل رأيت ربك ؟ فقال « نور أنى أراه(٤) » .

وقال : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبى ، عن قتادة ، عن عبد الله بن شقيق قال : قلت لأبى ذر : لو رأيتُ رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — لسألته . فقال : عن أىّ شىء كنتَ تسأله ؟ قال : قلت : كنت أسأله : هل رأيت ربك ؟ قال أبو ذر : قد سألتُ فقال : « رأيت نورا (٤) » .

وقد حكى الخلال فى علله أن الإمام أحمد سُئل عن هذا الحديث فقال : ما زلتُ منكراً له ، وما أدرى ما وجهه .

وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى ، حدثنا عمرو بن عون الواسطى ، أخبرنا هُشَيم ، عن منصور ، عن الحكم ، عن إبراهيم ، عن أبيه ، عن أبى ذر قال : رآه بقلبه ، ولم يره بعينه .

وحاول ابن خُزَيمة أن يدعى انقطاعه بين عبد الله بن شقيق وبين أبى ذر ، وأما ابن الجوزى فتأوله على أن أبا ذر لعله سأل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قبل الإسراء ، فأجابه بما أجابه به ، ولو سأله بعد الإسراء لأجابه بالإثبات . وهذا ضعيف جدا ، فان عائشة أم المؤمنين — رضى الله عنها — قد سألت عن ذلك بعد الإسراء ، ولم يثبت لها الرؤية . ومن قال : إنه خاطبها على قدر عقلها ، أو حاول تخطئتها فيما ذهبت إليه — كابن خُزَيمة فى كتاب التوحيد — فانه هو المخطئ ، والله أعلم .

وقال النسائى : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا هشام عن منصور ، عن الحكم ، عن يزيد بن شريك ، عن أبى ذر قال : رأى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ربه بقلبه ولم يره ببصره .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٦ / ٢٤١ . وانظر أيضا : ٦ / ٢٣٦ .

(٢) البخارى ، تفسير سورة والنجم : ٦ / ١٧٥ / ١٧٦ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب معنى قوله تعالى : (ولقد رآه نزلة أخرى) : ١ / ١١٠ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٥ / ١٤٧ .

(٤) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب فى قوله عليه السلام « نور أنى أراه » : ١ / ١١١ .

وقد ثبت في صحيح مسلم ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن علي بن مُسْهِر ، عن عبد الملك بن أبي سليمان ، عن عطاء ابن أبي رباح ، عن أبي هريرة — رضي الله عنه — أنه قال في قوله : (ولقد رآه نزلة أخرى) ، قال : رأى جبريل عليه السلام (١) .

وقال مجاهد في قوله : (ولقد رآه نزلة أخرى) ، قال : رأى رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — جبريلَ في صورته مرتين (٢) . وكذا قال قتادة ، والربيع بن أنس ، وغيرهم .

وقوله تعالى : (إذ يغشى السدرة ما يغشى) ، قد تقدم في أحاديث الإسراء أنه غشيتها الملائكة مثل الغِرْبان ، وغشيها نور الرب ، وغشيها ألوان ما أدري ما هي ؟

وقال الإمام أحمد : حدثنا مالك بن مِغْوَل ، حدثنا الزبير بن عدي ، عن طلحة ، عن مرة ، عن عبد الله — هو ابن مسعود — قال : لما أسري برسول الله — صلى الله عليه وسلم — انتهى به إلى سدرة المنتهى ، وهي في السماء السابعة ، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ، (إذ يغشى السدرة ما يغشى) ، قال : فراش من ذهب ، قال : وأعطي رسول الله—صلى الله عليه وسلم— ثلاثا : أُعطي الصلوات الخمس ، وأعطي خواتيم سورة البقرة ، وغُفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المُقْحمات (٣) . انفرد به مسلم (٤) .

وقال أبو جعفر الرازي ، عن الربيع ، عن أبي العالية ، عن أبي هريرة أو غيره — شك أبو جعفر — قال : لما أسري برسول الله انتهى إلى السدرة ، فقيل له : هذه السدرة ، فغشيها نور الخلاق ، وغشيتها الملائكة مثل الغربان حين يقعن على الشجر ، قال : فكلمه عند ذلك ، فقال له : سل (٥) .

وقال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : (إذ يغشى السدرة ما يغشى) ، قال : كان أغصان السدرة لؤلؤا وياقوتا وزبرجدا ، فرآها محمد ، ورأى ربه بقلبه .

وقال ابن زيد : قيل : يا رسول الله ، أيّ شيْ رأيت يغشى تلك السدرة ؟ قال : « رأيتُ يغشاها فَرَاشٌ من ذهب ، ورأيت على كل ورقة من ورقها مَلَكا قائما يسبح الله عز وجل » .

وقوله : (ما زاغ البصر وما طغى) ، قال ابن عباس ما ذهب يمينا ولا شمالا ، (وما طغى) : ما جاوز ما أمر به .

وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة ، فانه ما فعل إلا ما أمر به ، ولا سأل فوق ما أعطي . وما أحسن ما قال الناظم :

رَأى جَنَّةَ المَأوَى وَمَا فَوْقَهَا،وَلَو رَأى غَيرُه ما قد رَآه لَتاهَـــا

---

(١) مسلم في الكتاب السابق ، باب معنى قول الله عز وجل : (ولقد رآه نزلة أخرى) : ١ / ١٠٩ .
(٢) تفسير الطبري : ٢٧ / ٣٠ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ١ / ٤٢٢ . والمقحمات : الذنوب العظام التي تقحم أصحابها في النار ، أي : تلقيهم فيها .
(٤) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « في ذكر سدرة المنتهى » : ١٠٩/١ .
(٥) أخرجه الطبري من طريق أبي جعفر : ٢٧ / ٣١ ، ٣٤ .

وقوله : (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) ، كقوله : (لنريك من آياتنا (١)) ، أى : الدالة على قدرتنا وعظمتنا . وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع ، لأنه قال : (لقد رأى من آيات ربه الكبرى)، ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس ، وقد تقدم تقرير ذلك فى سورة « سبحان » . وقد قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو النضر ، حدثنا محمد بن طلحة ، عن الوليد بن قيس ، عن إسحاق بن أبى الكَهْتَلَة ــ قال محمد : أظنه عن ابن مسعود ــ أنه قال : إن محمدا لم ير جبريل فى صورته إلا مرتين ، أما مرة فانه سأله أن يُريه نفسه فى صورته ، فأراه صورته فسد الأفق . وأما الأخرى فانه صَعِد معه حين صعد به . وقوله : (وهو بالأفق الأعلى * ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى) ، [قال] : فلما أحَسّ (٢) جبريل ربه ــ عز وجل ــ عاد فى صورته وسجد ، فقوله : (ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى) ، قال : خَلْق جبريل عليه السلام (٣) .

هكذا رواه الإمام أحمد ، وهو غريب .

أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ * وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مُقَرّعا للمشركين فى عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان ، واتخاذهم لها البيوت مضاهاةً للكعبة التى بناها خليل الرحمن ــ عليه السلام ــ : (أفرأيتم اللات ؟) ، وكانت « اللات » صخرةً بيضاء منقوشة وعليها بيت بالطائف له أستار وسَدَنة ، وحوله فناء معظّم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف ومن تابعها يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش .

قال ابن جرير : وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله ، فقالوا : اللات ، يعنون مؤنثة منه ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا . وحكى عن ابن عباس ، ومجاهد ، والربيع بن أنس : أنهم قرءوا « اللاتّ » بتشديد التاء ، وفسروه بأنه كان رجلا يَلُتّ للحجيج فى الجاهلية السويق ، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه (٤) .

وقال البخارى : حدثنا مسلم ــ هو ابن إبراهيم ــ حدثنا أبو الأشهب ، حدثنا أبو الجوزاء ، عن ابن عباس : (اللات والعزى) ، قال : كان اللات رجلا يلت السَّويق سويق (٥) الحاج (٦) .

قال ابن جرير : وكذا العُزّى من العزيز .

---

(١) سورة طه ، آية : ٢٣ .

(٢) فى المخطوطة : « أخبر » . والمثبت عن المسند .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١ / ٤٠٧ .

(٤) انظر تفسير الطبرى : ٢٧ / ٣٤ ــ ٣٥ .

(٥) لفظ البخارى : « يلت سويق الحاج » .

(٦) البخارى ، تفسير سورة (والنجم) : ٦ / ١٧٦ .

وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، وهى بين مكة والطائف ، كانت قريش يعظمونها كما قال أبو سفيان يوم أحد : لنا العزّى ولا عزّى لكم . فقال رسول‌الله –صلى الله عليه وسلم–: «[قولوا] الله مولانا ولا مولى لكم(١) »

وروى البخارى من حديث الزهرى ، عن حُمَيد بن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « من حلف فقال فى حلفه : « واللات والعزى » فليقل : « لا إله إلا الله » : ومن قال لصاحبه : « تعال أقامرْك » فليتصدق » (٢) .

وهذا محمول على من سبق لسانه فى ذلك ، كما كانت ألسنتهم قد اعتادته : فى زمن الجاهلية ، كما قال النسائى : أخبرنا أحمد بن بكار وعبد الحميد بن محمد قالا : حدثنا مَخْلَد، حدثنا يونس، عن أبيه: حدثنى مصعب بن سعد بن أبى وقاص، عن أبيه قال : حلفت باللات والعزى، فقال لى أصحابى : بئس ما قلت! قلت هجرا ! فأتيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فذكرت ذلك له ، فقال : « قل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير . وانفث عن شمالك ثلاثا ، وتعوَّذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم لا تعد(٣) » .

وأما مناة فكانت بالمُشَلَّل – عند قُدَيد ، بين مكة والمدينة – وكانت خزاعة والأوس والخزرج(٤) فى جاهليتها يعظمونها، ويُهلّون منها للحج إلى الكعبة . وروى البخارى عن عائشة نحوه(٥) . وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخَر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التى نص عليها فى كتابه العزيز ، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها .

قال ابن إسحاق فى السيرة : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، بها سدنة وحجاب ، وتُهدى لها كما يهدى للكعبة ، وتطوف بها كطَوَفانها بها ، و تنحر عندها ، وهى تعرف فضل الكعبة عليها ؛ لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ، ومسجده . فكانت لقريش وبنى كنانة العُزّى بنخلة ، وكانت سدنتها وحجابها بنى شيبان من سليم حلفاء بنى هاشم(٦) .

قلت بعث إليها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خالد بن الوليد فهدمها ، وجعل يقول :

يَا عزّ ، كُفْرَانَكِ لا سُبْحَانَكِ إنى رأيت الله قَدْ أهَانَكِ(٧) ؟

وقال النسائى : أخبرنا على بن المنذر ، أخبرنا ابن فُضيل ، حدثنا الوليد بن جُمَيع ، عن أبى الطفيل قال : لما فتح رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة ، وكانت بها العزى ، فأتاها خالد وكانت على ثلاث سَمُرات ، فقطع السَّمُرات ، وهدم البيت الذى كان عليها . ثم أتى النبى – صلى الله عليه وسلم – فأخبره ، فقال: « ارجع

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية الحادية عشرة من سورة محمد وخرجناه هنالك ، انظر : ٧ / ٢٩٤ .
(٢) البخارى تفسير سورة « والنجم » ٦/١٧٦ .
(٣) النسائى ، كتاب الإيمان، باب « الحلف باللات والعزى » : ٧ / ٨ .
(٤) الأصنام للكلبى : ١٣ .
(٥) البخارى ، تفسير سورة (والنجم) : ٦ / ١٧٦ – ١٧٧ .
(٦) سيرة ابن هشام : ١ / ٨٣ – ٨٤ ، ٢ / ٤٣٦ .
(٧) الأصنام للكلبى : ٢٦ .

فإنك لم تصنع شيئاً » . فرجع خالد ، فلما أبصرته السدنة ـ وهم حَجَبَتها ـ أمعنوا في الحِيَل وهم يقولون : « يا عزى ، يا عزى » . فأتاها خالد فاذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفِن التراب على رأسها ، فغمسها بالسيف حتى قتلها ، ثم رجع إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره ، فقال : « تلك العزى » .

قال ابن إسحاق : وكانت اللات لثقيف بالطائف ، وكان سَدَنتها وحجابها بني مُعَتِّب(١) .

قلت : وقد بعث إليها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب ، فهدماها وجعلا مكانها مسجد الطائف .

قال ابن إسحاق : وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المُشَلَّل بقديد ، فبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبا سفيان صخر بن حرب فهدمها . ويقال : على بن أبي طالب (٢) .

قال : وكانت ذو الخَلَصة لدَوس وخثعم وبَجيلة ، ومن كان ببلادهم من العرب بِتَبَالة (٣) .

قلت : وكان يقال لها : الكعبة اليمانية ، وللكعبة التي بمكة الكعبة الشامية .

فبعث إليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جرير بن عبد الله البجلي فهدمه(٤) .

قال : وكانت فَلْس (٥) لطيء ولمن يليها بجبلي طيء من (٦) سَلمى وأجا .

قال ابن هشام : فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث إليه على بن أبي طالب فهدمه ، واصطفى منه سيفين : الرَّسُوب والمِخْذَم ، فنفَّله إياهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فهما سيفا على (٧) .

قال ابن إسحاق : وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له : ريام (٧) : وذكر أنه كان به كلب أسود ، وأن الحبرين اللذين ذهبا مع [تبع] استخرجاه وقتلاه ، وهدما البيت (٨) .

قال ابن إسحاق : وكانت « رُضَاء » بيتا لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، ولها يقول المستوغر بن ربيعة ابن كعب بن سعد حين هدمها في الإسلام :

وَلَقَدْ شَدَدْتُ عَلَى رُضَاء شَدَّةً فَتَرَكْتُها قَفْراً بِقَاعٍ أسحَمَا

---

(١) سيره ابن هشام : ١ / ٨٥ . وفي كتاب الأصنام للكلبي ١٦ : « وكان سدنتها من ثقيف بنو عتاب بن مالك » .
(٢) سيرة ابن هشام : ١ / ٨٥ ـ ٨٦ ، وانظر الأصنام الكلبي : ١٥ .
(٣) تبالة : موضع بين مكة واليمن . انظر الأصنام : ٣٤ .
(٤) سيرة ابن هشام : ١ / ٨٦ .
(٥) في المخطوطة : « قلس » ، بالقاف . والمثبت عن سيرة ابن هشام : ١ / ٨٧ ، وكتاب الأصنام للكلبي : ١٥ ، ٥٩ .
(٦) في سيرة ابن هشام : ١ / ٨٧ : « يعني سلمى » .
(٧) سيرة ابن هشام : ١ / ٨٧ .
(٨) انظر سيرة ابن هشام : ١ / ٢٧ ـ ٢٨ .

قال ابن هشام : إنه عاش ثلاثمائة وثلاثين سنة ، وهو القائل :

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ الحَيَاةِ وَطُولِهَا وَعُمِّرْتُ مِنْ عَدَدِ السِّنِينَ مِئِينَا
مائَةٌ حَدَتْهَا بَعْدَهَا مِئَتَانِ لِى [وازددت](١) مِنْ عَدَدِ الشُّهُورِ سِنِينَا
هَلْ ما بَقِى إلاَّ كَمَا قَدْ فَاتَنَا يَوْمٌ يَمُرُّ وَلَيْلَةٌ تَحْدُونَا

قال ابن إسحاق : وكان ذو الكَعَبَات لبكر وتغلب ابنى وائل ، وإياد بِسَنْداد(٢) وله يقول أعشى بنى قيس ابن ثعلبة :

بَيْنَ الخَوَرْنَقِ والسَّدِيرِ وَبَارِقٍ والبيت ذى الكَعَبَاتِ مِنْ سَنْدَادِ(٣)

ولهذا قال : (أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى ؟) .

ثم قال : (ألكم الذكر وله الأنثى ؟) ، أى : أتجعلون له ولدا ، وتجعلون ولده أنثى ، وتختارون لأنفسكم الذكور ، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت (قسمة ضيزى) ، أى : جورا باطلة ، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التى لو كانت بين مخلوقين كانت جورا وسفها .

ثم قال منكرا عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر ، من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة : (إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) ، أى : من تلقاء أنفسكم (ما أنزل الله بها من سلطان) ، أى : من حجة ، (إن يتبعون إلا الظن ، وما تهوى الأنفس) ، أى : ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم ، وإلا حظ نفوسهم فى رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين ، (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) ، أى : ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة ، ومع هذا ما اتبعوا ما جاءوهم به ، ولا انقادوا له .

ثم قال : (أم للإنسان ما تمنى) ، أى : ليس كل من تمنى خيرا حصل له ، (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب(٤)) ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال ، ولا كل من وَدَّ شيئا يحصل له :

قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق ، حدثنا أبو عَوَانة ، عن عمر بن أبى سلمة ، عن أبيه ، عن أبى هُرَيْرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى ، فإنه لا يدرى ما يكتب له من أمنيته(٥) » ، تفرد به أحمد .

---

(١) فى المخطوطة : « وعمرت من عدد » ، والمثبت عن سيرة ابن هشام .
(٢) سنداد — بكسر السين وفتحها — : منازل لإياد أسفل سواد الكوفة .
(٣) سيرة ابن هشام : ١ / ٨٧ — ٨٨ .
(٤) سورة النساء ، آية : ١٢٣ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٢ / ٣٥٧ ، ٣٨٧ .

وقوله : (فلله الآخرة والأولى) ، أى : إنما الأمر كله لله ، مالك الدنيا والآخرة ، والمتصرف فى الدنيا والآخرة ، فهو الذى ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وقوله : (وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) ، كقوله : (من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه) (١) ، (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) (٢) ، فاذا كان هذا فى حق الملائكة المقربين ، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله ، وهو لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها ، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله ، وأنزل بالنهى عن ذلك جميع كتبه ؟

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى منكرا على المشركين فى تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى ، وجعلهم لها أنها بنات الله كما قال : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون (٣)) . ولهذا قال : (وما لهم به من علم) أى : ليس لهم علم صحيح يُصَدِّق ما قالوه ، بل هو كذب وزور وافتراء وكفر شنيع . (إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا) ، أى : لا يجدى شيئا ، ولا يقوم أبدا مقام الحق . وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « إياكم والظن ، فان الظن أكذب الحديث (٤) » .

وقوله : (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا) ، أى : أعرض عن الذى أعرض عن الحق واهجره .

وقوله : (ولم يرد إلا الحياة الدنيا) ، أى : وإنما أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا ، فذاك هو غاية مالا خير فيه . ولذلك قال : (ذلك مبلغهم من العلم) ، أى : طلب الدنيا والسعى لها هو غاية ما وصلوا إليه . وقد روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة قالت : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له (٥) » وفى الدعاء المأثور : « اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا (٦) » .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٥٥ .

(٢) سورة سبأ ، آية : ٢٣ .

(٣) سورة الزخرف ، آية : ١٩ .

(٤) البخارى ، كتاب الوصايا ، باب قول الله تعالى : (من بعد وصية يوصى بها أو دين) : ٤ / ٥ . وكتاب النكاح ، باب « لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع » : ٧ / ٢٤ . وكتاب الفرائض ، باب « تعليم الفرائض » : ٨ / ١٨٥ . وكتاب الأدب ، باب « ما ينهى عن التحاسد والتدابر » : ٨ / ٢٣ . ومسلم ، كتاب البر ، باب « تحريم الظن والتجسس » : ٨/١٠ وتحفة الأحوذى ، أبواب البر ، باب « ما جاء فى ظن السوء » ، الحديث ٢٠٥٥ : ٦ - ١٢٣ - ١٢٤ . وقال الترمذى : « حسن صحيح » . ومسند الإمام أحمد عن أبى هريرة : ٢ / ٢٤٥ ، ٢٨٧ ، ٣١٢ ، ٣٤٢ ، ٤٧٠ ، ٤٨٢ ، ٤٩١ - ٤٩٢ ، ٥٠٤ ، ٥١٧ ، ٥٣٩ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٦ / ٧١ .

(٦) تحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٥٦٩ : ٩ / ٤٧٥ - ٤٧٧ ، وقال الحافظ أبو العلى صاحب تحفة الأحوذى معقبا على قول الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » ، قال : « وأخرجه النسائى والحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى » .

وقوله : (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بمن اهتدى) ، أى : هو الخالق لجميع المخلوقات ، والعالم بمصالح عباده ، وهو الذى يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته ، وهو العادل الذى لا يجور أبدا ، لا فى شرعه ولا فى قدَره .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَٰحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰٓ (٣٢)

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه الغنى عما سواه ، الحاكم فى خلقه بالعدل ، وخلَق الخلق بالحق ، (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) ، أى : يجازى كلا بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، أى : لا يتعاطون المحرمات والكبائر وإن وقع منهم بعض الصغائر فانه يغفر لهم ويستّر عليهم ، كما قال فى الآية الأخرى : (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ، نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) (١) . وقال هاهنا : (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم) . وهذا استثناء منقطع ، لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن ابن طاوس ، [عن أبيه ، عن ابن عباس قال : ما رأيتُ شيئاً أشبهَ باللمَم مما قال أبو هريرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم] (٢) قال : « إن الله - تعالى - كتب على ابن آدم حظه من الزنا ، أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تَمَنَّى وتشتهى ، والفرج يصَدّق ذلك أو يكذبه (٣) » .

أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث عبد الرزاق ، به (٤) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن ثور ، حدثنا معمر ، عن الأعمش ، عن أبى الضّحَى أن ابن مسعود قال : « زنا العينين النظر ، وزنا الشفتين التقبيل ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين المشى ، ويُصدّق ذلك الفرجُ أو يُكذّبه ، فان تقدم بفرجه كان زانيا ، وإلا فهو اللّمَم (٥) » . وكذا قال مسروق ، والشعبى .

---

(١) سورة النساء ، آية : ٣١ .
(٢) ما بين القوسين ساقط من مخطوطة الأزهر ، وقد أثبتناه من مسند الإمام أحمد والطبعات السابقة .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٢٧٦/٢ . وانظر أيضا : ٣٤٣/٢ ، ٣٧٩ ، ٤٣١ ، ٥٣٦ .
(٤) البخارى ، كتاب الاستئذان ، باب « زنا الجوارح دون الفرج » : ٦٧/٨ ، وكتاب القدر ، باب : (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) : ١٥٦/٨ . ومسلم ، كتاب القدر ، باب « قدر على بن آدم حظه من الزنا وغيره » : ٥٢/٨ .
(٥) تفسير الطبرى : ٣٩/٢٧ .

وقال عبد الرحمن بن نافع ــ الذى يقال له : ابن لبابة (١) الطائفى ــ قال : سألت أبا هريرة عن قول الله : (إلا اللمم)، قال : القبلة ، والغمزة ، والنظرة ، والمباشرة ، فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل ، وهو الزنا(٢) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (إلا اللمم) ، إلا ماسلف . وكذا قال زيد بن أسلم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن [المثنى](٣) ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن منصور ، عن مجاهد أنه قال : فى هذه الآية : (إلا اللمم) ، قال : الذى يلم بالذنب ثم يدَعه ، قال الشاعر :

إنْ تَغْفِرِ اللهُمَّ تَغْفِرْ جَمّاً وَأىّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا ؟!

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن مجاهد فى قول الله : (إلا اللمم) ، قال : الرجل يلمّ بالذنب ثم ينزع عنه ، قال : وكان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت وهم يقولون :

إنْ تَغْفِرِ اللهم تَغْفِرْ جَمّاً وَأىّ عَبدٍ لَكَ ما أَلَمَّا !

وقد رواه ابن جرير وغيره مرفوعا (٤) .

قال ابن جرير : حدثنى سليمان بن عبد الجبار ، حدثنا أبو عاصم ، حدثنا زكريا بن إسحاق ، عن عمرو بن دينار ، عن عطاء ، عن ابن عباس : (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم) ، قال : هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب . وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إنْ تَغْفِرِ اللهُمَّ تَغْفِرْ جَمّاً وَأىّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا ؟

وهكذا رواه الترمذى ، عن أحمد بن عثمان أبى عثمان البصرى ، عن أبى عاصم النبيل . ثم قال : « هذا حديث حسن صحيح غريب ، لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق (٥) » . وكذا قال البزار : لا نعلمه يُروَى متصلا إلا من هذا الوجه . وساقه ابن أبى حاتم والبغوى من حديث أبى عاصم النبيل ، وإنما ذكره البغوى فى [تفسير] « سورة تنزيل » ، وفى صحته مرفوعا نظر .

ثم قال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع ، حدثنا يزيد بن زُرَيع ، حدثنا يونس ، عن الحسن ، عن أبى هريرة ــ أراه رفعه ــ : (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم) ، قال : اللمّةُ من الزنا ثم يتوب ولا يعود ، واللمة من السرقة ثم يتوب ولا يعود ، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود ، قال : ذلك الإلمام (٦) .

وحدثنا ابن بشار ، حدثنا ابن أبى عَدىّ ، عن عوف عن الحسن ، فى قول الله : (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم) ، قال : اللمم من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر ، ثم لا يعود.

---

(١) فى المخطوطة : « لبانه » . والمثبت عن تفسير الطبرى . وفى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ٢/٢ / ٢٩٤ : « عبد الرحمن ابن نافع بن لبيبة الطائفى » . وقال السيد محقق الجرح معقبا على « لبيبة » : « بلا نقط فى الأصابة ، والمعروف بهذا الشكل (لبيبة) والله أعلم » .

(٢) تفسير الطبرى : ٣٩/٢٧ .

(٣) فى المخطوطة : « ابن عيسى » . والمثبت عن الطبرى .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٧ / ٣٩ / ٤٠ .

(٥) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة النجم ، الحديث ٣٣٣٨ : ٩ / ١٧٢ .

(٦) تفسير الطبرى : ٢٧ / ٣٩ .

وحدثني يعقوب ، حدثنا ابن علية ، عن أبي رجاء ، عن الحسن في قول الله : (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم) ، قال : كان أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقولون : هو الرجل يصيب اللمة من الزنا ، واللمة من شرب الخمر ، فيجتنبها ويتوب منها (١) .

وقال ابن جرير ، عن عطاء ، عن ابن عباس : (إلا اللمم) : يلم بها في الحين . قلت : الزنا ؟ قال : الزنا ثم يتوب (١) .

وقال ابن جرير أيضا : حدثنا أبو كريب ، حدثنا ابن عيينة ، عن عمرو ، عن عطاء ، عن ابن عباس قال : اللمم : الذي يلم المرّةَ .

وقال السدي : قال أبو صالح : سُئلتُ عن اللمم فقلت : هو الرجل يصيب الذنب ثم يتوب . وأخبرتُ بذلك ابنَ عباس فقال : لقد أعانك عليها مَلَك كريم . حكاه البغوي .

وروى ابن جرير من طريق المثنى بن الصباح — وهو ضعيف — عن عمرو بن شعيب : أن عبد الله بن عمرو قال : اللمم : مادون الشرك (١) .

وقال سفيان الثوري ، عن جابر الجُعْفي ، عن عطاء ، عن ابن الزبير : (إلا اللمم) ، قال : ما بين الحدين : حد الدنيا (٢) وعذاب الآخرة . وكذا رواه شعبة ، عن الحكم ، عن ابن عباس ، مثله سواء (١) .

وقال العوفي ، عن ابن عباس في قوله : (إلا اللمم) : كل شيء بين الحدين : حد الدنيا وحد الآخرة ، تكفره الصلوات ، وهو اللمم ، وهو دون كل موجب ، فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا ، وأما حد الآخرة فكل شيء ختمه الله بالنار ، وأخر عقوبته إلى الآخرة (١) . وكذا قال عكرمة ، وقتادة ، والضحاك .

وقوله : (إن ربك واسع المغفرة) ، أي : رحمته وَسِعَت كل شيء ، ومغفرته تَسَع الذنوب كلها لمن تاب منها ، كقوله : (قل : يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم (٣)) .

وقوله : (هو أعلم بكم ، إذ أنشأكم من الأرض) ، أي : هو بصير بكم ، عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التي تصدر عنكم وتقع منكم ، حين أنشأ أباكم آدم من الأرض ، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذّر (٤) ، ثم قسمهم فريقين : فريقا للجنة وفريقا للسعير . وكذا قوله : (وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم) : قد كتب الملك الذي يُوكَّل به رزقَه وأجلَه وعمله ، وشقي أم سعيد ؟ .

قال مكحول : كنا أجنة في بطون أمهاتنا ، فسقط منا من سقط ، وكنا فيمن بقي ثم كنا مراضع فهلك منا من هلك . وكنا فيمن بقي ثم صرنا يَفَعَةً ، فهلك منا من هلك . وكنا فيمن بقي ثم صرنا شباباً فهلك منا من هلك . وكنا فيمن بقي ثم صرنا شيوخا — لا أبالك — فماذا بعد هذا ننتظر ؟ رواه ابن أبي حاتم عنه .

---

(١) تفسير الطبري : ٢٧ / ٤٠ .

(٢) في المخطوطة : « حد الزنا » . والمثبت من تفسير الطبري .

(٣) سورة الزمر ، آية : ٥٣ .

(٤) الذر : النمل الأحمر الصغير .

وقوله : (فلا تزكوا أنفسكم) ، أى : تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم ، (هو أعلم بمن اتقى) . كما قال : (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ، بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا (١)) .

وقال مسلم فى صحيحه : حدثنا عَمْرو الناقد ، حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا الليث ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن محمد بن عمرو بن عطاء قال : سميتُ ابنتى بَرّةَ ، فقالت لى زينب بنت أبى سلمة : إن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ نهى عن هذا الاسم ، وسُمّيت بَرّة فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « لا تزكوا أنفسكم ، إن الله أعلم بأهل البر منكم » . فقالوا : بم نسميها ؟ قال : « سموها زينب (٢) » .

وقد ثبت أيضا فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال : حدثنا عفان ، حدثنا وُهَيب ، حدثنا خالد الحذاء ، عن عبد الرحمن بن أبى بكرة ، عن أبيه قال : مدح رجل رجلاً عند النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « ويلك ! قطعتَ عنق صاحبك ــ مراراً ــ إذا كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة فليقل : أحسب فلانا ــ والله حسيبه ، ولا أزكى على الله أحدا ــ أحسبه كذا وكذا ، إن كان يعلم ذلك (٣) » .

ثم رواه عن غُندَر ، عن شعبة ، عن خالد الحذاء ، به (٤) : [وكذا رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن ماجه ، من طرق ، عن خالد الحذاء ، به (٥)] ؛

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، وعبد الرحمن قالا : حدثنا سفيان ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن همام بن الحارث قال : جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه فى وجهه ، قال : فجعل المقداد بن الأسود يحثو فى وجهه التراب ويقول : امرنا رسولُ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذا لقينا المداحين أن نحثوَ فى وجوههم التراب (٦)

ورواه مسلم وأبو داود ، من حديث الثورى ، عن منصور به (٧) .

---

(١) سورة النساء ، آية : ٤٩ .

(٢) مسلم ، كتاب الآداب ، باب « استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن ، وتغيير اسم برة إلى زينب وجويرية ونحوهما » : ٦/١٧٣ – ١٧٤ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٥ / ٤٥ – ٤٦ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٥ / ٤١ .

(٥) البخارى ، كتاب الأدب ، باب « ما يكره من التمادح » : ٨/٢٢ . وباب « ما جاء فى قول الرجل : ويلك » : ٨ / ٤٦ – ٤٧ . ومسلم ، كتاب الزهد ، باب « النهى عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة على الممدوح » : ٨/٢٢٧ – ٢٢٨ . وسنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « فى كراهية التمادح » . وابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب « المدح » ، الحديث ٣٧٤٤ : ٢/١٢٣٢ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٦/٥ .

(٧) مسلم ، فى الكتاب والباب السابقين : ٨/٢٢٨ ، وسنن أبى داود فى الكتاب والباب السابقين أيضا .

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾

يقول تعالى ذاما لمن تولى عن طاعة الله : (فلا صدق ولاصلى . ولكن كذب وتولى (١)) : (وأعطى قليلا وأكدى)، قال ابن عباس : أطاع قليلا ثم قطعه (٢) . وكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، وقتادة ، وغير واحد — قال عكرمة ، وسعيد : كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئرا ، فيجدون فى أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل ، فيقولون : « أكدينا » ، ويتركون العمل .

وقوله : (أعنده علم الغيب فهو يرى ؟) ، أى : أعند هذا الذى قد أمسك يده خشية الإنفاق ، وقطع معروفه ، أعنده علم الغيب أنه سينفد مافى يده ، حتى قد أمسك عن معروفه ، فهو يرى ذلك عيانا ؟! أى : ليس الأمر كذلك ، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلا وشحا وهلعا ، ولهذا جاء فى الحديث : « أنفق بلالا ، ولا تخش من ذى العرش إقلالا (٣) » ، وقد قال الله تعالى : (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين (٤)) :

وقوله : (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى • وإبراهيم الذى وفى ؟)، قال سعيد بن جبير ، والثورى : أى بلّغ جميع ما أمر به :

وقال ابن عباس : (وفى) لله بالبلاغ . وقال سعيد بن جُبَير : (وفى) ما أمر به : وقال قتادة : (وفى) طاعة الله ، وأدى رسالته إلى خلقه . وهذا القول هو اختيار ابن جرير (٥) ، وهو يشمل الذى قبله ، ويشهد له قوله تعالى : (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال : إنى جاعلك للناس إماما (٦)) ، فقام بجميع الأوامر ، وترك جميع النواهى ، وبلّغ الرسالة على التمام والكمال ، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماما يقتدَى به فى جميع أحواله وأفعاله وأقواله ، قال الله تعالى : (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين (٧)) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عوف الحمصى ، حدثنا ... (٨) ، حدثنا آدم بن أبى إياس العسقلانى ، حدثنا حماد

---

(١) كذا ، والآيتان من سورة القيامة : ٣١ — ٣٢ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٧ / ٤٢ .

(٣) أخرجه البزار ، والطبرانى فى المعجم الكبير ، وأبو يعلى . انظر الكنز الثمين لعبد الله بن الصديق ، الحديث ١٢٣٩ : ١٩٣ .

(٤) سورة سبأ ، آية : ٣٩ .

(٥) تفسير الطبرى : ٢٧ / ٤٣ .

(٦) سورة البقرة ، آية : ١٢٤ .

(٧) سورة النحل ، آية : ١٢٣ .

(٨) كذا فى مخطوطة الأزهر .

ابن سلمة ، حدثنا جعفر بن الزبير ، عن القاسم ، عن أبي أمامة قال : تلا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ هذه الآية : (وإبراهيم الذى وفى) ، قال : « أتدرى ما وفى ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « وَفَّى عمل يومه بأربع ركعات من أول النهار » .

ورواه ابن جرير من حديث جعفر بن الزبير ، وهو ضعيف (١) .

وقال الترمذى فى جامعه : حدثنا أبو جعفر السِّمنانى (٢) حدثنا أبو مسهر ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن بَحِير ابن سعد ، عن خالد بن معدان ، عن جبير بن نُفَير ، عن أبى الدرداء وأبى ذر ، عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن الله عز وجل أنه قال : « ابن آدم ، اركع لى أربع ركعات من أول النهار ، أكفك آخره (٣) » .

قال ابن أبى حاتم رحمه الله : حدثنا أبى ، حدثنا الربيع بن سليمان ، حدثنا أسد بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا زبان ابن فائد ، عن سهل بن معاذ بن أنس ، عن أبيه ، عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه قال : « ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذى وفى ؟ إنه كان يقول كلما أصبح وأمسى : (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) . حتى ختم الآية »

ورواه ابن جرير عن أبى كريب [عن رشدين بن سعد ، عن زَبَّان (٤) به] .

ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه فى صحف إبراهيم وموسى فقال : (ألا تزر وازرة وزر أخرى) ، أى : كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها ، لا يحمله عنها أحد كما قال : (وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى) ، (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) أى : كما لا يحمل عليه وزر غيره ، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه . ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعى ــ رحمه الله ــ ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم . ولهذا لم يندب إليه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أمته ولا حثهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ ولو كان خيرا لسبقونا إليه ، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء ، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ، ومنصوص من الشارع عليهما .

وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم ينتفع به (٥) » ــ فهذه الثلاثة فى الحقيقة هى من سعيه وكده وعمله ، كما جاء فى الحديث : « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه (٦)

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٧ / ٤٣ .

(٢) فى تحفة الأحوذى : « حدثنا أبو جعفر السمنانى ، أخبرنا محمد بن الحسين ، أخبرنا أبو مسهر » . ونحسب أن صواب ما فى التحفة : « حدثنا أبو جعفر السمنانى محمد بن جعفر ، أخبرنا أبو مسهر » ؛ ففى الخلاصة أن أبا جعفر السمنانى هو محمد بن جعفر ، يروى عن أبى مسهر .

(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب الفهر ، باب « ما جاء فى صلاة الضحى » ، الحديث ٤٧٣ : ٢ / ٥٨٥ ، وقال الترمذى : « حديث غريب » .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٧ / ٤٣ . ووقع فى مسنده : « عن سهل بن معاذ ، عن أنس » ، والصواب ما هنا ، انظر الخلاصة .

(٥) مسلم ، كتاب الوصية ، باب « ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته » : ٥ / ٧٣ .

(٦) النسائى ، كتاب « البيوع » ، باب « الحث على الكسب » : ٧ / ٢٤٠ / ٢٤١ . وابن ماجه ، كتاب التجارات ، باب « الحث على المكاسب » ، الحديث ٢١٣٧ : ٢ / ٧٢٣ . ومسند الإمام أحمد عن عائشة : ٦ / ٣١ ، ٤٢ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ــ ١٩٣ ــ ٢٢٠ .

والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه ، وقد قال تعالى : (إنا نحن نحيي الموتى ، ونكتب ما قدموا وآثارهم (١)) ... الآية . والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده ، هو أيضا من سعيه وعمله ، وثبت في الصحيح ، « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا (٢) » .

وقوله : (وأن سعيه سوف يرى) ، أي : يوم القيامة كما قال تعالى : (وقل : اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون (٣)) ، أي : فيخبركم به ، ويجزيكم عليه أتم الجزاء ، إن خيراً فخير ، وإن شرا فشر . وهكذا قال هاهنا : (ثم يجزاه الجزاء الأوفى) ، أي : الأوفر .

وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى : (وان إلى ربك المنتهى) ، أي : المعاد يوم القيامة .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا سُوَيد بن سعيد ، حدثنا مسلم بن خالد ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن عمرو ابن ميمون الأوْديّ قال : قام فينا معاذ بن جبل فقال : يا بني أود ، إني رسول رسول الله إليكم ، تعلمون أن المعاد إلى الله ، إلى الجنة أو إلى النار .

وذكر البغوي من رواية أبي جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب ، عن النبي — صلى الله عليه وسلم — في قوله : (وأن إلى ربك المنتهى) ، قال : لا فكرة في الرب .

قال البغوي : وهذا مثلُ ماروي عن أبي هُرَيرة مرفوعا : « تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق ، فإنه لا تحيط به الفكرة » .

كذا أورده ، وليس بمحفوظ بهذا اللفظ ، وإنما الذي في الصحيح : « يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربك ؟ فإذا بلغ أحدكم ذلك فليستعذ بالله ولْينته (٤) » . وفي الحديث الآخر الذي

---

(١) سورة « يس » ، آية : ١٢ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب « لزوم السنة » . والنسائي ، كتاب الزكاة ، باب « التحريض على الصدقة » : ٥ / ٧٦ — ٧٧ . وابن ماجه ، المقدمة ، باب « من سن سنة حسنة أو سيئة » ، الأحاديث ٢٠٣ — ٢٠٧ : ١ / ٧٤ — ٧٥ . ومسند الإمام أحمد عن أبي هريرة : ٢ / ٣٨٠ ، ٣٩٧ ، ٥٠٤ — ٥٠٥ ، ٥٢٠ — ٥٢١ .

(٣) سورة التوبة ، آية : ١٠٥ .

(٤) البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب « صفة إبليس وجنوده » : ٤ / ١٤٩ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها » : ١ / ٨٤ .

فى [السنن] (١) : « تفكروا فى مخلوقات الله ، ولا تفكروا فى ذات الله ، فإن الله خلق ملكا ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرةُ ثلاثمائة سنة » ، أو كما قال .

وقوله : (وأنه هو أضحك وأبكى) ، أى : خلق فى عباده الضحك والبكاء وسببهما وهما مختلفان ، (وأنه هو أمات وأحيا) ، كقوله : (الذى خلق الموت والحياة (٢)) (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من نطفة إذا تمنى) ، كقوله : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى (٣)) ؟ .

وقوله : (وأن عليه النشأة الأخرى) ، أى : كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة ، وهى النشأة الآخرة يوم القيامة ، (وأنه هو أغنى وأقنى) ، أى : ملّك عباده المال ، وجعله لهم قُنْيَةً مقيما عندهم ، لا يحتاجون إلى بيعه ، فهذا تمام النعمة عليهم (٤) . وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين ، منهم أبو صالح ، وابن جرير ، وغيرهما . وعن مجاهد : (أغنى) : موّل ، (وأقنى) : أخدم . وكذا قال قتادة .

وقال ابن عباس ، ومجاهد أيضا : (أغنى) : أعطى ، (وأقنى) : رَضّى .

وقيل : معناه أغنى نفسه وأفقر الخلائق إليه ، قاله الحضرمى بن لاحق .

وقيل : (أغنى) من شاء من خلقه و (أقنى) : أفقر من شاء منهم ، قاله ابن زيد . حكاهما ابن جرير (٤) ، وهما بعيدان من حيث اللفظ .

وقوله : (وأنه هو رب الشعرى) ، قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن زيد وغيرهم : هو هذا النجم الوقاد الذى يقال له « مرزم الجوزاء » ، كانت طائفة من العرب يعبدونه .

(وأنه أهلك عادا الأولى) ، وهم : قوم هود . ويقال لهم : عاد بن إرم بن سام بن نوح ، كما قال تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد ؟ (٥)) ، فكانوا من أشد الناس وأقواهم وأعتاهم على الله وعلى رسوله ، فأهلكهم الله (بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما (٦)) .

وقوله : (وثمود فما أبقى) ، أى : دمرهم فلم يبق منهم أحدا ، (وقوم نوح من قبل) ، أى : من قبل هؤلاء ، (إنهم كانوا هم أظلم وأطغى) ، أى : أشد تمردا من الذين من بعدهم ، (والمؤتفكة أهوى) ، يعنى مدائن لوط ، قلبها

---

(١) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة . ومكانه فى المخطوطة بياض ، ولم نجد الحديث فى السنن ، ونحسب أن إثبات كلمة « السنن » من عمل الناسخ أو الطابع ، والذى وجدناه فى سنن أبى داود ، كتاب السنن ، باب « فى الجهمية » ، عن جابر بن عبد الله ، عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام » . وفى المسند عن ابن عمر نحوه : ٢/٢٦ ، وعن ابن عباس فى مسند عائشة نحوه أيضا : ٦/١١٦ – ١١٧ .

(٢) سورة الملك ، آية : ٢ .

(٣) سورة القيامة ، الآيات : ٣٦ – ٤٠ .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٧/٤٤ – ٤٥ .

(٥) سورة الفجر ، الآيات : ٦ – ٨ .

(٦) سورة الحاقة ، آية : ٦ ، ٧ .

عليهم فجعل عاليها سافلها ، وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود . ولهذا قال : (فغشاها ما غشى) ، يعنى من الحجارة التى ارسلها عليهم (وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين (١)) .

قال قتادة : كان فى مدائن لوط أربعة آلاف ألف إنسان فانضرم عليهم الوادى شيئا من نار ونفط وقطران كفم الأتون . رواه ابن أبى حاتم ، عن أبيه ، عن محمد بن وهب بن عطية ، عن الوليد بن مسلم ، عن خليد ، عنه ، به . وهو غريب جدا .

(فبأى آلاء ربك تتمارى ؟) ، أى : فبأى نعم الله عليك أيها الإنسان تمترى ؟ قاله قتادة .

وقال ابن جريج : (فبأى آلاء ربك تتمارى ؟) يا محمد . والأول أولى ، وهو اختيار ابن جرير (٢) .

هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾ ۩

(هذا نذير) ، يعنى محمدا — صلى الله عليه وسلم — (من النذر الأولى) ، أى : من جنسهم ، أرسل كما أرسلوا ، كما قال تعالى : (قل ما كنت بدعا من الرسل (٣)) .

(أزفت الآزفة) ، أى : اقتربت القريبة ، وهى القيامة ، (ليس لها من دون الله كاشفة) ، أى : لا يدفعها إذا [من دون] الله أحد ، ولا يطلع على علمها سواه .

ثم قال تعالى منكرا على المشركين فى استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهيهم : (تعجبون) من أن يكون صحيحا ، (وتضحكون) منه استهزاء وسخرية ، (ولا تبكون) ، أى : كما يفعل الموقنون به ، كما أخبر عنهم : (ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا (٤)) .

وقوله : (وأنتم سامدون) ، قال سفيان الثورى ، عن أبيه ، عن (٥) ابن عباس قال : الغناء هى يمانية ، اسمد لنا : غن لنا (٦) . وكذا قال عكرمة .

وفى رواية عن ابن عباس : (سامدون) : معرضون . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة . وقال الحسن : غافلون . وهو رواية عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب . وفى رواية عن ابن عباس : تستكبرون . وبه يقول [السدى] .

ثم قال آمرا لعباده بالسجود له والعبادة المتابعة لرسوله — صلى الله عليه وسلم — والتوحيد والإخلاص : (فاسجدوا لله واعبدوا) ، أى : فاخضعوا له وأخلصوا ووحدوا .

---

(١) سورة الشعراء ، آية : ١٧٣ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٧ / ٤٧ .
(٣) سورة الأحقاف ، آية : ٩ .
(٤) سورة الإسراء ، آية : ١٠٩ .
(٥) فى تفسير الطبرى : « عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس » .
(٦) تفسير الطبرى : ٢٧ / ٤٨ .

قال البخارى : حدثنا أبو معمر ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا أيوب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : سجد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالنجم ، وسَجَد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس (١) . انفرد به دون مسلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن خالد ، حدثنا رباح ، عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن عكرمة بن خالد ، عن جعفر بن المطلب بن أبى وَدَاعة ، عن أبيه قال : قرأ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بمكة سورة النجم ، فسجد وسَجَد مَن عنده ، فرفعتُ رأسى وأبيتُ أن أسجد ، ولم يكن أسلم يومئذ المطلب ، فكان بعد ذلك لا يسمع أحدا يقرؤها إلا سجد معه (٢) .

وقد رواه النسائى فى الصلاة ، عن عبد الملك بن عبد الحميد ، عن أحمد بن حنبل (٣) به .

ذكر حديث له مناسبة بما تقدم من قوله تعالى : (هذا نذير من النذر الأولى . أزفت الآزفة) ، فإن النذير هو : الحَذِرُ لما يعاين من الشر ، الذى يخشى وقوعه فيمن أنذرهم ، كما قال : (إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد (٤)) . وفى الحديث : « أنا النذير العريان (٥) » . أى : الذى أعجله شدةُ ما عاين من الشر عن أن يلبس عليه شيئاً ، بل بادر إلى إنذار قومه قبل ذلك ، فجاءهم عُريانا مسرعا ، مناسب لقوله : أزفت الآزفة) ، أى : اقتربت القريبة ، يعنى يوم القيامة . كما قال فى أول السورة التى بعدها : (اقتربت الساعة) ، قال الإمام أحمد :

حدثنا أنس بن عياض ، حدثنى أبو حازم (٦) ــ لا أعلم إلا عن سهل بن سعد ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « إياكم ومحقرات الذنوب فإنما مثل محقرات الذنوب (٧) كمثل قوم نزلوا بطن واد ، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود ، حتى أنضجوا خُبْزَتَهم ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه » . وقال أبو حازم : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال أبو ضَمْرَةَ (٨) : لا أعلم إلا عن سهل بن سعد ــ قال : « مثلى ومثل الساعة كهاتين » ــ وفرق بين أصبعيه الوسطى والتى تلى الإبهام ــ ثم قال : (مثلى ومثل الساعة كمثل فرَسَى رهَان » ، ثم قال : « مثلى ومثل الساعة كمثل رجل بعثه قومه طَلِيعةً ، فلما خشى أن يُسْبَقَ ألاح بثوبه : أتيتم أتيتم » . ثم يقول رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أنا ذلك » . وله شواهد من وجوه أخر من صحاح وحسان ولله الحمد والمنة ، وبه الثقة والعصمة .

آخر سورة النجم ولله الحمد والمنة

---

(١) البخارى ، تفسير سورة النجم : ٦/١٧٧ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٦/٣٩٩ ــ ٤٠٠ .

(٣) النسائى ، كتاب الافتتاح ، باب السجود فى (والنجم) : ٢/١٦٠ .

(٤) سورة سبأ ، آية : ٤٦ .

(٥) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « الانتهاء من المعاصى » : ٨/١٢٦ ، وكتاب الاعتصام ، باب « الاقتداء بسنن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ » : ٩/١١٥ . ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب « شفقته ــ صلى الله عليه وسلم ــ على أمته ، ومبالغته فى تحذيرهم مما يضرهم » : ٧/٦٣ .

(٦) فى المخطوطة : « أبو حاتم » . والمثبت عن المسند .

(٧) قوله : « فإنما مثل محقرات الذنوب » ساقط من مسند الإمام أحمد ، وهو سقط نظر .

(٨) أبو ضمرة هو أنس بن عياض .

تفسير سورة القمر

وهى مكية

قد تقدم فى حديث (١) أبى واقد : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان يقرأ بقاف ، واقتربت الساعة ، فى الأضحى والفطر ، وكان يقرأ بهما فى المحافل الكبار ، لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد وبدء الخلق ، وإعادته ، والتوحيد وإثبات النبوات ، وغير ذلك من المقاصد العظيمة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) ﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها ، كما قال تعالى : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) ، وقال : (اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون) . وقد وردت الأحاديث بذلك ، قال الحافظ أبو بكر البزار :

حدثنا محمد بن المثنى وعمرو بن على قالا : حدثنا خلف بن موسى ، حدثنى أبى ، عن قتادة ، عن أنس : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خَطَب أصحابه ذات يوم ، وقد كادت الشمس أن تَغْرُبَ فلم يبق منها إلا شفٌ (٢) يسير ، فقال : « والذى نفسى بيده ، ما بقى من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه ، وما نرى من الشمس إلا يسيرا » .

قلت : هذا حديث مداره على خلف بن موسى بن خلف العَمِّى ، عن أبيه . وقد ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : ربما أخطأ .

حديث آخر يعضد الذى قبله ويفسره ، قال الامام أحمد : حدثنا الفضل بن دكين ، حدثنا شريك ، حدثنا سلمة ابن كهيل ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : كنا جلوسا عند النبى صلى الله عليه وسلم – والشمس على قُعَيقِعان (٣) بعد العصر ، فقال : « ما أعماركم فى أعمار من مضى إلا كما بقى من النهار فيما مضى (٤) » .

---

(١) أنظر : ٧ / ٣٧١ .

(٢) فى المخطوطة : « سف » ، بالسين المهملة . وما أثبتناه عن النهاية ، قال ابن الأثير : الشف : بقية النهار .

(٣) قعيقعان : جبل بمكة .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢/١١٥ – ١١٦ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسين ، حدثنا محمد بن مُطَرِّف ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : « بُعثتُ والساعة هكذا » . وأشار بأصبعيه : السبابة والوسطى (١) .

أخرجاه من حديث أبي حازم سلمة بن دينار (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عُبَيد ، حدثنا الأعمش ، عن أبي خالد ، عن وهب السُّوَائي قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « بعثت أنا والساعة كهذه من هذه إن كادت [لتسبقها] (٣) » – وجمع الأعمش بين السبابة والوسطى (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا الأوزاعي ، حدثني إسماعيل بن عبيد الله قال : قدم أنس بن مالك على الوليد بن عبد الملك ، فسأله : ماذا سمعت من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يذكر به الساعة ؟ فقال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : « أنتم والساعة كهاتين (٥) » .

تفرد به أحمد – رحمه الله – وشاهد ذلك أيضا فى الصحيح فى أسماء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : أنه الحاشر الذى يُحشَرُ الناس على قدميه (٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بهز بن أسد ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، حدثنا حميد بن هلال ، عن خالد بن عُمَير قال : خطب عتبة بن غَزوان – قال بهز : وقال قبل هذه المرة – خَطَبَنا رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – قال : فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد ، فان الدنيا قد آذنت بصَرْمٍ (٧) وولت حَذّاء ، ولم يبق منها إلا صُبَابة كصُبَابة الإناء يَتَصَابُّها صاحبها ، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها ، فانتقلوا بخير ما بحَضْرتكم ، فانه قد ذكر لنا أن الحجر يُلقَى من شَفير جهنم فيهوى فيها سبعين عاما ما يدرك لها قعراً ، والله لتملؤنه ، أفعجبتم ! والله لقد ذُكر لنا أن ما بين مصراعى (٨) الجنة مسيرة أربعين عاما ، وليأتين عليه يوم وهو كَظيظ (٩) الزحام (١٠) » ... وذكر تمام الحديث ، انفرد به مسلم (١١) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/٣٨٨ .

(٢) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب قول النبى – صلى الله عليه وسلم – : « بعثت أنا والساعة كهاتين » : ٨/١٣١ . ومسلم ، كتاب الفتن ، باب « قرب الساعة » : ٨/٢٠٨ .

(٣) ما بين القوسين عن المسند .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٤/٣٠٩ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣/٢٢٣ .

(٦) البخارى ، كتاب المناقب ، باب « ما جاء فى أسماء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – » : ٤/٢٢٥ . ومسلم كتاب الفضائل ، باب « فى أسمائه – صلى الله عليه وسلم » : ٧/٨٩ .

(٧) بصرم : بانقطاع . حذاء : مسرعة . والصبابة : بقية قليلة . يتصابها : يشربها .

(٨) فى المسند : « مصارع » .

(٩) أى : ممتلىء .

(١٠) مسند الإمام أحمد : ٤/١٧٤ . وانظر أيضاً : ٥/٦١ .

(١١) مسلم ، كتاب الزهد : ٨/٢١٥ – ٢١٦ .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثني يعقوب ، حدثني ابن علية ، أخبرنا عطاء بن السائب ، عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : نزلنا المدائن فكنا منها على فرسخ ، فجاءت الجمعة ، فحضر أبي وحضرت معه ، فخطبنا حذيفة فقال : ألا إن الله يقول : (اقتربت الساعة وانشق القمر) ، ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار (١) وغدا السباق ، فقلت لأبي : أيستبق الناس غدا ؟ فقال : يا بني ، إنك لجاهل ، إنما هو السباق بالأعمال . ثم جاءت الجمعة الأخرى فحضرنا فخطب حذيفة فقال : ألا إن الله — عز وجل — يقول : (اقتربت الساعة وانشق القمر) ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق ، ألا وإن الغاية النار ، والسابق من سبق إلى الجنة (٢) .

وقوله : (وانشق القمر) : قد كان هذا في زمان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة . وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال : « خمس قد مضين : الروم ، والدخان ، واللزام ، والبطشة ، والقمر (٣) » . وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي — صلى الله عليه وسلم — وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات .

ذكر الاحاديث الواردة فى ذلك

رواية انس بن مالك

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك قال : سأل أهل مكة النبي — صلى الله عليه وسلم — آية ، فانشق القمر بمكة مرتين ، فقال : (اقتربت الساعة وانشق القمر) (٤) .

ورواه مسلم ، عن محمد بن رافع ، عن عبد الرزاق (٥) .

وقال البخاري : حدثني عبد الله بن عبد الوهاب ، حدثنا بشر بن المفضل ، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبة عن قتادة ، عن أنس بن مالك : أن أهل مكة سألوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يريهم آية ، فأراهم القمر شِقَّين ، حتى رأوا حراء بينهما (٦) .

وأخرجاه أيضا من حديث يونس بن محمد المؤدب ، عن شيبان ، عن قتادة (٧) . ورواه مسلم أيضا من حديث أبي داود الطيالسي ، ويحيى القطان ، وغيرهما ، عن شعبة ، عن قتادة ، به (٧) .

---

(١) أي : اليوم العمل في الدنيا للاستباق في الجنة . والمضمار : الموضع الذي تضمر فيه الخيل . وتضمير الخيل : أن تعلف حتى تسمن ، ثم لا تعلف إلا قوتا لتخف . وقيل: تشد عليها سروجها وتجلل بالأجلة حتى تعرق تحتها ، فيذهب رهلها ويشتد لحمها .

(٢) تفسير الطبري : ٥١/٢٧ .

(٣) تقدم الحديث أول سورة الروم وخرجناه هنالك ، وشرحنا غريبه . انظر : ٣٠٥/٦ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١٦٥/٣ .

(٥) مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب « انشقاق القمر » : ١٣٣/٨ .

(٦) البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، باب « انشقاق القمر » : ٦٢/٥ .

(٧) البخاري ، تفسير سورة « اقتربت الساعة » : ١٧٨/٦ . ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب « انشقاق القمر » : ١٣٢/٨ .

رواية جبير بن مطعم رضى الله عنه :

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن كثير ، حدثنا سليمان بن كثير ، عن حُصَيْن بن عبد الرحمن ، عن محمد بن جُبَيْر ابن مُطْعِم ، عن أبيه قال : انشق القمر على عهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فصار فرقتين : فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل ، فقالوا : سحرنا (١) محمد . فقالوا : إن كان سحرنا (١) فانه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم (٢) .

تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه ، وأسنده البيهقى فى « الدلائل » من طريق محمد بن كثير ، عن أخيه سليمان بن كثير ، عن حُصَيْن بن عبد الرحمن . وهكذا رواه ابن جرير من حديث محمد بن فضيل وغيره ، عن حصين ، به (٣) . ورواه [البيهقى] أيضا من طريق إبراهيم بن طهمان وهشيم ، كلاهما عن حُصَيْن ، عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه ، عن جده فذكره (٤) .

رواية عبد الله بن عباس :

قال البخارى : حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا بكر ، عن جعفر ، عن عِرَاك بن مالك ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس قال : انشق القمر فى زمان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم (٥) .

ورواه البخارى أيضا ومسلم ، من حديث بكر بن مضر ، عن جعفر بن ربيعة ، عن عِرَاك ، به مثله (٦) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن مثنى ، حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا داود بن أبى هند ، عن على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله : (اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا : سحر مستمر) ، قال : قد مضى ذلك ، كان قبل الهجرة ، انشق القمر حتى رأوا شقيه (٧) .

وروى العَوْفى ، عن ابن عباس نحو هذا (٧) .

وقال الطبرانى : حدثنا أحمد بن عمرو البزّار ، حدثنا محمد بن يحيى القُطَعى ، حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا ابن جُرَيج ، عن عمرو بن دينار ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كُسِفَ القمر على عهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقالوا : سُحِر القمر . فنزلت : (اقتربت الساعة وانشق القمر) إلى قوله : (مستمر) .

رواية عبد الله عمر :

قال الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو بكر أحمد بن الحسن القاضى قالا : حدثنا أبو العباس الأصم ، حدثنا العباس بن محمد الدُّورى ، حدثنا وَهْب بن جَرير ، عن شُعْبة ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن عبد الله ابن عُمَر فى قوله تعالى : (اقتربت الساعة وانشق القمر) ، قال : وقد كان ذلك على عهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ

---

(١) فى المخطوطة : « سحره » . والمثبت عن المسند ، و دلائل النبوة للبيهقى .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٤/٨١ ــ ٨٢ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٧/٥١ .

(٤) دلائل النبوة للبيهقى ، مخطوط بدار الكتب برقم ٧٠١ حديث ، الجزء الثانى ، ورقة : ٦٥ .

(٥) البخارى ، تفسير سورة « اقتربت الساعة » : ٦/١٧٨ .

(٦) البخارى ، كتاب المناقب ، باب « سؤال المشركين أن يريهم النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ آية ، فأراهم انشقاق القمر » : ٤/٢٥١ .

(٧) تفسير الطبرى : ٢٧/٥١ .

انشق فلقتين : فلقة من دون الجبل ، وفلقة من خلف الجبل ، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اللهم اشهد (١) » ؛

وهكذا رواه مسلم والترمذي ، من طُرُق عن شعبة ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، به . قال مسلم كرواية مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود (٢) . وقال الترمذي : « حسن صحيح (٣) .

رواية عبد الله بن مسعود .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن أبي معمر ، عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شِقَّتين حتى نظروا إليه ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اشهدوا (٤) » ؛

وهكذا رواه البخاري ومسلم ، من حديث سفيان بن عُيَيْنة ، به . وأخرجاه من حديث الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبي معمر عبد الله بن سَخْبَرَة ، عن ابن مسعود ، به (٥) .

وقال ابن جرير : حدثني عيسى بن عثمان بن عيسى الرملي ، حدثنا عمي يحيي بن عيسى ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن رجل ، عن عبد الله قال : كنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمنى فانشق القمر ، فأخذت فرقة خلف الجبل ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اشهدوا ، اشهدوا (٦) » .

قال البخاري : وقال أبو الضحى ، عن مسروق عن عبد الله : بمكة (٧) .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا أبو عَوَانة ، عن المغيرة ، عن أبي الضّحَى ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت قريش : هذا سِحْرُ ابن أبي كبشة (٨) . قال : فقالوا : انظروا ما يأتيكم به السّفّار (٩) ، فانّ محمداً لا يستطيع أن يسحرَ الناس كلَّهم . قال : فجاء السّفّار فقالوا ذلك (١٠) .

وقال البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا العباس بن محمد الدوري ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا هُشَيم ، حدثنا مغيرة ، عن أبي الضحى ، عن مسروق ، عن عبد الله قال : انشق القمر بمكة حتى

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ، مخطوط بدار الكتب برقم ٧٠١ حديث ، ورقة : ٦٥ .

(٢) مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب « انشقاق القمر » : ١٣٣/٨ .

(٣) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة القمر ، الحديث ٣٣٤٢ : ١٧٥/٩ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٣٧٧/١ .

(٥) البخاري ، تفسير سورة « اقتربت الساعة » : ١٧٨/٦ . ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب « انشقاق القمر » : ١٣٢/٨ ـ ١٣٣ .

(٦) تفسير الطبري : ٥٠/٢٧ .

(٧) البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، باب « انشقاق القمر » : ٦٢/٥ .

(٨) كان المشركون ينسبون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أبي كبشة ، وهو رجل من خزاعة خالف قريشا في عبادة الأوثان ، وعبد الشعرى ، فلما خالفهم في عبادة الأوثان شبهوه به . وقيل : إنه كان جد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قبل أمه ، فأرادوا أنه نزع في الشبه إليه .

(٩) يقال : « سفرت أسفر سفورا » : خرجت إلى السفر ، فأنا سافر ، وقوم سفر ، مثل صاحب وصحب ، وسفار مثل راكب وركاب .

(١٠) منحة المعبود ، أبواب ما جاء في معجزاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ باب : « ومن معجزاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ انشقاق القمر » : ١٢٣/٢ .

صار فرقتين ، فقال كفار قريش أهل مكة : هذا سحرٌ سحركم به ابن أبي كبشة ، انظروا السفّار فان كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق ، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحرٌ سحركم به . قال : فسُئِلَ السفّار ، قال : وقدموا من كل وجهة ، فقالوا : رأيناه (١) .

رواه ابن جرير من حديث المغيرة ، به وزاد : فأنزل الله عز وجل : (اقتربت الساعة وانشق القمر (٢)) . ثم قال ابن جرير :

حدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن علية ، أخبرنا أيوب ، عن محمد ـ هو ابن سيرين ـ قال : نبئت أن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ كان يقول : لقد انشق القمر (٣) .

وقال ابن جرير أيضا : حدثني محمد بن عمارة ، حدثنا عمرو بن حماد ، حدثنا أسباط ، عن سماك ، عن إبراهيم ، عن الأسود ، عن عبد الله قال : لقد رأيت الجبل من فرْج القمر حين انشق (٤) .

ورواه الإمام أحمد عن مُؤمَّل ، عن إسرائيل ، عن سماك ، عن إبراهيم ، عن الأسود ، عن عبد الله قال : انشق القمر على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى رأيت الجبل من بين فرجتي القمر (٥) .

وقال ليث ، عن مجاهد : انشق القمر على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصار فرقتين ، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبي بكر : « اشهد يا أبا بكر » . فقال المشركون : سُحِر القمر حتى انشق (٦) .

وقوله : (وإن يروا آية) ، أي : دليلا وحجة وبرهانا (يعرضوا) ، أي : لا ينقادون له ، بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم ، (ويقولوا : سحر مستمر) ، أي : ويقولون : هذا الذى شاهدناه من الحجج ، سحر سحرنا به .

ومعنى (مستمر) ، أي : ذاهب . قاله مجاهد ، وقتادة ، وغيرهما ، أي : باطل مضمحل ، لا دوام له .

(وكذبوا واتبعوا أهواءهم) ، أي : كذبوا بالحق إذ جاءهم ، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقلهم .

وقوله : (وكل أمر مستقر) ، قال قتادة : معناه أن الخير واقع بأهل الخير ، والشر واقع بأهل الشر .

وقال ابن جُرَيج : مستقر بأهله . وقال مجاهد : (وكل أمر مستقر) ، أي : يوم القيامة .

وقال السدى : (مستقر) ، أي : واقع .

وقوله : (ولقد جاءهم من الأنباء) ، أي : من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسل ، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب ، مما يتلى عليهم في هذا القرآن ، (ما فيه مزدجر) ، أي : ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادي على التكذيب .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ، مخطوط بدار الكتب برقم ٧٠١ حديث ، الجزء الثاني ، ورقة : ٦٤ .
(٢) تفسير الطبري : ٢٧/٥٠ – ٥١ .
(٣) تفسير الطبري : ٢٧/٥١ .
(٤) تفسير الطبري : ٢٧/٥٠ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ١/٤١٣ .
(٦) تفسير الطبري : ٢٧/٥١ – ٥٢ .

وقوله : (حكمة بالغة) ، أى : فى هدايته تعالى لمن هداه واضلاله لمن أضله ، (فما تغنى النذر ؟ ، يعنى : أىّ شئ تغنى النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة ، وخُتِم على قلبه ؟ فمن الذى يهديه من بعد الله ؟ وهذه الآية كقوله تعالى : (قل : فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين (١)) ؛ وكذا قوله تعالى : (وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون(٢)) .

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾

يقول تعالى : فتولّ يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضون ويقولون : هذا سحر مستمر ، أعرض عنهم وانتظرهم (يوم يدع الداع إلى شىء نكر) ، أى : إلى شئ منكر فظيع ، وهو موقف الحساب ، وما فيه من البلاء ، بل والزلازل والأهوال ، (خاشعاً (٣) أبصارهم) ، أى : ذليلة أبصارهم ، (يخرجون من الأجداث) ، وهى القبور ، (كأنهم جراد منتشر) ، أى : كأنهم فى انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعى (جراد منتشر) فى الآفاق ، ولهذا قال : (مهطعين) ، أى : مسرعين (إلى الداعى) ، لا يخالفون ولا يتأخرون ، (يقول الكافرون : هذا يوم عسر) ، أى : يوم شديد الهول عبوس قمطرير (فذلك يومئذ يوم عسير : على الكافرين غير يسير (٤)) .

* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾

يقول تعالى : (كذبت) قبل قومك يا محمد (قوم نوح فكذبوا عبدنا) ، أى : صرحوا له بالتكذيب واتهموه بالجنون ، (وقالوا : مجنون وازدجر) — قال مجاهد : (وازدجر) ، أى : استطير جنونا . وقيل : (وازدجر) ، أى : انتهروه وزجروه وأوعدوه : (لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين)(٥) . قاله ابن زيد ، وهذا متوجه حسن . (فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر) ، أى : إنى ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم (فانتصر) أنت لدينك . قال الله تعالى : (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) — قال السدى : هو الكثير — (وفجرنا الأرض عيونا) ، أى : نَبَعَت جميعُ أرجاء الأرض ، حتى التنانير التى هى مَحَال النيران نَبَعَت عيونا ، (فالتقى الماء) ، أى : من السماء ومن الأرض (على أمر قد قدر) ، أى : أمر مُقَدَّر .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ١٤٩ .

(٢) سورة يونس ، آية : ١٠١ .

(٣) كذا فى مخطوطة الأزهر : «خاشعا» ، وهى قراءة أبى وابن مسعود . انظر البحر المحيط لأبى حيان : ١٧٥/٨ .

(٤) سورة المدثر ، آية : ٩ — ١٠ .

(٥) تفسير الطبرى : ٥٤/٢٧ .

قال ابن جُرَيج ، عن ابن عباس : (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) كثير ، لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده ، ولا من السحاب ؛ فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم ، فالتقى الماءان على أمر قد قدر .

وروى ابن أبي حاتم أن ابن الكَوّاء سأل عليا عن المَجَرَّة فقال : هي شرج (١) السماء ، ومنها فتحت السماء بماء منهمر ؛ (وحملناه على ذات ألواح ودسر) ، قال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والقرظى ، وقتادة ، وابن زيد : هي المسامير ، واختاره ابن جرير ، قال : وواحدها دسار ، ويقال : دَسير كما يقال : حَبيك وحباك ، والجمع حُبُك (٢) .

وقال مجاهد : الدُّسر : أضلاع السفينة . وقال عكرمة والحسن : هو صدرها الذي يُضرَبُ به الموج .

وقال الضحاك : الدسر : طرفاها وأصلها .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : هو كَلْكَلُها (٣) .

وقوله : (تجري بأعيننا) ، أي : بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ، (جزاء لمن كان كفر) ، أي : جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصاراً لنوح عليه السلام .

وقوله : (ولقد تركناها آية) ، قال قتادة : أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة . والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن ، كقوله تعالى : (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) (٤) . وقال : (إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) . ولهذا قال هاهنا : (فهل من مُدَّكر) ، أي : فهل من يتذكر ويتعظ ؟

قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن الأسود ، عن ابن مسعود قال : أقرأني رسول الله صلى ـ الله عليه وسلم ـ : (فهل من مُدَّكر) .

[فقال رجل : يا أبا عبد الرحمن ، مُدَّكر أو مذَّكر ؟ قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم مدَّكر] (٥) ؛

وهكذا رواه البخاري : حدثنا يحيى ، حدثنا وكيع ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن الأسود بن يزيد ، عن عبد الله قال : قرأت على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (فهل من مُدَّكر) . فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (فهل من مُدَّكر) (٦) .

وروى البخاري أيضا من حديث شعبة ، عن أبي إسحاق ، عن الأسود ، عن عبد الله قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ : (فهل من مُدَّكر) (٦) ؟

وقال : حدثنا أبو نُعيم ، حدثنا زُهَيْر ، عن أبي إسحاق : أنه سمع رجلا يسأل الأسود : (فهل من مُدَّكر) ، أو :

---

(١) الشرجة ـ بفتح فسكون ـ : مسيل الماء من الحرة إلى السهل ، والشرج جنس لها . وفي اللسان : «والمجرة : شرج السماء ، يقال : هي بابها ، وهي كهيئة القبة . وفي حديث ابن عباس : المجرة باب السماء ، وهي البياض المعترض في السماء» .

(٢) تفسير الطبري : ٢٧/٥٥ .

(٣) الكلكل : الصدر من كل شيء .

(٤) سورة «يس» ، آية : ٤١ ـ ٤٢ .

(٥) ما بين القوسين عن مسند الإمام أحمد : ١/٣٩٥ . ونخشى أن يكون قد سقط من المخطوطة .

(٦) البخاري ، تفسير سورة «اقتربت الساعة» : ٦/١٧٩ .

(مُدَّكر) ؟ قال : سمعت عبد الله يقرأ : (فهل من مُدَّكر) . وقال سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقرؤها : (فهل من مُدَّكر) دالا (١) .

وقد أخرج مسلم هذا الحديث وأهل السنن إلا ابن ماجه ، من حديث أبي إسحاق (٢) .

وقوله : (فكيف كان عذابي ونذر) ، أي : كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي ولم يتعظ بما جاءت به نُذُرى ، وكيف انتصرت لهم ، وأخذت لهم بالثأر ؟

(ولقد يسرنا القرآن للذكر) ، أي : سهلنا لفظه ، ويسرنا معناه لمن أراده ، ليتذكر الناس ، كما قال : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) (٣) . وقال تعالى : (فإنما يَسَّرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا) (٤) .

قال مجاهد : (ولقد يسرنا القرآن للذكر) ، يعني : هوَّنَّا قراءته (٥) .

وقال السدى : يسرنا تلاوته على الألسن .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل .

قلت : ومن تيسيره — تعالى — على الناس تلاوةَ القرآن ما تقدَّم عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف (٦) » . وأوردنا الحديث بطرقه وألفاظه بما أغنى عن إعادته هاهنا ، ولله الحمد والمنة .

وقوله : (فهل من مدكر) ، أي فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يَسَّر الله حفظه ومعناه ؟

وقال محمد بن كعب القرظي : فهل من منزجر عن المعاصي ؟

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا الحسن بن رافع ، حدثنا ضمرة ، عن ابن شَوْذب ، عن مَطَر — هو الورَّاق — في قوله تعالى : (فهل من مدكر) : هل من طالب علم فيعان عليه ؟

وكذا علقه البخاري بصيغة الجزم ، عن مطر الوراق . ورواه ابن جرير (٧) ، وروى عن قتادة مثله .

---

(١) البخاري ، تفسير سورة « اقتربت الساعة » : ٦/١٧٨ .

(٢) تحفة الأحوذي ، أبواب القراءات ، الحديث ٤٠٠٧ : ٨/٢٥٨ ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح » . وقال الحافظ أبو العلى صاحب تحفة الأحوذي : « وأخرجه الشيخان وأبو داود والنسائي » .

(٣) سورة « ص » ، آية : ٢٩ .

(٤) سورة مريم ، آية : ٩٧ .

(٥) تفسير الطبري : ٢٧/٥٧ .

(٦) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب « أنزل القرآن على سبعة أحرف » : ٦/٢٢٧ . ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه : ٢/٢٠٢ . وسنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، أبواب الوتر ، باب « أنزل القرآن على سبعة أحرف » . وتحفة الأحوذي أبواب فضائل القرآن ، باب « ما جاء أن القرآن أنزل على سبعة أحرف » ، الحديث ٤٠١٣ — ٤٠١٤ : ٨/٢٦٣ — ٢٦٧ . والنسائي ، كتاب الافتتاح ، باب « جامع ما جاء في القرآن » : ٢/١٥٠ . ومسند الإمام أحمد عن أبي بكرة : ٥/٤١ ، وعن عبادة بن الصامت ، عن أبي بن كعب : ٥/١١٤ . وعن سليمان بن صرد ، عن أبي بن كعب : ٥/١٢٤ ، وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن أبي بن كعب : ٥/١٢٧ ، ١٢٨ . وعن زر بن حبيش ، عن أبي بن كعب : ٥/١٣٢ .

(٧) تفسير الطبري : ٢٧/٥٧ .

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى مخبرا عن عاد قوم هود إنهم كذبوا رسولهم أيضا ، كما صنع قوم نوح ، وأنه تعالى أرسل (عليهم ريحاً صرصرا) ، وهي الباردة الشديدة البرد ، (في يوم نحس) ، أي : عليهم . قاله الضحاك ، وقتادة ، والسدّي ، (مستمر) عليهم نحسه ودماره ، لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي .

وقوله : (تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) ، وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار ، ثم تنكسه على أم رأسه ، فيسقط إلى الأرض ، فتثلغ (١) رأسه فيبقى جثة بلا رأس ، ولهذا قال : (كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابي ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحا ، (فقالوا : أبشرا منا واحدا نتبعه ؟ إنا إذا لفي ضلال وسعر) ، يقولون : لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كلنا قيادنا لواحد منا ! ثم تعجبوا من إلقاء الوحي عليه خاصة من دونهم ، ثم رموه بالكذب فقالوا : (بل هو كذاب أشر) ، أي : متجاوز في حد الكذب . قال الله تعالى : (سيعلمون غدا من الكذاب الأشر) . وهذا تهديد لهم شديد ووعيد أكيد .

ثم قال تعالى : (إنا مرسلو الناقة فتنة لهم) ، أي : اختبارا لهم ؛ أخرج الله لهم ناقة عظيمة عُشراء من صخرة صمّاء طبق ما سألوا ، لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح — عليه السلام — فيما جاءهم به .

ثم قال آمرا لعبده ورسوله صالح : (فارتقبهم واصطبر) ، أي : انتظر مايؤول إليه أمرهم ، واصبر عليهم ، فان العاقبة والنصر لك في الدنيا والآخرة . (ونبئهم أن الماء قسمة بينهم) ، أي : يوم لهم ويوم للناقة . كقوله : (قال : هذه ناقة لها شربٌ ولكم شرب يوم معلوم (٢)) .

وقوله : (كل شرب محتضر) — قال مجاهد : إذا غابت حضروا الماء ، وإذا جاءت حضروا اللبن (٣) .

---

(١) أي : تشدخه .

(٢) سورة الشعراء ، آية : ١٥٥ .

(٣) تفسير الطبري : ٢٧/٦٠ .

ثم قال تعالى : (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) – قال المفسرون: هو عاقر الناقة ، واسمه قُدار بن سالف ، وكان أشقى قومه . كقوله : (إذا انبعث أشقاها (١)) . (فتعاطى ، أى : فَجَسر (٢) (فعقر . فكيف كان عذابى ونذر) ؟ أى : فعاقبتهم فكيف كان عقابى على كفرهم بى وتكذيبهم رسولى ؟ (إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) ، أى : فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية ، وخَمَدوا وهَمَدوا كما يهمد يَبيس الزرع والنبات . قاله غير واحد من المفسرين . والمحتظر – قال السدى – : هو المرعى بالصحراء حين ييبس وتحرق ونسفته الريح .

وقال ابن زيد : كانت العرب يجعلون حِظَاراً على الإبل والمواشى من يَبيس الشَّوك ، فهو المراد من قوله : (كهشيم المحتظر) .

وقال سعيد بن جُبَير : (هشيم المحتظر) : هو التراب المتناثر من الحائط . وهذا قول غريب ، والأول أقوى ، والله أعلم .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى مخبرا عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه ، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور ، وهى الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين . ولهذا أهلكهم الله هلاكا لم يُهلكْه أمةً من الأمم ، فانه تعالى أمر جبريل – عليه السلام – فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عَنَان السماء ، ثم قلبها عليهم وأرسلها ، وأتبعت بحجارة من سجيل منضود ، ولهذا قال هاهنا . (إنا أرسلنا عليهم حاصبا) ، وهى : الحجارة ، (إلا آل لوط نجيناهم بسحر) ، أى : خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومَهم ، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد ، حتى ولا امرأته ، أصابها ما أصاب قومها ، وخرج نبى الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالما لم يمسَسْه سوء . ولهذا قال تعالى : (كذلك نجزى من شكر . ولقد أنذرهم بطشتنا) ، أى : ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه ، فما التفتوا إلى ذلك ، ولا أصغوا إليه ، بل شكوا فيه وتماروا به ، (ولقد راودوه عن ضيفه) ، وذلك ليلة وَرَد عليه الملائكة : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل فى صورة شباب مُرد حسان مِحنَةً من الله بهم ، فأضافهم لوط [وبعثت امرأته العجوزُ السوءُ إلى قومها ، فأعلمتهم بأضياف لوط] فأقبلوا يُهرَعُون إليه من كل مكان ، فأغلق لوط دونهم الباب ، فجعلوا يحاولون كسر الباب ، وذلك عشية ، ولوط – عليه السلام – يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه ، ويقول لهم : (هؤلاء بناتى) يعنى نساءهم ، (إن كنتم فاعلين

---

(١) سورة الشمس ، آية : ١٢ .
(٢) أى : أقدم .

قالوا : لقد علمت مالنا فى بناتك من حق (١)) ، أى : ليس لنا فيهن أَرَبٌ ، (وإنك لتعلم ما نريد) . فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول ، خرج عليهم جبريل — عليه السلام — فضرب أعينهم بطرف جناحه ، فانطمست أعينهم . يقال : إنها غارت من وجوههم . وقيل : إنه لم تبق لهم عيون بالكلية ، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان ، ويتوعدون لوطا — عليه السلام — إلى الصباح .

قال الله تعالى : (ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر) ، أى : لا محيد لهم عنه ، ولا انفكاك لهم منه ، (فذوقوا عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) :

وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى مخبرا عن فرعون وقومه أنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالبشارة إن آمنوا ، والنذارة إن كفروا ، وأيدهما بمعجزات عظيمة وآيات متعددة ، فكذبوا بها كلها ، فأخذهم الله أخْذَ عزيز مقتدر ، أى : فأبادهم الله ولم يُبق منهم مخبراً ولا عيناً ولا أثراً .

ثم قال : (أكفاركم) ، أى : أيها المشركون من كفار قريش (خير من أولئكم) ، يعنى من الذين تقدم ذكرهم ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل ، وكفرهم بالكتب : أأنتم خير أم أولئك ؟ (أم لكم براءة فى الزبر) ، أى : أم معكم من الله براءة أن لا ينالكم عذاب ولا نكال ؟ .

ثم قال مخبرا عنهم : (أم يقولون : نحن جميع منتصر) ، أى : يعتقدون أنهم متناصرون بعضهم بعضا ، وأن جمعهم يغنى عنهم مَن أرادهم بسوء ، قال الله تعالى : (سيهزم الجمع ويولون الدبر) ، أى : سيتفرق شملهم ويغلبون .

قال البخارى : حدثنا إسحاق ، حدثنا خالد ، عن خالد — وقال أيضا : حدثنا محمد [حدثنا عفان بن مسلم (٢)] عن وُهَيب ، عن خالد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال وهو فى قُبَّة له يوم بدر : « أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدا » . فأخذ أبو بكر — رضى الله عنه — بيده وقال : حسبك يا رسول الله ! ألححت على ربك . فخرج وهو يثب فى الدرع وهو يقول : (سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر (٣)) .

---

(١) سورة الحجر ، آية : ٧١ — ٧٢ .
(٢) فى المخطوطة : « محمد بن عفان ، عن وهيب » . والمثبت من البخارى .
(٣) البخارى ، تفسير سورة « اقتربت الساعة » : ٦/١٧٩ — ١٨٠ .

وكذا رواه البخارى والنسائى فى غير موضع ، من حديث خالد – وهو مهران الحذاء – به (١).

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو الربيع الزّهرانى ، حدثنا حماد ، عن أيوب ، عن عكرمة قال : لما نزلت : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » ، قال عمر : أىّ جَمْعٍ يهزم ؟ أىّ جَمْعٍ يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يثب فى الدرع ، وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » . فعرفت تأويلها يومئذ .

وقال البخارى : حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا هشام بن يوسف : أن ابن جُرَيج أخبرهم : أخبرنى يوسف بن ماهَكَ قال : إنى عند عائشة أم المؤمنين ، قالت : نزل على محمد – صلى الله عليه وسلم – بمكة وإنى لجارية ألعب : (بل الساعة موعدهم ، والساعة أدهى وأمر)(٢) . هكذا رواه هاهنا مختصرا . ورواه فى فضائل القرآن مُطَوّلا (٣) ، ولم يخرجه مسلم .

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾

يخبرنا تعالى عن المجرمين أنهم فى ضلال عن الحق ، وسُعُر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب فى الآراء ، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق .

ثم قال : (يوم يسحبون فى النار على وجوههم) ، أى : كما كانوا فى سُعُر وشك وتردد أورثهم ذلك النار وكما كانوا ضلالا ، سُحِبوا فيها على وجوههم ، لا يدرون أين يذهبون ويقال لهم تقريعا وتوبيخا : (ذوقوا مس سقر) .

وقوله : (إنا كل شىء خلقناه بقدر) ، كقوله : (وخلق كل شىء فقدره تقديرا) (٤) . وكقوله : (سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى) (٥) ، أى : قدر قدرا ، وهدى الخلائق إليه . ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمةُ السنة على إثبات قَدَر الله السابق لخلقه ، وهو علمه الأشياء [قبل] كونها وكتابته لها قبل برئها ، وردّوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات ، وما ورد فى معناها من الأحاديث الثابتات على الفرقة القَدَرية الذين نبغوا (٦) فى أواخر

(١) انظر البخارى ، كتاب الجهاد ، باب « ما قيل فى درع النبى – صلى الله عليه وسلم – والقميص فى الحرب » : ٤/٤٩ . ومسند الإمام أحمد : ١/٣٢٩ .

(٢) البخارى ، تفسير سورة « اقتربت الساعة » ٦/١٨٩ – ١٨٠.

(٣) البخارى ، كتاب فضائل القرآن ، باب « تأليف القرآن » : ٦/٢٢٨ .

(٤) سورة الفرقان ، آية : ٢ .

(٥) سورة الأعلى ، الآيات : ١ / ٣ .

(٦) أى : خرجوا .

عصر الصحابة . وقد تكلمنا على هذا المقام مفصلا ، وماورد فيه من الأحاديث فى شرح « كتاب الإيمان » من « صحيح البخارى » ــ رحمه الله ــ ولنذكر هاهنا الأحاديث المتعلقة بهذه الآية الكريمة :

قال أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان الثورى ، عن زياد بن إسماعيل السهمى ، عن محمد بن عباد بن جعفر ، عن أبى هُرَيرة قال : جاء مشركو قريش إلى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يخاصمونه فى القدر ، فنزلت : (يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر . إنا كل شىء خلقناه بقدر (١)) .

وهكذا رواه مسلم والترمذى وابن ماجه ، من حديث وكيع ، عن سفيان الثورى ، به (٢) .

وقال البزار : حدثنا عمرو بن على ، حدثنا الضحاك بن مخلد ، حدثنا يونس بن الحارث ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : مانزلت هذه الآيات : (إن المجرمين فى ضلال وسعر . يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر . إنا كل شىء خلقناه بقدر) ، إلا فى أهل القدر .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا سهل بن صالح الأنطاكى ، حدثنى قرة بن حبيب ، عن كنانة ، حدثنا جرير ابن حازم ، عن سعيد بن عمرو بن جَعْدَةَ ، عن ابن زُرَارة ، عن أبيه ، عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه تلا هذه الآية : (ذوقوا مس سقر . إنا كل شىء خلقناه بقدر) ، قال : « نزلت فى أناس من أمتى يكونون فى آخر الزمان ، يكذبون بقدر الله » .

وحدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا مَرْوان بن شجاع الجَزَرى ، عن عبد الملك بن جُرَيج ، عن عطاء بن أبى رَبَاح قال : أتيت ابن عباس وهو يَنْزِع (٣) من زمزم ، وقد ابتلّت أسافل ثيابه ، فقلت له : قد تُكُلِّم فى القدر . فقال : أو فعلوها ؟ قلت : نعم . قال : فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم : (ذوقوا مس سقر . إنا كل شىء خلقناه بقدر) ، أولئك شرار هذه الأمة ، فلا تعودوا مرضاهم ، ولا تُصَلّوا على موتاهم ، إن رأيت أحدا منهم فقأت عينيه بأصبعى هاتين .

وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر ، وفيه مرفوع ، فقال :

حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا الأوزاعى ، عن بعض إخوته (٤) ، عن محمد بن عُبَيد المكى ، عن عبد الله بن عباس قال : قيل له : إن رجلا قدم علينا يُكَذِّب بالقدر . فقال : دلونى عليه ــ وهو (٥) أعمى ــ قالوا : وما تصنع به يا أبا عباس قال : والذى نفسى بيده لئن استمكنت منه لأعضَّنّ أنفه حتى أقطعه ، ولئن وقعت رقبته فى يدى لأدُقَّنّها ، فانى سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول : « كأنى بنساء بنى فِهْر يَطُفْنَ بالخزرج ، تصطفق أليَاتُهن مشركات ،

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢/٤٤٤ ، ٤٧٦ .

(٢) مسلم ، كتاب القدر ، باب « كل شىء بقدر » : ٨/٥٢ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة القمر ، الحديث ٣٣٤٤ : ٩/١٧٦ ــ ١٧٧ . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » . وابن ماجه ، المقدمة ، باب فى القدر ، الحديث ٨٣ : ١/٣٢ ــ ٣٣ .

(٣) أى : يستقى بالدلو .

(٤) فى المسند : « إخوانه » .

(٥) فى المسند : « وهو يومئذ قد عمى » .

هذا أول شرك هذه الأمة ، والذى نفسى بيده لينتهين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يكون قدّر خيرا ، كما أخرجوه من أن يكون قدّر شرا (١) » .

ثم رواه أحمد عن أبى المغيرة ، عن الأوزاعى ، عن العلاء بن الحجاج ، عن محمد بن عبيد ، فذكر مثله (١) ؛ لم يخرجوه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبدالله بن يزيد ، حدثنا سعيد [بن] (٢) أبى أيوب ، حدثنى أبوصخر ، عن نافع قال : كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكاتبه ، فكتب إليه عبد الله بن عمر : إنه بلغنى أنك تكلمت فى شىء من القدر ، فإياك أن تكتب إلىّ ، فإنى سمعتُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : « سيكون فى أمتى أقوام يكذبون بالقدر (٣) » .

رواه أبو داود ، عن أحمد بن حنبل ، به .

وقال أحمد : حدثنا أنس بن عياض ، حدثنا عمر بن عبد الله مولى غُفْرَة ، عن عبد الله بن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لكل أمة مجوس ، ومجوس أمتى الذين يقولون : « لا قدر » . إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم (٤) » .

لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه .

وقال أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا رشْدين ، عن أبى صخر حُمَيْد بن زياد ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : « سيكون فى هذه الأمة مَسْخٌ ، ألا وذاك فى المكذبين بالقدر والزندقية (٥) » .

ورواه الترمذى وابن ماجه ، من حديث أبى صخر حميد بن زياد ، به . وقال الترمذى : « حسن صحيح غريب (٦) » .

وقال أحمد : حدثنا إسحاق بن الطباع ، أخبرنى مالك ، عن زياد بن سعد ، عن عمرو بن مسلم ، عن طاوس اليمانى قال : سمعت ابن عمر قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « كل شىء بقدر ، حتى العجز والكيس (٧) » .

ورواه مسلم منفردا به ، من حديث مالك (٨) .

وفى الحديث الصحيح : « استعن بالله ولا تَعْجز ، فإن أصابك أمر فقل : قَدّر الله وما شاء فعل ، ولا تقل : لو أنى فعلت لكان كذا ، فإن لو تفتح عمل الشيطان (٩) » .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١/٣٣٠ .
(٢) فى المخطوطة : « سعيد ، عن أبى أيوب » . والمثبت عن المسند .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٢/٩٠ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٢/٨٦ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٢/١٠٨ .
(٦) تحفة الأحوذى ، أبواب القدر ، الحديث ٢٢٤٣ : ٦/٣٦٧ – ٣٦٨ .
(٧) مسند الإمام أحمد : ٢/١١٠ .
(٨) مسلم ، كتاب القدر ، باب « كل شىء بقدر » : ٨/٥١ – ٥٢ .
(٩) مسلم ، كتاب القدر ، باب « فى الأمر بالقوة وترك العجز ، والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله » : ٨/٥٦ .
وسنن ابن ماجه ، المقدمة ، باب « فى القدر » ، الحديث ٧٩ : ١/٣١ .

وفي حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء ، لم يكتبه الله لك ، لم ينفعوك . ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء ، لم يكتبه الله عليك ، لم يضروك . جفت الأقلام وطويت الصحف (١) ».

وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن سوار ، حدثنا الليث ، عن معاوية ، عن أيوب بن زياد ، حدثني عُبادة بن الوليد ابن عُبادة ، حدثني أبي قال : دخلتُ على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت ، فقلت : يا أبتاه ، أوصني واجتهد لي . فقال : أجلسوني . فلما أجلسوه قال : يا بني ، إنك لم تَطْعَم [طَعْم (٢)] الإيمان ، ولم تبلغ حَقَّ حقيقة العلم بالله ، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره . قلت : يا أبتاه ، وكيف لي أن أعلم ما خيرُ القدر وشره ؟ قال : تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك . يابني ، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول ما خلق الله القلم . ثم قال له : اكتب . فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة » . يابني ، إن متَّ ولستَ على ذلك دخلتَ النار(٣) .

ورواه الترمذي عن يحيى بن موسى البلخي ، عن أبي داود الطيالسي ، عن عبد الواحد بن سليم ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن الوليد بن عبادة ، عن أبيه ، به . وقال : « حسن صحيح غريب (٤) » .

وقال سفيان الثوري ، عن منصور ، عن ربعي بن خراش ، عن رجل ، عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، بعثني بالحق [ويؤمن بالموت (٥)] ويؤمن بالبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر خيره وشره » .

وكذا رواه الترمذي من حديث النضر بن شميل ، عن شعبة ، عن منصور ، به . ورواه من حديث أبي داود الطيالسي ، عن شعبة ، عن منصور ، عن ربعي ، عن علي فذكره وقال : « هذا عندي أصح (٦) » . وكذا رواه ابن ماجه من حديث شريك ، عن منصور ، عن ربعي ، عن علي (٧) ، به .

وقد ثبت في صحيح مسلم من رواية عبد الله بن [وهب وغيره ، عن أبي هانيء الخَوْلاني ، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي ، عن عبد الله بن] عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » زاد ابن وهب : (وكان عرشه على الماء (٨)) . ورواه الترمذي وقال : « حسن صحيح غريب (٩) » .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١/٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ .
(٢) ما بين القوسين عن المسند .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٥/٣١٧ .
(٤) تحفة الأحوذي ، أبواب القدر ، الحديث ٢٢٤٤ : ٦/٣٦٩ — ٣٧١ .
(٥) ما بين القوسين عن الترمذي .
(٦) تحفة الأحوذي ، أبواب القدر ، باب « ما جاء أن الإيمان بالقدر خيره وشره » الحديث ٢٢٣٢ : ٦/٣٥٧-٣٥٨ .
(٧) سنن ابن ماجه ، المقدمة ، باب « في القدر » ، الحديث ٨١ : ١/٣٢ .
(٨) مسلم ، كتاب القدر ، باب « حجاج آدم وموسى عليهما السلام » : ٨/٥١ .
(٩) تحفة الأحوذي ، أبواب القدر ، الحديث ٢٢٤٥ : ٦/٣٧٠ — ٣٧١ .

وقوله : (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) . وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته فى خلقه كما أخبر بنفوذ قدره فيهم ، فقال : (وما أمرنا إلا واحدة) ، أى : إنما نأمر بالشيء مرة واحدة ، لا نحتاج إلى تأكيد بثانية ، فيكون ذلك الذى نأمر به حاصلا موجوداً كلمح البصر ، لا يتأخر طرفة عين ، وما أحسن ما قال بعض الشعراء :

إِذَا مَا أَرَادَ اللهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ : كُنْ ، قَوْلَةً فَيَكُونُ(١)

وقوله : (ولقد أهلكنا أشياعكم) ، يعنى أمثالكم وسلفكم من الأمم السالفة المكذبين بالرسل ، (فهل من مدكر) ، أى : فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك ، وقدر لهم من العذاب . كما قال : (وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، كما فعل بأشياعهم من قبل (٢)) .

وقوله : (وكل شيء فعلوه فى الزبر) ، أى : مكتوب عليهم فى الكتب التى بأيدى الملائكة — عليهم السلام — (وكل صغير وكبير) ، أى : من أعمالهم (مستطر) ، أى : مجموع عليهم ومسطر فى صحائفهم ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر ، حدثنا سعيد بن مسلم بن بَانَكَ : سمعت عامر بن عبد الله بن الزبير ، حدثنى عوف بن الحارث — وهو ابن أخى عائشة لأمها — عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « يا عائشة ، إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالبا (٣) » .

ورواه النسائى وابن ماجه ، من طريق سعيد بن مسلم بن بَانَكَ المدنى (٤) : وثقه أحمد ، وابن معين ، وأبو حاتم (٥) وغيرهم .

وقد رواه الحافظ ابن عساكر فى ترجمة سعيد بن مسلم هذا من وجه آخر ، ثم قال سعيد : فحدثت بهذا الحديث عامر ابن هشام فقال لى : ويحك يا سعيد بن مسلم . لقد حدثنى سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنبا فاستصغره ، فأتاه آت فى منامه فقال له : يا سليمان :

لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ صَغِيرًا (٦) إِنَّ الصَّغِيرَ غَدًا يَعُودُ كَبِيرَا

إِنَّ الصَّغِيرَ وَلَوْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ عِنْدَ الإِلَهِ مُسَطَّرٌ تَسْطِيرَا

فَازْجُرْ هَوَاكَ عَنِ البَطَالَةِ ، لاَ تَكُنْ صَعْبَ القِيَادِ ، وَشَمِّرَنْ تَشْمِيرَا

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٨١ من سورة « يس » : ٦/٥٨٢ .

(٢) سورة سبأ ، آية : ٥٤ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٦/١٥١ . وانظر أيضاً : ٦/٧٠ .

(٤) ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « ذكر الذنوب » ، الحديث ٤٢٤٣ : ٢/١٤١٧ .

(٥) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢/١/٦٥ .

(٦) فى تاريخ مدينة دمشق : « صغيرة » .

إنَّ المُحبَّ إذَا أحبَّ إلَهَهُ طَارَ الفُؤَادُ وَألِهمَ التَّفْكِيرَا
فَاسْألْ هِدَايَتَكَ الإلهَ بِنِيَّةٍ فَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيرَا (١)

وقوله : (إن المتقين فى جنات ونهر) ، أى : بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر ، والسحب فى النار على وجوههم ، مع التوبيخ والتقريع والتهديد.

وقوله : (فى مقعد صدق) ، أى : فى دار كرامة الله ورضوانه وفضله ، وامتنانه وجوده وإحسانه ، (عند مليك مقتدر) ، أى : عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها ، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون ؛ وقد قال الإمام أحمد :

حدثنا سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن عمرو بن أوس ، عن عبد الله بن عَمْرو ـ يَبْلُغُ به النبىَّ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « المقسطون عند الله [يوم القيامة](٢) على منابر من نور ، عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين : الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا (٣) ».

انفرد باخراجه مسلم والنسائى ، من حديث سفيان بن عيينة ، باسناده مثله (٤) .

آخر تفسير سورة « اقتربت » ، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة (٥)

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ، ميكروفيلم بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، تاريخ ١٢٥ ، الجزء الرابع ، ورقة : ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

(٢) ما بين القوسين عن المسند .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢/١٦٠ .

(٤) مسلم ، كتاب الإمارة ، باب « فضيلة الإمام العادل ... » : ٦/٧ . والنسائى ، كتاب آداب القضاة ، باب « فضل الحاكم العادل فى حكمه » : ٨/٢٢١ ـ ٢٢٢ .

(٥) وقع بعده فى مخطوطة الأزهر : « وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . حسبنا الله ونعم الوكيل . يتلوه ـ إن شاء الله تعالى ـ فى أول السابع تفسير سورة الرحمن عزوجل ، والحمد لله رب العالمين » . وفى أول الجزء السابع : « بسم الله الرحمن الرحيم . رب أعن على إتمامه » .

تفسير سورة الرحمن

وهي مكية

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، عن عاصم ، عن زرّ : أن رجلا قال [لابن مسعود (١)] كيف تعرف هذا الحرف : (ماء غير ياسن أو آسن(٢) ؟ فقال : كلّ القرآن قد قرأتُ ؛ قال : إنى لأقرأ المفصل (أجمعَ)(١) فى ركعة واحدة . فقال : أهذًّا كهذّ الشعر (٣) لا أبالك ؟ قد علمت قرائن النبى — صلى الله عليه وسلم — التى كان يَقْرِنُ قرينتين قرينتين من أول المفصل ، وكان أول مفصل ابن مسعود (الرحمن (٤)) .

وقال أبو عيسى الترمذى : حدثنا عبد الرحمن بن واقد أبو مسلم ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن زهير بن محمد ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر قال : خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على أصحابه فقرأ عليهم « سورة الرحمن » ، من أولها إلى آخرها ، فسكتوا فقال : لقد قرأتها على الجن ليلة الجن ، فكانوا أحسن مَرْدُوداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) ، قالوا : لا بشىء من نعَمك — ربَّنا — نكذب ، فلك الحمد (٥) » .

ثم قال : « هذا حديث غريب ، لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم ، عن زهير بن محمد » ؛ ثم حكى عن الإمام أحمد أنه كان لا يعرفه ، ينكر رواية أهل الشام عن زهير بن محمد هذا .

ورواه الحافظ أبو بكر البزار ، عن عمرو بن مالك ، عن الوليد بن مسلم . وعن عبدالله بن أحمد بن شَبّويه ، عن هشام ابن عمارة ، كلاهما عن الوليد بن مسلم ، به . ثم قال : « لا نعرفه يروى إلا من هذا الوجه » .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا محمد بن عباد بن موسى وعمرو بن مالك البَصرىّ (٦) قالا : حدثنا يحيى بن سليم (٧) عن إسماعيل بن أمية ، عن نافع ، عن ابن عمر : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قرأ « سورة الرحمن » — أو : قُرِئَت

---

(١) ما بين القوسين من المسند .

(٢) فى المخطوطة : والمثبت عن المسند . وفى البحر المحيط لأبى حيان ٨/٧٩ : « وقرأ ابن كثير وأهل مكة (آسن) على وزن فاعل ، من « أسن » — بفتح السين . وتريء (ياسن) ، بالياء . قال أبو على : « وذلك على تخفيف الهمز » .

(٣) أى : أتسرع فى قراءته كما تسرع فى قراءة الشعر ؟!

(٤) مسند الإمام أحمد : ١/٤١٢ .

(٥) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الرحمن ، الحديث ٣٣٤٥ : ٩/١٧٧ — ١٧٨ .

(٦) فى تفسير الطبرى : « النضرى » ، بنون وضاد معجمة . ولعل الصواب ما هنا . وانظر الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ، ترجمة عمرو بن مالك الراسبى أبى عثمان البصرى : ٣/١/٢٥٩ .

(٧) فى تفسير الطبرى : « سليمان » . والصواب ما هنا . انظر أيضاً الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ، ترجمة يحيى بن سليم الطائفى الخراز أبى زكريا : ٤/٢/١٥٦ .

عنده ـ فقال : « ما لى أسمع الجن أحسن جوابا لربها منكم ؟ » قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « ما أتيت على قول الله : (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) إلا قالت الجن : لا بشىء [من نعمة (١)] ربنا نكذب » .

ورواه الحافظ البزار ، عن عمرو بن مالك ، به . ثم قال : « لا نعلمه يروى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا من هذا الوجه ، بهذا الإسناد » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾

يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه : أنه أنزل على عباده القرآن ، ويسّر حفظه وفهمه على من رحمه ، فقال : (الرحمن علم القرآن . خلق الإنسان علمه البيان) ـ قال الحسن : يعنى النطق . وقال الضحاك ، وقتادة ، وغيرهما : يعنى الخير والشر . وقول الحسن هاهنا أحسن وأقوى ؛ لأن السياق فى تعليمه تعالى القرآن ، وهو أداء تلاوته ، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين ، على اختلاف مخارجها وأنواعها .

وقوله : (الشمس والقمر بحسبان) ، أى : يجريان متعاقبين بحساب مُقَنَّن لا يختلف ولا يضطرب ، (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون (٢)) . وقال تعالى : (فالق الإصباح وجاعل (٣) الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم (٤)) .

وعن عكرمة أنه قال : لوجعل الله نور جميع أبصار الإنس والجن والدواب والطير فى عينى عبد ، ثم كشف حجابا واحداً من سبعين حجابا دون الشمس ، لما استطاع أن ينظر إليها . و [نور] الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسى ، ونور الكرسى جزء من سبعين جزءا من نور العرش ، ونور العرش جزء من سبعين جزءا من نور الستر . فانظر ماذا أعطى الله عبده من النور فى عينيه [وقت] النظر إلى وجه ربه الكريم عياناً . رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : (والنجم والشجر يسجدان) ـ قال ابن جرير : اختلف المفسرون فى معنى قوله (والنجم) بعد إجماعهم على أن الشجر ماقام على ساق ، فروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : النجم ما انبسط على وجه الأرض ـ يعنى من النبات (٦) . وكذا قال سعيد بن جُبَيْر ، والسدى ، وسفيان الثورى . وقد اختاره ابن جرير رحمه الله .

---

(١) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٧/٧٢ .
(٣) سورة « يس » ، آية : ٤٠ .
(٤) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وقد نبهنا على هذه القراءة عند هذه الآية : ٣/٢٩٧ .
(٥) سورة الأنعام ، آية : ٩٦ .
(٦) تفسير الطبرى : ٢٧/٦٨ .

وقال مجاهد : النجم الذى فى السماء . وكذا قال الحسن ، وقتادة . وهذا القول هو الأظهر ، والله أعلم ، لقوله تعالى : (ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس (١)) ... الآية .

وقوله : (والسماء رفعها ووضع الميزان) ، يعنى العدل ، كما قال : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط (٢)) . وهكذا قال هاهنا : (ألا تطغوا فى الميزان) ، أى : خلق السموات والأرض بالحق والعدل ، لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل . ولهذا قال : (وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) ، أى : لا تبخسوا الوزن ، بل زنوا بالحق والقسط ، كما قال : (وزنوا بالقسطاس المستقيم (٣)) .

وقوله : (والأرض وضعها للأنام) ، أى : كما رفع السماء وضع الأرض ومهدها ، وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات ، لتستقر لما على وجهها من الأنام ، وهم : الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم ، فى سائر أقطارها وأرجائها .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : الأنام : الخلق : (فيها فاكهة) ، أى : مختلفة الألوان والطعوم والروائح ، (والنخل ذات الأكمام) : أفرده بالذكر لشرفه ونفعه ، رطبا ويابسا . والأكمام — قال ابن جريج ، عن ابن عباس : هى أوعية الطلع . وهكذا قال غير واحد من المفسرين ، وهو الذى يطلع فيه القنو ثم ينشق عن العنقود ، فيكون بسرا ، ثم رطبا ، ثم ينضج ويتناهى ينعه (٤) واستواؤه .

قال ابن أبى حاتم : ذُكر عن عمرو بن على الصيرفى : حدثنا أبو قتيبة ، حدثنا يونس بن الحارث الطائى ، عن الشعبى قال : كتب قيصر إلى عمر بن الخطاب : أخبرك أن رسلى أتتنى من قبلك ، فزعمت أن قبلكم شجرة ليست بخليقة لشىء من الخير ، تخرج مثل آذان الحمير ، ثم تشقق مثل اللؤلؤ ، ثم تخضر فتكون مثل الزمرد الأخضر ، ثم تحمر فتكون كالياقوت الأحمر ، ثم تينع وتنضج فتكون كأطيب فالوذج أكل ، ثم تيبس فتكون عصمة للمقيم وزاداً للمسافر ، فان تكن رسلى صدقتنى فلا أرى هذه الشجرة إلا من شجر الجنة . فكتب إليه عمر بن الخطاب : من عمر أمير المؤمنين إلى قيصر ملك الروم إن رسلك قد صدقوك ، هذه الشجرة عندنا ، وهى الشجرة التى أنبتها الله على مريم حين نفست بعيسى ابنها ، فاتق الله ولا تتخذ عيسى إلها من دون الله فان (مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين) .

---

(١) سورة الحج ، آية : ١٨ .
(٢) سورة الحديد ، آية : ٢٥ .
(٣) سورة الشعراء ، آية : ١٨٢ .
(٤) فى المخطوطة : «ينعه» . ولعل الصواب ما أثبتناه . والينع : النضج .

وقيل : الأكمام : رفاتها ، وهو : الليف الذى على عنق النخلة : وهو قول الحسن وقتادة :

(والحب ذو العصف والريحان) ، قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : (والحب ذو العصف) ، يعنى : التبن :

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (العصف) : ورق الزرع الأخضر الذى قطع رءوسه ، فهو يسمى العصف إذا يبس(١)؛ وكذا قال قتادة ، والضحاك ، وأبو مالك : عصفه : تبنه :

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : (والريحان) ، يعنى : الورق :

وقال الحسن : هو ريحانكم هذا :

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (والريحان) : خَضَرُ الزرع (٢) :

ومعنى هذا ــ والله أعلم ــ أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له فى حال نباته عصف ، وهو : ما على السنبلة ، وريحان ، وهو : الورق الملتف على ساقها :

وقيل : العصف : الورق أول ماينبت الزرع بقلا : والريحان : الورق ، يعنى : إذا أدجن وانعقد فيه الحب : كما قال زيد بن عمرو بن نفيل فى قصيدته المشهورة(٣) :

وَقُولاَ له : مَنْ يُنْبِتُ الحَبَّ فى الثَّرى فَيُصْبِحَ منه البقلُ يَهْتَزّ رَابيا ؟
وَيُخْرِجَ منه حَبَّه فى رُءُوسه ؟ فَفِى ذَاكَ آياتٌ لِمَنْ كَانَ وَاعيا

وقوله : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) ، أى : فبأى الآلاء ــ يا معشر الثقلين ، من الإنس والجن ــ تكذبان ؟ قاله مجاهد ، وغير واحد : ويدل عليه السياق بعده ، أى : النِّعَمُ ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها ، لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها ، فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون : « اللهم ، ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد » ؛ وكان ابن عباس يقول : « لا ، بأيها يا رب » : أى : لا نكذب بشىء منها .

قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق ، حدثنا ابن لَهِيعة ، عن أبى الأسود ، عن عروة ، عن أسماء بنت أبى بكر قالت : سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو يقرأ ، وهو يصلى نحو الركن قبل أن يَصْدَعَ بما يؤمر ، والمشركون يستمعون (فبأى آلاء ربكما تكذبان(٤) ؟)

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٧/٧١ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٧/٧٢ .
(٣) سيرة ابن هشام : ١/٢٢٨ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٦/٣٤٩ .

خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

يذكر تعالى خَلْقَه الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلقه الجانّ من مارج من نار ، وهو : طرف لهبها . قاله الضحاك، عن ابن عباس (١) . وبه يقول عكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، وابن زيد .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (من مارج من نار) : من لهب النار ، من أحسنها .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (من مارج من نار) : من خالص النار . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، وغيرهم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خُلقت الملائكة من نور ، وخُلق الجان من مارج [من نار] ، وخلق آدم مما وصف لكم (٢) » .

ورواه مسلم ، عن محمد بن رافع وعَبْد بن حُميد ، كلاهما عن عبد الرزاق ، به (٣) .

وقوله : (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) ، تقدم تفسيره . (رب المشرقين ورب المغربين) ، يعنى مشرق الصيف والشتاء ، ومغربى الصيف والشتاء . وقال فى الآية الأخرى : (فلا أقسم برب المشارق والمغارب (٤)) ، وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها فى كل يوم ، وبروزها منه إلى الناس . وقال فى الآية الأخرى : (رب المشرق والمغرب ، لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا (٥)) . وهذا المراد منه جنس المشارق والمغارب ، ولما كان فى اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق من الجن والإنس قال : (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) .

وقوله : (مرج البحرين يلتقيان) ـ قال ابن عباس : أى أرسلهما (٦) .

[وقوله : (يلتقيان) قال ابن زيد : أى منعهما أن يلتقيا ، بما جعل بينهما من البرزخ الحاجز الفاصل بينهما (٧)] .

---

(١) تفسير الطبرى : ٧٤/٢٧ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ١٦٨/٦ .
(٣) مسلم ، كتاب الزهد ، باب « فى أحاديث متفرقة » : ٢٢٦/٨ .
(٤) سورة المعارج ، آية : ٤٠ .
(٥) سورة المزمل ، آية : ٩ .
(٦) تفسير الطبرى : ٧٥/٢٧ .
(٧) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة . وانظر تفسير الطبرى : ٧٦/٢٧ .

والمراد بقوله (البحرين) : الملح والحلو ، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس . وقد قدمنا الكلام على ذلك في « سورة الفرقان (١) » عند قوله تعالى : (وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا)(٢) . وقد اختار ابن جرير هاهنا أن المراد بالبحرين : بحر السماء وبحر الأرض . وهو مروى عن مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعطية ، وابن أبزى .

قال ابن جرير : لأن اللؤلؤ يتولد من ماء السماء ، وأصداف بحر الأرض(٣) . وهذا وإن كان هكذا ليس المراد ما ذهب إليه ، فانه لا يساعده اللفظ ، فانه تعالى قد قال : (بينهما برزخ لا يبغيان) ، أى : وجعل بينهما برزخاً ، وهو : الحاجز من الأرض ، لئلا يبغى هذا على هذا ، وهذا على هذا ، فيفسد كل واحد منهما الآخر ، ويزيله عن صفته التى هى مقصودة منه . وما بين السماء والأرض لا يسمى برزخاً وحجرا محجورا .

وقوله : (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) ، أى : من مجموعهما ، فاذا وُجد ذلك لأحدهما كفى ، كما قال تعالى : (يا معشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم ؟) . والرسل إنما كانوا فى الإنس خاصة دون الجن ، وقد صح هذا الإطلاق . واللؤلؤ معروف ، وأما المرجان فقيل : هو صغار اللؤلؤ(٤) . قاله مجاهد [وقتادة] وأبو رزين ، والضحاك . وروى عن على .

وقيل : كباره وجيّده . حكاه ابن جرير عن بعض السلف . ورواه ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس ، وحكاه عن السدى عمن حدثه ، عن ابن عباس . وروَى مثله عن على ، ومجاهد أيضا ، [ومرة] الهمدانى .

وقيل : هو نوع من الجواهر أحمر اللون . قال [السدى (٥)] عن أبى مالك ، عن مسروق ، عن عبد الله قال : المرجان : الخرز الأحمر ـ قال السدى وهو البُسَّذ(٦) بالفارسية .

وأما قوله : (ومن كل تأكلون لحما طريا ، وتستخرجون حلية تلبسونها (٧)) ، فاللحم من كل [من] الأجاج والعذب ، والحلية إنما هى من الملح دون العذب .

قال ابن عباس : ما سقطت [قط] قطرة من السماء فى البحر ، فوقعت فى صدفة إلا صار منها لؤلؤة . وكذا قال عكرمة ، وزاد : فاذا لم تقع فى صدفة نبتت بها عنبرة . ورُوى من غير وجه عن ابن عباس نحوه .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش عن عبد الله ابن عبد الله ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : إذا أمطرت السماء ، فتحت الأصداف فى البحر أفواهها ، فما وقع فيها يعنى من قطر فهو اللؤلؤ .

---

(١) انظر : ٦/١٢٦ .
(٢) سورة الفرقان ، آية : ٥٣ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٧/٧٥ .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٧/٧٦ .
(٥) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، ومكانه فى المخطوطة : « ابن عباس » .
(٦) فى المخطوطة : « الكسد » . والمثبت عن تفسير الطبرى ٢٧/٧٦ ـ ٧٧ . وفى المعرب للجواليقى ، تعليق الأستاذ الشيخ أحمد شاكر ٣٧٧ : « وقد فسر المرجان بأنه صغار اللؤلؤ ، فسر أيضاً بأنه هذا الخرز الأحمر المعروف ، ويسمى (البسذ (ـ بضم الباء الموحدة ، وتشديد السين المهملة المفتوحة ، وآخره ذال معجمة . وهو حجر لباتى فى قعر البحر » .
(٧) سورة فاطر ، آية : ١٢ .

إسناده صحيح ، ولما كان إتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض ، امتن بها عليهم فقال : (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) :

وقوله : (وله الجوار المنشآت) يعني السفن التي تجري في البحر ، قال مجاهد : ما رفع قلعه من السفن فهي مُنْشَأة وما لم يرفع قلعه فليس بمنشأة ، وقال قتادة : (المنشآت) : يعني المخلوقات . وقال غيره : المنشِئات — بكسر الشين — : يعني البادئات .

(كالأعلام) ، أي : كالجبال في كبرها ، وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ، مما فيه صلاح للناس في جَلْب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع . ولهذا قال : (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا العَرَارُ بن سُوَيد ، عن عميرة ابن سعد (١) قال : كنت مع علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — على شاطئ الفرات إذ أقبلت سفينة مرفوع شراعها ، فبسط على يديه ثم قال : يقول الله عز وجل : (وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام) . والذي أنشأها تجري في بحوره ما قتلت عثمان ، ولا مالأت على قتله .

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون ، وكذلك أهل السماوات ، إلا من شاء الله ، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم ، فإن الرب — تعالى وتقدس — لا يموت ، بل هو الحي الذي لا يموت أبدا .

قال قتادة : أنبأ بما خلق ، ثم أنبأ أن ذلك كُلَّه كان .

وفي الدعاء المأثور : يا حي ، يا قيوم ، يا بديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام ، لا إله إلا أنت ، برحمتك نستغيث ، أصلح لنا شأننا كله ، ولا تكلنا [إلى أنفسنا طرفة عين ، ولا] إلى أحد من خلقك .

وقال الشعبي : إذا قرأت : (كل من عليها فان) ، فلا تسكت حتى تقرأ : (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) .

وهذه الآية كقوله تعالى : (كل شيء هالك إلا وجهه (٢)) . وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه (ذو الجلال والإكرام) ، أي : هو أهل أن يجل فلا يعصى ، وأن يطاع فلا يخالف ، كقوله : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة ، والعشي يريدون وجهه (٣)) ، وكقوله إخبارا عن المتصدقين : (إنما نطعمكم لوجه الله (٤)) .

قال ابن عباس : (ذو الجلال والإكرام) : ذو العظمة والكبرياء (٥) .

ولما أخبر عن تساوي أهل الأرض كلهم في الوفاة ، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة ، فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل قال : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) .

---

(١) في المخطوطة : « ، عن عنترة بن سويد » . والمثبت عن الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٤٥/٢/٣ .
(٢) سورة القصص ، آية : ٨٨ .
(٣) سورة الكهف ، آية : ٢٨ .
(٤) سورة الإنسان ، آية : ٩ .
(٥) تفسير الطبري : ٩٥/٢٧ .

وقوله : (يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن) ، وهذا إخبار عن غناه عما سواه ، وافتقار الخلائق إليه فى جميع الآنات ، وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم ، وأنه كل يوم هو فى شأن .

قال الأعمش ، عن مجاهد ، عن عبيد بن عمير : (كل يوم هو فى شأن) ، قال : من شأنه أن يجيب داعيا ، أو يعطى سائلا ، أو يفك عانيا ، أو يَشْفِى سَقِيما (١) .

وقال ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد قال : كل يوم هو يجيب داعيا ، ويكشف كربا ، ويجيب مضطرا ، ويغفر ذنبا .

وقال قتادة : لا يستغنى عنه أهل السموات والأرض ، يُحيى حَيّا ، ويميت ميتا ، ويربى صغيرا ، ويفك أسيراً ، وهو مُنْتَهى حاجات الصالحين وصريخهم ، ومنتهى شكواهم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو اليمان الحمصى ، حدثنا حَرِيز بن عثمان ، عن سويد بن جَبَلَة ـ هو الفزارى ـ قال : إن ربكم كل يوم هو فى شأن ، فيعتق رقابا ، ويُعطى رغابا ، ويقحم عقابا .

وقال ابن جرير : حدثنى عبد الله بن محمد بن عمرو الغَزّى ، حدثنى إبراهيم بن محمد بن يوسف الفريابى ، حدثنى عمرو ابن بكر السكسكى ، حدثنا الحارث بن عبدة بن رباح الغسانى ، عن أبيه ، عن مُنِيب بن عبد الله بن مُنِيب الأزدى ، عن أبيه قال : تلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الآية (كل يوم هو فى شأن) ، فقلنا : يا رسول الله ، وماذاك الشأن ؟ قال : « أن يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ، ويرفع قوما ، ويضع آخرين (٢) » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، وسليمان بن أحمد الواسطى قالا : حدثنا الوزير بن صَبِيح الثقفى أبو روح الدمشقى ـ والسياق لهشام ـ قال : سمعت يونس بن ميسرة بن حَلْبَس يحدث عن أم الدرداء عن أبى الدرداء ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله عز وجل : (كل يوم هو فى شأن) ، قال : من شأنه أن يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ويرفع قوما ، ويضع آخرين (٣) » .

وقد رواه ابن عساكر من طرق متعددة ، عن هشام بن عمار ، به . ثم ساقه من حديث أبى [همام](٤) الوليد بن شجاع عن الوزير بن صَبِيح قال : [ودلّنا (٥)] عليه الوليد بن مسلم ، عن مُطَرف ، عن الشعبى ، عن أم الدرداء ، عن أبى الدرداء ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فذكره . قال : « والصحيح الأول » يعنى إسناده الأول .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٧ / ٧٨ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٧ / ٧٩ . وانظر الحديث فى أسد الغابة ، ترجمة « عبد الله بن منيب الأزدى » : ٣ / ٤٠٢ ، بتحقيقنا .

(٣) أخرجه ابن ماجه من حديث هشام بن عمار ، به . انظر المقدمة ، باب « فيما أنكرت الجهمية » ، الحديث ٢٠٢ : ١ / ٧٣ .

(٤) ما بين القوسين عن تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، مصورة بجامعة الدول العربية ، تاريخ ١٢٥ ، ترجمة الوزير ابن صبيح .

(٥) ما بين القوسين عن المصدر المتقدم ، ومكانه بياض فى المخطوطة . ولفظ تاريخ مدينة دمشق : « حدثنا الوزير بن صبيح ودلنا عليه ... » .

قلت : وقد رُوى موقوفا ، كما علقه البخارى بصيغة الجزم ، فجعله من كلام أبى الدرداء (١) ، فالله أعلم .

وقال البزار : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا محمد بن الحارث حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن البيلمانى ، عن أبيه ، عن ابن عمر ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : (كل يوم هو فى شأن) ، قال : « يغفر ذنبا ، ويكشف كربا » .

ثم قال ابن جرير : وحدثنا أبو كريب ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن أبى حمزة الثمالى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أن الله خلق لوحا محفوظا من درة بيضاء ، دفتاه ياقوتة حمراء ، قلمه نور ، وكتابه نور ، عرضه ما بين السماء والأرض ، ينظر فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة ، يخلق فى (٢) كل نظرة ، ويحيى ويميت ، ويعز ويذل ، ويفعل ما يشاء (٣) .

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : (سنفرغ لكم أيها الثقلان) ، قال : وعيد من الله للعباد ، وليس بالله شغل وهو فارغ . وكذا قال الضحاك : هذا وعيد . وقال قتادة : قَدْ دَنَا من الله فراغ لخلقه . وقال ابن جريج : (سنفرغ لكم) ، أى : سنقضى لكم .

وقال البخارى : سنحاسبكم ، لا يشغله شىء عن شىء ، وهو معروف فى كلام العرب ، يقال : « لأتفرغَنَّ لك » — وما به شُغْل ، يقول : « لآخذنك على غِرّتك (٤) » .

وقوله : (أيها الثقلان) ، الثقلان : الإنس والجن ، كما جاء فى الصحيح : « يسمعها (٥) كل شىءٍ إلا الثقلين (٦) (وفى رواية « إلا الجن والإنس » . وفى حديث الصور : « الثقلان الإنس والجن (٧) » (. فبأى آلاء ربكما تكذبان) ؟

ثم قال : (يا معشر الجن والإنس ، إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان) ،

(١) البخارى ، تفسير « سورة الرحمن » : ١٨١/٦ .

(٢) لفظ الطبرى : « بكل نظرة » .

(٣) تفسير الطبرى : ٧٩/٢٧ .

(٤) البخارى ، تفسير سورة الرحمن : ١٨١/٦ .

(٥) فى المخطوطة : « يسمعه » . والمثبت عن البخارى ومسند الإمام أحمد ، ولفظ البخارى : « فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين » .

(٦) البخارى ، كتاب الجنائز ، باب « الميت يسمع خفق النعال » : ١١٣/٢ ، وباب « ما جاء فى عذاب القبر » : ١٢٣/٢ . ومسند الإمام أحمد عن أنس : ٤/٣ .

(٧) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، ومكانه ، نياض فى مخطوطة الأزهر . ولم يقع لنا هذا النص ، وانظر حديث الصور بتمامه فى سورة الأنعام : ٢٧٦/٣ — ٢٨٢ . وانظر أيضاً آية الكهف : ٩٩، وطه : ١٠٢ ، والمؤمنون : ١٠١ ، والنمل : ٨٧ ، ويس : ٥١ ، والزمر : ٦٨ .

أى : لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره ، بل هو محيط بكم ، لا تقدرون على التخلص من حكمه ، ولا النفوذ عن حكمه فيكم ، أينما ذهبتم أحيط بكم . وهذا فى مقام المحشر ؛ الملائكة مُحدقَةٌ بالخلائق ، سبع صفوف من كل جانب ، فلا يقدر أحد على الذهاب (إلا بسلطان) ، أى : إلا بأمر الله ، (يقول الإنسان يومئذ : أين المفر ؟ كلا لاوزر . إلى ربك يومئذ المستقر (١)) . وقال تعالى : (والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ، ما لهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيت وُجُوههم قِطَعاً من الليل مظلما ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٢)) . ولهذا قال : (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : الشواظ : هو لهب النار (٣) .

وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : الشواظ : الدخان .

وقال مجاهد : هو : اللهيب الأخضر المنقطع . وقال أبو صالح : الشواظ : هو اللهيب الذى فوق النار ودون الدخان . وقال الضحاك : (شواظ من نار) : سيل من نار .

وقوله : (ونحاس) ، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (ونحاس) : دخان النار . ورُوىَ مثله عن أبى صالح ، وسعيد بن جبير ، وأبى سنان .

قال ابن جرير : والعرب تسمى الدخان نُحَاسا ــ بضم النون وكسرها ، والقراء مجمعة على الضم ، ومن النحاس بمعنى الدخان قول نابغة جعدة (٤) :

يُضِيءُ كَضَوْءِ سِرَاجِ السَّلِيـ ـطِ ، لَم يَجْعَلِ اللهُ فيه نُحَاساً

يعنى دخانا ، هكذا قال .

وقد روى الطبرانى من طريق جويبر ، عن الضحاك : أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس عن الشواظ فقال : هو اللهب الذى لا دخان معه . فسأله شاهدا على ذلك من اللغة ، فأنشده قول أمية بن أبى الصلت (٥) فى حسان :

ألا من مُبلِغٌ حَسَّانَ عَنِّى مُغَلغَلَةً (٦) تَدبُ إلى عُكَاظِ

أليسَ أبُوكَ فِينَا كَانَ قَيناً (٧) لَدَى القَيْنَاتِ فَسْلاً فى الحِفَاظِ

يَمَانِيًّا يَظَلُّ يَشُدُّ كِيراً (٨) وَيَنْفُخُ دَائباً لَهَبَ الشُّواظِ (٩)

---

(١) سورة القيامة ، الآيات : ١٠ ــ ١٢ .

(٢) سورة يونس ، الآية : ٢٧ .

(٣) تفسير الطبرى : ٨١/٢٧ .

(٤) فى تفسير الطبرى : نابغة بنى ذبيان . ولم أجده فى ديوانه . والبيت فى مجاز القرآن . لأبى عبيدة منسوباً للنابغة الجعدى : ٢٤٤/٢ ــ ٢٤٥ ، والبيت أيضاً فى ديوان الجعدى ، واللسان مادة : نحس .

(٥) كذا ، والأبيات فى ديوان حسان ، واللسان منسوبة إلى أمية بن خلف .

(٦) المغلغة : الرسالة .

(٧) القين : العبد . الفسل : النذل . الحفاظ : المحافظة على المحارم .

(٨) الكير : منفخ الحداد .

(٩) ديوان حسان ، ط بيروت : ١٤١ . ولسان العرب ، مادة : شوظ .

قال : صدقت ، فما النحاس ؟ قال : هو الدخان الذى لا لهب له . قال : فهل تعرفه العرب ؟ قال : نعم ، أما سمعت نابغة بنى ذبيان (١) يقول :

يُضِيءُ كَضَوْءِ سِرَاجِ السَّلِيـ ـطِ ، لَمْ يَجْعَلِ اللهُ فيه نُحَاساً

وقال مجاهد : النحاس : الصُّفر ، يذاب فيصب على رءوسهم (٢) . وكذا قال قتادة . وقال الضحاك : (ونحاس) : سيل من نحاس .

والمعنى على كل قول : لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا ، ولهذا قال : (فلا تنتصران . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) .

فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

يقول : (فإذا انشقت السماء) يوم القيامة ، كما دلت عليه هذه الآية مع ما شاكلها من الآيات الواردة فى معناها كقوله : (وانشقت السماء فهى يومئذ واهية) ، وقوله : (ويوم تَشقّق السماء بالغمام ونُزّل الملائكة تنزيلا) ، وقوله : (إذا السماء انشقت . وأذنت لربها وحقت) .

وقوله : (فكانت وردة كالدهان) ، أى : تذوب كما يذوب الدُّرْدى والفضة فى السبك ، وتتلون كما تتلون الأصباغ التى يدهن بها ، فتارةً حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء ، وذلك من شدّة الأمر وهول يوم القيامة العظيم . وقد قال الإمام أحمد :

حدثنا أحمد بن عبد الملك ، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الصهباء ، حدثنا نافع أبو غالب الباهلى ، حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يبعث الناس يوم القيامة والسماء تَطِشّ عليهم (٣) » .

قال الجوهرى : الطّش : المطر الضعيف .

---

(١) كذا وقد سبق تخريج البيت ونسبته إلى الجعدى .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٧/٨٢ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/٢٦٦ - ٢٦٧ .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله : (وردة كالدهان) ، قال : هو الأديم الأحمر . وقال أبو كُدَيْنة عن قابوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس : (فكانت وردة كالدهان) : كالفرس الورد (١) . وقال العوفى ، عن ابن عباس : تغير لونها . وقال أبو صالح : كالبِرْذَون الورد ، ثم كانت بعد كالدهان .

وحكى البَغَوى وغيره : أن الفرس الورد تكون فى الربيع صفراء ، وفى الشتاء حمراء ، فإذا اشتد البرد اغبرّ لونها .

وقال الحسن البصرى : تكون ألوانا . وقال السدى : تكون كلون البغلة الوردة ، وتكون كالمهل كدردىّ الزيت . وقال مجاهد : (كالدهان) : كألوان الدهان . وقال عطاء الخراسانى : كلون دُهْن الوَرْد فى الصفرة . وقال قتادة : هى اليوم خضراء ، ويومئذ لونها إلى الحمرة ، يوم ذى ألوان . وقال أبو الجوزاء : فى صفاء الدهن . وقال ابن جريج : تصير السماء كالدّهن الذائب ، وذلك حين يُصيبها حَرّ جهنم .

وقوله : (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) ، وهذه كقوله : (هذا يومُ لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون) (٢) ، فهذا فى حال ، وثَمّ حال يسأل الخلائق [فيها] (٣) عن جميع أعمالهم ، قال الله تعالى : (فو ربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون) (٤) . ولهذا قال قتادة : (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) ، قال : قد كانت مسألة ، ثم ختم على أفواه القوم ، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : لا يسألهم : هل عملتم كذا وكذا ؟ لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يقول : لم عملتم كذا وكذا ؟ فهذا قول ثان .

وقال مجاهد فى هذه الآية : لا يسأل الملائكة عن المجرم ، يَعرفون بسيماهم .

وهذا قول ثالث . وكأن هذا بعد ما يؤمر بهم إلى النار ، فذلك الوقت لا يسألون عن ذنوبهم ، بل يقادون إليها ويلقون فيها ، كما قال تعالى : (يعرف المجرمون بسيماهم) ، أى بعلامات تظهر عليهم .

وقال الحسن وقتادة : يعرفونهم باسوداد الوجوه وزرقة العيون .

قلت : وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء .

وقوله : (فيؤخذ بالنواصى والأقدام) ، أى : تجمع الزبانية ناصيته مع قدميه ، ويلقونه فى النار كذلك .

وقال الأعمش ، عن ابن عباس : يؤخذ بناصيته وقدمه ، فيكسر كما يكسر الحطب فى التنور .

وقال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدميه فى سلسلة من وراء ظهره .

وقال السّدّى : يجمع بين ناصية الكافر وقدميه ، فتربط ناصيته بقدمه ، ويفتل ظهره .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع ، حدثنا معاوية بن سلام ، عن أخيه زيد بن سلام : أنه سمع أبا سلام ــ يعنى جده ــ أخبرنى عبد الرحمن ، حدثنى رجل من كندة قال : أتيت عائشة فدخلت عليها ،

---

(١) تفسير الطبرى : ٨٢/٢٧ .
(٢) سورة المرسلات ، آية : ٣٥ ــ ٣٦ .
(٣) مابين القوسين زيادة أضفناها ليستقيم السياق .
(٤) سورة الحجر ، آية : ٩٢ ــ ٩٣ .

وبيْني وبينها حجاب ، فقلت : حدثك رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يأتى عليه ساعة لا يملك لأحد فيها شفاعة ؟ قالت : نعم ، لقد سألته عن هذا وأنا وهو فى شعَار واحد ، قال : « نعم ، حين يوضع الصراط ، لا أملك لأحد فيها شفاعة ، حتى أعلم أين يسلك بى ؟ ويوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، حتى أنظر ماذا يفعل بى – أو قال : يوحى – وعند الجسر حين يستحد ويستحر » فقالت : وما يستحد وما يستحر ؟ قال : يستحد حتى يكون مثل شفرة السيف ، ويستحر حتى يكون مثل الجمرة ، فأما المؤمن فيُجيزُه (١) لا يضره ، وأما المنافق فيتعلق حتى إذا بلغ أوسطه خرّ من قدمه فيهوى بيده إلى قدميه – قالت : فهل رأيت من يسعى حافيا فتأخذه شوكة حتى تكاد تنفذ قدميه ، فإنها كذلك يهوى بيده ورأسه إلى قدميه ، فتضربه الزبانية بخطاف فى ناصيته وقدمه ، فتقذفه فى جهنم ، فيهوى فيها مقدار خمسين عاما . قلت : ما ثقل الرجل ؟ قالت : ثقل عشر خلِفات(٢) سمان ، فيومئذ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام(٣) » .

هذا حديث غريب ، وفيه ألفاظ منكر رفعها ، وفى الإسناد من لم يُسَمَّ ، ومثله لا يحتجّ به ، والله أعلم .

وقوله : (هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون) ، أى : هذه النار التى كنتم تكذبون بوجودها هاهى حاضرة تشاهدونها عياناً ؛ يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخا وتصغيرا وتحقيرا .

وقوله : (يطوفونَ بينها وبين حميم آن) ، أى : تارة يُعَذّبون فى الجحيم ، وتارة يسقون من الحميم ، وهو الشراب الذى هو كالنحاس المذاب ، يقطع الأمعاء والأحشاء . وهذه كقوله تعالى : (إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون . فى الحميم ثم فى النار يسجرون (٤)) .

وقوله : (آن) ، أى : حار ، قد بلغ الغاية فى الحرارة ، لا يستطاع من شدة ذلك .

قال ابن عباس فى قوله : (يطوفون بينها وبين حميم آن) ، أى : قد انتهى غليه ، واشتد حره (٥) . وكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والحسن ، والثورى ، والسدى .

وقال قتادة : قد أنَى طبخه منذ خلق [الله] السموات والأرض (٥) . وقال محمد بن كعب القرظى : يؤخذ العبد فيحرّكُ بناصيته فى ذلك الحميم ، حتى يذوب اللحمُ ويبقى العظمُ والعينان فى الرأس . وهى كالتى يقول الله تعالى : (فى الحميم ثم فى النار يسجرون) . والحميم الآن : يعنى الحار . وعن القرظى رواية أخرى : (حميم آن) ، أى : حاضر . وهو قول ابن زيد أيضا ، والحاضر ، لاينافى ماروى عن القرظى أولا أنه الحار ، كقوله تعالى : (تسقى من عين آنية)(٦) ، أى : حارّة شديدة الحر لا تستطاع ، وكقوله : (غير ناظرين إناه(٧)) ، يعنى استواءه ونضجه ، فقوله : (حميم آن) ، أى : حميم حار جدا . ولما كان معاقبة العصاة المجرمين وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله

---

(١) أى : يقطعه .
(٢) الخلفات : جمع خلفة – بفتح فكسر – وهى : الحامل من النوق .
(٣) أخرجه السيوطى بنحوه عن عبد الرزاق ، انظر الدر المنثور : ١٤٥/٦ .
(٤) سورة غافر ، آية : ٧١ – ٧٢ .
(٥) تفسير الطبرى : ٨٤/٢٧ .
(٦) سورة الغاشية ، آية : ٥ .
(٧) سورة الأحزاب ، آية : ٥٣ .

ولطفه بخلقه ، وكان إنذاره لهم عذابه وبأسه مما يزجرهم عماهم فيه من الشرك والمعاصى وغير ذلك ، قال ممتنا بذلك على بريته : (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) .

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣)

قال ابن شوذب ، وعطاء الخراسانى : نزلت هذه الآية : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فى أبى بكر الصديق .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن مصفى ، حدثنا بقية ، عن أبى بكر بن أبى مريم، عن عطية بن قيس فى قوله : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) : نزلت فى الذى قال : أحرقونى بالنار لعلى أضل (١) الله ، قال : تاب يوما وليلة بعد أن تكلم بهذا ، فقبل الله منه وأدخله الجنة (٢) .

والصحيح أن هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره ، يقول تعالى : ولمن خاف مقامه بين يدى الله عز وجلّ يوم القيامة ، (ونهى النفس عن الهوى) ، ولم يطغ ولا آثر الحياة الدنيا ، وعلم أن الآخرة خير وأبقى ، فأدى فرائض الله ، واجتنب محارمه ، فله يوم القيامة عند ربه جنتان ، كما قال البخارى رحمه الله :

حدثنا عبد الله بن أبى الأسود ، حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد العَمّى ، حدثنا أبو عمْرانَ الجَوْنى ، عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس ، عن أبيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « جَنّتان من فضة ، آنيتهما ومافيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجلّ إلا رداءُ الكبرياء على وجهه فى جنة عدن (٣) » .

وأخرجه بقية الجماعة إلا أبا داود ، من حديث عبد العزيز ، به (٤) .

[وقال حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أبى بكر بن أبى موسى ، عن أبيه ــ قال حماد : ولا أعلمه إلا قد رفعه ــ فى قوله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ، وفى قوله : (ومن دونهما جنتان) : جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين) .

وقال ابن جرير : حدثنا زكريا بن يحيى بن أبان[المصرى](٥) ، حدثنا ابن أبى مريم ، أخبرنا محمد بن جعفر ، عن محمد بن [أبى] حرملة ، عن عطاء بن يَسَار ، أخبرنى أبو الدرداء : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ يوما

(١) أى : أفوته ويخفى عليه مكانى . وقيل : لعلى أغيب عن عذاب الله تعالى .

(٢) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن ابن أبى حاتم : ٦/١٤٦ .

(٣) البخارى ، تفسير سورة الرحمن : ٦/١٨١ .

(٤) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم سبحانه وتعالى » : ١/١١٢ . وتحفة الأحوذى ، أبواب صفة الجنة ، باب « ماجاء فى صفة غرف الجنة » ، الحديث ٢٦٤٨ : ٧/٢٣٢ ــ ٢٣٤ . وابن ماجه ، المقدمة ، باب « فيما أنكرت الجهمية » ، الحديث ١٨٦ : ١/٦٦ ــ ٦٧ .

(٥) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى . ولم تقع لنا ترجمته ، وانظره أيضاً فى تفسير الطبرى ، الأثر ٥٩٧٣ : ٥/٤٩٠ ، بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر .

هذه الآية : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ، فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ فقال : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) . فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ [فقال : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) . فقلت : وإن زنى وإن سرق] يا رسول الله ؟ فقال : « وإن رَغِم أنف أبي الدرداء » .

ورواه النسائي من حديث محمد بن [أبي] حرملة ، به . ورواه النسائي أيضا عن مُؤَمَّل بن هشام ، عن إسماعيل ، عن الجُرَيْرى ، عن موسى ، عن محمد بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبي الدرداء ، به . وقد روى موقوفا على أبي الدرداء . ورُوى عنه أنه قال : إن من خاف مقام ربه لم يزن ولم يسرق .

وهذه الآية عامة في الانس والجن ، فهي من أدَلّ دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا ، ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال : (ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان) .

ثم نعت هاتين الجنتين فقال : (ذواتا أفنان) ، أي : أغصان نَضِرَة حسنة ، تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة ، (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟) . هكذا قال عطاء الخراساني وجماعة : أن الأفنان أغصانُ الشجَر ، يمس بعضُها بعضاً .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا مسلم بن قتيبة ، حدثنا عبد الله بن النعمان ، سمعت عكرمة يقول : (ذواتا أفنان) ، يقول : ظل الأغصان على الحيطان ، ألم تسمع قول الشاعر حيث يقول (١) :

ما هاجَ شَوْقَكَ من هَدِيل حَمَامَةٍ ... تَدْعُو على فَنَنِ الغُصُون حَمَامَا
تَدْعُو أبا فَرْخَين صادف طاويا (٢) ... ذا مخلبين من الصقور قَطاما (٣)

وحكى البغوي عن مجاهد ، وعكرمة ، [والضحاك (٤)] والكلبي : أنه [الغصن المستقيم (٤)] .

قال : وحدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عبد السلام بن حرب ، حدثنا عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس : (ذواتا أفنان) : ذواتا ألوان .

قال : ورُوى عن سعيد بن جبير ، والحسن ، والسدى [وخُصَيْف (٤)] والنضر بن عربي ، وأبي سنان مثلُ ذلك ، ومعنى هذا القول أن فيهما فنونا من الملاذ ، واختاره ابن جرير (٥) .

وقال عطاء : كل غصن يجمع فنونا من الفاكهة . وقال الربيع بن أنس : (ذواتا أفنان) واسعتا الفناء .

وكل هذه الأقوال صحيحة ، ولا منافاة بينها والله أعلم . وقال قتادة : (ذواتا أفنان) ، يُنبىء بسعتها وفضلها ومزيتها على ما سواها (٦) .

---

(١) البيتان في تفسير الطبري غير منسوبين : ٨٦/٢٧ . والأول في اللسان ، مادة : هدل .
(٢) في مخطوطة الأزهر : « طارقا » والمثبت من الطبعات السابقة والدر المنثور ١٤٧/٦ . وفي تفسير الطبري : « ضاريا » .
(٣) أي : ميال للحم .
(٤) ما بين القوسين من الطبعات السابقة .
(٥) تفسير الطبري : ٨٥/٢٧ .
(٦) لفظ الطبري ٨٦/٢٧ : « يعني فضلهما وسعتهما على ما سواهما » .

وقال محمد بن إسحاق ، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه ، عن أسماء قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وذكر سدرة المنتهى ــ فقال : « يسير فى ظل الفنن منها الراكب مائة سنة ــ أو قال : يستظل (١) فى ظل الفنن منها مائة راكب ــ فيها فراش الذهب ، كأن ثمرها [القلال] » .

رواه الترمذى من حديث يونس بن بكير ، به (٢) .

(فيهما عينان تجريان) ، أى : تسرحان لسقى تلك الأشجار والأغصان فتثمر(٣) من جميع الألوان ، (فبأى آلاء ربكما تكذبان) ، قال الحسن البصرى : إحداهما يقال لها « تسنيم » ، والأخرى « السلسبيل » .

وقال عطية : إحداهما من ماء غير آسن ، والأخرى [من خمر] لذة للشاربين .

ولهذا قال بعد هذا : (فيهما من كل فاكهة زوجان) ، أى : من جميع أنواع الثمار مما يعلمون وخير مما يعلمون ، ومما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، (فبأى آلاء ربكما تكذبان) .

قال إبراهيم بن الحكم بن أبان ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ما فى الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهى فى الجنة حتى الحنظلة (٤) .

وقال ابن عباس : ليس فى الدنيا مما فى الآخرة إلا الأسماء : يعنى أن بين ذلك بوناً عظيماً وفرقاً بيناً فى التفاضل .

مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (٥٦) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ (٦٠) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١)

يقول تعالى : (متكئين) ، يعنى أهل الجنة . والمراد بالاتكاء هاهنا : الاضطجاع . ويقال : الجلوس على صفة التربع ، (على فرش بطائنها من إستبرق) ، وهو : ما غلظ من الديباج . قاله عكرمة ، والضحاك ، وقتادة .

وقال أبو عمران الجونى : هو الديباج المُزَوَّرى (٥) بالذهب . فنبه على شرف الظهارة بشرف البطانة ، وهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى .

قال أبو إسحاق ، عن هبيرة بن يريم ، عن عبد الله بن مسعود قال : هذه البطائن فكيف لو رأيتم الظواهر (٦) ؟ .
وقال مالك بن دينار : بطائنها من إستبرق ، وظواهرها من نور .

---

(١) لفظ الترمذى : « أو : يستظل بظلها مائة راكب ــ شك يحيى ــ فيها ... » .
(٢) تحفة الأحوذى ، أبواب صفة الجنة ، باب « ما جاء فى صفة ثمار الجنة » ، الحديث ٢٦٦٤ : ٧/٢٤٨ .
(٣) فى المخطوطة : « لينمو من جميع الألوان » . والمثبت من الطبعات السابقة .
(٤) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم : ٦/١٤٧ .
(٥) أى : المطلى .
(٦) تفسير الطبرى : ٢٧/٨٦ .

وقال سفيان الثورى — أو : شريك — : بطائنها من إستبرق ، وظواهرها من نور جامد .

وقال القاسم بن محمد : بطائنها من إستبرق ، وظواهرها من الرحمة .

وقال ابن شوذب ، عن أبى عبد الله الشامى : ذكر الله البطائن ولم يذكر الظواهر . وعلى الظواهر المحابس (١) ، ولا يعلم ما تحت المحابس (١) إلا الله . ذكر ذلك كله الإمام ابن أبى حاتم .

(وجنى الجنتين دان) ، أى : ثمرهما قريب إليهم ، متى شاءوا تناولوه ، على أى صفة كانوا . كما قال :(قطوفها دانيةٌ (٢)) ، وقال : (ودانيةً عليهم ظلالُها ، وذُلّلت قطوفها تذليلا (٣)) ، أى : لا تمتنع ممن تناولها ، بل تنحط إليه من أغصانها ، (فبأى آلاء ربكما تكذبان) .

ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك : (فيهن) ، أى : فى الفرش (قاصرات الطرف) ، أى : غضيضات عن غير أزواجهن ، فلا يرين شيئا أحسن فى الجنة من أزواجهن . قاله ابن عباس ، وقتادة ، وعطاء الخراسانى ، وابن زيد .

وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلها : والله ما أرى فى الجنة شيئاً أحسن منك ، ولا فى الجنة شىء أحب إلى منك ، فالحمد لله الذى جعلك لى وجعلنى لك .

(لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) ، أى : بل هن أبكار عُرُبٌ أتراب ، لم يطأهن [أحد] قبل أزواجهن من الإنس والجن . وهذه أيضا من الأدلة على دخول مؤمنى الجن الجنة .

قال أرطاة بن المنذر : سئل ضمرة بن حبيب : هل يدخل الجن الجنة ؟ قال : نعم ، وينكحون ، للجن جنيات ، وللإنس إنسيات (٤) . وذلك قوله : (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) .

ثم قال ينعتهن للخطاب : (كأنهن الياقوت والمرجان) ، [قال مجاهد ، والحسن ، وابن زيد ، وغيرهم : فى صفاء الياقوت وبياض المرجان] ، فجعلوا المرجان هاهنا اللؤلؤ .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن حاتم ، حدثنا عَبيدة بن حُميد ، عن عطاء بن السائب ، عن عمرو بن ميمون الأودى ، عن عبد الله بن مسعود ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن المرأة من [نساء] أهل الجنة لترى بياض ساقها من وراء سبعين حُلّة من الحرير [حتى يرى مخها] وذلك أن الله تعالى يقول : (كأنهن الياقوت والمرجان) ، فأما الياقوت فانه حَجَرٌ لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيته من ورائه » .

وهكذا رواه الترمذى من حديث عَبيدة بن حميد وأبى الأحوص ، عن عطاء بن السائب ، به . ورواه موقوفا ، ثم قال : وهو أصح (٥) .

---

(١) فى المخطوسة : « المحاسن » . والمحابس : جمع « محبس » — بكسر الميم — وهو ما يبسط على وجه الفراش للنوم .

(٢) سورة الحاقة ، آية : ٢٣ .

(٣) سورة الإنسان ، آية : ١٤ .

(٤) تفسير الطبرى : ٨٨/٢٧ .

(٥) تحفة الأحوذى ، أبواب صفة الجنة ، باب « ماجاء فى صفة نساء أهل الجنة » ، الحديث ٢٦٥٥ ، ٢٦٥٦ : ٢٣٩/٧ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا يونس ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين ، على كل واحدة سبعون حلة ، يرى مخ ساقها من وراء الثياب (١) » .

تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه . وقد رواه مسلم من حديث إسماعيل بن عُلَيَّة ، عن أيوب ، عن محمد بن سيرين قال : إما تفاخروا وإما تذاكروا ، الرجال أكثر في الجنة أم النساء ؟ فقال أبو هريرة : أو لم يقل أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : « إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على أضْوَء كوكب دُرّي في السماء ، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان ، يُرَى مخ سُوقهما من وراء اللحم ، وما في الجنة أعزب (٢) » .

وهذا الحديث مُخَرَّجٌ في الصَّحيحيَن ، من حديث هَمّام بن مُنَبّه وأبي زُرْعَةَ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر ، حدثنا محمد بن طلحة ، عن حميد ، عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لغدوة في سبيل الله أو رَوحة خيرٌ من الدنيا وما فيها ، ولقاب قوس أحدكم ــ أو موضع قيده ــ يعني سوطه ــ من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحا ، ولطاب ما بينهما ، ولنَصيفها (٤) على رأسها خير من الدنيا وما فيها (٥) » .

ورواه البخاري من حديث أبي إسحاق ، عن حُمَيد ، عن أنس بنحوه (٦) .

وقوله : (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) ، أي : ما لمن أحسن في الدنيا العمل إلا الإحسان إليه في الدار الآخرة ، كما قال تعالى : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة (٧)) .

وقال البغوي : أخبرنا أبو سعيد الشريحيّ ، حدثنا أبو إسحاق الثعلبي ، أخبرني ابن فَنجُوَيه ، حدثنا ابن شيبة ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن بهرام ، حدثنا الحجاج بن يوسف المكتب ، حدثنا بشر بن الحسين ، عن الزبير بن عَدى ، عن أنس بن مالك قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) ، وقال : « هل تدرون ما قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « يقول : هل جزاء من أنعمتُ عليه بالتوحيد إلا الجنة » .

ولما كان في الذي ذُكِرَ نِعَمٌ عظيمة لا يقاومها عمل ، بل مجرد تفضل وامتنان ، قال بعد ذلك كله : (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٤٥ .

(٢) مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب « أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر وصفاتهم وأزواجهم » : ٨/١٤٥ ــ ١٤٦ .

(٣) مسلم ، في الكتاب والباب السابقين : ٨/١٤٦ . والبخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب « ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة » : ٤/١٤٣ .

(٤) أي : خمارها .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣/١٤١ .

(٦) البخاري ، كتاب الجهاد ، باب « الحور العين » : ٤/٢٠ ، ٢١ .

(٧) سورة يونس ، آية : ٢٦ .

ومما يتعلق بقوله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ، ما رواه الترمذى والبغوى ، من حديث أبى النضر هاشم ابن القاسم ، عن أبى عقيل الثقفى ، عن أبى فروة يزيد بن سنان الرهاوى ، عن بكير بن فيروز ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » .

ثم قال الترمذى : « غريب (١) ، لا نعرفه إلا من حديث أبى النضر (٢) » .

وروى البغوى من حديث على بن حجر ، عن إسماعيل بن جعفر ، عن محمد بن أبى حرملة — مولى حويطب ابن عبد العزى — عن عطاء بن يسار ، عن أبى الدرداء : أنه سمع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقص على المنبر و هو يقول : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ، قلت : وإن زنى وإن سرق يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) . فقلت الثانية : وإن زنى وإن سرق يا رسول الله ؟ فقال : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) . فقلت الثالثة : وإن زنى وإن سرق يا رسول الله ؟ فقال : « وإن رغم أنف أبى الدرداء » .

وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما فى المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن ، قال الله تعالى : (ومن دونهما جنتان) ، وقد تقدم فى الحديث : « جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما » ، فالأوليان للمقربين ، والأخريان لأصحاب اليمين » .

وقال أبو موسى : جنتان من ذهب (للمقربين) ، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين .

وقال ابن عباس : (ومن دونهما جنتان) ، من دونهما فى الدرج . وقال ابن زيد : من دونهما فى الفضل .

والدليل على شرف الأوليين على الأخريين وجوه أحدها : أنه نعت الأوليين قبل هاتين ، والتقدم يدل على الاعتناء ، ثم قال : (ومن دونهما جنتان) . وهذا ظاهر فى شرف التقدم وعلوه على الثانى .

وقال هناك : (ذواتا أفنان) ، وهى الأغصان أو الفنون فى الملاذ ، وقال هاهنا : (مدهامتان) ، أى : سوداوان من شدة الرى .

---

(١) فى تحفة الأحوذى : « حسن غريب » .

(٢) تحفة الأحوذى ، أبواب صفة القيامة ، الحديث ٢٥٦٧ : ٧/ ١٤٦ — ١٤٧ .

قال ابن عباس فى قوله : (مدهامتان) : قد اسودتا من الخضرة ، من شدة الرى من الماء .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن فضيل ، حدثنا عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : (مدهامتان) ، قال : خضراوان . ورُوىَ عن أبى أيوب الأنصارى ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله ابن أبى أوفى ، وعكرمة ، وسعيد بن جُبَير ، ومجاهد ـ فى إحدى الروايات ـ وعطاء ، وعطية العوفى ، والحسن البصرى ، ويحيى بن رافع ، وسفيان الثورى ، نحو ذلك .

وقال محمد بن كعب : (مدهامتان) : ممتلئتانُ من الخضرة . وقال قتادة : خضراوان من الرى ناعمتان . ولاشك فى نضارة الأغصان على الأشجار المشتبكة بعضها فى بعض . وقال هناك : (فيهما عينان تجريان) ، وقال هاهنا : (نضاختان) ، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أى فياضتان . والجرى أقوى من النضخ .

وقال الضحاك : (نضاختان) ، أى : ممتلئتان لاتنقطعان .

وقال هناك : (فيهما من كل فاكهة زوجان) ، وقال هاهنا : (فيهما فاكهة ونخل ورمان) ، ولا شك أنّ الأولى أعمّ وأكثر فى الأفراد والتنويع على(١)فاكهة ، وهى نكرة فى سياق الإثبات لاتعم . ولهذا فُسّر قوله:(ونخل ورمان) من باب عطف الخاص على العام ، كما قرره البخارى وغيره ، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما .

قال عبد بن حميد : حدثنا يحيى بن عبد الحميد ، حدثنا حصين بن عمر ، حدثنا مخارق ، عن طارق بن شهاب ، عن عمر بن الخطاب قال : جاء أناس من [اليهود] إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : يا محمد ، أفى الجنة فاكهة ؟ قال : « نعم فيها فاكهة ونخل ورمان » . قالوا : أفيأكلون كما يأكلون فى الدنيا ؟ « قال : نعم وأضعاف » . قالوا : فيقضون الحوائج ؟ قال : « لا ، ولكنهم يَعرَقُون ويرشَحُون ، فيذهب الله مافى بطونهم من أذى » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا الفضل بن دكين ، حدثنا سفيان ، عن حماد ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : نخل الجنة سعفها كسوة لأهل الجنة ، منها مُقَطَّعَاتهم ،ومنها حُلَلهم وكَرَبُها(٢) ذهب أحمر ، وجذوعها زمرد أخضر ، وثمرها أحلى من العسل ، وألين من الزبد ، وليس له عَجَم (٣) » .

وحدثنا أبى : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد ـ هو ابن سلمة ـ عن أبى هارون ، عن أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نظرت إلى الجنة فاذا الرّمانة من رمانها كمثل البعير المُقتَب (٤) » .

ثم قال : (فيهن خيرات حسان) . قيل : المراد خيرات كثيرة حسنة فى الجنة ، قاله قتادة . وقيل : خيرات : جمع خيرة ، وهى المرأة الصالحة الحسنة الخُلُق الحسنة الوجه ، قاله الجمهور ، وروى مرفوعا عن أم سلمة . وفى الحديث

---

(١) كذا ، والعبارة غير مستقيمة .

(٢) الكرب ـ بفتح الكاف والراء ـ : أصل السعف . وقيل : ما يبقى من أصوله فى النخلة بعد القطع .

(٣) العجم ـ بفتحتين ـ : النوى .

(٤) أى : الذى شد عليه القتب ، وهو رحل صغير على قدر سنام البعير .

الآخر الذى سنورده فى « سورة الواقعة(١) » : أن الحور العين يغنين : نحن الخيرات الحسان ، خلقنا لأزواج كرام ؛ ولهذا قرأ بعضهم : (فيهن خيّرات (٢)) ، بالتشديد (حسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) ؛

ثم قال : (حور مقصورات فى الخيام) ، وهناك قال : (فيهن قاصرات الطرف) ، ولا شك أن التى قد قصرت طرفها بنفسها أفضل ممن قُصرت ، وإن كان الجميع مخدرات ؛

قال ابن أبى حاتم : حدثنا عمرو بن عبد الله الأودى ، حدثنا وكيع عن سفيان ، عن جابر ، عن القاسم بن أبى بزّة ، عن أبى عبيدة (٣) ، عن مسروق ، عن عبد الله قال : إن لكل مسلم خَيرة ولكل خَيّرة خيمة ، ولكل خيمة أربعة أبواب ، يدخل عليها (٤) كل يوم تحفة وكرامة وهدية لم تكن قبل ذلك ، لامَرَاحات(٥) ولا طمّاحات (٦)، ولا بخرات [ولا] ذفرات ، حور عين ، كأنهن بيض مكنون ،

وقوله : (فى الخيام) ، قال البخارى :

حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد ، حدثنا أبو عمران الجونى ، عن أبى بكر بن عبد الله ابن قيس ، عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن فى الجنة خيمةً من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلا ، فى كل زاوية منها أهلٌ مايَرَونَ الآخرين ، يطوف عليهم المؤمنون (٧) » ؛

ورواه أيضا من حديث [أبى] عمران ، به وقال : « ثلاثون (٨) ميلا » . وأخرجه مسلم من حديث أبى عمران ، به ، ولفظه : « إن للمؤمن فى الجنة لخيمةً من لؤلؤة واحدة مجوفة ، طولها ستون ميلا ، للمؤمن فيها أهل (٩) يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضُهم بعضا (١٠) » ؛

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن أبى الربيع ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن قتادة ، أخبرنى خُلَيد العَصرى ، عن أبى الدرداء قال : الخيمة لؤلؤة واحدة ، فيها سبعون بابا من در ؛

---

(١) وذلك عند الآيات : ٣٥ – ٣٨ من هذه السورة .

(٢) البحر المحيط لأبى حيان : ١٩٨/٨ – ١٩٩ .

(٣) كذا ، وفى تفسير الطبرى ٩٢٢/٧ : «عبيد»

(٤) فى المخطوطة : « يدخل عليه » . والمثبت الدر المنثور : ١٥٠/٦ .

(٥) فى المخطوطة : « مرحان » . وفى الطبعات السابقة : « مرحات » والمثبت من الدر المنثور . ولعل المعنى من المرح وهو الأشر والبطر . .

(٦) فى المخطوطة كلمة غير واضحة ، وفى الطبعات السابقة : « طمحات » . والمثبت من الدر المنثور أيضاً ، والمرأة الطماحة : هى التى تكثر بنظرها يميناً وشمالا إلى غير زوجها .

(٧) البخارى ، تفسير سورة الرحمن : ١٨٢/٦ .

(٨) البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب « ماجاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة » : ١٤٢/٤٠ – ١٤٣ .

(٩) لفظ مسلم : « أهلون »

(١٠) مسلم ، كتاب الجنة ، باب « فى صفة خيام الجنة . » ١٤٨/٨ .

وحدثنا أبي ، حدثنا عيسى بن أبي فاطمة ، حدثنا جرير ، عن هشام ، عن محمد بن المثنى ، عن ابن عباس في قوله : (حور مقصورات في الخيام) ، قال : خيام اللؤلؤ ، و [في] الجنة خيمة واحدة من لؤلؤة ، أربعة فراسخ في أربعة فراسخ ، عليها أربعة آلاف مصراع من الذهب .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرنا عمرو أن درّاجا أبا السَّمْح حدثه ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أدنى أهل الجنة منزلةً الذي له ثمانون ألف خادم ، واثنتان وسبعون زوجة ، وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت ، كما بين الجابية (١) وصنعاء » .

ورواه الترمذي من حديث عمرو بن الحارث ، به (٢) .

وقوله : (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) : تقدم مثله سواء ، إلا أنه زاد في وصف الأوائل بقوله : (كأنهن الياقوت والمرجان . فبأي آلاء ربكما تكذبان) .

وقوله : (متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان) ، قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : الرفرف : المحابس (٣) . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم : هي المحابس . وقال العلاء ابن بدر : الرفرف على السرير ، كهيئة المحابس المتدلى .

وقال عاصم الجَحْدَرِيّ : (متكئين على رفرف خضر) ، يعني : الوسائد . وهو قول الحسن البصري في رواية عنه .
وقال أبو داود الطيالسي ، عن شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير في قوله : (متكئين على رفرف خضر) ، قال : الرفرف رياض الجنة .

وقوله : (وعبقري حسان) ، قال ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي : العبقري : الزرابي . وقال سعيد ابن جبير : هي عتاقُ الزرابي ، يعني : جيادها (٤) .

وقال مجاهد : العبقري الديباج .

وسُئل الحسن البصري عن قوله : (وعبقري حسان) ، فقال : هي بُسُط أهل الجنة – لا أبالكم – فاطلبوها .
وعن الحسن رواية : أنها المرافق . وقال زيد بن أسلم : العبقري : أحمر وأصفر وأخضر . وسئل العلاء بن زيد عن العبقري فقال : البسط أسفل من ذلك . وقال أبو حَزْرَةَ يعقوبُ بن مجاهد : العبقري : من ثياب أهل الجنة ، لا يعرفه أحد . وقال أبو العالية : العبقري : الطنافس المُخْمَلَة ، إلى الرِّقة ما هي . وقال القُتَيْبي : كل ثوب موشّى عند العرب عبقريّ . وقال أبو عُبَيدة : هو منسوب إلى أرض يعمل بها الوشي (٥) . وقال الخليل بن أحمد : كل شيء يسر (٦)

---

(١) الجابيه : قرية بالشام .
(٢) تحفة الأحوذي ، أبواب صفة الجنة ، باب « ماجاء ما لأدنى أهل الجنة من الكرامة » ، الحديث ٢٦٨٧ : ٧/٢٧٤–٢٨٠ .
(٣) تقدم تفسير هذه الكلمة من قريب .
(٤) تفسير الطبري : ٢٧/٩٥ .
(٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة : ٢/٢٤٦ .
(٦) كذا في المخطوطة . وفي الطبعات السابقة : « كل شيء نفيس » .

من الرجال وغير ذلك يسمى عند العرب عبقريا . ومنه قول النبي – صلى الله عليه وسلم – في عمر : « فلم أر عبقريا يفري فريه (١) » .

وعلى كل تقدير فصفة [مرافق] أهل الجنتين الأولين أرفع وأعلى من هذه الصفة ، فانه قد قال هناك : (متكئين على فرش بطائنها من إستبرق) ، فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظهائرها ، اكتفاء بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأحرى . وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة : (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟) فوصف أهلها بالإحسان وهو أعلى المراتب والنهايات ، كما في حديث جبريل لما سأل عن الإسلام ، ثم الإيمان ، ثم الإحسان : فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأولين على هاتين الأخريين ، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من [أهل] الأولين .

ثم قال : (تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) ، أي : هو أهل أن يجل فلا يعصى ، وأن يكرم فيعبد ، ويشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى .

وقال ابن عباس : (ذي الجلال والإكرام) : ذي العظمة والكبرياء .

وقال الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان ، عن عمير بن هانيء ، عن أبي العذراء ، عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أجلوا الله يغفر لكم (٢) » .

وفي الحديث الآخر : « إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم ، وذي السلطان ، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه (٣) » .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو يوسف الحربي ، حدثنا مؤمل بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، حدثنا حميد الطويل ، عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألظوا (٤) بياذا الجلال والإكرام » .

وكذا رواه الترمذي ، عن محمود بن غيلان ، عن مؤمل بن إسماعيل ، عن حماد بن سلمة ، به ثم قال : « غلط المؤمل فيه ، وهو غريب وليس بمحفوظ ، وإنما يروى هذا عن حماد بن سلمة ، عن حميد ، عن الحسن ، عن النبي صلى الله عليه وسلم . (٥) » .

---

(١) أي : يعمل عمله . والحديث أخرجه البخاري في كتاب المناقب ، باب « فضل عمر » ٥/ ١٣ ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب « من فضائل عمر » ٧/ ١١٢ – ١١٣ . وانظره في أسد الغابة : ٤/ ١٦٦ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/ ١٩٩ . وبعده : « قال ابن ثوبان : يعني أسلموا » .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « في تنزيل الناس منازلهم » .

(٤) أي : الزموه وأثبتوا عليه وأكثروا من قوله والتلفظ به في دعائكم .

(٥) تحفة الأحوذي ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٥٩٤ ، ٩/ ٥٤١ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا [إبراهيم] بن إسحاق ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن يحيى بن حسان المقدسي ، عن ربيعة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ألظّوا بذي (١) الجلال والإكرام (٢) » .

ورواه النسائي من حديث عبد الله بن المبارك ، به .

قال الجوهري : ألَظّ فلان بفلان : إذا لزمه .

وقول ابن مسعود « ألظوا بياذا الجلال والإكرام » ، أي : الزموا . ويقال : الإلظاظ هو الإلحاح .

قلت : وكلاهما قريب من الآخر — والله أعلم — وهو المداومة واللزوم والإلحاح . وفي صحيح مسلم والسنن الأربعة ، من حديث عبد الله بن الحارث ، عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلّم لا يقعد يعني بعد الصلاة إلا قدر ما يقول : « اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت ذا الجلال والإكرام (٣) » .

آخر تفسير سورة الرحمن ، ولله الحمد

(١) في المسند : « بياذا » .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١٧٧/٤ .

(٣) مسلم ، كتاب المساجد ، باب « استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته » : ٢/٩٤ – ٩٥ ، وسنن أبي داود ، كتاب الوتر ، باب « مايقول الرجل إذا سلم » . وتحفة الأحوذي ، أبواب الصلاة ، باب « مايقول إذا سلم » ، الحديث ٢٩٧ : ٢/ ٢٩٢ – ١٩٣ . والنسائي ، كتاب السهو ، باب « الذكر بعد الاستغفار » : ٣/ ٦٩ . وسنن ابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب « ما يقال بعد التسليم » ، الحديث ٩٢٤ : ١/ ٢٩٨ .

تفسير سورة الواقعة

وهي مكية

قال أبو إسحاق ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال أبو بكر : يا رسول الله ، قد شبت ؟ قال : « شيبتني هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعمّ يتساءلون ، وإذا الشمس كورت » .

رواه الترمذي وقال : « حسن غريب (١) » .

وقال الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن مسعود بسنده إلى عمرو بن الربيع بن طارق المصري : حدثنا السري ابن يحيى الشيباني ، عن أبي شجاع ، عن أبي ظبية قال : مرض عبد الله مرضه الذي توفي فيه ، فعاده عثمان بن عفان فقال : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي . قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي . قال : ألا آمر لك بطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضني . قال : ألا آمر لك بعطاء ؟ قال : لا حاجة لي فيه . قال : يكون لبناتك من بعدك ؟ قال : أتخشى على بناتي الفقر ؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة ، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا » .

ثم قال ابن عساكر : « كذا قال ، والصواب عن « شجاع » ، كما رواه عبد الله بن وهب ، عن السري » وقال عبد الله بن وهب : أخبرني السّريّ بن يحيى أن شجاعا حدّثه ، عن أبي ظبية ، عن عبد الله بن مسعود قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا » . فكان أبو ظبية لا يدعها .

وكذا رواه أبو يعلى ، عن إسحاق بن إبراهيم ، عن محمد بن منيب عن [السري] بن يحيى ، عن شجاع ، عن أبي ظبية عن ابن مسعود به . ثم رواه عن إسحاق بن أبي إسرائيل ، عن محمد بن منيب العدَني ، عن السري بن يحيى ، عن أبي ظبية ، عن ابن مسعود : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا » لم يذكر في سنده « شجاعا » ، قال : وقد أمرت بناتي أن يقرأنها كل ليلة : وقد رواه ابن عساكر أيضا من حديث حجاج بن نصير وعثمان بن اليمان ، عن السري بن يحيى ، عن [شجاع] ، عن أبي فاطمة قال : مرض عبد الله ، فأتاه عثمان بن عفان يعوده ، فذكر الحديث بطوله . قال عثمان بن اليمان : كان أبو فاطمة هذا مولى لعلي بن أبي طالب (٢) .

---

(١) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة الواقعة ، الحديث ٣٣٥١ : ١٨٤/٩ .

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ، مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية برقم ١٢٥ تاريخ ، ورقة : ٢٩٤ ، وانظر الأثر في أسد الغابة : ٣٨٩/٣ — ٣٩٠ بتحقيقنا .

وقال أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا إسرائيل ويحيى بن آدم ، حدثنا إسرائيل ، عن سماك بن حرب : أنه سمع جابر بن سمرة يقول : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلي الصلوات كنحو من صلاتكم التي تصلون اليوم ، ولكنه كان يخفف ، كانت صلاته أخف من صلاتكم ، وكان يقرأ في الفجر « الواقعة » ونحوها من السور (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢)

الواقعة : من أسماء يوم القيامة ، سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها ، كما قال : (فيومئذ وقعت الواقعة (٢)) :

وقوله : (ليس لوقعتها كاذبة) ، أي : ليس لوقوعها إذا أراد الله كونها صارفٌ يصرفها ، ولا دافع يدفعها ، كما قال : (استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله) (٣) ، وقال : (سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع (٤)) ، وقال تعالى : (ويوم يقول كن فيكون ، قوله الحق وله الملك ، يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة ، وهو الحكيم الخبير (٥)) .

ومعنى (كاذبة) كما قال محمد بن كعب: لابد أن تكون . وقال قتادة : ليس فيها مثنوية (٦) ولا ارتداد ولا رجعة (٧) .

قال ابن جرير : والكاذبة : مصدر كالعاقبة والعافية (٧) :

وقوله : (خافضة رافعة) ، أي : تخفض أقواما إلى أسفل سافلين إلى الجحيم ، وإن كانوا في الدنيا أعزاء ، وترفع آخرين إلى أعلى عليين إلى النعيم المقيم ، وإن كانوا في الدنيا وضعاء . وهكذا قال الحسن ، وقتادة وغيرهما .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا يزيد بن عبد الرحمن بن مصعب المعني ، حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرؤاسي ، عن أبيه ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : (خافضة رافعة) : تخفض أناساً وترفع آخرين .

وقال عبيد الله العتكي ، عن عثمان بن سراقة(٨) ابن خالة عمر بن الخطاب : (خافضة رافعة) الساعة خفضت أعداء الله إلى النار ، ورفعت أولياء الله إلى الجنة .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/١٠٤ .
(٢) سورة الحاقة ، آية : ١٥ .
(٣) سورة الشورى ، آية : ٤٧ .
(٤) سورة المعارج ، آية : ١ ، ٢ .
(٥) سورة الأنعام ، آية : ٧٣ .
(٦) أي : استثناء .
(٧) تفسير الطبري : ٢٧/٩٦ .
(٨) كذا ، وقد ترجم له في الجرح والتعديل ٣/١١٥٥ : « عثمان بن عبد الله بن سراقة » . وفي الخلاصة مثله ، وفيها أيضاً أنه يروي عن خاله ابن عمر . وانظر الأثر في تفسير الطبري : ٢٧/٩٦ .

وقال محمد بن كعب : تخفض رجالاً كانوا فى الدنيا مرتفعين ، وترفع رجالا كانوا فى الدنيا مخفوضين .

وقال السدى : خفضت المتكبرين ورفعت المتواضعين .

وقال العَوفىّ ، عن ابن عباس : (خافضة رافعة) : أسمعت القريب والبعيد . وقال عكرمة : خفضت فأسمعت الأدنى ، ورفعت فأسمعت الأقصى . وكذا قال الضحاك ، وقتادة .

وقوله : (إذا رجت الأرض رجا) ، أى : حركت تحريكا فاهتزت واضطربت بطولها وعرضها : ولهذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغير واحد فى قوله : (إذا رجت الأرض رجا) ، أى : زلزلت زلزالا .

وقال الربيع بن أنس : تُرَجّ بما فيها كرَجّ الغربال بما فيه .

وهذه كقوله تعالى : (إذا زلزلت الأرض زلزالها (١)) ، وقال تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم (٢)) .

وقوله : (وبست الجبال بسا) ، أى : فُتِّتت فَتًّا . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، وغيرهم .

وقال ابن زيد : صارت الجبال كما قال تعالى : (كثيبا مهيلا) .

وقوله : (فكانت هباء منبثا) ، قال أبو إسحاق ، عن الحارث ، عن على — رضى الله عنه — : (هباء منبثا) كرهَج الغبار يسطع ثم يذهب ، فلا يبقى منه شيء .

وقال العَوفى ، عن ابن عباس فى قوله : (فكانت هباء منبثا) : الهباء الذى يطير من النار إذا اضطرمت يطير منه الشرر ، فإذا وقع لم يكن شيئا .

وقال عكرمة : المنبث : الذى قد ذرته الريح وبثته . وقال قتادة : (هباء منبثا) كيبيس الشجر الذى تذروه الرياح .

وهذه الآية كأخواتها الدالة على زَوَال الجبال عن أماكنها يوم القيامة ، وذهابها وتسيرها ونسفها — [أى قلعها] وصيرورتها كالعهن المنفوش .

وقوله : (وكنتم أزواجا ثلاثة) ، أى : ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف : قوم عن يمين العرش ، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن ، ويؤتون كتبهم بأيمانهم ويؤخذ بهم ذات اليمين . قال السدى : وهم جمهور أهل الجنة ؛ وآخرون عن يسار العرش ، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر ويؤتون كتبهم بشمائلهم ، ويؤخذ بهم ذات الشمال وهم عامة أهل النار — عياذاً بالله من صنيعهم — وطائفة سابقون بين يديه وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين [الذين] هم سادتهم ، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء وهم أقل عددا من أصحاب اليمين : ولهذا قال : (فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة . وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة . والسابقون السابقون) : وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة فى آخر السورة وقت احتضارهم ، وهكذا ذكرهم فى قوله تعالى : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا

---

(١) سورة الزلزلة ، آية : ١ .

(٢) سورة الحج ، آية : ١ .

من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله (١)) ... الآية ، وذلك على أحد القولين فى الظالم لنفسه كما تقدم بيانه .

قال سفيان الثورى ، عن جابر الجعفى ، عن مجاهد ، عن ابن عباس فى قوله : (وكنتم أزواجا ثلاثة) ، قال : هى التى فى سورة الملائكة : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات) .

وقال ابن جُرَيج ، عن ابن عباس : هذه الأزواج الثلاثة هم المذكورون فى آخر السورة وفى سورة الملائكة .

وقال يزيد الرقاشى : سألت ابن عباس عن قوله : (وكنتم أزواجا ثلاثة) ، قال : أصنافا ثلاثة .

وقال مجاهد : (وكنتم أزواجا ثلاثة) ، يعنى : فرقا ثلاثة . وقال ميمون بن مهران : أفواجا ثلاثة . وقال عُبَيد الله العَتَكِى ، عن عثمان بن سُرَاقة ، ابن خالة عمر بن الخطاب : (وكنتم أزواجا ثلاثة) : اثنان فى الجنة ، وواحد فى النار (٢) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن الصباح ، حدثنا الوليد بن أبى ثَور ، عن سماك ، عن النعمان ابن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وإذا النفوس زوجت) ، قال : الضرَباء ، كل رجل من كل قوم كانوا يعملون عمله ، وذلك بأن الله يقول : (وكنتم أزواجا ثلاثة . فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة . وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة . والسابقون السابقون) ، قال : هم الضرَباء .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبد الله بن المثنى ، حدثنا البراء الغَنَوِىّ ، حدثنا الحسن ، عن معاذ بن جبل : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — تلا هذه الآية : (وأصحاب اليمين) ، (وأصحاب الشمال) ، فقبض بيده قبضتين فقال : « هذه للجنة ولا أبالى ، وهذه للنار ولا أبالى (٣) » .

وقال أحمد أيضا : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا خالد بن أبى عمران ، عن القاسم بن محمد ، عن عائشة ، عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : الذين إذا أعطُوا الحقّ قَبِلوه ، وإذا سُئِلوه بذلوه ، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم (٤) » .

وقال محمد بن كعب وأبو حَزْرَةَ يعقوب بن مجاهد : (والسابقون السابقون) : هم الأنبياء عليهم السلام . وقال السدى : هم [أهل] عليين . وقال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : (والسابقون السابقون) ، قال : يوشع ابن نون ، سبق إلى موسى ، ومؤمن آل « يس » ، سبق إلى عيسى ، وعلى بن أبى طالب سبق إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . رواه ابن أبى حاتم ، عن محمد بن هارون الفلاس ، عن عبد الله بن إسماعيل المدائنى البزاز ، عن شُعَيب (٥) بن الضحاك المدائنى ، عن سفيان بن عُيَينة ، عن ابن أبى نَجِيح ، به .

---

(١) سورة فاطر ، آية : ٣٢ .

(٢) تفسير الطبرى ٢٧/٩٨ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٥/٢٣٩ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٦/٦٧ ، وانظر أيضاً : ٦/٦٩ .

(٥) فى المخطوطة : « سفيان بن الضحاك » . والمثبت من الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ٢/١/٣٤٨ — ٣٤٩ ، ٢/٢/٤ .

وقال ابن أبي حاتم : وذكر محمد بن أبي حماد ، حدثنا مهران ، عن خارجة ، عن قرة ، عن ابن سيرين : ﴿ والسابقون السابقون ﴾ ، الذين صلوا للقبلتين .

ورواه ابن جرير من حديث خارجة ، به (١) .

وقال الحسن وقتادة : ﴿ والسابقون السابقون ﴾ ، أي : من كل أمة .

وقال الأوزاعي ، عن عثمان بن أبي سودة أنه قرأ هذه الآية . ﴿ والسابقون السابقون . أولئك المقربون ﴾ ، ثم قال : أولهم رواحا إلى المسجد ، وأولهم خروجا في سبيل الله (١) .

وهذه الأقوال كلها صحيحة ، فإن المرادَ بالسابقين هم المبادرونَ إلى فعل الخيرات كما أمروا ، كما قال تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض (٢) ﴾ ، وقال : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض (٣) ﴾ ، فمن سابق في هذه الدنيا وسبَق إلى الخير ، كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة ، فإن الجزاء من جنس العمل ، وكما تدين تدان . ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك المقربون . في جنات النعيم ﴾ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن زكريا القزّاز (٤) الرازي ، حدثنا خارجة بن مُصعَب ، عن زيد ابن أسلم ، عن عطاء بن يسَار ، عن عبد الله بن عمرو قال : قالت الملائكة : يارب ، جعلتَ لبني آدم الدنيا فهم يأكلون ويشربون ويتزوجون ، فاجعل لنا الآخرة . فقال : لا أفعل . فراجعوا ثلاثا ، فقال : لا أجعل من خلقت بيدي كمن قلت له : كن ، فكان . ثم قرأ عبد الله : ﴿ والسابقون السابقون . أولئك المقربون . في جنات النعيم ﴾ .

وقد روى هذا الأثر الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في كتابه « الرد على الجهمية » ، ولفظه : فقال الله عز وجل : « لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي ، كمن قلت له : كن ، فكان » .

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن هؤلاء السابقين المقربين أنهم ثلَّة ، أي : جماعة من الأولين ، وقليل من الآخرين . وقد اختلفوا في المراد بقوله ﴿ الأولين ﴾ و ﴿ الآخرين ﴾ . فقيل : المراد بالأولين الأمم الماضية ، وبالآخرين هذه الأمة ،

---

(١) تفسير الطبري : ٢٧/٩٩ .
(٢) سورة آل عمران ، آية : ١٣٣ .
(٣) سورة الحديد ، آية : ٢١ .
(٤) في المخطوطة : « الفزاري » ، والمثبت من ترجمة « يحيى » في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٤/٢/١٤٥ .

هذا رواية عن مجاهد ، والحسن البصرى ، رواها عنهما ابن أبى حاتم . وهو اختيار ابن جرير ، واستأنس بقوله صلى الله عليه وسلم : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة (١) » . ولم يحك غيره ، ولا عزّاه إلى أحد .

ومما يستأنس به لهذا القول ما رواه الإمام أبو محمد بن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع ، حدثنا شريك ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبى هريرة قال : لما نزلت : (ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين) ، شق ذلك على أصحاب النبى – صلى الله عليه وسلم – فنزلت : (ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين) فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، ثلث أهل الجنة ، بل أنتم نصف أهل الجنة – أو : شطر أهل الجنة – وتقاسمونهم النصف الثانى » .

ورواه الإمام أحمد ، عن أسود بن عامر ، عن شريك ، عن محمد بياع الملاء ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، فذكره (٢) : وقد روى من حديث جابر نحو هذا ، ورواه الحافظ ابن عساكر من طريق هشام بن عمار : حدثنا عبد ربه ابن صالح ، عن عُروة بن رُوَيم ، عن جابر بن عبد الله ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : لما نزلت (إذا وقعت الواقعة) ، ذكر فيها ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ، قال عمر : يا رسول الله ، ثلة من الأولين وقليل منا ؟ [قال : فأمسك] آخر السورة سنة ، ثم نزل (٣) : (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [يا عمر] ، تعال فاسمع ما [قد] أنزل الله : (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) ، ألا وإن من (٤) آدم إلىّ ثلة ، وأمتى ثلة ، ولن نستكمل [ثلثنا] حتى نستعين بالسودان من رعاة الإبل ممن شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له (٥) » .

هكذا أورده فى ترجمة « عُرْوَة بن رُوَيم » ، إسنادا [ومتنا] ، ولكن فى إسناده نظر . وقد وردت طرق كثيرة متعددة بقوله صلى الله عليه وسلم : « إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة » ... الحديث بتمامه ، وهو مفرد فى « صفة الجنة » ولله الحمد والمنة : وهذا الذى اختاره ابن جرير هاهنا فيه نظر ، بل هو قول ضعيف ، لأن هذه الأمة هى خير الأمم بنص القرآن ، فيبعد أن يكون المقربون فى غيرها أكثر [منها] . اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة ، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم ، والله أعلم ، فالقول الثانى فى هذا المقام هو الراجح ، وهو أن يكون المراد بقوله : (ثلة من الأولين) ، أى : من صدر هذه الأمة ، (وقليل من الآخرين) ، أى : من هذه الأمة .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا عفان ، حدثنا عبد الله بن بكر المزنى ، سمعت الحسن : أتى على هذه الآية : (والسابقون السابقون . أولئك المقربون) ، فقال : أما السابقون فقد مضوا ، ولكن اللهم اجعلنا من أهل اليمين .

ثم قال : حدثنا أبى ، حدثنا أبو الوليد ، حدثنا السرى بن يحيى قال : قرأ الحسن : (والسابقون السابقون . أولئك المقربون . فى جنات النعيم . ثلة من الأولين) ، قال : ثلة ممن مضى من هذه الأمة .

(١) لم يسق ابن جرير هذا الحديث ، انظر : ٢٧/٩٩ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٩١ .
(٣) فى تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر : « ثم أنزل الله تبارك وتعالى » .
(٤) فى المخطوطة : « ألا وإن من بنى آدم » . والمثبت من تاريخ مدينة دمشق .
(٥) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، ميكروفيلم فى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، برقم ١٢٥/٢ تاريخ ، القسم ١١ ، ورقة : ٢٧٩ .

وحدثنا أبي ، حدثنا عبد العزيز بن المغيرة المنقرى ، حدثنا أبو هلال ، عن محمد بن سيرين أنه قال فى هذه الآية : ﴿ ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين ﴾ ، قال : كانوا يقولون أو يرجون أن يكونوا كلهم من هذه الأمة . فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة . ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها ، فيحتمل أن يعم الأمر جميع الأمم كل أمة بحسبها ، ولهذا ثبت فى الصحاح وغيرها من غير وجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم (١) » الحديث بتمامه . فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا زياد أبو عمر ، عن الحسن ، عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل أمتى مثل المطر ، لا يدرى أوله خير أم آخره (٢) » — فهذا الحديث بعد الحكم بصحة إسناده محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة فى إبلاغه إلى من بعدهم ، كذلك هو محتاج إلى القائمين به فى أواخرها ، وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها ، والفضل للمتقدم ، وكذلك الزرع الذى يحتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثانى ، ولكن العمدة الكبرى على الأول ، واحتياج الزرع إليه آكد ، فإنه لولاه مانبت فى الأرض ، ولا تعلق أساسه فيها ، ولهذا قال عليه السلام : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ولامن خالفهم إلى قيام الساعة » — وفى لفظ : « حتى يأتى أمر الله وهم كذلك (٣) » . والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم ، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة ، لشرف دينها وعظم نبيها ، ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه أخبر أن فى هذه الأمة سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ، وفى لفظ : « مع كل ألف سبعون ألفا » ، وفى آخر « مع كل واحد سبعون ألفا (٤) » .

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا هشام (٥) بن يزيد الطبرانى ، حدثنا محمد — هو ابن إسماعيل بن عياش — حدثنى أبى ، حدثنى ضمضم (٦) — يعنى ابن زرعة — عن شريح — هو ابن عبيد — عن أبى مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما والذى نفسى بيده ، ليبعثن منكم يوم القيامة مثل الليل الأسود زمرة جميعها يحيطون الأرض ، تقول الملائكة لما جاء مع محمد صلى الله عليه وسلم أكثر مما جاء مع الأنبياء عليهم السلام » .

وحسن أن يذكر هاهنا الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البيهقى فى « دلائل النبوة » حيث قال : أخبرنا أبو نصر ابن قتادة ، أخبرنا أبو عمرو بن مطر ، حدثنا جعفر بن محمد بن المستفاض الفريابى ، حدثنى أبو وهب الوليد بن عبد الملك

---

(١) البخارى ، فضائل أصحاب النبى ، ٥/٢ – ٣ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الفتن ، باب « ماجاء فى القرن الثالث » الحديث ٢٣٢٠ ، ٦/٤٦٩ – ٤٧١ . وابن ماجه ، كتاب الأحكام ، باب « كراهية الشهادة لمن لم يستشهد » الحديث ٢٣٦٢ ، ٢/٧٩١ . ومسند الإمام أحمد ، ١/٣٧٨ .

(٢) مسند الإمام أحمد ، ٤/٣١٩ .

(٣) البخارى ، كتاب الاعتصام ، باب قول النبى — صلى الله عليه وسلم — : « لا تزال طائفة من أمتى .... » ، ٩/١٢٤ – ١٢٥ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم » ، ١/٩٥ .

(٤) تقدم الحديث عند تفسير الآية العاشرة بعد المائة من سورة آل عمران ، وخرجناه هنالك . انظر ٢/٧٨ – ٨٢ .

(٥) فى المخطوطة « هاشم » . والمثبت عن الطبعات السابقة ، والمعجم الصغير : ٢/١٢٦ . وفى المعجم أيضاً « هاشم بن مزيد » ، وقد نبهنا على « مزيد » هذا كثيراً .

(٦) فى المخطوطة : « ابن ضمضم » . والصواب ما أثبتناه . انظر الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ، ٤/١/٤٦٨ .

ابن عبيد (١) الله بن مُسَرّح الحَرّانى ، حدثنا سليمان بن عطاء القُرَشى الحَرّانى ، عن مسلمة (٢) بن عبد الله الجُهَنى ، عن عمه أبى مَشْجَعَة بن ربعى ، عن ابن زِمْل الجُهَنى — رضى الله عنه — قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الصبح قاول هو ثان رجله : « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله إن الله كان توابا » — سبعين مرة — ثم يقول : « سبعين بسبعمائة ، لاخير لمن كانت ذنوبه فى يوم واحد أكثرَ من سبعمائة » . ثم يقول ذلك مرتين ، ثم يستقبل الناس بوجهه ، وكان يعجبه الرؤيا ، ثم يقول : « هل رأى أحد منكم شيئا ؟ » . قال ابن زمْل : فقلت : أنا يا رسول الله ، فقال : « خير تلقاه ، وشر توقاه ، وخير لنا ، وشر على أعدائنا ، والحمد لله رب العالمين ، اقصص رؤياك » . فقلت : رأيت جميعَ الناس على طريق رَحب سهل لاحب (٣) ، والناس على الجادّة (٤) منطلقين ، فبينما هم كذلك إذ أشفى (٥) ذلك الطريق على مَرْج لم تَرَ عينى مثله يَرفّ رفيفا ، يقطر ماؤه ، فيه من أنواع الكلأ ، قال : وكأنى بالرّعلة (٦) الأولى حين أشفَوا على المرج كَبّروا ، ثم أكبّوا (٧) رواحلَهم فى الطريق ، فلم يظلموه (٨) يمينا ولا شمالا ، قال : فكأنى أنظر إليهم منطلقين . ثم جاءت الرّعلة الثانية وهم أكثر منهم أضعافا ، فلما أشفوا على المرج كبروا ثم أكبوا رواحلهم فى الطريق فنهم المرتع (٩) ، ومنهم الآخذ الضغث (١٠) . ومضوا على ذلك. قال : ثم قدم عُظْمُ الناس (١١) فلما أشفو على المرج كبروا وقالوا : (هذا خير المنزل) . كأنى أنظر إليهم يميلون يميناً وشمالا ، فلما رأيت ذلك لزمت الطريقَ حتى آتى أقصى المرج ، فاذا أنا بك يا رسول الله على منبر فيه سبع درجات وأنت فى أعلاها درجة ، وإذا عن يمينك رجل آدم شَثْلُ (١٢) أقنى (١٣) ، إذا هو تكلّم يسمو فيفرَع (١٤) الرجال طولا ، وإذا عن يسارك رجل ربعة باذّ (١٥) كثير خيلان (١٦) الوجه ، كأنما حُمّم شَعره (١٧) بالماء ، إذا هو تكلم أصغيتم إكراما له . وإذا أمام ذلك

---

(١) فى المخطوطة : « عبد الله » . والمثبت عن الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٤/٢/١٠ . وانظر أسد الغابة : ٦/٣٣٩ .

(٢) فى المخطوطة : « مسلم » . والمثبت عن الجرح والتعديل : ٤/١/٢٦٩ ، وأسد الغابة : ٦/٣٣٩ .

(٣) أى : واسع لا ينقطع .

(٤) الجادة : وسط الطريق .

(٥) أى : أشرف .

(٦) الرعلة — بفتح الراء ، وسكون العين المهملة — : القطعة من الفرسان . وفى المخطوطة : « وكانوا بالرعلة » . والمثبت عن النهاية لابن الأثير ، مادة : رعل .

(٧) أى : الزموها الطريق . قال ابن الأثير فى النهاية ، مادة كبب : « قيل : والصواب كبوا ، أى : الزموها الطريق ، يقال : كببته فأكب . وأكب الرجل يكب على عمل عمله : إذا لزمه » .

(٨) أى : فلم يعدلوا عنه .

(٩) أى : الذى يخلى ركابه ترتع .

(١٠) الضغث — بكسر فسكون — ملء اليد من الحشيش المختلط وقيل : الحزمة منه وما أشبهه من البقول . أراد : ومنهم من نال من الدنيا شيئاً .

(١١) أى : معظمهم .

(١٢) أى : غليظ الأصابع خشنها ، يقال : « رجل شثل الأصابع وشثنها » .

(١٣) يقال : رجل أقنى وامرأة قنواء . والقنا : ارتفاع فى أعلى الأنف واحديداب فى وسطه .

(١٤) أى : يعلوهم .

(١٥) فى المخطوطة : « باز » ، بالزاى . ولعل الصواب ما أثبتناه ، يقال : بذ الهيئة وباذ الهيئة : أى رث الهيئة ، والمراد وصفه — عليه السلام — بالتواضع .

(١٦) الخيلان : جمع خال ، وهو الشامة فى الوجه .

(١٧) أى : سود بالماء ، لأن الشعر إذا شعث أغبر ، فاذا غسل بالماء ظهر سواده . ويروى : « جمم » ، بالجيم ، أى : جعل شعره جمة ، والجمة — بضم الجيم — من شعر الرأس : ما سقط على الكتفين .

رجل شيخ أشبه الناس بك خلقا ووجها ، كلكم تؤمّونه تريدونه ، وإذا أمام ذلك ناقة عجفاء شارف (١) ، وإذا أنت يا رسول الله كأنك تبعثها . قال : فامتقع لونُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم سرّي عنه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما ما رأيت من الطريق السهل الرحب اللاحب ، فذاك ما حُمِلتم عليه من الهدى وأنتم عليه ، وأما المرج الذى رأيت فالدنيا (٢) ، مضيت أنا وأصحابي لم نتعلق منها بشيء ، ولم تتعلق منا ، ولم نردها ولم تردنا ، ثم جاءت الرّعلة الثانية من بعدنا وهم أكثر منا أضعافا ، فنهم المرتع ومنهم الآخذ الضغث ، ونجوا على ذلك . ثم جاء عُظْمُ الناس فمالوا فى المَرْج يمينا وشمالا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وأما أنت فمضيت على طريقة صالحة فلن تزال عليها حتى تلقانى ، وأما المنبر الذى رأيت فيه سبعَ درجات وأنا فى أعلاها درجة ، فالدنيا سبعة آلاف سنة ، أنا فى آخرها ألفا ، وأما الرجل الذى رأيتَ على يمينى الآدَم الشَّثْل ، فذاك موسى عليه السلام ، إذا تكلم يعلو الرجال بفضل كلام الله إياه ، والذى رأيت عن يسارى البازّ (٣) الربعة الكثير خيلان الوجه كأنما حُمِّمَ شعره بالماء ، فذاك عيسى بن مريم ، نُكْرِمه لإكرام الله إياه . وأما الشيخ الذى رأيتَ أشبه الناس بى خلقا ووجها فذاك أبونا إبراهيم ، كلنا نَؤُمّه ونقتدى به ، وأما الناقة التى رأيت ورأيتنى أبعثها ، فهى الساعة ، علينا تقوم ، لانبي بعدى ولا أمة بعد أمتى» . قال : فما سأل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن رؤيا بعد هذا إلا أن يجيء الرجل ، فيحدثه بها متبرعا .

وقوله : (على سرر موضونة) — قال ابن عباس : أى مرمولة بالذهب ، يعنى : منسوجة به . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وزيد بن أسلم ، وقتادة ، والضحاك ، وغيره .

وقال السدى : مرمولة بالذهب واللؤلؤ . وقال عكرمة : مشبكة بالدر والياقوت . وقال ابن جرير : ومنه سمى وَضين الناقة الذى تحت بطنها ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، لأنه مضفور ، وكذلك السرر فى الجنة مضفورة بالذهب واللآلىء (٤) .

وقال : (متكئين عليها متقابلين) ، أى : وجوه بعضهم إلى بعض ، ليس أحد وراء أحد . (يطوف عليهم ولدان مخلدون) ، أى : مخلدون على صفة واحدة ، لا يكبرون عنها ولا يشيبون ولا يتغيرون ، (بأكواب وأباريق وكأس من معين) ، أما الأكواب فهى : الكيزان التى لا خراطيم لها ولا آذان ، والأباريق : التى جمعت الوصفين . والكئوس : المنابات (٥) ، والجميع من خمر من عين جارية مَعِين ، ليس من أوعية تنقطع وتفرغ ، بل من عيون سارحة .

وقوله : (لا يصدعون عنها ولا ينزفون) ، أى : لا تصدع رءوسهم ولا تنزف عقولهم ، بل هى ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة .

وروى الضحاك ، عن ابن عباس أنه قال : فى الخمر أربع خصال : السكر ، والصداع ، والقيء ، والبول . فذكر الله خمر الجنة ونزهها عن هذه الخصال .

---

(١) الشارف : الناقة المسنة .
(٢) فى الطبعات السابقة : « فالدنيا وغدارة عيشها ، مضيت »
(٣) تقدم تفسير هذه الكلمة .
(٤) انظر لفظ الطبرى فى : ٢٧/ ٩٩ .
(٥) كذا .

وقال مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وعطية ، وقتادة ، والسدى : (لا يصدعون عنها) ، يقول : ليس لهم فيها صداع رأس .

وقالوا فى قوله : (ولا ينزفون) ، أى : لا تذهب بعقولهم .

وقوله : (وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون) ، أى : ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار .

وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها ، ويدل على ذلك حديث « عكْراش بن ذُؤيب » الذى رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى — رحمه الله — فى مسنده : حدثنا العباس بن الوليد النَّرْسِىّ ، حدثنا العلاء بن الفضل ابن عبد الملك بن أبى سَوِيَّة ، حدثنا عُبَيد الله بن عكراش ، [عن أبيه عكراش] بن ذؤيب قال : بعثنى [بنو (١)] مرة فى صدقات أموالهم إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقدمت المدينة فاذا هو جالس بين المهاجرين والأنصار ، وقدمت عليه بابل كأنها عُروق الأرْطَى (٢) ، قال : من الرجل ؟ قلت : عكراش بن ذُؤيب . قال : « ارفع فى النسب » ، فانتسبت له إلى « مُرَّة بن عُبَيد » ، وهذه صدقة « مرة بن عبيد » . فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « هذه إبل قومى ، هذه صدقات قومى » ، ثم أمر بها أن تُوسَم بميسَم إبل الصدقة وتضم إليها . ثم أخذ بيدى فانطلقنا إلى منزل أم سلمة ، فقال : هل من طعام ؟ فأتينا بجفنة كثيرة الثريد والوَذْر (٣) ، فجعل يأكل منها ، فأقبلت أخبط بيدى فى جوانبها ، فقبض رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بيده اليسرى على يدى اليمنى ، فقال : يا عكْراش ، كل من موضع واحد ، فانه طعام واحد . ثم أتينا بطبق فيه تمر — أو رطب ، شك عبيد الله رطبا كان أو تمرا — فجعلت آكل من بين يدى ، وجالت يد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى الطبق ، وقال : يا عكراش ، كُلْ من حيث شئت ، فانه غير لون واحد . ثم أتينا بماء فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ومسح ببلل كفيه وَجْهَه وذراعيه ورأسه ثلاثا ، ثم قال : يا عكراش ، هذا الوضوء مما غيرت النار .

وهكذا رواه الترمذى مطولا وابن ماجه جميعا ، عن محمد بن بشار ، عن أبى الهُذَيْل العلاء بن الفضل ، به ، وقال الترمذى : « غريب لا نعرفه إلا من حديثه (٤) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بَهز بن أسد وعفان — وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا شيبان — قالوا : حدثنا سليمان ابن المغيرة ، حدثنا ثابت قال : قال أنس : كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — تعجبه الرؤيا ، فربما رأى الرجل الرؤيا فسأل عنه إذا لم يكن يعرفه ، فاذا أثنِىَ عليه معروف كان أعجب لرؤياه إليه ، فأتته امرأة فقالت : يا رسول الله ،

---

(١) ما بين القوسين عن الترمذى .

(٢) الأرطى : شجر ، عروقه حمر طوال ذاهبة فى ثرى الرمال الممطورة فى الشتاء ، تراها — إذا أثيرت — حمرا مكتنزة ترف يقطر منها الماء ، شبه بها الإبل فى اكتنازها وحمرة ألوانها .

(٣) الوذر — بفتح فسكون — : قطع من اللحم لا عظم فيها ، واحدتها وذرة .

(٤) تحفة الأحوذى ، أبواب الأطعمة ، باب « ماجاء فى التسمية على الطعام » ، الحديث ١٩١٩ : ٥/٥٩٢ — ٥٩٤ ، وابن ماجه ، كتاب الأطعمة ، باب « الأكل مما يليك » ، الحديث ٣٢٧٤ : ٢/١٠٨٩ — ١٠٩٠ . وانظر أسد الغابة ، الترجمة ٣٧٣٤ : ٤/٦٩ — ٧٠ ، بتحقيقنا .

رأيت كأنى أتيت فأخرجت من المدينة فأدخلت الجنة ، فسمعت وَجْبَةً انتحبت(١) لها الجنة ، فنظرت فإذا فلان ابن فلان، وفلان ابن فلان ، فسَمَّتْ اثنى عشر رجلا ، كان النبي — صلى الله عليه وسلم — قد بعث سرية قبل ذلك ، فجىء بهم عليهم ثياب طُلْس(٢) تشخب(٣) أوداجهم ، فقيل : اذهبوا بهم إلى نهر البيدخ — أو : البيذخ(٤) — قال : فغمسوا فيه، فخرجوا ووجوههم كالقمر ليلة البدر ، فأتوا بصحفة من ذهب فيها بسر فأكلوا من بُسْره ماشاءوا ، فما يقلبونها من وجه إلا أكلوا من الفاكهة ما أرادوا ، وأكلتُ معهم ، فجاء البشير من تلك السرية ، فقال : كان من [أمرنا (٥)] كذا وكذا ، وأصيب فلان وفلان . حتى عد اثنى عشر رجلا ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم المرأة فقال : قصى رؤياك . فقصتها ، وجعلت تقول : فجىء بفلان وفلان كما قال (٦) .

هذا لفظ أبى يعلى ، قال الحافظ الضياء : « وهذا على شرط مسلم » .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا معاذ بن المثنى ، حدثنا على بن المدينى ، حدثنا ريحان بن سعيد ، عن عباد ابن منصور ، عن أيوب ، عن أبى قلابة ، عن أبى أسماء ، عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل إذا نزع ثمرة فى الجنة ، عادت مكانها أخرى » .

وقوله : (ولحم طير مما يشتهون) ، قال الإمام أحمد :

حدثنا سيار بن حاتم ، حدثنا جعفر بن سليمان الضُّبَعى ، حدثنا ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن طير الجنة كأمثال البُخْت (٧) يرعى فى شجر الجنة » . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن هذه لطير ناعمة . فقال : « أكلتُها أنعم منها — قالها ثلاثا — وإنى لأرجو أن تكون ممن يأكل منها » . تفرّد به أحمد من هذا الوجه (٨) .

وروى الحافظ أبو عبد الله المقدسى فى كتابه « صفة الجنة » من حديث إسماعيل بن على الخُطَبى ، عن أحمد بن على الخَيُوطى ، عن عبد الجبار بن عاصم ، عن عبد الله بن زياد ، عن زرعة ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : ذكرت عند النبى — صلى الله عليه وسلم — طوبى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا بكر هل بلغك ما طوبى ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : « طوبى شجرة فى الجنة ، ما يعلم طولها إلا الله ، يسير الراكب تحت غصن من أغصانها سبعين خريفا ، ورقها الحُلَل ، يقع عليها الطير كأمثال البخت » . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن هناك لطيراً ناعما ؟ قال : « أنعم منه من يأكله ، وأنت منهم إن شاء الله » .

---

(١) كذا فى الطبعات السابقة . وفى المخطوطة : « وانتحت » . وفى مسند الإمام أحمد : « ارتجت » . والوجبة : السقطة .

(٢) أى : مغبرة .

(٣) أى : تسيل .

(٤) كذا فى الطبعات السابقة ، وقد ورد فى المخطوطة دون نقط . وفى المسند : « إلى نهر السدخ — أوقال : نهر البيدح » .

(٥) فى المخطوطة : « فقال : ماكان من رؤيا كذا وكذا ، فأصيب » والمثبت عن مسند الإمام أحمد .

(٦) فى مسند الإمام أحمد : ٣/١٣٥ .

(٧) البخت : نوع من الإبل .

(٨) مسند الإمام أحمد : ٣/٢٢١ .

وقال قتادة فى قوله : (ولحم طير مما يشتهون) : ذكر لنا أن أبا بكر قال : يا رسول الله ، إنى أرى طيرها ناعمة كما أهلها ناعمون ، قال : « من يأكلها - والله يا أبا بكر - أنعم منها ، وإنها لأمثال البُخْت ، وإنى لأحتسب على الله أن تأكل منها يا أبا بكر » .

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنى مجاهد بن موسى ، حدثنا معن بن عيسى ، حدثنى ابنُ أخى ابن شهاب ، عن أبيه ، عن أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئِل عن الكوثر فقال : « نهر أعطانيه ربى - عز وجل - فى الجنة ، أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ، فيه طيور أعناقها يعنى كأعناق الجُزُر(١) » . فقال عمر : إنها لناعمة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آكلها أنعم منها » .

وكذا رواه الترمذى عن عبد بن حميد ، عن القعنبى ، عن محمد بن عبد الله بن مسلم بن شهاب ، عن أبيه ، عن أنس وقال : حسن (٢) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطنافسى ، حدثنا أبو معاوية ، عن عبيد الله بن الوليد الوصافى ، عن عطية العوفى ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن فى الجنة لطيراً فيه سبعون ألف ريشة ، فيقع على صحفة الرجل من أهل الجنة فينتفض ، فيخرج من كل ريشة - يعنى لونا أبيض من اللبن ، وألين من الزبد ، وأعذب من الشهد ، ليس منها لون يشبه صاحبه ثم يطير » .

هذا حديث غريب جدا ، والوصافى وشيخه ضعيفان : ثم قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث ، حدثنى الليث ، حدثنا خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن أبى حازم ، عن عطاء ، عن كعب قال : إن طائر الجنة أمثال البُخْت [يأكل] مما خُلق من ثمرات الجنة ، ويشرب من أنهار الجنة ، فيصطففن له ، فاذا اشتهى منها شيئا أتاه حتى يقع بين يديه ، فيأكل من خارجه وداخله ، ثم يطير لم ينقص منه شىء .

صحيح إلى كعب .

وقال الحسن بن عرفة : حدثنا خلف بن خليفة ، عن حميد الأعرج ، عن عبد الله بن الحارث ، عن عبد الله ابن مسعود قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه ، فيخر بين يديك مشويا » .

وقوله : (وحورٌ عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون) : قرأ بعضهم بالرفع ، وتقديره : ولهم فيها حور عين ، وقراءة الجر تحتمل معنيين ، أحدهما : أن يكون الإعراب على الإتباع بما قبله ، لقوله : (يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين . لا يُصَدَّعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين (٣)

---

(١) الجزر - بضم الجيم والزاى - جمع جزور ، وهو البعير .

(٢) تحفة الأحوذى ، أبواب صفة الجنة ، باب « ماجاء فى صفة طير الجنة » ، الحديث ٢٦٦٥ ، ٧/٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٣) انظر تفسير الطبرى ، ٢٧/١٠١ .

كما قال : (وامسحوا برءوسكم وأرجلكم (١)) ، وكما قال : (عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق (٢)) ، والاحتمال الثانى : أن يكون مما يطوف به الولدان المخلدون عليهم الحور العين ، ولكن يكون ذلك فى القصور ، لا بين بعضهم بعضا ، بل فى الخيام يطوف عليهم الخدام بالحور العين ، والله أعلم .

وقوله : (كأمثال اللؤلؤ المكنون) ، أى : كأنهن اللؤلؤ الرطب فى بياضه وصفائه ، كما تقدم فى « سورة الصافات » (كأنهن بيض مكنون (٣)) . وقد تقدم فى « سورة الرحمن وصفهن أيضا ، ولهذا قال : (جزاء بما كانوا يعملون) ، أى : هذا الذى أتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل .

ثم قال : (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . إلا قيلا سلاما سلاما) ، أى : لا يسمعون فى الجنة كلاما لاغيا ، أى : غثا خاليا عن المعنى ، أو مشتملا على معنى حقير أو ضعيف ، كما قال : (لا تسمع فيها لاغية (٤)) ، أى : كلمة لاغية (ولا تأثيما) ، أى : ولا كلاما فيه قبح ، (إلا قيلا سلاما سلاما) ، أى : إلا التسليم منهم بعضهم على بعض ، كما قال : (تحيتهم فيها سلام (٥)) وكلامهم أيضا سالم من اللغو والإثم .

---

(١) سورة المائدة ، آية : ٦ .
(٢) سورة الإنسان ، آية : ٢١ .
(٣) سورة الصافات ، آية : ٤٩ .
(٤) سورة الغاشية ، آية : ١١ .
(٥) سورة ابراهيم ، آية : ٢٣ .

الفهارس

فهرس أعلام التفسير والفقه

فهرس غريب اللغة

فهرس القبائل والأمم والطوائف

فهرس الأماكن

فهرس الشعر

فهرس موضوعي

سورة الزمر

سورة الدخان

سورة الجاثية

سورة الاحقاف

سورة القمر

سورة الرحمن

صواب الخطأ

الخطأ	صوابه	السطر	الصفحة
كل نعم	كل نعيم	١٣	٢٢
وقتاة	وقتادة	٨	٢١٦
أخْرْج	أخْرَج	١٠	٢٦٦
لنار	النّار	١٣	٢٦٦
الهوْن	الهُون	١٤	٢٦٦
تفْسقُون	تَفْسقُونَ (٢٠)	١٥	٢٦٦
أوْدَيتهِم	أوْدِيتهِم	١٧	٢٦٨
المُجرمين	المجرمين (٢٥)	١٩	٢٦٨
الدير	الدّين	١٥	٢٩٢
قُتْرة	قَتَرة	٥	٣٢٨
عَيْبَة فى رسول	عَيْبَة رسول	١٣	٣٢٨
ضَمَرَة	ضَمْرة	٦	٣٧١

استدراك

فى ص ٤٠٦ ، السطر ١١ وقع هذا النص : « قرنا لها وترة » : وقلنا فى التعليق : « فى الأصل : ربا لها ربوة » بالياء ولعل الصواب ما ذكرناه ، ورتا : أى خطا وقفز » . ونثبت هنا أنه مازال فى نفسنا شىء من هذا التعليق ، وأننا نميل الآن إلى أن الصواب ما فى المخطوطة ، وهو « ربا لها ربوة » ، فى اللسان : « والربوة : النفس — بفتحتين — العالى » ، فلعل الحسن — رضى الله عنه — شهق شهقة عالية عند قراءة هذه الآية ، والله أعلم .

